مجلة علمية دورية محكمة تصدرها
جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية سابقا

العدد 23 ديسمبر2016

ISSN .1112-4776

الإيداع القانوني:650-2004

مجلة العلوم الاجتماعية جامعة سطيف2 السداسي: الثاني العدد:23 2016
REVUE DES SCIENCES SOCIALES Université Sétif2 2ème semestre N°23

Revue scientifique périodique indexée éditée par
L'Université Mohamed Lamine Debaghine Sétif2

REVUE DES SCIENCES SOCIALES

Anciennement Revue des Lettres et des Sciences Sociales

N°23 Décembre 2016

Dépôt légal :650-2004

ISSN .1112-4776

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية سابقا

هوية المجلة وأهدافها

مجلة العلوم الاجتماعية

مجلة علمية دورية محكِّمة ، ومنبر معرفي ومنهجي ، يُسهم في إثراء البحث العلمي والحوار المنهجي الموضوعي في حقول المعرفة الاجتماعية ؛ وتهدف إلى:

1- الارتقاء بالبحث العلمي إلى مستويات عالية من الجودة من خلال البناء المنهجي للفكر والممارسة البحثية.
2- تحقيق التكامل المعرفي بين حقول المعرفة الاجتماعية ومختلف المناهج البحثية.
3- وصل الحركة العلمية في العلوم الاجتماعية بالتنمية الاجتماعية وقضايا المجتمع الواقعية.
4- إثارة الجدل العلمي في القضايا المستحدثة في مجال العلوم الاجتماعية ، وتوجيهها نحو أفق العالمية.

مجلة العلوم الاجتماعية

- مجلة العلوم الآداب والعلوم الاجتماعية سابقا -

مجلة علمية دورية محكمة تصدر عن جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

مدير المجلة

أ.د. الخير قشي مدير الجامعة

رئيس التحرير

أ.د. يوسف عيبش

نائب مدير الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي

هيئة التحرير

أ.د. ميلود سفاري

أ.د. جازية لشهب صاش

أ.د صلاح الدين زرال

أ.د. نادية عيشور

أ.د. محمد عزوي

أ.د. عبد الملك بومنجل

د. محمد بن أعراب

د. عبد الرزاق بلعقروز

د. محمد الطاهر بلعيساوي

أمانة المجلة

مبروك صبايحي

بوراس وسيلة

مفيدة شريفي

اللجنة العلمية

أ.د. نواري سعودي	جامعة سطيف2
أ.د. مويسي بلعيد	جامعة سطيف2
أ.د. محمد الصغير شرفي	جامعة سطيف2
أ.د. لحسن بوعبدالله	جامعة سطيف2
أ.د. السعيد كسكاس	جامعة سطيف2
د. نورالدين بن الشيخ	جامعة سطيف2
د. نصرالدين غراف	جامعة سطيف2
د. التوفيق سامعي	جامعة سطيف2
د. محمد قجالي	جامعة سطيف2
د. سفيان زدادقة	جامعة سطيف2
د. فوزية رقاد	جامعة سطيف2
أ.د. مبروك غضبان	جامعة باتنة
أ.د. أمحند برقوق	جامعة الجزائر
أ.د. نصرالدين سمار	جامعة جيجل
أ.د. فضيل دليو	جامعة قسنطينة2
أ.د. بوبة مجاني	جامعة قسنطينة 2
أ.د. محمود بوسنة	جامعة الجزائر2
أ.د. الطيب بودربالة	جامعة باتنة
أ.د. عبد القادر شرشار	جامعة وهران
أ.د. بشير إبرير	جامعة عنابة
أ.د. كروم بومدين	جامعة تلمسان
أ.د. محمد بومدين	جامعة أدرار
أ.د.محمد أحسن	المدرسة العليا للاساتذة تونس
أ.د. عزالدين بن زغيبة	مركز جمعة الماجد دبي
أ.د. أرزقي مديني	فرنسا
أ.د. محمد الطراونة	الأردن
أ.د. أحمد بريسول	المغرب
أ.د. اسماعيل محمود القيام	الأردن
أ.د. عبد اللطيف محفوظ	المغرب
أ.د. هواري عدي	جامعة ليون2 فرنسا
أ.د. جوزيف م. كون قول	جامعة مانشيستر
أ.د. جليل أ. كاري	جامعة جونيف سويسرا

شروط النشر في المجلة

تنشر مجلة العلوم الاجتماعية ، الأبحاث والدراسات العلمية ، الفكرية والأدبية في تخصصات العلوم الإنسانية ، الاجتماعية ، الحقوق والعلوم السياسية مكتوبة باللغة العربية ، الانجليزية ، أو الفرنسية.

كما ترحب المجلة بالدراسات النقدية التي تتناول المنشورات الجديدة والتعريف بها في حدود 2000 كلمة.

- **يشترط في المقالات المقدمة للنشر ما يلي:**

1/أن يكون المقال أصيلا وجديدا ، لم يسبق نشره في نشريات أخرى مهما كانت ، ولم يسبق عرضه أو المشاركة به في ندوة أو ملتقى علمي. وألاّ يكون مستلا من رسالة أكاديمية (ماجستير أو دكتوراه).

2/الالتزام بآداب الحوار الهادف والنقد البناء بعيداً عن التجريح.

3/اعتماد منهجية موحدة في ترتيب عناصر البحث والالتزام باعتماد تقسيم من التقسيمات المعروفة (مبحث ، مطلب ، فرع ، أولا...)

4/ ألاّ يقل عدد صفحات المقال عن 12 صفحات ولا يزيد عن 25 صفحة ، بما فيها المصادر ، الهوامش ، الجداول والرسوم التوضيحية ، ويجب أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً.

5/أن يكون المقال مطبوعا على الكومبيوتر وفق برنامج "Microsoft Word" ، ومسجلا في قرص صلب.

6/هوامش الصفحة تكون كما يلي: يمين 03 سم ، يسار 1.5 سم ، رأس الورقة 1.5 سم ، أسفل الورقة 1.5 سم ، حجم الصفحة 21cmX 29.7 cm.

7/تكتب المادّة العلمية العربية بخطّ من نوع Traditional Arabic مقاسة 14 بمسافة 21 نقطة بين الأسطر ، العنوان الرئيسي **Gras** Traditional Arabic 14 ، العناوين الفرعية **Gras** Traditional Arabic 12 ، أمّا الفرنسية أو الإنجليزية فتقدّم بخطّ من نوع Times New Roman مقاسة 12.

8/ تتحفظ المجلة عن نشر مقالين متتاليين في العدد ذاته أو في عددين متتالين لمؤلف واحد

9/ يراعى عند كتابة المقال ما يلي:

- يجب أن يكون المقال خالياً من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية والمطبعية قدر الإمكان.

- الالتزام بقواعد ضبط الكتابة من خلال:

- احترام مسافة بداية الفقرات ، وتجنب الفقرات والجمل الطويلة جدا.

- عدم ترك مسافة (فراغ) قبل علامات الضبط المنفردة كالنقطة (.) والفاصلة (،) والنقطة الفاصلة (؛) والنقطتين (:) وعلامة التعجب (!) وعلامة الاستفهام(؟) وترك مسافة بعدها إذا أُتبعت بكلمة أو نص ، وعدم ترك مسافة بعد الواو (و) التي تليها كلمة.

- يُتَجَنَّب الاختزال ما لم يُشَرْ إلى ذلك.

- يُذكر مرة واحدة في البحث المصطلح العلمي وأسماء الأعلام باللغة العربية وبجانبه المصطلح باللغة الإنجليزية أو الفرنسية عند وروده أول مرة ، ويُكتفى بعد ذلك بكتابته باللغة العربية.

- يجب أن يراعى في الأعمال المتضمنة لنصوص شعرية أو آيات قرآنية كريمة ، أو أسماء أعلام ضبطها بالشّكل وتخريج والأحاديث والأبيات الشعرية.

10/أن توضع الهوامش والإحالات والمراجع والمصادر في آخر المقال ، وبطريقة الإدراج الآلي مع اتبّاع ترقيم تسلسلي حسب ظهورها في النص ، (مراجع المقال هي فقط المراجع والمصادر المقتبس منها فعلا). ويراعى في طريقة التهميش المنهج التالي:

***الكتب**: إسم ولقب المؤلف ، **عنوان الكتاب** ، الجزء ، الترجمة (إن وجدت) ، الطبعة ، دار النشر (الناشر) ، مكان النشر ، وسنة النشر ، رقم الصفحة. (في حالة **التأكد** من عدم وجود البيانات الجوهرية الإجبارية **فقط** (دار النشر ، بلد النشر ، سنة النشر) على المؤلف الإشارة إلى ذلك باستعمال مختصرات د.د.ن /د.ب.ن /د.س.ن) حسب الحالة.

* **المقالات:** إسم ولقب المؤلف ، "عنوان المقال" ، **عنوان المجلة** ، (الجهة التي تصدر عنها) ، العدد ، الصفحة.

* **البحوث المدرجة ضمن كتاب:** إسم ولقب المؤلف ، "عنوان المقال" ، ضمن كتاب: (**العنوان**)، المنسق العام (اسم من أشرف على تجميع مادته العلمية) ، الجزء ، الطبعة ، دار النشر (الناشر) ، مكان النشر ، وسنة النشر ، رقم الصفحة.

* **الأطروحات والرسائل الجامعية:** اسم الطالب ، عنوان الأطروحة أو المذكرة (تحته خط) ، بيان نوعها (دكتوراه ، ماجستير) ، تحديد الكلية والجامعة التي نوقشت فيها هذه الرسالة ، تحديد السنة ، بيان حالة النشر (رسالة منشورة ، أو غير منشورة) ، الصفحة.

* **النصوص القانونية:** بيان نوع النص (دستور ، قانون عضوي ،....) ، رقمه (15/01) ، المؤرخ في (ذكر اليوم والشهر والسنة) ، موضوع النص (المتضمن كذا:...) ، **الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية** ، العدد ، تاريخ نشرها.

* **الأحكام والقرارات القضائية:** لا بد من بيان الهيئة المصدرة (محكمة ، مجلس)، تحديد القسم أو الغرفة (رقمها ، تخصصها)، رقم الحكم أو القرار ، تاريخ صدوره (ذكر اليوم والشهر والسنة)، ذكر أطراف القضية أو الحرف الأول لألقابهم ثم الاسم ، (قضية بين..)، بيان حالة النشر (قرار أو حكم منشور أو غير منشور)، المصدر (مجلة ، نشرية ، صادرة عن)، العدد ، السنة ، الصفحة.

* **المنشورات الداخلية**: بيان الجهة المصدرة ، بيان رقم التعليمة أو المقرّر ، تحديد موضوعه.

* **التقارير:** الجهة المصدرة للتقرير ، موضوع التقرير ، مناسبة تقديمه ، التاريخ ، الصفحة.

***المراجع الالكترونية:** اسم المؤلف ، أو المنظمة "عنوان المقال" ، العنوان الإلكتروني كاملا ، (تاريخ التصفح: اليوم ، الشهر ، السنة).

* **المخطوطات:** اسم المؤلف كاملاً ، **عنوان المخطوط كاملاً** ، ويذكر اسم المكان المحفوظ فيه هذا الاقتباس ويشار إلى تاريخ النسخة ، وعدد أوراقها. ويذكر رقم الورقة مع بيان الوجه أو الظهر المأخوذ منه الاقتباس ، ويشار لوجه الورقة بالرمز (أ) كما يشار لظهرها بالرمز (ب).

* **الصحف:** إذا كان خبرا يكتب اسم الصحيفة ، والعدد ، والتاريخ ، ومكان الصدور. أما إذا كانت مقالة يكتب اسم الكاتب ، "وعنوان المقالة" **واسم الصحيفة** ، ثم تحديد نوعها (يومية ، أسبوعية ، شهرية)، (ومكان الصدور) والعدد ، والتاريخ ، والصفحة.

* عند تكرار ذكر نفس المرجع يكتب بعد رقم الإحالة عبارة: المرجع نفسه ، ثم الصفحة ، أما في حالة ما إذا كان التكرار غير مباشر (فصل تكرار المرجع بمرجع آخر أو عدة مراجع أو بصفحة جديدة) فينبغي بعد رقم الإحالة ذكر اسم ولقب الباحث ، كتابة عبارة: المرجع السابق ، ثم بيان رقم الصفحة.

* تكون الأشكال والخرائط والرسوم البيانية على درجة عالية من الجودة مع تجنب التظليل الثقيل ، وترقم الجداول والأشكال ترقيماً متسلسلاً مستقلاً، مع إعطاء عنوان قصير لكل منها تتم كتابته (أعلى) الشكل ، ويكون المصدر أسفله. (على الباحث إرسال الخرائط والصور في ملفات مستقلة عن النص ، أي ملف لكل خريطة أو صورة وهذا من نوع (jpeg)) لتسهيل عمل الهيئة التقنية للمجلة.

11/ ترسل أو تسلّم نسخة ورقية من المقال مرفقة بقرص مدمج (CD) فضلا عن ضرورة إرسالها في ملف عبر البريد الإلكتروني للمجلة المدون أدناه ، مع مراعاة ما يلي:

-على الباحث إخفاء شخصيته في الدراسة ، وتجنب وضع أي إشارة تكشف هويته من خلال الدراسة ، ولأجل ذلك تكتب المعلومات الشخصية (اسم المؤلف ، ورتبته العلمية ، والمؤسسة التي يعمل فيها) على صفحة منفصلة ، ثم يكتب عنوان البحث مرة أخرى على الصفحة الأولى من البحث دون ذكر الاسم.

- تقديم صورة رقمية حديثة خاصة.

- التزام الدقة عند إمضاء تعهد (عقد نشر) خطي من المؤلف أو المترجم على نموذج تعده هيئة تحرير المجلة.

- ترك نسخة من بيان السيرة الذاتية للمؤلف أو المترجم (وفي حالة تقديم المقال من طرف باحثين ، يجب إرسال الموافقة الصريحة لكل واحد منهما بقبول النشر المشترك).

- تقديم ما يثبت موافقة الأستاذ المشرف على البحث ، بالنسبة للبحوث المقدمة من طلبة الدكتوراه (L.M.D).

- تقديم نسخة من الكتاب الأصلي إذا تعلق الأمر بعرض لكتاب.

12/ أن يرفق المقال وجوبا بملخص مُعَبِّر عن محتوى المقال بصورة شاملة وصادقة (في حدود 150 كلمة) باللغات الثلاث عربي ، فرنسي وانجليزي ، متبوعا بالكلمات المفتاحية ذات الدلالة على محتوى المقال(Key words) والتي لا تتعدى 7 كلمات تُرتَّب حسب ورودها في المقال ، وينبغي أن تشملها الترجمة باللغات الثلاث.

تنبيهات هامة:

* في حالة وجود أكثر من مؤلف يتم مراسلة الاسم الذي يرد أولا في ترتيب الأسماء في حالة تساوي الدرجات العلمية ، والأعلى درجة في حالة اختلاف الدرجات العلمية.

* يحول المقال إلى لجنة التحكيم السرية المختصة لتحكيمه علميا بعد التأكد من ملاءمته لقواعد النشر ، وعلى صاحب المقال إجراء التصحيحات المطلوبة منه خلال مدة زمنية تحددها هيئة التحرير.

* كل مقال يخالف شروط النشر لا يؤخذ بعين الاعتبار ، والمجلة غير معنية بإعلام صاحب المقال بذلك.كما لا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.

* يحق للمجلة (إذا رأت ضرورة لذلك) إجراء بعض التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر دون المساس بمضمونها ، كما تحتفظ المجلة بحقها في حذف أو إعادة صياغة بعض العبارات التي لا تتناسب مع أسلوب النشر.

* ترتب البحوث في كل عدد ، واختيار حيّزها الزماني يتم وفق اعتبارات فنية تقدّرها اللجنة العلمية ولا علاقة لها باسم الباحث أو رتبته العلمية أو قيمة العمل.

*الأبحاث المنشورة في المجلة لا يعاد نشرها في جهة أخرى إلا بإذن مكتوب من مدير تحريرها ، ولا تلتزم المجلة برد المقالات غير المقبولة للنشر إلى أصحابها.

* يتحمل كاتب المقال جميع التبعات الناتجة عن خرق حقوق الملكية الفكرية المترتبة للغير.

-لا تدفع مكافآت عن البحوث التي تقبل للنشر بالمجلة ، غير أن الباحث يستفيد من نسختين من العدد الذي نُشِر فيه مقاله.

- تنشر موضوعات المجلة في موقع الجامعة الالكتروني بعد صدورها.

*** الدراسات التي تنشرها المجلة تُعَبِّر عن آراء أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة.**

المراسلة والاشتراك: ترسل جميع المراسلات إلى السيد

رئيس التحرير: مجلة العلوم الاجتماعية-جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

الهاتف: 036661181

البريد الالكتروني:

revue@univ-setif2.dz

revue.setif2@gmail.com

الموقع الإلكتروني للمجلة: http://revues.univ-setif2.dz

الفهرس

المؤلف	عنوان المقال	صفحة
	كلمة العدد	8
صونيا بيزات	إشكالية تحقيق التنمية المستدامة في ظل متطلبات البيئة-الجانب القانوني -	11
محمد الصادق بلام	الحداثة السياسية: من التأسيس للعنف إلى تفكيك مفارقاته	29
حسين تروش	القارئ في المناهج النقدية المعاصرة	41
عبد الله بن صفية	السوسيولوجيا والمقاربة النقدية للنص الأدبي	53
بلعيفة عبد العالي	الآليات القانونية لتحقيق المساواة في التوظيف في المؤسسة العمومية الجزائرية_ مقاربة نقدية سوسيوقانونية _	66
أسماء قرشوش	معايير المعالجة الصحفية "للثورات العربية" في الصحافة المكتوبة الجزائرية(دراسة تحليلية)	85
أحمد بوعون	وسائل الإعلام كحلقة قوية في الاتصال السياسي – دراسة وصفية نقدية –	104
مريم روابحية سميرة سطوطاح	متطلبات تطوير الإبداع في المؤسسة الجزائرية (دراسة ميدانية)	116
فضيلة عظيمي	أثر السياق في توجيه متشابه القرآن عند الإمام الكرماني	129
محمد بن سباع	"النقد الثقافي" عند عبد الله الغَذَّامي "من نقد النصوص إلى نقد الأنساق"	143
قدور ظريف	مكانة السؤال البرلماني في النظام الدستوري الجزائري باعتباره آلية رقابية على أعمال الحكومة	158
رحموني بومنقاش	مصطلح الشعرية بين أرسطو طاليس وحازم القرطاجني	176
اليزيد بوعروري	النزعة الفردية وتجلياتها في الأدب عند نبهاني كريبع	184
مهري شفيقة	الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك ودوره في تحقيق التنمية المستدامة	199
أسماء غجاتي	أنساق الحـوار في ثلاثية عبد القادر علولة	218
نور الدين مبني	الإشهار: مفهومه الإداري والوظيفي لدى المؤسسة الاقتصادية الجزائرية. دراسة ميدانية على عينة من المؤسسات الاقتصادية	231
مصرع إسمهان	آلية التّقابل المصطلحي ودورها في تيسير التّرس الصّوتي عند تمّام حسّان	251
خالد زيغمي	نحو أفق دراسة نسقيّة للظاهرة الأدبيّة وتاريخ الأدب	269
بلوصيف كمال	أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية	283

كلمة العدد

.

رئيس التحرير

إشكالية تحقيق التنمية المستدامة في ظل متطلبات البيئة-الجانب القانوني-

صونيا بيزات*

الملخص

إن التوفيق بين أهداف التنمية وضرورات حماية البيئة يُخرج التنمية عن مضمونها التقليدي إلى مفهوم التنمية المستدامة التي أصبحت البيئة أحد أبعادها ، ويكشف عن تأثير متبادل بين البيئة والتنمية المستدامة ، ومعوقات تنموية تؤثر على البيئة ومشاكل بيئية تعيق التنمية.

ويتطلب تحقيق التوازن بين متطلبات النمو الاقتصادي و الاستغلال العقلاني للبيئة - من أجل الحفاظ على حقوق الاجيال المستقبلية - آليات ووسائل قانونية ومباديء توجيهية (الحيطة ، الوقاية و مبدأ الملوث الدافع) وخطط تنفيذية واستراتيجيات لتحقيق المشاريع التنموية وإدارة جيدة للنظم البيئية ،إلا أن ذلك ليس بالسهل أمام مصالح الدول المتضاربة .

الكلمات المفاتيح: التنمية المستدامة ، الحيطة ، الوقاية ، الملوث الدافع ، المشاركة ، إدارة البيئة.

Résumé

Concilier la nécessité de protéger l'environnement et les objectifs de développement retire ce dernier de son contenu traditionnel au concept du développement durable, que l'environnement est devenu l'une de ses dimensions, et révèle un effet réciproque entre eux, des contraintes de développement affectant l'environnement et des problèmes environnementaux entravent le développement.

Parvenir à un équilibre entre les exigences de la croissance économique et de l'exploitation rationnelle de l'environnement, afin de préserver les droits des générations futures exige des mécanismes juridiques et des principes directeurs) précaution et la prévention et le principe de pollueur payeur) et des plans opérationnels et stratégies pour atteindre les projets de développement et la bonne gestion des écosystèmes, devant les intérêts divergents des États.

Mots Clés : Développement Durable, Précaution, Prévention, Pollueur Payeur, Participation, Administration de l'Environnement .

Summary

Reconcile the need to protect the environment and development objectives withdraw it from its traditional content to the concept of sustainable development, the environment has become one of its dimensions, and reveals the mutual influence between the environment and sustainable development, barriers of development affecting the environment and the environmental problems that hinder development.

Achieving a balance between the demands of economic growth and the sustainable use of the environment, in order to preserve future generations rights requires mechanisms, legal means and guidelines (precautionary and prevention and the polluter pays principle), and operational plans and strategies to achieve development projects and good management of ecosystems, in face to the divergent interests of States.

Keywords: Sustainable Development, Precaution, Prevention, polluter pays, Participation, Administration of Environment.

* أستاذ مساعد أ، كلية الحقوق و العلوم السياسية ، جامعة محمد لمين دباغين –سطيف2-

مقدمة

من الواضح أنه لا يمكن إيجاد مجتمع عادل بيئيا واجتماعيا عندما تكون الحياة الاجتماعية فيه واقعة تحت هيمنة وتأثير التنافس والربح والنمو الاقتصادي والاحتكارات ومعايير الرفاهية المتنامية ، كما أن النزعة الاستهلاكية غير المقيدة تؤدي إلى استغلال غير مقيد ، فالاستخدام الجائر للمصادر الطبيعية واستنزافها ، والفقر والزيادة السكانية الرهيبة كلها عوامل أدت إلى دق ناقوس الخطر وضرورة دراسة هذه الإمكانيات ومدى تلبيتها للحاجيات المتزايدة في المستقبل ، حيث بات العالم مهددا بنفاذ هذه المصادر.

وإذا كانت الدول النامية تعطي الأولوية القصوى لتنميتها الاقتصادية و تسعى إلى الحصول على معاملة تفضيلية من قبل الدول المتقدمة اقتصاديا وتهمل الجانب البيئي الذي قد يعرقل - في اعتقادها - تنميتها ، إضافة إلى أنها غير مسؤولة إلى حد بعيد عن تدهور البيئة ، فإن الدول المتقدمة أصبحت تولي اهتماما كبيرا للبيئة ومستقبلها أصبح مهددا ، علما بأن أنشطتها الصناعية هي أهم مصدر للتلوث.

ومن ثم ، فإن معالجة هذه المسألة تتطلب تفكيرا جديدا يعترف بالعلاقة المتداخلة بين الإنسان والبيئة في ظل التنمية المستدامة التي توازن بين التغير التقدمي والمحافظة على البيئة وتحقيق العدالة الاجتماعية ،أي التوفيق بين أهداف التنمية وضرورات حماية البيئة.

وقد كان لفكرة التنمية المستدامة خلال العشر سنوات الماضية أهمية كبيرة ، فالاصطلاح قد تم استعماله في نصوص كثيرة ، ويأخذ اليوم جزء كبيرا من أعمال منظمة الأمم المتحدة التي بدأت بمناقشة مصير الأرض وكيفية المحافظة على مواردها بما يقضي على الفقر الحالي ويخدم في آن واحد الأجيال الحالية والمستقبلية أيضا.

ويمكن القول بأن الاهتمام المتنامي بتلك التحديات لنموذج الحداثة التنموي قد أدى إلى قبول واسع النطاق لمفهوم جديد — التنمية المستدامة — يؤكد على حماية البيئة وتحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية ، مما حدا بالكثيرين إلى اعتباره بمثابة نموذج جديد للتنمية ،ولذلك تتمحور الإشكالية الرئيسية في هذه الدراسة حول ضرورة البحث عن **كيفية تحقيق التنمية المستدامة أمام ضرورة الحفاظ على البيئة ،** والتي تتفرع عنها عدة تساؤلات : ما مدى التأثير المتبادل بين التنمية المستدامة والبيئة ؟ وما هي الآليات القانونية والوسائل الممكنة لتحقيق التوازن بين متطلبات النمو الاقتصادي من جهة ، والاستغلال العقلاني للثروات البيئية والحفاظ على الأجيال المستقبلية من جهة ثانية ؟ وكيف يترجم مفهوم التنمية المستدامة إلى خطط تنفيذية والإعداد للمشاريع التنموية التي تعتمدها الدول ؟

وسنحاول أولا الربط بين مفهومي التنمية المستدامة والبيئة ،ثم بعدها البحث عن خلق توازن بينهما في منهج وصفي تحليلي.

أولا: الربط بين التنمية المستدامة والبيئة

تتباين التعاريف حول التفسيرات المتعلقة بتنفيذ التنمية المستدامة مابين تلك التي تتبنى التركيز الضيق على الاقتصاد أو الانتاج الى تلك التي تدعو الى استيعاب واسع للثقافة و البيئة ،بل واعتبار هذه الأخيرة أحد أبعادها ، فينشأ تأثير متبادل بين المفهومين:البيئة و التنمية المستدامة.

1- البيئة أحد أبعاد التنمية المستدامة

تركز فلسفة التنمية المستدامة على حقيقة مفادها أن الإهتمام بالبيئة هو أساس التنمية الاقتصادية ، حيث أن الموارد الطبيعية الموجودة من تربة ومعادن وغابات وزراعات وبحار وأنهار.. هي أساس نشاط تنموي زراعي أو صناعي. ولتحقيق النمو الاقتصادي والاجتماعي يجب المحافظة على منظومة الموارد البيئية ، أي ضرورة التوفيق بين متطلبات حماية البيئة ومتطلبات التنمية الاقتصادية بتحقيق التنمية دون المساس بالموارد الطبيعية عن طريق مراعاة البعد البيئي عند إعداد السياسات الاقتصادية التنموية.[1]

وقد أشار مؤتمر استوكهولم 1972 إلى هذه العلاقة بين البيئة والتنمية الاقتصادية والاجتماعية(المبدأ 5 و 8)[2] ، وأكد المبدأ الرابع من إعلان ريو (1992) على ضرورة اعتبار حماية البيئة جزء من التنمية المستدامة وعدم النظر إليها بصفة مستقلة منفردة[3].

وجاء في تقرير اللجنة العالمية للتنمية والبيئة (1987) بعنوان "مستقبلنا المشترك" التأكيد على أهمية تحقيق التوازن بين قدرة التنمية على تلبية الحاجات المشروعة في الحاضر دون

الإخلال بقدرة النظم البيئية على تلبية حاجات الأجيال المستقبلية[4].

ومع أن مفهوم التنمية المستدامة كان يمثل المحور الأساسي للنقاش في قمة الأرض الثانية حول التنمية المستدامة المنعقدة في جوهانسبرغ (2002) وحضرها ممثلي أكثر من 160 دولة بهدف إزالة التناقضات بين التنمية الاقتصادية وحماية البيئة إلا أن النتائج جاءت مخيبة للآمال ،حيث أكد البعض استحالة تجنب حدوث المزيد من التدهور في البيئة والاستغلال المفرط للموارد الطبيعية.

وقد أنشئت لجنة التنمية المستدامة للأمم المتحدة بهدف تطبيق جهود منظمة الأمم المتحدة في مجال إدماج حماية البيئة في سياسات الدول المتعلقة بالتنمية الاقتصادية بعد مؤتمر ريو ، وتقوم بالمتابعة عن طريق رصد وتقديم التقارير عن تنفيذ الاتفاقيات على المستويات المحلية والإقليمية والدولية.[5]

ويبدو أن التنمية المستدامة هي التي تصيغ اليوم الجزء الأكبر من السياسة البيئية المعاصرة ، وقد كان للعمومية التي اتصف بها المفهوم دورا في جعله شعارا شائعا وبراقا مما جعل كل الحكومات تقريبا تتبنى التنمية المستدامة كأجندة سياسية حتى ولو عكست تلك الأجندات التزامات سياسية مختلفة جدا اتجاه الاستدامة ، حيث تم استخدام المبدأ لدعم وجهات نظر متناقضة كليا حيال قضايا بيئية كالتغير المناخي والتدهور البيئي اعتمادا على زاوية التفسير ، فالاستدامة يمكن أن تعني أشياء مختلفة ، بل متناقضة أحيانا ، للاقتصاديين وأنصار البيئة والمحامين والفلاسفة[6].

ورغم اختلاف التعاريف حول التنمية المستدامة[7] بين التعاريف الاقتصادية والاجتماعية والقانونية والسياسية والبيئية ، إلا أنها كلها تصب في معنى واحد وهو تلبية احتياجات الحاضر دون المساس بقدرة المستقبل والأجيال القادمة من تلبية احتياجاتهم ، فهي تعني أساسا تحسين نوعية الحياة للبشر دون استنزاف المصادر الطبيعية ، وبالتالي لابد من التفكير بطرق مبتكرة للاستغلال العقلاني لهذه المصادر ، أي تغيير في السياسات والأساليب المتبعة لممارسات الأفراد والمجتمع المدني بمراعاة مسألة حماية البيئة عند اتخاذ جميع القرارات وعند إعداد الاستراتيجيات العامة والخاصة ، وأن تحترم العدالة في التمتع بالحقوق والواجبات ليس فقط بين مختلف أجيال الحاضر بعضهم البعض ، بل بينهم وبين أجيال المستقبل.

إذن لا يوجد تعريف متفق عليه و موحد في المجتمع الدولي ، ويجب التعامل مع هذا المبدأ كما قال Dupuy كإطار عام تستوحى منه أحكام قانون البيئة[8].

وقد ورد النص على مبدأ التنمية المستدامة في الكثير من الاتفاقيات المتعلقة بالبيئة كالاتفاقية الإطارية للأمم المتحدة حول التغيرات المناخية لعام [9] ،1992 واتفاقية الأمم المتحدة المتعلقة بمكافحة التصحر(1994)[10] واتفاقية التنوع البيولوجي(1992)[11]

ومن أوسع تلك التعاريف انتشارا ما ورد في تقرير بروندتلاند الذي تبناه إعلان ريو والذي عرف التنمية المستدامة بأنها "التنمية التي تلبي احتياجات الجيل الحاضر دون التضحية أو الإضرار بقدرة الأجيال القادمة على تلبية احتياجاتها" ، وهو تعريف اتصف بأنه شديد الغموض.[12]

وتتضمن التنمية المستدامة عدة أبعاد تتداخل فيما بينها: اقتصادية ، بيئية ،اجتماعية و ثقافية ، وبالرغم من إمكانية تعريف التنمية المستدامة وفقا لكل مجال من تلك المجالات منفردا ، إلا أن أهمية المفهوم تكمن أساسا في العلاقات المتداخلة بين تلك المجالات.

فالتنمية الاقتصادية المستدامة تهدف إلى تطوير البنى الاقتصادية والإدارة الكفؤة للموارد الطبيعية والاجتماعية والمساواة في توزيع الموارد. وتهدف التنمية الاجتماعية المستدامة إلى ضمان تحقيق العدالة وتحسين ظروف المعيشة والصحة وتثبيت النمو الديمغرافي للمحافظة على الموارد الطبيعية من الضغط[13].

أما التنمية البيئية المستدامة فتهدف الى المحافظة على الموارد الطبيعية وحماية الأنواع الطبيعية والذي يكون رهين بمكافحة مظاهر التدهور البيئي بمحاربة التلوث والتصحر.

وتدعو التنمية المستدامة في البعد البيئي إلى:

- تسخير السياسات البيئية الفنية في استبدال عناصر الانتاج (رأس مال ، يد عاملة ، موارد طبيعية ومرافق بيئية) والحد من ندرتها ، فاستخدام التكنولوجيا الحديثة يساعد في المحافظة على الماء والطاقة المستخدمة في المجالات الزراعية والصناعية.

- إدخال مفهوم الاقتصاد الأخضر والتنمية الخضراء في ثقافة المنتج والمستهلك لتصبح المعايير البيئية من أهم الشروط التي يجب توافرها في السلعة حتى تدخل إلى الأسواق.

- إشراك المؤسسات البيئية في اتخاذ القرارات الاقتصادية للتقليل من مشاكل البيئة وزيادة استدامة النمو الاقتصادي[14].

- خلق تخصصات في مجال الاقتصاد البيئي.

-الإسراع إلى الأخذ بالتكنولوجيا المحسنة ، وكذلك النصوص القانونية الخاصة بفرض العقوبات في هذا المجال. ولأجل تحقيق هذا الهدف لابد من تعاون تكنولوجي بناء يوضح التفاعل بين الأبعاد الاقتصادية والبشرية والبيئية والتكنولوجية ، ومن شأن التعاون التكنولوجي سد الفجوة بين البلدان الصناعية والنامية ، وأن يزيد من الإنتاجية الاقتصادية ويقلل من استنزاف الموارد الاقتصادية وتلوث الهواء والماء...[15]

أما على مستوى القضاء الدولي فبصدور حكمها عام 1997 عرفت محكمة العدل الدولية نهائيا وجود القانون الدولي للبيئة وبعض مبادئه ، فقد قررت في قضية مشروع Gabcikovo-Nagymaros بين المجروسلوفاكيا أن هذا المبدأ يحدث توازنا هاما وضروريا بين اعتبارات التنمية الاقتصادية واعتبارات حماية البيئة ، ويعد من القواعد الجديدة للقانون الدولي للبيئة التي يجب على الدول أن تأخذها في الاعتبار ليس فقط بمناسبة الترخيص بإقامة أنشطة جديدة وإنما أيضا عند متابعة أنشطة أنشئت في الماضي[16].

بتبني هذا المبدأ الفكري(conceptuel) تكون المحكمة قد أدخلت ترقية في نظامها القضائي بالأخذ بضرورات تنمية سلوفاكيا - في الاحتياطي الكهربائي خاصة- والاهتمامات الايكولوجية للمجر ، ومبدأ حقوق الأجيال القادمة. وقد كانت المجر أكثر تحفظا حول مبدأ التنمية المستدامة الذي أدمج جانب التنمية في قانون البيئة وشدد أيضا على جانب البيئة ، بالمقابل هذا المبدأ المستلم لحاجيات التنمية الاقتصادية اعتبر من قبل سلوفاكيا كمتأصل في اتفاقية 1977 التي كانت بينهما[17] ،رغم أن هذا المبدأ العام جدا ليس له نظام قانوني مستقل يدعو للارتباط بقواعد أخرى ذات طبيعة شارعة مثل مبدأ الإدارة العادلة والرشيدة لمصادر المياه التي تفسر جيدا تقنية التوازن بين مصالح الدول النهرية ، بينما كانت الفرصة قائمة- كما أشار إليه القاضي weeramantry - أمام المحكمة من أجل فحص مبادئ هامة في قانون البيئة في قضية التجارب النووية الثانية عام 1995(نيوزيلاندا ضد فرنسا) مثل مبدأ التداول عبر الأجيال المتعلق بحقوق الأجيال المستقبلية ، ولكنها للأسف لم تنتهز الفرصة ، حيث رفضت طلب فحص الحالة وفقا للفقرة 63 من حكم المحكمة الصادر في قضية التجارب النووية الأولى (نيوزيلاندا ضد فرنسا) الذي قدمته نيوزيلاندا عام 1995).[18]

2- التأثير المتبادل بين البيئة والتنمية المستدامة

يمكن لمشاكل البيئة التأثير على التنمية المستدامة كما يمكن لمعوقات التنمية وتحدياتها التأثير على البيئة.

أ/ معوقات التنمية ،تحدياتها وأثرها على البيئة

إن شيوع فكرة التنمية المستدامة في مجال التنمية السياسية هو محاولة لتجاوز تبني نموذج الحداثة في نظرية التنمية والبحث عن نموذج جديد يعمل على ضرورة التوفيق بين متطلبات التنمية والحفاظ على البيئة لوقف الاستغلال المفرط والتدمير المصاحب للتنمية .وتهدف الاستدامة البيئية في مجال الغذاء إلى ضمان الاستخدام المستدام والحفاظ على الأراضي والغابات والمياه والحياة البرية والأسماك وموارد المياه ،وفي مجال الخدمات إلى ضمان الحياة الكافية للموارد البيولوجية والأنظمة الايكولوجية. وفي مجال الدخل تهدف الاستدامة البيئية إلى ضمان الاستعمال المستدام للموارد الطبيعية الضرورية للنمو الاقتصادي في القطاعين العام والخاص[19].

ويعتبر الفقر- الذي هو من أهم معوقات التنمية المستدامة- أحد مسببات التدهور البيئي لأن احتياجات الفقراء الملحة تؤدي إلى ممارسات وسلوكيات مدمرة للبيئة كتلويث المياه والصيد والرعي ، ومن جهة ثانية فإن تدهور نوعية البيئة يعرض ظاهرة المواد التي يبنون عليها اقتصادهم للتدهور. وهناك علاقة مباشرة بين الفقر وظاهرة التصحر التي تهدد نوعية التربة والأراضي في ثلث مساحة اليابسة في العالم وخاصة في إفريقيا ، حيث أن انتشار النشاطات الزراعية في الأراضي الهامشية في معظم الدول النامية لمواجهة متطلبات الأمن الغذائي يحولها إلى أراضي غير منتجة[20].

كما أن الديون تعتبر هي الأخرى من عراقيل التنمية المستدامة للبيئة ، حيث أن تطبيقات مقررات قمة ريو يلزمها إنفاق 125 مليار دولار سنويا لتنفيذ بنود أجندة القرن 21. وقد توقع عدد من علماء وخبراء البيئة أن تصل نفقات معالجة الأخطار التي تهدد البيئة إلى حوالي 625 مليار دولار أمريكي ، وهذه النفقات هي نسف لكل مبادئ نظام الاقتصاد العالمي في الوقت الذي تشهد فيه أمريكا وأوروبا وكندا حالا من الركود[21].

كما أن التضخم السكاني يؤدي إلى زيادة الطلب على الموارد وسرعة تقلصها لاسيما الأراضي الزراعية ، الثروة المائية ، الوقود الذي يؤدي إلى انخفاض معدل الإنتاج للفرد الواحد وبالتالي زيادة حدة الفقر[22] ، وتدهور قاعدة الموارد الطبيعية واستمرار استنزافها لدعم أنماط الإنتاج والاستهلاك وإعاقة التنمية المستدامة في الدول النامية خاصة.

وتلعب الحروب هي الأخرى دورا في زيادة المأساة البيئية ، حيث أن انطلاق كميات كبيرة من الدخان الممتص للضوء في الغلاف الجوي من جراء الحرائق التي تخلفها التفجيرات النووية يؤدي إلى ارتفاع درجات حرارة الجو والتأثير على المناخ ، إضافة إلى عدم توفر التقنيات الحديثة لتنفيذ برامج التنمية المستدامة وخططها ، وعدم توفر الخبرات الفنية اللازمة للإبقاء على الالتزامات حيال قضايا البيئة العالمية ، والمشاركة الإلزامية للمجتمع الدولي لوضع حلول لهذه القضايا بسبب ضعف إمكانيات المؤسسات التعليمية والبحثية وتأخرها في مواكبة مسيرة التقدم العلمي والتقني في العالم ، بالخصوص في الوطن العربي ، وربما أيضا بسبب حداثة تجربة المجتمع المدني وعدم مشاركته الفعالة في وضع وتنفيذ استراتيجيات وبرامج التنمية المستدامة وعدم مواءمة بعض التقنيات والتجارب المستوردة من الدول المتقدمة مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والبيئية في الدول النامية ونقص الموارد المالية[23].

ب/ تأثير مشاكل البيئة على التنمية المستدامة

شهدت السنوات الأخيرة تدهورا مخيفا للبيئة الطبيعية بات يهدد مسيرة التنمية الاقتصادية واستمرارية الحياة ، فالبيئة وما تشمله من موارد طبيعية ومنافع اقتصادية تبقى هي المؤثر الأساسي في التنمية باعتبارها المحيط الحيوي الذي يتأثر به الإنسان ، سواء كان المحيط اجتماعيا أو اقتصاديا أو تكنولوجيا أو سياسيا ،... فكلها اعتبارات تدخل في تنظيم البيئة وتوجيه التنمية المستدامة.[24]

ويعد تغير المناخ أهم مشكلة بيئية عالمية طويلة الأجل لها تداعيات بيئية واقتصادية وسياسية واجتماعية تؤدي إلى انعكاسات سلبية وعرقلة مسيرة التنمية المستدامة لذلك يبحث لها عن حلول عالمية عاجلة[25] ، حيث كان من بين أهداف اتفاقية التغيرات المناخية تحقيق التنمية المستدامة . وقد كانت محاولات إيجاد توازن صحيح بين انشغالات الإدماج البيئي و الفعالية الاقتصادية والتضامن الاجتماعي والعدالة بين الأجيال الحاضرة والمستقبلية الوطنية في المراحل المتتابعة لمفاوضات كيوتو غالبا تصطدم بالأنانيات الوطنية الممثلة لاستراتيجيات مساومة قليلة التوافق مع هدف التنمية المستدامة.[26]

ووضح تقرير التنمية في العالم الذي أصدره البنك الدولي عام 2010 العلاقة بين التغير المناخي ومدى ارتباطه بالسياسات التنموية بالخصوص في الدول النامية ومحاولة رسم استراتيجيات تعالم تغير المناخ وتحقق التنمية في آن واحد ، حيث لا يمكن استمرار برنامج تنمية اجتماعية - اقتصادية بينما تتجاهل تأثيرات تغير المناخ[27].

ويؤدي التغير المناخي الى تدمير المحاصيل الزراعية والأعشاب البحرية و الثروة السمكية وإفساد دورة المياه في الطبيعة وذوبان الجبال الجليدية وارتفاع مستويات البحار والفيضانات والتصحر مما يترتب عليها من أضرار بالاراضي الزراعية والانواع الحيوانية والنباتية و انتشار الأمراض ، وتدمير التنوع البيولوجي واستنزاف الموارد الطبيعية وزيادة الكوارث الطبيعية كالزلازل والبراكين وبالتالي الإخلال بالتوازن البيئي.[28]

وسيترتب على ذلك تأثر الصناعة وتداعيات مهمة على التخطيط للاستثمارات في البنى التحتية للصناعة ، وزيادة التأثير على قطاع الطاقة وزيادة الطلب وغرق محطات التوليد ، وتعرض شبكات نقل الطاقة وخطوط الغاز الطبيعي للتلف في المناطق المتضررة. وسيؤثر ارتفاع أسعار الطاقة اقتصاديا على قطاع البناء وتوقف المشاريع وضياع فرص العمل فيها ، الذي سيؤدي إلى انعكاسات اجتماعية بسبب

الهجرة المتمركز في المناطق غير المتأثرة بالتغيرات ، الذي يؤدي إلى الضغط على الموارد وربما الصراعات والحروب.[29]

وبالتالي فإن التغيرات المناخية تؤثر أكثر على البلدان الفقيرة المعتمدة على الموارد الطبيعية ، وستؤثر على الاقتصاد العالمي وحركة التجارة الدولية ، والتدفقات المالية[30] وعلى قطاعات مهمة كالسياحة والتأمين.[31] لذلك لابد من العمل على مستوى التكاليف البشرية و البيئة ، اضافة الى التكاليف الاقتصادية لان هذه الاخيرة لا تكفي لوحدها[32].

ويترتب عن التصدي لتغير المناخ والدمار الاقتصادي المحتمل مشكلة عويصة لصناع السياسات من حيث عدم إمكانية إدماج التغير المناخ في خطط الأجل القصير والطويل للنمو العالمي والإقليمي ، ومن حيث التكاليف الفورية ذات المنفعة على الأجيال المستقبلية خاصة[33] ، حيث أن تفعيل بروتوكول كيوتو سيؤدي بدول أوربا إلى تخفيض استهلاكها للطاقة الذي يعني انخفاض في مستوى معيشتهم.[34] ومن أجل إدراك التأخر الاقتصادي في الدول النامية يتطلب الأمر حصولها على المعونة الدولية.[35] وأعرب مسؤولوا مجموعة البنك الدولي عن ارتياحهم الحذر ازاء التقدم المحرز في مجال ربط النتائج الإنمائية بالإجراءات المتعلقة بمكافحة تغير المناخ وإنشاء الصندوق الأخضر للمناخ ، وأن التركيز سوف يظل منصبا على تعبئة الأموال من جميع المصادر المتاحة لتحويل هذا النوع من مشاريع التنمية لزيادة قدرة الفقراء على مواجهة تغير المناخ.[36] كما يقترح للتصدي لمشكلة المناخ ما يلي:

- التحول نحو الطاقة المتجددة.
- التكنولوجيات البديلة المنخفضة الكربون.
- ترشيد استخدام الطاقة.
- تغيير طرق الإنتاج.
- وضع سياسات تخفيف بث الغازات الدفيئة ووضع سياسات التكيف رغم صعوبتها.[37]
- نشر الوعي بتقنيات الطاقة المتجددة وترشيد الطاقة والتعاون مع القطاع الصناعي والبحثي لتطوير المعدات ، والترويج لاستخدام التكنولوجيات البسيطة وإعداد كوادر متخصصة في مجال الطاقة المتجددة على المستوى المحلي والإقليمي.
- ضرورة الاشتراك مع منظمات المجتمع المدني للحد من آثار التغير المناخي.[38]
- نقل وتوطين وامتلاك التقنيات الحديثة بما يتناسب مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لكل دولة ، ودراسة تلك التقنيات المراد استيرادها وتقييم تطبيقاتها وآثارها المحتملة وتلافي سلبياتها.
- تأمين مشاركة كاملة وفعالة للدول النامية داخل مراكز اتخاذ القرارات والمؤسسات الاقتصادية الدولية وتعزيز الجهود التي تهدف إلى جعل دواليب الاقتصاد العالمي أكثر شفافية وإنصافا واحتراما للقوانين والتوفيق بين المواقف حول المسائل البيئية والتنمية المستدامة ، والبحث عن كيفية تكييف آليات التمويل وتحويل التكنولوجيا والطاقة المستدامة والأمن الغذائي والاقتصاد الأخضر.[39]

وتعتبر المجهودات الوطنية من أجل إدماج الاستجابة لتغير المناخ في استراتيجيات التنمية المستدامة باعثا على الأمل مقارنة بالصعيد العالمي [40] ، اذ أنه لم يأت اجتماع الدوحة الثامن عشر للدول الأطراف المشاركة في الاتفاقية الإطارية لتغير المناخ بأي جديد حول مسار المفاوضات ، حيث تمنح البلدان المتقدمة الأولويات لاقتصادياتها الداخلية القائمة على زيادة التصنيع والتسويق[41] ، بينما تم إعداد مشروع خطة العمل الإطارية العربية حول تغير المناخ - أصدرها مجلس الوزراء العرب المسؤولين عن شؤون البيئة - تناول البرامج المقترحة في قطاعات المناخ ،المياه ، الأراضي ، التنوع الحيوي ، الزراعة ، الغابات ، الصناعة ،الطاقة ،النقل ، التشييد والبناء ،الصحة ،البحار والمناطق السياحية.

وأعلنت منظمات المجتمع المدني العربي أهمية إعلان القاهرة في مواجهة التغيرات المناخية وإدراج سياسات التعامل مع تغير المناخ في الاستراتيجيات الوطنية والإقليمية للتنمية المستدامة ، وتبني الحكومات خطط عمل وطنية وإقليمية للتعامل مع قضايا المناخ.[42]

ثانيا: تحقيق التنمية المستدامة في إطار البيئة (خلق توازن بينهما)

تهتم التنمية المستدامة برهانات على المدى البعيد ، وتتطلب معرفة المخاطر البيئية ، الاقتصادية والاجتماعية التي ستوجه السياسة العامة لتجنب آثارها أو تخفيضها في المستقبل.

وترتكز في ذلك على بعض المبادئ التي تعمل كرابط بين المستخدمين والآثار على البيئة ، وتنتظم حولها شيئا فشيئا لتشكيل مجموعة متوافقة.

1 - المبادئ العامة البيئية الموجهة للتنمية المستدامة

ليس هناك تحديد وحصر لهذه المبادئ التي تستخدم في تحقيق التنمية المستدامة ، حيث تبنى إعلان ريو للبيئة والتنمية 27 مبدأ يقود مختلف الممثلين لفائدة التنمية المستدامة. ووضع قانون التنمية المستدامة للكيبيك 16 مبدأ تؤخذ بعين الاعتبار من قبل الوزارات والأجهزة العمومية في تدخلاتها و موجهة حين اتخاذ الإجراءات في مجال التنمية المستدامة[43] ، وهي تعكس ما ورد من مبادئ في إعلان ريو.

ويحصي الاتحاد الأوربي بعض المبادئ التي ثبت لها وضع التنمية المستدامة في التطبيق وهي مبادئ يجب أن تدمج وتوجه السياسة العامة حين أخذ المخاطر بعين الاعتبار ، وموجودة في مختلف النصوص التنظيمية الموضوعية للاتحاد الأوروبي والبلدان الأعضاء[44]. وسوف نعرض أهم هذه المبادئ الموجهة المتعلقة بالآثار الاقتصادية والاجتماعية لسياسية البيئة خلال السنوات الأخيرة ، والتي عُرّف البعض منها على المستوى الدولي بطرق مختلفة خاصة ، وعرفت نقاشات كثيرة حولها[45].

أ/ الحيطة والوقاية

يُفرّق بين مبدأ الحيطة و مبدأ الوقاية.

مبدأ الحيطة

نظمت مؤتمرات عديدة منذ 2004 حول ما إذا كان مبدأ الحيطة متطلب من متطلبات التنمية المستدامة ، وهو مبدأ أسيئ فهمه ، شرحه ، و استعماله ، أشير إليه ككابح للتنمية ومعرقل لها[46] ، ويعتبر من أكثر المبادئ المنتظمة حول التنمية المستدامة نقاشا بالرغم من أنه اليوم مطبق باعتدال من طرف القضاء[47].

وتجعل الدول اللاتينية من الحيطة مبدأ ، وتدعوا الدول الأنجلوسكسونية إلى مقترب الحيطة ، يعني الميل إلى عدم إلزاميته القانونية[48] ،فهو يخضع في مفهومه الضيق للاعتبارات الاقتصادية بالحث على الالتزام ببذل عناية ، بينما يشكل في مفهومه الواسع التزاما بتحقيق نتيجة ، ويمكنه عندئذ أن يحث على التخلي عن المشاريع التي يمكن لتشغيلها أن يرتب مخاطر والتي لا يمكن منعها لأسباب اقتصادية أو تقنية[49].

ويطبق مبدأ الحيطة عند غياب الدليل العلمي حول أضرار خطيرة على البيئة غير قابلة للتعويض ، ولا يجب أن يكون غياب اليقين العلمي ذريعة لتأخير تبني تدابير تمنع هذه الأضرار ، فالسلطات (الدول والمقررين) لا يجب عليهم الانتظار حتى يصبح التهديد والخطر ثابتا ، معروفا ومؤكدا لتقييم هذا الخطر واحتماله.

ولايطبق هذا المبدأ إلا بشروط ضيقة ، ويعكس عبء الإثبات وفقا للمعارف العلمية الحالية ، و يكون بتدابير متناسبة مع حجم الخطر بتكلفة اقتصادية مقبولة على أن تكون قابلة للتعديل ، ولذلك فشلت بحوث الخطر الصفر لانها تدعو إلى تعبئة وسائل غير محدودة وبالتالي غير متناسبة على الإطلاق[50].

ولا يمكن وضع هذا المبدأ في التطبيق إلا بتقييم سابق لحالة المعارف ، هذا التقييم يجب أن يكون متعدد التخصصات وفقا للمعارف العلمية الحالية (علوم دقيقة و اجتماعية) للسماح بنقاش جدي ، شفاف ومستقل يتجنب أزمات الثقة بين المقررين السياسيين والمواطنين.

وبالرغم من الاتهامات الكثيرة لمبدأ الحيطة بأنه معيق للتنمية ومعرقل للنشاط الاقتصادي فهو عنصر أساسي من عناصرها التي تتفاعل معها ، ويسعى إلى التوفيق بين تنمية الإنسان والانشغال المتمثل في المستقبل والأجيال المستقبلية[51] ، فبفضل الصفة التنبؤية التي يملكها فهو يشجع تطوير المعارف العلمية لرفع عدم اليقين واستنكار فكرة الخطر صفر ، وهو بذلك يرمي إلى إيجاد نماذج للتنمية بضمان حماية الموارد الطبيعية تجاه الأجيال المستقبلية أو على الأقل تجنيب الدولة الخسائر الاقتصادية الكبيرة في المستقبل ومدى تأثير ذلك على التنمية بواسطة التدابير التي يمكن اتخاذها باسم الحيطة لمنع وقوع أضرار بيئية غير معروفة[52].

ومن أجل تطبيق مقترب الحيطة في القرارات التجارية يذكر البعض عدة معايير يجب أن توجه متخذي القرار لتجعل من الحيطة عقلانية ، وتجعل عملية صياغتهم للقرارات التجارية شفافة ، لأنها تعمل على تخفيض عدم اليقين و تقديم العدالة في التجارة وقرارات التنمية الأخرى[53].

مبدأ الوقاية

هو مبدأ يلزم الدول بإجراء دراسات حول تقييم الأثر البيئي لأي مشروع قبل التصريح بإنشائه ، وكذلك حول الآثار البيئية الجديدة للمشروعات القائمة بالفعل[54].

ويجب أن تتخذ جميع التدابير والإجراءات الضرورية لتخفيض احتمال وقوع ضرر ونتائجه. ففي مجال البيئة والصحة غالبا تكلف الوقاية من الأضرار تكلفة أقل من إصلاحها (الوقاية خير من العلاج) ، حيث يلزم كل شخص ، مثلما يحدده القانون ، بمنع التهديدات التي يمكن أن تمس بالبيئة أو يحتمل أن تمس بها ، بوضع حد للنتائج . فهذا المبدأ يهدف ببساطة إلى إلغاء أثر الملوث من مصدره ، وبالتالي المخاطر المرتبطة به[55].

ويجب أن نميز بين مبدأي الحيطة والوقاية فهما يشتركان في العمل على منع وقوع الأضرار البيئية ، لذلك كثيرا ما يحدث لبس وتداخل في الإجراءات التي تتخذ استنادا إلى أي منهما[56] ، فالضرر الذي يهدف مبدأ الحيطة الى الحيلولة دون وقوعه يُستعصي تأكيد وقوعه على المعرفة العلمية المتاحة ، أو تحديد آثاره ونتائجه على البيئة إذا وقع ، أي عدم يقين علمي بماهية هذا الضرر ومخاطره غير مؤكدة علميا ، ولكن مع إمكانية تأكيدها. بينما في الوقاية يكون هناك يقين علمي فيما يتعلق بطبيعة وآثار الضرر الذي يمكن أن يحدث وكذلك حتمية وقوعه ، أي لا يكون عدم اليقين حول الخطر في حد ذاته بل حول وقوعه ومحاولة التقليل من احتمال وقوعه وأثره[57].

وهكذا يبدو واضحا أن مبدأ الوقاية يرتبط ارتباطا وثيقا بمبدأ التنمية المستدامة ،حيث يعتبر أحد آلياتها الهامة الهادفة إلى إدماج مسألة حماية البيئة في عملية التنمية الاقتصادية بهدف منع وقوع الأضرار البيئية المعروفة والأخطار الثابتة.

ب/ مبدأ الملوث الدافع

عادة ما تكون الموارد البيئة محدودة واستعمالها في عمليات الإنتاج والاستهلاك يمكن أن يسبب تدهورها ، لذلك لابد من معالجة تكلفة هذا التدهور بشكل كاف في نظام الأسعار والسوق بشكل يعكس ندرة هذه الموارد على المستوى الوطني والدولي ، و تتخذ السلطات العامة إجراءات لتخفيض التلوث وتحقيق توزيع أفضل للموارد بأن تعلق أسعار السلع بالنوعية و/أو كمية الموارد في البيئة على نحو يعكس بشكل أفضل ندرتها النسبية ، وبأن يتصرف الأعوان الاقتصاديين وفقا لذلك.

ولذلك يطبق مبدأ الملوث الدافع لتوزيع تكاليف تدابير الوقاية ومكافحة التلوث ،وهو مبدأ يفضل الاستخدام الرشيد للموارد المحدودة للبيئة مع تجنب الاختلالات في التجارة والاستثمار الدولي[58].

ويقصد بهذا المبدأ أن يتحمل القائم بالنشاط الذي يسبب ضررا للبيئة إصلاح هذا الضرر ، أو يتحمل الملوث التكاليف المتعلقة بالتدابير التي تتخذها السلطة العامة حتى تكون البيئة في حالة مقبولة سواء التكاليف المتعلقة بحمايتها (الوقاية) أو تخفيض التلوثات التي تسبب فيها.

إذن ، تكلفة هذه التدابير يجب أن تنعكس في تكلفة السلع والخدمات التي هي في الأصل ناتجة عن التلوث المترتب عن الإنتاج و /أو الاستهلاك[59] ، وبطريقة تكون فيها ميكانزمات السوق المعززة للانشطة لا تشكل تهديدا للبيئة .

ويمكن أن يكون لهذا المبدأ استثناءات أو ترتيبات خاصة ، بالخصوص من أجل فترات انتقالية.

ومن وجهة نظر اقتصادية ، فإن هذه الفكرة أدخلت في الاقتصاد عام 1932 من طرف Pigou لتصحيح عجز السوق على تحمل المشاكل المرتبطة بتدهور البيئة وتوزيع الدخل ،أي الحد اقتصاديا من الضرر البيئي وتحديد قاعدة توزيع تكلفة التدابير المتخذة لصالح البيئة للحد من هذا الضرر أو إصلاحه. وقد عرفه Pigou بأنه: " نتيجة عمل وكيل اقتصادي على آخر يحدث خارج السوق". إذن ، هناك مؤثر خارجي عند ما يفرض نشاط تكاليف أو فوائد إلى وكيل آخر لم يشارك مباشرة ، مثل نشاط مؤسسة ، وغالبا ما تتعلق المؤثرات الخارجية في مجال البيئة بالمنافع العامة وبالتالي لديها تأثيرات على أطراف متعددة ، وعليه فإن تدخل الحكومة ضروري في قرارات المؤسسات للأخذ بعين الاعتبار مشاكل البيئة التي تساهم فيها وبالتالي تحسين إدارة المخاطر البيئية[60].

إن هذا المبدأ لا يحد بالضرورة من التلوث الناجم عن الملوث فهو يعطي فقط تكلفة نقدية لتأثير سلبي على البيئة. كما أن بعض المؤثرات الخارجية صعبة الحساب لأن المخاطر الموافقة لا يمكن معرفتها بسهولة كحالة التلوثات المنتشرة

على الصحة الإنسانية ، فهي صعبة التعيين وأصعب تحديدا من الناحية الاقتصادية.

وبالتالي فإن هذا المبدأ هو موجه للسياسات العامة التي تهدف للأخذ بعين الاعتبار المخاطر من طرف الملوثين المحتملين ، ويبقى وضعه في التطبيق بدقة صعبا[61]. وقد تم تبني توصيات في منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية في 1991/1/31 مفادها الأخذ بعين الاعتبار بأن تسييرا مستداما وفعالا من الناحية الاقتصادية للموارد البيئية يتطلب إدخال تكاليف الوقاية ومكافحة التلوث وتكاليف الضرر الذي يمكن تعزيزه باستعمال مناسب لميكانيزمات السوق ،لاسيماالوسائل الاقتصادية ، كما أوصت بأن تعمل الدول الأعضاء على تطوير توزيع واستعمال فعال للموارد الطبيعية والبيئية باستعمال وسائل اقتصادية تسمح بانعكاس التكلفة الاجتماعية لاستعمال هذه الموارد[62].

ج/ مبدأ المشاركة في القرارات والوصول إلى المعلومة

لم يعد هذا المبدأ مجرد قاعدة من القانون المرن (soft Law) كالتصريحات الواردة في ريو وجوهانسبرغ ولكنها أصبحت قاعدة قانونية ملزمة بعدما وردت في العديد من الاتفاقيات الدولية المتخصصة (كاتفاقية Aarhus 1998/6/25 حول الوصول للمعلومة ومشاركة الجمهور في اتخاذ القرار والوصول إلى العدالة في مادة البيئة ، واتفاقية اسبو).

إن إعلام ومشاركة ومناقشة الجمهور في مادة البيئة هي خطوة مهمة في اتخاذ القرار العام منذ تصميمها ، تنفيذها وتقييمها ، فهو عنصر هام لتحمل الوكلاء الاقتصاديين والمواطنين مسؤولية آثار سلوكياتهم وإعلامهم بالمخاطر التي يحتمل أن يتعرضوا إليها[63]، حيث يمكن المشاركة في المعلومات المتعلقة بالبيئة بما في ذلك المواد والأنشطة الخطيرة ، كما يشرك الجمهور في عملية تحقيق المشاريع التي لها تأثير مهم على البيئة وتخطيط الإقليم[64] ، حيث لا يكون للحق في الاطلاع فائدة ما لم يمكن صاحبه من المشاركة الفعلية في إعداد القرارات في مرحلة موالية.

ويجب تمكين أصحاب المصلحة من الوصول الفعال إلى المعلومات ذات الصلة سواء كانت علمية أو اقتصادية أو معلومات أخرى للتمكن من المشاركة في المناقشات.[65]

وتتولى اللجنة الوطنية للمناقشة العامة في فرنسا (CNDP) ضمان مشاركة الجمهور في مراحل إعداد المشروعات والتجهيزات التي تمثل مصلحة قومية للدولة وللأشخاص الاعتبارية الأخرى العامة والخاصة لما يكون لهذه المشاريع قيمة اجتماعية – اقتصادية كبيرة ، أو حيث يكون لها انعكاسات كبيرة على البيئة هدفها الوقوف على مدى ملاءمة الأهداف الجوهرية للمشروع في جميع مراحله ابتداء من الدراسات التمهيدية ، وصولا لتقرير المنفعة العامة لذلك المشروع.[66]

وجاء في تقرير قدم للوزير الأول الفرنسي من طرف: Philippe kourilsky و Geneviève Viney ضرورة تطوير الشفافية و العلاقات مع الجمهور والوصول إلى المعلومة مع الجهات الإدارية والسياسية لزيادة الثقة فيها ، وتوسيع مجال الحوار مع الممثلين الاجتماعيين[67].

وبالتالي فإن مبدأ المشاركة والإعلام أدى إلى ظهور فكرة الحكم ، وهي فكرة مهمة لتنفيذ التنمية المستدامة وهو: "فن أو طريقة حكم تسعى لتنمية اقتصادية اجتماعية ومؤسسية مستدامة ، بالحفاظ على توازن سليم بين الدولة والمجتمع المدني واقتصاد السوق" يعني توازن بين الكفاءة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية وحماية البيئة.

ويتطلب الحكم فلسفة جديدة للسياسة العامة التي تجعل المواطن فاعل للتنمية في إقليمه ، ويهدف إلى تحميل الوكلاء الاقتصاديين والمواطنين المسؤولية عن تأثيرات سلوكاتهم وإعلامهم بالمخاطر البيئية والاجتماعية التي يتعرضون إليها ، ويسمح باشراكهم في تعريف استراتيجية التنمية المستدامة وقواعد اتخاذ القرار ، الإعلام (الشفافية ،المناقشة والتشاور) والإدارة والرقابة التي تسمح بتنفيذ خطط أعمالهم[68] ، فالحكم هو شكل جديد للديمقراطية التشاركية يتطلب التعاون والشراكة بين أصحاب الشأن جميعا (المساهمين ، العملاء ، المستهلكين ، الموردين ، المنافسين ،الشركاء ، سلطات عمومية ،مستثمرون ، الجمعيات والمنظمات غير الحكومية والمواطنين...) في التنمية المستدامة للوصول إلى قرارات مقبولة قدر الامكان من طرف الأغلبية التي تخدم المصلحة العامة ، فهي مكمل للديمقراطية التمثيلية[69].

د / مبادئ أخرى

إضافة إلى المبادئ السابقة الذكر هناك مبدأ التعاون والتضامن الذي يلعب دورا هاما في مجال حماية البيئة ، حيث يؤدي إلى التنبيه بكل كارثة أو نشاط خطير دون المساس بحق السيادة لكل بلد في استغلال موارده ، ويلقي على عاتق الدول مجموعة من الالتزامات أهمها الالتزام بالتشاور وتبادل المعلومات حول التدابير الواجب اتخاذها لمنع وقوع الأضرار البيئية والإلتزام بالإبلاغ عنها ، والعمل على تحسين عناصر البيئة بحسن نية دون الاضرار بالدول الأخرى[70] ، فحماية البيئة ومحاربة الفقر تتعلق بجميع الدول بحسب مسؤوليتها المشتركة ولكن المختلفة.

وتكون قدرة الدول النامية على تطبيق التنمية المستدامة مرهونة بتطبيق مبدأ التعاون الدولي لأن هذه الدول تفتقر عادة إلى الإمكانيات الاقتصادية والتكنولوجية التي تتطلبها التنمية المستدامة (الأجيال المستقبلية..)، وتبدو حاجتها ملحة لإعانة الدول المتقدمة اقتصاديا لها.[71]

وهناك مبدأ العدالة بين أبناء الجيل الواحد وبين الأجيال. فالأول يطرح الكثير من التساؤلات وهو يعني العدالة بين فئات المجتمع في بلد ما وكذا بين شعوب بلدان مختلفة ،كالاعتراف بالحق في إشباع الحاجيات. ولكن إذا مر إشباع الحاجيات للدول النامية بنفس طرق التنمية والإستهلاك ستكون الأضرار البيئية والضغوط على الموارد الطبيعية صعب جدا تسييرها ، حيث يبرز هنا النزاع بين البعد الاجتماعي والبعد البيئي للتنمية المستدامة ،وقد تحل هذه المشكلة بالمساعدة التقنية وتحويل التكنولوجيا والقدرة البنائية.

وتقتضي العدالة كذلك تنفيذ تدابير الحيطة الخاصة بالتجارة وبعدالة التأثيرات الاجتماعية- الاقتصادية خاصة ، وكذلك عند اتخاذ القرار حول مستويات الحماية. كما تتطلب العدالة أن تكون تدابير التعويض والتخفيف والميكانيزمات ضرورية لمساعدة الفقراء والمهمشين للتكيف مع إجراءات الحيطة وبالتالي التنمية المستدامة.[72]

بينما يعد مبدأ العدالة بين الأجيال أكثر حداثة وأكثر تعقيدا ، وهو متضمن في تعريف التنمية المستدامة نفسه ، ويطرح مشاكل كثيرة أهمها التنازع بين العدالة بين أبناء الجيل الواحد والعدالة بين الأجيال وصعوبة التعبير عن خيارات الأجيال المستقبلية ،و إمكانية تعارض إكتفاء حاجيات الأجيال الحاضرة مقارنة بتلك المتعلقة بالأجيال المستقبلية ، وضرورة التمييز بين الاستدامة القوية والضعيفة والمخاطر المرتبطة بهذه الأخيرة.[73]

ويضيف البعض إلى هذه المبادئ مبدأ الإصلاح من المصدر الذي يرتكز على فكرة أن إزالة التلوث من مصدره قبل أن يطرح مشاكل هو أقل كلفة من كلفة إزالة التلوث مضافا إليها كلفة العوامل الخارجية ، ذلك أن إدارة مشكل معروف بشكل جيد ومحدد المكان أسهل بكثير من إدارة المخاطر[74] ،إضافة إلى مبادئ أخرى قد تترتب من تعريف التنمية المستدامة نفسه ، كمبدأ القابلية للتعويض (réversibilité)،حيث كل فعل غير قابل للإصلاح مرتكب من قبل جيل يؤدي إلى تقليص خيارات الجيل الموالي ومابعده (إرث سلبي تجاه الأجيال المستقبلية)،لذلك يشترط الحفاظ على قدرات الاجيال المستقبلية لتلبية حاجياتهم[75] ، فالدول عند وضعها لسياسات وإجراءات الرقابة المتعلقة بالبيئة تأخذ بعين الاعتبار المبادئ الموجهة المتعلقة بالتأثيرات الاقتصادية والتجارية وسياسات البيئة على المخطط الدولي والداخلي.

2- السياسات الارشادية وإدارة البيئة

مما سبق ، يحتاج تحقيق أهداف التنمية المستدامة إلى نظام متسق يضم السياسات التكنولوجية والاقتصادية -الاجتماعية في خطة شاملة للتنمية ، هذه الخطة تضمن توظيف الموارد الطبيعية ورأس المال البشري بطريقة اقتصادية مع الحفاظ على نوعية البيئة ومصادرها الطبيعية للأجيال الحالية والقادمة وتبني خطط محددة المعالم وقابلة للتطبيق تتفق مع السياسات العامة للدولة ومع خطة التنمية وتعبر عن حاجيات المجتمع.

أ/ السياسات الإرشادية(التخطيط)

من السياسات الإرشادية التي يمكن للوزارات والهيئات الاستفادة منها في تطوير أدوات فعالة تساعد في تحقيق التنمية المستدامة:

***التخطيط الاستراتيجي:** يتطلب تحقيق التنمية المستدامة ايجاد تغيرات سياسية ومؤسسية[76] تصمم بعناية لتلبية الحاجيات التي تم تحديدها ويستلزم ذلك تطبيق نظم التقييم البيئي. وفي الجزائر وفقا للمادة 13من القانون 03-10 المتعلق

بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة ، تعد الوزارة المكلفة بالبيئة مخططا وطنيا للنشاط البيئي والتنمية المستدامة لمدة خمس سنوات يحدد مجمل الأنشطة التي تعتزم الدولة القيام بها.

***إعداد استراتيجية قائمة على التحليل الفني الجيد:** يفترض أن تعتمد الاستراتيجية الوطنية للتنمية المستدامة على التحليل الدقيق للوضع الراهن والاتجاهات المستقبلية والمخاطر المتوقعة، مع الربط بين التحديات المحلية والوطنية والعالمية.

*وضع أهداف واقعية ومرنة للسياسة وتفعيل تنفيذها بالحوافز.

*إدراج أولويات الاستراتيجية في عملية تخطيط الميزانية لضمان الموارد المالية.

***السياسة المتكاملة بين القطاعات المختلفة:** عن طريق تشكيل لجان مشتركة بين الوزارات المعنية مهمتها التنسيق بين الاستراتيجيات والخطط والبرامج القطاعية ،مع أخذ البيئة والتأثيرات الاجتماعية في الاعتبار على المستوى المركزي و المحلي ودمجها في السياسات الزراعية والصناعية والاجتماعية وسياسة الطاقة والنقل...الخ، ويكون ذلك بتحليل الإطار الكلي لسياسة الدولة مثل:

-الاستراتيجيات الوطنية للحفاظ على البيئة.

-الخطط الوطنية لمكافحة التصحر والحد من الفقر...

ولتحقيق أكبر قدر من التكامل يجب تحديد السياسات المتضاربة وتأثيراتها لتحقيق التوازن .

* لامركزية السلطة والتفويض وانتقال اتخاذ القرار إلى أقل مستوى ممكن.

* رفع الوعي لدى فئات الشعب حول قضايا التنمية المستدامة.[77]

ب/ إدارة البيئة

يجب تبني عدد من الممارسات الداعمة لاستدامة البيئة عن طريق ما يسمى بإدارة النظم البيئية بوضع الخطط والسياسات البيئية اللازمة لرصد وتقويم الاثار البيئية للمشروع الصناعي، ومواجهة متزامنة للمشاكل في إطار استراتيجية دولية منسقة.

وتساهم فكرة إدارة النظم البيئية بشكل مهم في تحقيق التنمية المستدامة [78] ،فهي من أهم المتطلبات الفنية لحماية البيئة وضمان التنافس في الاسواق العالمية. ويضم البعد الاقتصادي لإدارة البيئة- إضافة إلى الجوانب المتعلقة بالموارد الطبيعية والتكنولوجية والتنمية المستدامة- فوائدا اقتصادية تتمثل في الاستخدام الأمثل للموارد وبدائل الطاقة وتحقيق العوائد وزيادة الانتاجية ، إضافة إلى فوائدها البيئية والاجتماعية ، هذه الفوائد التي يمكن استخدامها فيما بعد كأساس للاستراتيجية التسويقية خصوصا في الاسواق العالمية ، وتحسين الوضع المالي والقدرة على البقاء والاستمرار.

وتكفل هذه النظم زيادة الوعي بالمسائل البيئية و إيجاد الأسواق والمستهلكين الجدد ومنع التلوث والحفاظ على المواد الأولية ومنع الإسراف فيها ، وتحسين المراكز المالية لشركات ومؤسسات الأعمال ، فهي أداة لتطوير نظم الإنتاج والتشغيل ومنه زيادة حجم الطاقة الإنتاجية المحققة فعلا ورفع قدرتها على التنافس ، وتؤدي إلى تطوير وتطبيق وتحقيق ورقابة السياسة البيئية والمحافظة عليها[79].

وينبغي تخطي التحديات المعيقة لبرنامج وجهود الاستدامة البيئية كالتالي:

*إيجاد مصادر التمويل اللازم لتحقيق التنمية المستدامة في الدول النامية والتزام الدول الصناعية بزيادة الدعم المقدم منها.

*نقل وتوطين وامتلاك التقنيات الحديثة الملائمة بما يتناسب مع الظروف الاقتصادية والاجتماعية والبيئية لكل دولة ،ودراسة تلك التقنيات المراد استيرادها وتقييم تطبيقاتها وآثارها المحتملة وتلافي سلبياتها قبل الشروع في تطبيقها ، وتشجيع الباحثين وتوفير إمكانيات العمل العلمي لهم باعتباره من أسباب تطور العمل التنموي واستمراره ، ويرتبط ذلك بنشر الوعي حول أهمية التفكير العلمي والبحث في مجالات التنمية المستدامة ،وتطوير وسائل العمل في هذا المجال ، ونقل المجتمع بذلك إلى مراحل متقدمة من الرقي والتنمية في وقت أسرع وتكلفة أقل.[80]

*صيانة التراث الديني والحضاري واستثماره لتحقيق التنمية المستدامة كونه يساهم في تأكيد الذاتية الثقافية ويحافظ على

خصوصيتها ويحمي هويتها من الذوبان، ويمنح العمل التنموي دفعة ذاتية أقوى في الدفاع عن الشخصية الوطنية والدينية ،وصيانة المستقبل المشترك وترقية التراث المورَّث للأجيال القادمة.[81]

*تأمين مشاركة كاملة وفعالة للدول النامية داخل مراكز اتخاذ القرارات والمؤسسات الاقتصادية الدولية، وتعزيز الجهود التي تهدف إلى جعل دواليب الاقتصاد العالمي أكثر شفافية وإنصافا واحتراما للقوانين المعمول بها على نحو يمكن الدول النامية من رفع التحديات التي تواجهها بسبب العولمة.

*** تبني عدد من الممارسات الداعمة لاستدامة البيئة:**

- عدم استهلاك الموارد المتجددة بوتيرة أسرع من قدرتها على التجديد أو بطريقة مؤذية.
- التخلص من المبيدات السامة والكيماويات الضارة بالبيئة وعدم الاضرار بنظم دعم الحياة على الأرض.
- تشجيع ودعم عمليات إعادة تدوير النفايات.
- استخدام التكنولوجيا الحديثة الصديقة للبيئة.
- محو الأمية البيئية من خلال برنامج متكامل يركز على توعية المواطنين، يشارك فيه الإعلام والتربية والتعليم ووزارة البيئة، ينفذ من خلال ندوات مكثفة للطلاب في المدارس والجامعات والنشرات ،والتعليمات وصولا للعقوبات.
- وضع استراتيجية عامة للتنمية الشاملة يشارك في صياغتها والإشراف على تنفيذها مؤسسات وهيئات المجتمع المدني.
- دعم القطاع الخاص ومؤسسات المجتمع المدني وفئاته ،وتشجيع مشاركتهم في وضع وتنفيذ خطط التنمية المستدامة.

خاتمة

إن جهود المجتمع الدولي للانتقال من مرحلة النقاش النظري حول الكارثة البيئية إلى مرحلة وضع خطط عملية لإزالة ذلك التوتر يمثل جانبا إيجابيا، إلا أنه يجب الاعتراف بأن غياب فهم أو رؤية واضحة حول التوجه العام لحركة الحضارة في المستقبل يمثل جانبا سلبيا من مشروع التنمية، حيث لا يزال الجدال مستمرا بسبب هيمنة الاعتبارات الاقتصادية على أجندة الاستدامة الوطنية والدولية مما يجعل حماية البيئة يحتل موقعا هامشيا.

ويمكن القول بأن العالم بالفعل قد بدأ وبصعوبة في إيجاد طريق نحو التنمية المستدامة خلال العقد الأول بعد قمة ريو، وباشرت عدة حكومات بحماس التزامها تجاه توصيات القمة وما ورد في ريو و أجندة 21، إلا أن الإنجازات التي تحققت عموما غير كافية، ولا يزال هناك الكثير يجب القيام به لمواجهة التحديات المختلفة والمتعددة التي تواجه الحياة المستدامة على كوكب الأرض، فالعالم لم ينجح حتى الآن في تبني خطوات حقيقية جادة نحو استدامة حقيقية مبنية على أساس التوفيق بين تلك التناقضات بين التنمية والبيئة الناتجة عن نموذج التنمية المهيمن منذ منتصف القرن 20 مما يجعل البشرية تواجه مستقبلا محفوفا بالمخاطر وعدم اليقين.

كما أن الجدل الدولي حول مفهوم التنمية المستدامة قد خلق مجالا جديدا من الخطاب، وسمح معناه الواسع والغامض لجماعات مختلفة بالسعي لتحقيق مصالحها بطرق جديدة وحجج مختلفة لا يجب التغافل عن المخاطر المرتبطة بها ،فالخطابات السياسية حول كيفية الربط بين القضايا البيئية والاقتصادية والاجتماعية قد تسببت في إحداث خلافات سياسية وتنافس حول التعريف الأفضل الذي وان أمكن له أن يسمح بالمرونة إلا أنه قد يجعل المبدأ مفرغا من معناه.

وحتى لو كان للإصطلاح معنى قانونيا محددا فإن وضعه في التطبيق ليس بالمستوى المطلوب، فلا استغلال المصائد والغابات ولا الأراضي يستجيب اليوم للتنمية المستدامة، فهل المقصود بها الموارد المتجددة؟

في هذه الحالة لا تكون التنمية المستدامة سوى مبطئ للاستغلال لحماية المصادر التي نريد تحويلها الى الأجيال المستقبلية،

فالتنمية المستدامة إذن ليس لها استعمالا حقيقيا إلا إذا لجأنا إلى منتوجات أو تقنيات بديلة، وهي لا تزال نادرة. وبصفة عامة ،نحن نتجه نحو نقص في بعض الموارد أمام ارتفاع ديمغرافي ومنه زيادة الاستهلاك، فتزيد الفجوة بين العرض والطلب.

فاصطلاح التنمية المستدامة خارج معناه السياسي ليس له مجال، ومتهم بأنه يعالج الأعراض بدلا عن الأسباب ،وقد يكون ذلك نتيجة لأزمة القيم السائدة " قيم الحداثة" ،حيث يتجه البعض إلى أنه لا يمكن الحديث عن محاولات تحقيق التنمية المستدامة في ظل غياب معالجة

الأسس الفلسفية التي يقوم عليها الفكر التنموي الحداثي الذي لم يتغير عما هو كلاسيكي إلا في الشكل .ومع ذلك ، فإن خطاب التنمية المستدامة السائد اليوم نجح في وضع القضايا البيئية على الأجندة السياسية في وقت قصير نسبيا. فالاستدامة اذن هي فلسفة برؤية جديدة تبحث عن بناءات اجتماعية ونشاطات اقتصادية وأنماط إنتاجية واستهلاكية ،وتقنيات تعمل على استدامة البيئة وتمكين الجيل الحالي وضمان حياة ملائمة للأجيال القادمة بترشيد فكرة التنمية المستدامة بعدة مبادئ بيئية. ولذلك لا بد من :

- الاستهلاك المعتدل للموارد والاستخدامات البديلة المحتملة لها ، ووضع نظم إدارية للموارد المائية والعمل على تغطيتها في المستقبل بأساليب وتقنيات جديدة.

-العمل على تجاوز العقبات المعيقة للتنمية المستدامة عامة كالعقبات البيئية (الكوارث الطبيعية والتصحر والاحترار المناخي ...) ،والعقبات الاقتصادية والاجتماعية (الفساد الاقتصادي والاجتماعي) ،والعقبات السياسية (عدم الاستقرار السياسي والمديونية..) ، والعقبات التكنولوجية (عدم توفر التقنيات والخبرات الحديثة لتنفيذ برامج وخطط التنمية المستدامة).

-إحداث تغيرات مستمرة ومناسبة في حاجات و أولويات المجتمع بما يلائم قدراته ويحقق التوازن .

- التوسع في مجال الاعتماد على الطاقة النظيفة المتجددة كالطاقة الشمسية والمائية وطاقة الرياح.

- مراقبة المنظمات والحكومات ومؤسساتها للأداء البيئي وإدارته باستعمال أدوات تحليل المنافع والتكاليف ، والمراجعة المستمرة وتقيم الأثر البيئي والمخاطر للمشاريع التنموية ، إذ أن تأثير الآثار البيئية يسهم في تعديل الخطط المعدة لمواجهة التحديات البيئية وتحسين الأداء البيئي والبحث العلمي.

- التفعيل الجيد للضبط الاداري بأنواعه على المشاريع التنموية المؤثرة على البيئة (التراخيص ،التصريحات ،الحظر ،الالزام ،نظام التقارير) والنظام الجبائي البيئي الردعي(الضريبة والرسوم البيئية) وغير الردعي(الاعفاء الجبائي والاعانات البيئية) ،والصرامة في تطبيق الجزاءات الاداريةالموقعة استكمالا للجزاءات الجنائية عند ارتكاب جرائم ماسة بالبيئة (الانذار ،التوقيف المؤقت للنشاط وسحب التراخيص).من أجل السعي نحو التعديل الايجابي لسلوك الملوثين عن طريق ردعهم ماليا بهدف تغيير أنماط استخدامهم للموارد بشكل يخفض من تأثيراتها السلبية على البيئة وترشيداستهلاك المواد الضارة إما بتقليلها أو تحفيزهم على تطوير طرق جديدة في الانتاج والنقل واستبدال المواد الضارة بأخرى أقل ضرر.

- وأخيرا ، إعادة صياغة النشاطات الحالية أو ابتكار أخرى جديدة ودمجها في البيئة القائمة من أجل الحق في تنمية مستدامة ،على أن تكون مقبولة ثقافيا وممكنة اقتصاديا وملائمة بيئيا وقابلة للتطبيق سياسيا وعادلة اجتماعيا .

الهوامش

1. Dupuy P. M, Ou en est le Droit International de l'Environnement à la Fin du Siècle? **R.G.D.I.P**., (1997-4), pp.873-902, at p.886.

2. Déclaration Finale de la Conférence des Nations Unies sur l'Environnement, P. N. U. E., l'environnement au service du développement0(7/07/2014), V. site: http://www.unep.org/

3. " pour parvenir à un développement durable, la protection de l'environnement doit faire partie intégrante du processus de développement et ne peut être considérée isolément", **action** 21 ,déclaration de rio, l'environnement et le développement, conférence des Nation, Unies sur l'environnement et le développement (CNUED), NU, new York, 1993, p.3.

4. Report of the world Commission on Environment and development: Our Common future, UN Documents(11/03/2015), v. Site: http://www.un-documents.net/wced-ocf.htm

5. حول هذه اللجنة أنظر:

La Commission du Développement Durable, Département de l'Information des Nations Unies, (11/03/2015), v. site: http://www.un.org/french/esa/desa/aboutus/dsd.html

6. عبد الله بن جمعان الغامدي ، **التنمية المستدامة بين الحق في استغلال الموارد الطبيعية و المسؤولية عن حماية البيئة** ، جامعة الملك سعود ، المملكة العربية السعودية ، 2007 ،ص.1-27 .

7. أشار المشرع الجزائري للتنمية المستدامة بصفة غير مباشرة في نص المادة 3 من القانون 83-03 المؤرخ في 1983/20/5 المتعلق بحماية البيئة (ج ر 6) التي جاء فيها:" تقتضي التنمية الوطنية تحقيق التوازن الضروري بين متطلبات النمو الاقتصادي ومتطلبات حماية البيئة والحفاظ على إطار المعيشة". كما نص القانون 03-01 المؤرخ في 2003/2/17 المتضمن قانون التنمية المستدامة للسياحة على تعريف التنمية المستدامة (ج ر 11) بأنها: "نمط تنمية تضمن فيه خيارات وفرص التنمية التي تحفظ وتحافظ على البيئة والموارد الطبيعية والتراث الثقافي للأجيال القادمة. وجاء قانون البيئة الجديد 03-10 المؤرخ في 2003/07/19 في المادة 4 منه (ج ر 43) أن :" التنمية المستدامة هي التوفيق بين التنمية الاجتماعية والاقتصادية القابلة للاستمرار وحماية البيئة ، أي إدراج البعد البيئي في إطار تنمية تضمن حاجات الأجيال الحاضرة والمستقبلية".

8. Dupuy, Op. cit. , pp. 886-887.

9. Stephan Doumbe- bille: " **la convention cadre sur les changements climatiques**", in, " conventions de protection de l'environnement, secrétariats, conférences des parties, comité d'experts", (ed. Jean M. lavielle), Pulim, France, 1999, pp.67-74, Convention des Nations Unies sur les changements climatiques,(11/03/2015), v.site: http://www.unfccc.de

وجاء في المادة 4/3 حل الاتفاقية ما يلي: " للأطراف حق تعزيز التنمية المستدامة وعليها هذا الواجب. وينبغي أن تكون السياسات والتدابير المتخذة لحماية النظام المناخي من التغير الناجم عن نشاط بشري ملائمة للظروف المحددة لكل طرف ، كما ينبغي لها أن تتكامل مع برامج التنمية الوطنية ، مع مراعاة أن التنمية الاقتصادية ضرورية لاتخاذ تدابير لتناول تغير المناخ".

10. أشارت الاتفاقية إلى مصطلح التنمية المستدامة في عدة مواقع منها المادة 1/ب: "تشمل مكافحة التصحر الأنشطة التي تمثل جزءا من التنمية المتكاملة لموارد الأراضي في المناطق الفاحلة وشبه القاحلة والجافة وشبه الرطبة من أجل التنمية المستدامة ، أنظر الاتفاقية على الموقع: www.unisdr.og/2006/ppew/info.../cst6ara.pdf

وأشارت الاتفاقية في الديباجة (النقطة4) بأنه يقع على الأطراف الالتزام باتخاذ تدابير لمكافحة التصحر في مصلحة الأجيال الحاضرة والمستقبلية ، وهذا فيه إشارة واضحة للبيئة المستدامة .أنظر:

Mohammed Abdelwahab Bekhchi, une Nouvelle étape dans le développement du droit international de l'environnement: la convention de la désertification, **R.G.D.P**. (1997-1), pp. 5-41, at p.12-13, p.25.

11. " ... un développement durable et écologiquement national dans les zones adjacentes aux zones protégés en vue de renforcer la protection de ces dernières ", **convention sur la diversité biologique**, v. Site :http://www.cbd.it

12. أنظر: عبد الله بن جمعان الغامدي ، مرجع سابق ، ص .7-8.

13. أنظر تفاصيل أكثر حول هذه الأبعاد: زوليخة سنوسي ، هاجر بوزيان الرحماني ، **البعد البيئي لإستراتيجية التنمية المستدامة** ، المؤتمر العلمي الدولي الثالث ، التنمية المستدامة والكفاءة الاستخدامية للموارد المتاحة ، ، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير بالتعاون مع خبر الشراكة والاستثمار في المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الفضاء الأورو مغاربي ، سطيف ، أيام 7-8/04/2008.

14. أنظر: عمار عماري ، **إشكالية التنمية المستدامة وأبعادها**، المؤتمر العلمي الدولي الثالث ، التنمية المستدامة والكفاءة الاستخدامية للموارد المتاحة ، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير بالتعاون مع خبر الشراكة والاستثمار في المؤسسات الصغيرة والمتوسطة في الفضاء الأورو مغاربي ، سطيف ، أيام 7-8/04/2008 ، ص. 11-13.

15. المرجع نفسه.

16. وأكد القاضي weeramantry في رأيه المستقل المرفق بحكم المحكمة في هذه القضية على أن مبدأ التنمية المستدامة يتمتع في الوقت الراهن باعتراف وقبول عام من قبل مختلف الدول بما فيها النامية ، وأنه أصبح عندئذ يشكل بلا جدال جزء من قواعد القانون الدولي العام المعاصر بسبب ضرورتة المنطقية التي لا مفر منها ، وأيضا بسبب قبوله العام من طرف الجماعة الدولية .

Projet Gabcikovo- Nagymaros (Hongrie- Slovaquie), arrêt de 25/09/1997, **recueil de C.I.J.**, (1997), par.140, AL.4.

17. Jochen, Sohnle, Irruption du Droit de l'Environnement dans la Jurisprudence de la C.I.J., l'Affaire Gabcikovo- Nagimaros, 102 **R.G.D.I.P**., (1998-1), pp.85-121, at 108-109.

18. أنظر: هذه القضية والرأي المعارض للقاضي Weeramantry :

Demande d'Examen de la situation au titre du paragraphe 63 de l'Arrêt Rendu par la Cour le 20/12/1974 dans l'Affaire des Essais Nucléaires (Nouvelle- Zélande c. France) Ordre de 22/09/1995, **C.I.J.Recueil** (1995), p. 341-342.

19. أنظر: فيصل الشريفي ، التنمية المستدامة ، أهدافها ومعوقاتها ، **مجلة حماة الوطن** ، العدد 290 ،الكويت ،(2013/09/13) ،على الموقع: http://www.homat-alwatan.gov.kw/Articledetail.aspx?artid=125

20. أنظر: باتر محمد علي وردم ، **العولمة ومستقبل الأرض** ، الطبعة الاولى ، الأهلية للنشرو التوزيع ، عمان ، 2003 ، ص. 118-120.

21. أنظر: عامر محمود طراف ، **ارهاب التلوث والنظام العالمي** ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، دون سنة نشر ، ص. 113.

22. أنظر: عبد الوهاب الأمي ، **التنمية الاقتصادية (المشكلات والسياسات المقترحة)**، الطبعة الاولى ، دار حافظ للنشر والتوزيع ، السعودية ، 2000 ، ص .340.

23. أنظر: عبد الرحيم محمد عبد الرحيم ، **التنمية البشرية ومقومات تحقيق التنمية المستدامة في الوطن العربي** ، الطبعةالاولى ، دار الجامعة الجديدة ، مصر ، 2004 ، ص .26.

24. Guillaume, Sainteny, **le Principe de Précaution Elément du développement durable**,(11/03/2015),v.site : https://www.ffsa.fr/webffsa/risques.nsf/b724c3eb326a8defc12572290050915b/a351d323f989b763c12573f60053b36b/$FILE/Risques_72_0014.htm

25. أبرمت اتفاقية الأمم المتحدة للتغيرات المناخية التي أدخلت المجموعة الأوربية في مفهوم الأجيال المستقبلية ، وعقد المؤتمر العالمي الثالث للمناخ برعاية المنظمة العالمية للأرصاد الجوية التابعة للأمم المتحدة (2009/8/31) الذي كان يهدف إلى تعزيز نظام دولي لتبادل الرصد الجوي وتوظيفه على نحو يساهم في تفادي التأثيرات السلبية للتغيرات المناخية. وانعقدت بعدها أكبر قمة دولية لبحث سبل معالجة الآثار السلبية للتغير المناخي في العالم (23-2009/09/24). أنظر:

Stephan, Doumbe- Bille, op.cit., pp. 68-74.

26. Béatrice, Quenault, **Visions Conflictuelles du Développement Durable dans les Négociations sur les Changements Climatiques** at « le développement durable, une perspective pour le XXI siècle », (Direc. Jean- paul Mérachal et Béatice Quenault, préface de Henri Bartoli, Collection des sociétés pur, France, 2005, pp. 359-378, at pp. 361-370, p. 361.

27. World Development Report 2010, Development and Climate Change(Juin 2013) ,v. Site : http://sitersources-worldbank.og/INTWDR2010/resources/5287678-1226014527953/chapter-1.pdf

28. La Documentation Française (mars 2014), v. Site: http://www.ladocumentationfrancaise.Fr/dossiers/changement-climatique/chronologie-html

29. أنظر: حسام ديوب ، **تغير المناخ وآثاره المحتملة على التنمية المستدامة في المنطقة العربية** ، جمعية حماية الطبيعة ، 2009 ،(2010/12/18) ، على الموقع:

http://nps-sy.com/show/hread.php?t=591

30. أنظر: عزت عبد الحميد ، **تغير المناخ والتنمية المستدامة** ، (2013/05/23) ،على الموقع :

http://www.arab-hdr.org/publications/ahdr/2009/alexandria/pres/EZZAT-Addel-hamid-pdf.

31. Développement Durable, **Aspects Stratégiques et Opérationnels, grands groupes, entreprises patrimoniales, secteur publics, Collectivités territoriales**, Editions Francis le FEBRE, 2010, Paris, p.53.54.

32. أنظر: عزت عبد الحميد ، مرجع سابق.

33. Nicolas, Stern, **The Economics of Climate Changes, the Stern Review**, Cambridge, Great Britain, 2007, p. 63-81, 191-312,562-673.

34. Carlos, Stagnaro, **Réchauffement de la planète: les couts d'une Politique d'atténuation**, (Novembre 2004), v. Site: http://www.institumolinarie.org/rechauffement-de-la-planete-les.515.html

35. André Cabanis, **Droit au développement et protection de l'environnement: l'Articulation des stratégies nationales, Droit de l'Homme et Développement Durable, Quelle articulation?,** Direc. Ali Sedjari, l'Harmattan, rabat, 2008, pp. 231-242, at p. 238

36. Bank Sees Durban Conference Making progress on Climate Agenda, sustainable development, (December 2001), v.site : http://wed.worldbank.org/

37. Développement durable, Aspects Stratégiques et Opérationnels, op. cit., p. 50-52.

38. أنظر: عزت عبد الحميد ، مرجع سابق.

39. كان ذلك الهدف من عقد ورشة عمل تحضيرية لمندوبي منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالجزائر في 2011/10/11 تمهيدا لمؤتمر ديربان الذي انعقد في ديسمبر 2011 بجنوب إفريقيا لتبني اتفاق قانوني عام بشأن مكافحة تغير المناخ بحلول عام 2015. أنظر:

Centre d'Information des Nations Unies, Climate Change and the Road to Rio, Alger/ 11/13/2011.

وانظر أيضا:

Durban conference Delivers breakthrough in international comity's response to Climate Change, United Nations, Climate Change secretariat (11/03/2015), v .site:

http://unfcc.int/files/press/press_relases_advisories/application/pdf/pr20111112cop17final.pdf

40. Mohan, Munasinghe, **Hausse des Températures, Hausse des risques Finances et développement**, vol.45, N°1, mars 2008, pp.37-41, at p.37.

41. تعتبر مسألة التمديد لهذا البروتوكول ، أي الدخول في مرحلته الثانية ، هي النقطة الأهم على جدول أعمال مؤتمر الدوحة 18 ، فالملتزمون في المرحلة الثانية من هذا البروتوكول وفي طليعتهم الاتحاد الأوربي واستراليا لا يشكلون سوى 15% من الانبعاثات العالمية ، بعد أن انسحبت كندا وبعد إعلان روسيا واليابان أنهما لن توقعا على المرحلة الثانية من هذا البروتوكول. أنظر:

حبيب معلوف ، اجتماع الدوحة الدولي ال18 في مهب الأعاصير ، **مجلة غادي نيوز** ، لبنان ،(2012/12/5) ، على الموقع:

ww.ghadinews.net/Ar/newsdet.opx?id=3557&id2=21

42. أنظر: أنهار حجازي ، **تغير المناخ وتحديات التنمية في المنطقة العربية**، الاجتماع الخامس للجنة الاستشارية للتنمية العلمية والتكنولوجية والابتكار التكنولوجي ، الأمم المتحدة ، (جوان 2010)، على الموقع:

http://css.escwa.org.lb/ictd/1248/21a.pdf

43. تتمثل هذه المبادئ في: 1/ الصحة ونوعية الحياة. 2/ العدالة والتضامن الاجتماعي. 3/حماية البيئة 4/الفعالية الاقتصادية. 5/المشاركة والالتزام 6/الوصول للمعلومة7/التبعية والتمثيل8/التعاون والشراكة الحكومية الدولية 9/الوقاية 10/الحيطة11/حماية الملكية الفكرية12/حماية التنوع البيولوجي.13/احترام قدرة احتمال النظم الايكولوجية 14/الانتاج والاستهلاك المسؤول 15/الملوث الدافع 16/استيعاب التكاليف الخارجية. أنظر:

Les principes de développement durable : Un Guide pour l'Action.(15/01/2014), v. Site:

www.mddep.gouv.qc.ca/devoloppement/principe.htm

44. وهي خمسة مبادئ : الحيطة/ الوقاية/ الملوث الدافع/ التصحيح/ الأولوية لمصدر الضرر البيئي. أنظر:

Le Développement durable Face aux risques, UVED,(11/03/2015), v. site:

www.uved.Fr/fileadmin/user_upload/modules_introductifs/module3/risques/3.1.3/html/1.html

45. جاء النص على هذه المبادئ في القانون رقم 10/03 المؤرخ في 2003/7/19 المتعلق بحماية البيئة في إطار التنمية المستدامة ج ر43 .(الحيطة ، الوقاية ، تصحيح الأضرار بالأولوية بالمصدر ، الملوث الدافع ، الاعلام والمشاركة ، المحافظة على التنوع البيولوجي ، عدم تدهور الموارد الطبيعية ، مبدأ الاستبدال ومبدأ الإدماج.

46. Le Développement durable face aux risques, UVED, op. cit.

47. Développement durable, Aspects Stratégiques et Opérationnels, op.cit., p.28.

48. Le Développement durable Face aux Risques, UVED, op. cit.

49. Denis, Grison ,**Le Principe de Précaution, un Outil on Service du Développement Durable?** Le Défis du Développement durable, Conférence sur le Principe de Précaution, Communiqué de Presse, Nancy,)28/02/2005(.V. site

http://www.uhpnancy.fr/presse/communiques_et_dossiers/2005/mars/les_defis_du_developpement_durable_conference_sur_le_principe_de_precaution

50. Développement durable, Aspects Stratégiques et Opérationnels, op. cit.p.28

51. Guillaume, Sainteny, op.cit.

52. أنظر: محمد صافي يوسف ، **مبدأ الاحتياط لوقوع الأضرار البيئة، دراسة في إطار القانون الدولي للبيئة** ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 2007 ، ص. 55-57.

53. هي أربعة مبادئ: مبدأ العلم الجيد/ مبدأ التناسب/ مبدأ التنفيذ العادل / مبدأ مشاركة أصحاب المصلحة. أنظر التفاصيل:

Antonio, G.M., La Vina, **Reducing Uncertainty, Advancing Equity:** Precaution, Trade, and Sustainable development, ATENEO LAW Journal, Vol. 53, (2009). pp. (952-998), at p. 973-974.

54. يحتل مبدأ الوقاية مكانة هامة في إطار القانون الدولي للبيئة بالنظر إلى أن جانبا كبيرا من الأضرار البيئية لا يمكن إصلاحه. وقد نص عليه في غالبية القرارات الصادرة عن المؤتمرات والمنظمات والاتفاقيات الدولية المتعلقة بالبيئة. وكانت أول إثارة له في المبدأ 21 من إعلان استوكهولم والمبدأ 2 من إعلان ريو ، وأكدت عليه محكمة العدل الدولية في حكمها في قضية مشروع Gabcikovo- Nagymaros في 1997 بين المجر وسلوفاكيا. أنظر:

Projet Gabcikovo- Nagymaros (Hongrie v. Slovaquie), Arrêt, **C.I.J. Recueil** ?1997, parag.14a, p.75.

55. Développement Durable, Aspects Stratégiques et Opérationnels,op.cit,p.27; Alain Jounot, **100 Questions pour Comprendre et Agir, RSE et Développement durable**, Afnor Editions ,France, 2010, p.5

وقد عرف مبدأ الوقاية في القانون الفرنسي بواسطة قانون Barnier عام 1995 ، وهو اليوم مؤكد في المادة L.1-110 من قانون البيئة التي نصت على :

" Le principe d'action préventive et de correction par priorité à la source, des atteintes à l'environnement, en utilisant les meilleurs techniques disponibles à un cout économiquement acceptable".

56. Pascal,Martin-Bidou, Le Principe de Précaution en droit International de l'environnement ,**R.G.D.I.P**, (1999-3), pp.631-664, at p.651-652.

57. Claude, Guibert Nicolas Loukakos ,**Principe de Précaution et Prévention**,)31/06/2004(.v.site : http://www.dossierdunet.com/article10.html #forum168 ;

Richard Robert, Précaution et Prévention une distinction nécessaire, Focus,(11/03/2015)v.site :

http://www.larevuecadres.fr/pr%C3%A9caution-et-pr%C3%A9vention

58. ورد هذا المبدأ في العديد من الاتفاقيات الدولية المتعلقة بالبيئة وقرارات بعض المنظمات الدولية كمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية (OCDE) قبل ظهور مصطلح التنمية المستدامة نفسه. أنظر:

Raphael Romi, **Droit et Administration de l'Environnement,** 5éme Edition, Montchrestien, Domat Droit Public, Paris, 2004, p.119-120.

59. **Le Principe de Pollueur- Payeur, Analyses et Recommandations de l'OCDE,** Direction de l'Environnement, Organisation de Coopération et Développement Economique ,Paris ,1992 ,OCDE/GD(92)81,(11/03/2015),v.site : www://cms2,unige.ch/ idd/IMG/pdf/ ppp- analyses_et_ recommandations_de_l_ OCDE. Pdf

60. Le Développement durable Face aux Risques, UVED, op. cit. ; Alain Jounot, op.cit., p.5

61. **Principe de Développement Durable**, Site du Développement Durable(05/08/2014) : www.etudiants.polymtl.ca/dd/principeDD.html

و أنظر تفاصيل أكثر حول المبدأ : Raphael Romi, op. cit, p.117-126.

62. Le Principe de Pollueur- Payeur, op.cit .

63. Le Développement Durable Face aux Risques, OVED, op.cit.

64. تنص المادة L. 1-110 من قانون البيئة الفرنسي:

« Le principe de participation, selon lequel chacun a accès aux informations relatives à l'environnement, y compris celles relatives aux substances et activités dangereuses, et le public est associé aux processus d'élaboration des projets ayant une incidence importante sur l'environnement on l'aménagement du territoire ».

65. Antonio G.M. La Vina, op.cit. p. 980-982.

66. **la Participation du Public**, Le Débat Public, CNDP(07/07/2014), v. Site :http://www.debatpublic.Fr/cndp/debat-public.html

67. **Le Principe de Précaution**, Rapport au Premier Ministre Présenté par Philippe kouri lsky, Geneviève Viney ,Editions Odile Jacob, la documentation française 15/10/1999, pp. 84-98.

68. Le Développement durable Face aux Risques, op.cit.

69. **Principe de Développement**, Article Publié dans l'Encyclopédie du Développement Durable, Vedura, (11/03/2015),v. Site : www.vedura.fr/developpement-durable

70. Alain jounot, op. cit, p.5

71. أنظر: محمد صافي يوسف ،مرجع سابق ، ص 63-64.

72. Antonio G.M. La Vina, op.cit. p. 980; Développement Durable, Aspects Stratégiques, op. cit, p 23.

73. أنظر تفصيلا هذه المشاكل في: Développement Durable, Ibid.

وانظر كذلك :عبد الله بن جمعان الغامدي ،مرجع سابق .

74. Le Développement Durable Face aux Risques, OVED, op.cit.

75. Développement Durable, Aspects Stratégiques, op. cit., P.26-27.

وهناك من يتحدث عن مبدأ الاقتصاد والتسيير الجيد ومبدأ التنوع الثقافي ومبدأ الشمولية (Transversalité et de Globalité)، ومبدأ الإدماج Ibid., p. 21-22.

76. مثل الهيئات التي أنشأتها الجزائر كالمرصد الوطني للبيئة والتنمية المستدامة والمجلس الاعلى للبيئة والتنمية المستدامة ، الوكالة الوطنية للتغيرات المناخية ...الخ.

77. **التنمية المستدامة**، وزارة الدولة لشؤون البيئة ، جهاز شؤون البيئة ، مصر ،(2014/07/30) ،على الموقع :
www.eeaa.gov.eg/arabic/main/about.asp

78. أنظر: عبد الله حكمت النقار ، **ادارة البيئة ،نظم ومتطلبات وتطبيقات ايزو 14000** ، الطبعة الاولى ، دار المسيرة للنشر و التوزيع ، عمان ، الأردن ، 2007 ،ص.122.

79. أنظر: سحر قدوري الرفاعي ، **التجارة الدولية و أثرها على التنمية المستدامة ، المنظور الاقتصادي للتنمية المستدامة** ، أعمال مؤتمرات المنظمة العربية للتنمية الادارية ، المؤتمر العربي الخامس للادارة البيئية المنعقد في تونس ، جامعة الدول العربية ،سبتمبر 2006 ، ص.32

80. عبد الرحيم محمد عبد الرحيم: مرجع سابق ، ص.26.

81. تقرير حول حالة ومستقبل البيئة في الجزائر ، وزارة هيئة الاقليم والبيئة في الجزائر ، 2001 ، ص. 76.

الحداثة السياسية: من التأسيس للعنف إلى تفكيك مفارقاته

محمد الصادق بلام*

الملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى تناول إحدى الإشكاليات الراهنة ، والمتعلقة بسؤال العنف كظاهرة إنسانية متجذرة في التاريخ الإنساني ، ومتوطنة في واقعه المعيش كسلوك سياسي واجتماعي.

من هنا أصبح سؤال العنف من أكثر الإشكاليات الفلسفية والسياسية اشتغالا داخل المتون الفلسفية الحداثية ، ابتداء من اللحظة الماكيافللية وصولا إلى اللحظة الكانطية. غير أن العقل الفلسفي الحداثي في طرحه لمفهوم العنف وباقي التيمات المرتبطة به(القوة –الاستبداد السياسي- السيادة المطلقة للحاكم) أوقع نفسه ضمن مفارقة أدت به إلى حد الانقلاب على ذاته نقدًا ومراجعةً.

على هذا الأساس ، تراهن الفلسفة على مواجه العنف والحد من انتشاره متكئة على خطاب عقلاني نقدي يدعو إلى الحوار والتفاهم في أفق الاختلاف والتنوع. ومتسائلة: بأي معنى يكون العنف مرفوضا فلسفيًا وسياسيًا؟ هل يجوز اللجوء إلى العنف لمواجهة العنف ذاته؟ وكيف يمكن الحد من استشرائه داخل المجتمعات الإنسانية مع تعدد أشكاله وتنوع أساليبه؟

الكلمات المفاتيح: الحداثة السياسية ، العنف ، التعاقد السياسي ، الاستبداد ، الطبيعة البشرية ، الثورة.

Résumé

Ce document vise à répondre à l'un des problèmes actuels, concernant la question de la violence comme un phénomène humain enraciné dans l'histoire humain et endémique dans la réalité de vie en tant que comportement politique et social.

De là, la question de violence est devenue plus abordée dons les textes philosophiques à partir du moment Machiavell jusqu'au moment Kantien. Mais l'esprit philosophique et politique moderne en posant loquetions de la violence et les outres thèmes associés, tels que (Laforce –despotisme politique- la souveraineté absolue au pouvoir) lui a infligé dans Im paradoxe qui le conduit à un coup d'état contre lui-même.

Sur cette base, la philosophie paris face à la violence se penchant sur Im discours rationnel critique qui fait appel Ou dialogue et compréhension à l'horizon de la différence et la diversité.

Mots clés : Modernité Politique, Violence, Contrat Social, Despotisme, Nature Humaine, Révolution.

Summary

This paper aims to address one of the current problems concerning the issue of violence inhuman phenomenon rooted in human history and endemic in reality of life as a political and social behavior.

Of the issue of violence has become more discussed in the philosophical texts from the time Machiavelli until he Kantian but the. Philosophical spirit raising the question of violence and other associated themes (force – the despotism politically-absolute sovereignty) has inflicted paradox that leads to a coup against himself.

On this basis, philosophy paris to violence addressing a critical rational discourse that appeals to dialogue and understanding on the horizon of difference and diversity.

Keywords: Political Modernity, Violence, Social Contract, Despotism, Human Nature, Revolution.

*أستاذ مساعد أ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية – قسم الفلسفة – جامعة باتنة1

تقديم المفهوم

لقد سعى الخطاب السياسي الحداثي منذ اللحظة الماكيافيللية إلى تأسيس ذاته داخل السياسي، والعمل على عزل هذا الأخير داخل المجال الإنساني بتعلة أن الفعل السياسي صناعة بشرية خالصة ينبغي أن يتأصل ضمن مفاهيم جديدة من شأنها أن تقطع مع العقل السياسي الكلاسيكي، ناسفة القول الأرسطي بأن الإنسان "حيوان مدني بالطبع".[1] وما لزم عنه دحض مفهوم امتداد السياسي/الدولة لما هو طبيعي، والتأكيد على أن اجتماعية/مدنية الإنسان إنما تكون بفعل تعاقد اجتماعي يقوم أساسا على مفهوم الحق الطبيعي الذي كان بمثابة نقد لكل ثيولوجيا جعلت من السلطة السياسية حقا مطلقا. فالحق الطبيعي يمتثل كرد فعل حداثي ضد السلطة المطلقة القائمة على نظرية الحق الإلهي.

إن ترسيم الفعل السياسي ضمن مفاهيم العقد الاجتماعي والحق الطبيعي يسوق نحو استقلالية السياسي، وتخليصه من كل هيمنة دينية أو سياسية من شأنها أن تكون مسلكا نحو الاستبداد الديني المتحالف مع السياسي. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نقد الفلسفة السياسية الحديثة لنظرية الحق الإلهي لم يكن نقدا موجها ضد التيولوجيا المسيحية الوسيطية فقط، بل استمر في تقويض كل تيولوجيا منبثقة من الإصلاح الديني، الذي بدوره أبقى على حضور الدين كمرجعية للتنظيم السياسي وبمثابة دعم إيديولوجي لصاحب السلطة.

لعل المتأمل في مسارات الحداثة السياسية يقف على حقيقة تاريخها الذي هو في جوهره تاريخ النقد الجذري لفكرة الاستبداد السياسي ونبذ كل شكل من أشكال العنف الفيزيائي الممارس ضد أفراد الشعب. وبما أن تاريخ الدولة الحديثة لا يمكن قراءته إلا في علاقته بالنظريات الفلسفية التي عملت على تأصيل مبادئ الحكم المدني والحق والسلطة العمومية وسيادة الدولة، فإن هذه الفلسفات في مقاربتها لمفهوم العنف لم تكن ذات رؤية واحدة بل تعددت التفسيرات بشأنه.

لا جدال أن العنف واقعة تاريخية، تعددت وتنوعت أشكاله إلى درجة يصعب معها الكشف عن مختلف مظاهره وتجلياته عبر التاريخ. ومع تطوير تقنيات ووسائل ممارسة العنف الفردي والجماعي بحيث يبدو للبعض على أنه هو محرك التاريخ أو أنه لازمة من لوازم التقدم داخل التاريخ، وهو ما يؤكده المألوف الهيجيلي والماركسي، أي أن ما يحكم التاريخ الإنساني هو الصراع والتناقض وهذا ما يتّضح في كتابات هيجل حول جدلية العبد والسيد، وكتابات كارل ماركس في حديثه عن حتمية الصراع بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمعات الرأسمالية. لكن الفلسفة بسجيتها النقدية تدفعنا إلى أن نتجاوز فضاء الذات، لنكون مواطنين داخل العالم نبتهج لمسراته وإنجازاته ونحزن لآلامه بعيدا عن الكيل بمكيالين لما يحدث في العالم من عنف وإرهاب تختلف الثقافات والمجتمعات في توصيفه حينا إرهابا وحينا آخر مقاومة بحسب اختلاف المصلحة.

وهكذا فالعنف يتعين كسؤال إشكالي بين حدي المعقول واللامعقول أو بين حدي الأخلاقي واللاأخلاقي إذ يحاكمه الفيلسوف بحجة تناقضه مع عقلانية الإنسان وإرادته الخيرة. في حين ترى فيه الدول الحديثة شرط قيامها وضمان استمراريتها، وهو ما تثبته السوسيولوجيا السياسية عند "ماكس فيبر" عندما يجعل من العنف حقا مشروعا للدولة تمارسه باسم القانون: "الدولة الحديثة لا يمكن تعريفها سوسيولوجيا إلا بالوسيلة المميزة الخاصة بها، وأيضا بكل تجمع سياسي آخر ألا وهو العنف الفيزيائي".[2]

إن هذا التناقض المبدئي، يقتضي منا فلسفيا النظر في اساس الحاجة للعنف التي تجعل منه ضرورة فردية أو سياسية والنظر كذلك إلى الحد الذي يتجاوز فيه العنف أرفع غايات العقل ليصبح إرهابا وهمجية وممارسة حيوانية تنسف كل القيم والشرائع. من هنا حاز مفهوم العنف فلسفيا الانهمام الأكثر توطينا داخل النصوص الفلسفية إما دفاعا عنه كمبدأ أساسي تتقوم به الدولة وتستقيم به حقوق الأفراد او إثباتا للامشروعيته ووعيا بنتائجه اللاإنسانية والعمل على تربية الجنس البشري وفق تشريعات وقوانين تدعو إلى تحويل العنف إلى حوار عبر مؤسسات الدولة الديموقراطية الحديثة.

المجال الإشكالي

فهل وفقت الدولة الحديثة في امتصاص العنف من المجتمع أم أنها عملت على ترسيخه داخل ممارساتها السياسية فأصبح أكثر رسوخا وأعمق أثرا؟ وبأي معنى تفهم

الفلسفة العنف؟ وهل يجوز أخلاقيا أن نلجأ للعنف نصرة لمبادئ العقل؟ أليس من باب المفارقة الإنسانية والسياسية أن نجد خطابا فلسفيا يرفع العنف إلى مستوى الحق الذي يستمد مشروعيته من منطوقات العقل؟ وهل يتجه العنف مع تطور الحضارة الانسانية وفي زمن العولمة إلى الزوال أم أنه باق ويزداد عنفا وبأقنعة متعددة؟

أولا: في السؤال عن الحداثة السياسية

لقد استنفر العقل السياسي الحداثي كل امكانياته المعرفية لترسيم منطق جديد خاص بالسياسي، وبعيدا عن كل ممارسة تُصيِّر الانسان مجرد مادة استعمالية توجهها تصاريف متعددة. فكان التفكير في السياسي باعتباره صناعة أو فن بشري خالص، يجب العمل على استجلاء خصوصيته وتحديد أساسه بالرجوع إلى الطبيعة البشرية ومعرفة مكوناتها ونوازعها. فلا غرابة أن نجد "توماس هوبز" في كتابه "المواطن" يفرد القسم الأول لتحليل ما يسميه "ملكات الطبيعة البشرية".[3] وكذا "سبينوزا" في كتابه "الإتيقا" أو "علم الأخلاق" حيث تعد جل فصول الكتاب تحليلا لطبيعة النفس وأصلها وأصل الانفعالات وطبيعتها.

من هذا المنطلق يرفض فلاسفة الحداثة السياسية (نيكولا ماكيافال-توماس هوبز-جون لوك-جون جاك روسو) أن يكون السياسي/الدولة مجرد نتيجة تطور طبيعي لتنظيمات اجتماعية أولية كالأسرة والقرية كما كان الشأن في تفسيرات أرسطو. وهذا يعني أن اجتماعية الانسان لا يحكمها منطق الطبيعة وإنما تفسر داخل منطق التعاقد السياسي المدني، الذي يحيل على الدائرة الإنسانية. وحتى أن مفهوم الطبيعة لدى مفكري الحداثة السياسية مرتبط بالمجال الإنساني في استقلاليته عن قوانين الطبيعة الفيزيائية. فلم تعد الدولة نتيجة حتمية لنظام الطبيعة بل أصبحت محصورة فيما هو إنساني تشتق مضمونها السياسي من منطوقاتها الذاتية وترسم مسارها بإبرام تعاقد سياسي "اعتبر أساسا لتأصيل الحكم المدني وقاعدة للحقوق السياسية والمدنية عامة".[4]

على هذا الأساس تكون الدائرة الإنسانية ومفهوم الطبيعة البشرية هو المجال الذي تقرأ داخله المسألة السياسية مما يعني أن الفلسفة السياسية الحديثة قد حملت على عاتق مسؤولياتها نقد ورفض نظرية الحق الإلهي وبالتالي استبعاد التيولوجيا كمستند أو دعم إيديولوجي لما هو سياسي. ولازمة كل هذا نبذ كل أشكال العنف السياسي الممارس من طرف صاحب السلطة ضد أفراد المجتمع الذين لم يكن ينظر إليهم على أنهم مواطنون بل أطفال قصر لم ينضجوا بعد لإبداء الرأي في الشأن العام.

ومن هنا يمكن تحديد ملامح الحداثة السياسية على أنها توجه نحو المستقبل وقطع مع الماضي السياسي المستغرق في التأمل الميتافيزيقي أو ذاك المتكلس داخل الديني "فالعصر الحديث لم ينتج منذ بدايته فلسفة سياسية جديدة وراديكالية فقط، بل أنتج أيضا ولأول مرة فلاسفة توجهوا عن رغبة منهم إلى متطلبات المجال السياسي ولم يكن هذا التوجه حاضرا لدى "هوبز" وحده، بل حاضر أيضا لدى "لوك" و "هيوم" رغم الاختلافات بينهم".[5]

وإذا كانت الفلسفة السياسية الكلاسيكية جعلت من الفضيلة هدفا ساميا يجب أن يكون مركوزا في نفوس المواطنين، فإن الحياة التأملية (النظرية) أرفع درجة من الحياة العملية. غير أن الحداثة السياسية ستسعى عبر مسارها المتعرج منذ اللحظة الماكيافالية إلى إقصاء مقولات الفضيلة والحكمة الأخلاقية لتؤسس لمنطق جديد يتخذ من الأنثروبولوجيا (الطبيعة البشرية) مدخلا له كما هو الحال عند "هوبز" و"لوك" و"روسو". أو الأنطولوجيا عند "سبينوزا".

ومن الأسئلة التي طرحتها الحداثة السياسية كيف يمكن أن تكون الدولة سلطة عمومية غير تابعة لشخص الحاكم؟ وكيف يمكن أن يكون الحق وليس القوة هو أساس السلطة السياسية؟ هذه الأسئلة وغيرها هي مدار البحث لدى فلاسفة الحداثة السياسية لرسم رؤيتهم السياسية حول مبادئ الحكم المدني والحق والسلطة العمومية وسيادة الدولة.

ثانيا: الحداثة السياسية وتبني العنف

على أساس أن الحداثة السياسية أعلنت الخروج من الكهف اللاهوتي والنظر إلى السياسي على أنه مجال إنساني خالص يحقق فيه الإنسان ذاته من خلال إبرام تعاقدات سياسية تكفل له جملة من الحقوق المدنية، يأتي في مقدمتها حق الحرية. لكن الحداثة السياسية انزلقت نحو تبني العنف والاستبداد السياسي منذ لحظتها الأولى والتي يمكن تتبعها في

الكتابات السياسية عند "نيكولا ماكيافال" و"توماس هوبز" على الرغم من الاختلافات حول صيغ تنظيم العنف والحلول المقترحة بشأنه.

1-العنف والمحافظة على السلطة السياسية

لقد فكر "نيكولا ماكيافال" (1469-1527) " "Nicolas Machiavelفي الدولة والسلطة السياسية بعيدا عن منطوقات العقل الخالص ليجعل من القوة والتدبير البراغماتي تحديدا لماهية الدولة. وبالتالي يكون "ماكيافال" قد جعل من القوة الفيزيائية باعتبارها ممارسة مادية لا تحتكم إلى منطق العقل وإنما لمنطقها الفيزيائي الخاص بها لأجل التحكم في الواقع السياسي والاجتماعي. ومنه تكون الدولة قوة للتسلط والقهر والعنف ضد كل من يهدد كيانها ومصالحها ، وبإمكانها أن تدافع عن هذا الوجود بكل الوسائل التي تحفظ لها السيادة والاستمرارية. لذلك اعتبر "ماكيافال" الحرب بمفهومها الواسع هي أنجع الوسائل للحفاظ على كيان الدولة ، يقول "ماكيافال": "ولكن لما كان قصدي أن أكتب شيئا يستفيد منه من يفهمون ، فإني أرى من الأفضل أن أمضي إلى حقائق الموضوع بدلا من تناول خيالاته ، لا سيما وأن الكثيرين قد تخيلوا جمهوريات وإمارات لم يكن لها وجود في عالم الحقيقة ، وأن الطريقة التي نحيا فيها تختلف كثيرا عن الطريقة التي يجب أن نعيش فيها ، وأن الذي يتنكر لما يقع سعيا منه وراء ما يجب أن يقع ، إنما يتعلم ما يؤدي إلى دماره بدلا مما يؤدي إلى الحفاظ عليه".[6]

وهكذا يتحول الخطاب السياسي من مجال المنشود إلى مجال الموجود ، وحينها تتوقف السياسة على أن تكون ترجمة لمبادئ العقل لتكون تعبيرا عن القوة التي تمتلكها الدولة. فيكون لها الحق في أن تدافع عن نفسها بما تملكه من قوة. ولذلك يدفع "ماكيافال" بالتفكير في الدولة نحو استخدامها للعنف من جهة ما هو مبدأ الوجود السياسي. فمنذ اللحظة الماكيافالية أصبح الأمر يتعلق بضرورة إقصاء الاعتبارات الأخلاقية وفهم العنف كشرط سياسي ومؤسساتي لقيام الدولة وضمان استمرارها بل وتأكيد نجاعتها في فرض تصور واحد للحق والقانون. فلم يعد العنف مع "ماكيافال" خروجا عن منطق العقل وخضوعا عفويا لإرادة القوة بل تحول إلى منطق عقلاني جديد تتنزل فيه القوة منزلة الحق ، كضرورة سياسية تحدد شروط قيام الدولة واستمرارها.

على هذا النحو ، بدلا من أن يكون كتاب "الأمير" تحديدا لمبادئ السلطة السياسية ، وتماشيا مع منطق الحداثة أن تكون سلطة عمومية ، فإنه تمركز في تحليلاته حول شخص الأمير ونجاحه في فرض هيمنته وحمل الرعايا على الطاعة المطلقة لأن قوة الدولة من قوة صاحب السلطة وأكثر من ذلك أن تكون الحرب هي ما يرسم ماهية الدولة ، والحرب من منظور "ماكيافال" لا تنحصر في "الاقتتال والنزاع والصراع ، بل أيضا في الدهاء والتبصر والمكر واختيار أنجع الوسائل لتحقيق غايات السيطرة والقوة".[7]

اعتمادا على هذا التحديد يتماهى شخص الدولة مع شخص الحاكم ، أي أن "ماكيافال" تصور الدولة كقوة فيزيائية وسيكولوجية تابعة في تواجدها لشخص الحاكم وقوته ومصلحته. وهذا ما يمكن توصيفه بشخصنة الدولة بمعنى اختزال كل مقدرات الدولة في شخص الحاكم وعندها يزول التمييز بين الدولة باعتبارها شخص عمومي والحاكم باعتباره الشخص الخاص ، مع العلم أن هذا التمييز هو ضرورة حداثية ترفع الدولة فوق كل حيازة للمصالح الشخصية. يقول "ماكيافال" مقدما النصيحة للحاكم: "عليك أن تدرك أن ثمة سبيلين للقتال: أحدهما: بواسطة القوانين ، والآخر عن طريق القوة ، ويلجأ البشر إلى السبيل الأول ، أما الحيوانات فتلجأ إلى السبيل الثاني. ولكن لما كانت الطريقة الأولى غير كافية لتحقيق الأهداف عادة ، فإن على الإنسان أن يلجأ تبعا لذلك إلى الطريقة الثانية".[8]

بهذا الشكل لم تعد سلطة الدولة عمومية ، وإنما هي جزء من سلطة الحاكم وبالأحرى أصبح الحديث مع "ماكيافال" عن دولة الأمير القوية ذات السلطة المطلقة التي لا تقهر والقائمة على الاستيلاء ، ومن هنا تكون قوة الدولة وقوة الحاكم شيء واحد ، تكتسب سيادتها من فرض هيمنته باتباع منطق القوة والحرب. وهي الصناعة التي على الحاكم أن يمتهنها "على الأمير ألا يستهدف شيئا غير الحرب وتنظيمها وطرقها ، وألا يفكر أو يدرس شيئا سواها إذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة".[9]

إن دولة كهذه ، لن تكون إلا ممارسة للتخويف والترهيب بدل الاعتماد على قوة الحق ، وعندئذ يُحمل أفراد

المجتمع على الطاعة والخضوع لما يقرره الحاكم وأكثر من ذلك يولد فيهم الشعور بأن وجودهم مرتبط بوجوده وأنهم مختزلون في شخصه. "فإن الأمير العاقل سيبحث عن السبيل التي يُشعر بها المواطنون في كل حين وفي جميع الأوضاع الممكنة، بحاجتهم إلى حكومته، فيدينون له دائما بالإخلاص والولاء".[10]

من هذا المنطلق، يحث "ماكيافال" حاكم الدولة ألا يكون شخصا لينا يعير للطيبة والرأفة شأنا وإنما على العكس "أن يتعلم كيف يبتعد عن الطيبة والخير، وأن يستخدم هذه المعرفة أو لا يستخدمها وفقا لضرورات الحالات التي يواجهها".[11] هذا المنطق الذي يتبناه "ماكيافال" إنما يأخذ مقدماته من الأنثروبولوجيا، أي من مقتضيات الطبيعة البشرية. وبهذا يكون النص الفلسفي السياسي الحداثي قد جعل من الأنثروبولوجيا مدخلا لقراءة السياسي. لكن هذه الطبيعة البشرية كما فهمها "ماكيافال" فاسدة وماكرة "فالناس ناكرون للجميل، متقلبون مراءون وميالون إلى تجنب الأخطار وشديدو الطمع، وهم إلى جانبك طالما أنك تفيدهم، فيبذلون لك دماءهم وحياتهم وأطفالهم وكل ما تملكون كما سبق لي أن قلت، طالما أن الحاجة بعيدة نائية، ولكنها عندما تدنو، يثورون، ومصير الأمير الذي يركن إلى وعودهم دون اتخاذ أية استعدادات أخرى، إلى الدمار والخراب".[12]

وبهكذا تصور لماهية الدولة، كان كتاب الأمير بمثابة وثيقة تحمي حقوق الحاكم لا حقوق المجتمع. فالحاكم له الحق في بناء سياسته على القوة والترهيب والمداهنة والمخاتلة "فمن الواجب أن يخافك الناس وأن يحبوك، ولكن لما كان من العسير أن تجمع بين الأمرين، فإن من الأفضل أن يخافوك على أن يحبوك، هذا إذا توجب عليك الاختيار بينهما".[13]

وبالنظر إلى ما سبق يكون العنف والارهاب السياسي هو ما يحمل أفراد المجتمع (الرعية) على الطاعة والامتثال لأوامر الحاكم. "فلا يتردد الناس في الإساءة إلى ذلك الذي يجعل نفسه محبوبا بقدر ترددهم في الإساءة إلى من يخافونه".[14] وما يجعل الدهاء السياسي مشروعا ومبررا من منظور "ماكيافال" هو فساد الطبيعة البشرية. وحينها تصبح الدولة قوة لا تقهر مستمدة من قوة حاكمها الذي هو صاحب السيادة حتى ولو كان بواسطة "الحرب التي تزيل الحدود...الحرب التي تطبق الاكتساح والعدوان الموجه، الحرب التي تقوي الحصون هي سلسلة من الممارسات العنيفة".[15]

من هنا كانت الدولة التي ينصح "ماكيافال" الحاكم بأن يقودها هي دولة حرب مستمرة تمتهن العنف والمكر والدهاء لتحقيق غايات السيطرة والتحكم ف "على الأمير ألا يستهدف شيئا غير الحرب وتنظيمها، وألا يفكر أو يدرس شيئا سواها. إذ أن الحرب هي الفن الوحيد الذي يحتاج إليه كل من يتولى القيادة".[16] وعليه تتحول السلطة إلى تسلط، وقوة الحق إلى حق القوة ومع منطق الحرب التي هي أبرز أشكال العنف تبتعد الدولة عن أن تكون مجتمعا مدنيا. بل تصبح هي ذاتها وسيلة لخدمة صاحب السلطة.

على هذا النحو، يكون العنف السياسي هو أنجع الوسائل من منظور ماكيافال في تدبير شؤون الدولة والمجتمع بمقتضى أن الشر والفساد متأصلان في الطبيعة البشرية من خلال استقراء التاريخ البشري أو فحص مكونات هذه الطبيعة، مما يبرر استخدام العنف من طرف صاحب السلطة. وبهكذا تصور يكون ماكيافال قد مثّل نزعة ارتكاسية تتناقض مع قيم الحداثة المتمثلة في الحرية والنقد والمساواة والتقدم.

2-من عنف الطبيعة إلى عنف الدولة

وفي ذات المسار يواصل العقل السياسي الحداثي مساندته للعنف السياسي حيث يذهب "توماس هوبز" (1588-1679) "Thomas Hobbes" إلى اعتبار العنف متأصل في الطبيعة الانسانية ومكون من مكوناتها، وما يلزم عنه أن تكون الدولة من جنس هذه الطبيعة الفاسدة في الأصل والمحكومة بأهوائها "فانفعالات البشر كلها أكثر قوة من عقولهم".[17] فيندفع الناس إلى تعنيف بعضهم البعض بمقتضى طبيعتهم الفاسدة، وهذه هي حالة "حرب الجميع ضد الجميع وكل واحد في حرب مع واحد وضد الجميع".[18] ومنه ستكون قوانين الطبيعة البشرية هي المبدأ الذي يفسر به "هوبز" ظاهرة العنف التي هي حالة محايثة للإنسان في الحالة الطبيعية لكونها متأصلة في طبيعته، هذه الحالة الطبيعية تغيب فيها كل أشكال الحقوق المدنية والسياسية وحتى مفهوم الدولة.

وإدراكا من "هوبز" بأنه يستحيل أن تستمر حياة الإنسان ضمن دائرة الصراع والحرب وما ينتج عنهما من مكر وخديعة ودهاء، وجب التفكير للخروج من هذه الدائرة بالانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية. وهذا ما يقتضي فهم الطبيعة البشرية قبل التفكير في إنشاء الدولة علما بأن الدولة صناعة بشرية أو كما ينعتها "هوبز" بأنها نتيجة لفن بشري. "فالفن هو الذي يخلق هذا الإله الفاني الذي نسميه الدولة".[19] ولفظ الإله مجاز يستخدمه "هوبز" للدلالة على السلطة المطلقة التي تكون بيد شخص واحد أو هيئة محصورة العدد تستمد مشروعية سيادتها بموجب عقد اجتماعي/سياسي على إثره يتنازل الكل عن جميع حقوقهم الطبيعية لفائدة هذه السلطة. وحينها تصير جميع الإرادات إرادة واحدة بحيث يمكن للحاكم صاحب السيادة المطلقة تحقيق السلم الذي كان مفقودا في الحالة الطبيعية "باستعمال قوتهم ووسائلهم لصالح السلم والدفاع عن المجموع".[20] على شرط أن يلتزم جميع المتعاقدين بالقوانين التي سنها الحاكم دون اعتراض أو مقاومة منهم لأنه في حالة التمرد عن القوانين تسود حالة الحرب المدمرة. ولذلك فأهمية التعاقد تكمن في كونه صفقة رابحة للمواطن، وبالتالي فإن الحاكم من منظور "هوبز" يتحول إلى "قوة عليا عامة تدفع الأفراد دائما إلى الخوف من العقاب".[21]

وبهكذا تصور، فإن قيام الدولة الممثلة بالحاكم صاحب السيادة المطلقة، لا يفقد الإنسان بموجبها طبيعته البشرية الفاسدة وإنما إرادته التي تختزل مع إرادات الأفراد المكونون للدولة في إرادة واحدة يذعن لها الجميع دون أدنى حق للمقاومة. هذا مبرر كاف في نظر "هوبز" لأن تقوم الدولة على سلطة الإذعان والقسر التي يمثلها الحاكم المطلق الإرادة. وهنا بالذات يصعب الفصل بين شخص الدولة وشخص الحاكم "وقد اضطر "هوبز" إلى الدفع بهذا التطابق إلى أقصى حد ممكن، بحيث تحول حديثه عن الشخص المدني (الدولة) إلى حديث عن الحاكم السياسي".[22] وتجدر الإشارة إلى أن طاعة الرعايا للحاكم تدخل ضمن الواجبات المدنية التي على إثرها يتحقق السلم المدني، أما صاحب الحق فهو الحاكم "الذي يكره الغير ولا يكره ذاته لأنه مبدأ كل إكراه مدني ولا سلطة مدنية فوق سلطته".[23]

اعتمادا على ما سبق يمكن أن نستنتج أن التعاقد السياسي عند "هوبز" تكمن قيمته في تجاوزه لمفهوم الدولة عند "ماكيافال" الذي اعتبرها مجرد انعكاس للواقع الإنساني والتاريخي، وهذا ما حمل "هوبز" على التفكير في ما يمكن أن يبرر السياسي انطلاقا من مبادئ يقبلها العقل. بهذا الشكل، كانت الأنثروبولوجيا المدخل الأساسي لدراسة السياسي ومبادئ الحكم داخل الدولة. ولذلك فكّر في معقوليتها بالنظر إلى الطبيعة البشرية والأخطر من ذلك أن فكرة التعاقد عند "هوبز" تتعلق بالدولة لا بالمجتمع لأن هذا الأخير يتشكل بواسطة المصالح والمنافع. يقول "هوبز": "يجب أن نخلص إلى أننا لا نبحث عن رفقاء بأية غريزة طبيعية، بل بسبب ما نستفيده منهم من جاه ومنفعة، فنحن لا نرغب في اشخاص نعيش معهم إلا بسبب هاتين المصلحتين اللتين تعودان علينا بالنفع".[24]

لكن نظرية "هوبز" حول التعاقد تنساق نحو تبرير الاستبداد السياسي وتعويض عنف الأفراد ضد بعضهم البعض بعنف الحاكم والمقربين منه ضد الرعية، وهو عنف أشد من عنف الأفراد ضد بعضهم البعض. فالعنف في كل الحالات ليس سوى تسلط قوة على قوة أخرى أضعف منها بغية تطويعها أو سحقها، "العنف ينفجر، بمعنى يتوسع في كل الاتجاهات وفي الآن نفسه حتى وإن بدا أنه موجه أو يخضع لقانون العقل...فهو غير عادل"[25] فإذن عدم التمييز لدى "هوبز" بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة والممهاة بينهما يفرغ التعاقد السياسي من كل مشروعية ويفقده كل قيمة حداثية. و "أن قوة هوبز تتجلى في أنه أسس بناء على إجراء العقد سيادة مطلقة لا تتجزأ أو أكثر تصلبا".[26]

وإجمالا لم تكن نظرية "هوبز" حول الدولة إلا تمثيلا وتعبيرا عن القوى الارتكاسية التي ترفض كل إبداع وجديد. وتعمل بمنعطف رد الفعل المحكوم بقوى النفي والتدمير، ومنه "فهوبز كان يكمل بشكل فريد ماكيافال"[27]

ثالثا: النقد الذاتي للحداثة السياسية ونبذ العنف

بما أن العقل السياسي الحداثي قد تأزم مع "ماكيافال" و"هوبز"، لكونه أصبح يعيش حالة قلق مزقته بين دعوة جديدة لرفض كل شكل من أشكال العنف ليجد نفسه أمام عودة ارتكاسية تكرس مقولة العنف السياسي

الممثل بجهاز الدولة المتماهية مع شخص الحاكم. وبالتالي كان من الضروري تقديم مراجعة ذاتية لمسار الحداثة السياسية، وهذا ما نجده عند كل من "جون لوك" و"جون جاك روسو". فمن خلال كتاباتهما، استطاع العقل السياسي الحداثي أن يقدم نقدا داخليا واجه به العقل الحداثي ذاته وصحح مساره للخروج من كهف الاستبداد السياسي كيفما كانت منطلقاته براغماتية (ماكيافال) أو فلسفية (نظرية التعاقد السياسي على طريقة هوبز) أو حتى دينية (نظرية الحق الإلهي).

1-التمييز بين الحالة الطبيعية وحالة الحرب

يعتبر "جون لوك" "John Locke " (1622-1704) من أكثر مفكري الحداثة السياسية نقدا للاستبداد السياسي والديني ويرفض أن يكون الإكراه قاعدة للسلطة السياسية حتى ولو كان ضمن بنود التعاقد السياسي كما هو الحال لدى "هوبز" ذلك أن الدولة من منظور "لوك" شيء عمومي "Res-publica" لا تستمد وجودها من سيادة الحاكم وإنما الدولة حرية تجد ترجمتها في السلطة التشريعية التي تعتبر "الفعل الأصيل والأسمى للمجتمع السياسي".[28]

ونتيجة لهذا التحديد لا يماهي "جون لوك" بين حالة الطبيعة وحالة الحرب وإنما يعتبر هذه الأخيرة مجرد انحراف غير طبيعي لحالة الطبيعة التي هي في الأصل "حالة للحرية والمساواة الكاملتين بين البشر".[29] والبشر يدركون أنهم أحرار ومتساوون بمقتضى العقل، هذه الحرية الطبيعية هي أساس بناء الحرية السياسية، مع العلم أن "لوك" يقر بأن ما يسمى بالحالة الطبيعية هي مجرد مفهوم افتراضي لا واقع فعلي. لأن "التاريخ لا يقول لنا إلا القليل عن البشر الذين عاشوا حالة الطبيعة".[30]

لهذا السبب أقر "لوك" بالحالة الطبيعية ليجعل منها فرضية يساجل من خلالها توصيف "هوبز" لها (حالة حرب الكل ضد الكل) وما لم يقبله "لوك" هو ادعاء "هوبز" بأن الخروج من حالة الحرب والعنف يستوجب سلطة الحاكم المطلقة لتحقيق السلم والأمن الاجتماعي. فهذا نوع من التناقض الذي يصل حد المفارقة، إذ يتساءل "جون لوك" كيف يمكن تفسير هذا الوضع الانساني المتمثل في أن الطبيعة قضت على الإنسان أن يكون في حالة حرب دائمة ومغلقة، بالنظر إلى طبيعته الشريرة، وفي الآن ذاته دفعته إلى أن يفكر في حل يخرجه من وضع الحرب إلى وضع السلم؟

بهذه المراجعة النقدية لأطروحة "هوبز" المحايثة للحالة الطبيعية، يرى لوك أن الحرية الطبيعية "تستوجب الالتزام فقط بقوانين الطبيعة".[31] وهذه القوانين الطبيعية تكون "قواعد كونية للعقل"،[32] بموجبها يتعلم كل إنسان أن له حق الحرية مثله مثل الغير، ومن الطبيعي أن يدافع عن حقه في الحرية ضد كل إرادة تريد مصادرته أو الانتقاص منه.

لكن حينما تتجاوز الحرية الطبيعية حدود المعقول ومنطق الطبيعة ذاته تصبح استبدادا وقوة وعنفا لا مبرر لها داخل العقل. وبهذا تتحول حالة الطبيعة إلى حالة حرب، الأمر الذي يستوجب حالة من التنظيم المدني للحياة البشرية داخل الدولة بفعل تعاقد سياسي لا مجال فيه للإكراه والطاعة العمياء، بل هو عقد حرية تتحول الحقوق الطبيعية بموجبه إلى حقوق مدنية عمومية. بمعنى أن ما يعرف بالحقوق المدنية هي ذاتها الحقوق الطبيعية التي تكون بحاجة إلى قوة عمومية ضامنة لها لتفادي العنف والصراع. فسلطة المجتمع المدني الذي يتشكل ضمن مؤسسات وقوانين هو ما يضمن الحقوق الفردية الطبيعية/المدنية وفض المنازعات المفضية إلى العنف.

في أفق هذا التصور، تكون السلطة السياسية بعيدة عن كل نوع من أنواع القسر والتعنيف الممارس من طرف الحاكم على المحكوم كما كان الحال مع "ماكيافال" و"هوبز"، بل هي سلطة للتشريع يمتلكها الشعب تعبيرا وتجسيدا لحريته وسيادته، وحينها "يمتلك المجتمع بكامله حق السيادة".[33]

من هذا المنطلق ينتقد "جون لوك" الاستبداد باعتباره ظاهرة غير طبيعية وغير سياسية لكونه يشرع الحرب والهيمنة والاستعباد. فهو سلطة تعسفية تمتهن العنف أبعد من أن تكون سلطة سياسية على اعتبار أن مجال السياسي هو مجال الحرية والتعاقد العادل الضامن للحقوق المدنية. ولذلك فالحرب وما ينتج عنها من عنف إنما ناتجة عن النظام السياسي الفاسد حتى وإن كان أفراد المجتمع على بعض اللؤم "فلا شك أن الفتن والحروب والاستهانة بالقوانين أو خرقها إنما هي أمور تعزى إلى النظام السياسي الفاسد، لا إلى لؤم الرعية".[34]

وأكثر من ذلك أن "جون لوك" يدعو إلى مناهضة الاستبداد بكل الأساليب إلى حد استخدام القوة والعنف من طرف المواطنين ضد المستبد مادام أنه يهدد حريتهم وملكيتهم "فلا يمكننا استعمال القوة إلا ضد القوة الظالمة واللامشروعة وضد العنف"[35] غير أن أولئك الذين يستخدمون القوة ويمتهنون العنف بدون وجه حق ضد السلطة الشرعية التي تمثل الشعب هم من منظور "جون لوك" متمردون يحاولون إغراق المجتمع المدني ضمن دوامة الحرب والفوضى، وهذا ما يستحق المقاومة والردع.

فإذن استخدام العنف دون سند قانوني تشرعه السيادة العامة هو مسلك نحو الحرب. وعليه تكون كل الأنظمة الاستبدادية في نظر "لوك" تفريخ للفوضى والعنف والبؤس تتوارى خلف أقنعة متعددة لأجل تبرير ممارساتها وانتهاكاتها. وعندئذ تكون ثورة الشعب أمرا مشروعا ورد فعل طبيعي ضد القمع والبؤس، يقول "لوك": "الشعب الذي يعاني عامة من أسوأ أنواع المعاملة بشكل مضاد لحقوقه، لن يترك فرصة انعتاقه من بؤسه تمر دون خلخلة النير الذي فرض عليه فرضا دون وجه حق".[36] وعليه افتتحت الحداثة عهدا جديدا بتأسيسها لمفهوم التعاقد على مقولة الحق بدل القوة.

2-جدل القوة والحق

في أفق الرفض للاستبداد السياسي ينتقد "جون جاك روسو" (1712-1778) "Jean Jacques Rousseau" حق القوة ذلك أن القوة لا تنتج سوى القوة ذاتها، ولا تولد إلا انصياع الغير لها بحكم منطقها العنيف وبالتالي العنف السياسي لا يعدو إلا أن يكون انحرافا بالطبيعة البشرية عن جذورها ومنه فالعنف لا يتعامل مع كائنات بشرية بل يحول تلك الكائنات إلى أشياء ومواد، أو آلات صماء. فالعنف من أبشع مظاهر الفساد حيث يُصَيِّر الناس عبيدا يسلبهم حقوقهم الطبيعية، وفي مقدمتها حق الحرية باعتباره حق طبيعي. يقول روسو: "ولد الانسان حرا، ومع ذلك فهو مثقل بالقيود في كل مكان".[37] ولذلك يفند ""روسو" ما ذهب إليه "هوبز" في أن الشر والفساد كامنان في أصل الطبيعة البشرية ليثبت أن الظروف التي أحاطت بهذه الطبيعة من تطورات حضارية وظهور الملكية بحيث توسعت الفوارق واللامساواة بين البشر هي المسؤولة عن تفشي الفساد نتيجة لجوء البشر إلى الاحتيال والمكر خدمة للمصالح الشخصية، وتاليا "يطغى عنف الأقوياء على العلاقات الإنسانية بشكل يسحق الضعفاء".[38]

هذه الوضعية المأساوية المتمثلة في هيمنة أقلية من الناس على الأغلبية الساحقة أنتجت العنف وبهذا المعنى يكون العنف نتيجة حتمية للظلم الاجتماعي ويتفشى الاستبداد الذي قوامه حق القوة التي لا يمكن أن تكون حقا مطلقا، ولا يمكن لطاعة المستبد أن تكون واجبا لأن طاعة القوة أمر يفرضه التسلط والخوف من العقاب، يقول روسو: "كان الانصياع للقوة فعلا للضرورة الفيزيائية لا للإرادة السياسية، إنه في أكثر الأحوال أحد أفعال التبصر والروية".[39]

على هذا النحو، الاستبداد السياسي هو خروج ليس فقط من معقولية السلطة السياسية بل هو كذلك خروج عن المعقولية الانسانية لأن فيه إكراه للإنسان بأن يتخلى عن حريته وتباعا عن انسانيته "فأن يتخلى المرء عن حريته، يعني أن يتخلى عن خاصيته الإنسانية وعن حقوق الإنسانية فيه، بل هو يتخلى عن واجباته"[40] فالعنف من منظور "روسو" لا يصدر عن أية قيمة أخلاقية أو سياسية، بل مصدره الوحيد هو القوة الفيزيائية التي تنمو وتزداد بضعف المحكومين وجبنهم وأكثر من ذلك أن القوة وتماشيا مع منطقها العنيف تبحث عن كل الوسائل التي تمكنها من المحافظة على ذاتها كقوة بعيدا عن المبادئ الأخلاقية أو السياسية وبالتالي فالقوة لا يمكن أن تكون حقا "وليس الحق جزءا من ماهية القوة، القوة قوة فقط".[41] هنا يقيم "روسو" علاقة سببية بين الجبن من جهة، وبين الاستبداد من جهة ثانية.

وهكذا يسعى المتسيد لكي يكون هو الأقوى له الغلبة المادية والاجتماعية بكل الوسائل إلى مصادرة الحريات وسلب الحقوق. وبهذا فالاستبداد السياسي لا يتماهى مع الطبيعة البشرية الخيرة، وإنما هو أمر مناقض لها. من هنا لا يمكن لأية سلطة سياسية أن تقوم من دون الاعتراف بحق الحرية الذي هو جوهر التعاقد السياسي، وبموجبه يذعن أفراد المجتمع لسلطة القانون الذي شرعته الإرادة العامة المعبرة عن كلية الشعب. ولذلك ينتقد "روسو" التعاقد السياسي كما فهمه "هوبز" لكونه يخلق عبيدا لا شعبا حرا، ويكرس الحكم المطلق والطاعة العمياء، وجبناء يحبون عبوديتهم "فالقوة

جعلت من الأوائل عبيدا، لكن جبنهم جعل عبوديتهم دائمة".[42] وأكثر من ذلك ينبهنا "روسو" إلى أن الانصياع لإرادة المستبد ضرب من الجنون حتى وإن ادعى المستبد أنه يؤمن لرعاياه الأمن والسلم، "وإن فعلا كهذا غير مشروع ولاغ لسبب واحد هو أن من يقوم به يكون فاقدا لعقله، أما أن نسحب القول ذاته على شعب بكامله، فهذا يستلزم أن يكون شعب كهذا شعبا للمجانين، والجنون لا يصنع أي حق".[43]

من هذا التصور يُصِرُّ "روسو" على أن العنف السياسي المنتج لكل أشكال العنف الأخرى هو انتهاك ونسف لفعل التعاقد ذاته، إذ لا يستقيم مفهوم التعاقد —الذي يعني التنازل مع المقابل وليس دون مقابل-مع مفهوم الاستبداد والعنف. فالأصل في التعاقد السياسي هو أنه فعل للحرية وضامنا لها "ومن قال إن إنسانا ما قد يهب نفسه دون مقابل، فقد قال مالا يعقل وما لا يمكن تصوره، إن عقدا كهذا هو عقد باطل وغير شرعي لمجرد صدوره من شخص غير رشيد".[44]

لا نجانب الصواب إذا قلنا إن الفهم العميق لمنزلقات الحداثة السياسية مع "ماكيافال" و"هوبز" حمل الحداثة السياسية إلى الاتجاه مع "روسو" إلى ضرورة استئصال ظاهرة الاستبداد المنتجة للعنف والحرب والصراع من خلال إعادة النظر في مفهوم التعاقد السياسي الذي يجب من منظور "روسو" أن يتأسس على مفهوم الإرادة العامة المعبرة عن كلية الشعب. يقول روسو: "كل واحد يضع شخصه وكذا قوته بكاملها بيد العموم تحت سلطة الإرادة العامة. بهذا الشكل، يصبح كل عضو جزءا لا يتجزأ داخل الكل".[45] وبهذه المراجعة النقدية لمفهوم التعاقد يتحول أفراد المجتمع من قُصّر إلى مواطنين تحكمهم قوة الحق لا حق القوة. وحينها تتآلف الحرية والطاعة تحت سقف القانون دون أدنى تعارض، لأن الطاعة امتثال والتزام بالقانون الذي شرعته الإرادة العامة. وهذا ما يحول دون العنف السياسي، الذي يحول السلطة السياسية من إرادة عمومية إلى إرادة خاصة تنظر دوما إلى افراد المجتمع ليس باعتبارهم مواطنين وإنما أطفال لم ينضجوا بعد. وهذا ما يلخصه "روسو" في قوله: "فالإرادة الثابتة لمجموع أفراد الدولة هي الإرادة العامة، وعبرها يصبحون أحرارا".[46]

على الرغم من أن "روسو" يوافق "لوك" فيما ذهب إليه حول رفضه ونقده لمفهوم الاستبداد، والسلطة المطلقة، إلا أن "روسو" يرفض مفهوم السيادة ذات المرجعية البراغماتية كما حدّدها "لوك"، إذ الدولة من منظوره ليست سوى سيادة المصالح الشخصية للمواطنين. وبالأحرى يرتبط وجود الدولة كشيء عمومي بالمصالح المدنية الخاصة بالمواطنين. فكل دولة تمثل "مجتمعا بشريا الهدف منه إقامة المصالح المدنية والمحافظة عليها وإعطاؤها الأسبقية".[47] هنا يعارض "روسو" بكل حسم أن تختزل مهمة الدولة في حماية المصالح الخاصة للمواطنين وهذا يفقدها كل عمومية وتصبح مجرد حارسة لما هو خاص، لأنه "لا شيء أكثر خطورة سوى تأثير المصالح الخاصة على الشؤون العمومية".[48] وما يمكن أن يترتب عن ذلك في نظر "روسو" هو تحول الدولة إلى مجال لتصارع المصالح الشخصية وتجاهل الشأن العام وتباعا فسح المجال أمام الاستبداد السياسي.

ولتجنب هذا المنزلق، وجب أن تكون مرجعية الدولة سياسية خالصة تنظر إلى الشعب باعتباره إرادة عامة تتجاوز في رؤيتها التموقع داخل الإرادات الخاصة. وبهذا الطرح العميق والمتين لفكرة التعاقد السياسي عند "روسو"، يكون كتابه "في العقد الاجتماعي" هو مراجعة نقدية صارمة لمفهوم التعاقد السياسي كلبنة أساسية للحداثة السياسية. وهنا يتجلى أثر "روسو" الحداثي كعلامة فارقة، يقول "شوفالي": "سيأتي ليضع على القرن علامة لا تُمحى، وسيحضِّر لدولة الشعب أكثر من أي مفكر آخر، الأزمنة الحديثة للسياسة".[49]

وكل انتهاك للعقد الاجتماعي/السياسي يجعل التمرد أمرا مشروعا من وجهة نظر روسو. وحتى لا يَعُمّ منطق الفوضى والقوة، على السلطة السياسية أن تلتزم القوانين العمومية ولا تعبث بالمصلحة العليا للدولة، فتحولها إلى مجرد جهاز لخدمة المصالح الخاصة، ويتحول معها الكائن الإنساني من إنسان مدني إلى إنسان طبيعي لا تحكمه إلا الأهواء والانفعالات السلبية.

خلاصة

من كل ما سبق يمكن القول أنه منذ لحظة "لوك" و"روسو" اتجهت الحداثة السياسية نحو إدانة العنف بوصفه نسفا وتقويضا للعقل والمعنى، وعائقا يحول دون نشر قيم التسامح والحوار ضمن أفق ديموقراطي يعبق بالحرية ويكبح نوازع العنف وتعرية مصادره. وعلى هذا الأساس تكون الدولة

بوصفها تمثيلا للشعب في كليته ذات شرعية تجنبها اللجوء إلى العنف، وتتعامل مع مواطنين يذعنون اختيارا لسلطة القانون العمومية متى أشركتهم في تدبير شؤونهم. ولكن متى عملت الدولة على أن تتشخصن في إرادة خاصة، حينها تعبث بمقدراتها ومصيرها.

من هذا المنظور لا يمكن تعريف الدولة انطلاقا من العنف، وإنما انطلاقا من مشروعيتها السياسية التي بموجبها يمكن ترسيخ مبدأ الحق بدلا من النزوع نحو القوة. وبهذا يتحول أفراد المجتمع من الحالة الطبيعية الهمجية حيث تغيب فيها قوة الضبط والإذعان للقانون إلى حالة مدنية تتجسد فيها المواطنة الفعلية التي تعلو فوق ترديد الشعارات الجوفاء المغذّية للهزال الأنطولوجي وتورم الذات. ومن هنا يكون التغاضي عن الارتقاء بالإنسان وجعله يستكمل غاياته ويستعيد حقوقه هو استئصال لفكرة العدالة من المجتمع وفسح المجال أمام استشراء العنف.

ولا نجانب الصواب إذا اعتبرنا الفلسفة مدعوة أكثر من غيرها من الفنون البشرية أن تكون رافضة للعنف السياسي الذي داخله تتناسل كل أشكال العنف الأخرى. فمهمة الفلسفة هي تطوير أشكال الحوار وتوسيع دائرة الفهم في عالم يزداد اتساعا وتعقيدا. وبهذا فالفلسفة هي ثقافة المستقبل طالما أنها تأخذ وجهة التقدم نحو الأفضل وصناعة العيش المشترك الذي هو شركة حياة فاضلة بتعبير أرسطو، وتبتعد أن تتحول إلى إيديولوجيا تمتهن الهيمنة والعنف الفكري وبالتالي تنتمي إلى الوجود الشبيه دون الوجود بالفعل.

الهوامش

1. أرسطو ، في السياسة ، ترجمة: الأب أوغسطينس بربارة البولسي ، ط 02 ، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ، لبنان ، 1980 ، ص08.
2. Max Wiber, 1975, Le savant et le politique, trad. J. Freumd, collection10/18; paris, p123
3. Thomas. Hobbes, Du Citoyen, traduction modernisée par Samuel Sorbrière, librairie générale française, 1996, paris, p57 paragraphe1.
4. عبد الحق منصف ، الأخلاق والسياسة (كانط في مواجهة الحداثة بين الشرعية الأخلاقية والشرعية السياسية) ، إفريقيا الشرق ، المغرب ، 2010 ، ص244.
5. Hannah Arendt, la crise de la culture, traduite de l'anglais sous la direction de Patrick Lévy, Edition Gallimard, 1972, p103.
6. ماكيافال: الأمير ، تر: خيري حماد ، ط13 ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1985 ، ص135.
7. عبد الحق منصف ، الأخلاق والسياسة ، المرجع السابق ، ص254.
8. ماكيافال ، الأمير ، المرجع السابق ، ص147.
9. المرجع نفسه ، ص131.
10. المرجع نفسه ، ص108.
11. المرجع نفسه ، ص144.
12. المرجع نفسه ، ص144.
13. المرجع نفسه ، ص143.
14. المرجع نفسه ، ص144.
15. V. Jankelevitch, le pur et l'impur, Flammarion, 1960, printed in France, p183.
16. ماكيافال ، الأمير ، المرجع السابق ، ص131.
17. T. Hobbes, Léviathan, (traduit de l'anglais par François tricaut) sirezy, paris, 1971, p174.
18. T. Hobbes, Du citoyen, traduction modernisée par Samuel sorbière, librairie générale française, paris, 1996, p114
19. T. Hobbes, Léviathan, op cit, p05
20. Ibid, p178.
21. Ibid, p115.
22. عبد الحق منصف ، الأخلاق والسياسة (كانط في مواجهة الحداثة) ، مرجع سابق ، ص268.
23. T. Hobbes, Léviathan, op cit, p283.
24. T. Hobbes, Du citoyen, op cit, p59.
25. V. Jankelevitch, le pur et l'impur, op cit, p182.
26. جان جاك شوفالي ، تاريخ الفكر السياسي (من المدينة الدولة إلى الدولة القومية) ، ترجمة: محمد عرب صاصيلا ، مجد ، المؤسسة الجامعية بيروت ، ط05 ، 2006 ، ص329.
27. Ibid, p337.
28. J. Locke, traité du gouvernement civil (traduit par DAVID MAZEL) –GF- Flammarion, 1992, paris, p260, paragraphe 157.
29. Ibid, p143, paragraphe 4.
30. Ibid, p218, paragraphe 101.
31. Ibid, p159, paragraphe 22.
32. Ibid, p148, paragraphe 10.
33. J. Locke, lettre sur la tolérance –GF- Flammarion, 1992, paris, p202.
34. سبينوزا ، رسالة في السياسة ، تر عمر مهيبل ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر ، الفصل الخامس ، الفقرة02 ، ص31.
35. J. Locke, traité du gouvernement civil, op cit; p284, paragraphe 204.
36. Ibid, p309, paragraphe 244.
37. J.J. Rousseau, Du contrat social, présentation H. Guillemin – union générale d'éditions (coll10/18), paris 1973, p60.
38. J.J. Rousseau, Discours sur l'inégalité parmi les hommes, présentation H. Guillemin – union générale d'éditions, paris 1973, p296.
39. J.J. Rousseau, Du contrat social, op cit, p64.
40. Ibid, p67.
41. عبد الحق منصف: الأخلاق والسياسة (كانط في مواجهة الحداثة) ، مرجع سابق ، ص293.
42. J.J. Rousseau, Du contrat social, op cit, p63.
43. Ibid, p66.
44. Ibid, p67.

45. Ibid, p74.
46. J.J. Rousseau, Discours sur l'inégalité parmi les hommes, op cit, p296.
47. J. Locke, lettre sur la tolérance, op cit, p168.
48. J.J. Rousseau, Du contrat social, op cit, p181.
49. جون جاك شوفالي ، تاريخ الفكر السياسي ، المرجع السابق ، ص478.

القارئ في المناهج النقدية المعاصرة

حسين تروش*

الملخص

لم يكن القارئ أهميّة تذكر في نظريات الأدب الكلاسيكية ، لكن نظرياتالتلقي أعادت له حقه وأهميته باعتباره منتجالنص ومؤوّله ، وهكذا انتقلت سلطة الأدب من المبدع و النص إلى القارئ ، فأصبحهذا الطرف حاضرا في العملية الإبداعية ، وغداوجود النص مرهونا بقارئ يمنحه الحياة.

ولقد تأكدت سلطة القارئ مع النقاد الألمان في جامعة (كونستانس) الذين جعلوا للقراءة علم جمال خاص دعوه (جماليات التلقي)،ولكنّه لم يكن حكرا على هذا الاتجاه بل كان إجراءنقديا مهما في أغلب المناهج النقدية ، ومن الذين اهتموا بالقارئالناقد الأسلوبي ميكائيل ريفاتير ضمن ما اصطلح عليه بالقارئ النموذجي ، وأمبرتو إيكو من خلال القارئ النموذج في إطار سيميولوجية القراءة ، كما استوقفتنا آراء جاك دريدا التفكيكية من خلال القارئ المفكِك ، أما نظريات القراءة والتلقي فاقترحت القارئ التاريخي لدى هانز روبرت ياوس ، والقارئ الضمني لدى فولفغانغ أيزر.

الكلمات المفاتيح : القارئ ، النقد المعاصر ، القارئ النموذجي ، القارئ المفكك ، القارئ التاريخي ، القارئ الضمني

Résumé

LE lecteur n'était pas un élément important dans les théories de la critique classique, mais les théories de la réceptionl'ont donner une grande importance parce qu'il est devenu le producteur réel du texte.

Et donc le pouvoir littéraire apassé des mains duproducteurdu texte aux mainsdu lecteur, qui lui donne de nouvellesvies par cessignifications multiple.

L'autorité du lecteur a était confirmé par les critiques de l'Université allemande (Constance), qui a fait de la lecture une esthétique spéciale (l'esthétique de la réception) .

Mais le lecteur était un élément important dans les pluparts des méthodes critiques, comme Riffaterre Michel dans le modèle de L'archi-lecteurdans (la lecture stylistique), et Umberto Eco dans (la lecteur sémiotique)

Et enfin les théories de la lecture et la réception avec le lecteur historiques suggéré par Hans-Robert Jauss et le lecteur implicites de WolfgangIser.

Mots clés : Lecteur, Critique Contemporaine, L'Archi-Lecteur, Lecteur Historiques, Lecteur Implicites

Summary

The receptor was not present in the theories of classical criticism, but theories of reception brought him right and give it great importance; because it became the real producer of the text meaning.

So the literary authority moved from the writer and the text to the receptor hands, and this new relationship gives texts more lives by his multiple significations.

And the authority of the reader was confirmed by critics of the German University (Constance), which give him a special aesthetics (aesthetics of reception).

But the reader was an important element in many critical methods as stylistic reading by Riffaterre and semiotics critic by Umberto Eco, and also explained by the views of Jacques Derrida in the deconstruction theory.

And finally the theories of reading and reception suggest the historical reader by Hans Robert Jauss, and implied reader by Wolfgang Iser.

Key words: receptor, contemporaneous critics, arch reader, historic reader, implied reader.

* أستاذ محاضر – ب- قسم اللغة العربية وآدابها ، كلية الآداب واللغات جامعة محمد لمين دبّاغين ، سطيف 2

مقدمة

عرف النقد المعاصر الحداثة النقدية مع توجه المناهج الجديدة إلى تهميش المرجعيات الخارجة عن النص و إعطاء السلطة للبنى اللغوية المتميّزة التي تحمل في الخطاب الإبداعي الدلالات الخاصة التي يروم النقد الجديد الوصول إليها والإمساك بالخيوط الخفية الموصلة إليها وجعلها المنطلق و الغاية في العملية النقدية دون الرجوع إلى السياقات المحيطة ، و من هذه المناهج البنيوية والأسلوبية والسيمائية.

ثم ما لبثت هذه المرحلة أن تقوضت أمام المناهج ما بعد الحداثية ، و التي أعطت السلطة إلى طرف جديد لطالما أهمله النقد ، ألا وهو القارئ ، فقد جعلت منه مبدعا ينتج من خلال قراءاته إبداعا يوازي العمل الفني نفسه ، أو على الأقل يساهم في الصياغة النهائية لدلالات النصوص من خلال ردود فعله التي اتّخذها النقاد وسيطا بينهم وبين النص ، ومع انتقال السلطة إلى القارئانتقلت سلطة المناهج إلى نظريات القراءة و التلقي .

والمعروف أن سلطة القارئبدأت مع النقاد الألمان ، و بالتحديد جماعة (كونستانس) التي جعلت من القراءة علما جماليا له أسسه الفلسفية ومبادئه الإجرائية التي تساهم في إخراج الأعمال الإبداعية الجميلة من دائرة النص الجامد الذي يخفي بين مستوياته اللغوية دلالاته الجميلة ، إلى دائرة الخطاب الذي تنفتح بناه أمام المباشرة التفاعلية مع القارئ.

ومع انتقال السلطة من المبدع إلى المتلقي أعلن عن موت المؤلف الذي تخلى عن مكانته في العملية النقدية للقارئ ، بل تخلى-كذلك- عن سلطته الإبداعية ، فأصبح يكتب وفقا لهوىالمتلقين لا وفقا لهواه ، مما جعل صوت القارئيعلو على صوتي النص والمبدع معا .

وبتعدد القرّاء تتعدّد القراءات التي تعطي النص الحياة والاستمرارية وتجعل منه نصا مفتوحا على التأويلات المختلفة ، وبذلك تتعدد مستويات القراءة من العادية إلى الممتعة وصولا إلى القراءة الناقدة التي لا تكتفي بالمتعة الفنية بل تتعداها إلى البحث عن الدلالات الأعمق في النص الإبداعي.

وهذاالمقاليحاول البحث عن مفهوم القارئفي المناهج النقدية المعاصرة ، الحداثية وما بعد الحداثية ، لذلك توزعت عناصره كالآتي :

1- القارئفي ضوء المنهج الأسلوبي عند ميكائيل ريفاتير(Michel Riffaterre).

2- القارئفي ضوء المنهج السيميائي عند أمبيرتو إيكو (Umberto Eco).

3- القارئفي ضوء المنهج التفكيكي عند جاك دريدا (Jacques Derrida).

4- القارئفي ضوء نظريات القراءة و التأويل عند آيزروياوس(Hans Robert Jausset Wolfgang Iser) .

وفي خاتمة هذا البحث حاولت تحديد أوجه التشابه و الاختلاف بين هذه المناهج النقدية المعاصرة في نظرتها إلىالقارئودوره.

تمهيد

القارئهو أحد العناصر الأساسية في عملية التواصل الأدبي ، و دوره في العملية النقدية مهم أهمية النص نفسه أو تفوقها كما يوضح ذلك الفيلسوف رومان إنجاردن حين يقرر أنه :" بدون قارئلا تكون هناك نصوص أدبية على الإطلاق "[1].أي أنّ مثلث الإبداع لا يمكن أن يكتمل دون ضلعه الثالث وهو القارئالذي يعضد ضلعي المبدع والنص ويساويها في القيمة والأهمية.

ودور القارئينجلي أكثر في عمله على تحديد المعنى داخل النص: " فالمعنى في النص لا يسوغ ذاته أبدا بل إنّ على القاريء أن يحضر في المادة النصية لكي ينتج المعنى " [2] ، وهذا الحضور لا يكون نصيا مباشرا بقدر ما يكون حضورَ مشاركةٍ وتفاعلٍ وتناغمٍ بين هذه الأطراف الثلاثة مجتمعة .

والقراءة في علاقتها بالنص أصبحت تسيطر على مظاهر النقد المعاصر الجديدة ، حتى اعتبرميشال أوتن أنّه " إذا كان النص لا يوجد إلاّ بوجود القراءة ، وإذا كان التأويل يبدأ عندما يستحوذ القارئعلى النص فإنه يصبح من العسير جدا أن تتحدث عن النص خارج القراءة التي هي من نتائجه ، وأغلب الملاحظات التي سنحاول اقتراحها حول النص هي إذن ملاحظات تتحقق بفضل التأويلات "[3].

وهذه التأويلات التي يتحدث عنها أوتن تقوم أساسا على القارئالذي يعمل على ملء الفراغات التي يتركها المبدع في النص -بحسب المناهج السياقية - أو تنتج عن تركيب مخصوص في لغة الخطاب الإبداعي – بحسب المناهج الحداثية - ، يقول روبرت هولب(Robert Holb) : " ولكن ربما كان أهم نشاط يقوم به القرّاء يتعلق باستبعاد العناصر المبهمة أو الجوانب المؤطرة أو بملئها " [4] ، وعملية الاستبعاد لا تكون إلاّ للعناصر الأقل تأثيرا في النص ، بينما العناصر المهمة التي تثير المتلقي تدفعه إلى التوقّف عندا ومحاولة تأويلها من خلال إكمال النقص الذي يشعر القارئأنّه يشوبها .

والملاحظ أن المناهج السياقية والحداثية قد أهملت هذا العنصر الهام في العملية الإبداعية ، وغفلت عن دوره الكبير في استمرارية النصوص حتى ظهرت نظريات القراءة و التلقي فبعثته من جديد ، ولكن نظرية التلقي – كما تقول بشرى موسى صالح – ليست الوحيدة التي اهتمت بالقراءة والقارئفثمة دراسات مختلفة لها الاهتمام نفسه كالدراسات المبكرة لفرجينيا وولف عن القارئالعادي ... و كذلك دراسات بعض نقاد الاتجاه البنيوي في اهتماماتهم بالقارئ كما عند تودوروف و رولان بارت وأيضا عمالقة السيميولوجياكأمبيرتوإيكو و غيره [5].

لذلك قبل التطرق للقارئفي منهج القراءة و التلقي عند آيزر و ياوس ، سنبحث في المناهج النصانيةعن مفهوم هذا الإجراء النقدي ، وكيف أفاد نقاد هذه المناهج منه في قراءة النصوص الإبداعية ؟ ، و هل أُعطي المكانة التي يستحق أم جُعل ثانويا ؟ ، وما أوجه التشابه و الاختلاف بين هذه المناهج و منهج القراءة و التلقي ؟ .

1- القارئفي ضوء المنهج الأسلوبي عند ميكائيل ريفاتيرMichel Riffaterre

الأسلوبية هي العلم الذي يدرس النص الإبداعي من منطلقين أولهما كيفية تحول النص اللغوي من وظيفته الإيصالية العادية إلى الوظيفة الشعرية التأثيرية ،وثانيهما كيفية استغلال أدوات اللغة للتعبير عن الفكر.وقد بدأت تستمد معاييرها من النظرية العلمية أو من العلم الذي تنتمي إليه كفرع منه وتخضع لشروطه العامة في التحقيق[6]، فقد انطلقت من الخطاب بوجهيه التعبيري العادي والفني الأدبي مما جعل " الأسلوبية تحدد بكونها البعد اللساني لظاهرة الأسلوب ، طالما أن جوهر الخطاب الأدبي لا يمكن النفاذ إليه إلاّ عبر صياغته الإبلاغية ثم تطورت شيئا فشيئا حتى اختصت بالبحث عن نوعية العلاقة الرابطة بين حدث التعبيرومدلول محتوى الصياغة "[7] . أي أن الأسلوبيةكانت في البداية وسيلة تفريق بين الخطابات الإبداعية وغير الإبداعية ،ثم أصبحت وسيلة تحليل و فهم لمدلولات المرسلة الأدبية ، ولكن انطلاقا من البنية اللغوية المتميزة واللافتة للانتباه والمثيرة للدهشة ، وفي هذه المصطلحات ما يوحي ضمنيا بوجود طرف يتأثر بلغة النص ويترجم ذلك إلى ردود فعل يمكن أن تكشف عن المستويات المتعددة للنص .

ورغم أنّ المنهج الأسلوبي هو أحد المناهج النصية التي أعلت من شأن النص على حساب طرفي الثالوث التواصلي الإبداعي (المبدع والمتلقي) ، إلاّ أنّ هذا لا يعني أن أصحاب هذا المنهج لم ينتبهوا إلى أهمية القارئفي العملية النقدية ، ولعل أبحاث الناقد الفرنسي ميكائيل ريفاتير حول القارئالنموذجي (ARCHI-LECTEUR) خير دليل على ذلك ، فقد استعمله " ليحدد في ضوئه مظاهر القراءة الأسلوبية التي تتطلب شخصا متمرسا كل التمرس بنظام لغة الشعر ، و مدركا لطبيعة الاختلاف بين هذه اللغة و اللغة اليومية "[8].

ويرى حميد الحميداني في مقدمة كتاب معايير التحليل الأسلوبي لميكائيل ريفاتير أن هذا الأخير حين عرّف الأسلوب بقوله:"الأسلوب الأدبي كلّ شكل ثابت فردي ذي مقصديّة أدبيّة " [9] أضاف إليه تعريفا آخر استحضر من خلاله مفهوم القارئفرأى أنّ الأسلوب: " هو ذلك الإبراز (mise en relief) الذي يفرض على انتباه القارئبعض عناصر السلسلة التعبيرية"[10]، فاهتمام ريفاتير بالنص وباللغة الشعرية و إيمانه بقدرتها على حمل المعنى الشعري لا يتم دون قارئينتبه إلى التعبيرات الخارجة عن المألوف أو البارزة في النص ، لذلك نجده يلح على أن " إهمال القارئلهذه العناصر يؤدي إلى تشويه النص كما أن انتباهه إليها يشعره بالضرورة بأبعادها الدلالية وغيرها " [11]، فإذا انطلقنا من النص إلى القارئوجدنا أنّه يفرض على المتلقي طاقات تعبيرية خاصة من خلال تلك التراكيب المتميّزة والمنزاحة التي تلفت انتباهه وتدفعه إلى التوقف عندها ، وإذا انطلقنا من القارئإلى النص وجدنا أنّ هذا

الأخير سيساهم في توسيع المجال الدلالي للنص من خلال محاولاته تأويل تلك البنى المتميّزة .

وهذا الدور الذي يعطيه ريفاتيرللقارئفي عملية القراءة الأدبية يعطي للأسلوبية عنده " بعدها السيميائي غير المصرّح به ، كما يؤكد علاقتها غير المباشرة بجمالية التلقي بسبب اهتمامها بالقارئ ، بل وجعله شرطا ضروريا لتحديد الإجراءات الأسلوبية في كل إرسالية أدبية "[12] ، ليتحوّل بذلك إلى طرف مهم في عملية الخلق الأدبي يوازي في قيمته المبدع والنص .

والمبدع عند ريفاتيرترتبطهبالمتلقيعلاقة هامة جدا لها كذلك دورها في التحليل الأسلوبي ، فالمبدع أمامه " شروط إلزامية كثيرة وعليه أن يكون متسلّحا بوعي أكبر لأنه لا يواجه مخاطبا واحدا بل عددا غير محدود من المخاطبين في شتى العصور "[13]. وهذا الاعتقاد الذي أصبح كلّ كاتب يحمله أثناء عمليّة الكتابة صار موجها لهذا الفعل الذي لم يعد ذاتيا خالصا ، فقد صار للمتلقي دور مهم فيه .

ولعل التأثير الأول الذي يسلّطه النص على جمهور المتلقينهو المفتاح الأوّل لتحقيق التواصل مع هذا النص ، و هذا ما وضّحته نبيلة إبراهيم في مقالها القارئفي النص – نظرية التأثير و الاتصال – حين قالت إنّ نظرية التأثير " لا تهتم إلاّ بعملية القراءة دون الاهتمام بنسق مسبق ، وعلى أساس أن النص لا يتم إلاّ من خلال القراءة الواعية التي تتفاعل مع لغة النص تفاعلا كليا وتتحرك معها ولا تحيد عنها من البداية إلى النهاية "[14] ، وهو ما أكّده ريفاتير من خلال عرضه لهذا التفاعل في قوله : " وفي جميع الحالات يكون الأسلوب غير واقع على النص و لكنه موجود في سياق تفاعل القارئمع النـص"[15]. وانطلاقا من هذا التفاعل بين القارئو النص يحدد ريفاتير نوعين من القراءة :

1- القراءة الأولى أو القراءة الاستكشافية : و هي تمثّل مرحلة أولى من الوعي بالنص ومن التأثير والتأثر لأنه يكون تعاملا مع سطح النص و معاينة أولى له .

2- القراءة الثانية أو القراءة الاسترجاعية و هنا ترى القارئيقارن و يجمع العبارات المتتالية والمختلفة ، و الأثر النهائي لهذه القراءة هو اجتلاء وحدة الدلالة الكامنة في النص .

و الملاحظ أن ميكائيل ريفاتير يؤكد أكثر فأكثر على أهمية القارئفي النص فهو يصرح أن " القارئهو الهدف المختار بعناية من طرف المؤلف ، فالإجراء الأسلوبي مؤلف بطريقة لا يمكن معها للقارئأن يقرأ دون أن يسوقه ذلك إلى ما هو جوهري"[16].

والمتلقي– عنده – حاضر أثناء عملية الإبداع الأدبي في ذهن المبدع لأن هذا الأخير " مشغول بالطريقة التي يريد أن تكون إرساليته مفككة السنن بها " [17] ، و بالتالي تجده يكتب وفق أفق توقعات محدد في ذهنه مسبقا ، لذلك نجد ريفاتير يدعو القارئإلى مشاركة المبدع أفكاره و وجهات نظرهـ " القارئملزم أن يفهم بالطبع ، و أن يقاسم المؤلف وجهات نظره في الإرسالية سواء بالنسبة لما هو مهم أو ما هو غير مهم كذلك " [18]

وكما أن هذا العنصريمثلعند ريفاتيرطرفا في عملية التأليف الأدبي ،فهو يمثّل كذلك موضوع التحليل الأسلوبي ذاته ، لذلك نجده يعتبر أنّ " موضوع التحليل الأسلوبي هو الوهم الذي يخلفه النص في ذهن القارئ" [19] ، وكلما تعدد القراء تعددت أوهامهم وقراءاتهم الأولية والتي يستعين بها الناقد لتحليل النص.

وانطلاقا من هذه الأهمية المزدوجة فهو يساهم في خلق حركية النص و استمراريته فـ : " النص رغم طابعه القار من الناحية الشكلية والفيزيائية هو نص متحرك و غير قار من الناحية الأسلوبية ، لأن ما كان فيه مثيرا لانتباه القارئالمعاصر ليس من الضروري أن يحافظ على قوة تأثيره عند تحيين النص بالنسبة إلى قارئيأتي في زمن لاحق " [20] ، أي أنّ استمرار وجود النص مرتبط بالقرّاء المتعددين لا في زمن واحد بل في أزمنة متعددة ، يرتبط فيها النص مع كلّ فئة جديدة من القرّاء بدلالات جديدة لم ينتبه إليها قرّاء الأزمنة السابقة .

لذلك جعل ميكائيل ريفاتير من القارئالنموذجي إجراء أسلوبيا تحليليا ، فالناقد يستفيد من أوهام القراء حول النص ويستفيد من الحركية الأسلوبية التي تقدمها قراءاتهم المتعددة في تأويل النص تأويلا أعمق يحمل بين جنباته كل تلك القراءات السابقة للنص التي تحمل طبقات متعددة من المعنى الذي لا تعرف له حدود .

2- القاريء في ضوء المنهج السيميائي عند أمبيرتو إيكو Umberto Eco

أمبيرتو إيكو هو أحد أقطاب المنهج السيميائي، والمعروف أن هذا المنهج يعلي من شأن النص، ولكنّ إيكو انتبه إلى العلاقة بين الخطاب و القارئحينما اقتنعبتعريف لتودوروف(Todorov) للنص ، فقد اعتبر إيكو " أن النص كما يشير إلى ذلك تودوروف هو نزهة يقوم فيها المؤلف بوضع الكلمات ليأتي القارئبالمعنى"[21] ، وهذه العلاقة كما يبدو تنم عن مشاركة بين الطرفين في إنتاج الخطاب الأدبي ، وليس للمبدع فيها سلطة مطلقة على النص إلاّ ما تعلّق باختيار اللغة الإبداعية ، أما المعنى فهو منوط بالمتلقي وحده، بمعنى أنّ المنطلقات الدلالية التي تأسس عليها النص قبل فعل القراءة لا تستمر وصولا إلى المتلقي ، بل إنّ هذا الأخيريصوغ دلالاته الخاصة انطلاقا من فهمه الخاص ومن ردود فعله تجاه البنية اللغوية للنص.

وقبل تحديده لمفهوم هذا العنصر، بيّن إيكو بداية أنه فضّل مصطلح القارئعلى مصطلح المرسل إليه، يقول : " و لمّا كان قرّ رأينا في هذا الكتاب على الاهتمام بالنصوص المكتوبة دون غيرها ... رأينا أن نتكلم عنالقارئمن الآن فصاعدا بدلا من المرسل إليه " [22] ، لأنّ هذا الأخير يبدو متقبلا لا حول له ولا قوة ، بينما يظهر القارئفاعلا متفاعلا .

والكتاب الذي يشير إليه إيكو هو الموسوم بـ(القارئفي الحكاية)، وهو أحد الأعمال الهامة في مسارهالنقدي وفيه يوضح موقفه من عدة قضايا نقدية منها دور المتلقيفي النص ، وقد استعان فيه بمصطلح (القارئالنموذج) ، الذي حاول أن يحدّه بمفهوم دقيق اعتبر فيه أنّ " القارئالنموذجي هو مجموعة شروط النجاح أو مجموع عناصر التوفيق التي تنشأ نصيا ، والتي لابد أن تتحقق كي ينتقل النص ، ونعني هيئة المتلقي النشيط الفعّال و الذي تفترض وجوده عملية فك رموز الحكاية على أحسن ما يكون" [23]، فهذا المصطلح حامل لثنائية أصولية في مفهومه تتعلّق من جهة بالشروط الواجب توفّرها في النص ، ونقصد بها البنى اللغوية التي تحقق نوعا من الترابط بين النص و القارئ ، وتتعلّق من جهة أخرى بجملة ردود الأفعال التي يبديها القرّاء تجاه رموز الخطاب والتي يحمّلونها وجهات نظرهم الخاصة التي تنفتح على تأويلات متعددة تعدد القرّاء أنفسهم .

وهذا العنصرله دور كبير في النقد المعاصر باعتباره وسيلة هامة في تحليل (ما لا يقال)، وهو المفهوم الذي أعطاه إيكو للتعقيد البالغ الذي يظهر على نسيج النص ، فقد اعتبر " أن ما لا يقال هو ما ينبغي أن يفعّل على مستوى تفعيل المضمون، وهكذا يكتسب نص ما بطريقة أظهر من أية رسالة أخرى حركات تعاضدية فاعلة و واعية من جانب القارئ"[24] ، فالمتلقي يعمل على تفكيك اللغة الإبداعية ثم يعيد تركيبها ليكشف عمّا لم يقله الكاتب صراحة ، ويصل إلى مستوى أعمق قد ينفصل تماما عن المعنى السطحي المباشر ، ليُفعّل القارئبذلك مضمون النص وفق نظرته الخاصة ، وهو ما يخلق تعاضدا فعّالا بين الطرفين .

وإضافة إلى عملية فك التعقيد هذه يدعو إيكو إلى تأكيد هذا التعاضد بين القارئوالنص، من خلال دعوتهالأوّلإلى توسيع موسوعته الخاصة بما يسمح له بقراءة النصوص بشكل أفضل ، فلا حياة للنص إلاّ من خلال ما يعطيه القارئمن معانٍودلالاتلأنّ " النص يمثل آلية كسولة أو مقتصدة تحيا من قيمة المعنى الزائدة التي يكونالمتلقيقد أدخلها إلى النص "[25]، وهي قيمة مضافة يكتسبها النص كلّما تطوّرت أسهم القرّاء تصاعديا، ليصل إلى تحقيق ربحيّة مهمّة حين يجمع الناقد بين ردود فعل القرّاء معا .

وبما أنّ النص يحيا من خلال المعاني التي يعطيها له جمهور المتلقين ، فإنّ أمبيرتو إيكو يصل إلى الجمع بين مصطلحي التعاضد والتفعيل " فالنص يصادر على تعاضد القارئباعتباره شرطا للتفعيل"[26]، و هنا يأتي دور المبدع الذي أخرج هذا النص إلى الوجود والذي خلق لغة النص وسلمها إلى قارئها، و إيكو يعتقد أن هذا المبدع له دور في خلق هذا التعاضد بين القارئوالنص والذي سمح له أن يفعّل معانيه، " لذا تراه يستشف وجود قارئنموذجي يكون جديرا بالتعاضد من أجل التأويل النصي بالطريقة التي يراهاملائمة بأن تؤثر تأويليا بمقدار ما يكون فعله (المؤلف) تكوينيا " [27]، فلا بد أن تتناسب قيمة فعل القراءة التأويلية مع قيمة فعل الكتابة التكوينية ليتحقق هذا التعاضد بين الطرفين ، حتى يسمو إلى درجة التعاون ، شرط أن يفكر القارئبالطريقة نفسها التي فكر بها المبدع أثناء إنشائه النص،" لهذا يتوقع المؤلف قارئا نموذجيا يستطيع أن يتعاون من أجل تحقيق النص بالطريقة التي يفكر بها المؤلف ويستطيع أن يتحرك تأويليا كما تحرك المؤلف"[28].

والخلاصة أن القارئعند أمبيرتو إيكو له دور كبير في تكوين النص ، فهو إضافة إلى المستويات اللغوية التي تنتج عن المبدع يمثّل مستوى تأويليا لا يمكن للنص الاستغناء عنه ، لأنه – كما يقرّ إيكو - " نتاج حيلة نحوية تركيبية دلالية تداولية ، والتي يشكل تأويلها المحتمل جزءا من مشروعها التكويني الخاص " [29]، وتأويلها المحتمل يفترض وجود قارئمحتمل كذلك ، و وجود النص رهن بوجوده .

ولكنّ عملية التكوين النصي المزدوجة هذه جعلت إيكو يفرّق بين نوعين من القراء ، البسيط والناقد ،ولكل نوع منهما طريقته في القراءة والفهم والتأويل ، غير أنّ إيكو يميل إلى النوع الثاني لأنه يملأ الفراغات التي يتركها القارئالبسيط ، فنحن كما يرى "نجري حساب زمن القراءة الذي يستغرقه القارئالبسيط ، إذ يترك في الظّل العديد من القرائن الهامة الموصدةللناقد ، وعليه فقد نرى أن نجري قراءة ثانية مسوقة على الأولى و هي تكون تحليلا نقديا للقراءة البسيطة "[30]. ويقصد أنّ الناقد يمكن أن يبني تحليلاته على ما تتركه القراءات العادية من فراغات دلالية من خلال قراءات ناقدة تستثمر نتائج القراءات الأولى وتُتمم ما عجز القرّاء العاديون عن فهمه وتأويله .

والملاحظ أن القارئالنموذج عند أمبيرتو إيكو هو متلقٍ نشيط فعّال ، فهو يتعاضد مع المبدع في إنتاج النص ، كما يتعاضد مع النص ذاته من خلال توسيع موسوعته الخاصة و التي تسمح له بقراءة أعمق من خلال البحث عمّا لم يقله النص أو المبدع ، فيصل بذلك إلى جعل القارئو القراءة مستوى من مستويات النص التكوينية إضافة إلى مستوياته اللغوية .

3- القارئفي ضوء المنهج التفكيكي عند جاك دريداJacques Derrida

الفيلسوف الفرنسي المعاصر (جاك دريدا) هو مؤسس المنهج التفكيكي ، أقامه على أنقاض المنهج البنيوي ، فقد كان هذا الأخير بنيوياًولكنه خرج على بعض مقولات البنيوية ، وجاء بمنهجه التفكيكي في دراسته للنصوص المؤسسة على الفلسفة الغربيةالتقويضية ، ثم اتجه إلى الأدب الذي وجد فيه ساحة جيدة لتطبيق استراتيجياتهالتفكيكية فدرس أعمال عدد من الأدباء الغربيين أمثالمالارميه(Mallarme)، وباتايوجينيه(Ugine)، وكافكا (Kafka) ، ممن وجد في أعمالهم الإبداعية نصوصا تعبّر عن فلسفته الداعية إلى تغيير الواقع الغربي من خلال الهدم وإعادة البناء ، و وجد في لغتها الإبداعيّة ساحة مناسبة لمنهجه التفكيكي .

والمنهج التفكيكيهو مشروع لقراءة النص ، وهي استراتيجية تهدف لتقويض النص من الداخل وخلخلة بنائه لاستكشاف الدلالة الهاربة و المختلفة تحت ستائر إشاراته الغامضة [31] وقد أكدت التفكيكية على قيمة النص حين أطلق دريدا عبارته المشهورة (لا وجود لشيء خارج النص).

وقد عدّ النقاد التفكيكيون –بعد دريدا- النقد أدباً وإبداعاً ثانياً يقوم على أنقاض النّص ، لذلك اعتبروا أنّ " عملية إنتاج التفكيك ذاتها هي بالضرورة إنتاج نصّ ، وكل كتابة نقديّة من هذا النوع تحتوي نقطتها العمياء الخاصة بها (أبورياAporia)" [32]، فكل تفكيك يفتح نفسه أمام تفكيك آخر ، ومعنى هذا أن الإنتاج الأخير لقراءة تفكيكية لا يمكن أن يكون نهائياً ، لكنه مجرد خاتمة تخضع هي نفسها لعملية محو جديدة ،فإذا كانت العملية النقدية هي نتاج أدبي من نوع خاص فلابد أن للقاريء في هذه العملية دورا مهما.

وهذا نفهمه من كلام محمد عبد الناصر حسن في كتابه (نظرية التوصيل و قراءة النص الأدبي) حين يقول : "وقد حرصت التفكيكية على دور القارئفأتاحت له حرية دخول النص من أية زاوية يرتئيها ، كما أن للمتلقيمطلق الحرية إزاء لا نهاية الدلالة في فتح أو إغلاق التدليل ، ومن الحقّ أن يقال هنا أنّ أهمّ الأدوار في استراتيجيّةالتفكيك هو دور القارئ ، فالقارئ وحده المنوط بخلق المعنى ومن دونه لا يوجد نص أو لغة أو علامة أو مؤلف " [33]، فعملية التفكيك تعتمد أساسا على القارئ ، بل وعلى القرّاء المتعددين لأنّ كلّ واحد منهم يحاول أن يملأ فراغات النص بتأويلاته الخاصة التي تخلق هي ذاتها فجوات كثيرة داخل فعل القراءة الذي يستمر إلى ما لانهاية مانحا النص مستويات عديدة من المعنى .

والقارئ المفكِّك عند دريدايمتلك أهمية مزدوجة ، إذ يحدث عنده المعنى ويحدثه ، ومن دون هذا الدور لا يوجد نص ،كما أن تجربة هذا العنصرلا يوجد قبلها شيء ، فالقارئ يفكك النص و يعيد بناءه وفق آليات تفكيره ، وفعل المشاركة الذي يميّزه يمتد إلى المبدع من جهة ، ولكنّه يمتد من جهة أخرى إلى كلّ القرّاء الذين مرّوا على ساحة النص ، والمعنى

الذي يُحدثه يمثّل طبقة أخرى تعلو طبقات المعاني التي وضعها أقرانه غير أنّ ما يميّزها هو انطلاقها من الفراغات التي تركها هؤلاء .

والتفكيكية هدم وتقويض للفكر الفلسفي الغربي المعتمد على الثنائيات الضدية التي يسمُها دريدا بالعدائية و التي تجرّالقارئإلى اختيار إحداها دائما ، كالدال والمدلول ، والواقع و الحلم ، والخير والشر والعقل والعاطفة و غيرها ، لذلك تنحو التفكيكية إلى القول باستحالة الوصول إلى فهم متكامل للنص ، و بالتالي يستحيل وجود نص / رسالة واحدة متماسكة متجانسة " إن معنى النص منتشر ومبعثر فيه كبذور تنثر في كل الاتجاهات و من ثمّ لا يمكن الإمساك به "[34].

ولعل إعادة دريدا الاعتبار للكتابة هو في حد ذاته اهتمام بالقارئ فـ : " كلمة كتابة لا نطلقها فقط على الحركات البدئيّة لعملية التدوين في الكتابة الأبجدية و الكتابة التصويرية والكتابة الرمزية ، ولكننا نطلقها أيضا على كل ما يجعل الكتابة ممكنة ونطلقها أيضا فيما وراء الوجه الدال على الوجه المدلول عليه نفسه ، وعلى كل ما يؤدي عموما إلى التدوين ، سواء كان حرفيا أم لا حتى لو كان ما توزعه الكتابة على الفراغ مختلفا عن الصوت البشري مثل السينما والرقص... ولكن هناك أيضا كتابة تصويرية وموسيقية ونحتية " [35] ، و كل هذه الأنواع لا تؤدّي وظيفتها دون الطّرف المتلقي الذي يعطيها الحياة سواء كان قارئا أو سامعا أو حتى مشاهدا ، لأن الكشف عن القيم الرّمزية الخفيّة وراء فعل الكتابة والإمساك بالقيم الإبداعيّة التي تحملها هو فعل مهم ، وهو يتمظهر في تلك الآثار التي يتركها النص في نفس المتلقين وهي تختلف من قارئإلى آخر .

ومصطلح (TRACE) أو الأثر وتحول اللغة عند دريدا من نظام للعلامات إلى نظام للآثار يعبر عن دور القارئ ، فهذا الأثر لا تتحدد ملامحه إلاّ عند القارئالذي تتحدد عنده فقط سمات الدوال التي لا تحيل بالضرورة إلى مدلولات معينة ، بل إنّ معناها يبقى مرجأً دائما و هذا ما يشير إليه دريدا بمصطلحي (الاختلاف / الإرجاء) ، وهما مصطلحان مهمان في تحديد دور القارئفي النص ، فهما يشيران إلى السماح بتعدد التفسيرات للمعنى الواحد ، والاختلاف يبيّن إمكانية تزويد القارئبسيل من الاحتمالات ، و هذا الأمر يدفع القارئإلى العيش داخل النص و القيام بجولات مستمرة لتصيد موضوعية المعنى الغائبة [36] .

ولدريدا رأي آخر لا يقل أهمية عن الآراء السابقة وهو مرتبط بالقارئارتباطا وثيقا ، فهو حينما يتحدث عن عدم كمال النصوص وعدم اكتفائها بذاتها ، يشير إلى أنها (أي النصوص) في حاجة دائمة إلى تتمّة وإضافة ، و كأن عدم كمالها هو الضمانة الوحيدة لبقائها ، لذلك يرى أن النص تكمله القراءات المتعددة ، وما دام الأمر كذلك فليس " ثمة بؤرة مركزية يتمحور حولها المعنى وإنما هناك لعب بالدوال وإرجاء ممتد بلا نهاية للدوال إلى مدلولات مختلفة باختلاف القراءة ، ولا تنتهي ولا تتوقف ولا تستقر عند معنى ثابت إلزامي "[37] .

والملاحظ أن آراء دريدا التفكيكية حول القارئفي النص تدور حول فعل الكتابة في ذاته و ارتباطه بالطرف المستقبل أكثر من الطرف المرسل لأن الكاتب يحمّل النص مدلولات معينة مرتبطة بذاته هو ، والمتلقونيقرؤون وفق منظوراتهم الخاصة التي تختلف عن المبدع لذلك فاستمرار النص مرتبط بالأثر الذي يتركه في القارئ.

4- القارئفي ضوء نظريات القراءة والتأويل عند آيزروياوس Hans Robert Jauss et Wolfgang Iser

قبل الخوض في حقيقة مفهوم القارئعند كلّ من آيزر و ياوس تجدر الإشارة إلى أن هذا المفهوم ظهر عند هانز جورج غادامير" H.G. Gadamerالباحث الهيرمينوطيقي " «Herméneutique» في كتابه "الحقيقة والمنهج "عام 1961 ، وحسب "غادامير" فإن العلاقة بين النص والقارئ تخضع دائما لمنطق السؤال والجواب ،أي أنّ النص يحمل — حسب القارئ— الأجوبة عن الأسئلة التي يثيرها فعل القراءة ، ولكنّه في الوقت نفسه يثير في نفسه أسئلة يُفترض بالقارئأن يجيب عنها ،"وبعبارة أخرى لا أرى في نص ما إلاّ ما يعنيني ، ومن الثابت أن الجواب الذي يقدمه النص عن سؤالي لا يكون كافيا تماما وأبدا ، لأن النص هو أيضا يطرح أسئلة وعلى القارئ الآن أن يجد لها أجوبة. ويترتب على ذلك ، أن منطق السؤال والجواب يُقَدم في شكل جدلي أو يقدم- بما أن الأمر يتعلق بالأبستمولوجيا- في شكل حلقة هيرمينوطيقية. وللسبب ذاته ، فإن فهم نص تاريخي ما ، يعني: فهم السؤال الذي

أجاب عنه النص، وبصفة عامة: البحث عما يسميه غادامير بـ" أفق الأسئلة" (L'horizon de questions)."[38]

وهكذافإنّالتّأويل المقترح لنص ما كالنّص التّاريخي مثلالا يعني العودة إلى التّاريخانيّة (historicisme) ؛ لأن أسئلة وأجوبة حقبة معيّنة تشكل بالنسبة إلىالقارئنصا جديدا يجيب بدوره عن أسئلته الخاصة، فإيجاد أفق الأسئلة التاريخية ليس إذن، شيئا آخر غير إدراجه ضمن آفاق القرّاءالآخرين ، وأسئلتهم الخاصة يندمج بعضها ببعض ليحقق مفهوما جديدا اصطلح عليهغاداميربمفهوم "اندماج الآفاق" Fusion d'horizons، واختلاف تلك الأسئلة يؤدي بالضرورة إلى اختلاف تلك الآفاق ، والأجوبة أو التأويلات في هذه الحالة لا تكون مختلفة بسبب اختلاف الأسئلة بل على العكس تكون متكاملة .

وقد تطوّرت مبادئ غاداميربوساطة العديد من تلامذته القدامى الذين تجمعوا في غضون ذلك حول جامعة كونستانس، وقد كان "هانز روبير ياوس" Hans- Robert Jaussأبرز هؤلاء وأكثرهم اهتماما بأعمال أستاذه ويظهر ذلك في تطويره لنظرياته ، فقد سمّيياوسأفق الأسئلةعندغادامير بـ " أفق الانتظار"horizon d'attente، وهو " مجموع السلوكات والمعارف والأفكار المسبقة التي يواجهها عمل فنيما زمن صدورهوالتي على أساسها تقاس قيمته"[39].

وارتباط أفق الانتظار أو التوقّع بالقارئهو ما يوضّح دور هذا الأخير في عملية التأويل " ونقصد بأفق التّوقّع نسق الإحالات القابل للتحديد الموضوعي الذي ينتج بالنسبة لأي عمل في اللحظة التاريخية التي ظهر فيها، عن ثلاثة عوامل أساسية: تمرس الجمهور السابق بالجنس الأدبي الذي ينتمي إليه هذا العمل ، ثم أشكال و موضوعات أعمال ماضية تفترض معرفتها في العمل ، و أخيرا التعارض بين اللغة الشعرية و اللغة العملية ، بين العالم الخيالي والعالم اليومي "[40] ، وهذه الأشكال النمطية من أفق التلقي تمثّل عتبات أولى تتأكد أكثر بأشكال طارئة وجديدة تنمو مع تزايد عملية كسر هذه الآفاق ، ليتحوّل القارئمن شعور التأكيد confirmation إلى التخييب déception، وهنا ينتقل القارئمنالشعور بالسيطرة إلى الشعور بالارتباك ليظهر تأثير النص جليّا، لتتحوّل الأسئلة الأجناسيّةوالموضوعاتيّة واللغويّة إلى مداخل إلى إشكالات أعمق يثيرها النص بفضل خروقاته وانزياحاته، لتنقلب قطبيه السلطة من القارئنحو النص إلى النص نحو القارئ.

لذلك يرى ياوس أن العمل الأدبي لا يمكن أن يخرج إلى حيز الوجود "دون أن يكون له تأثيروهذا التأثير يفترض –منطقياً- ومسبقاً وجود جمهور، هذا الجمهور هو الذي يقوم بعملية التأويل وهذا دوره المنوط به"[41]، فالتّوتر نتاج كسر أفق التوقع ، والتأويل نتاج التأثير الذي يفرضه النص على القارئ، والفجوة الدلالية التي ينتبه القارئإلى وجودها و يحاول ملأها بدلالاته الخاصة هي ما يهم النقد في هذا الاتجاه .

ويسمي ياوس المسافة الواسعةالتي تنشأ بين انتظار القرّاء والنص الذي ينجزها بالمسافة الجمالية (distance esthétique) وهي " الفراغات التي يتركها المؤلف للقارئمن أجل ملئها، فكل جملة تمثل مقدمة للجملة التالية وتسلسل الجمل يحاصر بمجموعة من الفجوات المتوقعة التي يقوم القارئبملئها مستعينا بمخيلته "[42]. والفجوة التي يقصدها ياوس هي التي تحصل أثناء وقوع قطيعة دلالية بين جزأين أو أكثر في النص سواء كانت هذه الأجزاء جملا أو أفكارا أو نصوصا أو قصائد في ديوان أو فصول في كتاب ، وميزة هذه الفجوات أنّها تتسبب في توتر فعل القراءة ، ولكنّها في الوقت نفسه تدفع القارئإلى محاولة ملئها أو إغلاقها بوساطة المعنى الذي يراه الأنسب للربط بين طرفي هذه القطيعة ، وهو ما يجعل من المتلقي شريكا شرعيا للمؤلف يمتلك الحق في الوجود مثل الكاتب.

وأفق التلقي ليس ثابتا في كلّ قراءة ، بل هو متغيّر مع كلّ قارئجديد يتناول النص ، وهذا التنوّع يصطلح عليه ياوس بإعادة تشكيل أفق الانتظار، وهو الذي يمكّن – حسبه - من استعادة الخاصية التحررية للأعمال الأدبية وعدم تقييدها بدلالة أحادية الاتجاه ، فتعدد القرّاء يؤدي إلى تعدّد الآفاق ، وهذه الأخيرة تنفتح على دلالات كثيرة تتنوّع بتنوّع القرّاء وآفاقهم .

أماإيزر" W.Izer فقد اهتم بقضية بناء المعنىوطرائق تفسير النص من خلال ما اصطلح عليه بالقارئالضّمني الذي ارتبط عنده بالكشف عن الدلالة العميقة للنص ومحاولة تأويلها في الوقت نفسه ، وذلك من خلال الانتباه إلى " فجوات النص التي تستدعي قيام المتلقي بعدد من الإجراءات

لكي يكون المعنى في وضع يحقق الغايات القصوى للإنتاج"[43]، فالقارئ الذي يقصده آيزر هو من نتاج النص ، وهو يتوسط بين المعنى والتأويل ، ويرتبط أساسا بالفجوات التي تفصل بين حلقات سلسلة الدلالة المتكاملة التي يهدف كلّ نص إلى تحقيقها ، لذلك فهذا النوع من القارئليس له وجود حقيقي بل يخلقه النص ،ومن ثمة يتحول إلى"مفهوم إجرائي ينم عن تحوّل التلقي إلى بنية نصية نتيجة للعلاقة الحوارية بين النص والمتلقي ويعبر عن الاستجابات الفنية التي يتطلّبها فعل التلقي في النص"[44]

ثم يحدد آيزرنظريتهبشكل آخر عندما يكشف أن فكرة القارئ الضمني تحيل إلى بنية نصيّة ترتبطبالبنية اللغوية التي يحمّلها الكاتب بنية معنوية مقصودة ، ولكنّ الكشف عن هذه البنى الثلاث (النصية واللغوية والمعنوية) هو عمل القارئالذي يتفاعل معها لأنّه يرى أنّ هذه البنى هي " أشكال تحتاج إلى التجسيد حتى ولو أن النص لا يبدو مهتماً بالمرسل إليه أو حتى إذا طبق استراتيجيات تهدف إلى إبعاد كل جمهور محتمل ، إن القارئ الضمني هو تصور يضع القارئ في مواجهة النص في صيغ موقع نصي يصبح الفهم بالعلاقة معه فعلاً "[45] ، فالمتلقي يختلف عنده عن القارئالضمني لأن الأوّل واقعي والثاني نصي ، ولأنّ الأوّل هو من يكشف عن الثاني ، ولكنّ تركيزه على القارئالضمني في نظريته هو تأكيد على أهمية الفجوات النصيّة التي تستوقف المتلقي وتلفت انتباهه وتدفعه إلى التأويل .

ولكي تنجح عملية التواصل بين النص والقارئ " يجب أن ينطوي النص على مجموعة من العناصر أو العوامل الموجهةالتي تسمح له بمراقبةسيرورة التفاعل التواصلي القائم بينه وبين القارئ ، وهكذا يتضح لنا أن المعنى عند آيزر لا يتجلى في النص ، بل ينتج عن هذا التداخل القائم بين النص والقارئ[46]، والفجوات النصيّة هي الوسيط الجامع بينهما ، وعملية القراءة النقدية هي نتاج لهذا التفاعل بين القارئوالنص .

لذلك أقام آيزر تطبيقاته النقدية حول الأدب الأوربي على ردود أفعال القرّاء ورصد شهاداتهم ، فتساءل "كيف يتم استقبال النص الأدبي من طرف جمهور معين؟وهل الأحكام الصادرة عن الآثار الأدبية تعكس بعض وجهات النظر وبعض الضوابط السائرةبين الجمهور المعاصر مما يجعل الدليل الثقافي المرتبطة به هذه الأحكاميمارس تأملهداخل الأدب"[47]، فالنصوص تحمل في طيّاتها أدلة ثقافية على عصورها التي نتجت في كنفها ، والقراءة المعاصرة لها تحقق التواصل بين القارئالمعاصر وبين تلك الأدلة التي يعتبر آيزر أنّها أحد أوجه القارئالضمني ، لأنّ المتلقي يتقمّصها ، وبالتالي يتقمّص ثقافة كلّ عصر ينتمي إليه النص المقروء لتصبح هي ذاتها مفتاحا لتأويل النص وفق رؤية أخرى تختلف عن الرؤية التي يحملها المتلقي .

وانطلاقا من هذه الرؤية يقرر آيزر أنّه " حين يعمد تاريخ التلقي إلى شهاداتالقراء الذينيطلقون ، عبر فترات مختلفة من الزمن ، أحكاما على أثر معينيكشفتاريخ التلقي الضوابط التي توجه هذه الأحكام مما يشكل نقطة انطلاق لتاريخ التذوقالأدبي "[48]، وهي الأحكام التي أراد آيزر أن يضع لها قواعد تحددها ، رغم أنّ فعل القراءة هو فعل حرّ لا تحدّه حدود ، إلاّ أنّ نتائج القراءات المتعددة يمكن أن تكون محددا آخر من محددات القارئالضمني الذي يتشكّل عنده من مجموعة من العناصر ، فهو بالإضافة إلى ارتباطه بالأحكام التي يلقيها القرّاء على النصوص ، يمكن أن يكون بنية نصية منفصلة عن المتلقي ومكمّلة له ، ومتضافرة مع البنية اللغوية والبنية الدلالية ، تعمل على الكشف عن التجاوزات التي يثير بها النص انتباه القارئويحثّه على ملأ فجواتها .

الخاتمة

الفصل بين المناهج النقدية المعاصرة والبحث في مفهوم القارئلدي كل واحد منها على حدة ، لا يعني القطيعة بين هذه المناهج ، فنظرية القراءة والتلقي لم تأت من عدم ، بل أسست قواعدها على مجموعة من البحوث والآراء السابقة حول مفهوم القارئفي المناهج الحداثية وما بعد الحداثية ،وكلّ هذه الاتجاهات النقدية على تعدّد مشاربها واختلاف منطلقاتها الفلسفية وإجراءاتها النقدية تتفق على أهمية هذا الطرف في عملية التواصل الأدبي المعقّدة التي لا يمكن أن ترتبط بالكاتب فحسب ، ولا أن تتحدد في لغة النص الشعريّة رغم تميّزها عن العادي والمألوف ، بل ترتبط كذلك بالقارئالذي يفكك شفرات المبدع التي يبثّها في النص ، ليتحقق الرابط بين هذه العناصر الثلاثة في إطار عام هو القراءة الناقدة .

والملاحظ أنّ النقّاد المعاصرين على تعدّد اتجاهاتهم النقدية عرفوا القارئودوره ، وحاولوا أن يضعوا له مفاهيم

أبستمولوجية ، وأن يحدّوه بأطر معرفيّة واضحة ، ولكنّهم انطلقوا في ذلك من سنن الاتجاهات التي انتموا إليها ، فاختلفت تلك الحدود باختلاف النقّاد وبتعدد الاتجاهات :

1- القارئعند ميكائيل ريفاتير هو معيار من المعايير الإجرائية التي تتضافر لتحليل النصوص الإبداعية ضمن منهج أكبر هو المنهج الأسلوبي الذييعتقد أن النص يحمل دائما بنى بارزة تعمل على لفت انتباه القارئ ، والتأثير الذي يُحدثه النص في القارئهو مدخل أساسي للتحليل ، كما أنّ للقارئدورا مهما في توجيه فعل الكتابة من خلال العلاقة بين المبدع والمتلقي ، غير أنّ ريفاتير ركّز على دور ردود أفعال القرّاء حول النص ضمن القارئالنموذجي في توجيه العملية النقدية ، وهو ما سيساهم عنده في خلق النص واستمرار وجوده .

2- أما عند أمبيرتو إيكو في إطار المنهج السيميائي فيمثل المتلقي أحد المستويات المكونة للنص الإبداعي ، فهو إضافة إلى المستويات اللغوية ، الصوتية التركيبية والدلالية ، يمثّل مستوى آخر يساهم في بناء النص ، لأنّ القارئحسبه يبحث عمّا لا يقال في النص ، وهو بذلك يعمل على تفعيل المضمون الدلالي المسكوت عنه ، ولكنّه من جهة أخرى يعمل على فكّ التعقيد السيميائي من خلال التعاضد بين القارئوالعمل الفني ، مما يحقق الاستمرارية للنص عبر القراءات المتعددة وما تصدره من الأحكام التي يجمعها إيكو في مصطلح القارئالنموذج .

3- أما جاك دريدا فحينما جعل النص مفتوحا على احتمالات التأويل اللانهائية أعطى حرية كبيرة للقارئفي عملية القراءة والتأويل طالما أن الدوال — كما يرى دريدا — لا تحيل على مدلولات محددة ، بل إنّه جعل مدلولاتها مرجّأة دائما ، مما يجعل من القراءة المستمرة سبيلا إلى استمرارية النص ، لذلك اعتبر دريدا أنّ القارئالمفكِك يُحدث المعنى عبر تفكيكه للبنى اللغويّة التي يُعيد تركيبها وفق مواقفه الخاصة .

4- والقارئ عند آيزر ضمنيّ ، ولكنه مثله مثل ريفاتير جعل منه إجراء نقديا للتحليل والتأويل ، يساهم — كما يرى - في وصف التفاعل بين القارئوالنص من خلال الاستجابات الجمالية التي تساهم في بناء المعنى ، والقارئ الضمني هو مجموعة الأدوات الإجرائية التي تحقق الترابط بين القارئالناقد والنص عبر اللغة الشعريّة التي تختلف حولها ردود أفعال القرّاء ، وهو ما يساهم في انفتاح النص على القراءة .

5- أما ياوسفمصطلحاته أفق التوقعات والمسافة الجمالية بين الكاتب والقارئأكّدت على توجّه نظرية القراءة والتلقي إلى تحويل بؤرة النقد الأدبي المعاصر إلى القارئبدل المبدع والنص ، وكسر أفق التلقي هو ما يحقق للنص وجوده ويؤكد العلاقة بينه وبين النص ، لأنّ تحوّل القارئمن توقّع الدلالة إلى خيبة الانتظار هو ما يُحدث توتر القراءة التي تدفع به إلى التأويل ، لذلك اشترطياوس أن يبتعد أفق التلقي عن صفة الثبات ، لأنّ تغيّره الدائم يعطي النص انفتاحا أكبر .

واللافت للانتباه أن هؤلاء النقّاد جميعا و رغم اختلاف مشاربهم النقدية واتجاهاتهم الفلسفية اتّفقوا على أنّ الكتّاب يكتبون إلى قارئافتراضي يتطلعون لأن يفكك نصوصهم ، كما يتطلعون إلى التأثير فيه ، ولكنّهم اختلفوا في التعبير عنه من القارئالنموذجي عند ريفاتير وإيكو إلى القارئالمُفكِّك عن دريدا ، إلى القاريء الضمني في مدرسة كونستانس.

الهوامش

1. تيري انجلتون : مقدمة في نظرية الأدب ، تر: أحمد حسان ، نوارة للترجمة و التوزيع ، القاهرة ، ط2 ، 1997 ، ص69
2. إمان سلون : النظرية الأدبية المعاصرة ، تر: سعيد الغانمي ، دار الفارس للنشر و التوزيع ، عمّن-الأردن ، ط1996 ،1 ،ص159
3. ميشال أوتن : سيميولوجية القراءة ، ضمن كتاب نظريات القراءة من البنيوية إلى جمالية التلقي ، ص59
4. روبرت هولب : نظرية التلقي ، تر : عز الدين إسماعيل ، النادي الأدبي ، جدة ، ط1 ، 1415هـ، ص 91
5. شرى موسى صالح : التلقي ، أصول و تطبيقات ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ط1 ، 2001 ، ص33
6. ينظر: صلاح فضل : علم الأسلوب ،مبادئه و إجراءاته .منشورات دار الآفاق ، بيروت-لبنان ،ط1 1985 ،ص 131.
7. عبد السلام المسدي : الأسلوبية و الأسلوب ، الدار العربية للكتاب ، تونس-ليبيا ،(د ت) ،ص35.
8. ميكائيل ريفاتير : معايير التحليل الأسلوبي ، ترجمة و تقديم و تعليقات : حميد لحميداني ، منشورات دراسات (سال) دار النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط1 ، مارس 1993 ، ص 21
9. المرجع نفسه ،ص 21
10. المرجع نفسه ،ص 07
11. المرجع نفسه ،ص 07
12. المرجعنفسه ،ص08
13. المرجع نفسه ،ص08
14. -نبيلة إبراهيم : القاريء في النص ، (نظرية التأثير ة الاتصال) ، مجلة فصول ، ع1 ،مج5 ، 1984 ، ص 101
15. المرجع نفسه ،ص 26
16. المرجع نفسه ،ص35
17. المرجع نفسه ،ص25
18. المرجع نفسه ،ص28
19. المرجع نفسه ،ص22
20. المرجع نفسه ،ص11
21. أمبيرتو إيكو : التأويل بين السينيائيات و التفكيكية ، تر: سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ط2 ، 2004 ، ص 22.
22. أمبيرتو إيكو : القاريء في الحكاية ، تر: أنطوان أبو زيد ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط1 ، 1996 ، ص 61
23. المرجع نفسه ،ص 65
24. المرجع نفسه ،ص62
25. المرجع نفسه ،ص63
26. المرجع نفسه ،ص67
27. المرجع نفسه ،ص68
28. أمبيرتو إيكو : القاريء النموذجي ، تر: أحمد بوحسن ، ضمن كتاب : طرائق تحليل النص الأدبي ، منشورات إتحاد كتاب المغرب ، سلسلة ملفات ، الرباط ، ط1 ، 1992 ، ص 160 .
29. المرجع نفسه ،ص 85
30. المرجع نفسه ،ص260
31. ينظر : جاك دريدا : في علم الكتابة ، تر: أنور مغيثو منى طلبة ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، ط2 ، 2008 ، ص 125
32. المرجع نفسه ، ص 129
33. محمد عبد الناصر حسن : نظرية التوصيل و قراءة النص الأدبي ، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات ، القاهرة ، 1665 ، ص 57 .
34. المرجع نفسه ، ص 66
35. جاك دريدا : في علم الكتابة ، ص 69 .

36.ينظر : أحمد عزام : النص المفتوح ، التفكيك أنموذجا ، مجلة الموقف الأدبي ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق سوريا ، ص 158.

37.عبد العزيز حمودة : المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك) ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الأعلى للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، رقم (232) ، ص 291-292

38.ينظر : إسماعيل سامي : جماليات التلقي ، دراسة نظرية التلقي عند هانز روبرت ياوس و فولفانجآيزر ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط 1 ، 2002 ، ص 44 .

39.المرجع نفسه ، ص 58 .

40.هانز روبير يوس: جمالية التلقي والتواصل الأدبي ، الفكر العربي المعاصر ، بيروت ، لبنان ، عدد 38 ، ص112

41.المرجع نفسه ،ص118 .

42.أحمد أبو حسن : من قضايا التلقي و التأويل ، كلية الآداب جامعة محمد الخامس ، الرباط المغرب ، 1995 ، ص 108

43.فولفغانغ إيزر: فعل القراءة ، نظرية الوقع الجمالي ، ترجمة أحمد المديني ؛ آفاق المغربية ، العدد6 ، 1987 ، ص28

44.المرجع نفسه ،ص29

45.المرجع نفسه ، ص 38

46.شرفي عبد الكريم: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة: دراسة تحليلية نقدية في النظريات الغربية الحديثة, الجزائر ، الدار العربية للعلوم/ ناشرون ، ط 1 ، 2007م ، ص 220.

47.محمد عبد الناصر حسن : نظرية التوصيل وقراءة النص الأدبي ، ص 132 .

48.المرجع نفسه ، 137.

السوسيولوجيا والمقاربة النقدية للنص الأدبي

عبدالله بن صفية*

الملخص

يسعى هذا البحث إلى تسليط الضوء على العلاقة القائمة بين علم الاجتماع والنقد الأدبي ، مركّزا على ما قدّمته النظرية السوسيولوجية للنقد من آليات ساعدته على إنتاج معرفة علمية تتعلّق بالظاهرة الأدبية وبتجلياتها النصية ، وهي المساعدة التي وَسِعت منذ بواكيرها الأولى كلّ ما يجمع المجتمع بالإبداع الأدبي ، سواء في تتبع شروط إنتاج النص أو إعادة إنتاجه ، لأنّ النظرية السوسيولوجية المهتمة بالأدب تؤمن بأنّ الأدب لا يقوم بمعزل عن سياقه الاجتماعي ؛ إذ ليس هناك أدب منفصل عن شروط إنتاجه الاجتماعية ، فالمجتمع يلفّ سيرورة الإبداع ، ويوجّه سُبله في كثير من الأحيان ، وهذا ما يؤسس لأحقية النقد في مساءلة الأديب والأثر الأدبي والقارئ بآليات السوسيولوجيا.

الكلمات المفاتيح: السوسيولوجيا ، الأدب ، النص ، المجتمع ، النقد.

Résumé

La présente étude vise à déterminer la relation entre la sociologie et la critique littéraire, en se concentrant sur les mécanismes que la théorie sociologique a fourni à la critique pour l'aider à produire une connaissance scientifique reliée au phénomène littéraire et ses aspects textuels. Cette aide a constitué depuis les premiers jours tous ce qui relie la communauté à l'œuvre littéraire, tout en traçant les conditions de création d'un texte ou de sa recréation, car la théorie sociologique qui s' intéresse à la littérature estime que la littérature n' est jamais isolée du contexte social; Il n'y a pas eu une littérature séparée des conditions de sa production sociale étant donné que la société enveloppe le processus de créativité, et souvent le dirige, et c' est ce qui établit le privilège de la critique à interroger l'écrivain, l'œuvre littéraire et le lecteur en utilisant le mécanismes de la sociologie.

Mots clés: sociologie, littérature, texte, société, critique.

Summary

The present study aims to shed light on the relationship between sociology and literary criticism, focusing on the mechanisms provided by sociological theory, which helped to produce a scientific knowledge related to the literary phenomenon and its textual aspects. This aid has comprised, since its first days, everything that combines community to the literary work , both in tracing the terms of producing a text or reproducing it, because the sociological theory that is interested in literature believes that literature does not stand in isolation from the social context. A as a result, there has not been a separate literature from the terms of its social production, because society wraps the process of creativity, and often directs its ways, and this is what establishes the eligibility of the critique in questioning the writer, the literary impact, and the reader by using the mechanisms of sociology

Key words: sociology, literature, text, society, criticism.

* أستاذ مساعد أ، كلّية اللّغة والأدب العربي والفنون ، جامعة باتنة 01

تقديم

تقدّم السوسيولوجيا نفسها اليوم كاتجاه معرفي أثبت جدواه وفعاليته في دراسة وتحليل مختلف تمظهرات النشاط الإنساني تحليلا علميا يتسم بالدقة في التناول تنظيرا وتطبيقا، والصرامة في ضبط الحدود الإبيستيمولوجية للموضوعات المتناولة، وقد غدت السوسيولوجيا بذلك أرضا صلبة يمكن الارتكان إليها في استيضاح واستنطاق الخفي من الظواهر وتفسير الجلي منها، بحثا في الأشكال والتمظهرات، وصولا إلى سياقات الانبناء الخارجية.

وتمشيا مع مساق هذا الطرح، نجد أنّ الأدب، بما هو نشاط إبداعي إنساني، في اهتمامه بتصوير المجتمع بذاكرته الجمعية وموضوعاته الراهنة ورؤاه المستقبلية المشتركة، قد نال قدرا كبيرا من الاهتمام السوسيولوجي، ونلمس هذا بجلاء في الدراسات التنظيرية والتطبيقية عند كلّ من "لوكاتش" و"غولدمان" و"ألتوسير" "وبيير زيما" وغيرهم، وهو الاهتمام الاجتماعي الذي سوّى لنا ما نصطلح عليه اليوم "علم اجتماع الأدب"، بما هو إسهامٌ جديد يحاول أن يزيح الفواصل بين ما هو أدبي وما هو سوسيولوجي ويؤكد أنّ ثمّة مجالاً مشتركاً بينهما يستحق الاهتمام والدراسة من أجل فهمٍ أكثر عمقاً للنص الأدبي ومنه لأحوال المجتمع.

وهو الاهتمام نفسه الذي أسّس لمجموعة من النظريات التي تسعى إلى مقاربة النصّ الأدبي من وجهات مختلفة، وأعطى الناقد الأدبي مجموعة من الآليات التحليلية ليتعامل بها مع النص، بل وأكثر من ذلك، ضبط اتجاه تحليله وتعامله مع النصوص تبعا للوجهة التي يختارها من منظور اجتماعي، لعلّ أبرزها ثلاث متكاملة، هي: نظرية الانعكاس، الدراسات السوسيو- نصية، وسوسيولوجية القراءة، والتي سنعرض لها في عملنا هذا بالترتيب.

1- نظرية الانعكاس

لقد جاء مصطلح الانعكاس للتدليل على النظرية القائمة أساسا على الصفة التي تتمظهر بها الأشياء منعكسة انعكاسها في المرآة، والنظرية هنا تضع الأدب والمرآة في كفتين متقابلتين متوازيتين، لتبيان أنّ ما يقوم به النصّ الأدبي ما هو إلاّ انعكاس لواقع اجتماعي واقتصادي وسياسي معين، وهو في ذلك مثل المرآة التي تعكس صور الأشياء وحركاتها والمتغيّرات التّي تطرأ عليها على النحو الذي هي موجودة فيه في الواقع دون زيادة أو نقصان، وبناء على هذا فقد حُدّد معيار القيمة الأدبية لدى أصحاب هذه النظرية في الحكم على جودة هذه النصوص من عدمه بناء على علاقتها بالواقع الذي تعكسه، أو تحاكيه، أو تقوم بتصويره، وذلك على اعتبار أنّ النصّ الأدبي هو أوّلا وأخيرا وليد المجتمع الذي نشأ في كنفه وابن السياقات السوسيو ثقافية المؤطرة لتمظهراته ودلالاته على تنوعها واختلافها.

ويعتبر "جورج لوكاتش"[1] رائد هذه النظرية بامتياز، والواضع الأبرز لمبادئ هذا الاتجاه الذي يعدّ امتدادا لفكرة تشربها "لوكاتش" من كتابات الفلسفة الجدلية التي تعود بأصولها إلى الفيلسوف الألماني "هيجل" وبعده " ماركس"، فأفاد منهما في بلورة فكره، خاصة في ظلّ ما تحدث عنه "كارل ماركس" بصدد الصلة القائمة بين علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج من جهة، والثقافة والفنون والفلسفة ... من جهة أخرى، وذلك وفقا لما أطّره الفيلسوف الألماني بمصطلحي "البنية التحتية" و"البنية الفوقية"، حيث وضّح بناءً على هذين الاصطلاحين أنّ العلاقة القائمة بينهما علاقة جدلية قائمة على التأثر والتأثير؛ فالبناء التحتي بحسبه يرتكز على الجانبين الاقتصادي والاجتماعي وأيّ تغيير يلحقه يؤدي ضرورةً إلى تغيير في البناء الفوقي الذي يعود بدوره فيؤثر في البناء التحتي من خلال توطينه أو تغييره. وتبعا لذلك فإنّ أيّ تغيير يلحق المجتمع نتيجةً للتحولات الاقتصادية والاجتماعية هو مؤثر بالضرورة في الوضع الإنساني، ومن ثمّة في شكل نصوص الأدب ومضامينها بما هي جزء مهم من البنية الفوقية، وهذا يعنى أنّ الأدب انعكاس للواقع الاجتماعي ولا بدّ من النظر إليه وفق هذا المنظور، ودراسته في إطار هذه الفكرة، وقد دعا "ماركس" بهذا الصدد إلى البحث عن الظواهر الاجتماعية داخل النصوص الأدبية في أكثر من مقام.

والانعكاس حسب "جورج لوكاتش" هو نتاج جدل الذات والموضوع من ناحية، وإعادة بناء للطرفين من ناحية أخرى، أو هو بصيغة أخرى البنية الذهنية التي يتمّ التعبير عنها بالكلمات. وإذا نقلنا هذا الأساس المعرفي إلى الفن، قلنا إنّ كلّ إبداع يعكس الواقع على نحو لا يخلو من فاعلية الذات ولا من الوجود المستقل للموضوع، ويعني ذلك أنّ كلّ

انعكاس إبداعي هو تصوير للواقع على نحو فني مشحون بالانفعال الذاتي الذي لا ينفصل عن موقف اجتماعي، هو الأساس الموضوعي لتوجيه بؤرة الانعكاس[2]، وما دام الأديب وفق هذا المنظور محاكيا لما هو واقع في زمنه فعليه أن يتّخذ في كتابته طريقا من ثلاث: أن يمثّل الأشياء كما كانت في الواقع أو كما يتحدث عنها الناس وتبدو عليه، أو كما يجب أن تكون[3]. وهو الأمر الذي لطالما أراد "لوكاتش" إثباته في كتاباته عن "بلزاك" و"إميل زولا" أثناء بحثه عن جدلية العلاقة بين النص الأدبي وبين دلالات البنيات الاجتماعية.

وهذا ما يؤكده"هيبوليت تين"[4] الذي يعدّ من أهم نقاد القرن التاسع عشر الساعين إلى إحداث مزج بين العلم والأدب، وقد اعتبر "تين" الأدب صناعة إبداعية من بيئة معينة، أي أنّه نص إبداعي موجّه وفقا لقسريات ثقافية سابقة عن عملية الإبداع تصنع بنيته وتصرف دلالاته وفق منحى مفروض عليه مسبقا، بلون مختلف من نصّ إلى آخر، اللون الذي تقتضيه عوالم الأديب الداخلية فالأدب - من هذا المنظور- وإن أنتج في كنف هذا الأديب أو ذاك فهو ليس عملاً شخصياً محضاً، بل هو عمل تمّ إنتاجه في زمان ومكان معينين مصدره الجماعة التي ينتمي إليها المبدع، أو المجتمع الذي يلفّه ويلفّ مضامين نصّه. وعلى هذا الأساس يذهب "تين" إلى القول بأنّ الأدب فعل يستجيب فيه المبدع لمجموعة من العوامل يراها "تين" المعايير الأساسية التي من خلالها ينتج أدب أيّة أمة وهي المعايير التي حدّدها في ثلاث: الجنس والبيئة والزمن.

أ – **الجنس** /**العرق**: ويقصد به الخصائص القومية المميزة لكلّ أمة من الأمم، وهي الخصائص التي تجعل أدب أمةٍ ما متميزا عن أدب أمةٍ أخرى بالنظر إلى اختلاف وتباين الخصائص القومية، وقد اعتبره "تين" "أقوى العوامل تأثيراً في الإنتاج الفكري، ذلك لأنّه يمثل خلاصة الزمن الطويل الذي تكوّنت فيه مقومات الجنس وصفاته المكتسبة التي أصبحت غريزية لا سبيل إلى إزالتها والتخلص منها"[5]، فمجموع الاستعدادات الفطرية التي تميّز فئة مخصوصة من الناس التي انحدرت من أصل واحد، لها تأثيرها على تركيبة الذات المبدعة،ومزاجها، ونمط تفكيرها ورؤيتها للعالم، بمثل ما لها تأثير على جانبها العضوي الخارجي على النحو الذي تثبته الأنثروبولوجيا، وهو ما يطبع النصَّ بخصوصية الجنس الذي ينتسب إليه مبدعه.

يعزى الاختلاف الحاصل في التشكيلات الأدبية ومضامينها على اختلاف أنواعها - بحسب "هيبوليت تين"- إلى ما يرثه المبدع من خصوصيات ثقافية يستمدّها فطريا من الجماعة التي ينتمي إليها، وينحدر سلالةً منها، ولذلك يمكن القول بأنّ أدب الجنس السامي يختلف عن أدب الجنس الآري، وأدب المشارقة يختلف عن أدب المغاربة، وأنّ الشعر العربي يختلف كلّ الاختلاف عن الشعر الغربي ... وعلى هذا النحو تُستصدر الأحكام الفاصلة، وتستنبط المعايير المميزة، وتربط النتاجات بأصولها الأولى، التي هي أصول المبدع ذاته، وهو ما يولّد للناقد خصائص جاهزة مسبقا يمكنه الاستئناس بها حين عملية تصنيف الأعمال، وحين محاولة ربطها بمصادرها، وهو في الوقت نفسه ما يمكن أن يحيل إلى الفئة الاجتماعية والثقافية التي ينتمي إليها الأديب حتى وإن انتسب إلى غير أرضه.

ب – **البيئة / الوسط**: ويقصد بها انعكاسات الفضاء الجغرافي في النصّ الأدبي، وهو الفضاء الذي ينسب إليه العمل الإبداعي وصاحبه في الوقت نفسه وغيرهما من أفراد المجتمع الذين تجمعهما بهم صلات ثقافية معينة، فالبيئة هي "موئل الإنسان وعالمه الذي يتشكل فيه وبه. وتعني البيئة لدى "تين" كلاً من المناخ الجغرافي والاجتماعي على السواء، ومن هنا فإنّها لا تسهم في تشكيل الذات المبدعة في تطورها ونموها فحسب وإنّما تشارك أيضاً في صياغة المادة أو العالم الذي يتخلّق في العمل الأدبي ومن خلاله"[6]،فالإنسان حسب "تين" ابن بيئته خاضع لواقعها ومعطياتها، فهو ليس بمعزل عنها، وليس بمعزل عن عاداتها وتقاليدها ولا يمكنه أن يكون كذلك لأيّ سبب من الأسباب، فهو مرتبط بها، متصل بثوابتها ومتغيراتها؛ فالمناخ العربي مثلا يختلف عن المناخ في إنجلترا وهو ما يؤثر في تشكيل مزاج الفرد العربي ومزاج الفرد الإنجليزي، ومن ثمّة يتأثر أدبهما بالمزاج الخاضع للبيئة، وهو ما يفرز للقارئ نصوصا مختلفة شكلا ومضمونا.

ج-**الزمن / التاريخ**: ويعني به روح العصر، وامتدادات النصّ تاريخيا، ومجموع الظروف السياسية والثقافية والفنية والدينية التي لها تأثيرها في المنتج الأدبي، وتصاحب عملية

إبداع النص ، ويؤكد "تين" بهذا الصدد أنّ الفن جوهر التاريخ إذ هو أحسن ناقل له فاللحظة التاريخية التي يعيش فيها الكاتب تعدّ ذات أهمية قصوى لو أدركنا ماهية هذه اللحظة ، ويفرّق "تين" بهذا الصدد بين العصر والفترة والمرحلة ، فيذهب إلى أنّ: "العصر أوسع بكثير من مفهوم المرحلة أو الفترة لأنه يشمل كلّ ما تعرفه بروح العصر التي يصوغها الفعل الإنساني والتراث الإنساني كما تعيها وتمارسها هذه اللحظة التاريخية"[7].

إنّ (الجنس/ البيئة/ الزمن) هي عوامل أدّت مهمة ربط الأدب بسياقه الاجتماعي فحدّدته مصدرا ، منه الانطلاقة وإليه العودة في حال أراد القارئ تحليل النص وفهمه ، ولذلك نجد أنّ مصطلح "الانعكاس" بما يقتضيه من آليات ورؤى تحليلية قد اتصل اتصالا وثيقا بالمنهج الاجتماعي الدارس للأدب مؤكدا على الصلة الوثيقة بين الأدب والمجتمع ، مخالفا نظرية الفن للفن التي تبني آفاقها على جثث المبدعين في غياب أيّ اهتمام بالسياقات الخارجية التي تنشئ النص. لذا نجد أنّ الناقد الذي يؤسّس كتاباته على نظرية "الانعكاس" يدرس العمل الأدبي على أساس أنّه جزء من النظام الاجتماعي ، فيبيّن كيف ولد هذا العمل ، وما علاقته بالأنظمة الأخرى ، وما الأشياء التي يرمي إليها. يقول "جورج لوكاتش" عن هذا المنهج: "إنّه منهج بسيط جدا ، يتكون أولا وقبل أيّ شيء من دراسة الأسس الاجتماعية الواقعية بعناية"[8]، وهو ما يعني "أنّ الأدب يصوّر لنا الحياة الاجتماعية في الفترة التاريخية التي كتب فيها ، ويعطينا صورة واضحة عن وقائع اجتماعية محددة"[9] وهو ما يقتضي ضرورة الولوج إليه قراءةً وتحليلا من باب السوسيولوجيا وذلك بتوسّل ما تمنحنا من آليات استكشافية وأدوات للقراءة.

وفي هذا السياق ، واستنادا إلى كتابات "جورج لوكاتش" بما تضمنته من مفاهيم خاصة: بالفرد الإشكالي ، البطل الإشكالي التشيؤ ، الوعي الممكن ، الوعي الزائف ، .... وغيرها من الاصطلاحات الأخرى التي طوّرت فيما بعد ، انبرى "لوسيان غولدمان"[10] رائد البنيوية التكوينية ليؤسس نظريته المتعلقة أساسا بعلم اجتماع الرواية ، وقد جاءت أفكاره أكثر عمقا في دراسة بنية الأعمال الإبداعية واستكناه دلالاتها في ظلّ التغيرات الاجتماعية والاقتصادية مقارنة بأفكار أستاذه "لوكاتش" ، حيث ذهب في إطار أوسع إلى اقتراح ما أسماه "تماثل البنى" ، والذي قصد به تذاوت المبدع والمجتمع لحظة الكتابة ، وهو ما لخّصه "غولدمان" في اتجاهين حين أقرّ بأنّ: "الأديب يفعل ما يفعل إمّا لأنّه ينتمي ، اجتماعيا ، إلى فئة محددة ، بإمكانه التعبير عن أفكارها ، أو لأنّ سيرته الذاتية وبسبب وقائع معينة ، تتوافق مع تجارب فئة اجتماعية ، لا ينتمي إليها بالضرورة ، أو أنّ الأديب يبدع ما يشاء من دون أن يبتعد ، في الحالات جميعها عن الأرض التي تهيؤها له الجماعة"[11]، وعن طريق هذا التماثل استطاع "غولدمان" تفسير السبب الكامن وراء قدرة الفرد على التعبير الإبداعي والفني عن تطلعات الذات الجماعية التي هو جزء منها ، أو التي قد تجمعه بها علائق معينة أمكنه من خلالها التعبير عن أفكارها ورؤاها وأحلامها ، فوصل بذلك النصّ الأدبي بالأطر الاجتماعية والثقافية التي تلفّه والتي يجب الاستناد إليها حين عملية القراءة .

لقد حاول "غولدمان" البحث عن العلاقات الرابطة بين الأثر الأدبي وسياقه الاجتماعي/ الاقتصادي ، الذي سبق تكوينه مشبّها العلائق الألسنية بين المفردات والتراكيب اللغوية ، بالوسط الاجتماعي وتركيباته البنيوية ، حيث الأثر الأدبي مكوّن من تراكيب لغوية لا يُمكن فهمها إلا في ظلّ علاقاتها كبنية متكاملة ، لتفسر على أحسن وجهٍ انطلاقاً من بنية المجموعة كلها في علاقتها بالسياقات الخارج نصية التي ترتبط معها وظيفيا. ليكون "لوسيان" بهذه النظرة قد وافق أستاذه في المبدأ الذي تتشكل وفقه النصوص الأدبية بالرغم من الخصوصية والعمق الذي تمتعت به تنظيراته وتطبيقاته على الرواية.

ويجب التنويه في هذا المقام إلى أنّ "لوسيان غولدمان" قد اقترح اصطلاح "الرابطة الوظيفية" بدل مصطلح الانعكاس الذي رفضه ، وذلك لما يبديه - حسبه- مصطلح "الرابطة الوظيفية" من مرونة في الاستخدام ، وما يفرضه من تساوق بين الآثار الأدبية وبين توجهات الوعي الجماعي للفئات الاجتماعية ، ناهيك عن نيته في وضع مسافة فاصلة بين الأدب بما هو نص إبداعي له خصوصياته ، وتخييلاته ، وتوجهه الفكري والإيديولوجي المرتبط أساسا بتوجه المبدع ، وبين المجتمع الذي يساهم في عملية التشكيل والبناء لكن دون أن

يكون هو ذاته (بشكل مطابق) المقصود و المعبّر عنه في النص.

وسواء وضعنا مفهوم محاكاة الأدب لما هو اجتماعي تحت مسمى "الانعكاس" أو تحت اصطلاح "غولدمان" "الرابطة الوظيفية" إلا أنّ هذا التحديد لمفهوم الأدب، ووظيفته، ومعيار الحكم عليه، يصيبه الارتباك لعدة أسباب ومن عدة أوجه، وعلى رأس مواطن هذا الارتباك اهتمام أصحابه بالمضامين على حساب الأشكال، وانصرافهم الكلّي إلى ربط المتون النصية بالسياق الاجتماعي، وجعل فهمه حكرا على هذا السياق في ظلّ عملية مقارنة بين ما هو موجود في النص الأدبي وبين ما يقابلها في الواقع الخارجي، ناهيك عما وقعوا فيه من إهمال للجانب الفني الجمالي.

2/ سوسيولوجية النص الأدبي

تقوم هذه النظرية أساسا على رفض ما جاءت به نظرية الانعكاس، من حصر لدور النصّ في تصوير حالة المجتمع لا غير، بل واعتباره نتاجا ماديا شأنه في ذلك شأن أيّ نتاج آخر، كما رفضت الاقتصار في دراسة الأدب على المضامين دون الأشكال، فالدلالة حسبهم تتحدّد انطلاقا من الشكل، وليس فقط من خلال المضامين والدلالات الاجتماعية التي تحملها. وبداية هذه النظرية كانت بمثابة "أوّل محاولة منظمة للربط بين أشكال التعبير الأدبي وطبيعة الواقع الاجتماعي، وهو ربط يتجاوز بكثير كلّ الأفكار التي سادت القرن السابع عشر عن أثر البيئة والمناخ على الشخصية القومية وعلى القومية التي تؤثّر كذلك في المؤسسات السياسية والاجتماعية"[12]، ويُرجع أصحاب هذه النظرية السبب في ذلك إلى تهميش اللّغة بإيحاءاتها وأشكالها بما تحمله من شحنات معرفية وأيديولوجية كامنة، ومن ثمّة جاءت دعوتهم إلى التعامل مع النصّ انطلاقا من لغته بفهم التراكيب اللغوية في النصّ الأدبي على مستويين؛ مستوى الاستعمال اللغوي العامي المعروف في الواقع، ومستوى التوظيف الجديد في النص المثخن بالدلالات والقائم على عديد من المرجعيات، ويقتضي التحليل الاهتمام بالمستويين معا.

ولذلك اعتبر أصحاب هذه النظرية، وعلى رأسهم "ميخائيل باختين"[13]، النصّ الأدبي مجموعة من اللّغات المتحاورة والتي تختلف تمظهراتها تبعا للفئات الاجتماعية الممثلة داخل النص بمعجمها وبلاغتها، وأيديولوجيتها، للتعبير عن مصالحها وعن رؤاها فيصبح النصّ الأدبي بذلك فضاء خطابيا ذا قيمة مرجعية متشاكلة مع الواقع والأيديولوجيا عن طريق اللّغة ورموزها المستخدمة. «فالنظام اللغوي عند "باختين" مثله مثل النظام الاجتماعي ككلّية متعادية ومتناقضة وليس كنظام قواعد مجردة يستخدمها الفرد ليتكلم ويصدر أقوالاً»[14]. وقد ذهب "باختين" في طرحه إلى أنّ العلاقات اللّغوية هي في حقيقتها علاقات إيديولوجية «ففي الواقع يعطي الشكل اللغوي للمتكلم في سياقات بيانية دقيقة، الأمر الذي يفترض سياقا إيديولوجيا دقيقا كذلك، ففي الواقع، نحن لا نلفظ، أو نسمع كلمات بل حقائق أو أكاذيب، أشياء جيدة أو سيئة، هامة أو تافهة، مليحة أو قبيحة .... إنّ الكلمة معبأة دائما بمعنى إيديولوجي وواقعي»[15]. وهي كلمة تنتمي إلى نظام اجتماعي ديناميكي متغير لا يؤمن بالثبات، فتتغير بذلك محمولاتها الإيديولوجية لتكون دائما المؤشّر على كلّ التحولات المجتمعية " فالكلمة محملة دائما بمضمون أو بمعنى أيديولوجي أو واقعي على هذه الشاكلة تفهمها ولا تستجيب إلا للكلمات التي توقظ فينا قصدا أيديولوجيا، أو لها علاقة بالحياة"[16]، في تشابكاتها المختلفة وفي حواريتها الدائمة.

ومن هذا المنظور غدت دلالات اللّغة بإحالاتها وإيحاءاتها وقائع اجتماعية في حدّ ذاتها، بل هي أصوات متصارعة على حدّ قول "باختين" داخل تركيب حواري قد يرد معلنا صريحا وقد ينثال متخفيا في متن النص الأدبي ليجسد ما يزخر به الواقع من تجانس فكري وتعايش ثقافي وصراعات إيديولوجية، أو بعضا من ذلك كلّه، نظرا لمحدودية النص زمنيا ومكانيا. وهذا ما جعل الدراسات السوسيو – نصية فيما بعد تنطلق في تعاملها مع النصّ من النصّ ذاته لتربط دلالاته الجزئية فيما بعد بسياقه الاجتماعي المنتج له، أي تبدأ بالنص باعتباره كينونة مغلقة مكتفية بذاتها إلى أن تتولّد الدلالات الداخلية للنص، فيتمّ ربطها بالخارج النصي ربطا للمتن وشكله بالواقع، استزادة للفهم وإثراء للدلالات في ظلّ علاقة النص، بنيةً ومعنى، بما ولد في كنفه.

فالسياق الخارجي بما يخلّفه من أثر في ذات المبدع هو ما يعطي للنصّ شكله ومضمونه. فإذا اعتبرنا أنّ العمل

الأدبي هو ابن بيئته ، فإنّنا نقرّ ضمنا بأنّه ابن السياق الذي يعيشه المبدع ويعيد ترجمته فنيا من منظوره الخاص ، وبناء على ذلك تكون دراسة المناخ الاجتماعي والثقافي ضرورية لفهم بعض جوانب هذا العمل ، ذلك أنّ البيئة الثقافية والاجتماعية جزء لا يتجزأ من الظاهرة الأدبية ؛ كما أنّ المعنى النصّي مرتبط ارتباطا وثيقا بالسياق الذي ينتمي إليه حتّى يمكن أن نفهمه بشكل ملائم ، لأنّ كلّ كاتب ينتمي إلى زمانه ، وكلّ مؤلف ، كيفما كان ، لا بدّ وأن يعكس روح العصر الذي ينتمي إليه[17]. وعليه يجب أن نموقع الكاتب بعد الاطلاع على نصه شكلا ومضمونا من خلال ما تمنحنا إياه اللّغة برموزها وتراكيبها ونظامها من دلالات في سياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي الذي أنتج النص داخله حتى يمكن قراءة نصوصه قراءة ملائمة لأنّ علاقة النصّ بالمؤلف وعلاقة المؤلّف بواقعه المعيش تكونان معطى أساسيا في تداولية النص الأدبي ،أي في النظرية السياقية للدلالة[18].

وفي السياق نفسه ، وانتصارا للجانب الشكلي للنصوص نجد إلى جانب "باختين" الناقد التشيكي"بيير زيما"[19]، الذي يرى بأنّ «الطرح الشكلاني يلخص بطريقة معينة برنامج سوسيولوجيا النص ، له قبل كلّ شيء ، قيمة إجرائية تجريبية ، حيث إنّنا كلما أُحلنا على بنى لسانية (دلالية ، تركيبية ،سردية) أمكننا ذلك من تقديم مسوّغات ، قابلة للمراجعة ، لكن عندما نتحدث عن الوعي أو الحقيقة التاريخية المنعكسة بواسطة عمل أدبي فإنّ المراجعة التجريبية حينئذ تصبح صعبة أو مستحيلة»[20].وهو بذلك يرفض الحدود المفهومية الخطابية للنظرية النقدية التقليدية ، ويصرّ على الجانب اللغوي الذي يعتبره ركنا ركينا في محاولة فهم العلاقة التي تجمع النصّ والسياق الاجتماعي. يقول بهذا الصدد إنّ «العلاقة بين الأدب والمجتمع لا يمكن وصفها إلاّ على المستوى اللغوي»[21]،فاللّغة هي بنية اجتماعية ثقافية بمحمولات إيديولوجية ، والنص الأدبي ما هو إلا ملفوظ يشكّل قسما (ضمنيا أو ظاهرا) من حوار واسع بين جماعات يجوز أن تدخل مصالحها ورؤاها للعالم من نزاعات معينة[22] ، وأنّ النصّ الأدبي بشكل عام والنصّ السردي بشكل خاص مجبر على نقل هذه الرؤى بشكل ديمقراطي ، في دائرة حوارية لا تكتفي بكتابة هواجس الذات ورؤاها من منظور يقصي الآخر أو يهمشه.

لقد انصرف هذا الاتجاه النقدي إلى قراءة النصّ الأدبي في حلقته اللسانية المغلقة ، بعيدا عن سياقات إنتاجه ، وقد اعتمد أصحابه على دراسة اللّغة أوّلا بما هي الحدّ المستغرِق لكلّ الحدود المكوّنة للنص ، مستفيدين مما وفّرته اللسانيات من مفاهيم جديدة أعطت الريادة للبنى والأساليب والأشكال على حساب المضامين ، بحثا عن أنماط التمظهر الدالة بذاتها عن معاني النص بعيدا عن أيّ وصل ظاهر بالمؤلف وسياقات الإنتاج ، ليخلّف هذا الربط إلى المرحلة الثانية التي تستدعي إلى جانب ربط الأشكال بالمضامين النصية الظاهرة السياقات الاجتماعية والثقافية الخارجية المنتجة للنص الأدبي والموجهة لدلالاته ، والهدف من عملية التأخير هذه هو الاكتفاء بمنطوق النصّ وعدم تقويله ما لم يقله ، على النحو الذي كان سائدا في كتابات النقاد الاجتماعيين الكلاسيكيين الذين كانوا لا يلجون النصّ إلا بعد أن يعرّجوا على الكاتب والسياق الاجتماعي المحيط به الذي كتب فيه وعبره النص الإبداعي ، وهو ما ولّد للقارئ نصوصا نقدية إسقاطية ، تبحث عن تبريرات اجتماعية لأحكام مسبقة داخل المتن الأدبي ، فلم يعد بذلك الأدب إلا مرتعا للاستشهاد وموئلا للاستدلال على الواقع.

3/ سوسيولوجيا القراءة

إنّ محاولة القبض على فعل القراءة وعلى جمهوره مسألة تبدو مردودة للوهلة الأولى لعدة أسباب ، لكنّها في البحث السوسيولوجي تغدو ممكنة ومتاحة بما يمتلكه هذا البحث من إمكانات للإحصاء وآليات للكشف والمساءلة تمكّنه من تفعيل مقارباته والوصول إلى النتائج المرجوة ، بل حتّى إلى بلورة نظرية شاملة تلفّ فعل القراءة ومجتمعه [23].

تؤمن هذه النظرية بداية بأنّ لا وجود لنصّ خارج وعي القارئ ، "فإذا كان فعل الكتابة يصدر عن ذات مبدعة ، فإنّه لا يتحقق ولا يوطّن إلاّ من خلال فعل ملازم هو فعل القراءة"[24]، وبذلك تكون القراءة هي الوجه الثاني الذي يكتمل به فعل الإنتاج. فالنص الأدبي بالتعريف هو "بنية دلالية تنتجها ذات (فردية — أو جماعية) ضمن بنية منتجة ، وفي إطار بنيات ثقافية واجتماعية محدّدة"[25] ، يُقرأ النصّ عبرها كفعل بعدي ، وبذلك يأخذ فعل القراءة أهميته وقيمته

المنتجة للنص. وهو ما جعل النظرية الاجتماعية الأدبية توليه أهمية بالغة، وتمنحه مساحة من الاهتمام والدراسة ضمن مجال اختصاصها لتنّصفه كحلقة ختامية مهمة لا مناص منها لتكملة عملية التواصل الإبداعي مع مجتمع القراءة.

ولمّا كان تعامل القارئ مع النصّ وتجاوبه معه يقف على نوعية الكتابة وكيفية التلقي، فقد اهتمت سوسيولوجيا القراءة كثيرا بالنظام الداخلي للنص في علاقته بفضاء تجربة المتلقي وآفاقه، وكذا زمن الكتابة وزمن القراءة، معتبرة فعل القراءة فعلا منتجا مولّدا للدلالات، يجب الاهتمام به وضبط مساراته وتحديد قواعده، لكن شريطة أن لا يتوقف هذا الفعل عند حدود العالم الداخلي الذي تنشئه المعطيات اللغوية والبنائية في النصّ الأدبي بالرغم من انطلاقه منها، بمعنى أنّ النص " المقروء " يحقّق العملية التواصلية بجدارة حين يربط القارئ الحصيف دلالاته الداخلية بالعالم الخارجي الذي كتب فيه النصّ مع مراعاة الزمن الذي يقرأ فيه. ومن هنا تؤكد النظرية الاجتماعية على ضرورة اندغام وعي القارئ بتشكّلات النصّ ومحتوياته بغية فهمه واستنطاقه و تحليله تحليلا يفي بحق مقصدية النص الاجتماعية، لكي يرسم أبعاده الفنية والموضوعاتية، وليدرك أمداءه، وبذلك تصبح القراءة فعلا إنسانيا منتجا لا يختلف في شيء عن فعل الكتابة بما هو فعل سابق عنها.

ويعتبر الفرنسي "روبير إسكاربيت"[26] من أبرز الباحثين الذين اهتموا بالدرس السوسيولوجي الأدبي، وأكثرهم اهتماما بسوسيولوجية الجمهور والقراء، وبالنصّ الأدبي لحظة إنتاجه مرة ثانية من طرف القارئ وما ينجرّ عنه من آثار تواصلية أو تبليغية أو إيديولوجية أو جمالية وغير ذلك مما يفرزه في علاقته بالقارئ، وفي هذا السياق أكّد "إسكرابيت" في أكثر من موضع من كتابه"سوسيولوجيا الأدب" بأنّ الاستناد إلى ما هو خارج النص يسعف كثيرا في فهم العمل الأدبي، لأنّ العمل الأدبي حسبه ليس نتاجا خالصا للكاتب فقط، ولكنّه أيضا تعبير وترجمة للشروط الاجتماعية الموجّهة لمجتمع القراءة، ولهذا فسوسيولوجيا الأدب تركّز على فعل الكتابة وعلى النصّ وتتجاوزهما إلى عمليات النشر والتداول الأدبي ووقع المؤلَّف على القراء، وأثر النصّ بمضامينه الفكرية والإيديولوجية في القار ئ فردا وفي مجتمع القراءة جماعة.

في هذا السياق، يفرق "إسكاربيت" بين نوعين من الجمهور ويضع كلّ واحد منهما داخل إطار معرفي مختلف عن الآخر هما جمهور الكاتب وجمهور الناشر[27]، أمّا بالنسبة لجمهور الكاتب فهو الجمهور الحاضر في عملية الخلق منذ إرهاصاته الأولى، إلى ساعة المخاض وصولا إلى زمن الاكتمال، وهذا الجمهور هو ذاته مجتمع القراءة الضمني الذي يتخيّله المبدع ويكتب له، ويحاوره ويسائله، ويحذف لأجله ما يراه لازم الحذف، ويضيف من أجله ما يجب إضافته، وهو بالمقابل ذاته الجمهور الذي يتوجّه المبدع بعمله إليه وينتظر منه الرأي والنقد.

وبالمقابل نجد أنّ جمهور الناشر، على خلاف ذلك، إذ هو الجمهور الذي يستهدفه النشر كمقتن للعمل الأدبي لا غير، وهو ما يستوجب الدعاية والإشهار وعرض المنتوج دون أيّ اهتمام كبير بالمضامين[28]، فيُهتم إزاءه بالعناوين والأغلفة الخارجية والتصديرات والألوان والصور وإغراءات دلالة الكلمة المركِّزة على عواطف الجمهور ونوعية الخط ولون الورق وغيرها من مغريات الاقتناء وشروط التسويق التي تستوجبها المنافسة.

وتأسيسا على هذه الرؤية، لا يمكن إصدار أيّ حكم على نجاح العمل الأدبي أو فشله بالنظر إلى الجمهور بنوعيه؛ سواء في شاكلته الأولى المتخيَّلة التي تستقرّ في ذهن المبدع ولا تبرحه أو في شاكلته الثانية الحقيقية المقبوض عليها من طرف الناشر بما يأسر به من بهرج وزخرف، وهو ما يستدعي معيار "عدد المبيعات"[29] كحل رئيسي يمكن الاحتكام إليه حين الحديث عن النجاح أو الفشل بغضّ النظر عن طبيعة المشتري، هذا إضافة إلى ما يخلّفه العمل من أثر في ذات القراء جماعة لا أفرادا، وفي هذا السياق يقول "روبير إسكاربيت": "الكاتب الناجح هو الكتاب الذي يعبّر عما كانت تنتظره الفئة الاجتماعية، والذي يكشف هذه الفئة أمام نفسها. إنّ الانطباع لدى القراء بأنّه خطرت لهم الأفكار نفسها وأحسّوا بالمشاعر ذاتها، وعاشوا الطوارئ نفسها، هو واحد من الانطباعات التي يذكرها غالباً قراء كتاب ناجح"[30]

ومن ضمن ما توصل إليه "إسكرابيت" في بحثه السوسيولوجي/ الأدبي تحت عنوان من العناوين التي تحدث فيها عن مشاركة المبدع في عملية الإنتاج من طرف الجمهور الحقيقي، تمييزه بين نوعين من القراءة: "القراءة العارفة" و"القراءة الذوقية"، وهما القراءتان اللتان يفرق بينهما باعتبار القراءة الأولى حصيفة واعية تسعى إلى رفع الحجب عن القيم الجمالية للنص، فتسائل الكتابة الأدبية للكشف عن الخفي ولاستنطاق المخبوء الدلالي، وهي بذلك قراءة "يمرّ المطّلع فيها وراء الزخرف ليدرك الظروف التي تحيط بالإبداع الأدبي، محلّلا مقاصده، محلّلا وسائله"[31] فينفد عبرها القارئ من خلال التشكيلات اللغوية الظاهرة نحو أعماق النص مستعينا بخزينه الثقافي أو فضاء تجربته أو نصّه القابع بلغة "جوليا كرستيفا" إلى المعاني والدلالات الخفية، ومما يسم هذا النوع من القراءة أنّها قراءة على درجة عالية من الذكاء والذوق والمعرفة، فهي محيطة بالفعل الإبداعي وقواعده وآفاقه وتهدف في نهايتها إلى إحقاق الفائدة والمتعة وهو عادة ما يتحقق لها.

أمّا القراءة الثانية فذوقية مقيّدة بجملة من المعطيات التي تصنعها الدعاية والشائعة التسويقية. وهي ذاتها القراءة التي يرصدها ويتتبعها الناشر حين تعقّبه لتأثير الكتابات في جمهور القراءة، عبر وسائط مختلفة على رأسها وسائل الإعلام على اختلاف أنواعها، فإن لاحظ الإعجاب اعتبر العمل ناجحا وانصرف إلى المبدع لتحفيزه وتمديد عقده، وإن سجل غير ذلك انصرف عنه إلى غيره. وعليه فإنّ مقياس هذا النوع من القراءة تجاري وذوقي تتحكم فيه جملة من المعطيات التي تصنعها الدعاية والسمعة في كثير من الأحيان.

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ القراءة الذوقية ميزتها التغيّر المستمر وعدم الثبات على نصّ بعينه، أو على معيار جمالي واحد، شأنها في ذلك شأن تذوّق أغاني اليوم، إذ كلّما ظهرت سحائب جديدة انصرفت إليها كلّ الآذان، ولمّا غدت هذه القراءة المنصرفة إلى كلّ ما هو جديد مركزا استهلاكيا بامتياز فإنّ الأعمال الأدبية العالمية أصبحت تعاني من التهميش والعزوف الذي يقوده الهوى وفساد الذوق إلى المنتهى. وبناء على هذا يمكن القول بأنّ فعل القراءة فعل متقلب من فترة زمنية إلى أخرى ومن مكان إلى آخر غيره، وذلك تبعا لكثير من العوامل المؤثرة، النائسة بين العامل الداخلي النفسي والعامل الخارجي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والديني وغيرها من العوامل المؤطرة لعملية الإنتاج.

وغير بعيد عن هذا الطرح، نجد "جاك لينهارت"[32] يوافق"إسكرابيت" فيما ذهب إليه من أحكام، فبعد أن أقرّ بأنّ الظاهرة الأدبية هي من زاوية أخرى، واضحة ودقيقة، ظاهرة اجتماعية: "وأيديولوجية ترتبط أساساً بسلم القيم الاجتماعية، وعلى أنّ الجمهور ليس كتلة متجانسة، بل تتدخل المصالح الفئوية أو الطبقية المتعارضة غالباً لتتمفصل على مستوى القراءة"[33]. تناول هو الآخر بالدرس والتحليل في كتاباته إلى جانب شروط الإنتاج النصي حقولا جديدة ترتبط بأثر النص في مجتمع القراءة، وجوانب السيرورة الاجتماعية للنص، وبذلك يرفض "لينهارت" ما ذهب إليه "ياوس" ومن لفّ لفّه في تعاملهم مع القارئ المثالي وإهمالهم القارئ الحقيقي، فهم: " يحاولون أن يروا كيف أنّ الجوانب الأسلوبية، والبلاغية للنص، يمكن أن تفترض قارئاً معيناً أو ضمنياً أي: قارئاً يقع في أفق الانتظار... بمعنى أنّهم يتوقعون وجود إرادة محتملة لدى الجمهور القارئ من خلال قراءة النص. ولكنّهم لا يذهبون أبداً للبحث عنها من جهة القارئ المحسوس بالذات. فهم لا يقومون بتحريات ميدانية لمعرفة كيف يفكر القارئ، وماذا ينتظر من العمل الأدبي"[34]. وهو ما جعل "جاك لينهارت" يشجّع البحوث الميدانية ويحاجج بالمحاولات التي أجراها "روبير إسكاربيت" بهذا الصدد محيلا إلى أنّ الإشكالية قد أصبحت متمركزة حول فعل القراءة وعلى طبيعة القراء، مع إقرار مسبق بتعدّد الجمهور الفعلي كما يجسده الواقع المعيش، والذي نلمح فيه عامة أصنافاً ثلاثة[35]:

أ-**الجمهور المتخيّل/ المحاور**: وهو الجمهور الحاضر في ذات الكاتب ولا يفارقه، الجمهور الذي يكتب له بُغية إقناعه، فهو مفروض في أصول عملية الخلق الأدبي، ولا مناص من حضوره تخييلا في ذات كلّ مبدع حين عملية الإنتاج، فهو الرقيب والمحاور طيلة فعل الكتابة، وهو الموجّه الأوّل لشكل النصّ الأدبي ودلالة مضامينه.

ب-الجمهور الوسط: "الكاتب فرد من هذا الجمهور يجسد همّه ورُؤاه، ويتحمّل رسالته، فهو لسان حاله، وكلُّ صنيع لا بدّ له أن يحمل هموم هذا الوسط وآماله ونبوءاته"[36]، فالجمهور الوسط هو الجمهور الذي ينتمي إليه المبدع، وهو الذي تجمعه به أطر اجتماعية وثقافية متأصلة، فيكتبه، مستمدا مادته من حياته، ليتوجّه إليه في الأخير بهذه الكتابة، ومن ضمن ما يجمعه بهذا الجمهور ويجعله جزءا منه أذكر:

- **اللغة:** وهي وسيلة للاتصال، واللسان المشترَك الذي يتخاطب به أصحاب اللّغة الواحدة، فاللّغة هي منظومة من الإشارات والدلالات المساهمة في التنشئة الاجتماعية للفرد والجماعة، ومكوّن من أهمّ مكونات الهوية، وهي كلغة أم مركزٌ جامع للمنظومة الثقافية، وعنصرٌ مكرّس للقومية العابر مفهومها للحدود الجغرافية التي يؤطرها مفهوم الوطن. والأديب بالنظر إلى لغته، فهو ينتسب إلى فئة اجتماعية محدّدة وهي الفئة ذاتها التي تمنحه مع اللّغة بمشتركاتها اللفظية والدلالية حمولة ثقافية توجّه فكره نحو أطر فكرية محدّدة ومخصوصة، كما تجعله هذه اللغة أكثر ارتباطا بمتكلميها، وفي العادة أكثر المدافعين عنهم وعن قضاياهم بشتّى أنواعها.

- **الوطن:** وهو الوحدة القاعدية التي تجمع نسقا اجتماعيا يكوّنه مجموعة من الأفراد داخل حيز جغرافي واحد، وهو الحيز الذي تتوحد فيه الذكريات بتوحد التاريخ، وتأتلف فيه المصائر بائتلاف الرؤية إلى المستقبل، والأديب بما هو جزء من هذا الوطن يكو ن أكثر المنتسبين إحساسا بما يحدث فيه وأكثر المدافعين عنه وعن قضاياه، وعليه يدخل ما يكتبه في نطاق مفهوم الالتزام بما هو دفاع عن قضايا الوطن، ومحاولة دؤوبة لإيجاد حلول للمشاكل التي يتخبط فيها، وذلك باعتبار وطنه كينونة خاصة منفصلة عن الأوطان الأخرى.

- **الدين:** وجد الدين لينظّم حياة الأفراد وليوجّهها نحو الهدف الواحد دنيويا وأخرويا، وهو بذلك سمة روحية تعقد صلة الفرد كإنسان بمجتمعه الأكبر الذي يتصل به روحيا خارج الحيز الذي يرسمه الوطن وتحدده اللّغة؛ لأنّ مجال الدين أوسع زمنا ومكانا، ومن شأن هذه الروابط الروحية أن تقلّص النزعات في ذات الفرد نفسه، وبين ذاته وبين الآخرين، ولذلك فكثيرا ما يتمّ الحديث عن عمليات الضبط الاجتماعي والنفسي لدى الفرد والمجتمع، وعما يؤديه الدين من دور في تقويم سلوك الفرد وبناء أسس قيمية ضابطة للعلاقات و الروابط الاجتماعية حين الحديث عن أهمية الدين ودوره. والأديب إن جمعته علائق دينية مع مجتمعه فإنّ أعماله ضرورةً ستنطبع بسمات هذا الدين، فتتشرّب ألفاظه وتوظّف دلالاته وتدعو إلى ما يدعو إليه انتصارا إلى قناعات الذات المبدعة وفقا لوعيها الخاص، ومسايرة للتوجه الروحي الذي يسير المجتمع وفقا لمعالمه في عملية تأطير العلاقات وضبط الأطر العامة للحياة.

- **الثقافة:** وهي مثلما تناقلتها الألسن نقلا عن كتاب "الثقافة البدائية" لـ "إدوارد تايلور" ذلك الكلّ الديناميكي المعقّد الذي يشمل المعارف والفنون والمعتقدات والقوانين والأخلاق والتقاليد والفلسفة والأديان والعادات التي اكتسبها الإنسان من مجتمعه بوصفه عضواً فيه، والثقافة من هذا المنظور تحتوي على مجموعة من العناصر المادية والمعنوية التي يكتسبها الفرد حين اتصاله بواقعه الاجتماعي، فتوجّهه وترصد له طرائق التعامل مع مجتمعه وكيفية السير على معالمه العامة، وتضمن له في الوقت نفسه الحياة وسطه في حالة من الانسجام والاندغام. ولمّا كان الأديب فردا من أفراد هذا المجتمع فإنّ أدبه حتما سيتسم بسماته، فيعبّر عنها تارة ويدعو إليها تارة أخرى. وبما أنّ المجتمع وحدة كبرى تستوقف الأديب بما تختزنه له من مناهل يرثها أو يكتسبها فإنّه يجد نفسه مضطرا لإنتاج نصه إلى استثمار كلّ الجوانب التي تشكّل هذه الوحدة، والثقافة هي أبرز دال على وجودها وتميزها، فهي المرآة التي تبرز السيرورة وترصد أمداء الخصوصية.

ج-الجمهور الواسع: وهو الذي يتجاوز الحدود الجغرافية والزمنية لجودة العمل، فينتشر من العادة بلغته ثمّ بلغات أخرى عن طريق الترجمة، ويضمن - لأنّه يستحقّ أن يقرأ - بقاءه ضمن أجيال من القراء وضمن جمهور واسع منهم، محافظاً على قيمته بالرغم من تبدّل الأحوال، وتغيّر طرائق الكتابة وتجدّدها، وفعل الترجمة من العادة هو الفعل الصانع للجمهور الواسع الذي يتجاوز الجمهور الوسط ويتعدّاه زمنا

ومكانا، وكثيرا ما يحصل فيكتسب النص الأدبي أدبيته وقيمته ومعها شهرة صاحبه ومكانته بفضل الجمهور الواسع وليس بواسطة الجمهور الوسط[37].

وتجدر الإشارة في هذا الموضع إلى أنّ القراءة من هذا المنطلَق الذي يُظهر جمهورها وأنواعها، فعل غير بريء، فعل لا يشفع له استحضار قارئ ضمني أثناء عملية الكتابة، أو تحديد أنواع القراءة، لأنّه في الأصل لا يصدر عن نزعة جمالية ومعرفية محضة، بل هو فعل مُسلِم أمره ومقدّم ولاءه لعوامل خارجية لا ترتبط بالنصّ ذاته، تتصل بمدى معرفة القارئ بالمؤلف، ومدى شهرة النص على مستوى مراكز الإعلام، ومدى نجاحه تسويقيا من طرف دور النشر، وغيرها من العوامل التي لا تمتّ بأيّ صلة لفنية النصّ وجودة مضامينه، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ كلّ قراءة مهما كان نوعها (عارفة/ ذوقية) هي قراءة "يمكن تبرير أحكامها بتفكيك مرجعياتها الداخلية والخارجية، لتظهر عيوبها وعيوب اختياراتها، وعند هذا الحدّ تزول فكرة القراءة الموضوعية"[38]، وفكرة النقد المنهجي، وتنحاد أمام أعيننا تلك الصور التي نتمثلها متعالية كأنّها خرافة.

وفي نهاية هذا المساق يبدو لنا أنّ سوسيولوجيا القراءة أثبتت أنّها تتعامل مع فعل متفلت، فعل قد يكون القائم به حقيقيا أو افتراضيا، وقد يأخذ أشكالا مختلفة وأنماطا متباينة وأنساقا متداخلة ومتماهية، هذا إن غضضنا الطرف عن الكتلة اللامتجانسة للجمهور وأذواقه المختلفة. وهو ما يجعل هذا الموضوع محلّ استزادة سوسيولوجية وسؤالا يستحق مزيدا من الاهتمام والدراسة، لكن داخل إطار كلّي جامع يركّز على نصية النص ودلالاته إلى جانب الاهتمام بالذات المبدعة، لأنّها العين الثاقبة التي تستنطق المكامن الاجتماعية المتعطشة إلى الغور في مسبباتها قبل أعراضها أو حتى آثارها في الفرد كوحدة صغرى قبل المجتمع كبنية كبرى، وبفضل الذات المبدعة يتأسّس المفهوم الجديد للمجتمع بعيدا عن فكرة الحصر في المنظومات والمؤسسات، فيكتب الأديب مجتمعه كما هو كائن وكما يريده أن يكون، فيتسع بذلك الأفق الإبداعي ويبرز له المسار المجتبى.

خاتمة

وفي الختام يمكن القول بأنّ النظرية الاجتماعية المهتمة بالأدب، المشتغلة على نصوصه، هي نظرية قديمة/حديثة، فهي ضاربة بجذورها إلى أولى المؤلفات التي تحدثت عن الأدب، ونقصد في هذا المقام "فن الشعر" لأرسطو، وحديثة لأنّ الاهتمام بنصوص الأدب من طرف الباحثين السوسيولوجيين في وتيرة متزايدة إلى درجة وصل فيها الأمر إلى إفراد مجال يهتم بنصوص الأدب وفي المقابل حيّز علمي يرتكز عليه في تفعيل مقارباته وبناء نتائجه، هو "علم اجتماع الأدب"، ولذلك فقد تَجمَّع للسوسيولوجيا من التراكمات المعرفية المتعلقة بالدراسات الأدبية ما تفتخر به وتزخر به مكتبتها.

إنّ الدراسات السوسيولوجية المهتمة بالأدب تحتاج - بالنظر إلى واقعها - إلى تضافر الكثير من الجهود لتعميق إشكالياتها وتجذير إجاباتها التي تبتدئ بقضية المحاكاة والانعكاس الأدبي، مرورا بالفلسفات والإيديولوجيات التي ترى في الأدب جدلية قائمة بين واقع مرفوض ووعي مأمول، وصولا إلى ما يعتبر الرهان الأكبر عندها والمتمثّل في تحقيق المعادلة الصعبة في الدراسات الأدبية أي في استخلاص الحقيقة الاجتماعية دون إلغاء أدبية الأدب وجمالياته النصية المتعارف عليها داخل نطاق النقد الأدبي، وهو ما تود الأبحاث المتأخرة إدراكه في سعي دؤوب.

وأخذا بعامل الانتماء، علينا أن نعترف بأنّ الدراسات النقدية السوسيولوجية العربية المقاربة للنص الأدبي، والتي أفادت من "علم اجتماع الأدب" كثيرا، على قلتها وتأخرها، [بالرغم من إيمانها بما تحمله من صيغ منهجية مضبوطة وآليات إجرائية فاعلة في التقعيد لقراءة منتجة لنصوص الأدب] هي دراسات قاصرة إذا نُظر إليها من زاوية الدور الذي يلعبه الأدب في تشكيل القيم الاجتماعية والوعي السياسي والنهضة الثقافية، وإذا تمّت مقارنتها بما أنتج في الدول الغربية حول الموضوع، كمّا ونوعا، فما كتبه "جاك لينهارت" من دراسات وبحوث، وما كتبته "مدام دوستايل" وما اشتغلت عليه من نصوص منذ البدايات الأولى للقرن العشرين، وكذا ما قدمه "روبير إسكاربيت"، "وإيدانوف"، و"بليخانوف"، و"لوكاتش"، و"ألتوسير"، و"غولدمان"،

و"جورج غورفيتش"، و"ليو لونتال"، و"برسلون" و"سولتر"، وفي قراءة أكثر تطورا "بول ريكور" ... وغيرها من الكتابات التي جمعت في كثير من الأحيان بين التنظير والتطبيق، [ولو أن معضمها قد ركز على الرواية كنصّ أدبي قابل للتحليل والتدليل، لاعتبارات موضوعية ترتبط رأسا بطبيعة الرواية المشرّحة لأوضاع اجتماعية معينة داخل زمان ومكان محدّدين] وهو ما اهتدت بهديه الدراسات العربية السوسيولوجية لكن بشكل محتشم، وغير دقيق، مما أبعد كثيرا من الدراسات عن هدفها الأسمى المتمثّل أساسا في إفراد سوسيولوجيا الأدب في الوطن العربي بخصوصيات تولّدها المقاربات المشتغلة على النصوص الأدبية العربية خاصة، هذا إن استثنينا بعض الجهود النقدية التي تعتبر أعمالا جادة داخل هذا الحقل يمكن انتهاج منهجها في اهتمامها بالأدب العربي، الذي يحتاج مزيدا من النظر والاهتمام قديمه وحديثه.

وعلى رأس هذه الجهود العربية التي تستحق الإشادة والتقدير نظير ما قدمته للساحة النقدية في محاولتها لبلورة/ استنبات منهج نقدي اجتماعي على دراية بخصوصيات النصّ الأدبي العربي شكلا ومضمونا، شعرا ونثرا، كتابات الباحث المغربي المعاصر "سعيد يقطين"، الذي حاول من خلالها إعادة تمثّل مفاصل النظرية الغربية وآلياتها التطبيقية بشكل مبسط ودقيق، فهو الذي أقرّ في أكثر من موضع بوجوب ربط النص بالمجتمع بما هو صورة من صوره منظورا إليها بأعين المبدع بشكل خاص، وذلك على اعتبار أنّ النصّ ليس مجرد بنية مغلقة بل لأنّه نسق معرفي جمالي تداولي لا يمكن بأيّ حال إفراده وقراءته بعيدا عن بنيات أخرى خارجية مؤسسة لوجوده، وعلى جميع المستويات، ويشير "يقطين" في هذا السياق إلى أنّ هذا التفاعل الداخلي الخارجي بين البنيات لا يتمّ إلا بفعل القراءة التي يجب توجيهها نحو أهدافها بمعالم تتساير والأفق السوسيونصي الجديد الذي يدعو إليه كبديل للسوسيولسانيات التي دعا إليها "بيير زيما" وغيره ممن تأثروا برؤاه في أكثر من مؤلف. هذا دون أن ننفي وجود جهود نظرية وتطبيقية أخرى سابقة كان لها بعض الصدى من مثل كتابات كلّ من : شبلي شميل، وسلامة موسى، وعمر الفاخوري، وفي بعض كتابات محمود أمين العالم، ولوبس عوض وغيرهم.

الهوامش

1- جورج لوكاتش: (1971-1885) كاتب وناقد مجري ، ماركسي النزعة والتوجّه ، يعده معظم الدارسين مؤسس الماركسية الغربية في مقابل فلسفة الاتحاد السوفيتي باعتبارها ماركسية شرقية. من مؤلفاته: (الرواية التاريخية/ تحطيم العقل/ دراسات في الواقعية/ التاريخ والوعي الطبقي / بلزاك والواقعية الفرنسية).

2- ينظر: محمد حمدي إبراهيم ، نظرية الدراما الإغريقيَّة ، الشركة المصرية العالمية للنشر ، القاهرة – مصر ، ط1 ، 1994. ص:56.

3- ينظر: شكري عزيز ماضي ، في نظرية الأدب ، دار المنتخب العربي ، بيروت- لبنان ، ط1 ، 1993 ، صص: 79 / 80.

4- هيبوليت تين: (1828- 1893) مؤرخ وناقد أدبي وفني فرنسي ، عرف بإيمانه بالفلسفة الواقعية ، وقد عمل على نشرها أكثر من منظّريها الأوائل من مثل "أغست كونت" ، فكان لصوته أصداء فنية وأدبية ، من مؤلفاته: (الفلاسفة الإنشائيون في القرن التاسع عشر / رسائل في النقد وفي التاريخ).

5- كوثر عبد السلام البحيري ،الاتجاهات الحديثة للنقد الأدبي -مع دراسة مقارنة بين النقد الأدبي العربي والغربي ، مكتبة الإنجلو مصرية القاهرة – مصر ، ط1 ، 1979. ص: 93.

6- صبرى حافظ: الأدب والمجتمع- مدخل إلى علم الاجتماع الأدبي ، مجلة فصول ، المجلد الأول ، العدد الثاني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة – مصر ، يناير 1981.ص:65.

7- المرجع نفسه. ص: 68.

8- إنريك أندرسون أمبرت ، مناهج النقد الأدبي ، تر: الطاهر أحمد مكي ، مكتبة الآداب ، القاهرة - مصر ، ط1 ، 1991.ص:123.

9- محمد اللبيدي ، علم اجتماع الأدب ، دار المعرفة الجامعية ، السويس - مصر ، ط1 ، 2004. ص: 103.

10- لوسيان غولدمان: (1913- 1970) ولد ببوخارست برومانيا ، وهو ناقد ومفكر اجتماعي ، تشبّع بالفكر الماركسي ودعا إلى رؤاه بعد أن شجعته على ذلك كتابات أستاذه "جورج لوكاتش" التي كانت لها كبير الأثر في كتاباته ، عرف باهتماماته الكبيرة بالتخوم الجامعة بين الأدب وعلم الاجتماع وكان له فيها كثير من الأعمال. من مؤلفاته: (من أجل علم اجتماع الرواية / البنيات الذهنية والإبداع الثقافي / الماركسية والعلوم الإنسانية).

11- فيصل دراج ، نظرية الرواية والرواية العربية ، المركز الثقافي العربي ، الرباط - المغرب ، ط1 ، 1999. ص: 49.

12- Allan Swingewood&Laurenson: the Sociology of Literature, HarperCollins, New Youk-1972. p 23.

13- ميخائيل باختين: (1895- 1975) لغوي ومنظر أدبي روسي ، عاش مضطهدا ، ولم يعرف فكره الحداثي النور إلا بعد وفاته ، ساهم بطروحاته في تحديد تصورات نظرية عامة وشاملة حول اللغة والشعرية والسيميائية في علاقاتها المتشابكة مع المجتمع والتاريخ ، من مؤلفاته: (الخطاب الروائي/ شعرية دوستويفسكي / رابليه وعالمه).

14- بيير زيما ، النقد الاجتماعي ، ترجمة عايدة لطفي ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة – مصر ،ط1 ، 1991. ص:186.

15- عمار بلحسن ، نحو سوسيولوجيا للنص الأدبي ، مجلة التبيين ، الجاحظية ، ع5 ، 1989 ، ص: 86-87.

16- ميخائيل باختين ، الماركسية وفلسفة اللغة ، ترجمة: محمد البكري ، دار توبقال للنشر ، الدار البضاء – المغرب ، ط1 ، 1986. ص:93.

17- Thomas pavel, Le mirage linguistique,Editions de Minuit, Paris,1988, p68.

18- Jacques PROUST,L'Objet et le texte : pour une poétique de la prose française du XVIIIe siècle, Librairie Droz, Paris,1980.p11

19- ولد "بيير زيما" عام 1946 في مدينة براغ التشيكية ، عرف بتنظيراته الاجتماعية الأدبية ، انصبّ اهتمامه حول علم اجتماع الأدب بما هو الإسهام الجديد الجامع بين الحقلين العلمي والفني ، ويعدّ مؤلفه: (النقد الاجتماعي ؛ نحو علم اجتماع للنص الأدبي) من أكثر المؤلفات جدية في هذا الحقل ، حيث دعا فيه إلى رفض الدراسات التبسيطية للنصّ الأدبي وذلك لعدة اعتبارات أهمها ارتباطه الوثيق بالسياق الاجتماعي المثخن بالغموض ناهيك عن السياقات الإنسانية الأخرى التي تدخل في نطاق هذا الحيز.

20- P.V Zima Indifférence Romanesque, Sartre, Moravia,Camus,le Sycomore,Paris,1982,p 17

21- بييرزيما ، النقد الاجتماعي. ص:184.

22- ينظر: ميخائيل باختين ،الماركسية وفلسفة اللغة. ص:87.

23- ينظر: حبيب مونسي ، القراءة والحداثة ؛ مقاربة الكائن والممكن في القراءة العربية ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق – سوريا ط1 ، 2000. ص: 205.

24- المرجع نفسه والصفحة.

25- سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط2 ، 2001. ص: 32.

26- روبير إسكاربيت: (1918- 2000) ، كاتب وصحفي وناقد أدبي فرنسي ، أستاذ للأدب الإنجليزي بالجامعات الفرنسية ، له من المؤلفات ما يقارب الخمسين عنوانا في شتى الميادين ، أذكر منها : (سوسيولوجيا الأدب / ثورة الكتاب / النظرية العامة للإعلام والاتصال / نظرية المعلومة والسياسة التطبيقية / الكتابة والاتصال).

27- روبير إسكرابيت ، سوسيولوجيا الأدب ، تر: أمال أنطوان عرموني ، عويدات للنشر ، بيروت – لبنان. ط3 ، 1999. ص: 136

28- ينظر: حبيب مونسي ، القراءة والحداثة. ص: 206.

29- ينظر: المرجع نفسه والصفحة.

30- روبير إسكرابيت ، سوسيولوجيا الأدب. ص: 151.

31- المرجع نفسه. ص: 120.

32- جاك لينهارت: عالم اجتماع فرنسي ، وأستاذ بجامعة باريس ، انصب اهتمامه على الأدب من منظور اجتماعي ، له كثير من الدراسات التي اعتمد فيها النص الأدبي متكأ لبناء مقارباته السوسيولوجية. من أبرز مؤلفاته: (قراءة سياسية للرواية).

33- رشيد بن جدو ، قراءة القراءة ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، ع: 48 ، يناير 1988. ص: 16.
34- جاك لينهارت ، حوار ، مجلة الكرمل ، بيروت – لبنان. ع: 36 .1990. ص: 66.
35- ينظر: روبير إسكاربيت: سوسيولوجيا الأدب. ص: 105 وما بعدها.
36- حبيب مونسي ، القراءة والحداثة. ص: 208.
37- المرجع نفسه. ص: 209.
38- المرجع نفسه. ص: 215.

الآليات القانونية لتحقيق المساواة في التوظيف في المؤسسة العمومية الجزائرية
ـ مقاربة نقدية سوسيوقانونية ـ

بلعيفة عبد العالي*

المخلص

يعالج المقال الحالي ، موضوع التشريع الجزائري ، من حيث تقدير صلاحية المترشح للوظيفة العمومية في ضوء معايير الانتقاء التي تستند إلى مبدأ المساواة ، ويطرح إشكالية محورية ، تحوم حول مدى تجسيد هذا المبدأ في واقع التجربة والممارسة داخل المؤسسة الجزائرية ، حيث اشتمل المقال على مبحثين ، تناول أولهما: تكافؤ الفرص والكفاءة والجدارة ، بينما عالج الثاني ، كيفية التأسيس للمساواة وطرق تكريسها وآليات تحقيقها في التشريع الجزائري. يعالج المقال الحالي ، موضوع التشريع الجزائري ، من حيث تقدير صلاحية المترشح للوظيفة العمومية في ضوء معايير الانتقاء التي تستند إلى مبدأ المساواة ، ويطرح إشكالية محورية ، تحوم حول مدى تجسيد هذا المبدأ في واقع التجربة والممارسة داخل المؤسسة الجزائرية ، حيث اشتمل المقال على مبحثين ، تناول أولهما: تكافؤ الفرص والكفاءة والجدارة ، بينما عالج الثاني ، كيفية التأسيس للمساواة وطرق تكريسها وآليات تحقيقها في التشريع الجزائري.

الكلمات المفاتيح: المساواة. الكفاءة. الجدارة. الاستحقاق. التوظيف. الوظيفة العمومية.

RESUME

La législation algérienne accorde à l'administration l'appréciation de validité des candidats aux fonctions publiques sans distinction.

L'égalité : est celle des candidats, à commencer par les conditions de recrutement et de nomination dont l'importance est démontrée par la justice réalisée.

Cet article vise l'étude de l'équité dans la législation algérienne, suivant la problématique : Les mécanismes du recrutement fixés par la législation algérienne réalisent-ils l'égalité ?

La difficulté de réaliser l'égalité est dans la diversité des situations économiques et sociales des candidats ainsi que les caprices des responsables. Pour la difficulté de recherche, elle est due à l'absence de plans la traitant comme relation entre réalité et sociologie.

Mots clés : égalité- compétence- être digne – mérites- recrutement- fonction publique

Summary

The Algerian law grants the administration the right to value the candidates' validity applying for public office without discrimination.

Equality: is the candidates' sameness, starting fom recruitment and appointment conditions whose importance is demonstrated by the achievement of justice.

This article aims at the study of equality in the Algerian legistature as set in the question : Do recruitement mechanisms set by the law realise equality ?

The difficulty in doing so lays in the diversity of the economic situations and the officials' temper. As for the research diffuculties, it is due to the lack of grounds dealing with it as a relationship between law and reality within sociology.

Key words : equality- competency- to be worth- recruitment- merits- public office.

* طالب دكتوراة، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية جامعة محمد لمين جباغين سطيف2

مقدمة

يعتبر مبدأ المساواة حق من حقوق الإنسان الأساسية ، ومسلمة من المسلمات العالمية التي لا يختلف حولها اثنان ، إذ تكمن أهميته المحورية فيما يحققه من عدالة بين الأفراد والجماعات والهيئات والمجتمعات والدول ، ولهذا فقد أوصت به جميع المواثيق الدولية ، والدساتير الوطنية حتى بلدان العالم الثالث ، وتم تكريسه في مختلف التشريعات الوطنية والمجالات الاجتماعية.

هذا الاهتمام ، لم يكن ليرى النور لولا تلك النضالات الجماهيرية ، التي جسدتها مختلف الثورات الفكرية والاجتماعية ، التي سادت عبر العصور التاريخية وفي مختلف المجتمعات ، ولعّل ابرز من جسد هذا الاهتمام ، وبلور فعاليته نذكر الثورة الفرنسية خلال القرن الثامن عشر. وفي هذا الإطار ؛ يعد مبدأ المساواة في مجال التوظيف واحدا من أبرز هذه الحقوق ، التي نودي بها وتم تكريسها دستوريا ، في أغلب المجتمعات ومنها الدساتير الجزائرية.

فإذا كان العمل أو ممارسة وظيفة يعد شرطا أساسيا لإشباع حاجات العامل أو الموظف ، يسمح له بتوفير الحد الادنى من العيش بكرامة ، فإن ضمان وتوفير العدالة وإتاحة الفرص المتساوية أمام جميع المترشحين للحصول على وظيفة ، إنما يشكل الأرضية الصلبة والقاعدة الأساسية التي في ضوئها تتم رعاية الاستقرار والأمن الاجتماعي ، بوصفه غاية الغايات لأي عمل سياسي يبتغيه أي بلد.

لقد استطاع الغرب ، خلال ثلاثة قرون ، تحقيق قفزة نوعية في مجال تكوين وتشكيل وعي اجتماعي ، تبلور في صورة ثقافة عامة ، تنبثق من فلسفة حياة ، تأخذ بمبدإ المساواة ، على غرار بقية مبادئ حقوق الإنسان ، وتتبنى القواعد التشريعية والمعايير الموضوعية المحققة لعملية المنافسة والاستحقاق ، كالكفاءة والجدارة.

غير أنه بالرجوع إلى معاينة الواقع ، لاسيما في العالم الثالث ، وفي الجزائر تحديدا ، نقف على صعوبة الأخذ بمبدإ المساواة وتطبيقه فعليا في ميدان الممارسة ، وقد تعود الصعوبة الى طبيعة الأسس السوسيو ثقافية التي ينهض عليها النسق الثقافي ، والتي لا تعتمد على مبدإ المساواة بل تلجأ إلى اعتبارات اجتماعية أخرى ، كالعلاقات القرابية والجهوية والانتماء العرقي والإيديولوجي ..الخ

وهنا يسعى هذا المقال الى معالجة اشكالية تبحث على اجابة للتساؤل الآتي:

- هل توجد آليات مشرعة لتحقيق مبدإ المساواة في التوظيف في المؤسسة العمومية الجزائرية ؟
- هل هناك أرضية سابقة ، تغذي العلاقة بين النصوص القانونية والتوظيف ، من منظور سوسيولوجي ؟

في المقال الحالي سنحاول معالجة هذه الاشكالية عبر العناصر الآتية:

المبحث الأول: أسس مبدإ المساواة.

المبحث الثاني: الصعوبات السوسيو _قانونية لتطبيق مبدإ المساواة في المؤسسة العمومية الجزائرية.

المبحث الأول: أسس مبدأ المساواة

هذا المبحث يتناول **أسس مبدإ المساواة** التي هي:

تكافؤ الفرص ← بروز الكفاءات ← الجدارة = المساواة

تكافؤ الفرص والكفاءة والجدارة حسب التسلسل الطبيعي لتأثير كل منها في الآخر. من أجل تحقيق المساواة. حسبما هو موضع في الشكل التالي.

شكل رقم (01)يوضح كيفية تحقيق مبدإ المساواة في عملية التوظيف

جدول رقم (1) يبين "**منطلقات مبدإ المساواة**"

المصدر: من تصميم صاحب المقال

أولا. تكافؤ الفرص: أتناول فيه المقصود من تكافؤ الفرص وشروط تكافؤها.

1. **المقصود من تكافؤ الفرص**: يقصد بتكافؤ الفرص: القيم المتعادلة أو المتطابقة ، ويسمى في المنطق ، قانون إبدال القيم المتكافئة ، بمقتضاه يمكن في القيمتين المتكافئتين إحلال أية قيمة كل منهما محل الأخرى ، دون أن

ينشأ عن ذلك أي تغيير[1]. ومن هنا يمكن تعريف تكافؤ الفرص في ميدان التوظيف بأنه: **عملية إعطاء فرص متساوية لجميع المؤهلين، للحصول على الوظائف الشاغرة.** يطبق مبدأ تكافؤ الفرص بدءا من الإعلان لجميع المؤهلين الراغبين في الالتحاق بالوظيفة، إلى الاختبارات والمقابلات إلى انتقاء أفضل المترشحين وجداول المفاضلة .

يستنتج مما سبق أن مبدأ تكافؤ الفرص لجميع المواطنين يتحقق إذا تماثلت فرص التأهيل وطبقت طرق التوظيف المشرعة:

2. شروط تكافؤ الفرص: لكي يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص لابد من الشروط الموالية

أ. **تماثل فرص التأهيل**: إذا كانت فرص التأهيل متماثلة لجميع المواطنين، بمنحهم نفس الإمكانيات التي تؤهلهم، مع التطبيق الفعلي لما أقره المشرع الجزائري، من أن المساواة تبدأ " **بإزالة العقبات ذات الطابع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، التي تحد في الواقع من المساواة بين المواطنين**[2] " وبتسخير الدولة لكل الإمكانيات المتاحة، من ثروات وطنية في سبيل قهر الثالوث الأسود: الفقر، والمرض، والجهل. بتوفير فرص العمل والعلاج المجاني، وإجبارية التعليم الأساسي، ومجانيته في جميع المراحل، وتوفير الإمكانيات والوسائل والعوامل المؤثرة في بروز ونمو القدرات الشخصية للمواطن، من بداية التعليم إلى ما تستطيع قدرات المتعلم الوصول إليه، مع توفير متطلباته الضرورية، مثل الكتب والوسائل البيداغوجية.

ب. **تطبيق طرق التوظيف المشرعة:**إذا طبقت طرق التوظيف كما نص عليها المشرع الجزائري قلبا وقالبا، بين جميع المواطنين المرشحين الذين تتوفر فيهم المؤهلات القانونية المطلوبة مع إعطاء الأولوية للمخزون الداخلي من الموظفين المؤهلين بالمؤسسة، وإن اقتضت الضرورة يلجأ إلى التوظيف الخارجي.

ج. **عدم وضع شروط غير الشروط المشرعة للتوظيف:** إذا لم توضع شروط خارجة عن شروط متطلبات الوظيفة. كوضع شروط تميز بين المواطنين الجزائريين خاصة من حيث المولد، أو العرق أو الجنس أو الرأي.

د. **الإعلان عن التوظيف:**إذا تم الإعلان عن التوظيف بكل الوسائل التي تجعل المعنيين بالترشح يعلمون به، في الزمان والمكان، وبالوسائط القانونية المعرَّفة.

يستخلص: أن مبدأ تكافؤ الفرص يتحقق بين جميع المواطنين المترشحين لدخول الوظيفة العمومية، لما يتساوون بدءا من تحقيق الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، إلى التأهيل للوظيفة، والإعلان عنها، وهو ما يحقق بروز الكفاءات المتوفرة في الوطن، الجديرة بالتعيين في الوظائف العمومية.

وهو ما يدعونا إلى التعرض بالتفصيل للكفاءة فيما يلي:

ثانيا.الكفاءة: الكفاءة المراد تناولها هي الكفاءة الفردية، التي تتحقق نتيجة تكافؤ الفرص. وتقاس الكفاءة بأربع طرق، كما حددها المشرع الجزائري، وهي طرق كافية لتحديد **الأكفأ:** إذا صدق المشرفون والرئاسات القائمة على عملية القياس.

وقبل تحديد كيفية قياسها، يجب تحديد المقصود بالكفاءة. وتعريفها.

1. **المقصود بالكفاءة:** الكفاءة الفردية التي يتمتع بها المترشح والمتوقعة لشغل الوظيفة، ومقاسة بمعايير علمية وأسس عملية وموضوعية، سواء أثناء المفاضلة [3] أو بعد التكوين. ولذا فهي تعرف بـ: القدرة على "**تحقيق الأهداف بالنوعية المناسبة والمطلوبة في الوقت المناسب في ظل الظروف المحيطة بأداء الموظفين**" [4] لانجاز مجموعة المهام المحددة الواضحة، من العمل المسند للموظف، في إطار الوظيفة المكلف بها.

2. **طرق قياس الكفاءة:** تقاس كفاءة الموظف "**بالحصول على البيانات والحقائق** التي من شأنها أن تساعد الرئاسات على تحديد مدى كفاءة وأداء وإنجاز الموظف حتى يمكن اتخاذ قرار[5] " يخص التعيين أو التثبيت أو الترقية أو النقل أو الانتداب أو النجاح في التدريب.

حدد المشرع الجزائري أربع طرق لقياس كفاءة الموظف. أرتبها حسب شيوع تطبيقها في مؤسساتنا، كلها تستعمل للتقدير والحكم على كفاءة الموظف. مع ملاحظة أن

الطريقة الرابعة يقل اللجوء إليها في الإدارة، وتستعمل في المؤسسات الإنتاجية. الأولى تطبق باستمرار خاصة عقب التوظيف الخارجي، للتعرف على مدى قدرة المرشح، على استغلال مؤهلاته والتأقلم مع الوضع الجديد في المؤسسة، أما الطرق الثلاثة الأخرى فهي تطبق من أجل الترقية، ويقدر بواسطتها مدى قدرة المرقى أو المراد ترقيته على أداء المهمة الجديدة التي ستسند إليه.

أ. **الوضع تحت التجربة:** تقرر هذه الطريقة في حالة التوظيف الخارجي، قبل التعيين النهائي بالتثبيت في الوظيفة. وهي المدة التي يعتبر فيها المعين أو المرقى متربصا أو متمرنا وتقدر بين ثلاثة وإثني عشرة شهرا، حسب الوظيفة.

إن فشل المتمرن في أداء مهامه يترتب عليه خياران أمام الجهة المكلفة بالتعيين: إن رأت عدم صلاحيته تماما، سرحته بدون تعويض أو إنذار مسبق، وإن رأت إمكانية تدارك الضعف، أعطته فرصة أخرى تقدر بنفس المدة الأولى، وتقرر في نهايتها نهائيا، التسريح أو التثبيت.

وفي حالة التوظيف الداخلي _الترقية_، إن فشل المرقى إلى الرتبة أو السلك الأعلى الموالي مباشرة في أدائه لوظيفته الجديدة، قد تعطى له فرصة ثانية، بنفس المدة الأولى، أو "ينزل" إلى رتبته الأصلية فقط.

ب. **الامتحان المهني:** بأن يجري امتحان مهني للمرشح للكشف عن كفاءته في ميدان عمله ومدى استيعابه للمعارف التي يفترض أن يكون قد اكتسبها، _خاصة_ في ميدان عمله كخبرة، أو اطلع عليها بسبب علاقتها مع طبيعة عمله.

ج. **التقدير الشخصي:** هي الطريقة التقديرية المستعملة كثيرا في مؤسساتنا الإدارية خاصة فيما يخص الترقية في الدرجة، وتقدر كفاءة الموظف رقميا، بعلامة تقدر بين (0و10) أو بين (0و20) حسب تقدير رئيسيه المباشر ومعرفة مديره الرئاسي الأعلى.

د. **التقارير:** ترفع تقارير عن الموظف من رئيسه المباشر يبين فيها قدرات المرؤوس، أثناء أدائه لعمله، وتستعمل خاصة في الوظائف التي يمكن فيها إظهار التميز أو التفرد أو النتائج التنافسية الخاصة.

في ضوء ما سبق **يعتبر من: الظلم تخطي الكفاءة؛ لأنه ليس من "الحق" تجاهل من يمتلكون الكفاءة المتطابقة مع متطلبات الوظيفة**، وتفضيل غيرهم بناء على منظور الولاء. رغم أنه لا أحد يستطيع أن يضمن الولاء الحقيقي أو المستمر. زيادة على ذلك فإن "الكفاءة لا يمكن الحصول عليها بسهولة، لأنها تتطلب وقتا طويلا وصبرا كبيرا ومزيجا من الجهد والتعب والخبرة الناتجة عن زمن من معايشة الأحداث والتجارب بما فيها من إيجابي وسلبي ولأنها تتطلب التعامل مع المشاكل ومن يصنعونها ومواكبتهم في الظروف الخطرة التي تمت فيها "[6]. فكيف في الأخير يفضل الغير.

ومن كل ما سبق النتيجة المستخلصة تؤكد أنه لا يمكن تحقيق مبدأ الجدارة واقعيا إلا باللجوء إلى مفتاح الكفاءة حتى يمكن تصنيف الأكفاء في قوائم الاستحقاق لظهور الأجدر.

ثالثا.الجدارة: لكي نوضح الجدارة الموصلة إلى المساواة لابد أن نتناول، المقصود منها وكيفية تأسيسها وتطبيقها وفائدة التعيين المبني على الجدارة

1. **المقصود بالجدارة:** يقصد بالجدارة لغة: الأهلية، يقال جدر بهذا المنصب، أي كان أهلا له، ومن مترادفاتها استهل، أحقية، أهلية، استحقاق، أهل، أولى، استحق، يقال استحق الجائزة استأهلها وكان جديرا بها.[7] أما هنا فإن الجدارة المهنية **تعني القدرة على القيام بالأعمال التي تتطلبها مهنة من المهن.**[8]

تطلق عبارة الجدارة على المرشح أو الموظف المقتدر على أداء وظيفته. ويجمع فقهاء الإدارة العامة على تعريفها بأنها: تلك التي تجعل اختيار الموظفين والاحتفاظ بهم يتم على أساس الصلاحية وليس بناءا على المحاباة.

مع الاشارة أن الجدارة لا يعتمد عليها بقدر ما يعتمد على الولاء في المناصب السياسية، لا يعتمد في المناصب العليا والنوعية على الجدارة بقدر ما يعتمد على التقدير الشخصي للمكلف بالتعيين، ومدى الولاء المنتظر من المرشح. وبتعبير آخر، مبدأ الجدارة يُعمل به الآن في الدول المتقدمة باختيار المترشح طبقا لمؤهلاته المحددة لكفاءته المتماشية مع متطلبات الوظيفة المراد شغلها. هذا الأسلوب هو أسلوب بديل لنظام التوظيف القديم، الذي كان سائدا عندهم والذي يقوم على الفروق في الأوضاع الاجتماعية، التي

تبنى بصفة أساسية على الأصل العائلي والعرف الاجتماعي، والثروة، والنفوذ السياسي، والتعليم، وآداب السلوك[9] وعلى الولاء الحزبي والطائفي أو غيرها، حسب النظم التي عرفتها دولهم.

وفي الأخير يمكن إجمال مكونات مبدإ الجدارة في الجزائر على الأقل نظريا فيما يلي:

2. **مكونات مبدإ الجدارة:** الجدارة تتكون من خمسة عناصر مترابطة ومتكاملة. هي: تكافؤ الفرص. المساواة. المسابقات والامتحانات. الاستحقاق. واقعية التقارير.

أ. **تكافؤ الفرص:** تتكافأ الفرص بالمساواة بين المترشحين بدءا من الامتحانات والمسابقات والتأهيل والترقية، إلى الحقوق والالتزامات المتبادلة بين المؤسسة وموظفيها طوال المسار المهني.

ب. **المسابقات والامتحانات**: أساس للتباري وإظهار الأكفأ والأجدر لأنها تحول دون تدخل الأهواء الشخصية، والضغوط الخارجية على القائمين على عملية التوظيف أو الترقية.

ج. **الاستحقاق:** وسيلة للمفاضلة أو الفرز بين المرشحين المتبارين للظفر بالوظائف الشاغرة، إذا كانت الوظائف الشاغرة أقل أو مفردة، وتكون بإشراف لجنة و بطريقة شفافة وواضحة.

د. **واقعية التقارير**: هي متابعة المتمرن أو الموظف وتقرير مصيره، بالتثبيت أو الترقية أو التسريح.

هـ. **المساواة:** هي النتيجة الطبيعية الآلية للتطبيق الفعلي والتام للعناصر الأربعة السابقة. وهو ما أتناوله في المبحث الموالي بالتفصيل.

3. **تأسيس التعيين على مبدإ الجدارة: هو** أسلوب عملت به أوروبا تطبيقا لمبادئ الثورة الفرنسية، وإلحاح منظمات المجتمع المدني الحر، كبديل لنظام التوظيف القديم الذي يعتمد على الولاءات السياسية، والحزبية، والشخصية، وحتى الطائفية والقبلية كما سبق ذكره. وإذا نظرنا إلى الواقع اليومي نجد أن نظام الجدارة الحالي مرتبط أساسا بالامتحانات والمسابقات التي تظهر مدى صلاحية المترشحين للوظيفة العمومية، وهي طريقة مثلى تحقق اختيار أكفأ وأجدر المترشحين، ويعمل بها في الوظائف الإدارية الدنيا والوسطى، أما الوظائف العليا أو السامية والنوعية خاصة السياسية منها، فإنه لا يعمل بها، بقدر ما يعتمد على التقدير الشخصي للمكلف بالتعيين ومدى الولاء المنتظر من المرشح؛ لأن التعيين هنا يؤسس منذ البداية على الولاء الشخصي للمكلف بالتعيين ورؤسائه، أو الولاء العقائدي أو المذهبي أو حتى الطائفي أو القبلي.

4. **كيفية تطبيق مبدإ الجدارة:** مبدأ الجدارة في أغلب دول العالم يقوم على نظام الامتحانات، والمسابقات في التوظيف، مما يحقق رقابة فعالة في اختيار أكفأ المرشحين لشغل الوظيفة العمومية. من خلال

أ. الاستغناء عن خدمات الموظف في حالة التأكد من عدم كفاءته.

ب. عدم التمييز بين المواطنين على أي أساس كان، إلا المؤهلات المشروطة ومتطلبات الوظيفة.

ج. فتح المجال واسعا للتنافس على الوظائف الشاغرة، بالاختبارات والامتحانات.

د. اعتبار المسابقات والاختبارات الوسيلة الأنجع لاختبار المعارف والقدرات؛ لأن الفرصة فيها تتاح لكل من تتوفر فيه شروط ومتطلبات الوظيفة.

هـ. التقييم والمفاضلة بين المرشحين، يتمان بإشراف لجنة خاصة محايدة ومستقلة.

و. اقتصار التعيين على المترشحين ذوي الكفاءة المطلوبة، الذين أفرزتهم المسابقات و/أو الامتحانات، والاستحقاق.[10] وليس كمكافأة على خدمة سياسة أو حزبية أو محسوبية.

ولو عدنا إلى عالمنا العربي لوجدنا أنه لا ينظر إلى الجدارة بقدر ما ينظر إلى الانتماء السياسي والحزبي والعلاقات الأسرية والرشوة والجنس ..الخ. ويرجع سبب عدم الأخذ بمبدإ الجدارة إلى شيوع العشائرية، وقلة الرقابة أو انعدامها، ولا أدل على ذلك ما يجري بين أبناء الوطن العربي الواحد من حروب عشائرية ومذهبية وطائفية، بل أكثر من ذلك توزع المناصب محاصصة رسميا بين الشِّيَع والطوائف في لبنان، ولا يوجد في "مجلس التعاون الخليجي" قانون عمل بل "نظام الكفيل". فالشعوب العربية كلها تحكم بنُظم مَلكية بـ "**التّاج أو بالتقادم** "، وأشبَهُهم يطلق الرصاصِ الحي على

المعتصمين من شعبه في الميادين العامة ؛ ألا يؤدى هذا ببعض المكلفين بعملية التوظيف بأن يختاروا من لا يقاومونهم في تحقيق أهدافهم الخاصة ، وليوسعوا نفوذهم ويحققوا مصالحهم الشخصية أو يمارسوا التربح بمختلف أشكاله من خلال الوظيفة ؟. وقد نتج عن ذلك ظهور سلبيات كثيرة هددت وتهدد الإدارة العمومية ، منها ، تشويه سمعتها في المجتمع الذي من المفروض أن تكون في خدمته لا غير ، ويأتي تشويه سمعتها بالدرجة الأولى من أولئك الذين عينوا في مناصب غير جديرين بها ؛ لأنهم لم يستطيعوا أداء مهامهم على أكمل وجه ، أو حسب متطلبات الوظيفة المكلفون بها ، والأنكى والأمر من كل ذلك ترقيتهم من طرف رؤسائهم تحقيقا للمصالح الشخصية إلى وظائف قيادية. التي أصبحوا يتخذون باسمها قرارات خاطئة توازي كفاءتهم ، فازداد السوء سوءا ، وهذا ما ذهب إليه أيضا عبد الغفار يونس قائلا: [11]" بينت تجارب كثيرة من المؤسسات ، أن العديد من الانتكاسات والمشاكل في العمل كان سببها سوء إدارة المؤسسة وضعف القرار المتخذ وعدم الخبرة ، والقدرة على التعامل مع الآخرين مهما كانت صفاتهم. وهذا الأمر لا يعود إلى وجود مشكلة أو خلل في الوظيفة أو العمل فحسب ؛ بل لأن هناك خللا في عدم قدرة من يديرها ويتحمل مسؤولياتها أيضا". هذا من بين ما دعى المشرع الجزائري إلى إلزام القائمين على التوظيف بتطبيق طرق محددة لقياس الكفاءات. هذه الطرق هي: الامتحانات ، والاختبارات المهنية ، والاستحقاق ، والتسجيل على قائمة التأهيل. هي الطرق الأكثر شيوعا في الجزائر لقياس كفاءات المرشحين ، وإثبات جدارتهم ، للحصول على الوظيفة الشاغرة. ولهذا إذا طبقت المؤسسة التوظيف حسب الجدارة وبالكيفيات السابقة ستحقق الفوائد التالية:

5. **فائدة التوظيف المبني على الجدارة:** الجدارة محبذة ؛ لأن فارسها أكد ذاته ، و وصل إلى مأربه ، واعترف محيطه بقدرته على انجاز ما يسند إليه بحق وحقيق ، وبالتالي مسيرته الوظيفية تكون ميسورة بما يحققه من ترقيات ومكانات اجتماعية ومهنية بين زملائه. أما ما يتحقق واقعيا على مستوى المؤسسة. فهو: أن الأداء يجود ، وتنخفض معدلان دوران العمل ، وتقصر فترة التكوين ، والتغير التنظيمي يصبح سريع التغير ، والميزات السابقة تتيح للقيادات أن تتفرغ لأداء مهامها الأساسية ، وهي العناصر التي اشرحها في السطور الموالية.

أ. **الأداء الجيد**: لأن الوظائف الحساسة أو ذات الأهمية الكبرى ، كالتخطيط والتوجيه والرقابة ، ميادينها واسعة ليس من السهل النجاح فيها بسهولة و يسر ؛ النجاح فيها حياة للمؤسسة واستقرارا لعامليها.

ب. **انخفاض معدلات دوران العمل**: وهو ما يؤدي إلى المحافظة على المخزون الذي تملكه المؤسسة من المهارات والكفاءات والخبرات ؛ فهو لا يستحق أن يهدر مهما كان نوعه.

ج. **قصر فترة التكوين**: نظرا للكفاءة و القدرة التي يتمتع بها المرقى أو المرشح ، يصبح التكوُّن أو التعلُّم يسيرا ويحقق هدفه بسرعة ويثبِّت المعين الجديد بعد الفترة الأولى المقررة مباشرة ، وتظهر عليه نتائج تكوينه.

د. **سرعة التغيير التنظيمي:** ذوو الكفاءات الجيدة يتجاوبون بسرعة مع أي تغيير في المؤسسة. كالنمو أو النقل أو الإحلال ، دون آثار سلبية تذكر عليهم و على المؤسسة.

هـ. **تفرغ القيادات:** إلى تحقيق مهامهم الأساسية ، كالتخطيط والتوجيه والرقابة ، أي التوجه إلى تحقيق وتطوير أهداف المؤسسة التي أنشئت من أجلها ، بل إن انتشار الكفاءات في مؤسستهم يجعلهم يطورون الأهداف تجاوبا مع مقتضيات التحولات التي لم تكن في الحسبان. كل ذلك سببه النجاح في العناصر الأربعة السابقة ، وهو ما يدعونا إلى التساؤل ما هي الأسباب التي تجعل المعنيين يتخطون الكفاءة والجدارة ؟

6. **أسباب تخطي الكفاءة والجدارة:** يمكن تصنيف أهم الأسباب التي تدفع القائمين على عملية التوظيف في المؤسسة العمومية إلى تخطي مبدأي الكفاءة والجدارة ، إلى مجموعتين رئيسيتين: أسباب عامة وأخرى خاصة. ويتفرع كل منهما إلى العديد من الأسباب. نوجزها فيما يلي:

أ. **الأسباب العامة** :تعود الأسباب العامة إلى المجموعة الكلية من رؤساء ومرؤوسين. ويمكن تلخيصها في سبعة أسباب:

☒ **فقدان الكفاءة والموهبة:** فاقدوهما لا يقدرون على وضع إستراتيجية ترعى سمعة المؤسسة. فيحولون

اهتمامهم من الحفاظ أو الرفع لمكانة المؤسسة إلى المحافظة على مصالحهم الشخصية وإستزادتها، فيصيرون وبالاً على مؤسستهم، فتنخفض مكانتها وسمعتها بين الجمهور الذي يتردد عليها، وهو ما قد يؤدي إلى فشلها في تحقيق أهدافها، ومواجهة منافسة المؤسسات الأخرى المتطلعة إلى المكانة الأسمى.

☒ **اتخاذ القرارات الخاطئة**: الأدهى والأمر أن يتم ترقية غير القادرين على اتخاذ القرارات الصحيحة إلى المناصب القيادية، وهنا تكمن الكارثة؛ لأن وصولهم إلى المراكز العليا لاتخاذ القرار يجعلهم يتخذون قرارات غير ذات جدوى، خاصة تلك التي لا تعتمد على دراسات واستشارات، بل على السلطة التقديرية المنبثقة من اعتبارات شخصية، ومسايرة للرئاسات، للحفاظ على المصالح الضيقة وإظهارا للولاء المحنط.

☒ **العجز عن التحليل الصائب**: وجود غير المناسبين للوظيفة ينتج عنه تبذير للجهد والمال، لعدم قدرة المقررين على تحليل القضايا واتخاذ القرارات الصائبة في الوقت المناسب، ولو اتخذت فيما بعد، فالوقت في عصر العولمة "سيفا إن لم تقطعه قطعك".

☒ **سوء المفاضلة**: سوء المفاضلة تعود بالدرجة الأولى للأسباب الخاصة؛ مما يؤدى إلى إهدار الكفاءات والخبرات والمهارات، وخسارة للجهد والوقت من طرف الأكفاء، وتبذير المال المنفق عليهم من الأهل والبلد، وظلم في حق الوطن والمؤسسة الكافلة.

☒ **انخفاض المعنويات**: إذا كان القائم بالتوظيف مثلا قد وظف بدون أن يكون جديرا بالمنصب. توظيف غير الجدير بالوظيفة ينعكس على أدائه؛ لأن المهام الموكلة إليه أكبر من إمكانياته وقدراته، الأمر الذي يحُط من معنوياته عاجلا أو آجلا، ويصبح كسولا في أداء أدواره ويتأخر عن مواقيت عمله وينتهز الفرص للتغيب كلما سنح الظرف.[12]

☒ **عدم الالتزام بالأهداف**: وهي الأهداف التي أنشئت المؤسسة من أجل تحقيقها، وبالتالي يصبح الموظف هدفه تحقيق الأهداف الشخصية كالمحافظة على الوظيفة وكل ما هو مرتبط بها، من سلطة وامتيازات.

☒ **انتشار الفساد**: يمكن تلخيص مضار الفساد في التوظيف الداخلي والخارجي بما ذهب إليه سليمان محمد الطماوي، قائلا[13]: "إذا جعلت الترقية منوطة بالوساطة والمحسوبية فلن يعمل أحد؛ لأن من لا وساطة له لا يعمل؛ لأنه يعلم سلفا أنه تنقصه وسيلة الترقية، ولا المحظوظ ذو الوساطة؛ لأنه يعلم أن وسيلة ترقيته هي شيء آخر غير التفاني في العمل". هذه هي الأسباب العامة أما الخاصة فهي:

ب. : **الأسباب الخاصة**: هي أسباب تعود للرئاسات العليا في المؤسسة، فهي لا تلتزم بالمفاضلة حسب النصوص القانونية لمبدأي الكفاءة والجدارة، وتعمل بما يحقق لها مكاسب شخصية من خلال:

✓ **المحاباة**: لأصحاب النفوذ والانتماء السياسي والحزبي، وذوي العلاقة الشخصية، والأسرية.

✓ **التربح**: كالرشوة، ومقايضة المصالح الشخصية بين المتعاملين مع الإدارة، وأصحاب السلطة والنفوذ.

✓ **استغلال السلطة والنفوذ**: السلطة والنفوذ ممنوحتان للقائمين على الإدارة لاستغلالها بما يعود على المؤسسة بالنفع والفائدة، تجاوبا مع مواقف خاصة أو طارئة، لكنها قد تستغل في صالح متخذيها أكثر من صالح المؤسسة.

✓ **التطلع إلى نفوذ أكبر**: فالمديرون يعينون من لا يعارضهم، خاصة إذا كانت المعارضة لا تحقق أهدافهم المرغوبة، لهم أو لأولياء نعمهم من رؤسائهم الذين يكنون لهم الولاء، مما يزيد من نفوذهم، ويزداد النفوذ كلما وظف أشخاص في وظائف ليسوا أكفاء لها، أو ليسوا مؤهلين لشغلها، فيصبحون تابعين لرئاساتهم التي تملي عليهم طرق العمل، والسلوكيات المطلوبة أثناء أداء الوظيفة.

✓ **ضعف أو قلة الرقابة:** يعود سبب قلة الرقابة أو ضعفها إلى قلة النصوص التشريعية المفصلة، سواء منها القانونية و/أو التنظيمية أو الاتفاقية. وهو ما يؤدي إلى التراخي في بذل الجهد الرقابي وفي متابعة المرؤوسين إلى حد التواطؤ معهم، حبا في ازدياد النفوذ والامتيازات الشخصية؛ حتى تصبح سلسلة الولاءات، كحبات المسبحة إن أُسقطت أي حبة منها، انفرطت وسقطت جميع حباتها، التسعة والتسعون؛ رئيس الجمهورية يختار الوزراء أو يقترحهم عليه الوزير الأول، فيتفقان على قائمة معينة. والوزراء يعينون أو يقترحون رؤساء مصالحهم، والأخيرين يعينون أو يقترحون مساعديهم، ومساعدوهم يختارون مرؤوسيهم، وتمتد السلسلة

حتى تصل إلى الأسفل، فطريقة التعيين هذه تجعل البناء متواكلا على بعضه، إزالة حجر واحد، "**حجر سنمّار**" يطيح البناء كله، كما تقول الأسطورة أو يروي التاريخ. وتصبح مقولة "**لمن ترفع شكواك يا شاك بضرك**؟" صحيحة **!!**؛ لأن الولاء آت من التستر المتبادل. من شاكلة " أستروني أستركم". بدليل أن المجلس الأعلى للوظيفة العمومية، وهو الذي نستطيع أن نشبهه بمحكمة الاستئناف العليا للموظف، لم ينعقد منذ استرجاع السيادة الوطنية.

بعد شرح تكافؤ الفرص، والكفاءة، والجدارة، الذين إن عُمل بهم سيوصلون آليا إلى النتيجة وهي: المساواة، وهي التي ستناقش في شكل الصعوبات السوسيو _ قانونية لتطبيق مبدإ المساواة في المؤسسة العمومية الجزائرية ،فيما يلي:

المبحث الثاني: الصعوبات السوسيو قانونية لتطبيق مبدإ المساواة في المؤسسة العمومية الجزائرية

المساواة في التوظيف المراد مناقشتها هي: المساواة بين جميع المواطنين الجزائريين التي حدد المشرع الجزائري آليات تحقيقها من الشروط التي يتطلبها دخول الوظيفة العمومية إلى طرق تطبيقها على أرض الواقع. المساواة لا تعني القسمة على اثنين، ولا تعني التنكر لذوي الحقوق ومن لهم أفضال على المجتمع، و هو ما يدعونا إلى التمييز بين المساواة والحقوق، سواء الحقوق الطبيعية أو المكتسبة.

تناول مبدإ المساواة ينطلق من التعرف على المقصود بها ومصدرها، استقراء متدرجا لمصادر التشريع الجزائري، من الشريعة الاسلامية، والإعلانات والمواثيق الدولية المقررة لحقوق الإنسان، والقوانين الوضعية الجزائرية، وينتهي بالتعرض إلى الآليات التي حددها المشرع الجزائري، تحقيقا للمساواة.

أولا: تحديد المفهوم: قبل أن أتعرض للمساواة في التوظيف، أتناول أولا مفهومها وتعريفها.

1. **مبدأ المساواة**: يدل مفهوم المساواة على حالة تماثل الحقوق و الالتزامات بين الأفراد في المجتمع. و قد كانت النظم السياسية القديمة تقْصره على حق الأفراد في المساواة أمام القانون، فيما يسن لهم من حقوق و التزامات، ثم تطور المفهوم فشمل المساواة الاقتصادية والاجتماعية[14]

تشير كلمة المساواة إلى مجموعة من التوصيات التي يجب أن يتبعها الأفراد و الجماعات لتحقيق العلاقات الاجتماعية الإيجابية؛ لأن المساواة تدعو إلى تطبيق القيم الاجتماعية التي توصي بالعدالة في الحالات المتساوية. أما من حيث تطبيق مبدإ المساواة على أرض الواقع، فهو يختلف من مجتمع لآخر، حسب المثل و الأخلاق الاجتماعية الرفيعة، التي استطاع المجتمع انجازها، والتقيد بقراراتها الأخلاقية. مع التذكير أنه مهما كانت الاختلافات بين المجتمعات، فإن مبدأ المواطنة يبقى يحث على المساواة بين المواطنين أمام القانون[15]، خاصة من حيث تشابه المكانة الاجتماعية والحقوق والمسؤوليات والفرص المتكافئة[16].

المساواة في التوظيف هي أن يتساوى جميع المترشحين لتولي الوظائف في المؤسسة العمومية بمعاملتهم نفس المعاملة. بدءا من الشروط المطلوبة لدخول الوظيفة و عملية الاستقطاب، إلى وضعيات الموظف، بمنحهم نفس المزايا والحقوق وتحميلهم نفس الواجبات، مادامت الوظائف متماثلة.

2. **تعريف المساواة:** عرّفت الإعلانات والمواثيق المقرّرة لحقوق الإنسان والتشريع الوضعي الجزائري، بالإجماع، المساواة، بأنها: عدم التمييز بين المواطنين المترشحين إلى الوظيفة العمومية، انطلاقا من المبدأين الأساسيين في التعيين، وهما: "الكفاءة والجدارة"، ليحصل على الوظيفة الشاغرة الأجدر بها وهو الأكفأ من بين المتسابقين.

إذًا. المساواة في التوظيف، هي: عدم التمييز بين المترشحين من المواطنين، والتعيين في الوظيفة حسب الكفاءة والجدارة.

المنافسة الصادقة، المتساوية، تُخضع التعيين إلى مبدأين أساسيين. الأول: التعين حسب الكفاءة. والثاني: مبدأ المساواة في تولي الوظائف، مبدأي المساواة والكفاءة متكاملين. فالتعيين حسب الكفاءة، هو: تحقيق وتفعيل للمساواة والفرص المتكافئة. ومبدأ المساواة بمفهومه العام السابق الذكر هو التعيين حسب الكفاءة. وحتى تكون المساواة حقيقية، يجب أن تبدأ من الفرص المتاحة للمترشحين. الفرص المتاحة تنطلق من بناء الكفاءة، عن

طريق التعلُّم والتكوُّن. لا يمكن معرفة الأكفأ بالوظيفة إلا بتطبيق مبدإ المساواة بين المترشحين ، بدءا من الإعلان عن الوظيفة إلى التثبيت فيها ، مرورا بالمفاضلة والتعيين والتدريب

وعليه سوف تتم مناقشة المساواة في التوظيف انطلاقا من الكفاءة والجدارة ؛ لأن الفرص المتكافئة ، هي الأرضية الفعلية التي تبنى عليها المساواة ، والمُوصِلة إلى تحقيق الجدارة. وأبدأ بالتأسيس لمبدإ المساواة ، وأنتهي بكيفية تطبيق المشرع الجزائري له .

ثانيا:التأسيس لمبدإ المساواة: تأسيسا لمنظور التشريع الجزائري لمبدإ المساواة في التوظيف ، يجب محْص المصادر التي أقرها المشرع له ، وهي مبادئ الشريعة الإسلامية[17] ، والإعلانات والمواثيق الدولية المقرِرة لحقوق الإنسان[18], ودساتير الجمهورية والتشريع الوضعي الجزائري. بهدف الاجابة على السؤال الذي طرحناه منذ البداية. هل مصادر التشريع الجزائري وقوانينه السارية ، تقر المساواة في التوظيف ؟. هذا ما يراد الإجابة عليه فيما يلي:

1. **التشريع الإسلامي**: الإسلام يعتبر المساواة سمة لازمة للمجتمع الإسلامي وخاصية من خصائصه ؛ لأنها صورة من صور العدالة المطلقة عنده ، و الدلائل على ذلك كثيرة ، سواء من القرآن الكريم أو من السنة النبوية المطهرة. أكتفي بذكر أشهر هذه الأدلة تداولا بين عامة المسلمين ، من القرآن الكريم قوله تعالى :" إنما المؤمنون إخوة"[19] وقوله عز وجل:" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكركم عند الله أتقاكم"[20]. ومن السنة المحمدية قوله صلى الله عليه وسلم:" الناس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى".

2. **الإعلانات والمواثيق والاتفاقيات الدولية**: المساواة في الجزائر تكريس للمبادئ الإنسانية العالمية ، بدءا من إعلان حقوق الإنسان والمواطن ، إلى الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، مرورا باتفاقيات منظمة العمل الدولية.

في إعلان الثورة الفرنسية جاء أن"**جميع المواطنين متساوون في الالتحاق بالوظائف العمومية لا فضل لأحدهم إلا بقدر ما يتمتع به من قدرات ومواهب**[21]".

ولما ظهرت منظمة الأمم المتحدة أخذت به وأقرته في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي نص بصريح العبارة أن: " **لكل شخص الحق في تقلد الوظائف العمومية بالتساوي مع الاخرين في بلده** "[22].

كما أن **منظمة العمل الدولية** طلبت من كل الدول المصادِقة على الاتفاقية رقم 111 بـ " **تطبيق سياسة وطنية ترمي إلى تشجيع تكافؤ الفرص والمساواة والمعاملة في الاستخدام والمهنة**"[23]

3. **القوانين الجزائرية**:لم يبق مبدأ المساواة في التوظيف حبيس المواثيق الدولية المقررة لحقوق الإنسان ، بل ارتقى تكريسه إلى النص عليه في التشريعات الوطنية باعتباره مظهرا من مظاهر الحقوق المدنية للمواطن. وقصد بالمساواة في الجزائر ، عدم التميز بين المواطنين على أسس الجنس أو العرق أو الدين أو الانتماء السياسي ، وأن يكون جميع المترشحين للوظيفة العمومية على مسافة واحدة من القائمين على عملية التوظيف. فقد تم النص عليها في جميع دساتير الجزائر ، بما في ذلك دستورها لسنة 1963 ، الذي جعل من مهام الجمهورية الجزائرية "مقاومة كل نوع من التمييز"[24] ، وميثاقها الوطني لسنة 1976 ذو الإيديولوجية الاشتراكية البحتة الذي كرس الشرعية الثورية ، اهتم بالحقوق الأساسية وبالمساواة بين الجنسين ، ولم يتطرق في ذلك الوقت إلى المساواة ؛ لأن المساواة في تولي الوظائف ضمنها النظام الاشتراكي ، بإلغاء الطبقية ، الذي بدأت إرهاصات تطبيقه الأولى تظهر في الدستور 1963 [25]. الماركسيون يرون أنه "لا يمكن تحقيق المساواة بدون إلغاء الملكية لوسائل الإنتاج الفردية وتصفية الطبقات المستغِلة[26] ، وهو المنحى الذي نحاه الميثاق الوطني لسنة 1976 ، بترسيخه لمبدإ المساواة حسب الشرعية الاشتراكية واعتبره أمرا مفروغا منه. لذلك عبر بـ "انطلاقا" في معرض حديثه عن المساواة. قائلا: "**انطلاقا من مبدإ المساواة بين الجنسين، فإن الاشتراكية تعترف بالمكانة الأساسية التي تحتلها المرأة في الحلبة العائلية، بوصفها أما وزوجة ومواطنة**"[27] .

وقد خص المرأة بالحديث في تلك الحقبة ؛ لأن المساواة بينها وبين الرجل في العرف الاجتماعي كانت موضع جدل ، فحسم الأمر لصالح المساواة بينهما ، ثم نقل مبدأ

المساواة من كونه "مبدأ أساسي إيديولوجي" فقط، إلى دسترته بالنص عليه في المادة 44 من دستور 1976 "**وظائف الدولة والمؤسسات التابعة لها متاحة لكل المواطنين، وهي في متناولهم بالتساوي و بدون أي شرط، ما عدا الشروط المتعلقة بالاستحقاق والأهلية**". و نفس المعنى تلقفه دستور 1989 في المادة 48 "**يتساوى جميع المواطنين في تقلد المهام والوظائف في الدولة دون أي شروط أخرى غير الشروط التي يحددها القانون**". أما دستور 1996 فقد أكد المساواة باكتفائه بتكرير نفس الصيغة التي وردت في دستور 1989.

وبعد التأكد من تكريس مبدإ المساواة بين الجزائريين دستوريا. تستقرأ التشريعات الوضعية الجزائرية. بمراجعة التشريع الجزائري، فيُعثر على أن أول قانون للوظيفة العمومية للجزائر المستقلة ممثلا في الأمر رقم 133/66. المؤرخ في 2 جوان سنة 1966. المتضمن القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية. قد أكد ما ينص عليه دستور 1963 بوضوح بما لا يقبل أي تأويل، ولم يكتف بالتنصيص على المساواة في الوظيفة العمومية، بل اعتبر مبدأ المساواة **إدانة و تطهيرا** للإدارة الجزائرية من تركة العهد الاستعماري بالقول: " **أن مبدأ المساواة هو إدانة للقواعد والعادات التي تثير عند الموظفين الشعور بحرمانهم من الحقوق، و وسيلة لتطهير الإدارة بتنمية الشعور الوطني و المهني فيها** "[28] ؛ لأن الإدارة في الفترة الاستعمارية، كانت في خدمة الأقلية الفرنسية وأداة قمعية لطمس الشخصية الوطنية ونهب خيرات الشعب الجزائري. وقد جندت فرنسا للإدارة الجزائريين الذين كانوا يؤمنون بفرنسا أكثر من إيمانهم بجزائريتهم، أي من منعدمي الشعور الوطني والمعتقدين أن الجزائر فرنسا، رغم أنها كانت تخصهم بوظائف دونية تمييزية يرفضها الفرنسيون، كحراس وبوابين ومترجمين ومنظفين وكتبة بسطاء، دون أن يكون لهم الحق في الترقية إلى مناصب اتخاذ القرار، وهذا ما زاد في توسع الهوة السحيقة بين الجزائريين والإدارة الاستعمارية، وقد رد ابن باديس على كل من هو في موكبهم قائلا : بأن شعب الجزائر مسلم وعربي ولم يحد عن أصله وم يمت ..الخ.

لأن العامة من الجزائريين لا يميزون بين الوطنية الجزائرية والانتماء الإسلامي، خاصة أثناء الحقبة الاستعمارية، دفاعهم عن الوطن، دفاعا عن الإسلام، والوطن الجزائري حاضِنة الإسلام.

لكن مبدأ المساواة بعد 44 سنة من استرجاع السيادة الوطنية، تجلى مفهومه أكثر، فأصبح أعمق معنى وأكثر وضوحا، فيما نصت عليه المادة 74 من الأمر رقم 03/06. المؤرخ في 15 جويلية 2006. المتضمن القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية. في مجال المسار المهني، من حيث التوظيف والترقية، "**أن يخضع التوظيف إلى مبدإ المساواة في الالتحاق بالوظائف العمومية**". وفي مجال الضمانات وحقوق الموظف وواجباته، نصت المادة 27 من نفس القانون _الأمر_ على أنه "**لا يجوز التمييز بين الموظفين بسبب آرائهم أو جنسهم أو أصلهم أو بسبب أي ظرف من ظروفهم الشخصية أو الاجتماعية** ".

لهذا يمكن استنتاج: أن التراث التشريعي الجزائري في كل الدساتير والتشريعات الوضعية بما في ذلك الميثاق الوطني لسنة 1976 يعتبر مبدأ المساواة بين المواطنين في مجال التوظيف حقا من حقوق المواطنة، كمبدأ للتأسيس النظري.

إذًا. مبدأ المساواة هو مبدأ يتسم بالمحلية والعالمية، باستثناء بعض الدول نذكرها لنعلمها ولا نقيس عليها، لشذوذها عن الاجماع العالمي، لا تنص على مبدإ المساواة بين المواطنين أمام القانون بصفة عامة، أو اكتفت بذكره في ديباجة دساتيرها مثل ما فعلت دول إفريقية ك "مالي، السنغال، النيجر، القابون"[29].

بعد أن تأكد، أن مبدأ المساواة في التوظيف الجزائري مؤسس على المواثيق والاتفاقيات الدولية، ومصادر التشريع والدساتير الجزائرية، وتشريعها الوضعي. من حقنا الآن أن نتساءل. عن كيفية تطبيق مبدإ المساواة حسب مفهوم المشرع الجزائري.

ثالثا:كيفية تطبيق مبدأ المساواة حسب نظرة المشرع الجزائري:

رغم أهمية المساواة ، فهي صفة ليست مطلقة. لذلك **ينظر المشرع الجزائري إلى المساواة**: على أنها ليست مدى مطلقا. فقد أورد استثناءات ذكرها متفرقة في مختلف النصوص القانونية ، التي سيتم التطرق إليها لاحقا في مجال الاستثناءات ، كـ "**التفضل**" في المناصب المحجوزة للمجاهدين ، و"**الحرمان**" لخائني الوطن من الوظيفة العمومية.

إذا كان المفهوم الذي اتخذه مبدأ المساواة في التوظيف عند ظهوره في أوروبا ، هو مبدأ المساواة القانونية ، أي أن تتوافر في المترشح لشغل الوظيفة العمومية كل ما يطلبه قانون التوظيف من شروط ومؤهلات علمية وخبرات عملية. فكيف ينظر المشرع الجزائري إلى تطبيق مبدإ المساواة ، في الواقع ؟ . هذا ما سيتم تناوله فيما يلي:

يرى المشرع الجزائري أن مبدأ المساواة في التوظيف ، سواء الداخلي أو الخارجي ، يمكن تحقيقه في الواقع بامتحان أو اختبار أو بإجراء سباق بين المترشحين ، مع إعداد قائمة يرتب فيها المرشحون الناجحون حسب الاستحقاق ، إذا كان عدد الناجحين أكبر من عدد المناصب الشاغرة.

وأبدأ بالتوظيف الخارجي: لأن المساواة فيه أكثر إلحاحا بين المترشحين ، لعدم معرفتهم قدرات بعضهم البعض. أما التوظيف الداخلي فأرتبه في المرتبة الثانية ؛ لأن منصب العمل مضمون ، بقي الرقي الوظيفي وتحقيق الذات فقط ، رغم أهمية المساواة طول المسار المهني. وتفصيل ذلك:

1. **مدخل تأسيس المساواة**: قبل أن التحدث عن المكونات التي تخضع لتطبيق مبدإ المساواة. يجب التحدث عن مجالات السباق. وهما اثنان: أولهما خارجي وثانيهما داخلي ؛ ولكل منهما مجال مكوناته.

أ. **التوظيف الخارجي:** للتوظيف الخارجي ثلاثة أسس للمساواة ،[30] هي:

- ✓ المسابقة عن طريق الاختبار.
- ✓ المسابقة على أساس الشهادة.
- ✓ الامتحان أو الاختبار المهني.

ب. **التوظيف الداخلي:** يتم حسب النسب المقررة والطرق المحددة في القوانين الأساسية الخاصة بالترقية ، إلى رتبة أو إلى سلك علويين مواليين. من خلال:

- المفاضلة بين الموظفين الذين تتوفر فيهم الأقدمية المطلوبة ، مع التسجيل في قائمة التأهيل المعدة ضمن شروط جدول الترقية ، مع استشارة اللجنة المتساوية الأعضاء.
- أو النجاح في امتحان أو فحص مهنيين.
- أو الحصول على شهادة.

يصنف الناجحون المقبلون عن طريق المسابقات والشهادات والامتحانات المهنية في قوائم حسب ترتيب الاستحقاق من قبل لجنة ويعينون حسب الترتيب ، مقارنة بعدد الوظائف الشاغرة.

ملاحظة: يجب التذكير بـ:

- القوانين الأساسية قد تختلف فيها هذه الشروط ، خاصة إذا أريد تأسيس سلك جديد.
- إذا رفض الموظف التعيين حسب النظم اللائحية التنظيمية ، يلغي تعيينه.
- لا يستطيع الموظف أن يحتج بصفته الفردية على القوانين الجديدة التي تسنها الجهة الوصية ، محتجا بكونها غير متفق عليها في العقد.
- لا يمكن للموظف أن يتظلم لدى الرئاسات على تطبيق القوانين الجديدة ، بل له أن يتظلم على القرارات التي تتخذها الإدارة لما يشعر بالغبن إزاءها.

إذن المشرع الجزائري يرى أن المساواة تكمن في إجراء السباق ، إذا توفرت ثلاثة شروط: أولها توفر مكونات السباق. وثانيها إذا توفر مؤطروا السباق. ثالثها: الاعتراف بالاستثناءات.

وشرح الشروط الثلاثة كما يلي:

2. **أسس السباق**: تتمثل مكونات السباق في ثلاثة عناصر: الشهادة والامتحان والاستحقاق[31].

أ. **الشهادة:** هي المؤهل العلمي المطلوب حسب متطلبات كل منصب شاغر. والشهادة أو المؤهل عنصر

أساسي في عملية التوظيف؛ لأنها تثبت مستوى معينا من الكفاءة لدى المترشح.

وتفحص التشريع الجزائري يثبت أن القوانين تضبط العلاقة بين المؤهل والوظيفة من خلال الشهادات. مثلا معلم التعليم الابتدائي يشترط فيه شهادة "الليسانس". وأستاذ التعليم المتوسط يشترط فيه شهادة الدراسات العليا. وأستاذ التعليم الثانوي يشترط فيه شهادة "الماستر". هذا الترتيب يطلب خاصة في بعض التخصصات[31] دون أخرى، حسب الندرة والوفرة، محاولة من الجهة الوصية وضع "الرجل المناسب في المكان المناسب".

كما تأخذ الجهة الوصية بمبدإ الامتحانات والمسابقات، إذا كان عدد المترشحين المتوفر فيهم شرط الشهادة أو المؤهل أكبر من عدد المناصب الشاغرة. وهي طريقة من طرق المفاضلة للالتحاق بالوظيفة العمومية، من جهة، والاستحقاق في التعيين والترقية من جهة أخرى.

وقد يضاف إلى المؤهل، "**الخبرة**"، كمتطلب من متطلبات الوظيفة، بهدف ترتيب المرشحين حسب الاستحقاق. أما إذا كان المرشحون للمناصب الشاغرة جميعهم تتوفر لديهم الشهادة والخبرة المطلوبتان، يلجأ أيضا إلى امتحان أو مسابقة من أجل الاستحقاق، وهو ما أشرحه بالتطرق إلى بقية مكونات المسابقة الموالية.

ب. **الامتحان:** يعتبر كمسابقة لحملة الشهادات المطلوبة، وكذلك الامتحان المهني لذوي الخبرة من الموظفين، بهدف ترتيبهم، إذا كان عددهم أكبر من المناصب الشاغرة، ويهدف الامتحان و/أو المسابقة إلى الفصل بين المترشحين بترتيبهم حسب الاستحقاق.

التحضير للمسابقات والامتحانات المقرر اجراؤهما يخضع لشروط دقيقة محددة بالمرسوم التنفيذي رقم 293/95 المؤرخ في 30 سبتمبر 1995. المتعلق بكيفيات تنظيم المسابقات والامتحانات والاختبارات المهنية في المؤسسات والإدارات العمومية.

ج. **الاستحقاق**: هو ترتيب الناجحين في الامتحان المهني و/أو المسابقة من حملة الشهادات. وكذلك لذوي الخبرة والأقدمية من الموظفين وكذلك المسجلين على قائمة التأهيل، والترتيب يتم عن طريق الفرز وقائمة التأهيل، وتشرف عليه لجنة مشكلة خصيصا لهذا الغرض، ليكون العمل نزيها ما أمكن.

حتى لا يترك تطبيق مبدإ "**المساواة**"، للمساومة والارتجال والأهداف الشخصية، حدد المشرع الجزائري الآلية الممثلة في تنفيذ المادة 26 من الأمر رقم 133/66 المؤرخ في 2 جويلية سنة 1966. المتضمن القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية، وما تلته من قوانين، تناولت نفس ما تناولته هذه المادة، أي أن يتم التوظيف تبعا لكيفيتي: الفرز والجدولة الرتبية. وتفصيلهما حسب التالي:

✓ **الفرز**: بمعنى إخضاع جميع المرشحين المؤهلين للتوظيف للمفاضلة أو الانتقاء حسب أحد الكيفيات الثلاثة التالية: التي هي المسابقات والامتحان المهني وقائمة التأهيل.

- **المسابقات**: تتم عن طريق إحدى الكيفيتين التالتين أو كلهيما. وهما شهادة مع مسابقة، ومسابقة عن طريق الاختبارات.

أ. **شهادة مع مسابقة**: إذا كان عدد حملة الشهادة المطلوبة أكبر من عدد المناصب الشاغرة، تطلب الشهادة كتفضيل لذوي الكفاءة العلمية، وقد تضاف الخبرة كأداة للتفضيل والفصل بين المرشحين، ككفاءة عملية تميز صاحبها عن الذي لم يضع شهادته على المحك الواقعي في ميدان تخصصه.

ب. **مسابقة عن طريق الاختبارات**: إذا كان عدد المرشحين أكبر من عدد المناصب الشاغرة، من غير حملة الشهادات المطلوبة.

- **الامتحان المهني**: هو امتحان يجرى عادة للموظفين من داخل المؤسسة من أجل الترقية، تختبر فيه المعلومات المهنية والعامة حول العمل و محيطه

- **قائمة التأهيل**: طريقة خاصة بالمخزون الداخلي من الموظفين الذين يثبتون الأقدمية المطلوبة ضمن شروط الترقية. وهي طريقة يفاضل من خلالها بين العاملين المؤهلين في المؤسسة **بشروط**، منها: أن لا يرقى المرشح مرتين متتاليتين بهذه الكيفية. يعمل بهذه الطريقة رغم ما فيها من سلبيات على الموظفين من داخل المؤسسة، لكن سلبياتها لا تطغى على إيجابياتها.

✓ **الجدولة الرتبية**: بعد نجاح المشتركين بكيفية من الكيفيات الثلاثة الأخيرة السابقة إن تبين أن عدد الناجحين

من المرشحين المؤهلين أكبر من عدد المناصب الشاغرة، تعد قائمة من قبل لجنة مكونة لهذا الغرض، يرتب فيها الناجحون حسب النقاط المتحصل عليها. تقرر اللجنة تعيين المقبولين المؤهلين في المناصب المفتوحة الشاغرة حسب الترتيب، فيعين من القائمة الأوائل، حسب الاستحقاق، بعدد يساوي المناصب الشاغرة. غير أنه يمكن أن تنص القوانين الأساسية الخاصة على غير ذلك استثناء، كما سيأتي ذكره في مجال الاستثناءات.

رابعا: مؤطروا السباق: مؤطروا السباق، هم مجموعة مختارة مشكلة قانونيا في لجنة مؤهلة محايدة، مهمتها الاشراف على إقرار التنظيم والمراقبة وتنفيذ الإجراءات القانونية لسير المسابقة، في كنف الشفافية المأمورين بها، ورفع تقارير عن طبيعة سير المسابقة إلى الرئاسات التابعين لها.

خامسا: المستثنون من مبدإ المساواة: المساواة في التوظيف ليست حقا مطلقا، إذ يمكن أن يستثنى من القاعدة، الحق في التوظيف لـ **جميع** من توفرت فيهم الشروط القانونية ومتطلبات التأهيل ، كل من استثناه المشرع الجزائري بنص صريح عام ومجرد.

يمكن جمع هذه الاستثناءات تحت أربعة عناوين رئيسية. هي:ما استثنته القوانين الأساسية العامة. ما استثنته القوانين الأساسية الخاصة. وما استثنته ضرورات سياسية. وما استثنته مقتضيات إدارية. كالآتي:

1. **المستثنون بالقوانين الأساسية العامة**: من العادة أن تنص القوانين الأساسية العامة على الشروط بالقول: " **لا يمكن أن يوظف ما لم يكن** " بمعنى أن يكون كامل الصفة المطلوبة، والمستثنى لا تذكره. وقد تستثني بقوة القانون، بالنص صراحة مثل: التحفظ على الجنسية. فقد الحقوق المدنية والسياسية. عدم اكتمال 18سنة من العمر.

أ. . **مزدوج الجنسية**: فقد نصت المادة 51 من دستور 2016 على "**التمتع بالجنسية الجزائرية دون سواها شرط لتولي المسؤوليات العليا في الدولة والوظائف السياسية**" هذه الفقرة المضافة في الدستور أثارت ضجة بين المغتربين من أصول جزائرية حاملي الجنسية المزدوجة، وأعضاء حزب جبهة التحرير الوطني التاريخي، مما يدل على التحول الذي حدث بين الجزائريين وداخل الحزب؛ الدهماء من الجزائريين كانوا يعتبرون التجنس بالجنسية الفرنسية خروجا عن "الملّة" حسب ما أُفتي به لهم، أما المناضل أثناء الثورة التحريرية فقد كان يفضل البقاء بدون جنسية على التجنس بجنسية العدو المحتل.

ب. **المتحفظ على جنسيته الجزائرية**: هذا الشرط ليس لدخول الوظيفة العمومية فقط، بل والاحتفاظ بصفة "موظف"، إن أسقطت منه الجنسية الجزائرية، أو من فقدها رغم أصليتها، يفقد وظيفته. أما إن كان **مكتسبا** لها، فيجب أن تكون ذات أقدمية سنتين على الأقل.

رغم اشتراط الجنسية الجزائرية الأصلية، يمكن الاستفادة من خبرات غير الجزائريين في الميادين التي لم يستطع الجزائريون امتلاكها بعد، لتقنيتها العالية أو للتكتم عليها.

ج. **فاقد الحقوق المدنية والسياسية**: كتعرض المترشح لإدانة مخلة بالحياء، تتنافى مع طبيعة الوظيفة، أو ثبوت الخيانة العظمى.

د. **فاقد الصحة العقلية الكاملة**: إن كان فقدانها يؤثر على الوظيفة المراد شغلها، مع أنها قد تتناسب مع وظائف أخرى، حتى يؤدى العمل أحسن أداء.

هـ. **الطفل: أو عدم إكتمال 18 سنة**: تشترط في الأشغال الخطيرة ولو برخصة الولي الشرعي. ليُحمل المسؤوليات ويؤدي الواجبات. وعادة يحسب تمام العمر المحدد، يوم الامتحان أو المسابقة أو التعيين[32].

2. **المستثنون بالقوانين الأساسية الخاصة**: وهو ما جاءت به القوانين الأساسية الخاصة، بسبب طبيعة العمل، من ظروف وشروط، مثل: ما نص عليه القانون الخاص بالجمارك.

أ. **طبيعة الوظيفة**: يمنع من التعيين أي كان في سلك الجمارك من يقل مجموع حدة بصره على 10/15 [33]دون تعديل بالنظارات أو العدسات. ومن يكون الحد الأدنى لإحدى العينين 7/10 [34]. وأيضا إذا **زاد عمر** عون الحراسة المترشح لسلك الجمارك عن 28 سنة.

رغم أن العمر الأعلى للمترشح لم تحدده بقية القوانين الأساسية العامة، إذ جعلته مفتوحا.

ب. **الخصوصية**:الإعفاء من التربص بسبب الخصوصية: بأن يثبَّت المرشح لحظة التعيين ، دون الخضوع لفترة تربصية. هو استثناء خص كل طبيب عين بصفة "**أستاذ باحث جامعي استشفائي**". وهي حالة **فريدة** بين كل الوظائف المفتوحة في الوظيفة العمومية الجزائرية. السبب يعود إلى الفترة التي قضاها الطبيب في المستشفى بصفة "**طبيب داخلي**" ، اعتبرت له فترة تربصية[35].

3. **المستثنون لضرورات سياسية**: قد تتدخل عوامل سياسية ، تسبِّق بعض المترشحين لدخول الوظيفة العمومية ، فتحجزها لهم ؛ لأن الوظيفة العمومية واجهة الدولة ، وتمثل نظام الحكم فيها ، وتعكس تاريخ و وفاء ونظرة الشعب الأخلاقية والسياسية والإيديولوجية. ونذكر من الضرورات السياسية التي لا تعد مخالفة لمبدإ المساواة ، بل وفاء لذوي الفضل على الأمة ؛ المجاهدين من قدماء المحاربين وذوي حقوق الشهيد ، والأجانب ذوي المواقف المشرفة مع البلد ، كالمتعاطفين مع الثورة الجزائرية وأيام المحن والأزمات الحادة.

أ. **المجاهدون وذوو الحقوق**: يعد مجاهدا ؛ كل شخص شارك في ثورة التحرير الوطني مشاركة فعلية مستمرة وبدون انقطاع ، ما بين أول نوفمبر 1954 و19 مارس 1962 [36]. اما ذوو الحقوق ، فهم الأصول والأرملة أو الأرامل ، ويضاف أبناء وبنات الشهداء لذوي حقوق الشهيد[37]. يرجع سبب تحديد تاريخ الجهاد لتكريم الأحياء ، و تبجيل الأقربين للشهداء ، اعترافا من المجتمع لهم بالتضحيات.

ب. **المتعاطفون مع الثورة التحريرية**: هم الأجانب ممن وقفوا مع الجزائر أيام الثورة التحريرية والأزمات ، خاصة ، السياسية الحادة. فهم ذوو أفضال على الوطن ، مثل السيد "**شولي**" وزوجته. تحجز الوظائف لهم وللمجاهدين وذوي الحقوق والمتعاطفين ، ويعطون الأولية في دخول الوظيفة العمومية ، وفي الترقية والتكوين والتقاعد. فهذا أيضا لا يتعارض مع الالتزام باحترام مبدإ المساواة في تولي الوظائف ، وهو ما قرره المشرع الجزائري.

وسبب حجز المناصب للمجاهدين والمتعاطفين ؛ هو تسهيل إدماجهم في العمل وتمكينهم من العيش الكريم ومواصلة الكفاح لأجل بناء الوطن ؛ لما تميزوا به من وطنية أكثر من غيرهم. بدليل تعريض أنفسهم لأشد المخاطر وهي الموت ولمساهمتهم بصورة أوضح من غيرهم من المواطنين في ثورة أول نوفمبر من سنة 1954, و هو اعتراف بالجميل من الأمة لمن ضحوا بأموالهم أو عرضوا أنفسهم للموت في سبيل الوطن. إلا أن الأمة يجب عليها أن تترصد للانتهازيين وتمنعهم من التسلل داخل هذه الفئة المستحقة كل التبجيل والتقدير والاحترام. أما ذوو الحقوق فهم الأقربون المكْفولون من المجاهدين والشهداء ؛ لذلك وجب على الأمة الكافلة تعويض الكُفلاء الحقيقيين[38].

ج. **الخائنون:** (خيانة الوطن) الخيانة العظمي هي جناية. هذا الشرط اختلف في تحديده حسب كل مرحلة تاريخية من تاريخ الجزائر المستقلة. فالأمر رقم 133/66 المؤرخ في 22 جوان سنة 1966. المتضمن القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية ، ذكرها بصريح العبارة في مادته رقم 24 "**المناهضون لحرب التحرير**" هم الذين كان سلوكهم معاديا لمصالح الوطن أثناء حرب التحرير الأخيرة. وهو استثناء عُمل به خلال السنوات الأولى لاسترجاع السيادة الوطنية للقرب الزمني مع مرحلة الاستعمار ، لكون الوظيفة العمومية تمثل رمز السيادة الوطنية. والعاملون في الإدارة الفرنسية أيام حرب التحرير ، كان معوَّلا عليهم رغم كونهم متعاقدون ، يعملون في الوظائف الدونية في نظر الفرنسيين ، كبوابين ومترجمين وكتاب في "المكاتب العربية"[39] ، وهي وظائف مواجهة للجمهور الذي كانت فرنسا تطلق عليه "**الأهالي**" وهم السكان القاطنون بالجزائر قبل دخول فرنسا ، تمييزا لهم عن الأوروبيين. لذلك لا يقبل ولا يعقل أن يبقى الجزائري الذي حارب أكثر من 7 سنوات يجد نفس الوجوه ما زالت بيدها الإدارة التي كانت بالنسبة للشعب الجزائري رمز التبعية والتسلط والقهر.

وفرنسا اتخذت من الإدارة العمومية أداة قمع ، بغية طمس الشخصية الوطنية ، وجندت لها هذه الفئة من الجزائريين التي كانت تؤمن بفرنسا أكثر من إيمانها بوطنها الجزائر. وحتى لا تترك فرنسا الأمور تفلت من يدها جندت الأفراد الموثوق في وفائهم لها ، هم ذوو الصفات الأساسية المطلوبة _في نظرها_ ؛ منها أن يكون بالضرورة خادما مطيعا وأمينا ومتفانيا في خدمة فرنسا ويحسن التحكم في محكوميه ، من الجزائريين طبعا ، مثل التي في "القايد"

و"الباشاغا". إلى جانب الصفات التقليدية الأخرى وهي: الشجاعة. رجل بارود. رجل قبيلة.[40]

لكن بسبب الحاجة الملحة إلى الموظفين في بداية الاستقلال، فضلت السلطة الجزائرية آنذاك الجزائري على غيره. ولأن البيت الواحد _أحيانا_ انقسم إلى قسمين؛ منهم من أيد الثورة التحريرية، ومنهم من عارضها. سُكت عمن عارضوا الثورة التحريرية، بشرط ألا يكونوا قد حملوا السلاح وسفكوا دماء الجزائريين.

إذن. إبعاد خونة البلد لا يعتبر أيضا مسا بالمساواة، بدليل ما نصت عليه المادة 4 من الاتفاقية رقم 111 الخاصة بالتمييز في مجال الاستخدام الصادرة عن منظمة العمل الدولية. "**لا يعتبر من قبيل التمييز** أي تدابير تتخذ ضد كل فرد يشتبه عن وجه حق في قيامه **بأنشطة فيها إضرار بأمن الدولة**، أو يثبُت تورطه في هذه الأنشطة، شريطة أن يكون لهذا الشخص الحق في الطعن أمام هيئة مختصة، أقيمت وفقا للممارسات الوطنية"[41].

د. **المناصب العليا أو النوعية**:يتم التعيين الاستثنائي في المناصب العليا أو النوعية، بسبب ما يتمتع به مسئولوا الوظائف القيادية من "سلطة تقديرية" في تعيين المرشحين للوظائف العليا والنوعية. وقد برر المشرع الجزائري ذلك بـما " يتمتع هؤلاء المعينون من تقنية أو بسبب اعتبارات أخلاقية كالثقة أو الشعور بمصالح الوطن[42]" ؛ لأن بدايات استرجاع السيادة الوطنية ، كانت الشرعية مستمدة من "الشرعية الثورية" وهو المبرر الذي جعل الالتحاق بالوظائف العليا لا يعتمد على شروط مسبقة عامة ومجردة، بل كل ما تتطلبه هذه الوظائف العليا؛ وفاء المرشح و إخلاصه و ولاءه _**موثوق فيه**_ لصاحب السلطة _**الشرعية الثورية**_ الذي عينه في الوظيفة.

لكن مفهوم الولاء بهذا المعنى يقتضي تفصيلا أكثر، أتناوله فيما يلي

هـ. **استدراك لمفهوم الولاء:** الولاء في الأصل، ناتج عن تنازل الرئيس المباشر عن بعض مسؤولياته ومستلزماتها من سلطات إلى من اختاره مساعدا له، تنفيذا للخطة الموضوعة من طرف الرئيس الأعلى _أُمر بتحقيق أهدافها من رئاساته_، دون متابعة لصيقة، لتتفرغ هذه الرئاسات إلى الإشراف والتوجيه.

من هنا فالولاء كما عرفه أحمد زكي بدوي "**مرادف للطاعة، ويدل على الصلات والعواطف _قانونية_ والإخلاص لما يعتقد الفرد أنه صواب**"[43] الولاء قد يكون طبيعيا، فيصبح واجبا على كل مواطن نحو السلطة الحاكمة والوطن الذي يقيم فيه أو واقعيا مقابل تمتعه بالحماية والأمن. وهو مشتق من "الولاية" التي كما فسرها "ر.بودو وف.بوريكو" بأنها " كلمة نستعملها لما نتكلم عن الولاية لشخص أو لمؤسسة لكي ندل على أننا نثق فيهما ونتقبل رأيهما وعلى أننا مستعدون للامتثال لهما"[44].

رغم الولاء والثقة الممنوحتين يجب أن يتمتع "المعين" أيضا بالكفاءة اللازمة للمنصب حتى يستطيع أن يظهر "في عمله بدرجة عالية من الإتقان وأن تكون له فعاليته في كافة الأمور المعاجلة" [45]

الظاهر أن مفهوم الولاء في العالم العربي ومنه الجزائر لا يستخدم لتحقيق هذا النوع من الاخلاص لتنفيذ الخطط وإظهار ما يتمتع به المعين من كفاءة ومهارة واستغلالهما في تحقيق الخطة المرسومة، بل الولاء أصبح يُلتزم به بغرض رد الجميل والعرفان للقائم بالتعيين، ما دام يحتل منصبا قياديا في المؤسسة.

من هنا نستشف أن الولاء ليس للمؤسسة وتحقيق أهدافها، بل لمن له السلطة التي تضمن الامتيازات الوظيفية، والولاء بهذا المعنى يصبح بقاؤه مرهونا ببقاء القائم بالتعيين في الوظيفة القيادية التي تمنح الامتيازات، ومن ثم فهذا الولاء ليس حقيقيا، بل هو ولاء أعمى؛ لأن **الولاء الحقيقي** هو الولاء لـ: الله والوطن والمؤسسة وأخيرا لمن فوض الصلاحيات والسلطات، على الترتيب.

أ. **الله** :لأنه المراقب العام لكل النوايا والأعمال، المانح لكل الخيرات، المحقق لكل الأماني، والولاء إذا كان لـ لله يدل أن صاحبه صادقا في ولائه.

ب. **الوطن:** لأنه القبة التي يستظل تحتها الكل، بدءا من المفوِّض والمفوَّض له، حتى مَن يعُولون من أسر، مانح الانتماء والأمان والتشريف بالتكليف، المستأمِن على خيرات الأمة؛ الأمانة التي أبت السماوات والأرض أن تحملها.

ج. **المؤسسة:** هي الأمانة الممنوحة مباشرة لمصدر العيش، والمتفق معها على الوفاء لها لتحقيق أهدافها يوم توقيع الطرفين عقد العمل، مقابل ما قبلا به في ذات اللحظة من عمل وأجر.

د. **المفوِّض:** إن كان صادقا فهو المؤتمَن الأول من الله والوطن والمؤسسة والمنتظر منه أن يمنح المؤسسة البقاء والنمو والتطور ومواجهة ما قد تمر به من صعاب والصبر على الأزمات؛ بالتضحية أحيانا ولو بجزء مما حصّل عليه منها مع مقاومة المغريات التي قد تُعرض من طرف المناوئين والمنافسين.

4.**المستثنون بمقتضيات التنظيم الإداري:** الإدارة قد تتطلب عوامل تقوية معينة، منها: القدرات الخاصة _ بدنية وعقلية_ وتفضيل جنس على آخر...الخ. لذلك قُبل الأجنبي واختلف الأجر وقدم الشرط الموضوعي على الشكلي وروعيت خصوصية الوظيفة:

أ. **توظيف الأجنبي**: المقصود به غير حامل الجنسية الجزائرية. قد يوظف من لا يحمل الجنسية الجزائرية أو حتى المكتسبة. بسبب تخصصات دقيقة تتطلبها وظيفة ما مازال الجزائريون لا يمتلكونها أو لتقنية جديدة عالية متحفظا على أسرارها من طرف مخترعيها أو مكتشفيها.

ب. **اختلاف الأجر:** المساواة في الوظائف العمومية لا تعني المساواة المادية دائما بين أصحاب المؤهل الواحد؛ لاختلاف متطلبات كل وظيفة من مسؤوليات وسلطات، رغم ما قد يكون بين الموظفين من فوارق فرص الترقية، ولعل المقولة التي جاء بها النظام الاشتراكي وذكرها الميثاق الوطني الجزائري لسنة 1976 تصلح لتلخيص المعنى الذي أقصده في هذا السياق "**مِن كل حسب قدرته، ولكل حسب عمله**".[46]

ج. **تقديم الشرط الموضوعي على الشكلي:** قد يقع تنافي بين القدرة الموضوعية والشكلية، فيرجح ما يثبِّت الموضوعي. مثل المعفيين من الخدمة الوطنية لأسباب صحية لا يمكنهم المشاركة في مسابقات التوظيف للالتحاق بالأسلاك والرتب التي تتطلب الأهلية البدنية كالشرطة والجمارك وحراس الغابات والسجون ...الخ[47]. رغم قبولهم في وظائف أخرى.

د. **خصوصية الوظيفة:** الخصوصية المقصودة هنا، هي الخصوصية التي تميز بعض الوظائف على أخرى، كترجيح جنس على آخر، فقد يؤْثر الرجل على المرأة في مثل العمل الليلي[48] وباطن الأرض _المناجم _[49] وقد تؤْثر المرأة على الرجل في مثل حراسة زنزانات سجون النساء، أو مراقد الطالبات. إيثار لا يعتبر تمييزا لطرف على آخر، ونفس الشيء بالنسبة للجنسية الأصلية للسفير والقنصل، اللذين يجب أن تكون جنسيتهما غير مزدوجة وجزائرية أصلية. هذا الإيثار اقتضته **المقتضيات** الإدارية.

يمكن تلخيص المقتضيات الإدارية. في أن الوظائف المستثناة من سباق التوظيف حق من حقوق المستثنى لها. وتتمثل في:

- ✓ **الوظائف ذات الطبيعة الفنية البالغة التعقيد:** لندرتها أو مفقوديتها في الوطن. كتوظيف الأجنبي فيها.
- ✓ **الوظائف ذات المسؤوليات القيادية العالية**: لاعتمادها على عناصر الشخصية والخبرة والولاء، كالأمناء العامين.
- ✓ **الوظائف ذات الطبيعة السرية**: لاعتمادها على عنصر الثقة ولما تتطلبه من مواصفات خاصة كالنباهة والتجلد وثبات الجأش.
- ✓ **الوظائف الضارة:** التي تفتقر إلى الجاذبية وغير مشبِعة للحاجات النفسية والاجتماعية، بل قد تكون ضارة لها. مثل العمل ليلا وفي المناجم.

لا شك أن كل المتفاعلين يتركون آثار تتبع كل عمل. وآثار تبعات المسابقات أو الامتحانات على طرفي العلاقة في الحق في المساواة هي:

سادسا: تبعات السباق: وهي ما يترتب على إجراء الامتحانات والمسابقات. من الضروري ذكرها استكمالا للحق في المساواة. هي:

1. **إعداد قائمة احتياطية**: بعد إعداد قائمة نهائية للمقبولين مساوية لعدد المناصب الشاغرة، مرتبين حسب النقاط المحصل عليها من أعلى علامة إلى أدناها مصادقا عليها من طرف لجنة القبول النهائي، تضاف قائمة أخرى احتياطية مكملة للتسلسل الترتيبي الذي توقفت عنده قائمة المقبولين،

بهدف تعويض المقبولين المتخلفين عن تسلم الوظيفة، بحسب الترتيب أيضا.

2. **الحق في الطعن:** رغم أن الوصاية رفضت الطعون في نتيجة الامتحانات الرسمية المعلنة، بسبب توقع الطاعنين احتمال الخطأ في الامتحانات المهنية والمسابقات. وبُرر الرفض بكثرة الطعون ولمجرد الطعن وتلقائيته وعدم تأسيسه غالبا، مما يؤدى إلى تأخير إعلان النتائج النهائية.

التبرير المقدم من الجهة الوصية بإلغاء حق الطعن، رغم ما فيه من صدق بعض الحجج المقدمة، هو إلغاء لـ "مبدأ" مكرس لدى جميع فقهاء القانون؛ لأن المصححين والقائمين على الامتحانات والمسابقات غير معصومين من الخطأ على الأقل، إن لم نقل غير ذلك كأفعال متعمدة.

3. **استمرار الحق في المساواة:** لا يتوقف مبدأ المساواة أمام باب الدخول للوظيفة العمومية، بل يمتد أثره مع المسار المهني للموظف، وما يترتب عليه من مراكز قانونية وحقوق والتزامات متبادلة. مثل الحق في التكوين والترقية والضمان الاجتماعي والتقاعد ...الخ

الخلاصة

الوظيفة حق المواطن على دولته فرضته المواطنة وجعلته بمساواة، انطلاقا من التكافؤ في الفرص والجدارة، خدمة للمواطن والوطن، ومبدءا الكفاءة والجدارة متكاملين وموصلان للمساواة، والمساواة حائلة دون احتكار أي طبقة أو فئة للوظيفة العمومية، إن وضع المشرع آليات تحقيها.

الاجابة على سؤال الإشكال المطروح في بداية المقال إيجابية، والمتمثل في " هل توجد آليات مشرعة لتحقيق مبدأ المساواة في التوظيف في المؤسسة العمومية الجزائرية ؟ "؛ لأن **الاستقراء توصل** إلى أن مبدأ المساواة في التوظيف في المؤسسة العمومية الجزائرية مؤسس على التشريع الاسلامي والإعلانات والمواثيق الدولية المقررة لحقوق الإنسان، ومكرس في كل الدساتير والتشريع الجزائري، منذ استرجاع السيادة الوطنية إلى الآن.

المشرع الجزائري رأى أن المساواة تحقق بالمسابقة المبنية على المادة 26 من الأمر رقم 133/66 المؤرخ في 2 جوان 1966. المتضمن القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية، وما شاكلها[49] من قوانين تخص الوظيفة العمومية الجزائرية، التي انطلقت من أن آليات المساواة في التوظيف هي: الفرص المتكافئة، والجدارة، والاستحقاق.

وحددت **الفرص المتكافئة** بإعطاء جميع المواطنين قيما متماثلة من الحاجات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية قبل تحديد الجدارة. وحددت **الجدارة** بالشهادة والامتحان قبل تحديد الاستحقاق. وحددت **الاستحقاق** بالفرز والجدولة الرتبية.

ورأى المشرع الجزائري أن المساواة **ليست حقا مطلقا**؛ لما للإدارة من حق على المواطن، ولما للمواطن من حق على الإدارة، و لما للوطن من حق على الإدارة والمواطن.

للإدارة حق تقدير مدى صلاحية المترشحين لشغل الوظائف العمومية، استجابة لمتطلبات كل منصب ومقتضيات القانون، و**للمواطن** حق على الإدارة أن تقدر الصلاحية وتنتقي بمساواة بناء على الكفاءة والجدارة والاستحقاق.

و**للوطن** حق الاستثناء في المساواة؛ بتبجيل المواطن على الأجنبي، ورد الجميل لمن خدموه، وردع من خانوه، وتفضيل ذكر أو أنثى، وتقديم الشرط الموضعي على الشكلي، بحجة مقتضيات المواطنة، والضرورات السياسية والتاريخية، والقدرات الشخصية، وطبيعة المنصب.

مهما كانت القوانين واضحة ودقيقة وعامة ومجردة فإن اختلاف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمترشحين، ونزوات القائمين على التوظيف **قد تكون سببا في عدم المساواة.**

الهوامش

1.أحمد زكي بدوي. **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**. مكتبة لبنان. بيروت. 1986. ص137 .

2.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. **دستور** الجزائر 1976. المادة 41.

3.استعملت "**المفاضلة**" بدل الاختيار ؛ لأن المفاضلة تعني: تقديم مترشح على غيره بما يتمتع به من مواصفات شخصية متصلة بمتطلبات الوظيفة. أما الاختيار فقد يكون خاضعا لدوافع شخصية أو ضغوط خارجية على الشخصية القائم بالتوظيف.

4.حبيب الصحاف. **معجم إدارة الموارد البشرية وشؤون العاملين**. مكتبة لبنان. ناشرون. ط1 .1997. ص63.

5.أحمد زكي بدوي .**معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**. مكتبة لبنان .بيروت .1986.ص 265 .

6.إبراهيم عباس الحلابي .**تنمية الموارد البشرية وإستراتيجيات تخطيطها**. دار الفكر العربي. ط1 . 2013. ص71/70.

7.أحمد مختار عمر. **الكنز الكبير**. مطبعة سطور. ط1. 2000. ص326. (اكتفيت بالأكثر شيوعا في عصرنا).

10.بزة رابح. **واقع تسيير الموارد البشرية في المجتمعات المحلية**. مذكرة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع. جامعة باتنة. الجزائر. غير منشورة. ص150.

11.عبد الغفار يونس. **السلوك التنظيمي وإدارة الموارد البشرية**. دار الجامعة للنشر. مصر 2001.

12.راجع. إبراهيم عباس الحلابي. **تنمية الموارد البشرية وإستراتيجيات تخطيطها**. دار الفكر العربي. ط1. 2013. ص79

13.سليمان محمد الطماوي .**مبادئ القانون الاداري** . ص 356 .

14.أحمد زكي بدوي . **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية**. مرجع سابق.ص136.

15.عبد الهادي الجوهري .**قاموس علم الاجتماع**. المكتب الجامعي الحديث. 1988. ص218.

16.محمد عاطف غيث .**قاموس علم الاجتماع** .دار المعرفة الجامعية .1995 .ص161 .

17.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.المادة 2/1. من الأمر رقم 58/75 المؤرخ في 26 سبتمبر 1975. المتضمن **القانون المدني الجزائري** المعدل والمتمم.

18.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .**دستور** 1996. المادة 132. "المعاهدات التي يصادق عليها رئيس الجمهورية. حسب الشروط المنصوص عليها في الدستور ،تسمو على القانون".

19.سورة الحجرات الآية 10 .

20.نفس السورة الآية 13.

21.المادة 6. إعلان "**حقوق الإنسان والمواطن للثورة الفرنسية** "سنة 1789 .

22.المادة 2/21 . **الاعلان العالمي لحقوق الانسان** سنة 1948. الأمم المتحدة.

23.المادة 2. الاتفاقية رقم 111 الخاصة بالتمييز في مجال الاستخدام والمهنة. منظمة العمل الدولية .اعتمدت يوم 25 جوان 1958 .

24.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية.المادة 5/10.**دستور**1963.

25.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. **دستور** 1963 .أنظر الفقرات الأخيرة من المقدمة.

26.أحمد زكي بدوي .**معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية** .مكتبة لبنان .بيروت .1986.ص136 .

27.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية .**الميثاق الوطني**. الجريدة الرسمية. رقم 61 .المؤرخة في 30 جويلية 1976. ص901 .

28.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. الأمر رقم 133/66. المؤرخ في 2 جوان1966. المتضمن **القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية** .الدخول المتساوي في الوظيفة العمومية. الديباجة. ص545 .

29.طلعت حرب محفوظ محمد. **مبدأ المساواة في الوظيفة العامة**. ص182.

30.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 26 "وسيلة تحقيق المساواة " من الأمر رقم 133/66. المؤرخ في 2 جوان1966 .المتضمن القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية .

31. راجع القوانين الأساسية العامة التالية.

أ. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 26من الأمر رقم 133/66 مرجع سابق.

ب. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادتين 54و55 من القانون رقم 12/78. مرجع سابق.

ج. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 34 من المرسوم رقم 59/85 .مرجع سابق .

د. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادتين 80/79 **من الأمر رقم** 03/06 .مرجع سابق.

32.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 27 من المرسوم رقم 286/10 المؤرخ في 14نوفمبر 2010. المتضمن القانون الأساسي الخاص بالموظفين المنتمين للأسلاك الخاصة بإدارة الجمارك.

33.المادة 51 .نفس المرجع.

34.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 16من المرسوم التنفيذي رقم 129/08. المؤرخ في 3 مايو 2008 المتضمن القانون الأساسي الخاص بالأستاذ الاستشفائي الجامعي.

35.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 5 من القانون رقم 07/99 المؤرخ في 5 أفريل 1999. المتعلق بالمجاهد والشهيد.

36.المادتين 14/13 نفس المرجع.

37. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المواد 7/1 من المرسوم 146/66. المؤرخ في 2 جوان 1966.المتعلق بالتعيين في الوظائف العمومية وإعادة ترتيب أفراد جيش التحرير الوطني ومنظمة جبهة التحرير الوطني.

38.عمار عماري مقال بعنوان "بعض الملاحظات عن واقع الادارة العمومية الجزائري وسبل اصلاحها للاندماج ايجابيا في الحركة العمالية" .كلية الاقتصاد وعلوم التسيير. جامعة فرحات عباس سطيف .الشبكة العنكبوتية.

39.عبد الحميد قرفي .الادارة الجزائرية. مقاربة سوسيولوجية ،دار الفجر للنشر والتوزيع ،القاهرة. 2008. ص 59 .

40.منظمة العمل الدولية .الاتفاقية رقم 111 الخاصة بالتمييز في مجال الاستخدام والمهنة.المادة 4.اعتمدت يوم 25 حزيران 1958.

41.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. الأمر رقم 133/66. المؤرخ في 2 جوان1966. المتضمن القانون الأساسي العام للوظيفة العمومية الدخول المتساوي في الوظيفة العمومية. الديباجة ص545.

42.أحمد زكي بدوي .معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية .مكتبة لبنان .بيروت.1986. ص136.

43.ر.بودو وف .بوريكو .ترجمة سليم حداد .المعجم النقدي لعلم الاجتماع .ديوان المطبوعات الجامعية.2007 ص607.

44.إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي .الموسوعة الاقتصادية والاجتماعية. عربي انجليزي.www.kotobarabia.com ص 413.

45.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. الميثاق الوطني. مرجع سابق .ص 91.

46.الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. منشور رقم 16 ك /م/ع/ ع /2006 المتعلق بشروط الأهلية البدنية .المؤرخ في 29 أبريل 2006.

47.منظمة العمل الدولية. المادة 3 من اتفاقيات.أرقام 4و 41 و89. بدأ نفاذ الاتفاقية الأولى بتاريخ: جوان 1921.

استثنت نفس المادة بجواز عمل النسوة ليلا في "المنشأة التي لا يعمل فيها الأفراد من نفس الأسرة " و"حالة القوة القاهرة ، والخوف من تلف المواد عند انقطاع العمل ".

وأستثني أيضا بالمادة 4 من خلال اتفاقيتي منظمة العمل الدولية رقمي 41و89. وكذلك المادة رقم 29 من قانون رقم 11/90 المؤرخ في 21 أبريل سنة 1990 المتعلق بعلاقات العمل .معدل. "يمنع المستخدم من تشغيل النساء ليلا". غير أنه أجاز لمفتش العمل المختص إقليما أن يمنح رخصة خاصة. عندما تبرر ذلك طبيعة النشاط وخصوصيات منصب العمل في مثل المستشفيات والسجون ودور الطفولة. مع الاشارة أنه يعتبر عملا ليلا في الجزائر: من بداية الساعة 9 ليلا إلى غاية نهاية الساعة 5 صباحا.

48.اتفاقية منظمة العمل الدولية. رقم 45. المادة 2. بدأ نفادها سنة 1937 .

49.راجع القوانين الأساسية العامة التالية :

أ. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 26من الأمر رقم 133/66 مرجع سابق

ب. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادتين 54و55 من القانون رقم 12/78 مرجع سابق

ج. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادة 34 من المرسوم رقم 59/85 .مرجع سابق

د. الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية. المادتين 80/79 من الأمر رقم 03/06. مرجع سابق.

معايير المعالجة الصحفية "للثورات العربية" في الصحافة المكتوبة الجزائرية﴿دراسة تحليلية﴾

أسماء قرشوش*

الملخّص

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز أهم "القيم الخبرية" المتضمنة في المعالجة الصحفية لأحداث الثورات العربية ، هذه القيم هي المعايير التي بموجبها تتمّ المفاضلة بين الأحداث ، وبموجبها يتحوّل الحدث إلى خبر صالح للنشر ، حيث تمّ تطبيق تقنية تحليل المحتوى(المضمون) على عيّنة من الصحف المكتوبة الجزائرية ، تمثّلت في يومية الشروق اليومي ، ويومية الشعب ، حيث تمت دراسة المحتوى بتقسيمه إلى فئات رئيسة تمثّلت في فئات الشكل وفئات المضمون. وبعد التحليل الكمي والكيفي للمادة الخبرية ، خلصت الدراسة إلى أنّ الصحف اليومية الجزائرية تعتمد على مجموعة من القيم الخبرية في معالجة الأخبار ، التي بموجبها يتم اختيار الأحداث وتحويلها إلى أخبار صالحة للنشر.

الكلمات المفاتيح: القيم الخبرية ، الثورات العربية ، الصحافة المكتوبة ، تحليل المضمون.

Résumé

Cette étude vise à mettre l'accent sur les principales « valeurs informatives» contenues dans le traitement journalistique des événements des révolutions arabes. Ces valeurs sont les critères en vertu desquelles il est procédé à une différenciation entre les événements, pour transformer l'événement en une information publiable.

Application est ici faite de la technique d'analyse du contenu, sur un échantillon de la presse écrite algérienne, concernant le quotidien Echourouk El Yaoumi, et le quotidien Echaab, en procédant à l'analyse du contenu par sa division en plusieurs catégories principales traitant la forme et le contenu.

Après l'analyse quantitative et qualitative de la matière informative, l'étude a conclu que les quotidiens Algériens se fondent sur un groupe de valeurs informatives dans le traitement des informations à partir desquelles se font le choix des événements et leur transformation en informations publiables

Mots-clés : Valeurs Informative, Révolutions Arabes, Presse Ecrite, Analyse Du Contenu.

Summary

This study is trying to focus on the key «Informative values »contained in the journalistic coverage of the Arabic revolutions events. These values are the criteria under which there will be a differentiation between events, and under which the events turn into publishable information.

The content analysis technique is applied here on a sample of the Algerian press, consisting of the daily Echorouk El Yaoumi, and the daily Echaab, the study was conducted by dividing the data into several main categories consisting of the categories as to form and those on the content.

After the quantitative and qualitative analysis of the informative material, the study concluded that Algerian daily newspapers rely on a group of informative values in the processing of information, and under which events are chosen to be transformed into publishable information ...

Keywords: Informative Values, Arab Revolutions, Newspapers, Content Analysis.

* استاذ مساعد أ، قسم علوم الاعلام والاتصال، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

إشكالية الدراسة

منذ أكثر من خمسة وعشرين سنه ، أي منذ تحرير الاقتصاد بانتصار العولمة الليبرالية ، وفتح الأسواق وإخضاع دول الوطن العربي للهيمنة الاقتصادية الأجنبية وجعلها دولا تابعة وفق أسس التبعية المستترة منها والمعلنة ، سيطرت فكرة أن الاحتجاج الاجتماعي لم تعد محرك التاريخ ، وانّ الصراع الطبقي قد انتهى ، وانّ الثورات السياسية والاجتماعية شبح مرفوض من قبل المدارس الفكرية العالمية وحتى العربية ، ولاسيما التوجهات الأيديولوجية العربية التي تؤكد على أنّ "الثورة ترقد في مقبرة التاريخ"(توفيق المديني ،2012، 53). لكن ما حدث مع مطلع 2011 اظهر خطأ هذا التوجه جملة وتفصيلا فالحراك الاجتماعي الذي حدث في تونس ثم مصر في بداية الأمر ، سرعان ما تحول إلى انتفاضات شعبية قوية استطاعت أن تطيح بأكثر الأنظمة استبدادا ، لأنهما أسقطتا الدولة البوليسية بسقوط نظام الحكم البوليسي لزين العابدين بن على في تونس ، ونظام الحكم الدكتاتوري الذي يقوم على أساس أجهزة المخابرات والجيش لمحمد حسني مبارك في مصر.

هذه الحركات الاحتجاجية شكلت في مجملها حراكا اجتماعيا وسياسيا جديدا جوهره الغضب ، كما جاءت معبّرة عن رفضها التام للأوضاع التي تعيشها شعوبها بطريقة عفوية فجائية ، وبدون سابق تخطيط ماحية بذلك الرؤية التي تقول إنّ الثورة التي لا تتضمن رؤية واضحة وفق خطة مدروسة وتنظيم محكم مآلها الفوضى. لكن المتتبع لمسار أحداث الانتفاضات التي قامت بها هذه الشعوب ،يدرك أنّ ما حدث كان نتيجة حالة احتقان شديد تعيشه الشعوب العربية ونتيجة تراكمات جراء الفساد السياسي ، والتهميش الاجتماعي **خاصة** للفئة العمرية مابين 15/ و29 سنة ، أو ما يعرف "بالطفرة الشبابية" التي عانت ومازالت تعاني أشكالا متعددة من الإقصاء الاجتماعي ،والإهمال والتهميش جعلتها ساخطة على الأوضاع المتمثلة في تراجع الدور الاجتماعي والاقتصادي للدولة ، غياب الحقوق والحريات وتمركز السلطة في يد النخب الضيقة المرتبطة بالأحزاب والأسر الحاكمة ، البطالة والتي تعد من أهم المشاكل التي يعاني منها الشباب في المجتمعات العربية وبخاصة في أوساط الشباب المتعلم الحاصل على تعليم عالي(خليدة كعصيص ،220).

كل هذا أدى إلى انصراف الشباب عن المشاركة السياسية عبر القنوات الشرعية ، والالتفات حول وسائل الاتصال البديلة التي انتشرت مؤخرا بشكل كبير ، والتي تعرف "بمواقع التواصل الاجتماعي". وبدأ الشباب يؤسسون لمرحلة انتقالية جديدة ،ولأنماط مشاركة جدية مكنتهم فعلا من تجاوز العديد من القيود التي فرضتها الأنظمة العربية على الحريات ، والتعبير عن عدم رضاهم عن الأوضاع القائمة ،(دنيا شحاتة ،مريم وحيد ،2011، 11، 12) وكانت حادثة "البوعزيزي" هي محور هذه الانتفاضات التي بدأت في تونس لتنتقل إلى بلدان كانت مهيأة من قبل ، فقط كانت في انتظار مثل هذه الشرارات لتعلن عن نفسها رأيا عام رافضا لما يحدث في هذه البلدان من انتهاكات صارخة لحقوق وحريات الشعوب ، وفعلا تمكن الرأي العام العربي في هذه البلدان من الظهور والتعبير عن إرادته ورغبته في التغيير واستطاع الإطاحة بالنظم الاستبدادية بكافة شخوصها. واستطاعت أخبار هذه الانتفاضات أن تحتل الصدارة في أجندة وسائل الإعلام بكل أنواعها ، ولا سيما الصحافة المكتوبة بوصفها الوسيلة الإعلامية الأولى في العالم ، بالرغم من المنافسة الكبيرة لها من قبل الإذاعة والتلفزيون إلا أنها مازالت محافظة على مكانتها الإعلامية ومازالت في المصاف الأول لوسائل الإعلام.

هذه الاخيرة بما فيها الصحافة المكتوبة من القوى المؤثرة في السلوك البشري وهذا الكلام ليس اعتباطيا بل مبني على أساس نتائج كثيرة من الدراسات حول تأثير وسائل الإعلام على جمهور المتلقين ، والتي أثبتت فعلا أنّ لوسائل الإعلام تأثيرا على سلوك وحتى اتجاهات الجمهور المتلقي للمضمون الإعلامي ، فهي تؤدي دورا محوريا في جميع مناشط الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية. وليست مهمة وسائل الإعلام نقل الأخبار كما هي فقط ، ولكن مهمتها الرئيسية تكون في الخفاء وهي كيفية اختيار هذه الأخبار ، وما هي المعايير التي على أساسها تكون المفاضلة بين الأحداث. هذه المعايير(القيم) هي التي تحدد الأحداث الصالحة لان تكون أخبارا من الأحداث غير القابلة للنشر. هذه

المعايير تعرف في العمل الإعلامي ب"القيم الخبرية" وهي العناصر الواجب توفرها كلها أو بعضها في الأحداث لكي يمكن اعتبار هذا الحدث خبرا يستحق النشر، وهذه المعايير هي الأسس التي تحدد وسائل الإعلام على ضوئها صلاحية الخبر للنشر.(حسني محمد نصر ،سناء عبد الرحمان ،2009، 69) وعلى أساسها تتضح أهمية الأحداث والموضوعات، لانّ عملية تقويم الأخبار مرحلة مهمة جدا من مراحل المعالجة الصحفية للأحداث وهي مجموعة الخصائص التي يتميز بها الخبر. وعلى الرغم من انه لا يوجد اتفاق تام حول عدد هذه العناصر ولا حول ماهيتها، إلا أنّ توفرها كلها أو بعض منها في الخبر تعطيه قيمة وترفعه من مرتبة الواقعة العادية إلى مرتبة الواقعة التي تستحق النشر. (احمد زكريا احمد ،2008، 110).

وعلى هذا الأساس تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن أهم المعايير (القيم) التي تضمنتها المعالجة الصحفية لأحداث الانتفاضات الشعبية التي عرفتها بعض الأقطار العربية الشقيقة مع مطلع عام 2011، والتي عرفت بـ "الثورات العربية" في كل من صحيفتي" الشعب العمومية" و"الشروق الخاصة"، والكشف عن المعايير التي اتخذتها الصحيفتان محل الدراسة في عملية انتقاء الأحداث وترشيحها لأن تكون قصصا إخبارية قابلة للنشر والظهور، ومن هذا المنطلق تتحدد إشكالية هذه الدراسة في إظهار أهم المعايير (القيم) التي تعتمدها هذه الصحف في انتقاء الأخبار الصالحة للنشر، ومنه تكون إشكالية الدراسة تتمحور حول السؤال الرئيس:

ما المعايير (القيم) التي اعتمدت عليها الصحف محل الدراسة في انتقاء أخبار التغطية الصحفية لأحداث "الثورات العربية"؟ وتتفرع إشكالية هذه الدراسة إلى مجموعة من الأسئلة قسمت هي بدورها إلى فئات رئيسية يسهل عدّها وقياسها، على أساسها يتم تحليل المحتوى الظاهر والكامن لهذه الأخبار، ومن خلالها يمكن الإجابة على إشكالية وأهداف هذه الدراسة، وتمحورت هذه الأسئلة حول:

1. ما عدد الأخبار المنشورة حول "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة؟
2. ما المساحة المخصصة لمعالجة أحداث وأخبار "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة؟
3. ما موقع نشر أخبار"الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة؟
4. ما هي أساليب ووسائل الإبراز المستخدمة في المعالجة الصحفية لأحداث "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة؟
5. ما هي أهم الفنون التحريرية التي اعتمدتها الصحف محل الدراسة لمعالجة أحداث الثورات العربية"؟
6. ما هي القيم الخبرية المتضمنة في المعالجة الصحفية لأحداث "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة؟
7. ما نوع التغطية المستخدمة في معالجة أحداث الثورات العربية في الصحف محل الدراسة؟

أسباب اختيار الموضوع

نقص مثل هذه الدراسات في حقل الدراسات الإعلامية في الجزائر، لأنّ جل الدراسات تنصبّ حول "الأثر" و"تأثير" المضمون الإعلامي أو حتى الوسائل على المتلقي، أما الدراسات التي تعني بالأداء الإعلامي ومهام القائم بالاتصال فهي قليلة مقارنة بدراسات الأثر. لذلك أردنا تسليط الضوء على المعايير التي بموجبها يتم اختيار الأحداث التي يمكن أن تكون أخبارا تحقق سبقا صحفيا، ويمكن نشرها عبر صفحات الجرائد وحجب أخرى.

أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة:

1. عدد الأخبار المنشورة حول "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة.
2. المساحة المخصصة لمعالجة أحداث وأخبار "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة.
3. موقع نشر أخبار"الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة.
4. أساليب ووسائل الإبراز المستخدمة في المعالجة الصحفية لأحداث "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة.
5. الفنون التحريرية التي اعتمدتها الصحف محل الدراسة لمعالجة أحداث الثورات العربية".
6. القيم الإخبارية المتضمنة في المعالجة الصحفية لأحداث "الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة.

7. نوع التغطية الصحفية المستخدمة في معالجة أحداث الثورات العربية في الصحف محل الدراسة

أهمية الدراسة

تنبع أهمية هذه الدراسة من أهمية الموضوع في حدّ ذاته، الذي يتناول القيم الخبرية المتضمنة في التغطية الصحفية لموضوع الثورات التي عرفتها بعض الأقطار العربية مع مطلع عام 2011.و"القيم الإخبارية" من العناصر المهمة جدا في الأداء الإعلامي ولها ثقل في هذا المجال، فبالرغم من أنّ ملايين الأحداث تقع يوميا على مستوى العالم إلاّ أنّه لا توجد إلا نسبة ضئيلة جدا من هذه الأحداث تصلح لأن تكون قصصا إخبارية، وهذه النسبة من الأخبار هي التي تقدّمها وسائل الإعلام المختلفة باعتبارها أخبار اليوم.

وتمرّ هذه الأخبار بمراحل عديدة قبل تقديمها كأخبار جاهزة للمتلقي، أهم هذه المراحل على الإطلاق هي صياغة الحدث في شكل "خبر" جاهز قابل للعرض.وهنا لابد من الاستعانة بالقيم الإخبارية لأنّها تحدّد بدقة الأحداث التي تصلح أن تكون قصصا إخبارية، لأنها المعايير الذاتية والموضوعية التي يتم بموجبها تحويل الحدث إلى خبر صحفي وهي عملية ذاتية غير مكتوبة لا يقوم بها أو يفهمها إلا المحترفون في مجال العمل الإعلامي.

ومن هنا تأتي أهمية هذه القيم، ومن هذا المنطلق أردنا أن نتناول موضوع "القيم الخبرية" المتضمنة في المعالجة الصحفية لأخبار الثورات العربية في الصحافة المكتوبة الجزائرية بشقيها العمومي والخاص، لنتعرف من خلالها كيف تعاملت الصحف الجزائرية مع الأحداث الكبيرة التي وقعت مع مطلع 2011 والتي اصطلح على تسميتها بـ "الثورات العربية"، وللوقوف على واقع القيم الإخبارية في هذه الصحف.

نوع ومنهج الدراسة

تنتمي هذه الدراسة إلى الدراسات والبحوث الوصفية التي تهتم بدراسة الظاهرة الإعلامية في وضعها الراهن ولا تقف عند حد الوصف والتشخيص، بل تتجاوز ذلك إلى وصف العلاقات السببية ومحاولة الكشف عن طبيعة هذه العلاقات. (محمد عبد الحميد، 2000، 153)

وللإجابة على مشكلة البحث وتساؤلات الدراسة تم الاعتماد على **منهج المسح بالعينة**، الذي يمكّن من تغطية الفترة المناسبة التي تحتاجها الدراسة. ومنهج المسح هو المنهج المناسب للدراسات الوصفية حيث يقوم كل من أسلوب الوصف ومنهج المسح على دراسة الظواهر كما هي قائمة في الحاضر، قصد تشخيصها وكشف جوانبها، وتحديد العلاقات بين عناصرها. (احمد بن مرسلي، 2007، 287).

أداة الدراسة

يعد أسلوب"تحليل المحتوى" من الأساليب التي أثبتت مصداقيتها في دراسات محتوى الرسائل الإعلامية، يعرفه محمد عبد الحميد (محمد عبد الحميد 1985، 22) "بأنّه مجموعة الخطوات المنهجية التي تسعى إلى اكتشاف المعاني الكامنة في هذا المحتوى والعلاقات الارتباطية بهذه المعاني من خلال البحث الكمي والموضوعي المنظّم للسمات الظاهرة في هذا المحتوى.

ومن خلال اتّباع أسلوب الوصف والتشخيص لمتغيرات الدراسة، وإخضاع عينة من الصحف الجزائرية (عمومية ،وخاصة) للدراسة والتحليل، باستخدام أداة تحليل المضمون وتقسيم المحتوى إلى فئات رئيسية، للكشف عن أهم القيم الخبرية التي اعتمدتها الصحف محل الدراسة في معالجة أحداث "الثورات العربية"، واستخلاص أهم المعايير التي على أساسها تم انتقاء الأحداث وترشيحها لان تكون أخبارا جاهزة للعرض ولها أولوية السبق في النشر.

عينة الدراسة

يقول موريس أنجرس، (موريس أنجرس، 2006، 318)، "إنّ حجم العينة بالنسبة للمعاينات غير الاحتمالية يكفي أن يكون لدينا عدد كاف من العناصر لنتمكن فيما بعد من التحليل وإجراء المقارنات الضرورية، وكلما كان مجتمع البحث كبيرا، كلما قلت نسبيا حاجتنا إلى نسبة عالية من العناصر لبناء العينة".

وعينة الدراسة هي عبارة عن عدد محدود من المفردات التي سوف يتعامل معها الباحث منهجيا" حيث تسمح المعاينة بدراسة مجتمع البحث عبر دراسة عدد محدود من وحداته على أساس أنها تتماثل معه في خصائصه وطبيعته

وهذه الدراسة تقتضي تحديد العينة في إطاراتها الثلاث المعروفة. (محمد عبد الحميد ،1985، 40)

أولا: الإطار المكاني (الجغرافي)

يتمثل أساسا في الحيز المكاني الذي تشغله الصحف اليومية الأكثر انتشارا ومقروئية، وتم اختيار صحيفة "الشعب" الحكومية (العمومية)، وصحيفة "الشروق اليومي الجزائرية"(المستقلة) من بين العديد من العناوين الموجودة على الساحة الإعلامية في القطاع المكتوب في الجزائر.

ثانيا: الإطار الموضوعي: وفق هذا الإطار تم تحديد العينة وفق مستويات هي:

المستوى الأول: مستوى العينة الخاص بالمصدر، ونقصد به المجتمع الأصلي للدراسة والمتمثل في الصحف اليومية الجزائرية المكتوبة والبالغ عددها 24 عددا.مقسمة مناصفة بالتساوي بين الصحف العمومية والخاصة.

- صحيفة "الشعب" 12 عدد.
- صحيفة "الشروق اليومي" 12 عدد.

ووفق هذا المستوى تم اختيار هذه الصحف وفق المعايير الآتية:

- **معيار الانتماء(الملكية):** صحف عمومية تابعة للحكومة ، وصحف مستقلة تابعة للخواص.
- **معيار التوزيع**: كلا الصحيفتين توزع على مستوى القطر الجزائري ولهما مقروئية.
- **معيار اللغة:** كلا الصحيفتين ناطقة باللغة الرسمية للجزائر وهي "**اللغة العربية**".

المستوى الثاني: اختيار العينة (نوع العينة)، والعينة المختارة في هذه الدراسة هي عينة قصدية "عمدية" وهي من العينات غير الاحتمالية التي لا تخضع إلى قوانين الصدفة ولا للإحصاء، بل إلى مواصفات ومعايير يضعها الباحث للغرض الذي يخدم بحثه ، وهو يلجأ إلى هذا النوع من العينات عندما يكون أمام مجتمع بحث غير واضح المعالم ويصعب تحديده بدقة ، وعليه فليس هناك أي معيار أو طريقة يمكن أن يتّبعها الباحث في اختيار هذا النوع من العينات ، فله أن يختار أفراد العينة كما يشاء وبالعدد الذي يراه مناسبا لدراسة الإشكالية.

وعلى هذا الأساس تم تطبيق العينة الدائرية (الفترة الصناعية) لأنّه من الصعوبة بما كان إحصاء وتحليل كافة الأعداد التي صدرت في الصحف محل الدراسة ، واستنادا لمقولة ستامبل: "إذا زادت أعداد العينة المختارة عن 12 عددا ، يعتبر استثمارا فقيرا لوقت وجهد الباحث".

وعليه كان مجموع الأعداد المختارة 24 عددا ، بمعدل 12 عددا لكل عنوان وتم تطبيق العينة الدائرية ، وفيها تم اختيار فترة صناعية (وهي من صنع الباحث) باستخدام التقويم السنوي حيث ترتب أيام المجتمع الأصلي بصورة تغطي الدراسة فيها جميع أيام الأسبوع ، جميع الأسابيع ، وجميع الأشهر بشكل دوري منتظم.

وعلى هذا الأساس تم اختيار العدد الأول من الجريدتين عشوائيا ثم انتظمت عملية اختيار باقي المفردات ، حيث تم احترام المسافة في الاختيار مما يمكّن من تمثيل كل أيام الأسبوع والأشهر ، بحيث تم اختيار اليوم الأول من الأسبوع الأول من الشهر الأول ، اليوم الثاني من الأسبوع الثاني من الشهر الثاني. وهكذا كان عدد الأعداد 12 عددا لكل عنوان.والجدول أدناه يبرز الأعداد التي استهدفتها الدراسة:

جدول رقم1: تواريخ الأعداد المشكلة لعينة البحث لسنة 2011

التاريخ كل عدد	الشعب	الشروق اليومي
02 جانفي *	15380	3191
09 فيفري	15413	3199
17 مارس	15443	3235
25 افريل	15476	3274
05 ماي	15483	3284
13 جوان	15517	3323
14 جويلية	15545	3354
23 اوت	15577	3394
03 سبتمبر	15584	3403
11اكتوبر	15617	3441
19 نوفمبر	15647	3478
27 ديسمبر	15680	3516
المجموع	12	12

ثالثا: الإطار الزماني حددنا المجال الزماني لهذه الدراسة بالفترة الممتدة من 1 جانفي 2011 الى 31 ديسمبر 2011، ولهذا الاختيار مبرراته ، والمتمثلة في:

ملامح هذه الثورات اتضحت كلها في سنة 2011، في كل من تونس ، مصر ، ليبيا ، اليمن ، وسوريا ، لذلك ارتأينا تحديد العينة ابتداء من مطلع 2011 كون الأحداث انفجرت في هذا العام وعمت الدول التي كانت مسرحا لها ، وكيف كانت المعالجة الصحفية العربية لهذه الأحداث في بدايتها ، وعلى أي أساس كان اختيار معايير الأحداث لاعتمادها أخبارا لهذه الأحداث لذلك ارتأينا اخذ الأعداد الصادرة في العام الأول لهذه الثورات في بدايتها ، الصادرة 1 جانفي 2011الى غاية 31 ديسمبر 2011.

وحدة التحليل

تم اعتماد **وحدة الموضوع** ، والتي تعرف أيضا **بوحدة الفكرة** التي يدور حولها الموضوع لتحليل المادة الخبرية ، حيث تم اعتبار الخبر وحدة واحدة تدور حول موضوع واحد ، ومنه تم تحديد فئات المضمون التي تجيب على السؤال ماذا قيل؟ إلى فئة"القيم الإخبارية" وفئة" الأجناس الصحفية" وفئة نوع التغطية". ووحدة الفكرة غير ثابتة يمكن أن نجدها في جملة أو فقرة كاملة أو نص مستقل ، وهي مرتبطة هنا حسب المستوى اللغوي الذي يجري على أساسه التحليل". (احمد بن مرسلي ،2007، 216)

كما تم اعتماد **وحدة المساحة** لحساب مساحة نصوص ، وصور ، وعناوين المواضيع محل الدراسة ، وهنا تم تحديد فئات الشكل التي تجيب على سؤال كيف قيل؟ وتمثلت في فئة المساحة ، وفئة العناصر التيبوغرافية أو ما تعرف بوسائل الإبراز(عناوين رئيسية وفرعية ، صور ، رسومات..).

فئات التحليل

والتي تقوم بالإجابة على تساؤلات الدراسة ونذكرها كما يلي.

الفئة الأولى: كيف قيل؟ ونقصد بها الشكل الذي قدّم به المحتوى في الصحف المختارة.

الفئة الثانية: ماذا قيل؟ ونقصد بها مادة المحتوى من الأفكار والآراء والمعاني المحتواة في مضمون.

القسم الأول: يتضمن فئات الشكل ويشمل:

أ. فئة المساحة

ب. فئة الموقع.

ت. فئة الأجناس الصحفية المستخدمة.

ث. فئة العناصر التيبوغرافية.

. **القسم الثاني: يتضمن فئات المضمون ويشمل:**

أ. فئة القيم الخبرية.

ب. فئة نوع التغطية الصحفية.

دليل التعريفات الإجرائية

أولا: فئات الشكل

فئات تجيب على سؤال كيف قيل؟ أو كيف قدّم المضمون الإعلامي؟ وهي تشمل بدورها عدة أنواع من الفئات يمكن استخراجها من المضامين المعالجة، وفي هذه الدراسة تم تحديدها في:

1.فئة المساحة

من خلالها يتم معرفة الحيّز الذي تخصّصه كل صحيفة للموضوع المدروس. فهي الفئة التي تقيس الحجم المتاح من الجريدة للمضمون الخاضع للتحليل، ومن خلالها يمكن معرفة مدى اهتمام هذه الصحف بهذا المضمون.

فئة الموقع: وهي الفئة التي تهتم بموقع الموضوع أو الفكرة المراد تحليلها في المادة المدروسة.

فئة الأنواع الصحفية: وهي الفئة التي تهتم بالأنواع الصحفية المستخدمة في المعالجة الصحفية لأحداث الثورات العربية في صحيفتي الشعب والشروق اليومي، توضح هذه الفئة إلى أي مدى كان التوازن بين المواد الإخبارية، ومواد الرأي في هذه المعالجة.

فئة العناصر التيبوغرافية: وهي الفئة التي توضح الكيفية التي يتم بها إخراج المادة الإعلامية، من عناوين، وإخراج فني، وألوان، ورسوم وصور.

ثانيا: فئات المضمون

فئة القيم الخبرية: توضح هذه الفئة المعايير التي بموجبها يتم انتقاء الأحداث التي تصلح أن تكون أخبارا صحفية، وهذه المعايير هي "القيم الخبرية"، وقد تم تقسيم هذه الفئة إلى فئات فرعية، حيث تم تقسيم كل قيمة خبرية إلى مؤشرات فرعية على أساسها تم إبراز هذه القيم تمثلت في:

قيمة الجدة والآنية: وهي من أهم القيم الخبرية على الإطلاق، وهي القيمة الوحيدة التي اتفقت كل الآراء على ضرورة توفرها في الخبر، قسمت هذه الفئة إلى المؤشرات الآتية:

1. **الانفراد بالخبر:** ونعني به السبق الصحفي في نشر الخبر والإنفراد به دون الوسائل الأخرى.
2. **أخبار عن أحداث جارية:** ويتعلق الخبر هنا بالأحداث التي وقعت ومازالت جارية (التسلسل في الأحداث وبالتالي في نقل الأخبار عنها).
3. **خبر ممهد لأخبار آتية:** هذه أخبار تتناول تحليلات لأخبار وقعت، وتتنبأ بتطورات يمكن أن تحدث لاحقا.
4. **خبر يتضمن ردا على ما نشر سابقا:** وتتعلق هذه الأخبار بالأخبار التي وقعت، وتليها تعقيبات وتحقيقات.

قيمة الجدية والأهمية: جدية الخبر تنبع من أهميته، لأنّه ليس هناك من القراء من يظهر استعدادا لتتبع أخبار غير جادة، قسمت هذه الفئة إلى المؤشرات الفرعية الآتية:

1. **أخبار تخاطب مصالح القراء:** أخبار تتعلق بمصالح القراء، التوظيف مثلا.
2. **أخبار تخاطب اهتمامات القراء:** أخبار تتعلق بموضوعات تدخل ضمن اهتمامات القراء السياسية، والاقتصادية...
3. **أخبار تتعلق بقضية جماهيرية مصيرية:** تتناول وقائع الخبر أحد القضايا الجماهيرية مثل، التظاهرات والاحتجاجات على الأوضاع...

قيمة الضخامة(الحجم): حيث تكون ضخامة الخبر تتعلق بحجم الأرقام والأعداد المتضمنة في الخبر، قسمت هذه الفئة إلى المؤشرات الفرعية الآتية:

1. **أخبار تتعلق بأرقام كبيرة وضخامة المكان:** مثل عدد القتلى، والمتظاهرين، والجرحى.وأخبار تجمهر المتظاهرين في أماكن معينة.
2. **أخبار تتعلق بالأطراف المشاركة فيه:** حيث تمثل شخصيات محددة أو أفراد بأعينهم المحور الأساسي في الخبر.
3. **حدث ضخم:** الأحداث في حد ذاتها تشكل قيمة لنشر الخبر.

قيمة الشهرة: وهي من أهم المعايير في اختيار الأخبار، كونها تركز على الشخصيات البارزة التي تصنع الحدث، قسمت هذه الفئة إلى المؤشرات الفرعية الآتية:

1. **اقتران الحدث بشخصية رسمية**: يتعلق الخبر بأحد الشخصيات الرسمية ، مثل رئيس دولة ، زعيم ، ملك ، وزير...

2. **اقتران الحدث بشخصية صانعة الحدث:** يتعلق الخبر بشخصيات تصنع الحدث مثل المتظاهرين ...

3. **تخصص ما:** يتعلق الخبر بأحد الشخصيات المشهورة في المجالات المختلفة ، سياسة ، أدب ، فن ، ...

قيمة الإثارة: وهي من القيم البارزة في العمل الإعلامي كون الأخبار المثيرة هي العامل الأساسي لجلب انتباه القراء ، قسمت هذه الفئة إلى المؤشرات الفرعية التالية:

1. **التركيز على العناوين العريضة** (المانشيت) بالبنط العريض في الصفحة الأولى لجلب انتباه القراء.
2. **استخدام الألفاظ المثيرة**: التركيز أثناء صياغة الأخبار على الألفاظ المثيرة للعواطف وشد الانتباه.
3. **التركيز على الصور المثيرة**: الصور الكبيرة والمثيرة تثير اهتمام القارئ في معرفة سر الصورة ومعرفة الخبر الذي وراءها.

قيمة الغرابة والطرافة: توضح هذه الفئة الأخبار الطريفة ، لأنّ الطرافة من الصفات المهمة في بعض الأخبار ، تقوم بوظيفة الترفيه والتسلية إلى جانب وظيفة نقل الخبر.

قيمة القرب المكاني والنفسي: توضح هذه الفئة قيمة مهمة جدا وهي عامل القرب المكاني والنفسي للحدث ، لأنّ القارئ لديه دوائر اهتمام جغرافية تبدأ من مكان إقامته ، ثم تتسع.

فئة نوع التغطية الصحفية: توضح هذه الفئة نوع المعالجة هل كانت تقريرية(تسجيلية)، ومدى التزام الصحف محل الدراسة بالحياد وعدم التحيز في معالجة هذه الأحداث.

مصطلحات الدراسة

القيم الخبرية

نعني بالقيم الخبرية مجموعة العناصر أو المعايير التي بموجبها يتم انتقاء الأخبار الصحفية ، وتتداخل في عملية انتقاء أو رفض المحرر الصحفي للأحداث أو الوقائع المقبولة للنشر. ويمثل محاولة فهم طبيعة هذه القيم وتحديد ماهيتها أهمية كبرى للممارسين الإعلاميين ، لأنّ على ضوئها تتحد اختياراتهم وأسلوب عملهم ، وهي مجموعة العناصر التي تقوم على أساسها أخبار الصحيفة ، فهي العامل الحاسم في تقييم الخبر إلى جانب سياسة الصحيفة. وفي هذا الإطار فإنّ نشر أي خبر لا يقوم على أساس توفر أكبر عدد من العناصر المكونة للخبر ، وإنما يقوم على أساس وزن وقيمة أي عنصر. (عبد الفتاح إبراهيم ، 39 ، 40).

"القيم الخبرية " هي مجموعة معايير ذاتية وموضوعية غير مكتوبة تفهم من قبل المحترفين في وسائل الإعلام في عملية جمع وانتقاء الأخبار ، وتشترك فيها جميع المؤسسات الإعلامية ، إلاّ أنّها تختلف من مؤسسة إعلامية إلى أخرى ، وتعد بنية معقدة لما تحمله من معان إيديولوجية ، ولأنها تخضع لنوعية أذواق الجمهور مما يعطيها صفة التغيير والتطور ، ويمكن تقسيم هذه القيم إلى نوعيين هما:

القيم الخبرية الأساسية: وهي التي لا بد من توفرها في الحدث حتى يكون خبرا ، ولا يكون الحدث خبرا دونها ، واهم هذه القيم: الجدة والحداثة ، والأهمية.

القيم التفضيلية: وهي التي على أساسها يتم تفضيل خبر على خبر آخر ، أي توفر الأحداث على هذه القيم تكون لها أولوية السبق والنشر على الأحداث التي لا تتوفر فيها هذه القيم. (حسني محمد نصر ، سناء عبد الرحمان ،2009، 72). أهمها القرب المكاني والنفسي ، والشهرة ، والضخامة ، والصراع ، والغرابة ، والتشويق ، والتوقع... وهناك تقسيمات عديدة ذكرنا أهمها وأكثرها استخداما في العمل الإعلامي.

الانتفاضات العربية (الثورات العربية)

شهدت المنطقة العربية أواخر عام 2010 مطلع عام 2011 ، موجات تغيير ، وتحولا ديمقراطيا بدأ مع بدايات تفكك بنية بعض الأنظمة العربية بفعل انتفاضات شعبية كانت بدايتها في تونس ،وبالتحديد بتاريخ 17 ديسمبر عام 2010 في مدينة "سيدي بوزيد" الواقعة جنوب تونس ، عندما أقدم الشاب التونسي "محمد البوعزيزي على إضرام النار في جسده ، تعبيرا منه عن غضبه وسخطه بالدرجة الأولى على الأوضاع التي يعيشها ،وكانت مصادرة العربة التي يبيع فيها الخضار ، وقيام الشرطية بصفعه أمام الملأ هي النقطة التي أفاضت الكأس وجعلت البوعزيزي يضع حدا لحياته ، وكانت

هي الفتيل لشرارة الانتفاضة التي قام بها الشعب التونسي متخذا كلمة "ارحل" شعارا له ، وهي الكلمة التي قالتها الشرطية للبوعزيزي لما صفعته على وجهه(محمد تركي بن سلامة ،2013، 17).

بعد تلك الحادثة عمت الاحتجاجات شوارع مدينة سيدي بوزيد ، لتنتقل إلى تونس العاصمة وكافة أرجاء تونس متحولة إلى انتفاضة شعبية عارمة تحت شعار "ارحل " وشعار "الشعب يريد إسقاط النظام". وبالفعل تحت ضغط الشارع التونسي وتوحد هذه الانتفاضة ، هرب الرئيس التونسي "زين العابدين بن علي صبيحة14 جانفي 2011 بعد 22 عاما من الحكم ، واستلم بعده السلطة الوزير الأول السابق "محمد الغنوشي.

وتأثرا بما حدث في تونس ،ونظرا لحالة الاحتقان التي تعيشها الشعوب العربية ، ومع تعاظم عوامل الظلم والقهر داخل المجتمع المصري أصبحت البنية الاجتماعية معبأة بكل عوامل الانفجار ،وجاء يوم 25 يناير ليحمل معه "ثورة مصر" وهي الثورة الفريدة من نوعها ، إذ أنها ثورة بلا قائد ،التحمت فيها أعداد غفيرة من أبناء الشعب المصري بكل شرائحه ،وهي الثورة التي انطلقت من العالم الافتراضي مطالبة بسقوط النظام(خالد كاظم ابو دوح ،2012، 200).وبالرغم من القمع العنيف الذي قامت به أجهزة الأمن للمتظاهرين استمرت الاحتجاجات في ميدان التحرير عبر مليونية الجمعة ، حتى أعلن الرئيس محمد حسني مبارك قرار تنحيه عن السلطة بعد 18 يوما من تاريخ الانتفاضة ،ففي السادسة من مساء الجمعة 11 فبراير أعلن نائب الرئيس عمر سليمان في بيان مقتضب تخلي الرئيس عن منصبه وأنه كلف المجلس الأعلى للقوات المساحة إدارة شئون البلاد .

وبعد نجاح هذه الانتفاضات في تونس ومصر وتمكن شعوبها من الإطاحة بأكثر الأنظمة استبدادا في الوطن العربي امتدت موجة هذه الاحتجاجات إلى أقطار عربية أخرى من بينها سوريا ، وليبيا ، واليمن ، والبحرين ، والمغرب ... في ليبيا كانت ثورة 17 فبراير أو الثورة الليبية ويطلق عليها البعض اسم الحرب الأهلية الليبية ، كانت الثورة في البداية عبارة عن مظاهرات واحتجاجات سلمية ، لكن مع تطور الأحداث وقيام الكتائب التابعة لمعمر القذافي باستخدام الأسلحة النارية الثقيلة والقصف الجوي لقمع المتظاهرين العزّل ، تحولت إلى ثورة مسلحة تسعى للإطاحة بمعمر القذافي الذي قرر القتال حتى اللحظة الأخيرة. وبعد أن أتم المعارضون سيطرتهم على الشرق الليبي أعلنوا فيه قيام الجمهورية الليبية بقيادة المجلس الوطني الانتقالي ، وفي يومي 21 و22 أغسطس دخل الثوار إلى العاصمة طرابلس وسيطروا عليها كما تمكنوا من السيطرة على آخر معاقل القذافي وقتل الأخير في سرت بحلول يوم 20 أكتوبر 2011.

أمّا ما حدث ويحدث في سوريا كان جراء أحداث بدأت شرارتها في مدينة درعا حيث قام الأمن باعتقال خمسة عشر طفلا إثر كتابتهم شعارات تنادي بالحرية وتطالب بإسقاط النظام على جدار مدرستهم بتاريخ 26 فبراير 2011. في خضم ذلك كانت هناك دعوة للتظاهر على الفايسبوك في صفحة لم يكن أحد يعرف من يقف وراءها استجاب لها مجموعة من الناشطين يوم الثلاثاء 15 مارس عام 2011 وهذه المظاهرة ضمت شخصيات من مناطق مختلفة مثل حمص ودرعا ودمشق. كانت هذه الاحتجاجات ضد الاستبداد والقمع والفساد وكبت الحريات ، وعلى إثر اعتقال أطفال درعا والإهانة التي تعرّض لها أهاليهم بحسب المعارضة السورية.

... أما الانتفاضة اليمنية فكانت يوم الجمعة 11 فبراير 2011 عندما احتشد المتظاهرون في جامعة صنعاء مطالبين بسقوط النظام ، وبعد أحداث دامية وتطورات سريعة للأحداث ، غادر الرئيس اليمني عبد الله الصالح الحكم يوم 23نوفمبر 2012 ، بعد أن سلم نائبه عبد ربه منصور هادي صلاحياته الدستورية لحين انتخاب رئيس جديد. (عبد الفتاح القباني ،2012، 167)

نتائج الدراسة التحليلية

ضرورة البحث العلمي تقتضي أن نقابل المعطيات النظرية ، دراسة ميدانية تحليلية تجيب عن الإشكالية المطروحة والتساؤلات التي يتضمنها البحث. لذلك سنقوم بتحليل وتفسير المعطيات والبيانات الميدانية ، وهي مرحلة تشكل امتدادا منطقيا للمراحل السابقة ، ونعتمد في ذلك على جانبين أساسيين هما: الجانب الشكلي ، والجانب الخاص بمضمون المادة الإعلامية محل الدراسة.

جدول رقم2: يوضح مساحة وعدد(النصوص ، العناوين ، الصور) الصحف محل الدراسة

	يومية الشعب	يومية الشروق اليومي
المساحة المطبوعة الكلية	282828	270000
المساحة التحريرية	175493.25	164140.75
عدد الأخبار	86	156
مساحة الأخبار	218400	28348.50
عدد الصور	30	92
مساحة الصور	2565.25	7590.25
عدد العناوين الرئيسية	98	164
مساحة العناوين الرئيسة	875.25	2456.75
عدد العناوين الفرعية	38	107

يوضح الجدول أعلاه عدد ومساحة النصوص والعناوين وصور أخبار أحداث ا"لثورات العربية" في الصحف محل الدراسة ، حيث نلاحظ أنّ هذه الصحف اهتمت بهذه الأحداث ، فمجرد تخصيص مساحة لمعالجة أحداث معينة تعكس اهتمام المؤسسة الإعلامية بالحدث. خصّصت يومية الشعب (**218400** سم²) لمعالجة أحداث "الثورات العربية" ، من المساحة المطبوعة الكلية والمقدرة ب(282828سم²) وهي مساحة لا بأس بها. يومية الشروق خصصت (**28348.50** سم²) لمعالجة أحداث "الثورات العربية" من المساحة المطبوعة الكلية والمقدرة ب (**270000** سم²) ، وهي الأخرى نسبة معتبرة ، وهذا ما يوضح اهتمام القطاع المكتوب في الجزائر بالأحداث التي عرفتها الأقطار العربية مع مطلع سنة 2011 على غرار القطاع الإعلامي العالمي حيث نلاحظ أنّ هذه الأحداث احتلّت مكانة لا بأس بها في الأجندة الإعلامية للقطاع المكتوب بشقيه في الجزائر.

بلغ عدد الأخبار المنشورة حول الثورات العربية في يومية الشعب 86 خبرا ،وفي يومية الشروق 156 خبرا صحفيا ، وهنا نلاحظ اهتمام القطاع الخاص بأخبار الثورات أكثر من القطاع العمومي ،وهذا راجع إلى طبيعة الملكية ، فالصحف العمومية تولي اهتماما الأخبار الداخلية أكثر من الأخبار الخارجية ،أما القطاع الخاص فيركز على المواضيع المثيرة لاستقطاب اكبر عدد ممكن من القراء ، وموضوع الثورات العربية كان له صدى واسع في نفوس الشعب العربي ، وتتبع الأخبار فعلا كان يستقطب هذه الشعوب ،وكانت تتابع هذه الأحداث بشغف كبير ، لأنّ الإطاحة بأنظمة عريقة مثل نظام مبارك وبن على والقذافي ليس بالأمر الهين على الإطلاق.

فيما يخص العناصر التيبوغرافية فإنّ توظيفها ضروري في أي معالجة صحفية ومن خلال القراءة الكمية للجدول يتبين أنّ يومية الشعب خصصت للصورة مساحة 2565.25 سم² بنسبة 1.17 % ، وهي نسبة نوعا ما ضئيلة مقارنة بأهمية الصورة الصحفية فثمة قاعدة ذهبية وشهيرة في الصحافة تقول: "صورة واحدة خير من ألف كلمة" ذلك أنّ الصورة الحيوية الملائمة والمؤثرة تترك أثرا للرسالة الإعلامية أعمق بكثير من الأثر الذي تتركه الرسالة بالكلمات. ومن هنا فإنّ الصورة الإخبارية لا تقاس بتعبيرها الجمالي ، بل بقوتها الإعلامية ، لأنّ الصورة الإخبارية في ذاتها رسالة إعلامية ، ونجاح الصورة في أداء هذه الرسالة ، يعني أنها عرّفت القارئ بفحوى الحدث أو مغزاه (نبيل حداد ، 2002 ، 80).إلاّ أنّ هذه النسبة تدل على عدم اهتمام القطاع العام بعنصر الصورة الصحفية والملاحظ أنّ جميع الصور المنشورة مع الأحداث لم تكن صورا حية من قلب الحدث ، لأنّها لا تحمل توقيعا ، وبعض الصور معادة خاصة صور الجماهير المصرية المعتصمة في ميدان التحرير ، وهذا خطأ فادح لأنّ مثل هذه الأحداث ومع التطور التكنولوجي في مجال التصوير كان من المفترض أن تكون كل الصور حية ومن قلب الحدث . أولت صحيفة الشعب اهتماما بالعناوين الرئيسية البالغ عددها 98 عنوانا معظمها يرافق المواضيع الداخلية ، وخمسة عناوين رئيسية كانت في الصفحات الأولى للصحيفة. ولم تولي اهتماما للعناوين الفرعية والبالغ عددها 38 عنوانا ، رغم أنّ العناوين الفرعية لها أهمية بالغة في المحتوى ، فهي تحمل عنصر التشويق وتسهل عملية القراءة وهذا ما يؤخذ على الصحيفة ، حيث نجد أنّ معظم النصوص دون وجود عنوان فرعي ، ويرى الدكتور إحسان عسكر أنّ للعناوين الفرعية أهمية بالغة في

تسهيل متابعة الخبر فهي توضّح النقاط المهمة، وتقسّم الفقرات الطويلة، وتقوم بتفسير أو تقديم معلومات إضافية للعنوان الرئيس (عبد العال رزاقي، 2004، 77).

أمثلة عن العناوين الرئيسية في يومية الشعب:

- استنفار أمني لوأد الاحتجاجات بمصر مظاهرات يوم الغضب تخلف 5 قتلى وعشرات الجرحى
- مظاهرات الاحتجاج المطالبة بتنحية مبارك تعم المدن المصرية
- المعارك تتواصل مع المعارضة وسيف الإسلام يؤكد انتهاء العمليات خلال 48 ساعة....

يومية الشروق وظفت 7590.25 سم² للصورة بنسبة 26.77% وهي نسبة معتبرة، إلاّ الصور كانت صورا صغيرة ترافق الأخبار ولا تفي بالغرض المطلوب، معظمها حول الشخصيات المحورية للأحداث والمتمثلة في شخص الرؤساء المطاح بهم، وصور أبنائهم وزوجاتهم، وكلها صور قديمة مأخوذة من الأرشيف. فيما يخص العناوين الرئيسة وظفت يومية الشروق نسبة لا بأس بها حيث نجد أنّ يومية الشروق استعملت البنط العريض في كتابة عناوينها الرئيسة خاصة في الصفحات الأولى، وذلك لجلب اهتمام القراء باستعمال ألفاظ رنانة وقوية مثل:

عصابات مبارك تروع المصريين، البشر والحجر يطالبون بسقوط مبارك، من يوم الغضب إلى يوم القيامة. المصريون يقولون كلمتهم الأخيرة اليوم....

العناوين الفرعية كانت موظفة بكثرة في يومية الشروق لأنها خصّصت صفحات كاملة لهذه الأحداث، وكل الأخبار كانت مطوّلة وبالتفصيل، لهذا وظفت العناوين الفرعية للفصل بين الفقرات.

جدول رقم(3) يوضح موقع الأخبار المنشورة حول" الثورات العربية" في الصحف محل الدراسة

موقع الأخبار	يومية الشروق						يومية الشعب					
	ص الأولى		ص داخلية		ص الأخيرة		ص الأولى		ص داخلية		ص الأخيرة	
	أعلى	أسفل	أعلى	أسفل	أعلى	أسفل	أعلى	أسفل	أعلى	أسفل	أعلى	أسفل
ك	0	0	102	40	5	0	0	0	52	34		
%			65.38	25.64	3.20				60.46	39.53		
المجموع	156						86					

كشفت بيانات الجدول رقم(3) عن النتائج الآتية

يتضح من خلال الجدول الخاص بفئة الموقع أنّ الصحف محل الدراسة ركزت بشكل واضح على الصفحات الداخلية في تناولها لأحداث الثورات العربية، حيث جاءت الصفحات الداخلية في المرتبة الأولى سواء في يومية الشعب أم يومية الشروق، حيث احتلت أعلى الصفحة في الصفحات الداخلية المرتبة الأولى في صحيفة الشروق بنسبة 65.38%، أسفل الصفحة في الصفحات الداخلية نسبة 25.64%، أعلى الصفحة في الصفحة الأخيرة نسبة 3.20%.

يومية الشعب هي الأخرى نشرت كل أخبار هذه الأحداث في الصفحات الداخلية حيث احتلت أعلى الصفحة في الصفحات الداخلية المرتبة الأولى بنسبة 60.46%، أسفل الصفحة في الصفحات الداخلية نسبة 39.53%.

تفسير نتائج هذه الفئة:

يؤدي الموقع دورا هاما في تحديد مدى اهتمام الصحيفة بنوع القضايا المطروحة على صفحاتها، ومن خلال البيانات الموضحة في الجدول أعلاه يبدو جليا أنّ الصحف محل الدراسة نشرت كل الأخبار الخاصة بأحداث الثورات العربية في صفحاتها الداخلية، وهذا شيء ربما منطقي لأنّ الأحداث لم تكن أحداثا وطنية، وإنما أحداثا من العالم العربي، أي أحداث خارج الوطن، ولذلك نجد أنّ يومية الشروق كانت كل الأخبار منشورة في صفحات "الأحداث"، وصفحات "العالم". أما صحيفة الشعب كل الأخبار فيها منشورة في صفحة "دولي" الصفحة 10، 11، 12

جدول رقم(4) يوضح النوع الصحفي المستخدم في المعالجة الصحفية لأحداث الثورات العربية

النوع	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
خبر	94	60.25	53	61.62
تقرير	19	12.17	11	12.79
مقال افتتاحي	07	4.48	00	00
مقال صحفي	09	5.76	13	15.11
روبورتاج	10	6.41	06	6.97
عمود	09	5.76	03	3.48
تحقيق	00	00	00	00
حديث	03	1.92	00	00
كاريكاتير	05	3.20	00	00
المجموع	156	100	86	100

كشف بيانات الجدول رقم(4) عن النتائج التالية

من خلال القراءة الكمية للجدول رقم(4) يتبين أنّ الخبر الصحفي جاء في المقام الأول سواء في يومية الشعب بنسبة قدرت ب 61.62% أم في يومية الشروق اليومي بنسبة 60.25% ، وهي نسبة معتبرة مقارنة بباقي الأنواع الأخرى. في المرتبة الثانية التقرير الصحفي بنسبة 12.17% في يومية الشروق ، ونسبة 12.79% في يومية الشعب ، ثم جاءت باقي الأنواع الصحفية بنسب متفاوتة بين كلتا الصحيفتين.

تفسير نتائج هذه الفئة

ترتبط مسألة الشكل الصحفي الذي يقدم به الموضوع الذي ينشر في الصحيفة بعدة اعتبارات منها ما هو متعلق بطبيعة الموضوع والحقائق المتوفرة فيه ، وكذا أطرافه وحيثياته ، ومنها ما هو متعلق بخصائص الجمهور المستهدف ، وموقف الصحيفة نفسها من الموضوع. ومن أكثر الأشكال والقوالب الصحفية شيوعا نجد الخبر الصحفي ، والمقال الصحفي ، التحقيق الصحفي ، الحديث الصحفي ، العمود الصحفي ، والكاريكاتير ، وتعتبر الأشكال الصحفية بمثابة الصورة النهائية التي يظهر بها الموضوع ، وإذا سجلت عدة اختلافات بين القوالب الصحفية فهذا يرجع إلى سمات وخصائص كل شكل من الأشكال المعتمدة من طرف مختلف الصحف ، وكذا يرجع إلى اختلاف مجالات وأهداف استخدامها (نصر الدين عياض ، 1999 ، 14). ومن خلال البيانات الكمية الموضّحة في هذا الجدول القالب المهيمن في هذه التغطية هو "**القالب الخبري**" الذي اعتمد على الخبر البسيط في تقديم أخبار الثورات العربية ، والذي يقوم على وصف واقعة واحدة ، أما عن البناء المتبع في صياغة الخبر فقد استخدمت الصحف محل الدراسة قالب الهرم المقلوب حيث يتيح للقارئ إمكانية الاكتفاء بقراءة مقدمة الخبر. كما أنّ معظم الأخبار كانت قائمة على أسلوب سرد الأحداث ، وهذا ما جعل الخبر الصحفي يكون في المقدمة لأنّه يتماشى وطبيعة أي مؤسسة إعلامية هدفها الأول والأخير نقل ومعالجة ما يستجد من أحداث وأخبار يومية. وفي هذا الصدد يقول"الدكتور فاروق أبو زيد: إنّ الوظيفة الأولى للجريدة اليومية هي متابعة الأحداث الجارية.

ثم يأتي التقرير الصحفي في المرتبة الثانية وهذا أيضا شي طبيعي لأنّ التقرير الصحفي من الأنواع الإخبارية ، وهو فن يقع ما بين الخبر والتحقيق ، ويتميز بالحركة والحيوية ، ولا يقتصر على استيعاب الجوانب الجوهرية أو الرئيسية للحدث فقط مثل الخبر ، وإنما يستوعب أيضا وصف الزمان والمكان والأشخاص والظروف المحيطة بالحدث ، ويسمح كذلك بإبراز الآراء الشخصية كما يسمح بتقديم صورة سريعة للحدث. ويكتب التقرير الصحفي وفق الهرم المعتدل الذي يركّز على جسم الخبر في تقديم المعلومات. (فريد محمود عزت ، 1998) ، ونسبة التقرير الصحفي كانت متوفرة بنسبة لا باس بها في الصحف محل الدراسة مقارنة بالأنواع الأخرى ، والتقارير الصحفية في هذه المعالجة كانت مقسّمة بين التقارير الحية غير مباشرة والتي تم نقلها من وكالات أنباء إعلامية كانت حاضرة في مكان الأحداث ، أي أنّ المعالجة الصحفية لهذه الأحداث لم يكن لها طابع المعالجة الحية المباشرة. كما جاءت بعض التقارير إخبارية حيث اكتفت بشرح بعض الأخبار والتوسع فيها عن طريق جمع معلومات

من مصادر مختلفة. المقال الصحفي العام كان حاضرا بشدة في صحيفة "الشعب" بنسبة 15.11% مقارنة بصحيفة الشروق 5.76% ، وهذا راجع إلى طبيعة الملكية ،لأنّ صحيفة الشعب تعتمد بالدرجة الأولى على الطابع الإخباري السياسي وضخامة الحجم في العرض ، لذلك نجدها تخصص صفحات للمقالات الصحفية ، والتي كانت معظمها تحليلا وقراءة في أحداث هذه الثورات."والمقال الصحفي في الأصل هو أساس العمل الصحفي ،ظل لفترة طويلة صاحب المكانة الأولى في التحرير ، وبقيام الحرب العالمية الأولى تراجع المقال إلى الصفحات الداخلية ليحل محله الخبر في الصفحات الأولى"(محمد لعقاب ،2010، 95). أما أنواع الرأي فكانت شبه غائبة في صحيفة الشعب ، المقال الافتتاحي غائب تماما ، العمود الصحفي شكل 3.48% ، وهذا أيضا شيء طبعي لأنّها صحيفة عمومية لا تهتم بأنواع الرأي وتركز على الطابع الخبري في السرد. صحيفة الشروق لم تكتفي بالسرد ونقل الأحداث ولكن سجلت نسبا لأنواع الرأي في هذه المعالجة ، حيث سجلت نسبا متفاوتة تؤكد على أنّ رأي الصحفي كان حاضرا في هذه المعالجة من خلال المقالات الافتتاحية بنسبة 4.48% ، العمود الصحفي 5.76% والذي كان من إمضاء" صالح عوض" الريبورتاج الصحفي 6.41% ... وما يمكن قوله إنّ هذه المعالجة كانت في مجملها إخبارية تقريرية بالدرجة الأولى ركزت على نقل أخبار هذه الثورات أولا بأوّل.

جدول رقم(5) يوضح القيم الخبرية التي تعكسها الأخبار المنشورة حول "الثورات العربية"

القيم	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
الجدة والآنية	156	22.00	86	23.75
الجدية	156	22.00	86	23.75
الضخامة	40	5.64	23	6.35
الشهرة	99	13.96	61	16.85
الإثارة	101	14.24	20	5.52
القرب المكاني	156	156	86	23.75
الغرابةوالطراف	01	0.141	00	00
المجموع	709	100	362	100

كشفت بيانات الجدول رقم(5) عن النتائج الآتية

جاءت كل من قيمة "الحالية والآنية"، وقيمة "الجدية" ، وقيمة" القرب المكاني والنفسي" في المرتبة الأولى في يومية الشعب بنسبة 23.75% ، وهي نفس النسبة لكل قيمة ،ويومية الشروق بنسبة 22.00% كذلك هي نفس النسبة لكل قيمة.جاءت قيمة "الإثارة" في المرتبة الثانية في يومية الشروق بنسبة 14.24% ، وفي المرتبة الثالثة في يومية الشعب بنسبة 5.52% ، جاءت قيمة"الشهرة" في المرتبة الثالثة في يومية الشروق بنسبة 13.96% ، وفي المرتبة الثانية في يومية الشعب بنسبة 16.85% ، قيمة الضخامة مثلت 5.64% في يومية الشروق ، ونسبة 6.35%في يومية الشعب ، أما "قيمة" الطرافة" مثلت نسبة ضئيلة جدا بلغت 0.14% في يومية الشروق ،و 0%في يومية الشعب.

تفسير نتائج هذه الفئة

عكست النتائج الموضّحة في الجدول أعلاه مدى التفوّق الواضح لقيمة "الحالية والآنية" وقيمة "الجدية" وقيمة" القرب المكاني والنفسي" ، وهذا يؤكد أنّ هذه القيم كانت محورا أساسيا في اختيار أحداث الانتفاضات التي حدثت في الوطن العربي وتكون أخبارا أساسية في الصحف محل الدراسة. قيمة الجدة ، أو الحالية أو الآنية والفورية كما يسميها البعض هي المعيار الأساسي ، وهي من المعايير الأساسية لاختيار الأحداث ، وبموجبها تكون الأخبار وهي المعيار الوحيد الذي تم الاتفاق حوله بالإجماع بين الباحثين والدارسين في مجال الإعلام ، حيث نجده دائما يتصدر عناصر القيم الخبرية رغم اختلاف الرؤى بين الباحثين فيما يخص المعايير المحددة للقيم الخبرية.

وعنصر "**الجدة والحالية**" أهم معيار يتم بموجبه تحويل الحدث إلى خبر ،لأنّ الأخبار القديمة لا تستهوي القارئ ، وبما أنّ الخبر ولد ليموت فالأخبار القديمة تفقد قيمتها مع مرور الوقت ،وقد تكون أخبارا نقيض القيمة إذا كانت قبل الوقت المناسب لها ،فمثلا المعلومة قد تكون ضارة قبل وقتها لعدم صحتها ،والمعلومة تكون جيدة في الوقت المناسب إذا توفرت فيها الموثوقية والمصداقية والالتزام بالقيم المهنية للقائم بالاتصال ،والمعلومة التي تصل بعد فوات الأوان لا معنى لها.(عبد الرزاق محمد الديلمي ،2010، 79) وكي تحقق الهدف المطلوب لا بد من مراعاة الجدة في نقل الأخبار ، لتحقيق السبق الصحفي الذي يبقى أهم معيار تقاس به جدية الأخبار ، بل وحتى وزن المؤسسة الإعلامية ككل.

قيمة "**الجدية**" لا تقلّ أهمية عن قيمة الجدة ، بل هي ملازمة لها ،وهي معيار مهم وضروري من معايير القيم الخبرية فالخبر الجاد له وزنه وثقله ، والقارئ يظهر استعدادا كاملا لقراءة الأخبار الجادة لأنّه لا مجال لنجاح أي صحيفة تتناول أخبارا هزلية على الدوام.وكل الأخبار التي نشرت عن الثورات العربية كانت جادة للغاية لأنّ الأحداث نفسها تفرض هذه القيمة فرضا ، وبموجبها كانت هذه القيمة متوفرة في كل الأخبار التي نشرت حول الثورات العربية سواء في صحيفة الشروق اليومي أم صحيفة الشعب ، كذلك قيمة الجدة ، وقيمة القرب المكاني والنفسي توفّرت في كل الأخبار التي تمّ تحليلها ، قيمة القرب المكاني والنفسي من القيم التفضيلية ، وهي "القيم التي يعني توفرها في خبر ما ،ترجيح هذا الخبر وتقديمه في النشر على الخبر الذي لا تتوفّر فيه ، فهي معايير يتم على أساسها تفضيل خبر على أخر ، والحكم بصلاحيته للنشر عن خبر آخر."(حسني محمد نصر ،سناء عبد الرحمان ،2009، 72) وهي معيار مهم جدا من معايير اختيار الأحداث التي تصلح أن تكون أخبارا ، لأنّ القارئ أو المشاهد أو المستمع للأخبار لديه دوائر اهتمام جغرافية تبدأ دائما بالأحداث القريبة منه ومن منطقته الجغرافية ،فهو يهتم بما وقع من أحداث قريبة منه مكانيا وزمانيا ، وما حدث في الوطن العربي مس كل الدول العربية الأخرى بحكم الانتماء الجغرافي والديني ،وكانت متابعة هذه الأحداث محل اهتمام الشعوب العربية بأسرها. كذلك من بين معايير هذه المعالجة نجد التركيز في معظم الأخبار على قيمة"**الإثارة**" خاصة في صحيفة الشروق وهذه نتيجة منطقية تأتي اتساقا مع السياسة التحريرية للصحف الخاصة التي تعتمد على التوزيع وجذب أكبر عدد من القراء ،وعنصر الإثارة هام جدا للخبر ،والخبر الذي لا يثير النفس بالنسبة لمأساة وطنية أو لشخصية ما في ظروف معينة لا يلاقي إقبالا كبيرا من قبل القراء ، وعنصر الإثارة من بين أهم المعايير وذلك لأهميته النفسية في جذب القارئ.(عبد الرزاق محمد الديلمي ،2012، 128) ومن بين المعايير التي تمت بموجبها المعالجة الإخبارية للثورات العربية نجد توفّر قيمة"**الضخامة**" وقيمة "**الشهرة**" وهما قيمتان مهمتان للغاية يعملان جنبا إلى جنب مع قيمة "**الإثارة**". يعني بتوفر قيمة الضخامة والشهرة تكون الإثارة لا محالة ، فقيمة"الشهرة" من مقومات الأخبار الناجحة.

"فالأسماء اللامعة وحدها تصنع أخبارا لامعة" ومع التركيز على قيمة "الضخامة" في العرض تكون الأخبار لها قيمتها الخبرية ، ومن خلال الأخبار التي تم نشرها حول الثورات العربية نجد أنّ هذه القيم مجتمعة توفرت في الصحف محل الدراسة حيث نجد أنّ أسماء الرؤساء التي تمت الإطاحة بهم ، وأبنائهم ، وزوجاتهم ... تتردد بكثرة في الأخبار ، وتم التركيز عليها في العناوين الرئيسية والمانشيت وذلك لجلب انتباه القراء. ولأمثلة على ذلك كثيرة مثل: صحيفة الشعب:

- "ماذا بعد جمعة الغضب ؟ مبارك لا يريد نهاية بن على."
- مظاهرات الغصب تستمر ومصر تحترق ونظام مبارك يرفض الرحيل.
- مصير محزن لأبناء العقيد معمر القذافي ، اعتقال سيف الإسلام واستسلام محمد واختفاء الباقي....

أمثلة من صحيفة الشروق اليومي

- الجيش يهرّب بن علي وينقذه من مصير تشاو سيسكو...
- انفلات أمنى بعد فرار بن على ... وقوات الأمن والجيش تنزل إلى الشارع...

جدول رقم(6) توزيع قيمة الجدة والآنية على المؤشرات الفرعية لها

مؤشرات الجدة والآنية	المادة الخبرية			
	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
الانفراد بالخبر	0	0	0	0
أخبار عن أحداث جارية	113	72.43	63	73.25
خبر مهد لأحداث آتية	7	4.48	4	4.65
ردا على خبر نشر سابقا	36	23.07	19	22.09
المجموع	156	100	86	100

تمثلت المؤشرات الفرعية لقيمة "الآنية والجدة" في احتلال مؤشر "أخبار عن الأحداث الجارية" المركز الأول ، سواء في يومية الشروق بنسبة 72.43% أم يومية الشعب بنسبة 73.25%. المرتبة الثانية مؤشر "ردا على أخبار نشرت من قبل بنسبة 23.07%في يومية الشروق ، وبنسبة 22.09%في يومية الشعب.

جدول رقم(7) توزيع قيمة "الجدية والأهمية" على المؤشرات الفرعية لها

مؤشرات الجدية والأهمية	المادة الخبرية			
	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
تخاطب مصالح القراء	0	0	0	0
تخاطب اهتمامات القراء	0	0	0	0
ترتبط بقضية مصيرية	156	100	86	100
المجموع	156	100	86	100

تمثلت المؤشرات الفرعية لقيمة "الجدية والأهمية" في احتلال مؤشر "ترتبط بقضية مصيرية" المرتبة الأولى على الإطلاق في كلتا الصحيفتين بنسبة 100%.

جدول رقم (8) توزيع قيمة الضخامة والحجم على المؤشرات الفرعية لها

مؤشرات الضخامة	المادة الخبرية			
	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
أخبار تتعلق بأرقام كبيرة	8	20	4	17.39
أطراف مشاركة في الحدث	11	27.5	6	26.08
حدث ضخم	19	47.5	13	56.52
المجموع	40	100	23	100

تمثّلت المؤشرات الفرعية لقيمة "الضخامة والحجم" في احتلال مؤشر "أطراف مشاركة في الحدث المركز الأوّل في يومية الشروق بنسبة 27.5% ، بينما احتل مؤشر "حدث ضخم» المرتبة الأولى في يومية الشعب بنسبة 56.52% ، بينما تمثلت نسبة "حدث ضخم" في 47.5% في جريدة الشروق.

جدول رقم (9) توزيع قيمة الشهرة على الفئات الفرعية لها

مؤشرات الشهرة	المادة الخبرية			
	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
شخصيات رسمية	53	53.53	41	67.21
شخصيات صانعة الحدث	33	33.33	11	18.03

تخصص ما	13	13.13	9	14.75
المجموع	99	100	61	100

تمثلت المؤشرات الفرعية لقيمة" الشهرة" في احتلال مؤشر "شخصيات رسمية" المرتبة الأولى في كلتا الصحيفتين في يومية الشروق بنسبة 53.53% ، وفي يومية الشعب بنسبة 67.21%. مؤشر "شخصيات صانعة الحدث" في المرتبة الثانية بنسبة 33.33% في يومية الشروق ، ونسبة 18.03% في يومية الشعب.

جدول رقم(10) توزيع قيمة الإثارة على المؤشرات الفرعية لها

مؤشرات الإثارة	المادة الخبرية			
	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
العناوين المثيرة	54	53.46	4	20
الألفاظ المثيرة	23	22.77	11	55
الصور المثيرة	24	23.76	5	25
المجموع	101	100	20	100

تمثلت المؤشرات الفرعية لقيمة"الإثارة" في احتلال مؤشر"العناوين المثيرة" المرتبة الأولى في يومية الشروق بنسبة 53.46% ، بينما احتل مؤشر "الألفاظ المثيرة" المرتبة الأولى في يومية الشعب بنسبة 55%....

جدول رقم(11) يوضح نوع التغطية التحريرية لأخبار "الثورات العربية"

التغطية	الشروق		الشعب	
	ك	%	ك	%
تقريرية	132	29.59	77	26.92
مفسرة	98	21.97	74	25.87
متابعة	144	32.28	61	21.32
متحيزة(ملونة)	42	9.41	45	15.73
محايدة	30	6.72	29	10.13
المجموع	446	100	286	100

كشفت بيانات الجدول رقم(11) عن النتائج الآتية

التفوق الواضح للتغطية التسجيلية التقريرية في يومية الشروق بنسبة 29.59% تليها التغطية المتابعة بنسبة 32.28% ، التغطية المفسرة 21.97% ، التغطية المتحيزة أو الملونة 9.41% ، التغطية المحايدة 6.72%. أما يومية الشعب في المرتبة الأولى التغطية التقريرية بنسبة 26.92% ، التغطية المفسرة 25.87% ، التغطية المتابعة بنسبة 21.32% ، التغطية المتحيزة 15.73% ، التغطية المحايدة 10.13%.

تفسير نتائج هذه الفئة

تعكس النتائج الموضّحة في الجدول أعلاه تفوق التغطية التقريرية التسجيلية في كلتا الصحيفتين ،وهذا منطقي لأنّ الصحف محل الدراسة ركّزت بالدرجة الأولى على الخبر الصحفي لنقل كل ما هو جديد حول الثورات العربية والتغطية كانت مواكبة للأحداث ، حيث اعتمدت الصحف محل الدراسة بالدرجة الأولى على الأسلوب السردي في هذه المعالجة.جاءت في المرتبة الثانية التغطية المفسرة أو التفسيرية ، وهي الأخرى نتيجة طبيعية لأنّ أساس القصة الخبرية يهدف إلى تفسير الخبر أو شرحه ،خدمة للقراء بشرط أن تقدم كل التفاصيل وتتضمن وصف الجو العام المحيط بالحدث ووصف المكان والأشخاص وذكر بعض المعلومات الجغرافية أو التاريخية أو الاقتصادية أو السياسية عن البلد الذي وقع فيه الحدث.(احمد موسى قريعي ،2008، 34) وهذا ما كان بالفعل في هذه التغطية سواء في يومية الشروق أم يومية الشعب معظم الأخبار كانت مفسرة بالدرجة الأولى ، والدليل أنّ الأخبار المحايدة كانت نسبتها قليلة.

فيما يخصّ التغطية المتابعة كانت هي الأخرى حاضرة بقوّة خاصة في صحيفة الشروق ،وحتى في يومية الشعب ، لأنّ معظم الأخبار كانت لها تبعتها في أخبار أخرى عالجت

تطوراتها ، لأنّ التغطية المتابعة هي التغطية التي تعالج نتائج أو تطورات جديدة في أحداث أو وقائع سابقة والأحداث التي جرت كانت متسلسلة لا يمكن أن تفصل حدثا عن حدث آخر ، وأي خبر نشر اليوم له علاقة أكيدة بما نشر أمس.التغطية المتحيزة أو الملونة كانت موجودة هي الأخرى بحيث أنها ظهرت في قوالب الرأي خاصة حيث ظهرت بقوة أراء الكتاب الصحفيين حيث اختلط الخبر برأي الصحفي الشخصي.التغطية المحايدة كانت قليلة في الصحف محل الدراسة حيث هناك بعض الأخبار اكتفت الصحف بنقل الحدث كما هو دون التعمق في الأبعاد أو تقديم الخلفيات..

النتائج العامة للدراسة في ضوء التساؤلات

إنّ الهدف الأساسي لأي دراسة كانت هو الوصول إلى نتائج دقيقة ، والباحث من خلال سيرورة بحثه وانطلاقه من الإطار النظري ومحاولة حصوله على أهم المعلومات التي تفيده في هذه الدراسة ، هدفه الوحيد والأساسي هو التوصل إلى نتيجة مبنية على قواعد وأسس منهجية صحيحة. لأنّ النتائج هي المرحلة التي من خلالها يمكننا التعرف على حقيقة وواقع الظاهرة ، فهي الحقيقة الخالية من كل الشوائب والزوائد. وسنحاول الإجابة على التساؤل الرئيسي والتساؤلات الفرعية التي انطلقت منها هذه الدراسة.

أولا: الإجابة عن التساؤلات

جاءت الإجابة عن تساؤلات الدراسة كالآتي:

أ. الإجابة عن التساؤلات الفرعية

تمحورت التساؤلات الفرعية التي تمّ طرحها في هذه الدراسة حول مختلف الفئات التي استهدفتها هذه الدراسة ، وذلك بهدف إبراز أهم **القيم الخبرية** التي تم اعتمادها كمعايير لاختيار أحداث الانتفاضات العربية ، وعلى أساسها يتم تحويل الحدث إلى أخبار على صفحات الجرائد في الصحف محل الدراسة.

1. فئات الشكل

أ. المساحة التي خصصت لأخبار الانتفاضات العربية

خصّصت كل من يومية الشعب ويومية الشروق مساحة لا بأس بها لتغطية أحداث الانتفاضات العربية. إلاّ أنّنا نلاحظ أنّ المساحة التي خصصتها يومية الشعب أكبر من المساحة التي خصصتها يومية الشروق ، والسبب ليس في أن يومية الشعب خصصت مساحة اكبر لهذه التغطية من يومية الشروق ،بل المساحة الإشهارية التي تخصصها صحيفة الشروق للإشهار كبيرة جدا أثرت على مساحتها التحريرية.يومية الشعب لا تخصّص مساحات كبيرة للإشهار لذلك نجد أنّ مساحتها التحريرية كانت أكبر.كلتا الصحيفتان أولت اهتمام لهذه الأحداث ، لأنّه كما سبق وذكرنا مجرد تخصيص مساحة إخبارية لحدث ما يعبر عن الاهتمام النوعي لهذا الحدث. فيما يخص العناصر التيبوغرافية كان حضورها ضعيفا سواء من حيث العدد أم التوظيف ، لأنّ أحداثا حية ومتسارعة وضخمة كالتي عرفتها الأقطار العربية مع مطلع 2011 هزت العالم كان من المفترض أن تكون الصورة الحية متوفرة في كل خبر ، وهذا ما لم يكن متوفرا على الإطلاق ، والصور المرفقة كانت معظمها متكررة في الأخبار ومأخوذة من الأرشيف ، عدا صور الاحتجاجات التي ترفق مع الأخبار وكان بعضها مكررا.

ب. فئة الموقع

الانتفاضات العربية حدث هز العالم وشغل الإعلام العالمي والعربي على حد سواء ، والقطاع المكتوب في الجزائر أولى اهتماما بهذه الأحداث ، والصحف محل الدراسة خصصت لها صفحات بأكملها لذلك نجد أنّ كل أخبار هذه الانتفاضات تموضعت في الصفحات الداخلية سواء في يومية الشعب ام يومية الشروق. وهذا شئ طبيعي كون أحداث العالم تخصص لها الصحف عادة الصفحات الداخلية ، لأنّ أي صحيفة في العالم تخصص الصفحات الأولى لأخبارها الداخلية.

ت. فئة الأنواع الصحفية

الصحف محل الدراسة ركزت على الخبر الصحفي بالدرجة الأولى ، وهذا شيء طبيعي كون الصفة الإخبارية هي أساس العمل الصحفي ، جاء التقرير الصحفي في الدرجة الثانية حيث تم استخدام هذا النوع من قبل الصحف العمومية والصحف الخاصة ، أما الأنواع الفكرية (الرأي) كانت

شبه غائبة في يومية الشعب ، وهذا راجع إلى تركيزها بالدرجة الأولى على الصيغة الخبرية للحدث والابتعاد عن التحليل وإعطاء الرأي.أما في يومية الشروق كانت الأنواع الفكرية حاضرة وهذا يدل على عدم اكتفائها بالوصف وإنما إبداء موقفها اتجاه هذا الموضوع ، ويمكن القول:

اعتمدت كل من يومية الشعب ويومية الشروق على الخبر الصحفي بالدرجة الأولى وهو القالب الصحفي كثير الاستعمال.

2. فئات المضمون

أ.فئة القيم الخبرية

اعتمدت كل من يومية الشعب ويومية الشروق في معالجة أحداث الانتفاضات العربية على جملة من المعايير الأساسية في تحويل هذه الأحداث إلى أخبار تحتل الصدارة في النشر ،وهذه المعايير هي القيم الخبرية التي يتم بموجبها تفضيل حدث عن حدث أخر ،بحيث تكون لبعض الأحداث الأولوية في النشر.ومن خلال التحليل تبين أنّ معيار الجدة والآنية ،و معيار الجدية هي أهم المعايير التي بموجبها تم اختيار الأخبار سواء في يومية الشعب أم يومية الشروق ،كما أنّ معيار الشهرة والضخامة والإثارة كانت من المعايير المهمة في اختيار الأحداث حيث جاءت في المراتب الثانية بعد الجدة والآنية ، وهنا نستنتج أنّ قيمة الجدة والآنية تبقى أهم قيمة خبرية على الإطلاق.

ب.فئة نوع التغطية الصحفية

جاءت التغطية التقريرية أو التسجيلية في المرتبة الأولى في هذه المعالجة سواء بالنسبة ليومية الشعب أم يومية الشروق ، وهذا طبيعي كون المعالجة ركزت على الجانب الخبري والسردي للأحداث ، إلاّ أنّ هذا لم يمنع من تنوع التغطية ، حيث جاءت التغطية المفسرة والمتابعة في المراتب الثانية بنسب لا بأس بها في كلتا الصحيفتين ، كما كان للتغطية المتحيزة والمحايدة حضور هي الأخرى.

ب. الإجابة عن التساؤل الرئيسي

ما المعايير (القيم) التي اعتمدت عليها الصحف محل الدراسة في انتقاء أخبار التغطية الصحفية لأحداث "الثورات العربية"؟

عالجت يومية الشعب ويومية الشروق أحداث الانتفاضات الشعبية التي عرفها الشارع العربي مطلع عام 2011 ، بنوع من الاهتمام لأن مجرد تغطية الحدث في حد ذاته يعبّر عن اهتمام نوعي من طرف الجريدة ، إلاّ أنّ معيار الاهتمام في حدّ ذاته مفهوم واسع ومتعدد فهو يحتوي على العديد من المؤشرات والمقاييس ، وما نلاحظه أنّ اهتمام يومية الشعب وتغطيتها لهذه الأحداث اختلفت نوعا ما عن يومية الشروق في التناول من حيث المواضيع المعالجة مثل المساحة والعناصر التيبوغرافية وعدد المواضيع. ولكن الشيء الملاحظ من خلال عملية التحليل والقراءة المتعددة للمواضيع المطروحة لاحظنا أنّ كلتا الصحيفتين أبدت انحيازها وتعاطفها مع هذه الثورات ، وهذا وما عكسته العناوين العريضة التي اعتمدتها الصحف محل الدراسة في معالجتها لهذا الموضوع كما هو موضّح في فئة العناصر التيبوغرافية.

القالب الغالب كان القالب الخبري السردي ، إلاّ أنّ يومية الشروق كانت أكثر تفصيلا في الطرح والمعالجة من خلال تنوع القوالب الصحفية.عالجت كلتا الصحيفتان عددا لا بأس به من أحداث الانتفاضات العربية وفق معايير (قيم خبرية) على أساسها تم نشر هذه الأخبار.

خاتمة

ما يمكن قوله من خلال النتائج التي توصلنا إليها ، من مسلمات العمل الإعلامي انّه ممارسة غائية لها أهدافها وغاياتها المرسومة وهي نجاح الرسالة الإعلامية بأكبر قدر ممكن وتحقيق الأثر المرجو في المتلقي.لذلك أصبح العمل الإعلامي بصفة عامة ،والصحفي بصفة خاصة فنا وعلما يقوم على أسس وقوانين تساعده على بلوغ الهدف بدقة واحترافية كبيرة ،وبعد أن كانت النظرة التقليدية للخبر الصحفي تنحصر في مراحل تكوين هذا الخبر بدءا من جمع الأخبار وتحريرها ومعالجتها ثم نشرها ، أصبحت الآن الأخبار صناعة لها أسسها العلمية الدقيقة حيث يتم اختيارها وفق معايير فنية وهي "**القيم الخبرية**" المعروفة في الحقل الإعلامي وخاصة القطاع المكتوب ،ومنه نقول أنّ الصحف المكتوبة الجزائرية على غرار مثيلاتها العالمية والعربية تسعى إلى صياغة أخبارها وفق قوالب ،وأشكال ،ونماذج الخبر الصحفي ، وتخضع عملية المفاضلة للأحداث لمعايير دقيقة تجعل حدثا معينا خبرا دون حدث آخر ،وهذا ما استخلصناه من خلال هذه الدراسة التي

أكدت أنّ الصحف اليومية الجزائرية بشقيها الرسمي والمستقل تخضع معالجتها للأخبار لمعايير محددة وهي ما اصطلح على تسميتها بالقيم الخبرية في العمل الإعلامي.

الهوامش

*- العدد (3191) 02 جانفي 2011 الموافق ل 27 محرم 1432 لصحيفة الشروق اليومي ، لا توجد به أخبار عن الثورات العربية ، لذلك تم البحث عن الاخبار المنشورة في الأعداد التي جاءت بعد هذا العدد ، وتم اخذ العدد (3197) الموافق ل 07 فيفري 2011.

1. المداني ، توفيق وآخرون. (2012). الربيع العربي... إلى أين أفق جديد للتغيير الديمقراطي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان.
2. القباني ، عبد الفتاح. (2012). الصحافة المدرسية والثورات العربية (تونس ، مصر ، ليبيا ، اليمن ، سوريا) ، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.
3. الدليمي ، عبد الرزاق محمد. (2010). فن التحرير الإعلامي المعاصر ، دار جرير للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن.
4. الدليمي ، عبد الرزاق محمد. (2012). التحرير الصحفي ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، عمان ، الأردن.
5. أبو دوح ، خالد كاظم. (2012). الربيع العربي ... إلى أين أفق جديد للتغيير الديمقراطي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت لبنان.
6. إبراهيم ، عبد الفتاح. (دون سنة).سوسيولوجيا الخبر الصحفي (دراسة في انتقاء ونشر الأخبار) العربي للنشر والتوزيع.
7. أنجرس ، موريس. (2006). منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية ، دار القصبة للنشر والتوزيع ، الجزائر.
8. بن مرسلي ، احمد. (2007). مناهج البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون الجزائر.
9. بني سلامة ، محمد التركي. (2013). الحراك الشبابي الأردني في ظل الربيع العربي ، مؤسسة المستقبل ، عمان ، الأردن.
10. حداد ، نبيل. (2002). الكتابة الصحفية (السمات ، المهارات ، الأشكال ، القضايا) ، دار الكندي ، الأردن.
11. رزاقي ، عبد العالي. (2004). الخبر الصحفي في الصحافة ، الإذاعة ، التلفزيون ، والانترنت ، دار للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر.
12. عبد الحميد ، محمد. (1985). تحليل المحتوى في بحوث الإعلام ، ديوان المطبوعات ، الجزائر.
13. عبد الحميد ، محمد. (2000). البحث العلمي والدراسات الإعلامية ، عالم الكتب ، نشر ، توزيع ، طباعة.
14. لعقاب ، محمد. (2010). الصحفي الناجح ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر.
15. لعياضي ، نصر الدين. (1999). إقترابات نظرية من الأنواع الصحفية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، بن عكنون ، الجزائر.
16. كعصيص ، خليدة ، الربيع العربي بين الثورة والفوضى.

متاح في الرابط: http://www.caus.org.lb/PDF/EmagazineArticles/mustaqbal_421_khalida.pdf

تاريخ الاطلاع:2016/02/05 ، الساعة: 10.44د.

وسائل الإعلام كحلقة قوية في الاتصال السياسي – دراسة وصفية نقدية –

أحمد بوعون*

الملخص

نحاول من خلال هذه الدراسة الكشف عن طبيعة العلاقة التي تربط بين عناصر عملية الاتصال السياسي وإبراز مكانة وسائل الإعلام كحلقة قوية في العلاقة ، حيث لا يمكن تصور المكانة التي يحتلها الفضاء السياسي في الوقت الراهن من دون وجود وسائل الإعلام الجماهيرية وتلك المؤسسات والمعاهد الخاصة بسبر الآراء ، هذه المؤسسات كثيرا ما أجبرت رجال السياسة على تعديل علاقاتهم مع الصحافة والأخذ بعين الاعتبار ردود أفعال الرأي العام وآماله ، وقد انطلق الباحث من مبدأ العلاقة المركبة والبراغماتية التي تربط عناصر الاتصال السياسي ومن فرضية أن السياسة تقلصت إلى اتصال حيث أصبح هدف العملية السياسية هو كسب ود وتأييد وسائل الإعلام وفي كثير من الحالات تحييدها. ومن نتائج الدراسة الوصفية لواقع العلاقة بين عناصر الاتصال السياسي أن الممارسة السياسية الراهنة قد خضعت إلى تعديلات ملموسة بفعل قوة وسائل الإعلام ، وزادت عمليات سبر الآراء من التغييرات التي جسدها استخدام وسائل الإعلام الجماهيرية في إطار مشاهدة واسعة للسياسة.

الكلمات المفاتيح : وسائل الإعلام ، الرأي العام ، سبر الآراء ، الاتصال السياسي ، الإعلام الحدث .

Résumé

On essaye, grâce à cette étude de révéler la nature de la relation qui lie le processus de communication politique et de faire paraitre la place de l'outil médiatique comme maille faible ou forte de la relation , par contre on ne peut pas imaginer l'emplacement que peut occuper le domaine politique à l'heure actuelle sans la présence des médias et ces instituts spécialisé en sondage, cette dernière a obligé les politiciens à régler leurs relations avec la presse et prendre en considération les réactions des attentes de l'opinion publique. Et d'après les résultats de l'étude descriptive de la communication politique, on constate que la pratique politique actuelle a subie des modifications concrètes par la force des outils médiatique, par l'augmentation des opérations des sondages par l'utilisation des médias dans le cadre du regard la communication de masse et son intérêt à la politique

Mots clés : Médias, L'opinion Publique, Sondage D'opinion, Communication Politique, L'information/Evénement.

Summary

We try through this study to detect the nature of the relationship between the elements of political communication process, and to show the importance of the media as a strong link in this relationship, where it is difficult to imagine the position that political space occupies currently without the presence of the mass media and those institutions specialized in opinions' survey. This latter forced the politicians to adjust their relations with the press taking into account the reactions of the public opinion and their hopes. The researcher started from the principle of a complex relationship and pragmatism that binds the elements of political communication and from the assumption that politics is mainly a connection where the goal of the political operations became to gain the trust and support of the media and in many cases neutralizing it. From the results of the descriptive study regarding the reality of the relationship between the political communication elements is that the current political practice has been subject to significant adjustments due to the strength of the media, adjustments also increased by the public opinion surveys which are concretized in using the media for getting a large number of politic viewers.

Key Words: Media, Public opinion, viewers, Political communication, the event Media.

* استاذ مساعد أ، قسم علوم الاعلام والاتصال، كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

تمهيد

احتل الاتصال السياسي مكانة معتبرة في النصف الثاني من القرن العشرين (20) مع بروز وسائل الإعلام الجماهيرية وتأثيرها الكبير على الجماهير والمجتمعات، وظهور تلك الوسائل الخاصة بسبر الآراء وقياس الجمهور حيث انتقل الإنسان من لعبة ذات عنصرين (رجال السياسة – وسائل الإعلام) إلى لعبة ذات ثلاثة عناصر (رجال السياسة – وسائل الإعلام – سبر الآراء) ، وبناء على هذا التحول برزت إشكالية تحديد طبيعة العلاقة التي تربط هذه العناصر ورهانات التفاعل والتنافر بينها ، ودور كل منها في الاتصال السياسي.

إشكالية الدراسة

تمثل العلاقة بين النظام السياسي ووسائل الإعلام والرأي العام أحد أهم مجالات البحث في الاتصال السياسي، باعتبار السلطة السياسية أحد أهم العوامل التي تحدد خصائص النظام الإعلامي في المجتمع، وباعتبار أن هذه العلاقة هي المحدد الأقوى لدرجة الحرية التي تعمل بموجبها وسائل الإعلام، وكذلك تأثير النظام السياسي في تحديد المحتوى السياسي لوسائل الإعلام. نتيجة لهذا التأثير الفعلي ارتكز التفكير على رؤية وسائل الإعلام وسبر الآراء كشيء لا يمكن الاستغناء عنه في تعويض أفعال رجال السياسة الذين يجدون بدورهم في الإعلام ردود أفعال الرأي العام كعناصر أساسية لتفكيرهم، وتقوم نوع من التكاملية الطبيعية بين هذه العناصر الثلاثة: الفعل لرجال السياسة، والإعلام لوسائل الإعلام، ومعرفة وضعية الرأي لسبر الآراء، وكل واحدة من هذه المكونات الثلاثة للسياسة المعاصرة لا يمكن أن توجد من دون وجود الأخرى وتشكل في تصور بعض الباحثين تعويضه المتبادل. يتفق أغلب الباحثين حول تكامل الفواعل الرئيسية للاتصال السياسي بما يشكل نقطة التقاء وسائل الإعلام مع مؤسسات سبر الآراء بالرغم من الاختلاف الموجود بينها من حيث الأسس والخطاب والاستراتيجيات هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان حلا لمشكلة لازمت النصف الثاني من القرن العشرين وهي تدور حول سؤال جوهري: في أي الظروف يمكن تكريس الديمقراطية في المجتمع الجماهيري؟

لقد أظهرت الظروف التي مرت بها أغلب المجتمعات الغربية في نهاية النصف الأول من القرن العشرين من تطور التقنية وتصاعد صراع الإيديولوجيات قوة وسائل الإعلام في تشكيل آراء الجماهير وتحريك مشاعر قطاعات عريضة من فئات المجتمع من خلال تركيزها على الخطابات والممارسات السياسية التي تتبنى المشروع الحقيقي للديمقراطية وتقوم فيها اللعبة السياسية على تقديس حرية الصحافة والتعبير عن الرأي العام،وجاءت قوة هذا التوافق على الأرجح مما كان نقطة الالتقاء بين منطق وظيفي يقوم على كيفية تسيير المجتمع الجماهيري ، ومنطق معياري يقوم على أساليب ووسائل تكييف نموذج الديمقراطية الذي تم استحداثه في مجتمع غير عادل إلى مجتمع مساواتي. وهذا ما جعل وسائل الإعلام وسبر الآراء تشارك في تكييف النموذج الديمقراطي مع خصائص المجتمع الجماهيري، ففي الوقت الذي يلعب فيه كل من الاتصال والإشهار دورا أساسيا في تشكيل الثقافة الجماهيرية والاستهلاكية مما يسهل تحقيق الأهداف التجارية والاقتصادية والسياسية، يظهر في الوقت نفسه التفاوت بين مختلف منطلقات الفضاء السياسي.

وبناءا على هذا الطرح يبرز التساؤل المركزي التالي: **ماهي مؤشرات قوة وسائل الإعلام في عملية الاتصال السياسي؟**

وللإجابة عن السؤال المحوري لإشكالية الدراسة نطرح التساؤلات الفرعية التالية:

1- ماهي المكانة التي تحتلها وسائل الإعلام في الفضاء العمومي وفي عملية الاتصال السياسي؟

2- كيف تساهم وسائل الإعلام في إذكاء الطابع الجدلي العنيف الذي يميز الفضاء السياسي أحيانا وكيف تعمل على الحد منه؟

3- ماهي أبعاد تحول وسائل الإعلام من وسائل إعلام إخبارية إلى وسائل إعلام مرتبطة بالحدث السياسي (الانتخابات مثلا)؟

4- ما هي الاستراتيجيات والأساليب التي تنتهجها وسائل الإعلام في خلق علاقة قوية ومتطورة بين عناصر الاتصال السياسي؟

أهمية الدراسة وأهدافها

ترتبط أسباب طرح هذا الموضوع للدراسة والمساءلة العلمية بالتطورات الهائلة التي تعرفها المجتمعات المعاصرة في كل مناحي الحياة السياسية والاجتماعية و الإعلامية وبروز مؤشرات جديدة تميز الديمقراطيات الحديثة في نظرتها لمكانة المواطن والرأي العام الذي يحمله ومكانة الإعلام بشتى أطيافه ووسائله وقنواته في توصيل هذا الرأي بكل شفافية وديمقراطية إلى صاحب القرار السياسي ، فالرأي العام يستمد قوته ووجوده على أرض الواقع من خلال اهتمام القيادة والتنظيمات السياسية و تمثيل وسائل الإعلام له ، فالصورة التي تقدمها المنابر الإعلامية المختلفة عن العوامل المحيطة بسمات وحركات الرأي العام نحو مختلف القضايا التي تعرفها فصول الحياة اليومية الخاصة به يمكن أن تتعارض مع الصورة النمطية التي تبحث عن تحقيقها القيادة أو التنظيمات السياسية ، ولذلك يكون اهتمام وسائل الإعلام بتقوية جبهة التمثيل الرسمي (رجال السياسة) وجبهة التمثيل غير الرسمي (الرأي العام) خاضعا لأجندات عناصر الاتصال السياسي وخاصة مضمون الخطاب السياسي والإيديولوجي والأهداف الإستراتيجية لكل طرف من أطراف العملية ، حيث تتشكل هذه الحلقة القوية من خلال الاهتمام بإبراز الآراء بكل حرية والبحث عن الحلول والبدائل وهذا ما يمثل مركز الثقل والضغط الذي تواجهه وسائل الإعلام بشكل دوري. ومن هنا يهدف هذا البحث إلى الكشف عن الآليات والوسائل التي تسمح بتنشيط وتكييف العملية الاتصالية مع الرهانات التي تعرفها العملية السياسية في الفضاء العمومي الذي يطغى عليه الطابع الجدلي والمنافسة الشديدة على من يقود ويتحكم في فواعل المجتمع ومنها الرأي العام ووسائل الإعلام ، هذه الأخيرة يمكن أن تكون قوة فعلية في الفضاء المجتمعي والسياسي إذا توافرت لها البيئة السياسية والقانونية والاتصالية المناسبة.

1-الاتصال السياسي: تأصيل المفهوم

تعود أولى محاولات تعريف الاتصال السياسي إلى سنة 1956 ، عندما اقترح علماء السياسة السلوكيون behavioristeالنظر إلى الاتصال على أنه واحدة من السيرورات الثلاثة إلى جانب القيادة وبنيات الجماعة الذي من خلاله تجند الوسائل وتمرر التأثيرات السياسية فيما بين المؤسسات الحكومية والسلوك الانتخابي للمواطنين[1] ، وهكذا تم دحض نظرية الحقنة تحت الجلد التي طبعت بحوث الاتصال في الثلاثينيات والأربعينيات مع كلمنهارولد لاسويلharold laswell وبول لازارد سفيلد. paul lasardsfeld ، وفي نفس السياق يعرفدوبول زولاdepaul zola الاتصال السياسي كنوع من نشاط بعض المؤسسات المكلفة بتوزيع الإعلام (الخبر) والاتجاهات المتعلقة بالشؤون الحكومية[2]. ويرى الكثير من المهتمين بالاتصال السياسي أنه إحدى ثلاث عمليات سياسية متداخلة (القيادة السياسية ، والتنظيمات السياسية ، والاتصال السياسي)، ويقصد بذلك الوسائل التي تعمل على إحداث التأثيرات السياسية والتفاعل ما بين المؤسسات الحكومية والسلوك السياسي لدى المواطنين ، فالاتصال السياسي هو ذلك العلم الذي يدرس مجموعة من الأنشطة والفعاليات التي يزاولها القائمون بالعملية الاتصالية من أجل تحقيق أهداف سياسية ، وينصب جوهره على إحداث التأثيرات وتغيير الاتجاهات والآراء لدى الجمهور المستقبل لتحقيق أهداف محددة يسعى لها القائم بالعملية الاتصالية [3].

أما تعريف الاتصال السياسي باعتباره نشاطا اتصاليا فقد تعددت الآراء بشأنه ف "جون ميدو" jaune mideau يربأنه الطريقة التي تؤثر بها الظروف السياسية على تشكيل مضمون الاتصال ، أو الطريقة التي تقوم فيها ظروف الاتصال بتشكيل السياسة. كما يعرفه ماكنيرmakniur بأنه اتصال هادف حول السياسة [4]، ويشير إلى أن هذا التعريف يتضمن:

1-كل أشكال الاتصال التي يقوم بها الفاعلون السياسيون لتحقيق أهداف معينة.

2-الاتصال الموجه إلى غير المشتغلين بالسياسة كالناخبين وكتاب الأعمدة الصحفية وغيرهم.

3-الاتصال الذي يهتم برجال السياسة وأنشطتهم كما تبرزها التقارير الإخبارية والافتتاحيات والأحاديث الصحفية والحوارات الإعلامية في مختلف وسائل الإعلام. وهذا التعريف يشمل جميع أنواع الخطاب السياسي حيث يؤكد ماكنير makniur أنه عند تعريفه للاتصال السياسي لم يأخذ في

الاعتبار فقط الرسائل المكتوبة أو المنطوقة ولكن أيضا المظاهر المرئية التي تعطي دلالة مثل شكل الوجه والملبس ، فهذه الأشياء وغيرها من الرموز الاتصالية قد تشكل الهوية السياسية[5].

كما يعرفه Shoudso شودسو على أنّه عملية نقل لرسالة يقصد بها التأثير على استخدام السلطة أو الترويج لها في المجتمع[6]. ويفهم من هذا التعريف أن عملية الاتصال السياسي تخضع لشروط وضوابط العملية الإعلامية والاتصالية التي تقوم على اختيار الرسالة المناسبة الموجهة إلى الجمهور عبر قنوات اتصالية متعددة تهدف إلى كسب تأييد الجمهور أو المواطنين نحو أساليب استخدام السلطة في الحياة السياسية والعامة من خلال توظيف وسائل التسويق والترويج المختلفة.

2-أهمية ومكانة وسائل الإعلام في الاتصال السياسي الجديد

تهدف وسائل الإعلام إلى نشر الأخبار والمعلومات السياسية الداخلية والخارجية ، بالإضافة إلى البيانات والمؤتمرات والصور والوثائق والرسائل والتحليلات ، من أجل فهم الظروف المجتمعية والقومية والدولية والتصرف تجاهها عن علم ومعرفة ، وتقوم هذه الوظيفة بخدمة السياسيين من خلال التركيز على أخبارهم ونشاطاتهم ، كما أن تراكم الأخبار والمعلومات حول إحدى الشخصيات السياسية العامة أو المنظمات الرسمية أو الشعبية يساهم في تكوين الصورة الذهنية عنها لدى الجماهير[7]. كما تقوم وسائل الاتصال السياسي بدور مهم في التنشئة السياسية للأفراد من خلال تقديمها للمعلومات عن الحياة السياسية والحقائق النوعية أو القيم السياسية العامة ، كما يمكن أن تساعد أفراد الجمهور في التعرف على العناصر التي تنتج القوة والنجاح والسيطرة في المجتمع وتمدهم بنموذج السلوك ، وتدفعهم إلى الاهتمام بالشؤون السياسية. هذا إضافة إلى أن وسائل الإعلام تؤثر بشدة في تشكيل المعتقدات السياسية للأفراد ، وهناك من يرى أن الأسباب التي تكمن وراء طاعة الأفراد لصاحب السلطة أو لظاهرة السلطة تنبثق من الأسس التنظيمية أو العلاقة التنظيمية التي يخضعون لها ، وأن أي انحراف عن هذا يعتبر موجها ضد قيم الجماعة وليس ضد صاحب السلطة ، وقد يرجع سبب الطاعة إلى عملية التنشئة السياسية في المجتمع[8].

ويمكن التركيز من خلال الأهمية الكبيرة التي تضطلع بها وسائل الإعلام في عملية الاتصال السياسي على الوظائف التالية:

2-1-التسويق السياسي: وهي الوظيفة التي تعكس النموذج التسويقي السائد في المفاهيم الجديدة للاتصال السياسي وتتمثل أساسا في التأثير في السلوك العام الجماهيري في المواقف التنافسية باستخدام مبادئ وطرق ونظريات التسويق التجاري في الحملات السياسية بواسطة مؤسسات أو أشخاص متخصصين ، وهذه الطرق تشتمل على التحليل والتطوير والتنفيذ وإدارة الحملات الإستراتيجية[9]. كما يستخدم التسويق السياسي مجموعة كبيرة من المفاهيم تستخدمها المؤسسات التجارية الربحية في عملية تسويق بضائعها وخدماتها إلى المستهلكين لجذب الرأي العام إلى الاتجاه المقصود ، فالحملات الانتخابية مثلا تسعى إلى تسويق المرشحين من خلال عملية بناء قصص إخبارية تستهدف بناء أو دعم أو تصميم الصورة الذهنية لجهة سياسية معينة[10] ،كما توظف الأنظمة السياسية وسائل الاتصال للعرض والترويج لسياساتها وتكوين صورة ذهنية إيجابية عن الحكومة لدى أفراد المجتمع[11] ، كما ينظر السياسيون للتلفزيون خصوصا في أوقات الانتخابات كأداة رئيسة لإقناع الجمهور بوجهة نظرهم أكثر من كونه أداة معلومات للشؤون العامة[12].

2-**2- التأثير في اتجاهات الرأي العام** : أصبحت وسائل الإعلام في المجتمعات الحديثة تقرر بشكل كبير ما الذي يشكل الرأي العام ، وتزوده بغالبية المعلومات التي من خلالها يطلع على الشؤون العامة ومعرفة الشخصيات السياسية ، بالإضافة إلى دورها في المناقشات العامة والعملية الانتخابية ككل ، فمن خلالها يتم بناء الحقيقة السياسية ، كما أن وسائل الإعلام من واجبها تأكيد الشعور بالمواطنة والمشاركة السياسية ، وذلك من خلال تقديم معلومات حرة وصحيحة تتيح للمواطنين التمتع بحقوقهم ، والحصول على معلومات تساعدهم على المشاركة في مناقشة الخيارات السياسية[13]. ويمكن التعرف من خلال مضمون برامج هذه الوسائل على اتجاهات الرأي العام ورؤيته حول مختلف

القضايا والموضوعات مما يرشد السلطة السياسية ويسهم في إنجاح سياساتها، فالحكومات لا تستطيع أن تصل إلى الجماهير إلا من خلال وسائل الإعلام التي لها قوة التأثير على الرأي العام كما أن ثقة الجمهور في هذه الوسائل تفوق عادة ثقته في الحكومات.

2-3-**الرقابة على الحكومة:** يوصف دور وسائل الإعلام بأنه مثل دور الحارس اليقظ الذي يعمل كحارس بوابة[14] ضد سوء استخدام السلطة الرسمية من خلال التأكد من حقيقة ما ينشر، وحتى يتحقق هذا الدور الرادع والواقي ينبغي أن يتم بشكل أفضل بواسطة وسائل مستقلة تحكمها اهتماماتها ومعاييرها الخاصة، كما تعمل وسائل الإعلام على مراجعة وتعديل السياسات لتتوافق مع التوجهات العامة للمجتمع[15].

2-**4-المساعدة في صنع القرارات:** تعد عملية صنع القرار السياسي من أهم العمليات السياسية، وقد أثبتت إحدى الدراسات الأمريكية أن لوسائل الإعلام تأثيرا كبيرا على القرارات السياسية، ويرجع ذلك إلى سببين هما:

1-أن وسائل الإعلام تؤثر على القرارات السياسية لأنها قد تعطي الشعبية أو تحجبها عن صانع القرار.

2-أن صانع القرار يعتقد أنها هامة، فهو ينظر إليها كمقياس لرد فعل الناس تجاه سياسته وقراراته[16].

إضافة إلى هذين العاملين فإن وسائل الإعلام ليست فقط المصدر الرئيس للمعلومات السياسية وصنع القرارات ولكنها أيضا الأسرع في نشرها[17].

2-5-دعم مشروعية النظام السياسي: تعمل وسائل الإعلام كأداة من أدوات الشرعية الاجتماعية على منح الوضع الشرعي للأشخاص والمنظمات، وتعيد تأكيد مستويات القيم المطلقة والمعتقدات الاجتماعية وهي بهذا تدعم الوضع السياسي والاجتماعي القائم[18]، وفي المقابل يمكن أن يفضي التراجع في دعم النظام إلى تحد أساسي للبناء الدستوري أو الإجراءات الحكومية، فالروابط الواهنة مع المجتمع السياسي في نظام ديمقراطي قد تؤدي إلى ثورة أو حرب أهلية والعمل الشعبي أساس بقاء الديمقراطيات[19].

2-6-إدارة **الصراعات السياسية:** تصبح وسائل الإعلام في أوقات الصراعات والظروف الاستثنائية أسلحة حيوية بالنسبة للحكومة والمجتمع تستغلها في المحافظة على الشعور بالأمن والاستقرار بالرغم من أن وسائل الإعلام تقف عقبة أمام التسوية في بعض الصراعات السياسية.كماأن الصراع يتم في الوقت الذي ينهار فيه الاتصال، حيث تدل الدراسات التاريخية المعاصرة أن هناك ارتباطا قويا بين الحروب وانهيار الاتصال بين الأنظمة المتصارعة[20]، ويمكن التأكيد على أن وسائل الإعلام تملك القدرة على إدارة الصراعات والتأثير في الرأي العام ورأي النخبة.

3-**رهانات العلاقة بين عناصر الاتصال السياسي:** لقد رأينا العوامل التي تفسر الطابع المعاكس للعلاقات بين عناصر الاتصال السياسي ويتعلق الأمر بمشروعية الخطاب نحو فهم الحقيقة السياسية وعلاقتها بالاتصال[21]، حيث إن لهذه المعلومات التركيبية نتائج تطبيقية حول الطرق التي تتموقع بواسطتها وسائل الإعلام مقارنة مع رجال السياسة وسبر الآراء وتتغير وضعية وسائل الإعلام إزاء العنصرين الآخرين حسب السياق الذي يساهم في تفسير طبيعة هذه الوضعية حيث إنه وعلى الرغم مما يظهر من ملامح وصور في الفضاء العمومي والخاص فإن حوار الصم والمنافسة التي تنشطها هذه العلاقات هي أكثر من التعاون والتضامن، وتنجر عنه في كل مرة صياغة مختلفة للاتصال السياسي.

3-1- وسائل الإعلام على نفس المسافة من رجال السياسة والرأي العام : تتوجه وسائل الإعلام إلى الرأي العام على أساس أنه متلقي لبرامجها وأفكارها و يمثل مشروعية وجودها، ولم يسهم تطور سبر الآراء إلا في تعزيز هذه العلاقة، ووجد الصحفيون فيها خاصة في المرحلة الانتخابية مصادر مناسبة لإجبار رجال السياسة على الابتعاد قليلا عن لغة الخشب، وتعد هذه العلاقة طبيعية الآن لأن وسائل الإعلام هي الزبون الرئيس لمعاهد سبر الآراء، ولكن لا شيء يبين أن هذا التحالف سيبقى أيضا قويا لأن الشروط التركيبية للعبة الاتصال السياسي هي في طريقها للتغيير ،فنجد ما أصبح جزءا مندمجا في تاريخ الصحافة المعاصرة من خلال الوضعيات التي يكون فيها رجال السياسة و قادة الرأي متحالفين للتنديد بالأنشطة والأعمال السيئة والتهديدات التي

تمارسها المنابر الإعلامية والعناوين الصحفية على الوحدة الوطنية " ثقة الشعب " خاصة أثناء تغطية الأحداث الكبرى من مثل التعامل مع ظاهرة الإرهاب الدولي والحراك الشعبي في بعض الدول العربية.[22]

لاشيء يضمن في الوقت الراهن أن يحظى الرأي العام في الجزائر بتمثيل حقيقي من قبل عمليات سبر الآراء وذلك لأسباب عديدة ولكن أهمها ما يرتبط بقوة تأثير التفسيرات التي تروج لها مختلف وسائل الإعلام الجزائرية حيث يبقى فيها تحالفها مع صناع القرار السياسي ،خاصة وأن هذه العمليات الاستطلاعية ارتبطت بنتائج تمليها المعطيات الجغرافية والثقافية (خصوصية المنطقة تصعب الوصول إلى مصادر البيانات والمعطيات نتيجة لأسباب لغوية ومعرفية أو ثقافية) وكذا المعطيات الاجتماعية والاقتصادية (مدى قرب وبعد الفرد من منابع التحضر والاحتكاك والنقاش العام وكذا فضاء العمل الذي يميز بين البيئة النشطة بالأعمال التربوية والصناعية والتجارية وبين البيئة الهامشية المعزولة)، إلى جانب ما للمعطى الاتصالي من أهمية جليلة حيث يبقى من أكثر العوائق التي تقف حائلا أمام تطور قياس الرأي في الجزائر بالرغم مما أتاحه التطور الرهيب في تكنولوجيا الإعلام والاتصال إذا نظرنا من زاوية تقليص المسافات والوقت وتطوير الأدوات العلمية للقياس.[23]

أصبح الرأي العام الجزائري اليوم أقل غموضا وركودا بعد أن كان يشكل الحلقة الصامتة لفترات طويلة خاصة في مراحل عدم الاستقرار ، وقد أثبتت نتائج الدراسات الأكاديمية المتخصصة التي أجريت في السنوات الأخيرة حالة التطور والتحول التي يعرفها الرأي العام تجاه مختلف القضايا ،ومنها القضايا السياسية التي عرفت تداولا ونقاشا واسعا من قبل الشعب ووسائل الإعلام ، وكمثال على هذه القضايا لا الحصر نجد مسار الانفتاح الديمقراطي على السلطة والمجتمع المدني ووسائل الإعلام ، وأيضا مسألة شرعية النظام السياسي في ظل المتغيرات الجديدة والتحديات المتزايدة ، ومسألة تعديل الدستور الذي تمت المصادقة عليه في فيفري 2016 بعد نقاش وجدل كبيرين استمرا لأربع سنوات ، كما اهتم الرأي العام الجزائري بمسألة استغلال الغاز الصخري وقضايا الفساد التي تنخر أجهزة ومؤسسات الدولة وكذلك انهيار أسعار البترول في البورصات العالمية بداية من صيف 2015 وما يخلفه من أزمات متتالية وخانقة للاقتصاد الوطني والتي تؤثر بشكل مباشر على المستوى المعيشي للمواطن الجزائري ، وبناء على وجود هذا الحس الجماهيري لدى المواطن ورغبة وسائل الإعلام في تغيير الاتجاهات وصناعة مواقف وقرارات نمطية فإن الرأي العام يبقى حليفا لوسائل الإعلام.

وفي المقابل يقف رجل السياسة معارضا للتحالف بين وسائل الإعلام والرأي العام ويطالب بمعرفة أفضل للرأي العام ، ولكن هذا لم يكن شيئا أساسيا لأن الرأي العام ليس له ترجمة مباشرة تنتمي في الحقيقة إلى كل الأصوات فيمكن أن يتغير هذا التمثيل جذريا ويظهر في بعض الأحيان محافظا مقارنة مع ذلك الذي تنتظره وسائل الإعلام ، أو لأن التطورات العميقة للمجتمع تفسر بطريقة سيئة في نتائج سبر الآراء.

تسهل نتائج هذا التجسيد الجزئي للرأي العام في سبر الآراء عملية فك التقارب بين وسائل الإعلام والرأي العام وبإمكانه أيضا أن يسهل التقارب بين الرأي العام ورجال السياسة ضد وسائل الإعلام ، هذه الحالة لا يمكن إغفالها مثلما رأيناه على سبيل المثال في التحقيقات الصحفية الجريئة من قبل بعض رجال الإعلام في أمريكا وأوروبا حيث كانت تقف وراءها كبريات العناوين الصحفية والمحطات التلفزيونية ،واستهدفت مباشرة أسماء ثقيلة في المشهد السياسي ، وبغض النظر عن معارضة المناوئين لطريقة عمل الصحفيين فإن جنون التحقيقات الصحفية لم يتوقف يوما ، وأصبحت وسائل الإعلام أكثر جموحا وإرادة في كسر حاجز الرجل الحديدي (رجل السياسة). ومع ما تمثله الصحافة تحديدا كمنبر للنقد العام والحلول الوسط أصبح الحد من طموحات الصحفي في مرافقة ومراقبة رجل السياسة في كل شطحاته من المسائل المستعصية والمرتبطة أساسا بمدى أخلقة العمل السياسي والإعلامي على حد سواء ، إن لم نقل أنها أصبحت تطرح بحدة بالتوازي مع مبدأ حرية التعبير والنقد المقدسين في أوروبا وأمريكا على وجه الخصوص ، ويمكن إحالة انتباه المراقب إلى تركيز وسائل الإعلام خاصة منها الصحف أكثر انتشارا على الأدوار التي تقوم بها شخصيات فاقدة للثقل السياسي أثناء المناسبات والاستحقاقات الانتخابية.

هذا هو التفاوت التركيبي بين وسائل الإعلام وسبر الآراء ؛ فالأولى مهما كانت أخطاؤها فإنها محفزة في أغلب

الأوقات بالرغبة في فك خيوط الحقيقة ، الشيء الذي يقود بالضرورة إلى وضعية نقدية إزاء رجال السياسة والرأي العام وجماعات الضغط الاجتماعية ، وكما أكدنا ذلك سلفا فإن سبر الآراء مرتبطة أكثر بانشغال منتظم.

كل شيء بإمكانه أن يدفع رجال السياسة إلى البحث لدى الرأي العام عن الدعم في علاقاتهم القائمة على القوة مع وسائل الإعلام ، على اعتبار أن الرأي العام ورجال السياسة يملكان مرجعية مشتركة تترجمها الشرعية التمثيلية ، فالأول عن طريق الإحصاء والثاني عن طريق الانتخاب ،وبإمكان هذه المشروعية المعطاة بسرعة لأي ظاهرة تمثيلية أن تنافس مباشرة دور الصحفيين ، لأن رأي البعض له قيمة أقل دائما من الرأي التمثيلي ، ولم تلبث أن ظهرت تضاربات بين إدراك الحقيقة من قِبل الصحافيين وتلك الخاصة بالرأي العام ، ولكن يجب أن تكون هناك كثير من قوى الحزم لهؤلاء لكي يتعارضوا مع اختيارات الرأي العام الديمقراطي[24].

إن المسافة البعيدة التي يجب على وسائل الإعلام أن تحافظ عليها في وقتنا الراهن إزاء سبر الآراء والرأي العام هي النتيجة المناقضة للظاهرة الازدواجية للديمقراطية وللمعرفة الأحسن بالرأي العام ، والعملية السوسيوغرافية التي تقوم على المناهج العلمية والإحصائية وتوظف أدوات ووسائل كفيلة بالرصد والقياس والتحليل تجبرهم للحفاظ على إدراكهم للرأي العام وإعادة تأكيد الشرعية المستقلة لمسار التمثيلية ، ولكنها مرتبطة بقيمة الإعلام داخل النظرية الديمقراطية الغربية ، أما في الظرف والواقع الذي تعيشه وسائل الإعلام الجزائرية وتعمل في كنفه فهو للأسف لا يحمل هذه القيمة وهو أكثر ضعفا من التمثيل الانتخابي الذي من خلاله يؤثر من يمتلك القرار السياسي ، كما يفترض أن التمثيل الإحصائي للرأي العام الجزائري في وقتنا الراهن من خلال عمليات سبر الآراء على قلتها وضعفها يساهم في تحسين مستوى المعرفة والاطلاع على كل المشاكل الاجتماعية والسياسية.[25]

3-2-وسائل الإعلام إلى جانب رجال السياسة و ضد الرأي العام : إن الوضعية هنا متناقضة وتناظرية فوسائل الإعلام تقف على محمل الجد في معاملة رجال السياسة على أنهم أشخاص غير عاديين لا يهم فعلهم إذا كان ضد تيار الرأي العام ، لأن عمليات سبر الآراء هنا غير مسؤولة ومجحفة إزاء هذه الفئة المؤثرة في مختلف المجالات ، حيث يجد رجال السياسة الوزن الحقيقي لعملية سبر الآراء السوفيستيكية الكثير من العناصر الرادعة للأفعال و السلوكيات المرفوضة ، والدليل على ذلك أن كل فعل سياسي ثقيل بإمكانه أن يصبح مكروها إذا كان غير مفهوم بشكل جيد لأنه يعاكس العادات والمصالح.[26]

وبقدر ما يكون تمثيل وضعيات الرأي العام في مختلف الاستطلاعات والقياسات ناجحا وصادقا تكون المهمة صعبة على القادة السياسيينفي التصرف دون معرفة السبب ، أي دون معرفة أخطار ردود الفعل السلبية ويتوجب في هذه الحالة أن تتوفر الكثير من الإرادة للحفاظ على المشروع الذي ينبغي أن يبنى على أهداف تكون أيضا صادقة.

تعتمد وسائل الإعلام على وظيفة المعالجة الموضوعية وإعادة التأكيد على النتائج التي تعتمدها مختلف معاهد سبر الآراء والتي جعلت عملية سبر الآراء تتمكن من إعطاء الانطباع بالقدرة الكبيرة في التحكم الممكن في الحقيقة ، بالرغم من أنها لا تعطي على الإطلاق أي قيمة تنبّئية إذ لا يمكن التنبؤ بالأزمات أو ما شابه من القضايا.[27]

3-3- وسائل الإعلام إلى جانب الرأي العام وضد رجال السياسة : إنها الزاوية الأخرى لهذه العلاقة الثلاثية حيث تدعم وسائل الإعلام حركات الرأي العام ضد النظام السياسي ، كما حصل ويحصل حاليا في مختلف الدول العربية من زعزعة عروش الزعماء السياسيين بأدوات إعلامية ، والمثال أمامنا في الجزائر هو محاولة عديد الأصوات والمنابر الإعلامية التخندق في صف بعض الفواعل من قادة الرأي أو بالأحرى فتح المجال الإعلامي لكل أطياف المجتمع لتقول رأيها في كل القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها تحت شعار *__وسائل الإعلام هي منبر وصوت من لا منبر له ولا صوت__*، حيث أثبتت كثير من الدراسات والبحوث الإعلامية أن وسائل الإعلام هي منبر حر وديمقراطي لقول الحقيقة وتدعيم الفئات الصامتة في المجتمع ، هذه الأخيرة تبقى في رأي القادة السياسيين مجرد داعم لها في الحملات الانتخابية ووعاء مهم لكسب الرهان في مختلف الاستحقاقات.

فوسائل الإعلام هنا تشكّل "بارومتر" لقياس حركات الرأي العام وتساهم في إعطاء الفرد أو المواطن المطلع فرصة للتعبير والتغيير ، فقيمة المواطنين المطّلعين هي وجه راسخ

من أوجه الثقافة المعاصرة[28]، ويسود الاعتقاد بأن ثمة اعتبار منطقي للإعلام السياسي تجاه المواطنين الذين يهتمون بالشؤون المدنية، وأن تكون مطلعا يعني أن تحقق جزءا من واجب الفرد المدني لأن المعلومات ليست بوابة للمشاركة السياسية فقط وإنما لأن الاطلاع هو أمر قوي وفعال، إذ المواطن المطلع هو مواطن مسؤول، والمواطن المسؤول هو مواطن مطلع.

يتوافق الانفتاح على حركات الرأي طبيعيا مع إيديولوجية وسائل الإعلام حيث تعد الوجه الآخر للرأي العام، سواء تعلق الأمر بالتعبير عن الآراء الباطنية المسكوت عنها أم من خلال ركوب موجة الرأي الذي تتبناه وتؤيده جماعات الضغط، لأن الخطاب الإعلامي الذي تتبناه وسائل الإعلام وتسوّقه يتأثر في كثير من المواقف بالضغوط التي يمارسها أصحاب القرار والسلطة السياسية، لكن في مقابل ذلك يبقى هذا التأثر نسبيا وغير واضح لدى الرأي العام الذي يرى في وسائل الإعلام الجهة التي يمكن أن تكون محل ثقة وتعبير شرعي ورسمي. إن الرأي العام الذي تعد وسائل الإعلام مترجمه والمعبّر عنه يعتبر مجموعا مركبا جد متباين مع ذلك الخاص بسبر الآراء، وهو جد مرتبط منطقيا بالرأي العام الرسمي، وفي مقابل هذا التنوع في الرأي العام يلعب الصحفيون دورا كبيرا في تأويل وتقييم بعض المعطيات مقارنة مع أخرى، وبهذا يمكن القول بأن الصحفيين ليسوا رجال إعلام بسطاء بل لهم دور واضح ومناسب في التأويل.

إن الدور الايجابي لوسائل الإعلام بالرغم من أن وسائل الإعلام في الوقت الراهن قد تخفق في تنشيط الاتصال السياسي وفرض دورها الرمزي في الفضاء العمومي كما أشار إلى ذلك الفيلسوف والناقد يورغن هابرماس[29] إلا أن الدور الايجابي الذي تقوم به يظل مربوطا بقدرتها على الاهتمام المستمر بقضايا الرأي العام وبمشاكل المواطن البسيط من خلال تغطية مختلف الأحداث و المشاكل الاجتماعية وفتح المجال واسعا للنقاش والتحليل وطرح الحلول والبدائل، وهذا ما يظهر أيضا عدم فشل صانعي القرار السياسي في اتخاذ القرارات المناسبة أثناء انتقاء السياسات والاستراتيجيات المطبقة في المرحلة الراهنة،وقد أثبت الواقع الجزائري أن العديد من القرارات السياسية والاقتصادية التي اتخذتها الجهات الوصية لم يستشر فيها الرأي العام بالرغم من أنها تعتبر قرارات خطيرة ومصيرية، وبفضل وسائل الإعلام كشف عنها وسلّط الضوء على مسار اتخاذها وكيفية تطبيقها ، وبذلك أعطت صورة حية وواقعية عن رفض الرأي العام لاتخاذ مثل القرارات المصيرية دون الرجوع إليه واستشارته، وأصبحت هذه القرارات من الأفعال المكروهة لديه[30].

إن العشوائية التي نـقوم بواسطتها بتعديل أو تصغير هذا الوجه الآخر من الرأي العام هي في الحقيقة عامل ذو ليونة أساسية للاتصال السياسي ، فإذا ما توقعت وسائل الإعلام حركات الرأي العام غير القابلة للمشاهدة " إحصائيا " فإنها تسمح افتراضيا لرجال السياسة بالتنبؤ ببعض الظواهر، ويكونون أقل تفاجؤا إذا ما زعزعت الحركات الاجتماعية – مثلما يحدث غالبا – اللعبة السياسية الشرعية، كما أن الحركات الاجتماعية والأحداث ليست تمثيلية أبدا، ولكنّ لها حظا بالنسبة لوسائل الإعلام وتبرير سبب تواجدها في الاتصال السياسي في نفس الوقت .

4-رهانات العلاقة بين وسائل الإعلام وسبر الآراء

تقود دراسة دور وسائل الإعلام وسبر الآراء في الاتصال السياسي إلى محاولة فهم مرجعية الرأي العام التي هي مختلفة جذريا عن تصور هذين الطرفين، ليس فقط لأن هناك علاقة مباشرة بين التمثيل السوسيوغرافي لسبر الآراء والمفهوم الذي تتبناه وتعكسه وسائل الإعلام في برامجها وتحليلاتها، ولكن بقدر ما يتجسد الرأي العام كمرجعية حقيقية مشتركة بالنسبة لوسائل الإعلام ورجال السياسة تترجم المعطيات والمعلومات التي توفرها الأرقام والإحصائيات عن مدى اهتمام هذا الرأي العام بالحياة والممارسة السياسية والإعلامية. يصبح هنا الأمر ضروريا لإظهار أن هذه المعرفة اللصيقة والمستمرة بتطور الرأي العام ومدى تمثيله في البرامج الإعلامية والسياسية تعطي حقائق مختلفة حسب درجة تأثيرها لدى فواعل الاتصال السياسي.

في سياق استراتيجيات عمل وسائل الإعلام التي تميل إلى التجديد، فإنها ستصبح حليفا قويا لرجال السياسة تحت شعار التحديث أو بصفة أدق التغيير، ولكن هذه الفرضية لا تجعل من وسائل الاعلام تحل محل الفواعل الأخرى وهذا ما يذهب إليه **والترليبمان Walter lippman** عندما يعارض بقوة هذه التبعية بقوله "وسائل الاعلام خاصة الصحافة منها هي ليست مؤسسة سياسية ولا يمكنها أن تتدخل في تنظيم

الرأي العام"[31] ما يؤدي بنا إلى القول فاستقلالية وسائل الإعلام بإمكانها أن تسهل الفعل السياسي بطريقتين: سواء بفك إلزامية الرأي العام ليعطي الوقت الكافي لرجال السياسة لإقناعه بشرعية أفعالهم وسياساتهم، أو بفك الضغط الذي تمارسه القاعدة الانتخابية على الفائزين لكي يكون المسير متحررا وقادرا على إقناع الرأي العام بأفكاره وبرامجه خارج الحلقة الضيقة للقاعدة الانتخابية[32].

فيخضم هذه اللعبة المعقدة بين الخطاب السياسي والخطاب الإيديولوجي وتطلعات الرأي العام، بإمكان وسائل الإعلام أن تقدم عوامل الحرية الملائمة لرجال السياسة، ولهذا يوشك الميل المتنامي لوسائل الإعلام إلى التحكم في سبر الآراء في كل المواضيع الراهنة كالإصلاح السياسي والتغيير الديمقراطي والمشاركة السياسية ومحاربة التطرف وظاهرة الإرهاب والجريمة المنظمة، والتسلح والثورات الشعبية ... الخ، أن يكون هدفه تحديد اتجاهات الرأي العام من خلال نتائج سبر الآراء بصفة نهائية.

إن قصد وسائل الإعلام بلجوئها إلى سبر الآراء قابل للثناء، لأنه ينطلق من حدث سياسي لا سيما الأحداث الاجتماعية للحصول على معلومة أكثر جدّية وموضوعية وتمثيلية، ففي المجال السياسي يقرر المواطنون ويفصلون عن طريق الانتخاب لأن السياسة هي قضية الجميع، والانتخاب هو في النهاية جواب كبير وحقيقي، وعلى العكس من ذلك فإن استعمال سبر الآراء في كل المجالات الأخرى عندمالاتكون هذه المساواة في الوضعية المناسبة، حيث لا يثمر السلوك الانتخابي خاصة أي جواب تمثيلي وموضوعي كما حدث في مختلف المحطات السياسية الانتخابية في الجزائر، ويشكل ذلك خطرا حقيقيا على استقرار البنية السياسية والاجتماعية للمجتمع والدولة.

الإعلام الحدثي ليس تمثيليا: يتعلق الانتقال من الخبر إلى الإعلام بعدة عوامل منها ارتباط الأحداث بوجود التغطية الصحفية، وارتباط الحدث بطبيعة غير منتظرة، وقدرة الصحفي على تعديل الواقع أو نقله كما هو تقريبا بصفة موضوعية.

وتكمن قوة الإعلام – الحدث في منع انغلاق النظام السياسي على نفسه مرة أخرى، لأنه وعلى الرغم من المدح الكلاسيكي الذي خصت به الصحافة الجزائرية فإن كل فرد مطلع بإمكانه رؤية كم من الفاعلين السياسيين الذين يحلمون بتحديد دور الصحافة عندما تكون الأحداث في غير صالحهم. إن نمو الإعلام التمثيلي يشكل نهضة لأنه يفسر دسترة الحياة السياسية ويمثل خطرا لأن الحياة السياسية لا يمكن أن تتقلص إلى لعبة قوى تمثيلية، وقوة الإعلام – الحدث يكمن تحديدا في إعطاء مكانة للحدث ويهدف بذلك إلى عقلنة وأخلقة المنتج الإعلامي بمعنى تأطير عمل وسائل الإعلام.

لقد سمح الدور الأساسي الذي تلعبه وسائل الإعلام في التوازن بين الرأي العام ورجل السياسة وتعويضها الطبيعي للإعلام التمثيلي، وذلك عن طريق التنبؤ بقوتها وضعفها، وبمعنى آخر فإن كل ماهو أخبار ليس شيئا جيدا في ذاته وليس جزءا جيدا من مناهضة السلطة مقابل السلطة السيئة للرأي العام أو رجال السياسة. وتعد وسائل الإعلام في الوقت الراهن في أفضل أحوالها لفتح نقاش عام حول كل القضايا الراهنة التي تهم الجزائر باعتبارها المنبر الوحيد للنقد العام والحلول الوسط لكن شريطة أن يمنح التطابق أو التوافق السياسي فهم جزء من الحقيقة التي تؤسّس وفقها التحليلات الإستراتيجية.

إن تعلق الإعلام التمثيلي بعملية توعية حقيقية للرأي العام ووجود طلب قابل للإرضاء هو في نفس الوقت قوته وضعفه ، تكمن قوته في أنه يصوّر حقيقة أن الرأي العام لا يهم في ذاته الفاعلين السياسيين وحتى وسائل الإعلام ولكن فقط ارتباطا بسياق النفعية، وبصيغة أخرى توجد آراء عامة مختلفة المواضيع والفترات يمكن رؤيتها تقريبا حسب وسائل الملاحظة المستعملة، ويأتي ضعفه من حقيقة صعوبة تقييم نضج الوعي حول موضوع معين لجعل الفترة ذات مغزى حيث يكون إجراء سبر الآراء حيث صانع الآراء الأفراد في الوقت ذاته، ولكن بصورة معقدة، وبحسب منطق لا يخضع في كل الأحوال فقط إلى ذلك الخاص بالأحداث، ولا ذلك الخاص بسبر الآراء، ولا ذلك الخاص بالخطابات السياسية[33]

ويكمن المشكل كله في معرفة ما إذا كانت لحظة سبر الآراء ستكون ملائمة لصورة دالة عن وضعية الرأي العام حول الموضوع المعالج.

نتائج الدراسة

إن الحديث عن وسائل الإعلام كحلقة قوية في الاتصال السياسي يدفعنا لرصد التغيرات التي طرأت على

العملية السياسية بفضل تعزيز دور هذه القنوات ، وفي هذا الإطار توصلنا إلى النتائج التالية:

*تحتل وسائل الإعلام مكانة مركزية في الاتصال السياسي ، حيث ينبغي تجاوز المعنى الضيق الذي يركز على الخطابات الشكلية ، فالمطلوب منها من هذا المنظور أن تبقى على مسافة من المنطق التمثيلي للرأي العام ورجال السياسة ، وفي مقابل ذلك تهتم أكثر بمنطق الحدث من خلال حضوره في أجندة وسائل الإعلام.

* على الرغم من تطور الممارسة السياسية ونمو وسائل الإعلام وسبر الآراء فإن الطابع الجدلي والعنيف بقي يميز الاتصال السياسي وعناصره ، وذلك لأن شروط الاتصال السياسي تحمل في ذاتها طابع الاختلاف والتباين في مستوى الخطاب والممارسة ، وهذا ما يفرض طابعا جدليا تجسده الديمقراطيات الجماهيرية ، ولأن الخطابات الرئيسية للاتصال السياسي لا تعد فقط متعارضة ، ولكنها في تنافس مستمرّ من أجل التحكم في المسار السياسي.

* الرأي العام هو المتلقي للجزء الأعظم من خطابات رجال السياسة ، فهو يعد واحدا من المرجعيات الأساسية للاتصال السياسي ، وهو لذلك يحتل مكانة متزايدة في عملية سبر الآراء ، غير أن الحضور الدائم للرأي العام في العملية السياسية يبرز دلالات مختلفة يتعلق بعضها برجال السياسة من خلال رأي عام خاص بهم ، وآخر يرتبط بوسائل الإعلام ، وفي مستوى آخر نجد الرأي العام الخاص بمعاهد سبر الآراء.

* إن وسائل الإعلام غير مؤهلة للمبادرة في معالجة مواضيع هي أصلا قابلة للمشاهدة من قبل الجمهور ، وعلى هذا الأساس تميل إلى احتقار كل شيء غير قابل للمشاهدة ، بل يثيرها الحدث المميز للفضاء العمومي في فترة الانتخابات.

* وسائل الإعلام في قفزها من موضوع لآخر لا تعكس في أغلب الأحيان انشغالات الجمهور ورجال السياسة ، لأنها قد تركز على جوانب هامشية من الحدث.

* قوة وسائل الإعلام تكمن في إعطاء مكانة للحدث خاصة في فترة الانتخابات ، حيث توكل لها مهمة كبيرة في التعريف بالبرامج السياسية والفاعلين السياسيين ، وفي هذه الفترات الخاصة تنتقل وسائل الإعلام من كونها وسائل إعلام إخبارية تهتم بالخبر إلى وسائل إعلام مرتبطة بالحدث(الانتخابات).

خاتمة

من النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة أن وسائل الإعلام سواء المكتوبة منها أو السمعية أو السمعية البصرية أو الالكترونية تعد منبرا حقيقيا للنقد العام والحلول الوسط ، وذلك على الرغم من وجود الاستغلال السياسي والإيديولوجي والاقتصادي لهذه الوسائل ، وعدم توفر شروط التوافق السياسي في الممارسة العملية ، فالدور الأساسي الذي ينبغي أن تلعبه وسائل الإعلام هو خلق التوازن بين الرأي العام ورجال السياسة من خلال فتح النقاش حول ما يمكن أن يقدمه رجال السياسة لتحقيق تطلعات الرأي العام في الوقت الذي تتزايد فيه المطالب بضرورة الانتقال إلى ديمقراطية حقيقية ، ومع تزايد التحديات الاقتصادية والاجتماعية.

وعلى وسائل الإعلام أن تعكس الواقع وأن تتحرى الموضوعية في تغطية الحدث السياسي ، وتعمل على تنظيم وجهات النظر خلال المجادلات السياسية ، وعلى الرغم منكل ما هو مطلوب من وسائل الإعلام فإنها في مقابل ذلك قد تخفق في تنشيط الاتصال السياسي داخل الفضاء العمومي..

الهوامش

1. الطاهر بن خرف الله ، في بعض مقاربات الاتصال السياسي ، الوسيط في الدراسات الجامعية ، الجزء الخامس ، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2003 ، ص62.
2. نفس المكان.
3. محمد حمدان المصالحة ، الاتصال السياسي – مقترب نظري تطبيقي ، دار وائل للنشر والتوزيع ، عمان ، 2002 ، ص 13.
4. Brian Mc Nair , An introduction to political communication,second edition,Published by Routledge,New York,1999 , p4.
5. Ibid، p4
6. محمد البشر ، إسهامات وسائل الإعلام في تحقيق التكامل بين المنجز التنموي وقضايا الانتماء الحضاري في المجتمع السعودي ، مجلة الحرس الوطني ،العدد 198 ، الرياض ، 1998 ، ص16.
7. محمد أبو عامود ، الوظائف السياسية لوسائل الإعلام : الدراسات الإعلامية للسكان والتنمية والتعمير ، المركز العربي للدراسات الإعلامية ، العدد 50 ، القاهرة ، 1988 ، ص18.
8. ناجي شراب ، السياسة: دراسة سوسيولوجية ، مكتبة الإمارات ، دمشق ، 1982 ، ص 98.
9. Bruce I Newman et Richard M. Perloff , Political Marketing – theory , researsh , and applications in political communication , handbook , Cleveland , 2004 , p18.
10. Remy Rieffel , Medias et vie oplitique , revue medias – introduction a la presse , la radio et la télévision
11. راسم الجمال – عياد خيرت ، التسويق السياسي و الإعلام : الإصلاح السياسي في مصر ، الدار المصرية اللبنانية ، مصر ، 2005 ، ص 105.
12. Peter Gill، Introduction to politics , faber , london , 1982 , p186.
13. Savigny Heather , Public opinion , Political communication and the internet , political Studies association , Published by Blackwell , Publishers , vol 22 , p3-4.
14. سيمون سيرفاتي ، وسائل الإعلام والسياسة الخارجية ،ترجمة: محمد غنيم ، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العلمية ،القاهرة ،1995 ، ص 38-42.
15. محمد حمدان المصالحة ، المرجع السابق ، ص 57.
16. محمد أبو عامود ، المرجع السابق ، ص 16.
17. Graber Doris , Mass media and american Politics , A division of Congressional Quarterly Inc , Washington , D.C , 1997 , p 219.
18. محمد أبو عامود ، المرجع السابق ، ص 19.
19. راسل جيه دالتون ، دور المواطن السياسي في الديمقراطيات الغربية ، ترجمة – أحمد يعقوب المجدوبة ومحفوظ الجبوري ، دار البشير للنشر والتوزيع ، عمان ، 1996 ، ص ص259-260.
20. محمود عبد الفتاح ، دور وسائل الإعلام كأداة في الصراع ، دراسة تطبيقية على حرب الخليج ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ،مصر ،1997 ، ص 148.
21. محمود عبد الفتاح ، المرجع السابق ، ص 149.
22. يثبت الواقع اليوم من خلال الملاحظة العلمية البسيطة أن أغلب وسائل الإعلام الخاصة المرئية منها والصحافة المكتوبة في المنطقة العربية انحرفت عن المبادئ والقيم التي كانت تتبناها وتعلن عنها وتسوقها وراحت تبحث عن تحقيق أهداف أخرى بعضها ظاهري وبعضها الآخر غير معروف وهذا ما بينته الأحداث التي عرفتها وتعرفها أغلب البلدان العربية من حراك سلمي وعنيف ، حيث كان تعامل المؤسسات الإعلامية المختلفة مع هذه الأحداث الكثيرة والفجائية أحيانا بمنطق الكم والأرقام على حساب الكيف والتحليل المنطقي ، فالمشاهد والقارئ العربي اختلطت عليه الأمور في اختيار الفضائية و الإذاعة و الجريدة والموقع الالكتروني المناسب من حيث المضامين والتحليلات والتعليقات وغيرها . وهذا ما جعل الهوة المعرفية والاتصالية تتسع أكثر بين مختلف الفاعلين في المجتمع وتتأثر قنوات التأثير والإقناع.

23. علي القرني ، الخطاب الإعلامي العربي والسعودي نموذجا ، دار المؤلف ، الرياض ، 2002 ، ص 40.

24. محمد كافي ، العلاقة بين الاعتماد على القنوات التلفزيونية الفضائية ومستويات المعرفة بالموضوعات الإخبارية في المجتمع اليمني ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الإعلام ، جامعة القاهرة ، مصر ، 2002 ، ص 45.

25. يعيش المواطن الجزائري في مجتمع يعرف أزمات كثيرة وصعوبة في تطبيق النموذج العلمي المثالي في تجاوز هذه المشاكل ويعود السبب في اعتقادي إلى عدم توفر البيئة التي تحتضن كل الأفكار والآراء والبدائل ، حيث تتعامل المؤسسات الرسمية وعلى رأسها الإدارة العمومية من حكومة ووزارات وجماعات محلية باستخفاف مع الرأي العام وآمال المواطن وهي بهذا تخلق أزمة اتصال وتواصل تؤدي مباشرة إلى زعزعة الثقة والتأييد الذي يمكن أن تحظى به عند الشعب ، كما يجعل القائمين على الهيئات العلمية والإعلامية من مؤسسات البحث العلمي ووسائل الإعلام ومعاهد سبر الآراء يواجهون هذه الأزمة التواصلية وصعوبات لانهاية لها في قياس اتجاهات الرأي العام ومواقف الجمهور من مختلف القضايا والأحداث وكنتيجة لذلك تتعمق أكثر الهوة بين الجهة التي تملك القرار السياسي والاقتصادي وبين المواطن الذي يتحمل نتائج هذه القرارات التي لا يشارك في صناعتها.

26. حسن حمدي ، الوظيفة الإخبارية لوسائل الإعلام ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1991 ، ص 159.

27. Helene Y.Meynaud et Denis Duclos، les sondages d'opinion , Troisième édition, Casbah édition ,1998,p31.

28. بيير بورديو ، التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول ، ترجمة: درويش الحلوجي ، دار كنعان للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية ، دمشق ، ط1 ، 2004 ، ص46.

29. من الأمثلة على القرارات السياسية الكبيرة التي اتخذها الجهاز التنفيذي هي عملية التنقيب عن الغاز الصخري و استغلاله مباشرة دون تعميق التشاور والنقاش على مستوى الخبراء وكذلك تجاوز استشارة الرأي العام الجزائري ودور المواطن في العملية انطلاقا من كونه المتأثر الأول من عمليات الاستغلال سواء على صحته أو بيئته ، ونتيجة لهذه القرار الثقيل على المستوى الرسمي والشعبي كان رد الفعل من المواطن الجزائري غير متوقع تماما من الجهات المسؤولة عن اتخاذ هذا القرار المصيري في هذه الظروف ، وجعلت الطبقة السياسية في الجزائر خاصة الأحزاب المعارضة وكذلك منظمات المجتمع المدني تقف ضد هذا القرار وتعتبره مكروها ومهددا للأمن الوطني وسلامة المواطن في مناطق الجنوب.

30. Helene Y.Meynaud et Denis Duclos, Ibid ; P 33.

31. شيلدون آر جاوايزر ،جي ايقانز ويت ، دليل الصحفي إلى استطلاعات الرأي العام ، ترجمة: هشام عبد الله ، عمان ، الدار الأهلية للنشر والتوزيع ،1997 ، ص 52.

متطلبات تصوير الإبداع في المؤسسة الجزائرية ﴿دراسة ميدانية﴾

مريم روابحية* سميرة سطوطاح**

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الإبداع ودوره في تشجيع عملية التعلم التنظيمي في المؤسسة الجزائرية ، من منطلق أن التعلم التنظيمي يعتبر خطوة رئيسية في المنظمة المتعلمة ، ولتحقيق هذه الغاية قمنا باستطلاع آراء العمال في مؤسسة "محبوبة للعجائن الغذائية" التي تنشط في القطاع الصناعي لولاية عنابة ، بناءا على إستمارة شملت أسئلة لجوانب من الإبداع الذي له أثر إيجابي في عملية التعلم التنظيمي في المؤسسة محل الدراسة ، واختتمت الدراسة بإظهار عدة نتائج أهمها التي أظهرت عدة مقترحات لمعالجة المعيقات التي تواجه منظمات الأعمال في إدخال التكنولوجيا.

الكلمات المفاتيح: الإبداع ، التعلم ، التعلم التنظيمي ، المؤسسة ، العاملين.

Résumé

Cette étude vise à mettre en valeur l'innovation et son rôle dans le processus de l'apprentissage organisationnel en algérienne, nous considérons l'apprentissage organisationnel comme une étape clé dans l'organisation apprenante. Pour cela, nous avons interrogé les employeurs dans l'entreprise « sarl mahbouba », sur l'innovation qui a un effet positif sur le processus d'apprentissage organisationnel. Les résultats de l'étude nous ont permis de faire plusieurs propositions qui peuvent aider à dépasser les obstacles de l'intégration de la technologie.

Mots clés : l'innovation, l'apprentissage, l'apprentissage organisationnel, l'entreprise, les employeurs.

Summary

This study aims to shed light on innovation and its role in the process of organizational learning in the Algerian companies, for that purpose, we interviewed employers in "sarl Mahbouba" company which is operating in Annaba industrial sector, based on a questionnaire that includes questions related to innovation and its positive effects on the process of organizational learning. The study concludes by showing the importance of overcoming obstacles through the integration of technology.

Keywords: Innovation, learning, organizational learning, company, employers.

*أستاذة مساعدة ب، جامعة 8 ماي 1945 قالمة

** استاذة محاضرة صنف أ، عضو في هيئة تحكيم مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية " التواصل"، جامعة باجي مختار عنابة.

مقدمة

نال موضوعا التعلم التنظيمي والإبداع في العقود الأخيرة اهتماماً بارزاً من قبل المختصين والباحثين، ومن خلال تتبع حركة بعض البحوث والدراسات في المجالين المذكورين، وقد أشارت العديد من الدراسات إلى ايجابية العلاقة بين التعلم التنظيمي والإبداع وتأثيرهما على حياة المنظمة ونجاحها، وعلى الرغم من المحاولات العديدة للباحثين للولوج في تشعبات ومفاصل المتغيرين، الا انهما لم يحظيا باهتمام كافٍ في دراسة بناء عملية التعلم التنظيمي وتأثيراته على الإبداع، دراسة المشكلة للوقوف على مستوى التعلم التنظيمي فيها ومدى إسهامه في تحقيق الإبداعات واستمراريتها، ومن ثم محاولة وضع الحلول الملائمة التي تخدم عمل تلك المنظمات من جهة والإسهام في إحداث التراكم المعرفي للإطار النظري في مثل هكذا متغيرات من السلوك التنظيمي.

وفي ظل الطرح السابق سيحاول هذا البحث الإجابة على التساؤل التالي:

هل يؤثر التعلم التنظيمي على الإبداع في المؤسسة الجزائرية ؟

من خلال التساؤل السابق يمكن طرح الأسئلة الفرعية التالية:

- ما مستوى التعلم التنظيمي في مؤسسة محبوبة للعجائن ؟
- ما مستوى الابداع التنظيمي في مؤسسة محبوبة ؟
- هل هنالك علاقة بين التعلم التنظيمي والإبداع التنظيمي في مؤسسة محبوبة للعجائن ؟

هذه التساؤلات قادتنا لوضع فرضيتين أساسيتين للبحث هما :

-إن تبني مؤسسة محبوبة للتعلم بوصفه نشاطا أساسيا يعمل على تطوير الابداع في المنتجات .

-مؤسسة محبوبة تهدف لتفعيل الابداع بإدخالها وسائل تكنولوجية جديدة.

أهمية الدراسة

تكتسب الدراسة الحالية أهميتها من خلال متغيري الدراسة الرئيسين وهما التعلم التنظيمي والإبداع بوصفهما بحسب اغلب الباحثين مقدرات جوهرية لها فعل استراتيجي في تحقيق الميزة التنافسية المستدامة ومسك مفاتيح التفوق والنجاح، ولارتباطهما بالمتغيرات البيئية الكبيرة التي شهدتها بيئة الأعمال وثورة الاتصالات وباستكشاف المستقبل. كما تتجسد أهميتها في محدودية الدراسات العربية الرابطة لمتغيراتها والتي حاولت متابعة التواصل الفكري والمعرفي مع العالم من خلال التأطير المفاهيمي لمتغيري الدراسة (التعلم التنظيمي والإبداع) ومحاولة اختبار العلاقة والأثر بينهما، وتتمثل الأهمية المكانية لإجراء الدراسة في مؤسسة محبوبة لصناعة العجائن الغذائية (ولاية عنابة) لما لها من دور بالغ بوصفها مؤسسات صناعية تسعى للبحث عن المعرفة والتشارك فيها والتجديد المستمر في صناعة منتجات جديدة.

أهداف الدراسة

تهدف الدراسة الحالية إلى محاولة بناء انموذج نظري يصف عملية التعلم التنظيمي وأثره في الإبداع في المنظمات، واختباره تجريبياً على مؤسسة محبوبة للعجائن الغذائية، كما تسعى إلى تحقيق الآتي:

- تحديد مستوى التعلم التنظيمي إجمالا وعلى مستوى كل بُعد من أبعاده في المنظمات.
- تحديد مستوى إبداع المنظمة المبحوثة إجمالاً وعلى مستوى كل بُعد من أبعاده.
- توضيح وتفسير طبيعة علاقات الارتباط والتأثير بين التعلم التنظيمي والإبداع.
- تحديد أيّ من أبعاد عملية التعلم التنظيمي الأكثر تأثيراً في الإبداع.
- الخروج بجملة استنتاجات وتوصيات قد تسهم في تعزيز إدراك المنظمات قيد الدراسة لأهمية التعلم التنظيمي كاستراتيجية شاملة لدعم الإبداع.

مبررات اختيار موضوع البحث

- تماشي الموضوع مع ميولنا لدراسة مثل هذه المواضيع التسييرية وخاصة المرتبطة بالإبداع والتطوير والسلوك التنظيمي.
- يَعرف المحيط تغييرات كبيرة تؤكد ضرورة اعتماد المؤسسة أينما كانت، على تقنيات تكنولوجية ووسائل اتصالية جديدة كافية لمواجهة هذا المحيط.
- ملاحظتنا أن هناك نقصا، إن لم نقل فراغا فيما يتعلق بالدراسات والبحوث التي تتناول تحليل واقع الإبداع والتعلم التنظيمي على مستوى المؤسسات.

الدراسات السابقة

– **أطروحة دكتوراه** نوقشت سنة 2006 بجامعة Paris 1 panthéon Sorbonne بفرنسا، بعنوان: **L'apprentissage Organisationnel entre processus adaptatif et changement dirigé** للباحث **David Cayla**، حيث قام الباحث دراسة الجانب النظري من التعلم التنظيمي بالإضافة إلى اقتراحه نموذجا نظريا مبنيا على أساس عملية تميز سيرورة لتكيف المشرفين على عملية التعلم التنظيمي داخل المنظمات. وتوصلت الدراسة إلى وضع مقاربة مقترحة. وبيّن الباحث أنها قد تكون ضمن إطار للنظريات الحديثة للمنظمات التي ركزت على العلاقة بين الهيكل التنظيمي والأداء والتعلم في المنظمات.

– **غادا عرف أحمد الرجوب، التعلم التنظيمي من وجهة نظر الإداريين في جامعة اليرموك، أطروحة دكتوراه** جامعة اليرموك إربد الأردن 2008. هدفت هذه الدراسة إلى اختيار إمكانية تطبيق مفهوم التعلم التنظيمي في جامعة اليرموك من وجهة نظر الإداريين العاملين فيها. وتوصلت إلى وجود تطوير وتحسين إمكانيات جامعة اليرموك ذات الصلة بتطبيق مفهوم التعلم التنظيمي والمنظمة المتعلمة التي تمثلت في الأبعاد التي تضمنها مقياس « Marquerdt» للتحول إلى منظمة التعلم.

– **أطروحة دكتوراه** نوقشت سنة 2006 من مدرسة دكتوراه école doctorale systèmes بفرنسا في المعهد الوطني بتولوز institut national Toulouse تحت عنوان: **Management de L'innovation Technologique et des connaissances synergie entre la théorie TRIZ et le raisonnement à partir de cas** للباحث **Guillermo Cortes Robles**، حيث قام في هذه الأطروحة بدراسة الإبداع التكنولوجي وعلاقته بالمعارف بوضع حل مبتكر لنظرية TRIZ، لما لها من قدرة على تطوير الأنظمة التقنية للمنتجات، كما أنها مبنية على المعارف وتطبيقاتها في مختلف الميادين. وتوصلت هذه الدراسة بوضع نظرية أخرى ومحاولة الباحث بمقارنتها مع نظرية TRIZ من خلال دراسات حالة قام بها الباحث، واستنتج أنه يجب تآزر هذين النظريتين حتى يسمح بحل المشاكل داخل المنظمات بطريقة مبتكرة لإعادة نشر المعارف بطريقة سهلة من خلال هذه العملية.

– **أطروحة دكتوراه** نوقشت في 1999 بجامعة La Méditerranée Aix Marseille 2 بفرنسا، بعنوان: **L'innovation Technologique comme processus d'apprentissage industriel :(analyse de la formation et de la diffusion des connaissance dans le cas des hauts fourneaux a injection en France et au Japon)** للباحث **Eris Jolivet** حيث قام بدراسة الإبداع لسيرورة التعلم الصناعي، وقام بتحليل التكوين والتدريب ونشر المعارف داخل المنظمات بقيامه بدراسة مقارنة لفرنسا واليابان. وتوصلت نتائج الدراسة بأنه يجب أن تكون ظروف التعلم جيدة وألا تكون الخبرة محدودة حتى يتم التعلم بنجاح، كما أكد الباحث أن الشركات يجب أن تطور في مجال معارفها خاصة المجزأة منها المرتبطة بمتطلبات العمال وخاصة في مجال العمل التطبيقي.

رغم أن هذه الدراسة امتداد للدراسات السابقة، فإنها تركز على اعتماد المؤسسات على الإبداع وربط هذا المفهوم مع التعلم التنظيمي، فقد كانت الدراسات السابقة مقتصرة إما على الإبداع أو على التعلم التنظيمي؛ إذن فموضوع بحثنا يركز على الإبداع بوصفه وسيلة ومدخلا من مداخل تحسين ودعم عملية التعلم التنظيمي في منظمات الأعمال، وهو بذلك يختلف عن الكثير من الدراسات التي ناقشت مفهومي الدراسة ولكن بإشكاليات مختلفة.

بناءا على ما سبق جاء هذا البحث لدراسة منظمة وشاملة للمحاور التالية:

I. الإطار المنهجي للدراسة
II. التعلم التنظيمي مفاهيم أساسية وأبعاده.
III. الإبداع التنظيمي مفاهيم أساسية ومتطلباته.
IV. العلاقة بين التعلم التنظيمي والإبداع التنظيمي.
V. دراسة ميدانية في مؤسسة محبوبة لصناعة العجائن الغذائية.

I. الإطار المنهجي للدراسة

1. مجتمع الدراسة وعينتها

قمنا باختيار دراسة حالة مؤسسة محبوبة لصناعة العجائن الغذائية لولاية عنابة من ضمن المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الناشطة في ولاية عنابة، من خلال قيامنا بإجراء مسح شامل لمجتمع البحث ككل الذي يتكون من 122 مفردة وهو العدد الإجمالي لفاعلين المؤسسة محل الدراسة، علما أن دراستنا هذه لا تحتوي على عينة دراسة نظرا لصغر

حجم المجتمع الذي تحتويه مؤسسة محبوبة وكان بإمكاننا تغطية المجتمع ككل.

حيث تم اختيار مؤسسة محبوبة لصناعة العجائن الغذائية (ولاية عنابة) لاحتوائها على متطلبات موضوع بحثنا، إذ تعمل هذه الأخيرة في القطاع الصناعي، وهي مؤسسة متوسطة تحتوي على 122 عامل يبلغ رأس مالها 186.360.000 دينار جزائري. تنشط في هذا المجال منذ سنة 2000 وتقدم منتوجات متنوعة من حيث نوعية العجائن (type de pâtes). إذ تحاول المؤسسة التركيز بشكل مستمر على تنويع منتجاتها بصفة دائمة، كما تركز على الإبداع في تغليف المنتج والتحسين المستمر في وصفة الإنتاج، وتقوم هذه المؤسسة أيضا بالتركيز على التعلم وعملية تدريب عمالها بالإعتماد على مدربين من داخل وخارج الوطن محاولة منها تسهيل عملية الإنتاج.

2. المجال الزماني والمكاني

2.1 المجال الزماني: يتمثل المجال الزماني لهذه الدراسة في الفترة الممتدة من تاريخ مباشرة العمل الميداني إلى غاية استكمال جمع البيانات وتحليلها وتفسيرها، ثم الخروج بنتائج وإجابات عن التساؤلات المطروحة لتأكيد أو نفي فرضيات الدراسة، وعموما فقد استغرقت هذه الفترة ثلاث أشهر أي انطلاقا من أكتوبر 2014 إلى غاية ديسمبر 2014.

2.2 المجال المكاني: اقتصرت الدراسة على مؤسسة واحدة وقد وقع اختيارنا على مؤسسة محبوبة التي تنشط في قطاع صناعة العجائن الغذائية المتواجدة في المنطقة الصناعية بولاية عنابة.

3. منهج الدراسة

بغية القيام بتحليل علمي ومنهجي لإشكالية الدراسة استخدمنا في بحثنا المنهج المسحي؛ حيث ان صغر حجم مجتمع الدراسة جعلنا نقوم بمسح لكل مفرادات المجتمع الكلي.

4. أداة الدراسة

اعتمدنا في هذه الدراسة على الاستبيان (الإستمارة) بشكل أساسي كوسيلة لجمع البيانات، حيث تم إنجاز الإستمارة بعد الاطلاع على الأدبيات والدراسات السابقة ذات الصلة بموضوع الدراسة، ووزعت على جميع أفراد البحث (112 عاملا). شملت 35 سؤالا وقسمت إلى قسمين رئيسيين: حيث يتمثل القسم الأول البيانات المتعلقة بخصائص المؤسسة ونشأتها وكذا البيئة التي تنشط فيها أما القسم الثاني فيحتوي على مجموعة من الأسئلة مقسمة إلى ثلاث محاور:

أ) المحور الأول: أسئلة تستفسر عن واقع التعلم التنظيمي في المؤسسة؛

ب) المحور الثاني: أسئلة تستفسر عن واقع الإبداع؛

ج) المحور الثالث: أسئلة تقيس علاقة الإبداع بالتعلم التنظيمي.

بالإضافة للاستبانة قمنا أيضا بتدعيم الدراسة ببعض الأدوات الأخرى التي تتلاءم مع طبيعة هذا الموضوع، كالمقابلة مع مسؤولي المؤسسة محل الدراسة طيلة فترة إنجاز البحث وذلك لعدة مرات لجمع معلومات كافية مؤكدة حول مشكلة الدراسة، كما استخدمنا الملاحظة بشكل أقل نسبيا كوسيلة مكملة لجمع البيانات، بالإضافة إلى أدوات المسح المكتبي والإحصاءات.

1.4 صدق الأداة

يقصد به قدرة الفقرات على قياس الاهداف التي صممت من اجلها، واستناداً الى ذلك لجأنا الى الصدق الظاهري وصدق المحتوى، يستخرج الصدق الظاهري عن طريق عرض فقرات المقياس على مجموعة من الخبراء للحكم على صلاحيتها وإمكانيتها في قياس الخاصية المراد قياسها وبناءاً على ذلك فقد تم توزيع الاستبانة على عدد من المحكمين المختصين من اجل التعرف على الثغرات والملاحظات المؤشرة على الفقرات المكّونة للاستبانة وفي ضوء ذلك جرى تعديل الاستبانة كما سبق ذكره لتصبح اكثر دقة وتعبيراً عن مجتمع الدراسة.

أما صدق المحتوى فيقصد به قدرة الاستبانة للتعبير عن الهدف الذي وضعت من اجله، وقد تم اختبار الصدق بعد ترتيب مجاميع الاجابات عن فقرات المقياس تنازلياً إذ تم تقسيمها إلى مجموعتين متساويتين وقد تم اخذ (27 %) من اعلى الدرجات و (27%) من ادناها ومن ثم تم قياس الفرق بين المجموعتين باستخدام معامل اختبار (Mann-Whitney) فكانت P-value اقل من (0.05) مما يشير الى صدق المقياس في جميع فقراته.

2.4 ثبات الاستبانة

يقصد بالثبات ان مقياس الاستبانة يعطي نفس النتائج عند اعادة تطبيقه على مجتمع الدراسة نفسه مرة اخرى، وقد تم حساب معامل الثبات باستخدام مقياس (Split) اي

التجزئة النصفية عن طريق ايجاد معامل الارتباط بين درجات الاسئلة الفردية ودرجات الاسئلة الزوجية وقد كانت قيمته (0.89) وبمستوى معنوية (0.05)، وعند تصحيح معامل الارتباط كانت قيمته (0.91)، وعند استخدام مقياس (Alpha) وجد انه معنوي بمستوى معنوية (0.05) وكانت قيمته (0.96) وهي نتائج تؤكد ان الاستبانة بمقاييسها المختلفة تتمتع بثبات عالٍ يمكن اعتماده في اوقات مختلفة للأفراد أنفسهم لتعطي النتائج ذاتها.

3 المعالجة الإحصائية

تم تفريغ المعلومات والبيانات وتحويلها من الصيغة النوعية إلى الصيغة الكمية وإدخالها في برنامج خاص في الإعلام الآلي (برنامج SPSS *)، كما تم تبويب البيانات وجدولتها بالاعتماد على الوسيط والانحراف المعياري. وتم تحليل وتفسير البيانات المبوبة والمجدولة، وربط العناصر المكونة لها بالاعتماد على تحليل محتوى البيانات بربط النتيجة بالسبب، وتحليل العناصر وفقا للأبعاد والجوانب الظاهرة والخفية.

II.التعلم التنظيمي مفاهيم أساسية وأبعاده

1) مفهوم التعلم التنظيمي

لا يعدُ مفهوم التعلم التنظيمي مفهوماً حديث النشأة بل يعود الى كتابات كل من الباحثين Argyris & Schon [1] كما تمتد جذوره الى أدبيات نظريات المنظمة ونظرية النظم (Senge,1990)، وقد نشأ الاهتمام العملي بهذا المفهوم في إدارة المنظمات من خلال مفهوم التخطيط الاستراتيجي والادارة الاستراتيجية، إذ أكد كل من الباحثين (Hosley, Lan, Levy& Tan, 1994; Foil & Lyles, 1985) أن التعلم التنظيمي هو المصدر الأساس للتغيير الاستراتيجي في المنشآت المختلفة والهادفة الى ايجاد مزايا تنافسية والمحافظة عليها.[2] وقد ساهم العديد من الكتاب في مفهوم التعلم التنظيمي من مثل الباحثين Pedler, Boydell & Burgone، إلا أن الباحث Peter Senge ربما كان أكثرهم تأثيراً في فترة التسعينات من خلال مضامين كتابه الموسوم بالنظام الخامس "Fifth Discipline" الذي دفع نجاحه العديد من الباحثين والمهتمين الى اتباع قضيته واصدار الكتب والمقالات في مدح فضائل المنظمة المتعلمة والتي وصفها بأنها "منظمات يعمل فيها الأفراد باستمرار على زيادة قدراتهم في تحقيق النتائج التي يرغبون فيها، والتي يتم فيها مساندة وتشجيع وجود نماذج جديدة وشاملة للتفكير, كما يطلق فيها المجال لطموحات الجماعة والتعلم من بعضهم كمجموعات" (Senge, 1990) وقد حدد في كتابه خمسة قواعد يرى أن المنظمات تحتاج لاحتضانها بين الأفراد والجماعات لتعزيز التعلم والنجاح وهي: النبوغ الشخصي والرؤية المشتركة ونماذج العقل وتعلم الفريق وتفكير النظم [3]. وقد وسع الباحث Nonaka فيما بعد منظور الباحث Senge من خلال المعرفة الضمنية واستخدم نفاذ بصيرته المتأتية من أبحاثه وبشكل خاص من تجارب الشركات اليابانية [4] ويعد (Shrivastava, 1983) أول باحث ميّز بشكل نظامي بين أربع وجهات نظر بشأن التعلم التنظيمي هي: التعلم التكييفي "adaptive learning" والذي يسمى بالاتجاه الواحد من التفكير، وتقاسم الافتراض " assumption sharing" والذي يعد من المفاهيم المتأصلة في النظريات الاجتماعية للمعرفة, وتطوير القاعدة المعرفية " development of knowledge base" ويتم التشديد فيها على تطور علاقات الفعل بالناتج والمرتبطة بالنشاطات التنظيمية وأخيراً تأثيرات الخبرة المؤسساتية " Institutionalized experience effects" التي تشمل الطرائق المتعلقة بالخبرات المؤسساتية بشأن منحنيات التعلم [5].

2) أنواع التعلم التنظيمي

أفرزت الدراسات والبحوث في الحقل التخصصي للتعلم التنظيمي أنواعاً عديدة للتعلم، وعلى الرغم من اختلاف مسمياتها الا أنه يمكن تمييز ثلاثة أنواع أساسية للتعلم:

النوع الأول: يتعلق بالتحري عن ومعالجة الأخطاء ضمن مجال الممارسات والسياسات والنماذج السلوكية في المنظمة، ويهتم بكيفية التحقيق الأفضل للأهداف مع بقاء الأداء ضمن المدى المحدد بالقيم والمعايير الحالية دون تغيير [6] ويتحقق التعلم من عملية مراقبة نتائج الأفعال واستخدام هذه المعرفة لتصحيح الإجراءات اللاحقة لغرض تجنب أخطاء مشابهة في المستقبل وإنشاء نماذج ناجحة للسلوك [7].

النوع الثاني: يذهب اهتمام هذا النوع إلى ما خلف الإصلاح والتصحيح في المواصفات والأهداف فهو يشمل تحدي صحة النماذج والقيم والسياسات الأساسية للمنظمة وإجراءات العمل المكونة لهذه المواصفات والأهداف، وهو

تعلم إعادة البناء في المجالات الأساسية لعمليات المنظمة كتبني هيكل منظمي جديد أكثر انفتاحاً ليجعلها متزنة مع بيئتها وتتولد عنه ممارسات وسياسات ونماذج جديدة للسلوك ناتجة عن مثل هذه التغييرات [8].

النوع الثالث: وهو تعلم حل المشكلات ، أو التعلم من أجل التعلم ، ويتطلب هذا النوع التفكير الجماعي لقواعد الحكم والافتراضات ، ويعد هذا النوع من التعلم البناء الراقي للمنظمة المرتكز على الخبرات والتجارب ونفاذ البصيرة [9]اذ تنشأ المنظمة تغييرات جوهرية في بيئتها محاولة منها لإعادة ابتكار ذاتها ، كتحول منظمة صناعية تقليدية الى منظمة خدمية ، ويتطلب ذلك تغيير جميع مضامينها في الثقافة والهيكل والممارسات التي قد يحتاجها مثل هكذا تغيير ، ويعد أصعب أنواع التعلم التنظيمي ويركز على غرض أو مبادئ المنظمة وتحدياتها [10].

III.الإبداع التنظيمي مفاهيم أساسية وأبعاده

1) مفهوم الإبداع التنظيمي

لقد ساهم التباين في المجالات المعرفية في اختلاف نظرة الكتاب والباحثين إلى الإبداع من حيث المضمون والمحتوى ، ولعل ذلك يكشف محاولة الباحثين صياغة تعريفاتهم الخاصة التي تؤكد وجهات نظرهم في التعامل مع هذا المفهوم ، وستحاول الباحثة التأطير لمفهوم الإبداع التنظيمي والتعريف به من خلال وجهات النظر الآتية:

1-1 التركيز على الناتج الإبداعي: تناول عدد من الباحثين مفهوم الإبداع بوصفه ناتجاً إبداعياً فقد عرف بأنه العملية التي ينتج عنها شيء جديد ووصفه [12] بأنه القدرة على إنتاج أشكال جديدة في الفن والميكانيك أو حل مشكلات باستخدام طرائق مبتدعه ، ويرى روشكا [13] أن الإبداع وحدة متكاملة لمجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية التي تعود إلى تحقيق إنتاج جديد وأصيل وذي قيمة من قبل الفرد والجماعة ، وفي السياق ذاته يعرف جواد [14] الإبداع بأنه إنتاج أفكار وحلول أصيلة وفريدة من نوعها وهي تحمل في الوقت ذاته بين طياتها التجديد والحداثة وإمكانية التشغيل والإفادة ، وتناول البغدادي [15] الإبداع على انه طريقة لحل مشكلة ما إذا ما خرج بإنتاج جديد أو طريقة تفكير أو أداء أو عمل شيء ما يعد مميزا للفرد من دون الآخرين.

2-1 التركيز على تبني الإبداع: يمثل الإبداع وفق منظور الباحثين Aiken & Haqe [16] توليداً وقبولاً وتطبيقاً للجديد من الأفكار والعمليات والمنتجات او الخدمات والسياسات والأدوات والأجهزة التي تكون جديدة على المنظمة وبيئتها" وعرّف الباحثين Shani &Lan [17] الإبداع بأنه "تطبيق فكرة أو منتوج مستخدم في مكان ما ويصبح تطبيق هذه الفكرة او المنتوج فريداً عند وضعه في إطار أو سياق جديد" وطبقاً لرؤية الباحث Daft [18] فإن الإبداع يمثل "تبني فكرة أو سلوك جديد لصناعة المنظمة أو سوقها أو بيئتها العامة" وعبّر عنه أيضا الباحث Robbins [19] بأنه "تطبيق الفكرة الجديدة على أنها مبتدئة أو محسنة لمنتوج ما أو عملية ما أو خدمة ما ، ويرى (McAdam & Galloway) الإبداع بأنه عملية اقتراح وتبني وإنشاء وتنفيذ فكرة جديدة مستقلة متعلقة بالمنتوج أو السياسة أو الممارسة أو السلوك أو البرنامج أو الخدمة والتي قد يكون مصدرها من داخل المنظمة أو خارجها [20].

3-1 التركيز على المعرفة في تعريف الإبداع: طبقاً للباحث (Koontz odonnell) إن الإبداع يستخدم المعرفة الحالية في مجموعة ضمن تركيب معين لحل مشكلة لا يمكن حلها من قبل [21] ويرى الصرن [22] الإبداع بأنه أفكار تتصف بأنها جديدة ومفيدة ومتصلة بحل مشكلة معينة أو تجميع أو إعادة تركيب الأنماط المعروفة من المعرفة في أشكال فريدة ، ويمثل الإبداع عملية تحويل المعرفة إلى منتجات وعمليات وخدمات جديدة يشتمل على أكثر من مجرد العلم والتقنية فهو يعنى بتمييز وإشباع حاجات الزبائن [23] والابداع من منظور الباحثين Guthrie & warda [24] أي قيمة اقتصادية أو اجتماعية يمكن استخلاصها من المعرفة من خلال التوليد والتنفيذ للأفكار أو المنتجات الجديدة او تحسين المنتجات والعمليات والخدمات ، ويقال عن الإبداع بأنه عملية فكرية متميزة تجمع بين المعرفة المتألقة والعمل الخلاق في شتى جوانب الحياة وتتعامل مع الواقع وتسعى للأفضل ، والإبداع شبكة من العوامل التي تخلق وتستثمر المعرفة والتكنولوجيا الجديدة [25].

وتعرف الباحثتين الإبداع بأنه عملية تبني المنظمة طرائق جديدة وغير مألوفة في التفكير أو الفعل أو التعلم لتضيف قيمة لمخرجاتها المعنية بإشباع حاجات زبائنها الداخليين والخارجيين المدركة أو غير المدركة.

تأسيساً على ما تقدم يمثل الإبداع:

- أكثر من مجرد عملية لحل مشكلة ما.

- عملية حضارية تسهم في بناء المجتمعات الإنسانية ورفاهيتها.
- عملية تضيف قيمة جوهرية للمنظمة ومخرجاتها.
- عملية تمتد إلى جميع وظائف وأنشطة وعمليات المنظمة وزبائنها وأسواقها.
- عملية تعلم مستمرة تنشأ من تبادل المعرفة بين الأشخاص والمنظمات ومختلف الأطراف ذات العلاقة.

2) أنواع الإبداع التنظيمي:

شخص الباحثون في مجال السلوك التنظيمي أنواعا مختلفة للإبداع يمكن إجمالها بالآتي:

2-1 أنواع الإبداع على وفق مصدره: إذ صنفه الباحث Ivancevich [26] إلى إبداع داخلي وإبداع خارجي، يتمثل الابداع الخارجي في حصول المنظمة على الافكار من مصادر خارجية مثل المنظمات الاخرى التي لها نشاط مماثل أو مراكز بحثية وغيرها، أما الإبداع الداخلي فيعبر عن الإبداعات التي تتبناها المنظمة ويكون مصدر الافكار فيها داخل المنظمة كالإدارة العليا والعاملين وأقسام المنظمة كالبحث والتطوير والتسويق وغيرها، أما الباحث (Gullec, 1999) فقد صنف الإبداع إلى إبداع عالمي وإبداع محلي وقد أشار إلى أن الإبداع العالمي هو ما يكون جديداً وغير مألوف للاقتصاد بالكامل، أما الابداع المحلي فهو ما يكون جديداً وغير مألوف عملياً فحسب وحصرياً لوجود المنظمة [27].

2-2 أنواع الإبداع على أساس القرار المتخذ: صنف كل من الباحثين Rogers & Shoemaker [28] الإبداع إلى نوعين هما: إبداعات بقرارات فردية تكون صادرة عن الإدارة العليا، وإبداعات بقرارات جماعية وتكون بمشاركة أعضاء المنظمة العاملين فيها.

2-3 انواع الإبداع على وفق نوع المنتوج: وهنا يصنفه الشيخلي [29] إلى إبداع ذهني وإبداع عملي وإبداع مختلط (ذهني/عملي) فالإبداع الذهني هو الإبداع القائم على العقل أي تكوين أفكار جديدة أو نظريات أو تأملات علمية سواء من حيث المضمون الداخلي أم المنتوج الذي يعرض على نحو غير مألوف المعلومات والحقائق مثل المحاضرات التعليمية والتدريبية والروايات والقصص والأشعار المنوعة، إما الإبداع العملي فيتخذ أشكالا ثلاثة هي الكمي والنوعي والكمي/النوعي، أما الإبداع الكمي فهو توسيع حسابي أو رياضي أو تصويري في ظاهرة قائمة أو حالة موجودة مثل قطع مسافة طول في الركض أو السباحة أو تأليف اكبر عدد من الكتب العلمية، أما الإبداع النوعي فيعني ظهوراً أو توسيعاً كيفياً أو موضوعياً أو مضمونياً مثل اختراع تكنولوجيا جديدة واستثمار أمثل للخبرات الفنية في حين أن الإبداع الكمي/النوعي يتضمن توسيع الشكل (العناصر الخارجية) إذ يؤثر تأثيراً كبيراً في البشرية لتحقيق كم اكبر ونوع أكثر كالعباقرة الذين يقدمون إبداعا يغير مجرى تاريخ العلم والتكنولوجيا، أما الإبداع الذهني/العملي فهو امتزاج النظرية بالتطبيق في حالة توازن مرسوم بين الجانبين مثل الألحان الموسيقية [30].

إن الحديث عن الإبداع يجعلنا نتكلم عن ديناميكية الاقتصاد الجديد التي تعمل على أن الكل يتحرك بسرعة كبيرة، لذا لا يسمح لأي مؤسسة ان تظل ثابتة في المحيط التنافسي الجديد، بل يجب عليها أن تكون دائما مفتوحة للأفكار المبدعة وطرق العمل المبتكرة، كما تكون أيضا مفتوحة للوسائل المستحدثة وتكون قادرة على إدماجها واستغلالها في نشاطها الكلي، فالمؤسسات اليوم لا تملك خيارا خارج إطار الفكر الابداعي الابتكاري، لكن تبقى المؤسسات الصغيرة والمتوسطة الأكثر حاجة الى معرفة الطرق الكفيلة التي تسمح لها بالاستعمال الأمثل والعقلاني لرأسمالها المعرفي، حتى يتسنى لها مواكبة المؤسسات الكبرى، وذلك حتى تستطيع أيضا تحويل المعلومة الى معرفة وبالتالي تحقيق الوثبة الانتقالية من منطق الإنتاجية الى منطق الإبتكار.

IV.العلاقة بين التعلم التنظيمي والإبداع التنظيمي

ميز الباحثين (Miller & Friesen, 1982) بين المنظمات المحافظة والمنظمات المبادرة بدلالة الدور الذي يلعبه الإبداع التنظيمي في استراتيجية المنظمة، ففي المنظمات المحافظة يحصل الإبداع عند الحاجة كاستجابة للتحديات والتهديدات البيئية، أما المنظمات المبادرة فانها تتخذ الإبداع كعنصراً مركزياً وحيوياً للاستراتيجية، كما ان المنظمات المبدعة لا تتفاعل مع بيئتها وحسب بل تخلقها أيضا، وتقوم بصياغة القوى والظروف التي تؤثر في المنظمة، ولأن الفاعلية تتحرك نحو تحوير البيئة وليس مجرد التكيف معها فإنها تفضل التعلم التوليدي الذي لا يسمح بمجرد الكشف عن الأخطاء وإنما يغير قيم النظرية قيد الاستخدام والاستراتيجيات والفرضيات [31] وان المنظمات الناجحة تشترك إلى حدٍ كبير في الإبداع من خلال تعبئة المعرفة

والمهارات التكنولوجية والخبرة لخلق منتجات وعمليات وخدمات جديدة ، وان احد الأسباب الرئيسة لقدرة المنظمة الصغيرة نسبياً مثل شركة أكسفورد للبقاء في أسواق عالمية متنافسة بشدة هو تعقيد ما تنتجه والصعوبات الكبيرة التي يواجهها الداخلين الجدد إلى السوق في محاولة تعلم وتوجيه تكنولوجياتهم [32] اذ إن الإبداع يقوم على أساس ادخال الأساليب أو العمليات أو المنتجات أو الخدمات الجديدة الذي يتطلب التعلم المستمر من اجل استيعاب وتطبيق الأشياء الجديدة بكفاءة بما يحقق أهداف المنظمة [33].

ومن خلال الاطلاع على ما تيسر من دراسات رابطة بين متغيري الدراسة (التعلم التنظيمي والابداع) يمكن تأطير إسهامات الباحثين من خلال وجهات النظر الآتية:

1) التركيز على التعلم والإبداع بوصفهما قدرات جوهرية

أشارا الباحثين Thompson & Strickland [34] الى أن القدرات الجوهرية Core-competence للمنظمة تتمثل في قابليتها على الإبداع وتقديم منتجات مميزة وخدمات أفضل للمجهزين ولزبائنها وتتسم بكونها فريدة من نوعها ، مؤكدين على أن هذه العمليات ناتجة عن تجارب المنظمة والمهارات التي تتعلمها.

وقد ميز الباحث April [35] الموارد الفكرية بتمثلها في ثقافة المنظمة والمعرفة التكنولوجية والعلامات التجارية وبراءات الاختراع والمعارف العلمية التي يتقاسمها العاملون في المنظمة والتعلم المتراكم والخبرة ، وأوضحا كل من الباحثين (Prahalad & Hamel) ان قيام المنظمة ببناء قدرات جوهرية يستند الى إمكانية المنظمة في التعلم المشترك ولاسيما تنسيق المهارات الانتاجية والتنظيمية وتحسين وتكامل تقنيات الإنتاج المستخدمة ، وان اتجاه المنظمات في الإنفاق والاستثمار على البحث والتطوير وتشكيل رأس مال فكري إنما يهدف الى زيادة قدراتها في خلق إبداع تكنولوجي عام مستند إلى المعرفة وقادر على تقديم الدعم الى عدد كبير من المنتجات والخدمات [36].

2) التركيز على العوامل المؤثرة في التعلم والإبداع التنظيمي

أشارت دراسة للباحثين (Ekvall & Ryhammer,1999) الى أن المناخ التنظيمي والموارد هما العاملان الأكثر قوة في التأثير على نتائج الإبداع والتعلم لدى أساتذة الجامعة. وقد أظهرت نتائج دراسة الباحثين (Tierney,etal.,1999) بان العلاقة التبادلية بين القائد-العضو كانت مؤشراً مهماً لتطوير وإبداع العاملين.

3) التركيز على التعلم التنظيمي بوصفه عامل نجاح في إبداع المنتوج الجديد

أشار كل من الباحثين (Imai, et al., 1985) الى أن التعلم يؤدي دوراً اساسياً في تمكين الشركات من تحقيق السرعة والمرونة في عملية تطوير المنتوج ، وان البحث الدؤوب لكسب المعرفة والمهارات المتنوعة يساعد على تكوين الفرق المتنوعة القادرة على حل طيف من المشكلات في فترة زمنية قصيرة ، واستنتج الباحث (Verganti, 1997) في دراسته لتخطيط المنتوج ، أن التعلم من الخبرات السابقة هو الحجر الأساس للمراحل المبكرة من عمليات تطوير المنتوج للإدارة الكفوءة ، وقد أيد الباحث (Zirger, 1997) في دراسته لأداء المنتوج المتقدم جداً تكنولوجياً الحاجة إلى الآليات التنظيمية للحفاظ على ونقل تعلم تطوير المنتوج ، وأشارت دراسة الباحث Herschel [37] ان المنظمات الناجحة أدركت بأنها لم تعد تتوقع بان المنتجات والخدمات التي جعلتها ناجحة في الماضي ، ستجعلها كذلك مستقبلاً ، لذا فإنها تسعى الى التميز من خلال التعلم والمعرفة ، وهذه المنظمات بوسعها التعلم والإبداع من خلال رفع المعرفة الضمنية لأعضائها ، وهذه المعرفة تصبح حيوية عند تحويلها إلى قابليات ومنتجات جديدة [38].

إن التعلم التنظيمي والإبداع يقدمان للمؤسسات قدرات جوهرية وامكانيات كبيرة للتموقع في السوق ، ولهذا فالحديث عنهما يقودنا للحديث عن المؤسسات الصغيرة والمتوسطة ، لأن هذا المجال لم يبق حكرا على المؤسسات كبيرة الحجم أو المؤسسات العملاقة حتى وإن كانت هذه الأخيرة هي القائد في الإبتكار الجدري ، وذلك لبروز المؤسسات الصغيرة والمتوسطة بل وتفوقها فيما يعرف بالإبتكار التحسيني ، إذ أن أهم ما يلاحظ في الوقت الحاضر هو ذلك التسارع الأسي للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة في تحسين المنتجات الحالية وإدخال منتجات جديدة مما يجعل السوق تعيش فيما يشبه انفجار المنتجات الجديدة والمحسنة.

v.دراسة ميدانية في مؤسسة محبوبة للعجائن الغذائية

انطلاقا من أدوات الدراسة قمنا بجمع عدة معلومات هذا عرض لأهمها:

1) مستوى التعلم التنظيمي في مؤسسة محبوبة

بالنسبة للسؤال الأول والذي نص على ما يلي: ما مستوى التعلم التنظيمي في مؤسسة محبوبة للعجائن؟ وبغرض التحقق من هذا السؤال، تم استخراج المتوسطات والانحرافات المعيارية لكل عبارة من عبارات الاستبيان المتعلق بالتعلم التنظيمي كما يوضحه الجدول التالي:

الجـدول (01) يوضح استجابات المفحوصين على الأسئلة المتعلقة بالتعلم التنظيمي

المتغيرات الفرعية	مضمون السؤال	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري
أ) **إستراتيجية التعلم المخطط**	- تنظر المؤسسة إلى عملية التعلم كإحدى أولويات أهدافها المستقبلية.	3.685	1.024
	- هناك خطة محددة لتعليم وتدريب الأفراد في المؤسسة.	3.314	1.112
	- تختار الإدارة الاستراتيجية المناسبة التي تدعم المركز التنافسي للمؤسسة.	3.796	1.103
ب) **إيجاد المعرفة ونقلها إلى جميع إنحاء المؤسسة**	- تشجع المؤسسة تنمية المعارف والمهارات لجميع العاملين.	3.463	1.076
	- تشجع المؤسسة على المشاركة في المعرفة بين أقسام المؤسسة المختلفة.	3.518	1.058
	- تنظر المؤسسة إلى المعرفة والخبرة على أنها المورد الأساسي للفرد والمؤسسة.	3.555	1.128
	- تهتم المؤسسة بتقنيات الاتصالات كإحدى الوسائل المهمة لنقل ومشاركة المعلومات.	3.277	1.207
	- تهتم المؤسسة بتخزين خبرات الأفراد ومعارفهم في قواعد البيانات	3.537	1.156
	- تشجع المؤسسة التعرف على طرائق العمل والتغييرات التي قد تتعرض لها.	3.500	1.127
	- تهتم المؤسسة بتسهيل إيصال المعلومات لأفرادها فيما يخص نشاطات المؤسسة وأدائها العام.	3.500	0.966
ت) **تجنب التركيز على الفشل والتعلم من الأخطاء السابقة**	- تسعى المؤسسة إلى تأمين بيئة عمل تسمح بحرية التعبير عن الرأي وتقديم الاقتراحات.	3.351	0.934
	- تناقش المؤسسة بروح ودية الأخطاء للتعرف على أسبابها وتعلم كيفية تجاوزها.	3.370	0.875
	- تكافئ المؤسسة الأفراد لما يقدمونه من أفكار جديدة ومبتكرة.	3.277	1.235
	- تهتم الإدارة بتزويد العاملين بالتغذية العكسية عن تقييم أدائهم وتشجيعهم على تشخيص أخطائهم وتجاربهم السابقة.	3.259	1.012
	- هناك دعم عالي من إدارة المؤسسة لعملية تعليم وتدريب الأفراد.	3.351	1.066

أ) **استراتيجية التعلم المخطط**: تشير نتائج هذا المتغير إلى اهتمام إدارة المؤسسة المبحوثة بتنمية الأفراد وتدريبهم بدرجة **تقترب من المتوسط** من خلال اعتمادها عملية التعلم وتأمين مستلزمات التحقيق بما يؤمن دعم الرصانة العلمية وتشجيع الإبداع لتعزيز المركز التنافسي للمؤسسة.

ب) **إيجاد المعرفة ونقلها إلى جميع أنحاء الكلية**: تشير النتائج من وجهة نظر الباحثة إلى أن المؤسسة المبحوثة تهتم **بدرجة مقبولة الى حد ما** بتنمية معارف ومهارات العاملين والمشاركة في المعرفة بين أقسامها المختلفة لنشر المعرفة والتعلم من خبرات وتجارب الآخرين.

ت) **تجنب التركيز على الفشل والتعلم من الأخطاء السابقة**: تشير نتائج هذا المتغير إلى أن هذه المؤسسة قد نجحت **وبدرجة مقبولة الى حدٍ ما** في تحقيق هذا المتغير، والتي تشير إلى أنها تهتم بدرجة مقبولة الى حدٍ ما بتأمين بيئة عمل تسمح بحرية الرأي وتقديم الاقتراحات لتطوير العمل وتحسين الأداء وتناقش أخطاء العاملين عن تقييم أدائهم لغرض التعلم وتجاوزها في المستقبل.

من خلال تفسير المعلومات المتحصل عليها من مؤسسة محبوبة انطلاقا من الجدول السابق، نستنتج أن مؤسسة محبوبة تهتم بتنمية معارف ومهارات العاملين والمشاركة في المعرفة لنشر التعلم من خبرات وتجارب الآخرين، كما نجحت المؤسسة محل الدراسة إلى حد ما في تحقيق التعلم من الأخطاء السابقة وتسمح بحرية الرأي وتقديم الاقتراحات وهذا ما يدل على احتواء مؤسسة محبوبة على عدة أساليب ناجعة في عملية التعلم؛ وبهذا يمكننا القول إن مستوى التعلم التنظيمي لمؤسسة محبوبة **مرتفع إلى حد ما**.

2) مستوى الإبداع التنظيمي في مؤسسة محبوبة

بالنسبة للسؤال الثاني والذي نص على ما مستوى الابداع التنظيمي في مؤسسة محبوبة؟ تم استخراج المتوسطات والانحرافات المعيارية لكل عبارة من عبارات الاستبيان لغرض التحقق من السؤال وتم عرضه انطلاقا من الجدول التالي:

جـدول (02) يوضح استجابات المفحوصين على الأسئلة المتعلقة بالإبداع التنظيمي

المتغيرات الفرعية	مضـمون السؤال	الوسط الحسابي	الانحراف المعياري
أ) تبني الأفكار الإبداعية	- عادة ما أعد الشخص الأول بين زملائي في محاولة إيجاد عدد من الأفكار أو طرائق جديدة في العمل.	3.500	0.863
	- أحاول الاستفادة من مقابلة الأشخاص المهمين في المؤسسة للوصول إلى أفكار أو طرائق جديدة في الأداء	3.851	0.851
	- عادة ما اسند مقترحات زملائي بشأن ما يقدمونه من أفكار جديدة لزيادة عدد الإبداعات المقدمة إلى المؤسسة.	3.870	0.728
	- أحاول الاستفادة من الأسئلة التي يطرحها الآخرين لتحقيق عدد من الأفكار في مجال العمل.	4.074	0.723
ب) مدة الإبداعات المتبناة	- أرغب بالمشاركة في اختصار مدة حل المشكلات الإبداعية التي يواجهها زملائي عند أدائهم العمل.	4.074	0.748
	- أسعى إلى تعجيل حل المشكلات التي تقف أمام حالات الإبداع في المؤسسة بتطوير اتصالي الشخصي في ميدان العمل.	4.055	0.684
ت) دعم وإسناد الإبداع والمبدعين	- إن نقص التمويل لتقصي الأفكار المبدعة يعد مشكلة في المؤسسة.	4.370	0.784
	- يتوافر لدي الوقت الكافي للسعي وراء الأفكار الإبداعية.	3.185	1.010
	- تحظى أفكارنا الإبداعية باحترام وتقدير إدارة المؤسسة.	3.240	0.970
	- تميز مؤسستنا المبدعين بشكل صحيح وواضح للجميع.	3.111	1.075
	- تقدم مؤسستنا التسهيلات اللازمة لتطبيق الأفكار الجديدة.	3.259	1.102

أ) تبين نتائج الجدول أعلاه أن متغير تبني الأفكار الجديدة قد حقق أوساطاً حسابية تفوق المتوسط وبانحرافات معيارية (0.863، 0.851، 0.728، 0.723) على التوالي مما يعكس ذلك اهتماماً **فوق المتوسط** لأفراد عينة الدراسة بإيجاد عدد من الأفكار والطرائق الجديدة للأداء محاولين الاستفادة من خبرة ومعارف الأشخاص المهمين وإسناد مقترحات الآخرين لتحقيق عدد من الأفكار لغرض تطوير العمل وتحسين الأداء.

ب) يلاحظ من الجدول أعلاه أن متغير مدة الإبداعات المتبناة قد حقق أوساطاً حسابية بمستوى جيد، مما يعكس اهتماما **بمستوى عالي نسبياً** لأفراد العينة بمحاولة اختصار زمن حل المشكلات الإبداعية في العمل والرغبة في تطوير الإتصال الشخصي في ميدان العمل لتحقيق ذلك والسعي الى موازنة الوقت والجهد من أجل متابعة الأفكار الجديدة.

ت) يتضح من الجدول أعلاه أن هناك **اهتماماً مقبولا** إلى حد ما من قبل المؤسسة المبحوثة بدعم الأفكار الإبداعية وتمييز المبدعين عكسته استجابات متغير دعم وإسناد الإبداع والمبدعين، ونرجع السبب في ذلك إلى عدم كفاية التمويل اللازم للتقصي والبحث عن الأفكار المبدعة.

كما نستنتج من تحليلنا للمعلومات المجمعة أن النتائج تعكس اهتمام مؤسسة محبوبة **بمستوى عالي نسبيا** على تبنيها للإبداع وذلك انطلاقا من تبنيها للأفكار الإبداعية ودة الإبداعات المتبناة في ميدان العمل والسعي إلى دعم وإسناد المبدعين من أجل متابعة الأفكار الجديدة؛ وهذا مستوى جيد تصل إليه المؤسسة بالنسبة للتطورات المشهودة اليوم.

3) العلاقة بين التعلم التنظيمي والابداع

بالنسبة للسؤال الثالث والذي نص على هل هنالك علاقة بين التعلم التنظيمي والإبداع التنظيمي في مؤسسة محبوبة للعجائن؟ ولغرض التحقق منه تم وضع الجدول التالي الذي يبين علاقة الارتباط بين متغيرات الدراسة ألا وهي

التعلم التنظيمي والإبداع بتوضيح معامل الارتباط والدلالة للعلاقة في الجدول التالي:

الجدول (03): يوضح علاقة الارتباط بين التعلم التنظيمي والإبداع في مؤسسة محبوبة

المتغيرات	معامل الارتباط	الدلالة
عملية التعلم التنظيمي والابداع	**0.533	معنوية
مستوى المعنوية (0.01)		

يشير الجدول أعلاه الى وجود علاقة معنوية ايجابية بين عملية التعلم التنظيمي والابداع إذ بلغت قيمة معامل الارتباط (0.533) عند مستوى معنوية (0.01) فيها وهذا ما يجيب على السؤال الثالث الذي ينص على هل هنالك علاقة بين التعلم التنظيمي والإبداع التنظيمي في مؤسسة محبوبة للعجائن؟ وهذه النتيجة تعني أن المؤسسة المبحوثة تتبنى عملية التعلم التنظيمي بمستوى مقبول لتحقيق الابداع فيها وذلك ينسجم مع ما جاء في نتائج السؤال الأول والثاني اللذان يدوران حول التعلم والإبداع داخل المؤسسة محل الدراسة.

الخاتمة

لقد حاولنا في هذه الدراسة أن نبين علاقة الإبداع بالتعلم التنظيمي في المؤسسات، بعد أن تناولنا فيما سبق أهم الأسس النظرية لموضوع البحث وتعريفه وكذا ميدانه، وبينت نتائج الدراسة فيما يخص واقع الإبداع وعلاقته بعملية التعلم التنظيمي في مؤسسة "محبوبة للعجائن الغذائية" أن هناك اهتمام من طرف المؤسسة بالإبداع في المنتوج وكذا العملية الإنتاجية وكذلك اهتمام بالتعلم إذ تقوم المؤسسة محل الدراسة بفتح برامج للتعلم قصير المدى داخلها لهدف اكتساب المنظمة مهارات جديدة تساعدها على متابعة التطورات الإبداعية.

ومما سبق يمكننا القول إن الإبداع يقوم على أساس إدخال الأساليب أو العمليات أو المنتجات أو الخدمات الجديدة التي تتيحها المؤسسة، والذي يتطلب التعلم المستمر من أجل إستعاب وتطبيق الأشياء الجديدة بكفاءة بما يحقق أهداف المنظمة.

إضافة إلى النتائج المتوصل لها قمنا بوضع **مجموعة من المقترحات** لمعالجة المعيقات والمشاكل التي تواجه تبني الإبداع والتعلم داخل المؤسسة نذكر منها:

1. ضرورة تبني المؤسسة قيد الدراسة بناء شامل لعملية التعلم التنظيمي بأبعادها كافة والعمل على نشر ثقافة التعلم وتوفير بيئة أكثر ملائمة ومشجعة وداعمة تدرك أهمية التعلم في تعزيز فرص الابداع ووضع خطط وبرامج تعمل على تفعيل أبعاد عملية التعلم على مستوى المؤسسة.
2. أن تولي المؤسسة اهتماماً أكبر بعملية تكوين رؤية مشتركة حول أهداف التعلم وتشجيعهم على ابداء ملاحظاتهم واقتراحاتهم وتحديد حاجاتهم للتنمية والتطوير بما يؤمن وضع منهج استراتيجي لتطوير العاملين وتحسين أدائهم والمحافظة على مستوى متفوق للمعرفة يجعل الكلية أكثر استجابة للتغييرات البيئية.
3. وضع برامج محددة للتعلم والتدريب مبنية على أسس موضوعية على وفق احتياجات الكلية من المهارات والخبرات اللازمة لتطوير وتحسين أداء وسلوك العاملين فيها.
4. تنظيم وتشجيع الاتصال واللقاءات الجماعية بين الأفراد المهتمين بالمعرفة من داخل المؤسسة وخارجها لتحقيق الهدف الأساس للتعلم التنظيمي وهو التطوير المستمر للمعرفة وتشجيع التنوع الفكري والمعرفي.

الهوامش

* تم استعمال برنامج SPSS الإصدار (19) في عملية التحليل الإحصائي.

1. Argyris, C, & Schon, D, 1987, **Organizational Learning: A theory of Action perspective**, Addison Wesley, Reading. M.A, p 04.
2. Burnes Berard, 2000, **Managing Chang:Astrategic Approach to Organizational Dyamics**, 3ed, Prentic Hall, England, p 137.
3. Riesen, Hermann, 2004, « Organizational Learning Knowledge and Its Role », Seminar Work, Tu-53.252 Learning Organization, Full Term.
4. Senge, P, 1990, **The Fifth Discipline: The Art & practice of the Learning Organization**, Doubleday, New york, p 24.
5. Verganti, R, "Leveraging on Systemic Learning to Manage the Early Processes of Product Innovation Projects", **R&D Management**, vol(27), N(4), (1997), p377-392.
6. Moorbead, G, & Griffin, W, 1995, **Organizational Behavior**, Houghton Mifflin Company, USA, p 36.
7. Hatch, Mary. Jo, 1997, **Organization theory: Modern, Symbolic, & postmodern perspectives**, Oxford University Press, p 371.
8. جاسم محمد الذهبي ، 2001 ، **التطوير الإداري: مداخل ونظريات-عمليات واستراتيجيات** ، مطبعة التعليم العالي ، بغداد ، ص 66.
9. خليل محمد الشماع ، خضير كاظم ، 1989 ، **نظرية المنظمة** ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ص 98.
10. Stewart, T.A, 1999, Intellectual **Capital: The New Wealth of Organizations**, Doubleday Currency, New york, p 26.
11. Tushman, M, & Moore, W, 1982, **Reading in the Management of Innovation**, Pitman Publishing, London, p 287.
12. Rogers, E.M, & Shoemaker, 1971, **Communication of Innovation: The Free Press**, Macmillan Company, New York, p 71.
13. Caplin, J.P, 1968, **Dictionary of psychology**, Dell, New york, p 115.
14. روشكا ، الاسكندر ، 1989 ، **الابداع العام والخاص** ، ترجمة غسان عبد الحي ، عالم المعرفة ، الكويت ، ص 19.
15. السعد ، مسلم علاوي والعلياوي ، مزهر عبد السادة ، "العوامل المؤثرة في تنمية الابداع في المنشأة الصناعية" ، **مجلة العلوم الاقتصادية والادارية** ، جامعة بغداد ، عدد خاص لوقائع المؤتمر القطري الأول للعلوم الإدارية كلية الادارة والاقتصاد ، (2001) ، ص 11.
16. محمد رضا البغدادي ، 2001 ، **الأنشطة الإبداعية للأطفال** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ص 12.
17. Lampikoski, Kari, & Emden, Jack, 1996, **Igniting Innovation: Inspiring Organizations by Managing Creativity**, John Wiley & Sons, England, p 65.
18. Guthrie, Brian, & Warda, Jaeck, « The Rood Global Best: Leadership Innovation & Corporate Culture », **the Conference Board of Canada**, Series Challenge Paper, 2001, p 14.
19. Daft, Richard. L, 2001, **Organization theory and Design**, South Western, New york, p 357.
20. Guilford, J. P, 1962, **Creativity: It is Measurement & Development**, Sourcebook for Creative Thinking Charlessevise, New York, p 557.
21. Morales, Victor. J, & Montes, Francisco. J, "Antecedents & Consequences of Organizational Innovation & Organizational Learning in Entrepreneur Ship", **Industrial Management & Data Systems**, vol (106), N (1), (2006), p21.
22. الجبوري ، بلقيس ، "الابداع الإداري وأثره في تطوير النظم" ، **مجلة كلية الادارة والاقتصاد** ، جامعة المستنصرية ، العدد 17 ، 1995 ، ص 3.
23. الصرن ، رعد حسن ، 2000 ، **إدارة الابتكار والابداع: الاسس التكنولوجية وطرائق التطبيق** ، ط1 ، دار الرضا للنشر ، الأردن ، ص 28.
24. Aiken, M., & Hage, S, "The Organic Organization and Innovation", **Academy Management Journal**, vol (5), N (1), 1971, p 3.
25. Bear, M,& Frese, M, « Innovation is not Enough: Climates for Initiative and Psychological Safety » , ", **Journal of Organizational Behaviour,** Process Innovations and firm performance, vol(24), 2003, p45.
26. European Commission, Innovation Management and the Knowledge- Driven Economy, http:// trendchart. Cordis. lu/ reforts/ documents / studies- innovation- management, Directorate- General for Enterprise, Luxembourg, 2004, p6.
27. السالم ، زين العابدين جاسم محمد ، "تحليل مقومات ادارة المعرفة وعلاقتها بالابداع" ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، تخصص ادارة الاعمال ، كلية الادارة والاقتصاد ، جامعة البصرة ، 2005 ، ص 84.
28. Therin, Francois, "Organizational Learning and Innovation in High- Tech Small Firms", Proceedings of the 36th Hawaii International Conference on System Sciences, 2002, p 23.
29. السالم ، زين العابدين جاسم محمد ، مرجع سابق ، ص 91.

30. Sluis, Lidewey. E, “Designing the Work place for Learning and Innovation”, **Development & Learning in Organization**, vol (18), N (5), 2004, p 10.

31. أيوب ، ناديا حبيب ، "دور ممارسة التعلم التنظيمي في مساندة التغيير الإستراتيجي في المنشآت السعودية" ، مجلة الإدارة العامة ، مجلد 44 ، العدد 1 ، 2004 ، ص 77.

32. Zirger, B.J, "The Influence of Development Experience and Product Innovativeness on Product Outcome", **Technology Analysis and Strategic Management**, vol(9), N(3), 1997, p 287.

33. Axtell, C., Holman, D, Unsworth, K, Wall, T, Waterson, P, & Harrington, E, "Shopfloor Innovation: Facilitating the Suggestion and Implementation of Ideas", **Journal of Occupational & Organizational Psychology**, vol(73), 2000, p 265.

34. نجم ، نجم عبود ، 2005 ، **ادارة المعرفة: المفاهيم والاستراتيجيات والعمليات**، مؤسسة الوراق للنشر ، عمان ، 2005 ، ص283.

35. Daft, R.L, & Becker, S.W, 1998, **the Innovative Organization: Innovation Adoption In Organization**, North Holland, New York, p 94.

36. April, Kurt. A, “Guide Lines for Developing Astrategy”, **Journal of Knowledge Management**, vol (6), 2002, p 55.

37. العامري ، صالح مهدي والغالبي ، طاهر محسن ، «رأس المال المعرفي: الميزة التنافسية الجديدة لمنظمات الأعمال في ظل الاقتصاد الرقمي" ، **المؤتمر العلمي الدولي السنوي الرابع** 26-28 نيسان ، ادارة المعرفة في العالم العربي ، كلية الإدارة والاقتصاد ، جامعة الزيتونة الإدارية ، 2004 ، ص 11.

38. الكبيسي ، عامر ، 2005 ، "ادارة المعرفة وتطوير المنظمات" ، المكتب الجامعي الحديث ، ص 116.

أثر السياق في توجيه متشابه القرآن عند الإمام الكرماني

فضيلة عظيمي*

الملخص

يتناول هذا البحث أهمية السياق في توجيه التراكيب المتشابهة من الجانب اللفظي في القرآن الكريم ، وكان مما توصل إليه البحث أن الكرماني كان له منهج واضح في التعامل مع التّراكيب القرآنية المتشابهة ، فقد اعتمد على المنهج السّياقي في تعليل ما بين تلك التراكيب من فروق واختلافات. وكان سياق الحال بعناصره المختلفة أداة هامّة في تعليل الاختلاف بين التراكيب المتشابهة.

ومن هنا فإن المتشابهات القرآنية هي من أبرز الظواهر التي تتجلّى فيها تطبيقات النظرية السياقية.

الكلمات المفاتيح: السياق ، التفسير ، الآيات المتشابهة ، سياق الحال ، المنهج السياقي.

Résumé

Cette étude traite l'importance du contexte dans l'explication et l'interprétation des compositions similaires verbalement dans le Coran، et Les résultats atteints à que **l'Imam al-Kirmani** avait une approche claire dans le traitement des compositions coraniques similaire، il a adopté le contexte pour expliquer les différences entre ces compositions.

Le contexte de la situation par Ses différentes composantes est un outil important pour expliquer les différences entre les compositions similaires.

Par conséquent، les similitudes sont des phénomènes coraniques importants qui reflètent les applications théoriques

***Mots clés*: Contexte** ، interprétation ، versets semblables ، le contexte de la situation les ، l'approche

Summary

This study discusses the importance of context in the explanation and interpretation of similar compositions verbally in the Koran ، and the results achieved Aque Imam al-Kirmani had a clear approach in the treatment of Koranic similar compositions ، it adopted the context to explain the differences between these compositions.

The context of the situation ، its various components is an important tool to explain the differences between similar compositions.

Therefore ، the similarities are substantial Koran phenomena that reflect the theoretical applications

Key words: Context، interpretation، similar verses، the context of the situation، the contextual approach.

*استاذ مساعد أ، كلية الآداب و اللغات، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

تعدّ نظرية السياق من أهم النّظريات اللّغوية التي لها الأثر البالغ والتأثير الكبير في مجال الدّرس اللّغوي الحديث ، حيث إنّ الاتجاهات الحديثة في دراسة اللغة أكّدت هذه الأهمّية ، بل إنّ إحدى المدارس قد انبنت بحوثها على فكرة السياق وهي المدرسة الإنجليزية بزعامة فيرث ، على أن تراثنا اللغوي العربي قد تضمّن كثيرا من المباحث ذات الصّلة الوثيقة بالسياق ، ويظهر هذا في مجالات مختلفة كاللغة والنحو والبلاغة والنقد الأدبي وبحوث الفقه والتفسير وعلوم القرآن ، حيث كان السياق وسيلة هامّة في التفسير والتأويل وبيان دلائل الإعجاز.

السياق بين اللّغويين والأصوليين

السياق في اللغة

قال ابن منظور: " ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا ، وهو سائق سواق ، شدد للمبالغة ...وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا: إذا تتابعت ، وكذلك تقاودت ، فهي متقاودة ومتساوقة ، ...وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعنزا ما تسّاوق: أي ما تتابع ، والمساوقة المتابعة ، كأن بعضها يسوق بعضا "[1].

وقال الجوهري:" ويقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة ، أي بعضهم على إثر بعض ، ليست بينهم جارية"[2].

ومن المجاز:" هو يسوق الحديث أحسن سياق ، وإليك سياق الحديث ، وهذا الحديث مساقه إلى كذا ، وجئتك بالحديث على سرده... وسياق الكلام تتابعه وتواليه وأسلوبه الذي يجري عليه "[3].

يستخلص من المعاني اللغوية السابقة أن السياق يدل على التتابع والتوالي ، ويطلق على ما تتابع من الأشياء والدّواب وغيرها مماّ يملك تلك الصفة ، ويتفق هذا المعنى اللغوي مع المعنى المجازي للسياق ، فإذا أطلق على الكلام دلّ على تتابع ألفاظه وتواليها.

السياق في الاصطلاح

يعرّف السياق لدى علماء اللغة المحدثين بأنه العناصر اللغوية التي تسبق أو تلحق الكلمة أو العبارة ضمن الخطاب ، حيث يتعلق معنى هذه الكلمة أو العبارة بتلك العناصر السابقة أو اللاحقة[4].

لكنّ مفهوم السياق لا يقف عند حدود العناصر اللغوية الخالصة ، بل يمتدّ ليشمل العوامل الخارجية المتصلة بالخطاب ، وقد أدرجها علماء اللغة ضمن ما سموه سياق الحال ويعرّف بأنه: مجموعة الظروف الاجتماعية التي يمكن أخذها بعين الاعتبار لدراسة العلاقات الموجودة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللغوي ... ويسمى أحيانا بالسياق الاجتماعي للاستعمال اللغوي[5] .

ونتبين ممّا سبق أن السياق هو مجموع العناصر اللغوية وغير اللغوية التي تتصل بالعبارة أو بالنص ويتعلق بها المعنى.

فدلالة الكلام ليست بالضرورة ما يدلّ عليه ظاهر لفظه وهو ما نبّه عليه فقهاء اللّغة قديما وقرروا " أن المعاني قد لا يوصل إليها إلا بالظروف التي أحاطت بـها ، ومن ثَمّ لا ينبغي أن يكتفي اللّغوي بالسماع ، بل ينبغي أن يجمع إليه الحضور والمشاهدة"[6]. لأنّ لهما أهمّيةً بالغةً في فهم دلالات الألفاظ ومعانيها ومقاصد العرب فيما تستعمله من كلامها ، ولهذا حرص أصحاب المعاجم على أخذ العربية من سياقها الذي تستعمل فيه ، وذلك بالتنقّل بين البوادي ومواطن العرب الأقحاح.

ويمكن أيضا أن نستشف أثر هذا الجانب من السياق في نماذج كثيرة ، منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ الأمثال التي كانت تُضرب في ظرف معيّن أو حادثة معيّنة ، ثمّ تُذكر فيما بعد مورًّى بها عن مثلها في المعنى. ومعرفة هذه الأمثال وشرحها والإبانة عن معانيها والإخبار عن المقاصد فيها...كلّ ذلك يحتاج إلى الوقوف على أصولها والإحاطة بأحاديثها.[7] وهذا يشمل الأحوال والمواقف التي صدرت فيها.

أمّا ما يتعلّق بالسياق اللّفظي ، ونقصد بذلك شرح اللّفظة وتحديد معناها من خلال استعمالاتها في الكلام فيمكن القول إنّه الأساس الذي قامت عليه أغلب المعاجم العربية ، كمعجم مقاييس اللّغة لابن فارس ومعجم أساس البلاغة للزمخشري ، حيث تذكر المعاجم المعنى الأصلي للكلمة ثمّ تفرع منه مختلف المعاني بحسب السياق ، ومعنى ذلك أنّ " الألفاظ لا تعيش منعزلة في متون النّصوص بل مجتمعة مركّبة مع غيرها من الألفاظ ، ولذلك كانت دراستُها منفردةً دراسةً عقيمةً غيرَ منتجة ، فيجب أن يُستنتج معناها أومعانيها المتعدّدة من مجموع النّصوص التي تحدّد استعمالها ، وتمكّننا من ضبط معناها ضبطا دقيقا ".[8] ويعدّ

المشترك اللّفظي والتّرادف ظاهرتين بارزتين يمكن تتبّع أثر هذا النّوع من السّياق من خلالهما.

أمّا النّحاة فيمكن رصد مظاهر السياق لديهم في أبواب كثيرة ومختلفة من أبواب النحو، من أمثلتها ما نجده في موضوع الحذف حيث يتجلّى أثر السياق في تقدير المحذوف وفهم المعنى المقصود، يقول ابن الأنباري: " قد يستغنون ببعض الألفاظ عن بعض إذا كان في الملفوظ دلالة على المحذوف لعلم المخاطب..."[9].

ويقول ابن جني معلّلا حذف الصفة: "وقد حذفت الصفة ودلّت الحال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سِيرَ عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنّ هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنّك تحسّ من كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قولِه: طويل، أو نحو ذلك".[10]

فالتطويح والتطريح والتفخيم تُعدّ ضمن قرائن الحال الخارجة عن اللّفظ، وهذه القرائن " لا تُفهم من المقال بل تفهم من المقام أو الظروف المحيطة بالمقال... وهي تقف جنبا إلى جنب مع القرائن المقالية في تعيين المعنى الوظيفي النحوي "[11]. فقرينة الحال قد تعوّض قرينة المقال وقد تجتمعان معًا في الكلام، ولكن لا يمكن أن يخلو الكلام من إحداهما.

وأمّا البلاغيّون فإنّ اهتمامهم بالسياق يتجلى فيما يسمّى بالمقام الذي أولوه عناية فائقة. والمقصود بالمقام كلّ ما أحاط بالكلام من مواقف وظروف وملابسات، وعلى المتكلّم أن يعرفها، فيوجز متى كان الإيجاز ويطنب متى استدعى المقام ذلك[12]. كما يتجلّى اهتمامهم بالسياق اللّغوي في دراستهم للأساليب والجمل، فقد راعوا القرائن والتمسوا من خلالها دلالات الكلام ومعانيه وأغراضه، وتعدّ نظرية النّظم مجالا تطبيقيا رحبًا، فهي تقوم على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال؛ فنظم الكلم أن " تقتفي في نظمها آثار المعاني في النّفس، فهو إذن يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"[13].

ويعدّ الأصوليون من أبرز العلماء الذين اعتمدوا السياق منهجا واضحا في فهم دلالات النصوص الشرعية انطلاقا من مناسبات النّص ومقاصد المتكلّم وقرائن الأحوال، وقد ألمح أبو حامد الغزالي إلى هذه الحقيقة فذكر أنّ قصد الخطاب يعلم بعلم ضروري يحصل من قرائن أحوال ورموز وإشارات وحركات من المتكلّم وتغيّرات في وجهه، وأمور معلومة من عاداته ومقاصده، وقرائن مختلفة لا يمكن حصرها في جنس، ولا ضبطها في وصف، كأسباب النزول وتاريخه، والظروف التاريخية التي احتفت بالنّصوص كلّها[14].

ويتجلّى وعي الأصوليين بأثر السياق في المعنى عند تفسير القرآن الكريم، حيث كانوا يعوّلون على السياق اللغوي وغير اللغوي في استنباط الدلالات، يقول السيوطي: " وأما ما لم يرد فيه نقل فهو قليل، وطريق التوصل إلى فهمه النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها واستعمالاتها بحسب السياق" [15] . وبناء على هذا نجد الأصوليين والمفسرين يجعلون السياق معتمدهم وحجتهم في العدول عن ظاهر اللّفظ ومعناه إلى معنى آخر يتماشى والسياق

وقد ميّز ابن تيمية بين نوعين من المفسّرين:

- صنف راعى المعنى الذي رآه من غير نظر إلى ما تستحقّه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان.

- وصنف راعى مجرّد اللفظ، وما يجوز عندهم أن يريد به العربي، من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلّم به، ولسياق الكلام[16].

إنّ فهم دلالة الآيات يستند عند الأصوليين والمفسرين إلى القرائن المقالية والحالية، التي تمثل السياق بنوعيه؛ اللغوي وغير اللغوي.

فأما القرائن المقالية فتتجلى في اعتمادهم في تفسير الألفاظ على ما يجاورها من ألفاظ وتراكيب أخرى؛ فمما يظهر به أثر السياق في تحصيل المعنى أن اللّفظة القرآنية تستمد معناها أو جزءًا منه من الكلمات التي تتصل بها ضمن التركيب أو السياق، وبذلك تشكّل هذه الكلمات قرائن مقالية (لفظية) تعين على تحديد الدلالة.

ومن نماذج هذا الأمر ترجيحهم دلالة المشترك اللّفظي اعتمادا على قرائن السياق، كتأويل معنى القرء في قوله تعالى: " **وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ**

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ "(البقرة: 228) بأنّه الطّهر، لأنّه جاء مؤنّثا بدليل أنّ العدد إذا كان مؤنّثا فالمعدود يجب أن يكون مذكّرا... إذ العدد يخالف المعدود في مثل هذا[17].

وأمّا القرائن الحالية فتبرز عندهم في استدعاء ظروف الخطاب وملابساته في التفسير واهتمامهم بأسباب النزول التي تبين ما أحاط بنزول الآيات من ظروف وملابسات، تشمل الظروف النفسية والاجتماعية والتاريخية التي صاحبت نزول الآيات، ولأجل هذا كانت معرفة أسباب النزول من بين ما يشترط في المفسر.

ومن الظّواهر التي عرض لها المفسّرون بالشرح والتأويل اعتمادا على السياق ظاهرة المتشابه اللّفظي بين الآيات القرآنية.

المتشابهات القرآنية

يقصد بالمتشابهات في القرآن الكريم، الآيات والتراكيب المتماثلة الألفاظ التي تكرّرت فيه مع وجود اختلاف فيما بينها من زيادة أو نقص أو تقديم أو تأخير ... وهي تندرج ضمن ما يُسمى: علم الآيات المتشابهات، ومعناه: " إبراز القصة الواحدة في صور شتّى وفواصل مختلفة بأن تأتي في موضع مقدّما وفي آخر مؤخرًا، أو في موضع بزيادة وفي موضع من دونها، أوفي موضع معرّفا وفي آخر منكّرا، أو مفردا وفي آخر جمعًا، أو بحرف وفي آخر بحرف آخر، أو مدغما ومنّونا وهو من فروع التفسير" [18]، على أنّ المراد بلفظ القصّة الوارد في التعريف ليس القصة بمفهومها الاصطلاحي، وإنمّا يُراد به الآية أو التركيب.

وقد ألّف في هذا العلم جماعة من العلماء منهم: أبو الحسن الكسائي (ت 189هـ) وكتابه: مشتَبَهات القرآن، وذكر السّيوطي (ت 911هـ) أنّه أول من صنّف فيه [19]، وأبو عبد الله محمّد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي (ت 420) وكتابه: دُرّة التنزيل وغرّة التأويل، ومحمود بن حمزة بن نصر الكرماني (ت 505هـ) وكتابه: البرهان في توجيه متشابه القرآن، وأحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي (ت 708) وكتابه: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التنزيل، والقاضي بدر الدّين بن جماعة (ت 733هـ) وكتابه: كشف المعاني في متشابه المثاني، ومجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزابادي (ت 817هـ) وكتابه: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، وأبو يحيى زكريا الأنصاري (ت 926هـ) وكتابه: فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، ونشير هنا إلى أن الفيروزآبادي وأبا يحيى زكريا الأنصاري قد اقتبسا كلَّ ما جاء في كتاب الكرماني [20].

تناول الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت 794هـ) موضوع المتشابهات في قسم من كتابه: البرهان في علوم القرآن تحت عنوان: علم المتشابه، ذكر فيه جملة من الذين صنّفوا فيه، وحصر التّشابه في ثمانية أقسام بينّها في كتابه. [21]

وعرض الإمام جلال الدّين السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) قسمًا بعنوان: الآيات المشتبهات، أورد فيه بعض المؤلفات في الموضوع، ثم ذكر بعض الآيات المشتبهات وعلّل اختلافها.

ويعدّ كتاب البرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني كتابا نفيسا بل الأنفس في عصره من حيث تناوله للمتشابه في القرآن، ذلك أن العلماء المعاصرين للكرماني وغيرهم من الأئمة قبله " ... قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها، وهو المُشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلاّ من وفّقه الله لآدائه ". [22]

أمّا الكرماني فقد تفرّد عن أولئك بتتبّعه الدقيق للمتشابه في القرآن في جميع جزئياته، ولم يغفل أيّ موضوع من موضوعاته، لذلك عدّ كتابه " الأول من نوعه وبابه في المكتبة الإسلامية " [23]. والظاهر من خلال هذا الكتاب أنّ الكرماني اعتمد على ذكائه الخاص في المسائل التي أوردها ولم يكن منها ما نقله عن غيره إلاّ بضع مسائل عقّب عليها برأيه الشخصي ولم يكتف بها، فقد ترجم له ياقوت الحموي في معجمه فقال عنه: " أحد العلماء الفهماء النبلاء، صاحب التّصانيف والفضل، كان عجبًا في دقّة الفهم وحسن الاستنباط ،لم يفارق وطنه ولم يرحل، وكان في حدود الخمسمائة وتوفي بعدها، صنّف لباب التفسير وعجائب التأويل، والإيجاز في النحو، والنظامي في النحو، والإشارة والعنوان في النحو ".[24]

وقد حدّد الكرماني منهجه في الكتاب منذ البداية فقال في مقدمته: " هذا كتاب أذكر فيه الآيات المتشابهات التي تكرّرت في القرآن وألفاظها متّفقة ، لكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان ،أو تقديم أو تأخير ، أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك ممّا يوجب اختلافا بين الآيتين ، أو الآيات التي تكرّرت من غير زيادة ولا نقصان ، وأبيّن ما السبب في تكرارها والفائدة في إعادتها ، وما الموجب للزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير والإبدال ، وما الحكمة في تخصيص الآية بذلك دون الأخرى ، وهل كان يصلح ما في هذه السورة مكان ما في السورة التي تشاكلها أم لا ؟ ليجري ذلك مجرى علامات تزيل إشكالها وتمتاز بها عن أشكالها ".[25]

وإذا كانت نظرية النظم فحواها المناسبة التامة بين التركيب والسياق الذي ورد فيه ، فإن هذا المبدأ يتجلّى أكثر من خلال المقارنة التي توفّرها المتشابهات في القرآن الكريم ، والآلية التي تسمح بدراسة هذه المتشابهات دراسة تجلّي ما لاستعمالاتها المختلفة من دلالات وأسرار هي السياق ، وفيما يأتي نماذج تكشف عن منهج الكرماني السياقي من خلال كتابه البرهان في توجيه متشابه القرآن ، وقد قسمنا الظواهر التي تندرج ضمنها هذه النماذج إلى قسمين:ظواهر إفرادية وظواهر تركيبية.

أولا: الظواهر الإفرادية

نقصد بالظواهر الإفرادية ، العناصر اللّغويّة التي تؤدّي إحدى الوظائف الصّرفية أوالمعجمية ؛ حيث ترد في تركيبين متشابهين بصورتين مختلفتين. ومن هذه العناصر: الأداة ، والصّيغة ، والعدد ، والتّعيين ، والنّوع ، وإبدال فعل بفعل ، أو إبدال اسم باسم ، أو إبدال اسم بضمير.

1-الأداة

هي حروف المعاني على اختلافها ، وأكثر ما جاء منها حروف العطف ، ومن أمثلتها أن يرد التركيب في موضع بحرف الفاء و في موضع آخر بحرف الواو كما في: قوله تعالى:" **فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾**" ((الكهف: من الآية61)، وقوله تعالى:" **قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾** " (الكهف: من الآية63) .

فقد عطفت جملة (فاتخذ سبيله) في الآية الأولى بالفاء التي تفيد معنى التّرتيب والتعقيب ، بينما عطفت في الآية الثّانية بالواو التي أفادت معنى التّرتيب وحسب.

ويرى الكرماني أنّ ورود الواو في الآية الثانية كان بسبب الحائل الذي وقع بين جملتي (فإني نسيت الحوت) و (واتخذ سبيله) ، وهو قوله: " **وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾** " (الكهف: من الآية63) ، الذي زال معه معنى التعقيب ، فكان العطف بالواو أولى [26] ، حيث قال تعالى: :" **قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾** " (الكهف:63) . فالسياق في الآية هو القرينة التي من أجلها كان الاختلاف في استعمال الحرفين.

2-الصيغة

ونعني بها الهيئة التي يكون عليها اللفظ اسمًا كان أم فعلًا ، وهي أحد الاختلافات الظّاهرة بين الآيات المتشابهة ، فقد يرد اللّفظ في موضع ما بصيغة ويرد في موضع آخر بصيغة مختلفة بحسب ما تقتضيه قرائن السياق. فممّا اختلفت صيغة الفعل فيه قوله تعالى: "**فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾** " (الأعراف: من الآية64)، وقوله تعالى:" **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾** " (يونس: من الآية73) .

حيث إنّ الفعل الثلاثي(نجا) ورد بصيغة(أنجينا) على وزن أفعلنا في الآية الأولى ، بينما جاء في الآية الثانية (نجّينا) على وزن فعّلنا وكلا هما للتّعدية ، وفي هذا يقول الكرماني: "...التّشديد يدلّ على الكثرة والمبالغة ، فكان في يونس (ومن معه) ولفظ (من) يقع على كثرة ممّا يقع عليه (الذين)، لأنّ (من) يصلح للواحد والتثنية والجمع والمذكر والمؤنث ، بخلاف (الذين) فإنّه لجمع المذكّر وحسب ، فكان التّشديد مع (من) أليق " [27] .

3- **العدد**

نقصد بالعدد هنا الإفراد والتثنية والجمع ، فقد يُستعمل اللّفظ مفردًا في موضع ويستعمل في موضع آخر مثنّى أو جمعا ، وفي كلّ ذلك يكون السياق هو المؤثر ، ومن أمثلته ما جاء في:

قوله تعالى في قصة صالح-عليه السلام -:"فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ " (الأعراف: من الآية79) ، وقوله تعالى في قصة شعيب-عليه السلام- :" فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ " (الأعراف: من الآية93).

فقد أفرد الله تعالى لفظ (الرسالة) مع صالح وجمعها مع شعيب فقال:(رسالات)، ويرى الكرماني أنّ تخصيص الآية الأولى باللّفظ المفرد، قرينته تقدّم ذكر النّاقة في السورة، فصارت كأنّها رسالة واحدة [28] وذلك في قوله تعالى:" وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ " (الأعراف: من الآية73)، أي: رسالة من ربّكم، وهذه القرينة التي تقدّمت الآية هي ما اقتضى إفراد لفظ الرسالة، أمّا جمعه في الآية الثانية، فقرينتُه هي كثرة ما ذكره شعيب- عليه السلام- لقومه من الأوامر والنّواهي وتبليغها لهم، فصارت هذه كأنّها رسالات [29] ، ويعرف ذلك من قوله تعالى:" فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ " (الشعراء:179) إلى قوله: "وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ " (الشعراء:184). وهذه القرينة كذلك متقدّمة اقتضت جمع اللفظ، فاختلاف هاتين القرينتين هو الذي أدّى إلى اختلاف السياقين.

4- التعيين

يراد بالتّعيين تعريف الأسماء وتنكيرها، وهو في الآيات المتشابهة أن يرد اللفظ معرّفا في آية منها ومنكّرا في آية أخرى، ومن أمثلته: قوله تعالى:" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾" (الصف: من الآية7)، وقوله تعالى:" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ "(الأنعام: من الآية93).

فعرّف اللّفظ في الآية الأولى (الكذب) ونكّره في الآية الثانية، ويرجع تخصيص سورة الصّف بالتعريف لما فيها من إشارة إلى ما تقدّم من قول اليهود والنّصارى [30] ، وهو جعْلُهم البيّنات سحرًا، أي إلى ما تقدّم في سياق الآية حيث قال تعالى عنهم:" وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ " (الصف: من الآية6) ، فقولهم: (هذا سحر مبين) هو كذب منهم، ولماّ تقدّم ما دلّ عليه صار هذا (الكذب) معلومًا ولهذا عرّف في الآية.

5-النوع

المقصود به تذكير الأسماء وتأنيثها على وجه العموم، وهو في التّراكيب المتشابهة ما وقع على الفعل والاسم والضمير بحسب السّياق .

فمن أمثلة المتشابهات التي اختلف الفعل فيها تذكيرا وتأنيثا، قوله تعالى:" وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ " (هود:67) ، وقوله تعالى:" وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ " (هود: من الآية94).

فالأوّل لم ترد فيه تاء التّأنيث بينما وردت في الثّاني، والتّذكير أخفّ على اللّسان في النّطق، غير أنّ تأنيث الفعل في الآية الثّانية إنّما حصل ليوافق ما بعدها [31] وهو قوله تعالى:" كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ "(هود: من الآية95)، أي أنّ هناك نوعا من التّجانس والتّشاكل بين (أخذت) و(بعدت)، وهو القرينة الدّالة على سبب الاختلاف.

6-إبدال فعل بفعل

من الظّواهر التي تعتمد على السّياق أن يرد التّركيب في موضع ما بفعل، ويرد في موضع آخر شبيه به بفعل قريبٍ منه دلاليا أو مختلفٍ عنه تماما، ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى:" ۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ " (البقرة: من الآية60) ، وقوله تعالى: "وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾" (الأعراف: من الآية160) .

فقد يظهر لنا للوهلة أنّ الانبجاس مرادف للانفجار، لكنّ الأصل فيهما غير ذلك، وهذا لا يعني أنّ هناك تناقضًا بين التركيبين، وإنما السّرّ في الاختلاف بينهما يتّضح من الاطّلاع على سياق الآيتين في كلتا السورتين، فالتّركيب في سورة البقرة تلاه قوله تعالى:" كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ "(البقرة: من الآية60)، والتّركيب في سورة آل عمران تلاه قوله تعالى: "كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ " (الأعراف:من الآية160)، ويرى الكرماني أنّه لماّ جُمع بين الأكل والشّرب في السّياق الأوّل ناسب ذلك ذكر الانفجار من بعد وهو الأبلغ، ومعناه انصباب الماء بكثرة، ولم يكن كذلك في السّياق الثاني حيث اقتصر على لفظ الأكل، وهذا ناسبه ذكر الانبجاس ومعناه ظهور الماء [32] ، فالفرق بين السّياقين واضح وكلّ تعبير في الآيتين إنّما جاء لقرينة لاحقة في كلّ منهما.

7- إبدال اسم باسم

قد تختلف التّراكيب المتشابهة في استعمال الأسماء بإبدال لفظ منها مكان الآخر، وإذا تأمّلنا هذا الاختلاف وجدناه أمرًا مقصودًا لا تناقض فيه، ويستند في تعليله إلى قرائن السّياق، ومن أمثلة هذا النّوع ما جاء في قوله تعالى: (قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ) (آل عمران: من الآية47) ، وقوله تعالى: (قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ) (مريم: من الآية20).

حيث أبدل لفظ (ولد) في سورة آل عمران بـ(غلام) في سورة مريم، وإنّما يرجع سبب هذا الاختلاف بين الآيتين إلى أنّ الأولى تقدّمها ذكر (المسيح) ولد مريم ــعليهما السلامــ، أمّا الثّانية فتقدّمها ذكر (الغلام) [33].

فقد جاء في آل عمران قوله تعالى:" إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥" (آل عمران:45)، وجاء في مريم قوله:" قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ " (مريم:19) ، فكلّ لفظ ناسب مكانه.

8- إبدال اسم بضمير

ونعني به استعمال الاسم ظاهرا في موضع ومضمرا في موضع آخر شبيه به، كأن يرد الفاعل مثلا في تركيبين متشابهين اسما ظاهرا في أحدهما ومضمرا في الآخر، وذلك بحسب ما يقتضيه السّياق كما في، قوله تعالى:" تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٠١" (الأعراف: من الآية101) ، وقوله تعالى:" ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٧٤ "(يونس: من الآية74) .

فقد أسند (الطّبع) في آية الأعراف إلى ذات الله تعالى، أي أنّ الفاعل هنا اسم ظاهر هو لفظ الجلالة (الله)، بينما أسند في آية يونس إلى ضمير المتكلّم بصيغة الجمع للتّعظيم، وهذا الاختلاف يفسّره السّياق في كلتا السّورتين.

ففي آية الأعراف تقدّم ذكر (الله) بالكناية قبلها فاستدعى ذلك ذكره بالصّريح في ختامها[34] فقال:" أَوَ لَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝١٠٠" (الأعراف: من الآية100)، ثمّ قال بعدها:" كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ " (الأعراف: من الآية101)، أمّا آية يونس فإنّ الأمر فيها مبنيّ على ما جاء فيها وفي الآية قبلها[35]، فالأفعال فيه مُسنَدَةٌ إلى ضمير المتكلّم بصيغة الجمع، وذلك في قوله تعالى:" فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ۝٧٣" (يونس: من الآية73)، وقوله :" ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٧٥ " (يونس: من الآية75)، وبهذا اتّضح الفرق بين السّياقين اللّذين تطلّب كلّ منهما بنية خاصة ضمن التركيب.

9- اختلاف الفاصلة

من المعلوم أنّ الآية القرآنية تنتهي بفاصلة تنسجم موسيقيّا وباقي فواصل الآيات الأخرى في السّورة، وهذه ميزة واضحة في القرآن الكريم، والفاصلة من الكلمات التي قد يقع الاختلاف فيها بين الآيات المتشابهة في السورة الواحدة أو في سور متباينة حيث تكون الآية مختومة في موضع بلفظ يختلف عنه في موضع آخر على الرغم من تشابه التركيب. وإذا كان الانسجام الموسيقيّ أو الصّوتيّ ممّا قد يؤثّر في نوع الألفاظ الفواصل، فإنّ السّياق بصفة عامة هو ما يستدعي ويفسّر الاختلاف بين هذه الألفاظ، ومن أمثلة اختلاف الفاصلة في تركيبين متشابهين ما جاء في قوله تعالى: "لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ۝١٣ " (الحشر: من

الآية13)، وقوله تعالى:" ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ" (الحشر: من الآية14).

فقد قال في الأول: (لا يفقهون) وقال بعده (لا يعقلون)، ولاشكّ أنّ خاتمة كلّ من الآيتين تنسجم موسيقيّا مع خواتم الآيات الأخرى في هذه السّورة، لكنّ السّياق أيضا يقتضي الفاصلة التي فُصِلت بها كلّ آية، ذلك أنّ الفاصلة الأولى متّصلة بقوله تعالى قبلها في آيتها :" لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ" (الحشر: من الآية13)، والمعنى: أنّ خوف هؤلاء المنافقين من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- أشدّ من خوفهم من الله تعالى، فهم يرون ظاهر الشّيء من دون باطنه فلا يفقهونه، والفقه معرفة الظّاهر والباطن [36]، فناسب ذلك نفي الفقه عنهم، و" نفي فهمهم وانسلاخهم عن النّظر والتّدبّر والتّوفيق " [37].

أما الفاصلة الثانية فمتّصلة بقوله تعالى قبلها في آيتها وهو:" تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ " (الحشر: من الآية 14)، أي أنّهم: " لو عقلوا لاجتمعوا على الحقّ ولم يتفرّقوا " [38]، فهم لا يثبتون على شيء، وليس عندهم قانون يقفون عنده ويرتبطون إليه فقال تعالى: (ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ)، والعقل مشتقّ من قولهم: عَقَلتُ البعير إذا ربطته بعقال وهو الحبل، فلمّا نُفي عنهم الارتباط مع وصفهم بشتات القلوب أخبر الله تعالى أنّ سبب ذلك أنّهم لا يعقلون [39]، فناسبت هذه الفاصلة الآية التي خُتمت بها.

ثانيا: الظواهر التركيبية

1-التقديم والتأخير

ظاهرتا التّقديم والتّأخير من الظواهر الّتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياق، فتقديم لفظ (أو مجموعة ألفاظ) وتأخيره في موضع آخر لا يأتي إلاّ لغرض في الكلام، وهذا الغرض تدلّ عليه قرائن قد تكون مقالية وهي تمثّل السياق اللّغوي، أو تكون قرائن حالية وتمثّل سياق الحال أو المقام. وفيما يأتي نعرض نماذج للتقديم والتأخير في ألفاظ التّراكيب القرآنية المتشابهة، وكيف أنّ السّياق ــ بنوعيه ــ يساهم بشكل واضح في تفسير ذلك، وسنبدأ بالنّوع الأوّل وهو السياق اللّغوي.

1/1-السياق اللغوي

أ -تقديم كلمة على كلمة

من أمثلة المتشابهات التي يتحكّم السياق اللّغوي في بيان سرّ ترتيب بنيتها، نجد تقديم المفعول في آية وتأخيره في أخرى كما في، قوله تعالى:" لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ " (المؤمنون: من الآية83)، وقوله تعالى:" لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ " (النمل: من الآية 68).

فالألفاظ واحدة في كلا التّركيبين غير أنّ ترتيبها يختلف، وذلك لأنّ ما في سورة (المؤمنون) قد جاء "على القياس، فإنّ الضّمير المرفوع المتّصل لا يجوز العطف عليه حتّى يؤكّد بالمنفصل، فأكّد (وعدنا نحن) ثمّ عطف عليه (آباؤنا)، ثمّ ذكر المفعول وهو (هذا)، وقدّم في (النمل) المفعول موافقة لقوله:" وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ " (النمل:67) ، لأنّ القياس فيه أيضا: كنّا نحن وآباؤنا ترابا، فقدّم (ترابا) ليسدّ مسد (نحن) " [40].

ب -تقديم كلمة على شبه الجملة

قال تعالى:" وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ " (النحل: من الآية14).

وقال تعالى:" وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ " (فاطر: من الآية12).

فألفاظ الآية الأولى جاء ترتيبها على القياس؛ الفعل، والفاعل، والمفعول الأول، والمفعول الثاني، ثمّ الجارّ والمجرور، غير أنّ هذين (أي الجار والمجرور) قد تقدّما المفعول الثاني في الآية الثانية. ويستدل الكرماني في بيان سبب التّقديم بما ورد في السياق وهو قوله تعالى:" وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا" (فاطر: من الآية12)، فقد وافق تقدّم الجار والمجرور فيها تقدّمهما فيما بعد في الآية ذاتها [41]، أي أنّ تقدّم شبه الجملة (من كلّ) على الفعل (تأكلون) هنا قرينة تدّل على سبب تقدّم شبه الجملة (فيه مواخر) على المفعول هناك.

أمّا تقديمه هو (أي المفعول) على شبه الجملة في آية النحل، فيذكر ابن جماعة أنّه لمّا امتنّ الله تعالى على النّاس بتسخير البحر في الآية نفسها، ناسب ذلك تقديم (مواخر) ومعناها: شاقّة للماء، وأيضا ليَليَ المفعول الثّاني المفعول الأوّل لـ(ترى)، فإنّه أولى من تقديم الظّرف أو شبه الجملة [42].

إنّ القرينة التي تضمّنها السياق في التّعليل كانت في سياق الآية نفسها، أي أنّها مجاورة للوحدات المراد بيان سبب تقدّها مجاورة قريبة .

ج – تقديم شبه الجملة على شبه الجملة

لا يقتصر التقديم والتأخير في المتشابهات على الألفاظ وحسب، بل إنّ الأمر يمتدّ إلى الجمل وأشباهها، فقد يتقدّم في تركيب ما شبه جملة على آخر، ويتأخّر عنه في تركيب مشابه، وكذلك الحال بالنّسبة إلى الجملة، ولكنّ قرائن السّياق تبقى -دائما- هي الفيصل في تفسير علّة التّقديم أو التّأخير أو كليهما معًا، ففي قوله تعالى:" **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** " (الأنفال:من الآية72)، وقوله تعالى:" **ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ** " (التوبة: من الآية20).

وبالاعتماد على ما تمليه قرائن السياق يعلّل الكرماني سبب التقديم في السورة الأولى بأنها قد تقدّم فيها ذكر المال والفداء والغنيمة [43] وذلك في قوله تعالى:"**تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا**" (الأنفال: من الآية67)، وقوله تعالى:" **لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾** " (الأنفال: من الآية 68)، وقوله تعالى :" **فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾** " (الأنفال: من الآية69)، فناسب هذا تقديم إنفاق الأموال في سبيل الله، أما في سورة التوبة فقد تقدّم قوله: (في سبيل الله) على قوله: (بأموالهم) لأنّ ذكر الجهاد قُدّم قبلُ في السورة [44] ، وذلك في قوله تعالى:" **وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ** "(التوبة: من الآية 16)، وقوله: " **كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ** "(التوبة: من الآية19) . فتقدّم ذكر الجهاد في هاتين الآيتين ناسبه تقدّم ذكر الجهاد في الآية بعدها.

د – تقديم جملة على جملة

في قوله تعالى:" **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ** " (آل عمران: من الآية40)، وقوله تعالى:" **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾** " (مريم:8)، تقدّمت جملة (بلغني الكبر) في الآية الأولى على جملة (امرأتي عاقر)، بينما وقع خلاف ذلك في الآية الثانية، والسّبب أنّه " في مريم قد تقدّم ذكر الكبر في قوله:" **وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي** " (مريم: من الآية4)، وتأخّر ذكر المرأة في قوله:" **وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ﴿٥﴾**" (مريم: من الآية5)، ثمّ أعاد ذكرها فأخّر ذكر (الكبر) ليوافق (عتيا) ما بعده من الآيات وهي (سويا)،و(عشيا)، و(صبيا) " [45] .

2-1: سياق الحال (المقام)

يشكّل سياق الحال (أو المقام) بعناصره المختلفة وسيلة هامة في معرفة معاني الآيات ودلالاتها، وعليه فإنه يُعتمد في تعليل بنية التراكيب المتشابهة ووضع كل تركيب منها في سياقه الصحيح. وأبرز عناصر المقام الّتي ظهرت لدينا ههنا في مبحث التقديم والتأخير عنصرا المخاطَب وأسباب النزول.

أ_ المخاطَب

من أمثلته قوله تعالى:" **۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٣٥﴾** " (النساء: من الآية135) ، وقوله تعالى:" **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾** " (المائدة: من الآية8) .

بالتركيز على شبه الجملة من الجارّ والمجرور (لله) الّذي تأخّر في الآية الأولى وتقدّم في الآية الثانية يعلّل الكرماني بأنّ (لله) في الأولى " متّصل ومتعلّق بالشّهادة بدليل قوله:" **وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ** " (النساء: من الآية135)، أي: ولو تشهدون عليهم، وفي (المائدة) منفصل ومتّصل بقوامين، والخطاب للولاة بدليل قوله:" **وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ** " (المائدة: من الآية8) " [46] . فيكون الخطاب في آية (المائدة) موجّها إلى الولاة - وهم المخاطبون- جاءت بنية التّركيب فيها بتقديم الجار والمجرور (لله)، أمّا آية (النّساء) فيُفهم من خلال ما تقدّم فيها من آيات أنّ الخطاب موجّه إلى فئة من النّاس غير الولاة وهم الأزواج. فاختلاف المخاطبين - إذن- قرينة حالية أثّرت في بنية كلا التّركيبين.

ب -أسباب النّزول

لاشكّ أنّ أسباب النّزول على- تنوّعها- تعين على فهم الآيات والمراد منها، وعليه فإن معرفتها ضروريّة، وهذا سيؤدّي -حتما- إلى الوقوف على أسرار جمّة في بُنى التّراكيب

القرآنية بشكل عام، والمتشابهات منها بشكل خاصّ . ولمعرفة أثر هذه الأسباب في التقديم والتأخير نذكر بعض الأمثلة:

في قوله تعالى: " فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ " (البقرة: من الآية284).

وقوله تعالى :" يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ " (آل عمران: من الآية129).

وقوله تعالى : "وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ " (المائدة: من الآية18) .

وقوله تعالى: " يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ " (المائدة: من الآية40) .

نلاحظ أنّ جميع هذه الآيات تقدّم فيها لفظ المغفرة على لفظ العذاب ما عدا الآية الأخيرة من سورة المائدة ، وذلك " لأنّها نزلت في حقّ...السّارق والسّارقة ، وعذابهما يقع في الدّنيا " [47] بدليل قوله تعالى:" وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ " (المائدة: من الآية38)، وقوله: (فاقطعوا) صيغة أمر تقتضي وقوع العذاب في الدّنيا.

فسبب النّزول هنا تعلّق بحكم شرعيّ وهو إقامة الحدّ على السّارق ، وعلى هذا فهو قرينة تقدّم بسببها لفظ العذاب على لفظ المغفرة .

2-الحذف والذكر

يعدّ الحذف والذّكر في المتشابهات من بين الظّواهر الّتي يتجلّى فيها أثر السّياق بوضوح فحذف جزء من الخطاب في تركيب وذكره في تركيب مشابه إنّما يكون في الحالين موافقا للسياق ، ولذلك وجدنا الكرماني يستند في تعليل الظاهرة إلى قرائن - سياقية أو حالية - وسواء في ذلك أكان العنصر المحذوف حرفا ، أم كلمة ، أم شبه جملة ، أم جملة ، وبذلك يمكن الحديث عن نوعين من السّياق.

2-1: السياق اللغوي

أ -**حذف حرف:** في قوله تعالى: " إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ " (الأنعام: من الآية165)، وقوله تعالى: " إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ " (الأعراف: من الآية167).

نلاحظ اقتران الخبر (سريع) بلام التّوكيد في سورة الأعراف وسبب هذا الاختلاف كما - يقول الكرماني- هو ما تقدّم في الآية [48] ، حيث وقعت بعد قوله تعالى:" وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ " (الأعراف: من الآية165)، وقوله تعالى:" كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ " (الأعراف: من الآية166).

فهاتان الآيتان ورد فيهما ذكر العذاب والعقاب الذي أخذ الله به القوم ، فناسب ذلك توكيد الخبر (سريع العقاب) باللّام.

ب- حذف كلمة

قد تكون الكلمة المحذوفة اسما ظاهرًا وقد تكون ضميرًا ، من ذلك قوله تعالى:" وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ " ((لقمان: من الآية14)، وقوله تعالى:" وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ " (العنكبوت: من الآية8) .

نلاحظ أن كلمة (حُسنا) المذكورة في الآية الثانية حُذفت في الأولى ، ويعلّل الكرماني سبب الحذف بما ورد في سياق الآية ذاتها في قوله تعالى:" أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ " (لقمان: من الآية14)، الذي تضمّن معنى الإحسان فقام هذا المعنى مقام ما حذف [49] وكان قرينة تدلّ على ذلك ، أمّا آية العنكبوت فقد تقدّمها قوله تعالى:"وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ" (العنكبوت: من الآية7)، " وبرّ الوالدين من أحسن الأعمال ، فناسب ذكر الإحسان إليهما " [50] .

ج- حذف شبه جملة (الجار والمجرور)

قد يكون الاسم المجرور المحذوف مع الجارّ ظاهرا ، وقد يكون مضمرا ، من ذلك قوله تعالى: " وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ " (الإسراء: من الآية41)، وقوله تعالى:" وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ " (الإسراء: من الآية89) .

فالأول حُذف منه شبه الجملة من الجار و المجرور وهو (للنّاس) بينما ذُكر في الثاني ، وسبب الاختلاف بينهما أنّ الحذف برّره تقدّم ذكر (النّاس) في السورة ، أمّا الآية الثانية فسبب ورود شبه الجملة (للنّاس) فيها هو عدم ذكرهم قبلها [51] .

د - حذف جملة

قد تحذف الجملة كما في قوله تعالى:" وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ " (الإسراء: من الآية94)، وقوله تعالى:" وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ " (الكهف: من الآية55). فجملة (وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ) المذكورة في سورة الكهف حُذفت في سورة الإسراء ، وبالرجوع إلى سياق

كلّ آية نجد أن التّركيب الأوّل اتّصل بقوله تعالى:" **أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا** " (الإسراء: من الآية94)، أمّا التركيب الآخر فاتّصل بقوله تعالى:" **إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلًا** " (الكهف: من الآية55)، فكلتا الآيتين تضمّنت مانعًا من الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم- ، واختلاف المانعين هو الذي أدّى إلى الحذف في السورة الأولى و الذكر في السورة الثانية [52].

2/2 - سياق الحال (المقام)

تتعدّد عناصر المقام في مبحث الحذف والذكر فتجد منها:

أ- **المخاطَب:** من ذلك : قوله تعالى:" **وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ** " (الزمر: من الآية71).

وقوله تعالى:" **وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ** " (الزمر: من الآية73)

فنلاحظ أنّ الآية الأولى وردت فيها جملة (**حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا**) من دون واو، بينما وردت في الآية التي بعدها بذكر الواو وهي واو الحال، أي جاؤوها وقد فتّحت أبوابها [53] ، وبالرّجوع إلى ما جاء في كلّ آية نجد أنّ الخطاب في الأولى هو عن الكفار، وهم يأتون جهنّم وبابها مغلق حتّى إذا وقفوا عنده فُتح في وجوههم فجأة ليكون ذلك أشّد عليهم، بينما الخطاب في الآية التالية لها هو عن المؤمنين المتّقين الذين يأتون الجنّة وقد فُتحت أبوابها لهم قبل مجيئهم إليها استعدادا لاستقبالهم، فيكون ذلك إكرامًا لهم و إدخالاً للسّرور على قلوبهم[54].

ب- أسباب النزول

في قوله تعالى:" **وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ** " (النحل: من الآية127).

وقوله تعالى:"**وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ** " (النمل:70).

نلاحظ إثبات نون (تكن) في سورة النمل، بينما هي محذوفة في سورة النحل، وقد وقع مثل هذا الحذف في عدة مواضع من القرآن الكريم.

ويرجع تخصيص سورة النحل بالحذف دون سورة النمل - فيما يذهب إليه الكرماني - إلى أنّ " الآية نزلت تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم- حين قُتل عمّه حمزة ومثّل به فقال - عليه الصلاة والسلام-: "لأفعلن بهم ولأصنعنّ"، فأنزل الله:" **وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧** "(النحل:126، 127)، فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التّسلّي، وجاء في النّمل على القياس لأنّ الحزن هنا دون الحزن هناك"[55]، أي أن سياق الحال في الآيتين مختلف.

ج-الموقف

إن التّركيز على الهيئة التي يكون عليها المخاطَب أو المتكلّم، وما يكون من حاله في أثناء توجيه الخطاب من الأمور التي تعين على معرفة سرّ اختلاف المتشابهات، وهو يدخل ضمن قرائن الحال كما ذكرنا.

ومن التراكيب التي اختلفت بنياتها لاختلاف المواقف قوله تعالى:" **وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣** " (الشورى:43)، وقوله تعالى:" **وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ** " (لقمان: من الآية17).

فكلتا الآيتين تحثّ على الصّبر ويكاد يكون التركيب واحدا في قوله تعالى:" **إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ** "، غير أنّ هذا جاء بذكر اللّام المقترنة بالخبر في سورة الشورى، أمّا في سورة لقمان فقد وقع خلاف ذلك، وعلة ذلك أن الصبر نوعان : صبر على مكروه ينال الإنسان ظلمًا كمن قُتل بعض أعزّته، وصبرٌ على مكروه ينال الإنسان ليس بظلم كمن مات بعض أعزّته، فالصبر على الأول أشدّ والعزم عليه أوكد، ولذلك حسُن دخول اللاّم فيها، بينما الصّبر في سورة لقمان هو من النّوع الثاني، لذلك حذفت اللّام منها. فنحن - إذن- أمام موقفين مختلفين للصبر، وهذا الاختلاف هو الذي أثّر في بنية كلّ تركيب.

خاتمة

– لقد حقّق الأصوليون وعلماء التفسير السّبق في الاهتمام بالسياق والاستعانة به وسيلةً هامّةً من وسائل الكشف عن دلالة الألفاظ وأسرارها في القرآن الكريم، وذلك من خلال ملاحظة المناسبة بين مضامين الآيات ضمن السورة مع تحليلها نصّيًا وفق الاعتبارات الداخلية النصّيّة من جهة، وبحسب الاعتبارات الخارجية وقرائن الأحوال كأسباب

النزول وعلاقة الخطاب بالمخاطبين وغير ذلك من العوامل والملابسات.

– شكّل المقام بعناصره المختلفة وسيلة مثلى لدى الأصوليين والمفسرين في توجيه معاني الآيات ودلالاتها، وفي تعليل بنية التراكيب المتشابهة ووضع كل منها في سياقه الصحيح، وقد برز أثر أسباب النزول في الوقوف على أسرار البنى والتراكيب لا سيما المتشابه منها.

– كان الإمام الكرماني يصدر عن منهج واضح في التعامل مع الآيات والتّراكيب القرآنية المتشابهة، حيث اعتمد المنهج السّياقي في تعليل ما بينها من فروق؛ والكشف عن دلالات الألفاظ وأسرارها في الاستعمال القرآني.

– برزت مظاهر المنهج السياقي عند الكرماني في توجيه الآيات والتراكيب المتشابهة من خلال تحليله وتعليله لأسباب الاختلاف الصرفي والدلالي والتركيبي بين المتشابهات:

– فقد يرد اللفظ في موضع بصيغة ويرد في موضع آخر بصيغة مختلفة، فيعلل ذلك بالنظر إلى السياق الذي وردت فيه تلك الألفاظ، ومراعاة القرائن السابقة واللاحقة.

– قد يستعمل اللفظ مفردا في موضع ومثنى أو جمعا في موضع مشابه، ومرجع ذلك إلى اختلاف القرائن السياقية. وهذه القرائن تسهم بقدر كبير في تجلية أسباب الاختلاف بين الألفاظ ضمن التراكيب المتشابهة.

– لقرائن السياق أهمية بالغة في بيان سبب الاختلاف بين المتشابهات من حيث تعريف الألفاظ وتنكيرها، ومن حيث نوع التعريف وطرائقه، وهذه القرائن قد تكون ضمن السورة الواحدة، وقد تمتد إلى ما هو خارج السورة.

– تكون القرائن المعتمدة في تعليل اختلاف التراكيب المتشابهة ضمن ذات الآية التي احتوت التركيب في الغالب، وذلك بأن تكون بنية التركيب توافق ما جاء في الآية التي تحتويه، إما عن طريق المشاكلة اللفظية، وإما عن طريق المناسبة المعنوية.

– إن السياق العام في كل سورة يضفي عليها سمة تعبيرية خاصة تختار من أجلها هذه اللفظة أو تلك، وبذلك فإن السورة الواحدة هي سياق ذاتها؛ بحيث تدل على سر اختيار لفظة فيها دون غيرها.

– قد يرد التركيب في موضع ما بفعل ويرد في موضع مشابه بفعل قريب منه دلاليا أو مختلف عنه تماما، كما أن التراكيب المتشابهة قد تختلف في استعمال الأسماء بإبدال لفظ منها مكان الآخر، وقد استند الكرماني في تعليل هذه الاختلافات إلى السياق.

– قد يستعمل الاسم ظاهرا في موضع ومضمرا في سياق مشابه، وبتتبعنا لتعليل هذا الاختلاف عند الكرماني نجد أن التراكيب المتشابهة مبنية على المماثلة بين ما ورد في سياقها، فإذا أظهر اللفظ فإن ذلك يكون موافقا لإظهاره من قبل، وإذا أضمر فلموافقة إضمار ضمن السياق كذلك، استنادا إلى مبدأ المشاكلة.

– ظاهرة التقديم والتأخير من الظواهر ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياق، فتقديم لفظ أو (مجموعة ألفاظ) في موضع وتأخيره في موضع آخر لا يأتي إلا لغرض في الكلام، وهذا الغرض تدلّ عليه القرائن المقالية التي يتضمنها السياق اللّغوي، وتكون لها قيمة كبيرة في تعليل سبب التقديم والتأخير في بنى التراكيب القرآنية المتشابهة، سواء أكان التقديم والتأخير واقعين بين الألفاظ المفردة أم بين الجمل المركّبة.

– كان الحذف والذكر من بين الظواهر التي تجلى فيها أثر السياق بوضوح لدى الكرماني، فحذف جزء من الخطاب في تركيب وذكره في تركيب مشابه إنما يكون في الحالين موافقا للسياق من وجه على الأقل، وقد كان الكرماني يستند في تعليل الظاهرة إلى قرائن سياقية أو حالية، سواء أكان العنصر المحذوف حرفا أم كلمة أم شبه جملة أم جملة.

وبناءً على ما تقدّم، فإنّ المتشابهات القرآنية تعدّ المظهر الأبرز الذي تتجلّى فيه تطبيقات النظرية السياقية، وإن اختلاف هذه المتشابهات في الألفاظ المستعملة ليؤكّد انتفاء التّرادف في القرآن الكريم، إذ أنّ كلّ كلمة منه تؤدي معنى دقيقا محكما، وتناسب سياقها الذي وُضعت فيه، وهذا هو أساس الإعجاز البياني للقرآن.

الهوامش

1. ابن منظور محمد بن مكرم بن علي ، (دت) ، **لسان العرب** ، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين ، دار المعارف ، (دط) ، القاهرة ، مادة (سوق).
2. الجوهري إسماعيل بن حماد ، (دت) ، **تاج اللغة وصحاح العربية** ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، (دط) ، بيروت ، مادة (سوق).
3. الزمخشري جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، (دت) ، **أساس البلاغة** ، تحقيق: عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ،د ط ، بيروت ، لبنان ، مادة (سوق) ، ص 225 و ما بعدها.
4. Philippe Amiel dictionnaire du français USBN Paris 1995 , p236
5. Jean Dubois et autres , dictionnaire de linguistique , p120.
6. ابن جني أبو الفتح عثمان ، (دت) ، **الخصائص** ، تحقيق: محمد علي النّجار ، دار الكتاب العربي ، د ط ، بيروت ، لبنان ، ج1 ، ص248.
7. ينظر: العسكري أبو هلال ،1988 ، **كتاب جمهرة الأمثال** ، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم وعبد الحميد قطامش ، دار الفكر ، ط2 ، بيروت ، ص5.
8. المبارك محمد ، 1932هـ-1972م ، **فقه اللّغة وخصائص العربية** ، دار الفكر ، ط5 ، بيروت ، ص 164.
9. ابن الأنباري أبو البركات عبد الرّحمن محمد ، (دت) ، **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النّحويين والبصريين** ، دار الفكر ، (دط) ، دمشق ، ج1 ، ص93.
10. ابن جني ، **الخصائص** ، ج2 ، ص370 ، 371.
11. توامة عبد الجبار ، 1994/ 1995م ، **القرائن المعنوية في النّحو العربي** ، رسالة دكتوراه دولة ، جامعة الجزائر ، ص53.
12. الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر ، 1423هـ ـ2003م ، **البيان والتبيين** ، تحقيق: درويش جويدي ، (دط) ، المكتبة العصرية ، صيدا ـ بيروت ، ج1 ،ص79.
13. الجرجاني عبد القاهر ، (دت) ، **دلائل الإعجاز** ، تحقيق: محمد رضوان مهنا ، (دط) ، مكتبة الإيمان ، المنصورة ـ مصر ، ص82.
14. ينظر: الغزالي أبو حامد ، 1323هـ ، **المستصفى في علم الأصول** ، المطبعة الأميرية ، بولاق ، ج2 ، ص41 ، 42.
15. السيوطي جلال الدين ، 1973م ، **الإتقان في علوم القرآن** ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ج02 ، ص 183.
16. ابن تيمية أحمد ، 1381هـ ، **مقدمة في التّفسير** ، ط 1 ، مطابع الرياض ، السعودية ، ص356.
17. ينظر: محمد فتحي الرّديني ، 1418هـ/ 1997م ، **المناهج الأصولية** ، مؤسسة الرّسالة ، بيروت ، ص107.
18. القنوجي صديق بن حسن ، **أبجد العلوم** ، 1978 م ، تحقيق: عبد الجبّار زكّار ، دار الكتب العلمية ، (دط) ، بيروت ، لبنان ، ج2 ، ص 121.
19. ينظر: السيوطي جلال الدين ، 1425هـ / 2004م ، **الإتقان في علوم القرآن** ، تحقيق: محمد سالم هاشم ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، ص 480.
20. ينظر: الفيروز أبادي مجد الدين بن يعقوب ، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** ، تحقيق: محمد علي النجار ، المكتبة العلمية ، (دط) ، بيروت ، د ت . و ينظر: أبو يحيى زكريا الأنصاري ، 1408 هـ / 1988 م ، **فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن** ، تحقيق:محمد علي الصابوني ، مكتبة رحاب ، ط2 ، الجزائر.
21. الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله ، 1408هـ / 1988م ، **البرهان في علوم القرآن** ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، ج1 ، ص112.
22. الكرماني محمود بن حمزة بن نصر ، 1406هـ / 1986م ، **البرهان في توجيه متشابه القرآن** ، تحقيق: عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، ص 20.
23. الكرماني ، المرجع نفسه ، مقدمة المحقق ، ص 15.
24. الحموي أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ، 1411هـ/ 1991م ، **معجم الأدباء** ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، ج5 ، ص 488 .
25. الكرماني ، **البرهان** ، مقدمة المؤلف ، ص 19 ، 20.
26. ينظر: المرجع نفسه ، ص121.
27. ينظر: المرجع نفسه ، ص77.
28. ينظر: الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 76. وينظر: الثقفي أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، 1403هـ / 1983م ، **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد و التعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل** ، تحقيق: سعيد الفلاح ، دار الغرب الإسلامي ،ط1 ، بيروت ،ج1 ، ص 538 .
29. ينظر: الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 76.
30. ينظر: الكرماني ، المرجع نفسه ، ص184 . وينظر: ابن جماعة بدر الدين ، 1418هـ / 1998م ، **كشف المعاني في متشابه المثاني** ، تحقيق: محمد محمد داود ، ط1 ، دار المنار القاهرة ، ص 194 ، 195.
31. ينظر: الكرماني ، المرجع نفسه ، ص ، 99 . وينظر: ابن الزبير الثقفي ، **ملاك التأويل** ، ج2 ، ص661 ، 660.
32. ينظر: الكرماني ، المرجع نفسه ، ص30.
33. ينظر: المرجع نفسه ، ص 45.

34. ينظر: المرجع نفسه ، ص 80.
35. ينظر: الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 80. وينظر: ابن جماعة ، **كشف المعاني** ، ص 108.
36. ينظر: الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 183 .
37. ابن الزبير الثقفي ، **ملاك التأويل** ، ج2 ، ص 1077.
38. الكرماني ، **البرهان** ، ص 183.
39. ينظر: ابن الزبير الثقفي ، **ملاك التأويل** ، ج2 ، ص 1078.
40. الكرماني ، البرهان ، ص 135 ، 136 .
41. الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 110 . وينظر: ابن الزبير ، **ملاك التأويل** ، ج2 ، ص734 ، 735 .
42. ابن جماعة ، كشف المعاني ، ص 130 .
43. الكرماني ، **البرهان** ، ص 68 . وينظر : ابن جماعة ، **كشف المعاني** ، ص 112.
المرجع نفسه ، ص 86 .
44. المرجع نفسه ، ص 45 .
45. المرجع نفسه ، ص 54 .
46. الكرماني ، المرجع نفسه ، ص43 . وينظر: ابن جماعة ، **كشف المعاني** ، ص 74 ، 75 .
47. الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 70 .
48. الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 147 . وينظر: ابن جماعة ، **كشف المعاني** ، ص 161 ، 162.
49. ابن جماعة ، **كشف المعاني** ، ص 161 .
50. الكرماني ، **البرهان** ، ص 116 .
51. المرجع نفسه ، ص 118.
52. ينظر: المرجع نفسه ، ص 168 .
53. ينظر: ابن جماعة ، **كشف المعاني** ، ص 176 ، 177 .
54. الكرماني ، **البرهان** ، ص 115 .
55. الكرماني ، المرجع نفسه ، ص 172. و ينظر: ابن جماعة ، **كشف المعاني** ، ص 183.

"النقد الثقافي" عند عبد الله الغذّامي "من نقد النصوص إلى نقد الأنساق"

محمد بن سباع*

الملخّص

لقد اشتغل عبد الله الغذامي على تفكيك الثقافة العربية ، مُؤَكِّدًا على أن عُيُوبَهَا ترجع إلى النسق الشعري مُمَثَّلاً في القصيدة ، حيث أَوجَدَ هذا النسق مفهوم الفحل الشعري والطاغية السياسي ، وعمل بالتالي على خلق ثقافة الأنانية وإقصاء الآخر ، وإن فُحُولِ الشعراء العرب أَصنَامٌ يُمَثِلُون هذا النسق الفُحُولِي الذُّكُوري. وعليه فقد أعلن الغذامي عن موت النقد الأدبي ؛ لأنّه يبرر النّصوص الأدبية وطابعها البلاغي الجمالي ، وبالتالي فهو لم يعد مُؤَهَّلاً لكشف الأنساق الثقافية المُضمَرَة التي شَوَّهَت الثقافة العربية ، ليؤكد الغذامي ، على قُدُومِ "النقد الثقافي" كمُخَلِّصٍ للثقافة من سيطرة أنساقها مستعينا في ذلك بالتشريحية لتحليل النصوص وتحريرها من هيمنة ثقافة الحداثة.

الكلمات المفاتيح: النقد الأدبي ، الحداثة ، النقد الثقافي ، الأنساق الثقافية ، التشريحية.

Résumé

Abdellah al-Ghadami affirme quand il dissèque la culture arabe que ses défauts reviennent à système poétique, a savoir, le poème. Il trouvait ce système, le concept du meilleur poète et le politique tyrannique. Du coup, il a créé la culture de l'égoïsme et l'exclusion de l'autre. La plupart des meilleurs poètes arabes ne sont que des marionnettes représentant ce système masculin. Et donc, al-Ghadami annoncé la mort de la critique littéraire car elle justifie les textes littéraires, leur rhétorique et leur esthétique, cela fait qu'elle n'est pas à pour bien explorer les systèmes culturels sous-jacents qui falsifiaient la culture arabe, donc, al-Ghadami affirme l'arrivée de la « critique culturelle » comme un sauveur de la culture de la suprématie de ses systèmes. Il s'appuie sur la dissection pour analyser les textes et les libérer de l'hégémonie de la culture du modernisme.

Mots-clés : critique littéraire, modernité, critique culturelle, systèmes culturels, déconstruction.

Summary

Abdullah al-Ghadami Confirms in his dismantling of the Arab culture, that its disadvantages are due to the capillary pattern represented in the poem; this pattern created the concept of the poetic stallion and the political tyrant, and thus worked to create a culture of selfishness and the exclusion of the other. The Arab stallion poets are idols representing this stallion male pattern. Al-Ghadami announced the death of literary criticism because it justifies the literary texts and its rhetorical character aesthetic, and it is therefore no longer eligible to uncover the implicit cultural formats that tarnished the Arab culture, al-Ghadami Confirms, the advent of "the cultural criticism" as a saviour of the culture from the control of arrangements with the help of anatomy to analyse the texts and liberate them from the dominance of the culture of modernity.

Key words: literary criticism, modernity, cultural criticism, cultural formats, anatomical.

* أستاذ محاضر قسم "أ"، قسم الفلسفة جامعة قسنطينة2

مقدّمة

يعتبر الغذامي أهم ممثل لأحدث توجه نقدي في الفكر العربي المعاصر، والمسمى بـ"النقد الثقافي"، وأبرز المفكرين الذين شغلتهم قضية المنهج المناسب لتحليل الثقافة العربية، فقد أخذ الغذامي على عاتقه مهمة استحضار مشروع "النقد الثقافي" إلى ساحة الفكر العربي، فقد كان هذا المشروع بالنسبة إليه هَمًّا عَبَّرَ عنه في كل لقاءاته وحواراته وكتاباته. لم ينفك الغذامي كرائد للنقد الثقافي في الخطاب النقدي العربي أن اتصل بالباحثين والمفكرين، في المشرق والمغرب العربي من أجل عرض فكرته، لأنه آمن بأنّ "النقد الثقافي" أصبح ضرورة ملحة للثقافة العربية.

لقد ظهر مشروع "النقد الثقافي" عند عبد الله الغذامي، بالموازاة مع ظهور وانتشار هذا الأسلوب من النقد في مرحلة ما بعد الحداثة الغربية، حيث يعمل مشروعه على التَّحَوُّلِ من مبادئ النقد الأدبي الذي اختص لمدة زمنية طويلة بإبراز وتحليل الأبعاد الجمالية للنصوص الأدبية، إلى نقد جديد يختص بنقد الثقافة، فكان هدفه الأول هو كشف الأنساق المضمرة في النصوص الأدبية التي تشكل بنية الثقافة العربية، والتي تَتَّخِذُ منها قناعا تَتَخَفَّى وراءه، خصوصا منها الشعر الذي تَلَبَّسَت من خلال قيم الثقافة العربية بالأبعاد الشعرية، فأنتجت ذاتًا عربية مُتَشَعرِنَةً. لقد أدرك الغذامي، أنّ ثقافتنا نسقية، وأنّ سلوكنا نسقي، وإنّ هذا النسق يسيطر علينا منذ مدة طويلة، لذا فنحن اليوم في حاجة ماسة لممارسة "النقد الثقافي" من أجل التمييز بين الجميل والقبيح، وفضح الفحولة الشعرية والطغيان السياسي التي نتج عنها، ومنه مبرر تسمية هذه المقاربة بـ"النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي من نقد النصوص إلى نقد الأنساق". وعليه نتساءل: من هو عبد الله الغذامي؟ ما المقصود بالنقد الثقافي؟ وكيف يتم التَّحَوُّل من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي؟

أولاً: عبد الله الغذامي، الشخصية والمسار الفكري

ولد عبد الله محمد الغَذَّامِي في مدينة "عنيزة" قرب الرياض بالسعودية، عام 1946م، وقد قال عنه صديقه وزميله عبد الرحمان إسماعيل؛ الذي دَرَسَ معه في المعهد العلمي في ذات المدينة: "كان ذا صوت مسموع في جَنَبَاتِ المعهد، فقد كان شاعرًا، ذا مشاركات شعرية ونشاط ثقافي، يعرفه جميع أساتذته الذين جلس أمامهم في مقاعد الدراسة في المعهد"[1]. ليصبح هذا الشاعر أكبر نُقَّادِ الشعر ليس في إطار النقد الأدبي، وإنما في إطار النقد الثقافي، الذي ارتبط باسم الغذامي؛ لأنّه قَدَّمَه كمشروع جديد في قراءة الأنساق الثقافية العربية، بَيَّنَ من خلاله أنّ هذا الشعر-الذي كان هو ذاته، ينحت بعض نصوصه كصنعة ورثتها الثقافة العربية المعاصرة، عن الموروث الثقافي التقليدي-هو الذي تَسَبَّبَ بما فيه من بلاغة وشِعرِيَّة وإعلاء لِلجمالي، في السيطرة على الشخصية العربية، والثقافة العربية بكل أنساقها.

ظهر عبد الله الغذامي كناقد في مجال الأدب، في مرحلة التَّمَخُّضَات الكبرى التي عرفها النقد العربي الحديث، مرحلة الثمانينيات من القرن العشرين، التي شهدت بداية انهيار نسق في التفكير النقدي، وبداية ظهور نسق مختلف، حَدَّدَت ملامحه العامة التيارات النقدية الغربية، إذ كان التفكير الجديد مَرُوقًا يُسَبُّ من أجله المرء، و يُشَهَّرُ به، ويلاقى عَنَتًا في الوسط الثقافي والتعليمي الذي يعيش فيه، وقد يُلعَنُ ويُكَفَّر[2]. ويمتد مشروع الغذامي النقدي من 1985 إلى 2000 يمثل التاريخ الأول، ظهور مؤلفه "الخطيئة والتكفير"، أما الثاني فهو تاريخ صدور كتابه "ثقافة الوهم"، وبدورها هذه المرحلة تنقسم إلى مرحلتين:

- مرحلة النقد اللساني البنيوي: وهي مرحلة ما بين 1985 إلى 1991، وفيها ينهض مشروع الغذامي مُستنِدًا على أرضية لسانية محضة تستمد مفاهيمها من طروحات الفكر الغربي.

- مرحلة النقد الثقافي: وتمتد من 1991 إلى 2000، وفيها تطوير لبعض الرؤى المطروحة في المرحلة الأولى، فيبرز النقد الثقافي في مقابل النقد اللساني[3].

إنّه ما كان للغذامي أن يَتَّخِذ هذا الموقف، إلا لِحِسِّه النقدي من جهة، ولِتَأَثُّرِهِ ببعض المفكرين الغربيين مابعد-الحداثيين، من جهة أخرى؛ من أمثال رولان بارث Roland Barth(1915-1980) وجاك دريدا Jacques Derrida(1930-2004) وغيرهما، ولكن:" حتى ولو كان عبد الله الغذامي، كوجه عربي بارز للرُّؤية التشريحية في الفلسفة المعاصرة، إلا أنّ أهم ما يميزه عن أصحاب هذا المنهج في التفكير، هو كونه المثقف العربي المُتَشَبِّثُ بتراثه وتاريخه إلى

أبعد حد ممكن"[4]. وبالفعل، فإنّ قارئ مؤلفات الغذامي، سواء المتقدمة منها أم المتأخرة، يتبين له تَنَوُّعَ فكره، وكذا اهتماماته، بين الاطلاع على الفكر الغربي ومحاولة الاستفادة منه، إلى الاشتغال بقضايا الثقافة العربية وهُمُومِها، وهذا ما جعل عبد الله بن أحمد الفيفي، يصف الغذامي ومشروعه النقدي الثقافي قائلا: "الغذامي مشروع كبير...هو في ذاته السُّلُوكِيَّة مشروع عربي يمشي على الأرض، يَعرِفُ ذلك فيه، كل من عرفه عن قرب إنساناً عربياً مسلماً، وأستاذاً ضَلِيعاً رائداً"[5]. هذه شهادات بعض زملاء الغذامي والمتخصصين في دراسة فكره التي تُثَمِّنُ قيمة وأهمية الغذامي شخصاً متميزاً ومُفَكِّرًا ناقِدًا. لكن رُبَّمَا ليس هناك أفضل من يُحَدِّثُنا عن الغذامي من الغذامي ذاته، إذ يتحدث عن نفسه في كتاب "الموقف من الحداثة" قائلا: "إنني أدعو إلى الحوار وأنادي به، ولهذا فإنني أُرَحِّبُ بالاختلاف وأستبشر به، لأنه هو الذي يعطي فعاليتنا الثقافية حركتها وتفاعلها"[6]. وهذا هو هدف الغذامي من مشروع النقد الثقافي، الذي تحدّث عنه وعن مبادئه في كل مؤلفاته، والتي نذكر منها أَهَمَّهَا على النحو الآتي:

- الموقف من الحداثة 1989، الكتابة ضد الكتابة 1991، النقد الثقافي 1993، ثقافة الأسئلة 1993، نقد ثقافي أم نقد أدبي؟ 1994، المُشاكَلَة والاختلاف 2004، حكاية الحداثة 2005، تأنيث القصيدة 2005، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة 2009، وغيرها من المؤلفات الأخرى.

ثانياً: مفهوم النقد الثقافي

لقد ارتبط النقد في الفكر ما بعد-الحداثي، بأسلوب جديد في التفكير وفي التفلسف، كان أهم ما مَيَّزَهُ هو الدَّعوَةُ إلى تجاوز الذات ومعرفة الآخر، وما ساعد في تَطَوُّرِ هذا الفكر، هو المعلوماتية والانفتاح التقني، ما زاد في ربط جسور التواصل بين الأنا والآخر وبالتالي بين الثقافات، وهذا ما قَوَّضَ الكثير من المفاهيم الحداثية، خصوصا ثنائية المركز والهامش، وفي ظِلِّ هذه التَّحَوُّلات، القائمة على التنوع والتعدد والاختلاف، ظهر "النقد الثقافي"، كأهم رؤية لما يسمى بـ"ما بعد البنيوية"[7]. وعليه، فإنّ قيمة وأهمية النقد، تكمن في كونه يُعَبِّرُ من جهة عن نهاية مرحلة هي مرحلة الحداثة، ويُعَبِّرُ من جهة أخرى، عن بداية مرحلة جديدة، هي مرحلة ما بعد الحداثة، حتى أنّ أغلب المراجع المتخصصة في فلسفات ما بعد الحداثة، تستخدم مصطلح "النقد الثقافي"، للتعبير عن هذه المرحلة الجديدة.

يتحدث الغذامي عن ظهور حركة "النقد الثقافي" في أوروبا في كتابه الرئيس "النقد الثقافي"، قائلا: "تُغَطِّي الدراسات الثقافية مساحة عريضة من الاهتمام اليوم، وقد حَظِيَت بِشُيُوعٍ واسعٍ في التِّسعينيات، مع أنّه قد ابتدأت منذ عام 1964 كبداية رسمية منذ أن تَأَسَّسَت مجموعة بيرمينغهام تحت مسمى Birmingham Center for Contemporary Culturalstudies"مركز بيرمينغهام للدراسات الثقافية المعاصرة"، ومرّ المركز بتطورات وتحولات عديدة، إلى أن انتشرت عدوى الاهتمام النقدي الثقافي، مُتَصَاحِبَةً مع النظريات النقدية النّصوصية والألسنية وتَحَوُّلاتِ ما بعد البنيوية، لتتشكل من ذلك تيارات نقدية متنوعة المبادئ والاهتمامات، ولكن العامل المشترك بينها كلها، هو توظيف المقولات النظرية في نقد الخطاب"[8]. وقد عمل "مركز الدراسات الثقافية المعاصرة" بجامعة برمينغهام، في نشر صحيفة "أوراق عمل في الدراسات الثقافية"؛ تناولت وسائل الإعلام، والثقافة الشعبية والثقافات الدنيا، والمسائل الايديولوجية والأدب وعلم العلامات، والمسائل المرتبطة بالجنوسة، والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية، وموضوعات أخرى متنوعة. لقد اعتُبِرَ تأسيس هذه الصحيفة، أمراً مُثِيراً ومُمتِعًا، لأنّه يبين أنّ القائمين على جامعة برمينغهام، يتخذون الثقافة الشعبية ووسائل الإعلام مَأخَذَ الجِدّ. لكن، لسوء الحظ إنّ هذه الصحيفة، لم تستمر طويلا، ومع ذلك، أثرّت تأثيرا كبيرا في مستقبل الدراسات الثقافية، والنقد الثقافي[9].

هكذا، فقد ظهر "النقد الثقافي"، بوصفه نشاطا أو رؤية أو ممارسة نقدية، منذ ما يقارب الثلاثين عاما، ضمن رُؤَى ما بعد الحداثة النقدية، ظهر نشاطا يضع ثقله النظري، أو الفلسفي الأكبر، على دعامتين اثنتين، هما: دعامة الشمول أو الكلية ودعامة التَّعَدُّد، أو نقد التَّمَركز، فَتَخَلَّصَ من إِسَارِ الرؤى المنهجية أو الفلسفية المتطرفة، صوب جانب دون آخر أو مركز دون آخر، الأمر الذي عانت منه منهجيات الحداثة وما بعدها[10].إنّ"النقد الثقافي"، ليس مجالاً معرفياً، بل هو مهمة متداخلة مترابطة ومتجاوزة ومتعددة، كما أنّ نقاد الثقافة يأتون من مجالات مختلفة، ويستخدمون أفكارًا ومفاهيم

متنوعة، فبمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد وأيضا التفكير الفلسفي وتحليل الوسائط، وبمقدوره أن يُفَسِّرَ أيضا نظريات ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي والنظرية الماركسية والنظرية الاجتماعية والانثروبولوجية..الخ[11].إنّ ما يميز الناقد الثقافي، هو أنه لا ينقد لأجل النقد، وإنما هو ينقد أولا معتمدا على وجهة نظر معينة، كأن تكون ألسنية مثلا أو ماركسية، كما أنّه من جهة أخرى، ينقد لِيُظهِر عَيبًا أو خَلَلًا في الموضوع الذي ينقده، مقدّما بالتالي تفسيرا أفضل له. ولكن ما هو المجال الذي ارتبط به ظهور النقد الثقافي؟. يقول الغذامي: "إنّ النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية)، مَعنِيٌّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي، بكل تَجَلِّيَاتِهِ وأنماطه وصِيَغِهِ، من حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي، وهو بهذا مَعنِيٌّ، لا بكشف الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي"[12].بالنسبة إلى وظيفة النقد الأدبي، فإنها تَتَلَخَّصُ في تقويم العمل الأدبي من الناحية الفنية، وبيان قِيمَتِه الموضوعية، وقِيمَتِه التَّعبيرية والشُّعورية، وتعيين مكانته في خط سير الأدب، وتحديد ما أَضَافَهُ إلى التُّراثِ الأدبي في لُغَتِهِ، وفي العالم الأدبي كله وقياس مدى تَأَثُّرِهِ بالمحيط، وتَأثِيرِهِ فيه، وتصوير سمات صاحبه، وخصائصه الشعورية والتعبيرية، وكشف العوامل النفسية التي اشتركت في تكوينه والعوامل الخارجية كذلك"[13].

هكذا، إذا كانت مهمة النقد الأدبي، تقويم الأعمال الأدبية بعد تحليلها، واكتشاف قوانينها الداخلية، فإنّ النقد الثقافي، يتجاوز هذه المهمة، ليخلق شبكة من التداخلات المعرفية، تشمل حقول المعرفة الإنسانية، الساعية إلى الكشف عن الأنساق المضمرة في النصوص الأدبية، التي لم يتمكن النقد الأدبي من كشفها والقبض عليها[14]. ليصبح "النقد الثقافي"، بحثا في علل الخطاب الثقافي، من خلال تفكيك النصوص، والبحث عن الأنساق المضمرة والمتخفية خلف جماليات النصوص. كما إنّ "النقد الثقافي" يدعو إلى رفض الرؤية الأحادية للنماذج والمظاهر الثقافية، بل إنّه يرفض تماماً مظاهر السَّيطرةِ الثقافية النَّسقية، ويدعو إلى تجاوز التصنيف الثقافي، لأنّ الثقافات ذات طبيعة اتصالية. لكن كيف يُمَارَسُ هذا الإجراء النقدي الثقافي؟ في النقد الثقافي يَتَنَامَى التأويل في بعدين، ظَاهِرٌ وخَفِيٌّ يُفَكِّكُ الأول أنظمة النصوص الثقافية الظاهرة ويكشف عن عللها، والمُتَحَكِّمات النَّسقِيَّةِ فيها، وهو إجراء يقوم على التقويض والإزالة وإقصاء المركزيات، على نحو غير مرتهن بمركزية النص الجمالية أو استقلاليته البنائية. أما الآخر، فيقوم على رُؤيَةٍ ما بعد حداثية مُضَافَة تَعتَمِدُ على ما يمكن تسميته، بنقد أو (تفكيك الامتصاص)، ويتمركز حول فاعلية الكشف عن السياقات التاريخية التي امتصها النص وأسهمت في إنتاجه، وهي سياقات مضمرة، لم تكن مقروءة في مرحلة البنيوية[15].

إنّ "النقد الثقافي"، ليس مجرد نقد للنصوص، كما في النقد الأدبي، ولا هو مجرد فهم وتأويل للأنساق الثقافية ولا حتى مجرد قراءة لعلاقة التأثر والتأثير بين النصوص والأنساق المتحكمة فيها، إنّه رؤية نقدية فلسفية جديدة، تعبّر فعلا عن التحولات الحاصلة في مجال ما بعد الحداثة، خصوصا ما تعلق منها بتجاوز المركزية والتفرّد، نحو الاختلاف والتعدد مع التأكيد على ضرورة توحيد الثقافات والبحث في الهامش الثقافي، وهذا ما كان قد أهمله النقد الأدبي من قبل.

ثالثا: موت النقد الأدبي/ نحو نقد شعرية الحداثة العربية

1-الجميل الشعري/القبيح الثقافي

يتساءل الغذامي في بداية كتابه الرئيس "النقد الثقافي" قائلا: "هل الحداثة العربية حداثة رجعية؟ هل جَنَى الشعر العربي على الشخصية العربية؟ هل هناك علاقة بين اختراع الفحل (الشعري) وصناعة الطاغية؟ هل في ديوان العرب أشياء أخرى غير الجماليات التي وقفنا عليها –وحق لنا- لمدة قرون؟ هل هناك أنساق قافية تسرّبت من الشعر وبالشعر، لتؤسّس لسلوك غير إنساني وغير ديمقراطي وكانت فكرة (الفحل) وفكرة (النسق الشعري) وراء ترسيخها ومن ثَمَّ كانت الثقافة[16]–بما أنّ أهم ما فيها هو الشعر-وراء شَعرَنَةِ الذات وشَعرَنَةِ القيم؟"[17]. أسئلة يحاول الغذامي أن يجيب عنها، من خلال مشروع "النقد الثقافي"، إذ تَبَيَّنَ له أنّ الثقافة العربية المعاصرة، تعيش تحت وطأة النسق الثقافي الحداثي، الذي وصفه بأنّه نسق شعري جمالي، يُكَرِّسُ مفهوم الفُحُولَة الشِّعرِيَّة، التي أَثَّرَت على المجالات الأخرى فَكَرَّسَت الاستبداد السياسي والاجتماعي، وهذا ما يؤكّده في قوله:"

مشكلتنا أمام الشعر، إننا استسلمنا لقاعدة نقدية (بلاغية) ذهنية تمنعنا من النظر في عيوب الشعر، لأنّها تُحَرِّمُ علينا مُساءَلَة الشاعر عن أفكاره، وتُحَدِّدُ لنا مجال الرؤية فيما هو جميل وبلاغي[18]...هذا ما تُدَرِّبُنا عليه ثقافتنا، ممّا يمثّل مؤامرة جماعية، ضد العقل والذوق، تقبلناها وخضعنا لها وكَأَنَّما هي صنم صنعناه بأيدينا، ثم استسلمنا له خاضعين طائعين"[19].

وبناءً على هذا الوضع، فقد أصبحنا فعلا مساهمين في صناعة هذا النسق وتبرير وجوده من خلال تقبّلنا له، وتسليمنا بجماليته.

تبيّن لنا آراء الغذامي التي ضَمَّنَها كل مؤلفاته على تنوع موضوعاتها، أنّ التَّحول من العمى الثقافي إلى البصيرة الثقافية، أصبح ضرورة ملحة، فالنقد الأدبي لم يعد سوى تبريراً للنصوص ولبلاغتها ولجماليتها، ومنه فإنّ الشعر، وما يسميه الغذامي بـ"ديوان العرب" هو من أدى إلى شَعرَنَة الأفكار والسلوكات، لذا فإنّ الغذامي يريد من "النقد الثقافي"، أن يقوم بوظيفة فك الارتباط بين المؤَثِّر والمُتَأَثِّر بين سلبية الدَّور الذي أَدَّاهُ الشعر والشخصية العربية ومن خلال ذلك، يقرّر أنّ الوظيفة التقليدية للنقد، قد كَرَّسَت تلك العلاقة؛ كَرَّسَتها لأنها شغلت فقط بأبعادها الجمالية ولم تجرؤ أبدا على اختراق الحُجَبِ التي تقع ما وراء ذلك، كانت مُمَارسةً عمياء، غير قادرة على التمييز لأنها تفتقر إلى الوظيفة النقدية الجذرية، التي تقوم بتنشيطٍ دائمٍ للمُضمَرات الدلالية القابعة خلف الغلالة الجمالية للنصوص[20]. فالنص الأدبي يمتاز بصفة الشاعرية، وهذه الصفة، هي التي تجعله أدبيا، خصوصا في مجال الشعر، وذلك من خلال سعي الشاعر، إلى إيجاد تَوازنٍ بلاغيٍ وإيقاعيٍ بين كلمات القصيدة. إنّ هذا الطابع الشاعري الجمالي المميز للنص الأدبي عموما وللشعر خصوصا، هو الذي قال عنه الغذامي: "والشاعرية بهذا، تَتَولَّى تمييز النص الأدبي عن (الرسالة) وبمجرد أن يولد هذا النص مُحَمَّلاً بالشَّاعِرية، يطير معها بعيدا عن المرسل، ويتم عزل (الرسالة) عن مرسلها، وتنقطع الرابطة بينهما"[21].

إنّ من بين السلبيات المترتبة عن إشباع النص بالشاعرية والجمالية، هو انحراف النص عن المعنى الحقيق إلى المعنى المجازي، لذلك نجد البلاغة العربية، تولي أهمية كبيرة إلى التشبيه والكناية والاستعارة وغيرها. وإضافة إلى أنّ الشاعرية تُوَجِّهُ اللغة عن أداء وظيفة التعبير عن الواقع، إلى التعبير عن نفسها،و هذا ما جعل الغذامي يستشهد بتمييز ابن سينا بين وظائف اللغة، إذ يقول: "يشير ابن سينا، إلى وظيفتين من وظائف اللغة، إحداهما الوظيفة التشبيهية، وذلك حينما تكون وجهة الرسالة اللغوية تهدف إلى إحداث الفعل والانفعال لدى المتلقي، بأن تؤثر في نفسه وتحركها نحو ما بعد النص: وهو الفعل. أما الأخرى، فهي وظيفة جمالية، غايتها العجب حسب عبارة الرئيس، وهي ما نسميه في مصطلحاتنا المعاصرة بالشّاعرية"[22]. إنّ هذه الوظيفة الجمالية، هي أهم مميزات الأدب العربي، وخصوصا الشعر حيث أَثَّرَت سلبا على اللغة في حد ذاتها، وأَثَّرَت على الثقافة العربية والشخصية العربية، وما زاد في تكريس هذا التأثير السلبي هو النقد الأدبي، الذي لا يتردد الغذامي دائما في إبداء رأيه حوله، أو بالتحديد، في توجيه انتقاداته له، والتي من بينها قوله: "أرى أنّ النقد الأدبي كما نعهده، بمدارسه القديمة والحديثة، قد بلغ من اليأس، حتى لم يعد بقادرٍ على تحقيق متطلبات المُتَغَيِّر المعرفي والثقافي الضخم الذي نشهده الآن عالمياً وعربياً، بما أننا جزء من العالم متأثرون به ومنفعلون بمتغيراته"[23].

إنّ النقد الأدبي يجب أن يزول لأنّ مبررات وجوده قد زالت، كما أنّه لم يعد يملك المنهجية الكفيلة التي تُسَايِرُ التطورات المعرفية الهائلة، ويبدو أنّ الغذامي قد بَنَي موقفه هذا على آراء بعض المفكرين ما-بعد البنيويين والعلماء الألسنيين، إذ نجد جاك دريدا مثلا يبيّن موقفه من النقد الأدبي قائلا: "في الواقع لا تبدو لي، لا قيمة النقد ولا قيمة الأدب، مضمونتين وواضحتين، بما فيه الكفاية، حتى نستطيع أن نَعهَدَ إلى النقد الأدبي، بعمليات الاستجواب والقراءة التي تَهِمُّنِي شخصياً، كذلك فإنّ هذه العمليات تفترض أن يُمَارِس "الناقد" الكتابة أيضاً، وهذا لا يشكل جانِباً من التصور السائد للنقد الأدبي"[24]، وهو الرأي الذي يُشَاطِره فيه رومان جاكوبسون Roman Jakobson(1896-1982)، إذ يقول: "إنّ تسمية "ناقد أدبي" في تطبيقها على عالِمٍ يَدرُسُ الأدب، هي تسمية خاطئةٌ، مثلما هي خاطئة تسمية "ناقد نحوي" أو (معجمي)، في تطبيقها على اللساني، فالأبحاث التركيبية والصرفية، لا يمكن أن يَحُلَّ مَحَلَّها نَحوٌ مِعياري، وعلى غرار ذلك، فإنّ أي بيان يفصل الأذواق والآراء الخاصة

بناقد معين على الأدب الخلاق، لا يمكنه، أن يحلّ محلّ تحليل علمي موضوعي لفن اللغة"[25].

حقيقة إنّ النقد أكثر ارتباطا بالفلسفة، أما الأدب فيرتبط بالبلاغة، لكن النقد الأدبي في الثقافة العربية، أَبعَدَ الأدب عن النقد وحَصَرَهُ بالبلاغة، فابتعد النقد عن الفلسفة من جهة، وأصبح النقد الأدبي، فَنًّا في البلاغة من جهة أخرى، موضوعه النصوص البليغة والجميلة، دون أن يَبحَثَ في عيوبها ونقائصها، وحتى ولو بحث النقد الأدبي في عيوب النصوص، فإنّه بحث يقتصر على العيوب اللُّغوية والعروضية، وهذا هو عيب النقد الأدبي قديماً وحديثاً، لذلك لا يتردد الغذامي في التأكيد على أنّ : "البلاغة كانت تحاول أن تنقد النص لتجعل منه عملا جماليا، ولكن البلاغة أُصِيبت بما أصيب به كثير من العلوم في أوقات مَرَّت على أُمَّتِنا، فصارت علما معياريا، يضع قواعد ثابتة سابقة لميلاد النص، ولم يستطع النقد بكل مدارسه، أن يَسُدَّ هذا العيب البلاغي، ومن هنا رأينا كثيراً من النقاد المحدثين في الغرب، يطالبون بإنهاء ما يسمى بالنقد الأدبي ويُعلِنُون موت هذا النقد، لأنّه لم يولد أصلاً"[26]. إنّ عيب النقد الأدبي، يكمن في أنّه يعطي الأولوية لجمالية النص على معناه، كما إنّه لا يعطي أَهميةً لقارئ النص، بقدر ما يهتم بكاتبه، لذلك نجد أنّ الشعر العربي دائما، يُعَبِّرُ عن ذاتية الشاعر. إننا نلاحظ أنّ هذه المفاهيم أصبحت تقليدية، بحيث حلّت مَحَلَّهَا مفاهيم جديدة مثل الكتابة والقارئ والمعنى وغيرها من المفاهيم الأخرى التي يقوم عليها النقد المعاصر.

لقد حدث تَحَوُّلٌ في النقد المعاصر، من جماليات النص إلى جماليات المعنى. وعلى الرغم من أنّ الغذامي لا ينفي أهمية الجانب الجمالي في النصوص، إلا أنّه يُنَبِّهُنَا إلى ما لم ينتبه إليه النقد الأدبي، ألا وهو أنّ مسألة الجمال اللُّغوي، أصبحت عيبا نَسَقِيًّا أَثَّرَ سلبا على ثقافتنا، بل على حضارتنا ككل، وهذا ما أدَّى به إلى التأكيد على أنّ الثقافة العربية جعلت النسق الثقافي يتميز بشرطين أساسيين، مَكَّنَاهُ من ترسيخ معناه حتى يصبح بحُكمِ المُعتقَد الأسطوري، هما: "أولا تعطيل الحس النقدي للأفراد، بحيث يَغَضُّونَ الطَّرَفَ عن التناقض، ولا يدركون أنهم واقعون فيه. والثاني، هو مفعولية الزمن، حيث إنّ التقادم يعطي السلوكات قيمة إضافية يجعلها تبدو طبيعية وفطرية، ولذا لا تتحرك الملاحظة اتجاهها ولا يجنح عموم الناس إلى مساءلتها تبعا لتسليمهم بالتوارث المتصل، وقبول ما وجدوا الحالة عليه"[27].و لكن السؤال الذي يطرح هنا، هل فعلا يعتبر الشعر هو المُوَجِّه الوحيد لكل الأنساق الثقافية؟. يجيب الغذامي قائلا: "أنا لا أضع الشعر في معادلة السَّبَبِ والنتيجة، وإنّما أقول، إنّ الشعر (حامِل النسق) وأقول إنّ الشعر هو (العلامة) الكاشفة لهذا النسق وبما أنّ الشعر هو (علامة) على النسق، وبما أنّه (حامل النسق)، فإنّ الشعر هنا، يصبح هو المطبخ المنتج للنسق"[28]. هكذا يفضح الغذامي العيوب النسقية للثقافة العربية، التي يرى أنّها تتلخّص في الجانب الشعري، فلطالما أكدت مؤلفاته على الارتباط بين الجميل الشعري والقبيح الثقافي، الذي يعد النقد الأدبي تكريساً له؛ لأنه بَسَطَ عباءة الجمالي على الكثير من العيوب النَّسَقِية في الثقافة العربية: "فنحن محكومون بذهنية سميناها اصطلاحا بالقصيدة أو (العمودية) وهي ذهنية تَشَكَّلَت وتَنَامَت على مدى زمني متواصل، ولم ينقطع قَطُّ من أكثر من خمسة عشر قرناً، ولم تزل هذه الذهنية تلازمنا وتسايرنا وتحيط بنا، ليس فيما نقرأه من الماضي الزاهر فحسب، ولكن أيضا فيما نعيشه ونمارسه في حياتنا اليومية، سواء في الأدبيات الشعبية أم في اللغوي، الذي تتسرب فيه الخطاباتية والغنائية والتدفق الوجداني الثري، ويتجلى ذلك في الخطاب الأدبي، مثلما يتجلى في الخطاب السياسي والفكري"[29].

2-اختراع الفحل الشعري وصناعة الطاغية

يقول الغذامي: "إنّنا أمام ظاهرة عالمية توجد وتعيش في كل الثقافات، حيث تبرز سلطة الفرد وتُعَزِّزُ ثقافيا ومسلكيا، بواسطة عمليات مترابطة، بعضها يحدث بقوة السلاح والجيوش، وبعضها يحدث بجيوش من نوع خاص وسلاح من نوع خاص، هو سلاح الكلمة، إنّه مسعى حثيث لامتلاك ناصية المعنى، والسَّيطَرةِ عليه"[30]. هذا هو الدور الذي قام به الشعر العربي، بمباركة النقد الأدبي، فقد جَنَت صفة الشاعرية على اللغة والخطاب اللغوي، بحيث جَرَّدَتهُ من فاعليته كما عزلته عن وقائعيته وهذا ما أنشأ ذاتًا عربية تتصف بصفات اللغة الشعرية ذاتها، أي ذاتًا شعريةً حالمة بعيدة عن الواقع فكانت النتيجة الأخطر التي ترتبت عن تَغَلغُلِ النسق الشعري في الذات العربية، هو قتل روح المبادرة النقدية إزاء

عيوب الخطاب، لأنّ النقد انحصر في دائرة الأدب، مُبَرِّرًا لوجود الخطاب الشعري، بل ومُكَرِّسًا لهذا الوجود: "فقد جرى ثقافيا اختراع الفحل، الذي ابتدأ فحلاً شعرياً، غير أنّه تَحَوَّلَ ليكون فحلاً ثقافياً، يتكرر في كافة الخطابات والسلوكيات الثقافية والاجتماعية والسياسية، وما ذاك في الأصل، إلا لِأَنَّ الشعر، هو علمنا وديواننا، وما يحدث فيه يصبغ شخصيتنا، ويؤثّر في تكويننا وتوجيه سلوكنا"[31]. إنّ الغذامي لا يعترض على الشعر، كفن من فنون الأدب وإنما هو يرى أنّ التأثير السلبي الكبير لخاصية الشاعرية التي يحملها الشعر على شخصيتنا العربية، يُحَتِّمُ علينا أن نتوجّه لهذا الوضع بالنقد: "فالفحل الشعري هو أخطر المخترعات الشعرية/الثقافية، وهو مصطلح ارتبط بالطبقة (طبقات فحول الشعراء) وارتبط بالتَّفَرُّدِ والتَّعَالِي (الشعراء أمراء الكلام) مثلما ارتبط بتوظيف اللغة توظيفًا منافقًا (يصورون الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق)"[32]. ومنه قوله تعالي " **وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۝٢٢٤ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۝٢٢٥ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ۝٢٢٦** " [الشعراء: 226،225،224].

إنّ ما يرفضه الغذامي في الخطاب الشعري العربي، هو هذه النظرة الفحولية القائمة على تضخيم الأنا، وما يرافقها من كذب وتزييف، وهو لا يقصد بـ"الأنا" الشاعر الشخص المتكلم فقط، وإنما "الأنا الثقافية"، التي تعتبر انعكاسًا للنسق الثقافي السائد وتجسيدًا له، لأنّ: "الفحل، هو صِياغَةٌ شِعرِيَّةٌ في الأصل، ولكِنَّهُ يحول ليكون أنموذجا ذهنيا واجتماعيا وسياسيا، ولم يَعُد مجرد قيمة مجازية شعرية"[34]. ولقد استدل الغذامي بالكثير من الأبيات والقصائد الشعرية منها قصائد الأخطل والفرزدق وعمرو بن كلثوم وغيرهم. وبناء على ذلك، أكد على أنّ: "القصيدة تضع منظومة قيم كعلامة نسقية، ومنه انغرس النسق الشعري، هذا النسق الذي نجده في الخطاب الشعري القديم، والحديث والتجديدي، نجده عند الفرزدق وجرير وأبي تمام والمتنبي، مثلما نجده عند نزار قباني وأدونيس. بل إننا نجده في الخطاب العقلاني، كما هو في الخطاب الشعري والخطاب السياسي والخطاب الإعلامي. لقد انتقل النسق وتَرَحَّلَ من الشعر إلى الخطابة ومنها إلى الكتابة[35]، ليستقر بعد ذاك في الذهنية الثقافية للأمة، ويتحكم في كل خطاباتها وسلوكاتها"[36].

هكذا، فإنّ اللغة الشعرية لم تكتف باختراع الفحل المتصف بالأنانية ورفض الآخر والسعي إلى إقصائه، بل إنّ مفهوم الفحل في الشعر، قد تَرَتَّبَ عنه ظهور الطاغية في المجال السياسي، وهذا ما يدل على تأثير النسق الشعري على كل الأنساق الثقافية، وعلى كل مجالات الحياة، ولكي يوضح لنا الغذامي موقفه من كيفية تَرَتُّبِ ظهور الطاغية السياسي عن فكرة الفحل الشعري، يقول: "لو استخدمنا صفات الأنا الشعرية، لوجدناها هي بالتحديد ما يصف ويحدد صفات صدام حسين، وهذه الأنا المتضخمة الفحولية، التي لا تقوم إلا عبر التَّفَرُّدِ المطلق بإلغاء الآخر وبتعاليها الكوني، وبكونها هي الأصح والأصدق حكمًا ورأيًا، ويكون الظلم عندها علامة قُوَّةٍ وسُؤْدُدٍ.. والعالم محتاج إليها لأنها هي المنقذ الكوني، ولا يستقر وجودها، إلا بسحق الخصم، وهي الصوت المفرد، الذي لا صوت سواه وهذه هي الدلالات الشعرية، التي نجدها في شعرنا، منذ عمرو بن كلثوم إلى المتنبي إلى نزار قباني"[37]. إنّ شخصية الطاغية، هي تجلّي لشخصية الفحل في الشعر العربي، وهذا ما يدل فعلا، على تأثير الشعر على الثقافة والشخصية العربية المعاصرة فسلوكيات وتصرفات الطاغية تؤدي الدور ذاته الذي تُؤَدِّيهِ كلمات الفحل الشعري، فهي قائمة على الأنانية وإقصاء الآخر ومحاولة السيطرة عليه. ومثلما بَشَّرَنا الغذامي، بموت النقد الأدبي، فإنّه يُبَشِّرُنا كذلك بموت الفحل وموت الطاغية، لذلك يتساءل قائلا: "هل للشاعر مكان في القرن العشرين؟ سيكون الجواب كالسؤال إنكاريا حينئذ، نعم ليس للشاعر مكان، إنّه اسم فقد خانته، مثل صورةٍ فقدت إطارها فانتثرت في المتحف، لم يعد الشاعر ذاتًا طاغية، ولقد تَحَوَّل الإمبراطور الأوحد إلى فرد من الشعب وصار صوتا في أصوات، وصار رقما في كشوف تاريخية لا نهائية، وبقي الصمت والسخرية والانتهاك"[38].

رابعا: ميلاد النقد الثقافي/نحو تأسيس فكر ما بعد الحداثة.

1-النقد، من تبرير الجمالي إلى نقد الثقافي.

يقول الغذامي في كلمة الشكر التي بدأ بها كتابه الرئيس "النقد الثقافي": "في سبيل إثارة قضية النقد الثقافي، كان لي شرف الالتقاء بعدد من العقول الفاعلة في الوطن العربي"[39]. يتجلى لنا أنّ الغذامي اختار هذه العبارات عن

قصد، بل وبحذر شديد، فكلمة "السبيل" تعني الطريق الذي يكون له هدف محدد، والذي هو "النقد الثقافي"، وبما أنّ "النقد الثقافي"، ارتبط بالثقافة الغربية، وتحديدا بمرحلة "ما بعد الحداثة"، فإنّ الغذامي يريد أن ينسب لنفسه شرف أول مفكر عربي يقترح الاعتماد على مشروع "النقد الثقافي" لمعالجة مشكلات الثقافة العربية، وهو بالتالي، يحتاج في هذا المسعى إلى تأييد العقول المدبرة والأشخاص المختصين في هذا المجال.

وفق صيغة "موت الإنسان" التي تقول بها ما بعد البنيوية في الفكر الغربي، فقد قال الغذامي "بموت النقد الأدبي" الذي أعلن "إفلاسه النقدي"، فهو لم يعد قادرا على مُسَايَرَة التطورات المعرفية والمفاهيم اللغوية المعاصرة، ولقد تبين للغذامي أنّ المُخَلِّصَ من هذه الوضعية المتأزمة التي آلت إليها الثقافة العربية وتجلياتها في سلوك الشخصية العربية، هو "النقد الثقافي". "فالنقد الثقافي في تصور عبد الله الغذامي أداة للحفر في جينيالوجيا المتن الثقافي، الذي تُؤَلِّفُهُ الثقافة نفسها، وتُسَوِّقُهُ عبر قنوات كثيرة ومختلفة فيما يدعى بـ "الحيل الثقافية" كالحكايات والنكت والبلاغيات والأكاذيب... وثانياً أداةً لتفكيك سلطة هذه الثقافة الذكورية/الفحولية وتشريحها، وتذويب ما اسماه الغذامي بـ "الشحم الثقافي"، وخلخلة كل أشكال النسق المُتَسَلِّطِ، كنسق التفحيل"[40]. يحاول الغذامي، من خلال نقده للأنساق الثقافية، التي درسها في مؤلفاته، سواء كانت شعرًا أم نثرًا، مثل قصائد حمزة شحاته، في كتابه "الخطيئة والتكفير" أو قصائد نزار قباني في كتابه "النقد الثقافي" أو قصص "ألف ليلة وليلة" في كتابه "اللغة والمرأة" وغيرها، أن يبين لنا برؤية الناقد الثقافي المُنَظِّر والمُمَارِس، كيف أن الأنساق المُضمَرَة في الثقافة، تمارس "حِيَلَها الثقافية" لتعمل على نشر "ثقافة الوهم". يقول الغذامي: "حينما تدفعنا خطانا إلى البحث في الأنساق الثقافية سنكتشف أننا نقرأ التاريخ البشري والسيرة البشرية، بوصفها حالاً من التفكير في المفاهيم والمصطلحات، وسنرى أنّ المسار البشري، هو مسار تَحَكَّمَت فيه المنظومات المفاهيمية والمصطلحية، وكأنما التاريخ البشري هو تاريخ في المصطلح والمفهوم"[41].

حقيقة فقد ارتبط مصطلح "النقد الثقافي" بمرحلة ما بعد الحداثة، وجهود الكثير من المفكرين والفلاسفة، في التَّحَوُّلِ من النص إلى الخطاب، ومن الجانب الجمالي للنصوص إلى الجانب النقدي، وهذا ما نجده في أعمال بعض المفكرين الغربيين، من أمثال رولان بارث وميشال فوكوMichel Foucault (1926-1984)، وغيرهما من المفكرين الذين يؤكدون على محدودية النظرة الجمالية البلاغية للنصوص وفي هذا كله سعي لتجاوز مرحلة النقد الأدبي: "الذي التزم بالنص الأدبي بوصفه قيمة جمالية، يجري دائما السعي لكشف هذا البعد الجمالي وتبرير أي فعل للنص مهما كان، تحت مبدأ الأصل الجمالي، مما جعل الجمال مُنتَجًا بلاغيًا (مُحتَكَرًا) وصار للجمالي شرط مؤسساتي يُصِيغُهُ السيد الشاعر، ويقوم الفعل النقدي بعمليات التسويق والتعميم"[42]. وعليه، فإن هذا التسليم المُسبَق من قبل النقد الأدبي، بأن الشعر والجمالي، لا يمكن تصور أحدهما دون الآخر، هو الذي غطى على عيوب الثقافة من جهة، وأَثَّرَ سلبا على مستهلكي الثقافة، من جهة أخرى، لذلك فقد كان هدف الغذامي، في أولى مراحل تجسيد مشروع النقد الثقافي، هو فضح هذا الاحتكار للجمالي من قبل الشعري، وبالتالي العمل على تجاوز هيمنة ثقافة الحداثة، من خلال تجاوز النقد الأدبي ذاته.

مُشَبَّعًا بالكثير من المفاهيم والآليات المعرفية الغربية، ينطلق الغذامي في تطبيق مشروع "النقد الثقافي"، الذي يبدوا من خلال الحوارات والنقاشات التي أجراها مع مختلف الباحثين ووحدات البحث في المشرق والمغرب العربي، أنّه مُخَلِّصُ الثقافة والشخصية العربية من براثين النزعة الشعرية، التي كرسها الموروث الثقافي، فَنَصَّبَ عداءه لما اسماه بـ "المنظور المؤسساتي للشعر"، لأنّ هناك تواطؤا غير مُعلَنٍ بين المؤسستين الثقافية والسياسية، يجعل من الأولى خادمة للثانية، أما الضحية، فهي الثقافة العربية، والحل حسب الغذامي، هو تفكيك الأنساق الثقافية، التي تتمركز حول ذات فحولية مُستَبِدَّةٍ، نافية للآخر وللمختلف. وحول هذه المهمة التي يقوم بها النقد الثقافي يقول الغذامي: "ولهذا، فإنّه يلزم نقديا أن نشرع في نقد المُستهلَك الثقافي الجماهيري؛ لأنّ نقد هذا المنتوج ذي الشعبية العريضة، سيكشف لنا عن (العيوب النسقية) الخطيرة الكامنة في وجداننا الثقافي وسنرى (الجميل) بمعناه الآخر، ولابد أن نكشف عن حالات (العمى الثقافي) التي بسببها نُعجَبُ

بالعيب، ونَطرَبُ بالخطأ ونَطلُبُهُ ونُسَوِّقُهُ"[43]. إنّ هذا الجمالي، هو ما تُجَسِّدُهُ قصائد نزار قباني مثلا، لأنّ ما تحمله من فحولة شعرية، تكريس لإعلاء الذات وإلغاء الآخر، وما زاد من تكريس هذه الفحولة، أو بالتحديد، هذه الهيمنة الثقافية، هو التأييد الجماهيري الواسع، لهذا المشروع الاستفحالي، الذي سيعمل "النقد الثقافي" على نقد أنساقه.

يقرّ الغذامي، أنّ كلمة أدبي، لم تؤخذ إلاّ معنى واحد، هو ذلك الذي أقرّته المؤسسة الثقافية في الفكر العربي عبر التاريخ، ذلك أنّ الخطاب البلاغي الرسمي يحدد مواصفات للنسق الثقافي، إذا التزم بها صُنِّفَ تحت المؤسسة الثقافية العربية، وإذا لم يلتزم بها، استُبعِدَ منها: "فَكُلُّنَا نعرف كيف جرت معاملة (ألف ليلة وليلة) التي اعتبرت مما لا يليق إلاّ بالصبيان والنِّساء وضِعاف النفوس...و في مقابل ذلك نرى تقديراً عالياً لكتاب (كليلة ودمنة) فكاتبه (مترجمه) هو أحد فحول الخطاب الثقافي، كما أنّه كتاب معمول للملوك، ومن يُوصَفُون بالعُقَلاء"[44]. إنّ هذا التصنيف أضر بالأدب وبالتالي بالثقافة من ناحية أنه كَرَّسَ أنموذجين، الأول شَعبَوِي منبوذ وغير مُعتَرَف به. أما الثاني، فهو رسمي لا يرتقي إليه النقد، لأنه جمالي بالضرورة، وهذا ما عَطَّلَ الحس النقدي في الثقافة العربية، وبَرَّرَ لوجود خطاب ثقافي مُهَيمِن، لا يُمَارِسُ النقد، كما يرفض أن يُمَارَسَ النقد عليه.

2-تحولات المصطلح النقدي/من الأدبي إلى الثقافي

يقول الغذامي: "إنّ تحرير المصطلح من قَيدِهِ المُؤَسَّسَاتِي، هو الشَّرطُ الأساس لتحرير الأداة النقدية، مذ كان الارتباط بين الاثنين أَزَلِيًّا حيث إنّ إعمال المصطلح النقدي الأدبي إعمالاً لا يَتَسَمَّى بالأدبي، ويتخذ له صفة أخرى هي الثقافي، يستلزم إجراء تعديلات وتحويلات في المصطلح، لكي يُؤَدِّي المهمة الجديدة"[45]. إنّ هذه المهمة، تمر حسب الغذامي بمراحل ضرورية متتالية، هي: تحول في المصطلح النقدي ذاته، وتحول في المفهوم، وتحول في الوظيفة، وتحول في التطبيق، نحاول شرحها على النحو اللآتي:

أ-التَّحَوُّلُ في المصطلح

يعتبر التَّحَوُّلُ، أو النَّقلَة الاصطلاحية، أول وأهم مراحل التَّحَوُّل في الفعل النقدي، من الأدبي إلى الثقافي، وتكمن أهمية هذه المرحلة، في كَونِها تعمل على تخليص النصوص من الشَّرطِ الأدبي بمعناه المُؤَسَّسَاتِي، وهو المعني الذي تعرّفنا عليه من قبل، ويشتمل التحوّل الاصطلاحي، حسب الغذامي، على ستة اصطلاحات أساسية، هي على التوالي: عناصر الرسالة (الوظيفة النسقية)، والمجاز (المجاز الكلي)، والتورية الثقافية، ونوع الدلالة، والجملة النوعية والمؤلف المزدوج. وهنا يجري الغذامي مقارنة بين "النقد الأدبي" و"النقد الثقافي"، من ناحية المصطلحات المستخدمة في كل مجال فيقول: "هذا إجمالٌ نُوَضِّحُهُ فيما يلي، حسب تحديد المصطلحات التي سَنَستَعِيرُها من النقد الأدبي، ونُحَوِّرُهَا لتكون صالحة للتوظيف في مجال النقد الثقافي، وهي مصطلحات: العنصر السابع، والدلالة النَّسَقِيَّة، والجملة الثقافية والمجاز الكُلِّي، والتَّورِية الثقافية، وهذه تحويرات لمصطلحات نقدية أدبية، تقابل كل واحدة منها: عنصر تركيب الرسالة على نفسها، والدلالة الضمنية والجملة الأدبية، والمجاز البلاغي والتورية البلاغية، مع مفهومي النسق المضمر والمُؤلِّف المزدوج".

إنّ هذه الأساليب تمثل المنطلق النظري والمنهجي، لمشروع "النقد الثقافي"، عند عبد الله الغذامي، إلاّ أننا سنركز على الإسهام الحقيقي الذي قَدَّمَهُ والمتمثل في الأساس الأول، والذي هو (عناصر الرسالة)، فمعروف أنّ رومان جاكوبوسن، قد بيّن أنّ الأنموذج الاتصالي، أو الفعل التواصلي، يتكون من ستة عناصر هي، على حد قوله: "إنّ **المرسل** يوجه **رسالة** إلى **المرسل إليه**، ولكي تكون الرسالة فاعلةً فإنها تقتضي بادئ ذي بدء، **سياقًا** تحيل عليه (وهو ما يدعى أيضا "المرجع" بإصلاح غامض نسبيا) سياقا قابلا لأن يدركه المرسل إليه وهو أن يكون لفظيا، أو قابلا لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة بعد ذلك **سَنَنًا** مشتركا، كليا أو جزئيا بين المُرسِل والمُرسَل إليه (أو بعبارات أخرى بين المسنِن ومُفَكِّكِ سَنَنِ الرسالة) وتقتضي الرسالة أخيراً، **اتصالا**، أي قناة فيزيقية وربطا نفسيا، بين المرسل والمرسل إليه"[46]. لكن الغذامي، أجرى تعديلاً على هذا التقسيم، وأضاف عُنصراً سابعاً يتمثل في (العنصر النسقي)، يتحدث عنه قائلا: "إذا سلمنا بوجود العنصر السابع (النسقي) ومعه الوظيفة (النسقية)، فإنّ هذا يجعلنا في وضع نستطيع معه أن نوجّه نظرنا نحو الأبعاد النسقية التي تتحكم بنا وبخطاباتنا، مع الإبقاء على ما ألفنا

وجوده، وتعودنا على توقعه في النصوص، من قيم جمالية وقيم دلالية، وما هو مفترض فيها من أبعاد ذاتية وأبعاد تاريخية واجتماعية. إضافة إلى ذلك، تأتي الوظيفة النسقية عبر العنصر النسقي وهذا ما يمثل بعدًا أساسياً في مبادئ النقد الثقافي"[47]. فإلي جانب الوظائف التي حددها جاكوبسون من قبل، والتي هي، التعبيرية والنفعية والمرجعية والمعجمية والتشبيهية والشاعرية فإنّ اللغة تصبح لها وظيفة جديدة، عند الغذامي، تتمثل في الوظيفة النسقية، التي تجعل الرسالة مهيأة للتفسير النسقي أي الكشف عن دلالتها النسقية التي هي: " قيمة نحوية ونصوصية مخبوءة في المضمر النصي في الخطاب اللغوي ونحن نسلم بوجود الدلالتين الصريحة والضمنية، وكونهما ضمن حدود الوعي المباشر كما في الصريحة، أو الوعي النقدي، كما في الضمنية. فالدلالة النسقية في المضمر وليست في الوعي، وتحتاج إلى أدوات نقدية مدققة، تأخذ بمبدأ النقد الثقافي لكي تكتشفها، ولكي تكتمل منظومة النظر والإجراء"[48]. هكذا، يصبح النص في "النقد الثقافي" عند الغذامي حدثا ثقافيا، لا مجرد قالب لغوي بلاغي جمالي، أما "الوظيفة النسقية" فقد كانت إسهاما كبيرا في الدراسات اللغوية و"النقد الثقافي" على حد سواء، يمثل أفقا جديدا في قراءة النصوص ونقد الأنساق الثقافية.

هذا بالنسبة إلى المرحلة الأولى، من مراحل الانتقال من "النقد الأدبي" إلى "النقد الثقافي"، والمتمثلة في التحول الاصطلاحي، أو النقلة الاصطلاحية، والتي اعتبرها الغذامي أهم مراحل هذا التحول، إلا أنّ المراحل الأخرى لا تقل أهمية، لأنّها استمرارية لمهمة التحول التي لا يمكن أن تكتمل دونها، بما فيها التحول في المفهوم.

ب-التَّحَوُّلُ في المفهوم

يتم التَّحَوُّل من "النقد الأدبي" إلى "النقد الثقافي" عند عبد الله الغذامي، من خلال التَّحَوُّل عن ظاهر النصوص إلى باطنها، بهدف الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة فيها ونقدها، وهذا ما يدلّ على أهمية هذا المصطلح في مشروع "النقد الثقافي" عند الغذامي وذلك لأنّ: "مفهوم النسق المضمر، يأتي في نظرية النقد الثقافي بوصفه مفهوما مركزيا والمقصود هنا، أنّ الثقافة تمتلك أنساقها الخاصة، التي هي أنساق مُهَيمِنَة، وتَتَوَسَّلُ لهذه الهيمنة عبر التخفي وراء أقنعة سميكة، وأهم هذه الأقنعة وأخطرها في دعوانا، قناع الجمالية...إذ يعمل الجمالي، على التَّعمِيَة الثقافية، لكي تظل الأنساق فاعلة ومؤثرة ومستديمة من تحت قناع"[49]. لذلك يؤكد الغذامي، على ضرورة تمييز النسق الثقافي عن الأنساق الأخرى، حتى يمكننا الحديث عن مسألة "النقد الثقافي". وعليه، يتبيّن لنا، أنّ الغذامي لا يساهم فقط في تأسيس مشروع النقد الثقافي في الفكر العربي المعاصر، وإنّما يساهم كذلك، في وضع جهاز مفاهيمي خاص، لا نجد له مثيلا عند غيره من المفكرين، خصوصا مصطلحي "الوظيفة النسقية" و"الجملة الثقافية"، وعلى اعتبار أننا شرحنا من قبل مصطلح "الوظيفة النسقية" و"الدلالة النسقية"، نحاول توضيح مفهوم "الجملة الثقافية"، حسب تصور الغذامي، إذ يقول عنها إنّها: "حصيلة الناتج الدلالي للمعطى النَّسَقِي، وكشفها يأتي عبر "العنصر النَّسَقِي" في الرسالة، ثم عبر تصور مقولة "الدلالة النسقية". و"الجملة الثقافية" ليست عددًا كَمِّيًا، إذ قد نجد جملة ثقافية واحدة، في مقابل ألف جملة نحوية، أي أنّ الجملة الثقافية، هي دلالة اكتنازية وتعبير مكثف"[50].

إنّ الجملة الثقافية، لها طبيعة خاصة، فهي ليست مجموعة من الألفاظ، يحصل معناها باجتماع هذه الألفاظ، وإنّما هي الفكرة التي تريد الثقافة أن تمررها عبر أنساقها، وميزتها أنها مضمرة لا ظاهرة. وهنا يظهر لنا، أنّ هناك تشابها كبيرا بين مفهوم "الجملة الثقافية" عند الغذامي، ومفهوم "العبارة" أو "المنطوق" عند ميشال فوكو، الذي يقول عنه: "لقد استَخدَمتُ في مناسبات عديدة لفظة "عبارة"، إما لأشير بها إلى "عدد من العبارات" (كما لو كان الأمر يعني أفرادا وأحداثا فردية)، أو لِأُمَيِّزَهُ عن تلك المجموعات، التي أسميها الخطابات (مثلما يتميز الجزء عن الكل). وتبدو العبارة لأول وهلة، كعنصر بسيط، أو كجزء لا يتجزأ، قابل لأن يستقل لذاته، ويقيم علاقات مع عناصر أخرى مشابهة له. فهي نقطة لا مساحة لها، غير أنّه بالإمكان رصدها ضمن مستويات توزّع وفي أشكال نوعية المجتمع، حبة تطفو فوق سطح نسيج، هي عنصره المكوّن. فالعبارة، أبسط جزء في الخطاب"[51]. إنّ العلاقة بين المنطوق والخطاب عند ميشال فوكو كالعلاقة بين الجزء والكل، أما إن أمكننا تصوّر وجود أحدهما دون الآخر، فإنّه يمكن تصور وجود المنطوق دون الخطاب لأنّ الخطاب بما هو مجموعة من المنطوقات أو العبارات، يتوقّف

وجوده على وجود المنطوق. أما المنطوق، فله وجوده الخاص المستقل به. ولكن الأهم في كل هذا، هو أنّه مثلما يختلف مفهوم العبارة حسب فوكو عن الإشارة والجملة والقضية المنطقية وغيرها –و لن ندخل في تفاصيل المقارنة أكثر، لكي لا نخرج عن موضوع الدراسة-فإنّ "الجملة الثقافية" عند الغذامي، كذلك لها وجودها الخاص، إذ هي تختلف عن الجملة الأدبية والجملة النحوية. وهذا ما يجعلها بالتالي من بين أهم مبادئ نقد الأنساق الثقافية عند عبد الله الغذامي.

ج-التَّحَوُّلُ في الوظيفة

لا يتجه "النقد الثقافي" عند الغذامي، إلى الثقافة بمعناها الواسع، وإنّما يكون النقد موجها إلى عملية تلقي نص أو خطاب، من قبل القراء أو الجمهور، لأنّ ما لاحظه الغذامي، هو أنّ النصوص الأدبية، وتحديدا النصوص الشعرية تَستَخدِم الكثير من الحِيَل، أهمها بل أخطرها، تغييب العقل وتغليب الوجدان، من خلال تبرير القول الشعري والشخصية الشعرية، مثل شخصيتي المتنبي ونزار قباني وغيرهما لذلك فالنقد الثقافي مُوَجَّهٌ بالأساس لهذه الثقافة الشعرية: "لأنّ الشعر، لم يزل مُرتَهَنًا لعيوب نسقية، لا تجعله مهيأ، لأن يقود خطاب التحديث، وقد يكون هو العائق التحديثي"[52]. ليعمل النقد على أداء وظيفة جديدة، تتمثل في التحوّل من إبراز الجمالي الكامن في النصوص الشعرية إلى فضح حيل الثقافة، من خلال سبر أغوار القصائد الشعرية، وتبيان أنّها وسيلة في يد الثقافة، تستخدمها للتأثير على الشخصية العربية، وعلى الثقافة العربية بكل أبعادها.

د-التَّحَوُّلُ في التطبيق:

يهدف النقد الثقافي –كما تبيّن لنا إلى حد الآن- إلى دراسة الأنساق الخفية أو المضمرة للثقافة العربية، خصوصا منها الشعر؛ على اعتبار أنّه أثّر كثيرا في ثقافتنا، وجعل من الشخصية العربية شخصية شاعرة: "فالشعر، هو المخزن الخطر للأنساق المضمرة،، وهو الجرثومة المستترة بالجماليات، التي ظَلَّت تفعل فعلها، وتفرز نماذجها جيلا بعد جيل ليس في الخطاب الشعري فحسب، بل في كل التجليات الثقافية، بدءًا من النثر الذي تَشَعرَنَ منذ وقت مبكر، وكذا الخطاب الفكري والسياسي والتأليفي، بما فيه النقدي، وكذا في أنماط السلوك والقيم، ولغة الذات مع نفسها ومع الآخر"[53].

إنّ التحولات السابقة الذكر، تعبر فعلا عن تحوّل في المصطلح النقدي، من الأدب إلى الثقافة، وتحديدا من النصوص الأدبية إلى الأنساق الثقافية، وهي تعيد النقد إلى معناه ومفهومه الحقيقي، وتوجهه إلى أداء وظيفته الأصلية، التي تُعَبِّرُ عن ارتباطه بالفلسفة قبل التحاقه بميدان الأدب، فكان التَّحَوُّلُ النهائي، من "النقد الأدبي" إلى "النقد الثقافي"، من خلال الاشتغال على قراءة النصوص الثقافية، أو بالتحديد، تفكيكها وتشريحها، ذلك أنّه بعد أن بيّن الغدامي مفهوم النقد الثقافي ووظيفته، عمل على توضيح طبيعة المنهج الذي يعتمد عليه النقد الثقافي.

3-تشريح النصوص/المنهج النقدي

إنّ من بين أهم المصطلحات التي يقوم عليها مشروع "النقد الثقافي" عند عبد الله الغذامي، نجد مصطلح "التشريحية"[54] الذي يقول عنه مبررا استخدامه له: "تخيّرت في تعريب هذا المصطلح، ولم أر أحدا من العرب، تعرض له من قبل (على حد اطلاعي)، وفكرت له بكلمات مثل (النقض/الفك)، ولكن، وجدتهما يحملان دلالات سلبية تُسِيءُ إلى الفكرة، ثم فَكَّرتُ باستخدام كلمة (التحليلية) من مصدر (حل) أي نقض، ولكنني خفت أن تلتبس مع (حَلَّلَ) أي درس بتفصيل، واستقر رأيي، أخيرًا على كلمة "التشريحية" أو تشريح النص، والمقصود بهذا الاتجاه، هو تفكيك النص من أجل إعادة بنائه، وهذه وسيلة تفتح المجال للإبداع القرائي، كما يتفاعل مع النص"[55].كما يوضح لنا أكثر مفهومه للتشريحية وكيفية تطبيقها قائلا: "أسمي منهجي بالنصوصية، أو بالنقد الألسني، وأسمي الإجراء بالتشريحية، لأنّ ما نفعله إجرائيا، هو ممارسة التشريح فعليا، من أجل الوصول إلى سبر تركيبات النص وأبنيته الداخلية، ثم نأخذ بتفسير العملية تفسيرًا نُصُوصِيًا، يقوم على مبدأ من تفسير القرآن بالقرآن"[56].

يطمح الغذامي أن يصبح النقد إبداعًا، ينافس الإبداع الأصلي ويحتاج بدوره إلى تشريح، لأنّ للنقد طَقسِيَّتُهُ ورموزه، ولذلك قد يصرفنا المنهج البنيوي التشريحي عن النص، لإقامة نص مركب جديد[57]. هكذا، فقد وجد الغذامي في

إسهامات النقاد المعاصرين، من أمثال رولان بارث وجاك لاكان وجاك دريدا، وغيرهم، سندا قويا في إرساء قواعد مشروعه النقدي الثقافي، من خلال اعتماد منهج التشريح أو التفكيك، على أنّه إذا كان هدف هؤلاء، هو تمييز مستويات المعنى، مثلما نجد عند رولان بارث مثلا أو إعطاء القيمة للنص وبالتالي الكتابة، مثلما يؤكد على ذلك جاك دريدا، فإنّ الهدف الرئيس الذي يسعى الغذامي إلى تحقيقه، من وراء اعتماده منهج تشريح النصوص، هو تجاوز البعد البلاغي الجمالي للنص إلى بعده المنطقي، أي كشف السياقات الثقافية المضمرة فيه.

لقد حاول الغذامي استثمار التحولات والنتائج، التي عرفها مفهوم النقد في الفكر الغربي المعاصر، وتوظيفها في مجال نقد الأنساق الثقافية العربية، من أجل إظهار عيوبها، وتأثيراتها السلبية على الثقافة العربية والشخصية العربية ولكي يحرر "النقد الثقافي" عند الغذامي النصوص من ثقافة الحداثة، ومن النقد الأدبي التقليدي ذاته، فإنّ التشريحية كمنهج لإعادة قراءة النصوص، تبيّن لنا أنّ النّص لم يعد مُلكًا لمؤلفه، كذلك وأنّ قارئ النص لم يعد مجرد مستهلكٍ له فنحن: "لم نعد نقبل بالوقوف أمام النص كمتفرجين، ليس بيدنا غير تلقي ما قد قاله المؤلف[58]، هذه حالة مضى زمانها بارتقاء القارئ إلى منتج للنص، ولن يكون من الممكن العودة إلى الوراء، بعد أن خطا عقل الإنسان وخياله خطى واسعة إلى الأمام، كي يغزو النص من أعماقه ويعيد تشكيله"[59]. هكذا، تبدو القراءة التشريحية، أمام الغذامي كأجمل ما قدمه العصر من إنجاز نقدي أدبي، فهي تصلح لقراءة كل النصوص، فلا يتمرّد عليها أيّ نص، فهي ترسم مجالا تاما للتركيز على النص، وتفتح من جهة ثالثة، بابا للدور الإبداعي للقارئ، وتتحول به من مستهلك للنص، إلى صانع ومنتج له[60]. فالتشريحية بالنسبة للغذامي، رحلة استكشافية للنص، فهي لم تعد مجرد نقد سلبي للنص، ولا هَدمًا له، إنها على العكس من ذلك تماما، إعادة بناء للنص. ويستخدم الغذامي في حديثه عن النص، مصطلح "النص المختلف" كمقابل لمصطلح "النص الأدبي" الموجود في النقد الأدبي ويعرفه قائلا: "النص المختلف[61]، هو ذلك الذي يؤسّس لدلالات إشكالية، تنفتح على إمكانيات مطلقة من التأويل والتفسير فتحفّز الذهن القرائي وتستثيره ليداخل النص ويتحاور معه في مصطرع تأملي، يكشف القارئ فيه، أنّ النص شبكة دلالية متلاحمة، من حيث البنية، ومتفتحة من حيث إمكانيات الدلالة...و مع تَجَدُّدِ كل قراءة، نكتشف أنّ النص يقول شيئًا لم نلاحظه من قبل، فكأننا أمام نص جديد، يختلف عن ذلك الذي عهدناه في قراءات سابقة"[62]. ولقد حاول الغذامي في أغلب مؤلفاته، أن يبيّن لنا كيفية تطبيق التشريحية على النصوص، خصوصا على القصائد الشعرية، على اعتبار أنّ الشعر لم يكن في الثقافة العربية مجرد خطاب، بل كان هو العلم والخطاب الحقيقي. إننا نجد أنّ الغذامي، قد قام بتشريح الكثير من قصائد الشعراء العرب، في أغلب مؤلفاته، خصوصا قصائد من يوصفون بفحول الشعر العربي، إذ نجده مثلا، يقوم بتشريح قصيدة "عمرو بن كلثوم"، مستشهدا ببعض أبياتها:

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

بغـاةً ظـالمين وما ظُـلِمنا ولكـننـا سنبــدأ ظــالمينا

ملأنا البحـر حتى ضاق عنا ومـاء البحــر نملأه سفينا[63]

تعمل التشريحية، على التَّحَوُّلِ من ظاهر النص إلى باطنه، وهذا هو تحديدا ما يقصده الغذامي بـ "النص المختلف" الذي لا يُنسَبُ إلى كاتبه (الشاعر)، وإنّما يصبح للقارئ دور في تأليفه، أو إعطاء معنى جديد له، فيُنظَرُ إلى كلام "عمرو بن كلثوم" مثلا، في "سياقه الثقافي"، الذي تولّد عنه. فالشاعر هنا، يتكلّم وفق "الأنا الشعرية" التي تولّدت عن القبيلة التي وجد فيها الشاعر، والتي ميّزتها التضخّم ونفي الآخر وإقصاءه، وهي ميزة أغلب القبائل العربية. ولكي يوضح لنا الغذامي أكثر بقية المفاهيم التي يقوم عليها النقد الثقافي والتي تتجلى أثناء الإجراء المسمى بتشريح النصوص، يواصل تشريح قصيدة "عمرو بن كلثوم"، فذكر منها قوله:

ترانـا بارزين وكـل حَيٍّ قد اتـخذوا مخافتنا قـرينا

نحن الحاكمون إذا اطعناونحن العازمون إذا عصينا[64]

هذه الجمل، التي نطق بها "عمرو بن كلثوم" تحيل إلى ما أسماه الغذامي، بـ "الجملة الثقافية"، التي تحيل بدورها إلى النسق المهيمن الذي اتخذ الشعر كنسق ثقافي وسيلة لفرض هيمنته، ومنه مبرر أنّ فكرة الفحل الشعري، هي التي أدت إلى ظهور الطاغية السياسي.

خاتمة

- عطفا على ما سبق ذكره حول موضوعة "النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي"، فإنّه يتبيّن لنا ما يلي:

-إنّ بين النقد الأدبي والنقد الثقافي، أوجه اختلاف كثيرة، فإذا كان النقد الأدبي، يدرس النص وطابعه الجمالي رابطا إياه بالشاعر/ الكاتب، فإنّ النقد الثقافي مقابل ذلك، يعمل على قراءة الأنساق الثقافية ونقدها، متجاوزا الجانب البلاغي في النص، إلى كشف أو تفكيك جانبه المُضمَر، الذي تستعمله الثقافة لتمرير أنساقها، دون وعي من كاتب النص ذاته.

- لقد تبيّن للغذامي أنّ الشعر وحده يتحمّل وِزرَ ما لحق بالشخصية العربية من عيوب، ذلك أنَّه جعل منها شخصية شعرية فالشعراء العرب، كما يرى الغذامي، تميّزت شخصياتهم بالطَّمَعِ والنِّفاقِ والأنا المُتَضَخِّم ومنه وُصِف الشعراء العرب بفحول الشعر العربي، وهي سِمَةٌ مُتَرَسِّمَةٌ في الخطاب الشعري العربي، تسربت بالتالي إلى الخطابات والأنساق الثقافية الأخرى، التي انساقت وراء هذا البعد الشعري وانحرفت عما هو واقعي.

- إنّ الوضع الذي آلت إليه الثقافة والشخصية العربيتين، هو الذي جعل "النقد الثقافي" بالنسبة إلى عبد الله الغذامي مطلبا نقديا لابدّ منه، فقد كان الغذامي، مُتَفَتِّحًا على الفكر الغربي الراهن، كما امتاز بالرؤية النقدية للمفكر ما بعد-حداثي، الذي يفكّر خارج النسق لا داخله، فهو من أهم الذين تَبَنَّوا فكر ما بعد الحداثة، واستفاد من معارفها خصوصا اللسانيات والسيميولوجيا، وغيرها في نقد الأنساق الثقافية العربية، لكنّه لم يكن نقدا سلبيا هدّاما، وإنّما كان نقدا بناء هادفا، ينطلق من فضح تناقضات الثقافة، وكشف ألاعيبها المُضمَرة، ويسعى إلى إعادة بنائها نحو ما بعد الحداثة.

- لقد تمكّن الغذامي من بناء جهاز مفاهيمي خاص به يعبّر عن إسهامه الفعلي في تأسيس مشروع للنقد خاص بالثقافة العربية خصوصا مصطلحات "الوظيفة النسقية" و"الجملة الثقافية"، هذا إضافة إلى تعديله لأقسام الفعل التواصلي حيث أضاف عنصرا جديدا يساعد في نقد الأنساق الثقافية، ألا وهو "العنصر النسقي". أمّا التشريحية، فكانت أهم إسهامات الغذامي، التي على الرغم من أنها مستوحاة من التفكيكية كما تجلت معالمها في الرؤية ما بعد الحداثية عند جاك دريدا، إلا أنّ الغذامي نَحَتَ مصطلحا عربيا خاصا به، يكون أكثر تعبيرا عن كيفية تطبيق هذا المنهج، وكذا أكثر ارتباطا بالموضوعات الذي يطبق عليها، من خلال تشريح النصوص.

الهوامش

1. عبد الرحمان إسماعيل ، من هو الغذامي ؟ ، ضمن كتاب "الغذامي الناقد ، قراءات في مشروع الغذامي النقدي" ، تقديم عبد الرحمان بن إسماعيل ، مؤسسة اليمامة الرياض ، 2001 ، ص 8.
2. عبد الله إبراهيم ، النقد الثقافي ، مطارحات في النظرية والمنهج ، ضمن كتاب جماعي "عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية" ، ط3 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الأردن ، 2003 ، ص 37.
3. حفناوي رشيد بعلي ، قراءة في نصوص الحداثة وما بعد الحداثة ، ط1 ، دروب للنشر والتوزيع ، عمان ، 2001 ، ص 198.
4. إدريس بلمليح ، الرؤية والمنهج لدى الغذامي ، ضمن كتاب "الغذامي الناقد ، قراءات في مشروع الغذامي النقدي" ، ص 17.
5. عبد الله بن أحمد الفيفي ، قراءة في مشروع الغذامي ، ضمن كتاب "الغذامي الناقد ، قراءات في مشروع الغذامي النقدي" ، ص 353.
6. عبد الله الغذامي ، الموقف من الحداثة ومسائل أخرى ، ط2 ، الرياض ، 1991 ، ص 15.
7. "إن فكر "ما بعد البنيوية" ، الذي يقترن في كثير من الأحيان بأعمال جاك دريدا ، يتفحص فكرة الاختلاف بكل أوجهها ، ويكشف أن سوسير ، قد أبقى على بعض الافتراضات المسبقة (الميتافيزيقية) حول الذاتية واللغة (مثلا ، تفضيل الكلام على الكتابة) ، وهي بقايا (ضئيلة) من إطار المذهب التاريخي الذي لم يكن سوسير نفسه راضِيًا عنه. ويَدرُسُ فكر "ما بعد البنيوية" ، الكتابة باعتبارها المصدر الإشكالي للمفارقة المتمثلة في: الذاتية والثقافة ، في حين أنه كان يُعتَقَدُ في الماضي ، بأنها ثانوية ، والأمر الأهم ، أن فكر "ما بعد البنيوية" هو بحث في كيفية قيام ذلك. وهنالك جانب آخر ، من فكر "ما بعد البنيوية" ، يشمل التساؤل الجذري بشأن "الآخرية" Otherness (لوفيناس وباتاي) ، وكذلك بشأن العلاقة بين الذات والموضوع. وفي عمل دولوز ، المُستَلهَمِ من نيتشه نجد أن "الشجرة" (وتعني البحث عن الجذور) الخاصة بعلاقة "الذات-بالموضوع" تتم مقارنتها بالجذمور Rhizome (ساق أرضية شبيهة بالجذر) العائد للفكر الأفقي ، أو الفكر في حركة دائمة". أنظر: جون ليشته ، خمسون مفكرا أساسيا معاصرا ، من البنيوية إلى ما بعد الحداثة ، ترجمة فاتن البستاني ط1 المنظمة العربية للترجمة ، بيروت ، 2008 ، ص 201.
8. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2005 ، ص 19.
9. حفناوي بعلي ، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ، ط1 ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، 2007 ، ص 24.
10. بشرى موسى صالح ، بويطيقا الثقافة ، نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي ، ط1 ، دار الشؤون الثقافية العانة ، بغداد ، 2013 ، ص 5.
11. أرثرأيزابرجر ، النقد الثقافي ، تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة ، ط1 ، ترجمة وفاء إبراهيم ورمضان سبطاويسي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 2003 ص 1.
12. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 84.
13. سيد قطب ، النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه ، ط8 ، دار الشروق ، القاهرة ، 2003 ، ص 5.
14. يوسف حامد جابر ، قراءة نقدية في كتاب "النقد الثقافي" لعبد الله الغذامي ، مجلة "دراسات في اللغة العربية وآدابها" ، العدد التاسع ، تصدر عن جامعة سمنان الإيرانية بالتعاون مع جامعة تشرين السورية ، 2012 ، ص 1.
15. بشرى موسى صالح ، بويطيقا الثقافة ، نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي ، المرجع السابق ، ص 8.
16. يقول ميشال فوكو عن الثَّقَافَة: "كما لو أن الثَّقَافَة ، إذ تتحرَّرُ في جزء منها في شبكاتها اللغوية والإدراكية والعملية ، تُطَبِّقُ على هذه الشبكات شبكة ثانية تحيدها ، وتقوم إذ تضاعفها ، بإظهارها واستِبعادها في الوقت نفسه" ، أنظر: ميشال فوكو ، الكلمات والأشياء ، ترجمة مطاع صفدي ، مركز الإنماء القومي بيروت 1990 ، ص 24.
17. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 07.
18. يقول رومان ياكوبسون عن ارتباط الوظيفة الشعرية للغة بما هو فني وجمالي: " إن موضوع الشعرية ، هو قبل كل شيء ، الإجابة عن السؤال التالي: ما الذي يجعل من رسالة لفظية أثرا فنيا ؟ وبما أن هذا الموضوع يتعلق بالاختلاف النوعي الذي يفصل فن اللغة عن الفنون الأخرى ، وعن الأنواع الأخرى للسلوكيات اللفظية ، فإن للشعرية ، الحق في أن تحتل الموقع الأول بين الدراسات الأدبية". أنظر: رومان ياكوبسون ، قضايا الشعرية ، ط1 ، ترجمة محمد الولي ومبارك حنور ، دار توبقال ، المغرب ، 1988 ، ص 24.
19. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 262.
20. عبد الله إبراهيم ، النقد الثقافي –مطارحات في المنهج والنظرية والتطبيق-ضمن كتاب "عبد الله الغذامي والممارسة النقدية والثقافية" ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 2003 ، ص 39.
21. عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير ، من البنيوية إلى التشريحية ، النظرية والتطبيق ، ط6 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2006 ، ص 26.
22. عبد الله الغذامي ، ثقافة الأسئلة ، مقالات في النقد والنظرية ، ط2 ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، 1993 ، ص 70.
23. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 12.
24. جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف ، ط2 ، ترجمة كاظم جهاد ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، 2000 ، ص 51.
25. رومان ياكوبسون ، قضايا الشعرية ، المرجع السابق ، ص 25.
26. عبد الله الغذامي ، الموقف من الحداثة ومسائل أخرى ، المصدر السابق ، ص 59.
27. عبد الله الغذامي ، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2009 ، ص 72.
28. عبد الله الغذامي ، نقد ثقافي أم نقد أدبي ؟ ، دار الفكر ، دمشق ، 2004 ، ص 45.
29. عبد الله الغذامي ، القصيدة والنص المضاد ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1994 ، ص 81.
30. عبد الله الغذامي ، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف ، ط2 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 2005 ، ص 120.
31. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 119.

32. (32)- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
33. قرآن كريم: سورة الشعراء من الاية 224-226
34. عبد الله الغذامي ، نقد ثقافي أم نقد أدبي ؟ ، المصدر السابق ، ص 43.
35. يعرف دريدا الكتابة قائلا: "إذا كنا نطلق كلمة لغة ، على الفعل والحركة والفكر والتروي والوعي واللاوعي والخبرة والانفعال الخ. فإننا نميل الآن إلى أن نطلق كلمة "كتابة" على هذا ، وعلى أشياء أخرى: لا نطلقها فقط على الحركات البدنية لعملية التدوين في الكتابة الأبجدية والكتابة التصويرية pictographique والكتابة الرمزية idéographique ولكننا ، نطلقها أيضا على كل ما يجعل الكتابة ممكنة ، ونطلقها أيضا فيما وراء الوجه الدال على الوجه المدلول " ، أنظر: جاك دريدا ، في علم الكتابة ، ترجمة أنور مغيث ، ط 2 ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2002 ، ص 69.
36. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 123.
37. المصدر نفسه ، ص 192.
38. عبد الله الغذامي ، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف ، المصدر السابق ، ص 124.
39. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 5.
40. إدريس جبري ، الإمكانيات والعوائق في المشاكلة والاختلاف ، ضمن كتاب ، الغذامي الناقد ، قراءات في مشروع الغذامي النقدي تحرير وتقديم عبد الرحمان بن إسماعيل ، مؤسسة اليمامة ، الرياض ، 2001 ، ص 32.
41. عبد الله الغذامي ، القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة ، ص 13.
42. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 15.
43. المصدر نفسه ، ص 168.
44. المصدرنفسه ، ص 58.
45. المصدر نفسه ، ص 62.
46. رومان ياكوبسون ، قضايا الشعرية ، المرجع السابق ، ص 27.
47. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 65.
48. عبد الله الغذامي ، نقد ثقافي أم نقد أدبي ؟ ، المصدر السابق ، ص 27.
49. عبد الله الغذامي ، نقد ثقافي أم نقد أدبي ؟ ، المصدر السابق ، ص 30.
50. المصدر نفسه ، ص 28.
51. ميشال فوكو ، حفريات المعرفة ، ط 2 ، ترجمة سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، 1987 ، ص 76.
52. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 83.
53. المصدر نفسه ، ص 87.
54. استخدم الغذامي "التشريحية" كمرادف لكلمة "التفكيكية" التي يقول عنها جاك دريدا: "إن كلمة "التفكيك" ، شأن كل كلمة أخرى ، لا تستمد قيمتها إلا من اندراجها في سلسلة من البدائل الممكنة ، فيما يسميه البعض ببالغ الهدوء "سياقا" ، بالنسبة إلى ، وكما حاولت أو ما زلت أحاول أن أكتب ، لا تتمتع هذه المفردة بقيمة ، إلا في سياق معين ، تحل فيه محل كلمات أخرى ، أو تسمح لكلمات أخرى أن تحدها: "الكتابة" écriture أو "الأثر" trace أو "الاخ(تـ)لاف" deffarence أو "الزيادة" supplément أو "الهامش" marge أو "الباكورة" entame أو "الإطار" parerons الخ" ، ينظر: جاك دريدا ، الكتابة والاختلاف ، المرجع السابق ص 62.
55. عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير ، من البنيوية إلى التشريحية ، النظرية والتطبيق ، المصدر السابق ، ص 48.
56. عبد الله الغذامي ، ثقافة الأسئلة ، مقالات في النقد والنظرية ، المصدر السابق ، ص 108.
57. حفناوي رشيد بعلي ، قراءة في نصوص الحداثة وما بعد الحداثة ، المرجع السابق ، ص 196.
58. يقول رولان بارث عن المؤلف:"المؤلف شخص حديث ، وهو من دون شك منتوج من منتوجات مجتمعنا ، فالمجتمع حين خرج من العصور الوسطى مُعَضَّدًا بالتجريبية الانجليزية والعقلانية الفرنسية والإيمان الشخصي بحركة الإصلاح ، قد اكتشف مكان الفرد ، أو كما يقال بشكل أكثر نُبلًا ، قد اكتشف "الشخص الإنساني" ، وإنه لمن المنطقي إذن ، أن يعقد المذهب الوضعي في مادة الأدب ، أهمية عظمى على شخصية المؤلف ، فهذا المذهب هو خلاصة الايديولوجيا الرأسمالية ، ومحط غايتها". أنظر: رولان بارث ، هسهسة اللغة ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، بيروت ، 1999 ، ص 76.
59. عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير ، من البنيوية إلى التشريحية ، النظرية والتطبيق ، المصدر السابق ، ص 233.
60. قاسم المومني ، عبد الله الغذامي وقراءة النص ، ضمن كتاب ، الغذامي الناقد ، قراءات في مشروع الغذامي النقدي ، المرجع السابق ، 410.
61. يقول رولان بارث عن النص ما يلي: "إننا لنعرف الآن ، أن النص ليس سطرا من الكلمات ، ينتج عنه معنى أحادي ، أو ينتج عنه معنى لاهوتي ("الرسالة"جاءت من قِبَلِ الله) ، ولكنه ، فضاء لأبعاد متعددة ، تتراوح فيها كتابات مختلفة ، وتتنازع دون أن يكون أي منها أصليا: فالنص ، نسيج لأقوال ناتجة عن ألف بؤرة من بؤر الثقافة" ، أنظر: رولان بارث ، هسهسة اللغة ، المرجع السابق ، ص 80.
62. عبد الله الغذامي ، المشاكلة والاختلاف ، قراءة في النظرية النقدية العربية وبحث في الشبيه المختلف ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، 1994 ، ص 6.
63. عبد الله الغذامي ، النقد الثقافي ، قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، المصدر السابق ، ص 121.
64. المصدر نفسه ، ص 122.

مكانة السؤال البرلماني في النظام الدستوري الجزائري باعتباره آلية رقابية على أعمال الحكومة.

قدور ظريف*

الملخص

لقد قامت هذه الدراسة بتحليل الجانب النظري والواقع العملي للسؤال البرلماني في النظام الدستوري الجزائري ، وذلك من خلال دراسة المراحل العملية التي تتطلبها عملية طرح السؤال باعتباره أحد الآليات الرقابية التي وضعت بين يدي السلطة التشريعية لرقابة السلطة التنفيذية لإرغامها على إصلاح أوجه التقصير والخلل في أي جانب من جوانب القطاعات التي تتبعها ، ومن ثم سلطنا الضوء في هذه الدراسة على هذه الآلية الرقابية من جانبين جانب نظري تعلق بتحديد مفهومه ووظائفه وكذا التقسيمات التي يوجد عليها ، وجانب عملي تعلق بالضوابط والإجراءات التي ينبغي التقيد بها عند مباشرة توظيفه سواء من جهة العضو البرلماني السائل أو من جهة العضو الحكومي المجيب ، وختمت الدراسة بتحديد الآثار والنتائج المترتبة على استعمال هذا الأسلوب الرقابي.

الكلمات المفاتيح: السؤال البرلماني ، الحكومة ، البرلمان ، السلطة التنفيذية ، الرقابة البرلمانية.

Résumé

La présente étude se propose d'analyser l'aspect théorique et pratique des questions parlementaires en droit constitutionnel algérien, et traitera des procédures d'information **dont dispose le parlement pour contrôler le gouvernement.**

Les questions parlementaires sont considérées comme un moyen d'enquête et de contrôle des plus importantes qu'exerce Le Parlement sur les actions du gouvernement. Elles lui donnent la possibilité d'obtenir des éclaircissements sur des points particuliers ou de préciser un aspect de la politique du gouvernement ou d'attirer son attention sur les empiétements et les violations qui se sont produits et l'obligent à agir.

Les questions contribuent, en général, au bon fonctionnement du gouvernement.

Mots clés : Question Parlementaire, Gouvernement, Parlement, Autorité Exécutive, Le Contrôle Parlementaire.

Summary

This study analyzes both the theoretical aspect and practical reality of the parliamentary question within the Algerian constitution by studying the stages required in the process of asking the parliamentary question since it is basically regarded as one of the regulatory mechanisms which lie in the hands of the lagislature inorder to exert influence on the executive branch to force it to fix shortcomings and flaws in any aspect related to governemets sectors.

The present study focuses on the parliamentary question from a theoretcal frameworke which identifies the concept of the parliamentary question-its functions end division for which it stands, and a practical side which highlights the grounds, and rules, that should be adhered to when directing the parliamentary question, or from the member of the parliament, the inquirer,or from the member of the Government, the respondent.

At last, the study concludes by determining the effects and consequences using the aforementioned Control method.

Keywords: Parliamentary Question, Government, Parliament, Executive Authority, Parliamentary Oversight

* أستاذ مساعد قسم أ، كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة محمد لمين دباغين سطيف2.

مقدمة

إن الآليات الرقابية التي تحوزها السلطة التشريعية في مواجهة انحراف وتسلط السلطة التنفيذية كثيرة ومتنوعة، لكن تأثير هذه الآليات ليس جميعها بنفس القوة والدرجة، فهناك من يصل تأثيرها إلى حد إثارة المسؤولية السياسية للحكومة بما يؤدي إلى حجب الثقة عنها وإزاحتها عن الحكم، ومنها ما يبقى تأثيرها محصور فقط في مجرد تنبيهها إلى أوجه التقصير والعجز في تنفيذ برامجها ومخططاتها، بغية الاستعلام والاستفسار عن بعض التصرفات والأعمال التي قامت الحكومة بمباشرتها للتأكد من اتفاقها مع الصالح العام.

وعلى غرار جل الدساتير المقارنة نص الدستور الجزائري على جملة من الأدوات التي تكفل للسلطة التشريعية ممارسة دورها الرقابي على عمل الحكومة لضمان إلتزامها بالحدود الدستورية المرسومة لها.

ولا شك أن السؤال البرلماني[1] -موضوع دراستنا- هو واحد من هذه الأدوات التي نص عليها المؤسس الدستوري الجزائري وإن كان يختلف عنها من حيث الأهمية التي يحوزها والسهولة التي توجد عليها عملية توظيفه على اعتبار أنه البداية المنطقية لكثير من المسائل الخطيرة التي تمس باستقرار السلطة التنفيذية وبقائها كآلية ملتمس الرقابة مثلا[2]، كما أنه يعتبر من أكثر الوسائل الرقابية استخداما وشيوعا بين ممثلي الشعب، مع أنه-كما يرى البعض- في حقيقة أمره وفي جوهره لا يعدو أن يكون مجرد وسيلة إعلامية استفهامية يلجأ إليها أعضاء البرلمان بهدف الاستيضاح والاستفسار عن أمر يجهلونه حول تصرفات وتوجهات الحكومة في بعض المجالات والقطاعات.

من هنا كانت إشكالية البحث تتجلى في الإجابة على السؤال التالي:

هل أدى السؤال البرلماني في الجزائر الدور المنوط به في تمكين ممثلي الشعب من حقهم الدستوري في الحصول على المعلومة التي يريدون الوصول إليها للاستيضاح والاستبيان بشأن التصرفات التي قامت بها الحكومة بغية الضغط عليها أمام الرأي العام لإصلاح أوجه الخلل والقصور في هذه التصرفات أم أن قوة نفوذ هذه الأخيرة حال دون ذلك؟

وسنتوخى الإجابة على هذه الإشكالية من خلال إتباع كل من **المنهج الوصفي** الذي يفيدنا في قراءة النصوص الدستورية والقانونية ذات الصلة بموضوع الدراسة لمعرفة حقيقة توظيفها في الواقع العملي، **والمنهج التحليلي** الذي فرضته طبيعة الموضوع وما تحتاجه من قراءة النصوص وفهمها ليتسنى تحليلها بما يؤكد حقيقة دور السؤال البرلماني باعتباره وسيلة رقابية تمارس على أعمال الحكومة، وتبيان ذلك من ناحية التطبيق العملي الذي يختلف اختلافا جوهريا عن الجانب النظري.

وقد تطرقنا في هذه الدراسة إلى مفهوم السؤال البرلماني (مطلب أول) ثم ضوابط وإجراءات توظيفه (مطلب ثان).

المطلب الأول

مفهوم السؤال البرلماني

نتصدى في هذا المطلب لتعريف السؤال البرلماني (فرع أول) ثم نتولى تحديد وظائفه (فرع ثان) وأخيرا نبين مختلف تقسيماته (فرع ثالث).

الفرع الأول

تعريف السؤال

لم تتطرق الدساتير الجزائرية جميعها حينما قررت مبدأ حق العضو البرلماني في توجيه أي سؤال للحكومة إلى مسألة إعطاء تعريف شامل ومحدد له، تاركة هذه المهمة لفقهاء وشراح القانون الدستوري وللممارسة البرلمانية ولسلطة البرلمان التقديرية في تحديد التعريف المناسب.

بيد أنه برجوعنا إلى تعريف الفقهاء نجد أنهم لم يتفقوا على إعطاء تعريف واحد وشامل له، بل اختلفت وتعددت وجهات النظر بشأنه، فمنهم من جاء تعريفه موجزا ومختصرا لم يتطرق إلى السؤال من كل جوانبه وعناصره، ومنهم من جاء تعريفه أكثر إيضاحا وتبيانا مس العديد من جوانب السؤال، وجاء تعريف آخر وافيا ودقيقا يتوغل في كل مناحي السؤال، ومن ثم سوف نتصدى لوجهات النظر هذه فيما يلي:

فهو من جهة " استيضاح حول أمر من أمور الدولة يتولى من خلاله أحد أعضاء البرلمان تقديم طلب للحكومة ككل أو لأحد الوزراء لإعطائه توضيحا بشأن موضوع معين يتعلق بالغاية من تصرفات المؤسسات والجهات المرتبطة

بوزارة من الوزارات في شأن من الشؤون العامة ، حتى يستطيع أعضاء البرلمان تتبع نشاط الإدارة العامة والحكم عليه[3]" وبالتالي فحقيقة السؤال-حسب هذا التعريف-هي استيضاح لا ينطوي على أي اتهام أو محاسبة ، بينما ذهب البعض الآخر في تعريفه للسؤال على أنه "رغبة في التحقق من حدوث أو حصول واقعة وصل إلى علم أو استعلام عضو البرلمان عن نية الحكومة في التصرف في مسألة من المسائل بطريقة غير سليمة تؤدي إلى الإضرار بالمصلحة العامة ، وبالتالي تحذيرها من مغبة التمادي في هذا التصرف أو ذاك ليتسنى درء الخطر المتوقع حصوله [4]"ومن ثم يتعلق السؤال هنا بالموقف المحتمل الذي ستتخذه الحكومة بشأن موضوع سياسي معين.

في حين نظر جانب آخر من الفقه إلى السؤال على أنه " حلقة من حلقات التعاون وتبادل المعلومات بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية" ، وأنه بهذا المعنى ليس وسيلة من وسائل الرقابة التي تملكها السلطة التشريعية اتجاه السلطة التنفيذية ، بل هو إجراء عديم الأثر لا يترتب عليه حدوث أية مناقشات التي يمكن أن تكون نتيجتها طرح الثقة بالحكومة ، وعليه فالسؤال-حسب هذا الرأي-ينشأ علاقة مباشرة بين عضو البرلمان (صاحب السؤال) وأحد أعضاء الحكومة (المجيب عليه) بهدف الكشف عن حقيقة أمر معين ناتج عن عمل وتصرف الحكومة.

الفرع الثاني

وظائف السؤال البرلماني

نقول في البداية بأن السؤال حسب نظامنا الدستوري لا يتبعه أي أثر على مسؤولية الحكومة بل وأحيانا أخرى ليس له أي أثر حتى على وقع الرأي العام الوطني ، خاصة إذا كان هذا السؤال ذا طابع جهوي أو محلي [5] ، ومع ذلك لا يمكن إطلاقا التقليل من أهمية وقيمة السؤال ودوره في الحياة السياسية لأي نظام دستوري ، فهو يمكن أن يؤدي أكثر من وظيفة ويصل إلى تحقيق أكثر من نتيجة ، يتوقف وجودها على طبيعة وغاية السؤال في حد ذاته ، ونظرا لتعدد هذه الوظائف وتنوعها لا بأس أن نقف على أهمها:

أولا: السؤال وسيلة لتبادل الحوار والنقاش بين سلطة التشريع وسلطة التنفيذ

بقدر ما توظف الأسئلة للاستعلام والتقصي بقدر ما توطد أكثر علاقة الحكومة بالبرلمان[6] ، لهذا ينظر البعض من الفقه إلى السؤال بأنه وسيلة مهمة لتبادل الحوار والنقاش بين الحاكمين(رجال السلطة التنفيذية) ومراقبي الحكام (النواب) ، وبالتالي فتح قنوات اتصال بين السلطتين التشريعية والتنفيذية عن طريقه يتسنى للبرلمان التعرف على العديد من القضايا العامة ودقائقها[7] ، بمقتضى هذا الحوار تحاول الأسئلة البرلمانية اكتشاف الخلل والتقصير الحكومي من خلال رصد المعلومات والشكاوى المقدمة من المواطنين ومجابهة الحكومة بها ، وبدورها تعمل السلطة التنفيذية عند الرد على تلك الأسئلة بإتباع طريقة الأصل فيها الحوار والمكاشفة بعيدا عن الصراع والتعصب الحزبي[8] .

ثانيا: السؤال أداة استفهام واستعلام

يقول خبير البرلمان الانجليزي الشهير إرسكينماى" إن الغرض من تقديم أي سؤال برلماني هو الحصول على معلومات من الجهاز التنفيذي أو الضغط على هذا الجهاز لإرغامه على القيام بإصلاح تصرف ما يخص الشأن العام[9]". وبمقتضى هذا القول فإنه قد تكون الغاية من توظيف السؤال هي تزويد البرلمان بالبيانات والمعلومات حول بعض القضايا والمشاريع المرتبطة بالسياسة العامة للدولة ككل أو بأي نقطة فيها ، لأن الأشخاص الذين لديهم المعلومات والقدرة على توظيفها هم أعضاء الحكومة ، ولذلك فإنهم الأشخاص الذين يمتلكون الإجابات على الأسئلة المقدمة من طرف نواب الشعب ، بغية الوصول إلى نتائج معينة قد تساعد الحكومة على تجنب الوقوع في الإضرار بشؤون مواطنيها وتفادي الانحراف عن خدمة المصالح العامة[10] ، ومن ثم منحها الفرصة لتصويب نشاطها بإصلاح أوجه التقصير والخلل فيه قبل فوات الأوان بتحريك مسؤوليتها السياسية[11] ، هذه المعلومات من الصعب على النواب الحصول عليها بغير سلوك هذا الطريق ، لذلك كان منطقيا أن تعتبر الأسئلة آلية حقيقية لتدفق المعلومات والحقائق من الجهاز الحكومي.

ثالثا: السؤال أداة للكشف عن المخالفات الحكومية

الأسئلة البرلمانية أداة رقابية هامة لمتابعة أوجه القصور في السياسة العامة للحكومة وتنبيهها إلى كل خلل قد يحصل في أي جانب من جوانب هذه السياسة ، ومن هنا يعطى الوزير المسؤول الفرصة ليتلافى الخطأ وتصحيح الخلل

الموجود قبل استخدام الوسائل الرقابية الأخرى التي قد تقود الحكومة إلى حد المساءلة السياسية ، ومن ثم فالأسئلة أداة للكشف عن أوجه القصور والتراخي والخلل في مختلف المرافق الحكومية ، ليكون في الأخير الوسيلة الفعالة يستعملها البرلمان في الوقت المناسب للضغط على المسؤولين والدفع بهم إلى اتخاذ إجراءات علاجية أو أي فعل آخر يكون كافيا لإصلاح هذا الخلل ، ما دام أن إجابات الوزراء نتيجة للأسئلة الموجهة إليهم قد تكشف عن بعض المخالفات والثغرات القانونية والإدارية وحتى المالية في الأداء الحكومي ، لاسيما فيما يخص قضايا التنمية على المستوى المحلي.

رابعا: السؤال أداة لمتابعة تنفيذ القوانين والتنظيمات

قد يكون السؤال وسيلة جدية لمراقبة الحكومة عند سهرها على تنفيذ القواعد القانونية وما مدى جديتها وحرصها على الإسراع في تفعيلها وتطبيقها ، وذلك عندما تكشف الإجابات الوزارية أن السبب المباشر في وجود هذا الخلل أو ذاك هو المنظومة القانونية للدولة في حد ذاتها ، مما يستدعي إجراء بعض الإصلاحات التشريعية ليتسنى متابعة تنفيذ المخططات الحكومية ، وبالتالي لا يكفل السؤال رقابة فعالة على العمل الحكومي فحسب بل قد يمتد هذا الإصلاح حتى إلى المجال التشريعي فيمس النشاط والعمل البرلماني ذاته ، فيكون سببا كافيا لإعادة النظر في القوانين التي تحكم أوجه العمل الحكومي ، ليصبح السؤال بمثابة وسيلة هامة تدفع نحو تحقيق تعديلات تشريعية بغية الإسراع والتعجيل في تنفيذ القوانين[12] ،ومن ثم يكون السؤال بديلا حقيقا عن ممارسة حق اقتراح القوانين الذي في كثير من الأحيان يتم إجهاضه من قبل السلطة التنفيذية[13] بسبب العراقيل الكثيرة التي تقف في وجه النواب عند مبادرتهم باقتراحات القوانين.

خامسا: السؤال أداة لتحقيق المكاسب السياسية

قد يستخدم السؤال البرلماني كأداة لاستقطاب وإقناع الرأي العام وحشد المزيد من التأييد الشعبي لشخص النائب وحزبه ، فهو من هذا الجانب يعتبر من بين أهم الوسائل التي يمكن استعمالها للتنافس بين مختلف التيارات الحزبية أو بين المجموعات البرلمانية ، وهذا التنافس الغرض منه كسب المزيد من التأييد والتعاطف الشعبي ، بل أصبح هدف بعض النواب عند استعمال الأسئلة البرلمانية هو قصف وإمطار وتوعد للحكومة واستعراض العضلات لا لشيء إلا للفت الانتباه والظهور أمام هيئة الناخبين بمظهر الممثل الحريص على مصلحة المواطنين والمعارض الحقيقي لتوجهات الحكومة.

لذلك قد يلعب السؤال دور الترويج أو الانتقاد للنشاط والعمل الحكومي بين نواب الموالاة ونواب المعارضة ، حيث أن نواب الموالاة يستخدمونه من أجل الترويج والمساندة للأعمال والأنشطة المنجزة من طرف الحكومة ، وذلك بإبراز المزايا التي حققتها وتأييدها والترويج لها أمام الرأي العام ، وتضخيم الانجازات والتقليل من شأن الإخفاقات المسجلة ، ويظهر هذا التأييد وذلك التضخيم خصيصا من خلال تعقيب هؤلاء النواب على إجابة ورد الوزير بالاقتناع التام والرضا المفرط بل وأحيانا بالشكر والثناء عليه والتعظيم من شأن الإجابة المقدمة من طرفه.

أما نواب أحزاب المعارضة فهم يتخذون منحى مخالف للمنحى السابق ، فيحاولون من خلال استخدام آلية السؤال إحراج الحكومة من خلال انتقاد العمل الذي قامت به وكشف مثالبها القائمة وتقصيرها في تقديم الخدمات العامة وسوء إدارتها لمختلف المطالب الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية والثقافية.

مما تقدم يمكن القول أنه لا يمكن أن نتوقع في كل الأحوال من الأسئلة والإجابات المرتبطة بها أن تعتمد على جمع المعلومات والحصول على البيانات وإنما هي تعبر عن مواقف حزبية وسياسية في المقام الأول[14].

الفرع الثالث

تقسيمات السؤال البرلماني

إذا كانت الممارسات البرلمانية المقارنة تعترف بوجود عدة أنواع للأسئلة البرلمانية فإن الدساتير الجزائرية لم تعترف إلا بشكلين لهما ، يتعلق الأمر هنا بالأسئلة الشفوية من جهة والأسئلة الكتابية من جهة أخرى[15] ، وهما النوعين الذين أشار لهما الدستور الجزائري النافذ حاليا في الفقرة الأولى من المادة 134من دستور 96 والتي أصبحت تقابل المادة 152من التعديل الدستوري لسنة 2016 " يمكن لأعضاء البرلمان أن يوجهوا أي سؤال شفوي أو كتابي إلى أي عضو في الحكومة."

غير أن ما يلاحظ على هذه المادة أنها اكتفت بذكر هذين التقسيمين ، دون أن توضح مضمون وهدف كل منهما ولا الفرق الموجود بينها حتى في حالة إجراء مناقشة على خلفية جواب عضو الحكومة غير المقنع ، إلا في بعض الشروط الشكلية اقتضتها إجراءات وشروط توجيه السؤال ، فجعلتهما متساوين من حيث الأهمية والنتيجة ، في المقابل أن تطبيق هذه الآلية حسب أعراف البرلمانات الغربية بينت أن هناك اختلافات جوهرية وفوارق أساسية بين النوعين ، لاسيما في طبيعة الأهداف التي يسعى كل نوع إلى بلوغها[16] ، حيث درجت هذه الأعراف على حصر هدف السؤال الكتابي في الحصول على توضيحات أو معلومات حول مسألة أو قضية معينة بالذات ، التي غالبا ما تتعلق بكيفية تنفيذ أو تطبيق نص قانوني أو تنظيمي معين ، أو بند من بنود مخطط العمل الحكومي ، وكذا بالحلول والمخارج التي لجأت إليها الحكومة فيما يخص المسائل والانشغالات المحلية منها خاصة التي كانت تشغل الرأي العام وبقيت عالقة مدة زمنية ليست بالقصيرة[17] وقد يكون المبتغى من السؤال الكتابي الدفع بالحكومة إلى إيجاد حلول للمشاريع العاطلة ، وقد يقتصر موضوعه على مجرد لفت انتباه الحكومة إلى وجود مشكل يحتاج إلى تدخل سريع وعاجل من طرفها.

كل هذا يُبين ضيق مجال السؤال الكتابي وحصر طبيعة موضوعاته في المسائل الثانوية دون أن يمتد إلى القضايا الكبرى ، فكان أثره على الرأي العام محدود جدا ،أما تأثيره على الحكومة فيكاد يكون معدوما ، وهذا على الرغم من إلزامية نشر فحواه في الجريدة الرسمية كما أشارت الفقرة الأخيرة من 152 من التعديل الدستوري لسنة 2016 على ما يلي:" ... تنشر الأسئلة والأجوبة طبقا للشروط التي يخضع لها نشر محاضر مناقشات البرلمان. "

ومع ذلك يرجع سبب هذا الدور الثانوي للسؤال الكتابي في عدم إمكانية اطلاع الرأي العام عليه بالشكل الكافي نظرا لعدم عرض إجابته في جلسات البرلمان العلنية والاكتفاء فقط بتسليمه كتابة إلى العضو السائل.

أما السؤال الشفوي فله أثر إعلامي واسع النطاق بحكم الجلسة العلنية التي تخصص لطرحه وما يصاحب ذلك من هول إعلامي كبير ، فيكون هدفه ذا طبيعة سياسية بحتة نظرا لامتداد نطاقه إلى كل نشاطات ومهام الحكومة الكبرى منها بالخصوص ، الأمر الذي يقود إلى أن يصبح أثره حاسما على مستوى الرأي العام ، قد يصل إلى حد إسقاط الحكومة برمتها نتيجة لتحريك المسؤولية السياسية ضدها عند ثبوت تقصيرها أو تماطلها في التعامل مع القضايا الوطنية الحساسة ، كما يمكن أن يقتصر أثره فقط على عزل عضو من أعضائها نتيجة لتحقق مسؤوليته الفردية ، إضافة إلى أن مجال السؤال الشفوي ونطاقه يبقى واسعا غير محدد أو مرتبط بموضوعات معينة.

ومع ذلك فالسؤال الشفوي والسؤال الكتابي يشتركان في كونهما أحد الآليات الرقابية الأساسية التي توضع بين يد ممثلي الشعب لتمكينهم من متابعة ومراقبة العمل الحكومي ، ومن ثم فهما من صميم النظام البرلماني كما هو مطبق في انجلترا خاصة.

المطلب الثاني

ضوابط العمل بآلية السؤال البرلماني

غالبا ما تتولى الأنظمة الداخلية للمجالس النيابية تحديد الشروط وكذا الإجراءات التي ينبغي على العضو السائل التقيد بها قبل إقدامه على توظيف الأسئلة البرلمانية ، لتكون ضوابط وقيود تحول دون إساءة استعمال هذه الآلية[18] ونظرا لعدم خطورة آثار السؤال البرلماني على المستقبل السياسي للحكومة وعلى تواجدها في الحكم ، فإنه لم يحط في الأنظمة الغربية بشروط مقيدة ولا بإجراءات معقدة تحول دون حرية النواب في استخدامه للاستعلام والاستفسار حول القضايا التي يجهلونها بل كانت هذه الشروط وتلك الإجراءات تتسم بالبساطة والتيسير[19].

وكنتيجة لذلك فهي لا تتطلب خبرة أو كفاءة معينة أو درجة عالية من العلم والمعرفة لدى العضو السائل حتى يستطيع توظيفها واستغلالها في ممارسات مهامه الرقابية ، بل غالبا ما تتطلب اللوائح الداخلية للبرلمانات أن تكون في صيغة مختصرة لتكون في متناول جميع النواب دون أي عناء يذكر.

إلا أن تطبيق هذه الآلية في الجزائر بيَّن أن هناك شروطا كثيرة وإجراءات عديدة وضعت كسياج للحيلولة دون التوسع في توظيفها ، وعملت في معظمها على تقييد أو التقليل من اللجوء إليها ربما حتى لا يفتح الباب على مصراعيه أمام النواب للاستخدام المفرط لها والعمل على إحراج للحكومة في كل مرة وفي ابسط القضايا ، وتزداد هذه الشروط وتلك

الإجراءات تشددا عندما تَبين تواجد بصمات الحكومة عند وضعها بما خدم مصالحها.

وحتى يتم الإلمام بكل الضوابط المتعلقة بكيفية توظيف آلية السؤال البرلماني فإننا سوف نتطرق في هذا المطلب إلى شروط توظيف السؤال البرلماني (فرع أول)، ثم إلى إجراءات استعماله (فرع ثان).

الفرع الأول

شروط توظيف السؤال

لم يتطرق المؤسس الدستوري الجزائري إلى مسألة تحديد الشروط الشكلية والموضوعية عند تقديم السؤال عكس ما قام به المؤسس البريطاني والفرنسي والألماني ، لكن السؤال المطروح هو هل أن المشرع الجزائري ساير المؤسس وأغفل هو الآخر بالنص عليها كذلك ؟ وهي المسألة التي نتولى تفصيلها فيما يلي:

أولا: الشروط الشكلية

تتحدد الشروط الشكلية عادة في شرطين أساسيين الأول هو ضرورة ممارسة السؤال بصفة فردية ، والثاني توجيهه إلى الوزير المختص دون غيره من الطاقم الحكومي ، الأمر الذي نتولى تفصيله وتوضيحه تبعا:

01-ممارسة حق السؤال بصفة فردية.

لا بد من لجوء النواب عند رغبتهم في توظيف آلية السؤال البرلماني إلى الصفة الفردية ويستشف هذا الشرط بالتدقيق والتمعن في نص المادة 152من التعديل الدستوري لسنة 2016 نجدها جاءت بألفاظ عامة بعيدة عن وضع شروط محددة تبيِّن كيفية ممارسة هذا الحق ، وما زاد من غموض الأمر وإشكاله أنه لا القانون العضوي رقم 02/99 المنظم لغرفتي البرلمان وكذا للعلاقة الوظيفية بينهما وبين الحكومة ولا النظامين الداخليين لغرفتي البرلمان أشاروا إلى هذه الشروط[20] ، وأمام هذا الفراغ كان لابد من الاسترشاد والاستئناس بالتعليمة رقم 08 الصادرة عن رئيس المجلس الشعبي الوطني المتعلقة بالأسئلة الشفوية والكتابية[21] ، والتي نجد أنها اشترطت توجيه السؤال وتوقيعه من طرف نائب واحد.

غير أن ما استوقفنا في هذا الشأن هو كون هذه التعليمة كانت موجهة لنواب المجلس الشعبي الوطني فقط ، وبالتالي فهي من الناحية القانونية لا تعني أعضاء مجلس الأمة ، الأمر الذي يبقي الإشكال بشأنهم مطروحا ، كما أن العلاقة بين نواب المجلس الشعبي الوطني ورئيس المجلس هي ليست علاقة رئيس بالمرؤوس كما هو متعارف عليه في القانون الإداري ، ومن ثم لا يحق لهذا الأخير إصدار تعليمات وأوامر للنواب لإجبارهم على إتباع طريقة معينة عند توظيفهم للسؤال البرلماني ، وكل ما يستطيع فعله هو ممارسة سلطة فرض النظام أثناء سير الجلسات لا غير ، ضف إلى ذلك أنه لا يمكن للتعليمة أن تنظم أمورا سكت عنها القانون[22].

وبتجاوز كل هذه المعطيات نقول إن هذه التعليمة جعلت السؤال حقا شخصيا يقيم علاقة شخصية بين السائل والمسؤول دون اشتراك أعضاء آخرين في هذه العلاقة[23].

ومادام السؤال يعتبر من الحقوق الشخصية للنائب فإنه لا يجوز أن يوقع عليه أكثر من عضو واحد ، وعلى هذا الأساس لا يقبل توجيهه من إحدى المجموعات أو الكتل البرلمانية أو من هيئات أو لجان المجلس ، كما لا يمكن أن يوجه باسم المجلس أو باسم اجتماع رؤساء اللجان دائمة العضوية فيه[24] ، أما إذا تمت مباشرة هذا الحق من قبل رئيس إحدى هذه الهيئات بصفته الشخصية وليس بحكم رئاسته المجموعة البرلمانية ، في هذه الحالة توفرت صفة الفردية في السؤال وعُدَّ على إثرها مستوفيا لهذا الشرط ، وحينها يكتسب ثقلا معينا نتيجة تقديمه من طرف مسؤول المجموعة البرلمانية ليصبح من خلالها يحمل صدى إعلامي كبير على الرأي العام.

وفي هذا الإطار حاولت الجمعية الوطنية الفرنسية تعديل نظامها الداخلي بما يسمح لرؤساء اللجان البرلمانية من توجيه الأسئلة إلى الوزراء باسم لجانهم ، ولكن المجلس الدستوري تدخل ليمنع هذا التعديل ، مبررا ذلك بأن هذا المقترح لا يتطابق مع نصوص الدستور التي تؤكد على الصفة الفردية للسؤال[25] ، ولعل مَرَدَّ هذا الشرط هو اعتبار السؤال وسيلة من وسائل تجسيد الحوار وتبادل الأفكار حول مسألة معينة بين عضو البرلمان وعضو الحكومة لا يصل إلى درجة تحميل الوزير أو الحكومة المسؤولية السياسية.

ومع ذلك فإنه إذا كان من غير الجائز اشتراك أكثر من عضو وتوقيعهم في تقديم سؤال واحد ، فإنه لا يوجد ما يمنع تقديم أكثر من عضو لسؤال في موضوع واحد-كل على حدى- إلى نفس الوزير طالما أن هذه الأسئلة يجمعها نفس الموضوع

أو تتماثل وتتشابه تماما ، ومن ثم تبقى جميع هذه الأسئلة صحيحة ، مادام أنه لم يوقع على أي منها سوى عضو برلماني واحد ، هكذا يمكن لأي من أعضاء البرلمان توجيه أي سؤال في نفس الموضوع محل سؤال نائب آخر وإلى نفس الوزير أيضا ، وكل ما يشترط هو أن يقدمه كل منهم استقلالا عن الآخر[26] ، ومن ثم يمكن القول أن المحظور هو الاتحاد العضوي في ذات السؤال لا الاتحاد الموضوعي فيه[27]وحينئذ يمكن ضم الأسئلة المتماثلة موضوعا أو المرتبطة معا ارتباطا وثيقا للإجابة عنها في جلسة واحدة[28]. كما أن العكس يعتبر صحيحا إذ يكون باستطاعة العضو البرلماني من جهة ثانية توجيه أكثر من سؤال في آن واحد إلى عدة وزراء ، إذا كانت المسائل محل السؤال مرتبطة مع بعضها البعض ارتباطا وثيقا ، وفي نفس الوقت تدخل في اختصاص ومهام عدة وزراء[29] ، لأن القول بغير ذلك يعتبر مصادرة لحرية الكلمة ولحق التعبير داخل قبة المجلس النيابي.

ولعل الحكمة من اشتراط ممارسة السؤال بصورة منفردة هو لتمييزه عن باقي أوجه الرقابة الأخرى ، حيث أنه في توقيع مجموعة من النواب مثلا على خطاب بطلب معلومات معينة أو استفسار حول وقائع محددة ، يحوله من مجرد سؤال استفهامي إلى استجواب ذا طابع اتهامي مُوجَه ضد أحد الوزراء أو ضد الحكومة برمتها[30] ، هذا من جهة ومن جهة ثانية ، احتراما لإرادة المشرع الدستوري التي أضفت على السؤال طابعا فرديا[31].

02-يجب توجيه السؤال إلى عضو الحكومة المختص.

من متطلبات صحة توظيف السؤال البرلماني أن يتعلق بالقضايا التي تدخل في اختصاص أحد أو مجموعة من الوزراء ، إذ من العبث التعامل مع غير ذوي الاختصاص من غير الوزراء ، على ضوء ذلك نص الدستور الجزائري النافذ حاليا في الفقرة الأولى من المادة 152 على ما لي: " يمكن لأعضاء البرلمان أن يوجهوا أي سؤال شفوي أو كتابي إلى أي عضو في الحكومة..." وهو ما دعمته المادة 68 من القانون العضوي رقم 02/99 الذي سبقت الإشارة إليه بقولها"...يمكن لأعضاء البرلمان توجيه أي سؤال شفوي أو كتابي إلى أي عضو في الحكومة " ووفقا لهذه النصوص فإنه متى وجه السؤال إلى غير الوزير المختص جاز لرئيس المجلس رفضه ، وجاز للوزير غير المختص الموجه له الامتناع عن الإجابة إذا لم يرفضه المجلس[32].

ومع ذلك فإن مسألة الاختصاص ليست دائما بهذا الوضوح وهذه السهولة ، لأنه تثور الصعوبة أحيانا في معرفة الوزير المختص بدقة ، لاسيما عند حدوث تعديل وزاري بمجرد قيام العضو البرلماني بتوجيه سؤاله إلى أحد الوزراء ، أين يتم سحب قطاع من اختصاص وزارة ليلحق ضمن اختصاص وزارة أخرى ، ففي مثل هذه الحالة تظهر صعوبة تحديد الوزير المختص هل هو الوزير الذي كان قبل التعديل أو الذي جاء بعده ، ولا سبيل لحل هذا الإشكال- حسب بعض الشراح – إلا بتدخل الوزير الأول نفسه وقيامه بتوجيه السؤال إلى الوزير المختص ، خاصة وأن القانون العضوي المحدد للعلاقة بين غرفتي البرلمان والحكومة يقضي بتوجيه الأسئلة البرلمانية بنوعيها له[33].

وبقي أن نقول في الأخير أن هذا الشرط لا يعدو أن يكون تقليد برلماني محض قننته بعض الأنظمة الداخلية لبرلمانات في بعض الدول ولذلك لم يستقر عليه أي نص دستوري[34] ، كما يخلو النظام الداخلي لكلا غرفتي البرلمان في الجزائر من النص عليه.

ثانيا: الشروط الموضوعية

بعدما وضحنا الشروط الشكلية فإنه ينبغي من جهة ثانية أن تتوفر في السؤال البرلماني–حتى لا يساء توظيفه- جملة من الشروط الموضوعية يَتَعَيَّن على النائب التقيد بها عند طرح سؤاله ، وبالعودة إلى نص المادة 152من الدستور نجدها كذلك أغفلت الإشارة إلى هذه الشروط ، وربما هذا الإغفال كان منطقيا على أساس أن مهمة الدساتير ذكر المبادئ العامة والأسس الكبرى ، تاركة للتشريع مهمة تحديد القواعد التفصيلية والمواد التطبيقية ، غير هذا لم يحدث أيضا إذ أغفل كل من القانون العضوي رقم 02/99 والنظامين الداخليين لغرفتي البرلمان الإشارة إلى هذه الشروط ، مما حتم مرة أخرى الرجوع إلى التعليمة رقم 8 السالفة الذكر ، رغم المآخذ التي سبق ذكرها والتي جاءت بالشروط التالية:

01-ضرورة حصر السؤال في موضوع واحد من المواضيع التي تشغل الرأي العام

لابد من حصر محتوى السؤال في موضوع واحد حتى يمكن تجنب تشعب قضاياه وفي نفس الوقت لا يجب أن

يكون غامضا أو عاما جدا أو أن يخلو من حقائق واقعية أو حتى أن يكون كبيرا جدا يصعب التحكم في جزئياته ، ويبدو أن هذا الشرط أملته القواعد العرفية المستقرة في انجلترا ، إذ من شأن إبهام السؤال وغموضه أن يؤدي إلى عدم فهم موضوعه من قبل الوزير المسؤول ، الأمر الذي يقود إلى إمكانية الحصول على إجابة غير محددة عنه من طرف هذا الأخير ، وهو ما لا يتحقق معه الهدف والغاية من وجود السؤال أصلا[35] ، كما أنه من شأن وضوح ودقة السؤال أن يتسنى للوزير المعني به الإجابة عنه في أقصر وقت ممكن.

02-يجب كتابة السؤال باللغة العربية

لابد من كتابة نص السؤال باللغة العربية التي تمثل إحدى الثوابت الوطنية واللغة الرسمية الأولى في البلاد[36] ، مع أن التعديل الدستوري لسنة 2016 أضاف كذلك الأمازيغية كلغة وطنية و رسمية ، إلا أن تجسيد هذه الرسمية معلق بنص المادة الرابعة من الدستور على شرط واقف وهو إنشاء مجمع جزائري للغة الأمازيغية يوضع لدى رئيس الجمهورية ، مهمته توفير الشروط اللازمة لترقية تمازيغت قصد تجسيد وضعها كلغة رسمية فيما بعد.

03-أن يكون السؤال خاليا من الكلمات النابية والعبارات غير اللائقة ولا يتضمن تعليقا أو جدلا

إذا كان السؤال البرلماني يُعد من الحقوق الأساسية الممنوحة للنائب فإنه هذا الحق-شأنه شأن بقية الحقوق-ليس مطلقا يوظفه كيفما شاء ، وإنما يحده قيد نابع من حق دستوري آخر مقرر للغير ، والمتمثل في ضرورة كفالة الحرية الشخصية لهذا الغير ، وما يقتضيه ذلك من وجوب حماية خصوصياته وكرامته ، واحترام حياته الخاصة بعدم انتهاك أسراره فيها ، لذلك فعدم الالتزام بهذه الضوابط ينقل السؤال من كونه أداة استفهام ورقابة إلى وسيلة للهجوم والانتقام وتصفية الحسابات الشخصية [37].

04-ارتباط السؤال بقضية تمس الصالح العام

يقصد بهذا الشرط استبعاد السؤال عن الأمور الشخصية أو الحزبية للنائب السائل وربطه بالقضايا التي تمس الصالح العام ، وبالتالي من ضوابط توظيف السؤال البرلماني تعلقه بالشأن العام المرتبط بمصالح الكثير من الناس المتصل بالمبادئ التي ينبغي أن تسير عليها الحكومة في أعمالها وتصرفاتها ، ومن ثم لا يسوغ أن يكون السؤال متعلقا بالمصالح الشخصية الضيقة للنائب أو لحزبه ، ولعل الهدف من وراء إدراج الأنظمة الداخلية للمجالس النيابية لهذا الضابط يكمن في تنزيه قصد النائب ونواياه من كل مطمع يخدش بالمهمة النبيلة التي يمارسها ، والحرص على ألا يسلك بالرقابة البرلمانية سبيل الغاوين وألا يهبط بوسائلها إلى ما لا يليق به كممثل للشعب الذي يحرص على تحقيق مصالحه بعيدا عن الهوى أو التسلط.

غير أن ما يمكن التنبيه إليه في هذا الصدد أن مصطلح المصلحة العامة مفهوم غامض وملتبس يصعب وضع معيار منضبط ودقيق لها يمكن تطبيقه بموضوعية في جميع الحالات ، بل أن نسبية هذا المفهوم يجعل تطبيقه مضطربا متوقفا على رغبة رئيس المجلس النيابي وإرادة الحكومة ، وهو الأمر الذي جعل هذا الشرط سيفا يسله المجلس المحكوم بإرادة الأغلبية على نواب المعارضة لثنيهم عن استعماله ، كما أعطى الحكومة فرصة كبيرة لرفض الرد على ما لا ترغب فيه من الأسئلة بحجة أنها تتعارض مع المصلحة العامة[38] ، هذا من جانب ومن جانب آخر يطرح التساؤل عن الحد الفاصل بين المصلحة الشخصية لصاحب السؤال والمصلحة العامة للجماعة ، خصوصا أن هذه المصلحة الخاصة في بعض الحالات قد تكون جزءا لا يتجزأ من المصالح العامة ، أو أن مردودها قد يمس ويؤثر بشكل أو بآخر على مصالح الآخرين ، لذا يرى البعض أنه يجوز أن يستهدف السائل مصلحة شخصية طالما كان يسعى من ورائها في تنبيه الحكومة لكي تصحح مسارها وتعالج أخطائها في أي شأن من الشؤون العامة[39].

من كل ما سبق نصل إلى نتيجة أساسية مفادها أن وجود هذه الشروط الموضوعة تحت رقابة إدارة مكتب المجلس من شأنها أن تزيد من تقييد حرية الأعضاء في توظيف آلية السؤال وتُقيد بالتالي فعاليته في رقابة النشاط الحكومي ، خاصة وأن هذه الإدارة تخضع مباشرة لإشراف رئيس المجلس النيابي والذي غالبا ما ينتمي إلى حزب الأغلبية المسيطر على الحكومة ، فتصبح تتعسف في قبول ما تراه مناسبا من الأسئلة وتستبعد ما تراه غير ذلك ، الأمر الذي يعطل من قدرة النواب على محاسبة ومراقبة الوزراء من خلال هذه الوسيلة على النحو الذي يتمناه معظمهم ، خاصة عندما يتبع هذه القيود عقبات أخرى لا تقل خطورة من هذه

الشروط ، تمثلت في الإجراءات التي وضعت في طريق ممارسة آلية السؤال كما سنوضحه في الفرع الموالي.

الفرع الثاني

إجراءات توظيف السؤال البرلماني

تقترن هذه الإجراءات بالخطوات والمراحل التي يمر بها السؤال البرلماني وهي إجراءات نصت عليها دساتير النظم السياسية المختلفة وأنظمتها الداخلية والنظام الجزائري واحد من هذه الأنظمة ، الذي اختصرها في نوعين: إجراءات تتبع من قبل موجه السؤال (أعضاء البرلمان) (أولا) وأخرى تتبع من قبل المجيب عنه (عضو الحكومة) (ثانيا).

(أولا): إيداع السؤال البرلماني وتبليغه

لا يكفي أن تتوفر الشروط الشكلية والموضوعية في الأسئلة البرلمانية حتى يتم قبولها وتؤهل للإجابة عنها ، بل يتبع ذلك إجراءات عديدة ينبغي على العضو البرلماني التقيد بها إلى غاية وصولها إلى الجهة المختصة.فما هو محتوى هذه الإجراءات ؟ هذا ما سنعكف على تبيانه فيما سيأتي:

01-إيداع السؤال البرلماني

إن عملية إيداع السؤال البرلماني هي أولى الإجراءات التي تبتدئ بها عملية توظيف هذه الآلية الرقابية من طرف ممثلي الشعب ، حيث أنه متى أبدى العضو رغبته في توجيه سؤال إلى أي وزير في الطاقم الحكومي ، فإنه يبادر بإيداعه لدى الجهة المختصة ، وهي-حسب الحالة-إما مكتب المجلس الشعبي الوطني أو مكتب مجلس الأمة[40]والواقع أن النص على إيداع السؤال لدى مكتب الغرفة المعنية فيه الكثير من الايجابية ، على اعتبار أن مكتبي الغرفتين بالنظر إلى طريقة تشكيلهما قد يضما إما أعضاء يحددون بالتوافق بين ممثلي المجموعات البرلمانية ومختلف الأطياف السياسية ، أو يحددون بنظام الاقتراع السري بعد فتح باب الترشح أمام كل النواب ، وهو ما يعتبر ضمانة حقيقية وطريقة عملية بعدم إهمال السؤال الذي قد لا يتناسب محتواه مع رغبات وتطلعات الحكومة بحكم أن فيه إحراج ومشقة لها[41].

وفي إطار عملية إيداع السؤال لدى مكتب الغرفة المعنية بقي أن نوضح نقطتين أساسيتين الأولى معرفة المدة التي يتم خلالها إيداع السؤال ، والثانية معرفة كيفية برمجته في جدول أعمال المجلس للإجابة عليه.

بالنسبة **للنقطة الأولى** فإن المادة 69 من القانون العضوي رقم 02/99 جاءت واضحة بتقريرها ما يلي:" يودع نص السؤال الشفوي من قبل صاحبه ، حسب الحالة ، لدى مكتب المجلس الشعبي الوطني أو مكتب مجلس الأمة (10) عشرة أيام عمل على الأقل قبل يوم الجلسة المقررة لهذا الغرض..."

وهنا يستوقفنا التناقض الموجود بين هذه المدة وما حددته المادة 82 من النظام الداخلي لمجلس الأمة الساري المفعول والتي اشترطت تقديم السؤال الشفوي خلال 07 أيام على الأقل قبل تاريخ الجلسة المخصصة للإجابة على الأسئلة المطروحة ، ولا يخفى على أحد خطورة هذا التناقض على سير إجراءات السؤال داخل مجلس الأمة ، فماذا لو أراد أحدهم طرح سؤاله وانتظر 07 أيام على موعد الجلسة فهل يعد السؤال في هذه الحالة محترما للآجال القانونية المطلوبة ؟ أم الأمر على خلاف ذلك كان خارجها ؟ وبالتالي أُستحق رفضه شكلا على اعتبار أن العبرة بالآجال المحددة في القانون العضوي رقم 02/99 ، وأمام هذا التناقض فإن الحل-حسب اعتقادنا- يكمن في ضرورة التقيد بالآجال التي جاء بها القانون العضوي رقم 02/99 وذلك راجع إلى أمرين **الأول** احتراما لمبدأ تدرج القواعد القانونية وخضوع القاعدة الأدنى للقاعدة الأعلى منها درجة ، فالقانون العضوي (رقم 02/99) أسمى من القانون العادي (النظام الداخلي لمجلس الأمة) ، **والثاني** إعمالا لقاعدة القانون **اللاحق** (القانون العضوي) الصادر سنة 1999 ينسخ القانون **السابق** (النظام الداخلي لمجلس الأمة) الصادر سنة 1998 ، وبناء على هذا ، فإن جميع نواب البرلمان بمن فيهم أعضاء مجلس الأمة بإمكانهم إيداع أسئلتهم في أجل 10 أيام على الأقل من تاريخ الجلسة المقررة لطرح الأسئلة[42].

أما فيما يخص **النقطة الثانية** فإنه بعد إيداع السؤال البرلماني يتولى مكتب المجلس المعني تسجيله وقيده في السجل المخصص لذلك حسب تاريخ إيداعه[43]في انتظار برمجة جلسة خاصة بالإجابة عليه ، هذه البرمجة تعتبر إجراء ضروري لمناقشته ، وعدم الالتزام بها لا تفسير له غير إهمال السؤال وتجنب الإجابة عنه ، والمؤسس الدستوري الجزائري وبموجب التعديل الأخير الذي مس دستور 96 (تعديل 2016) أضاف فقرة أخرى للمادة المتعلقة بالسؤال البرلماني

مفادها تحديد كيفية برمجة الجلسات المخصصة للإجابة عن السؤال ، حيث جاء في محتوى هذه الفقرة ما يلي:" يعقد كل من المجلس الشعبي الوطني ، ومجلس الأمة ، بالتداول ، جلسة أسبوعية تخصص لأجوبة الحكومة على الأسئلة الشفوية للنواب وأعضاء مجلس الأمة ".

وهنا يمكن القول أنه لا القانون العضوي رقم 02/99 ولا النظامان الداخليان لكل من المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة حددا المعايير التي على أساسها تتم عملية جدولة الأسئلة الشفوية ، هل ذلك يكون حسب تاريخ ورودها إلى مكتب المجلس أم بحسب أولويتها[44]؟ وفي ظل هذا الفراغ وفي ظل عدم قدرة صاحب السؤال التحكم في برمجة سؤاله في الجلسة التي يريدها ، فإننا نقول أنه من الراجح أن تتم هذه العملية بالاتفاق بين مكتب كل غرفة والحكومة ، والأمر هنا قد يخضع لمدى استعداد الوزير وتحضيره للإجابة في الجلسة المقرر عقدها لهذا الغرض أو لأقدمية السؤال وأولويته ، ولعدد الأسئلة المطروحة كل هذا دون مراعاة موضوع السؤال أو استعجاليته[45].

أما عن الهيئة المكلفة بإجراء هذه البرمجة فإنها تختلف من نظام لآخر ، وهذا مصدر تخوف الكثيرين ، لأن بانتمائها لحزب الأغلبية يطرح إمكانية تجاهل الأسئلة التي يقدمها نواب المعارضة عندما تسبب حرجا للحكومة التي تقودها هذه الأغلبية[46] ، وإن كان إجراء البرمجة في بعض الأنظمة-كما في الجزائر- يتعلق فقط بالأسئلة الشفوية دون الأسئلة المكتوبة[47] لأن هذه الأخيرة لا تحتاج أصلا لانعقاد جلسة لعرض الإجابة فيها ، وإنما يتم ذلك آليا بأن يودع الوزير المعني إجابته لدى أمانة المجلس التي بدورها تحيلها إلى العضو البرلماني صاحب السؤال[48].

02-تبليغ السؤال البرلماني إلى الوزير المختص

بعد انتهاء عملية قيد السؤال ، يتخذ عندها المجلس حيالها عدة إجراءات: **أولها** إبلاغ الوزير الموجه إليه السؤال والوزير المكلف بالعلاقات مع البرلمان. وهو تصرف وإن اتفقت الأنظمة الداخلية للبرلمانات على ضرورته ، باعتباره مما يقضى به منطق الأشياء ، فقد اختلفت حول الوقت الذي يتم خلاله[49] ، ففي المجلس الشعبي الوطني الجزائري ومجلس الأمة ، وهو ما عليه الحال في مجلسا البرلمان الفرنسي - الجمعية الوطنية الفرنسية ومجلس الشيوخ- يتولى رئيس المجلس المعني إرسال السؤال فورا إلى الوزير الأول أو الوزير المختص[50] وهو ما يفيد بضرورة الإسراع في تقديمه إلى المعني به من الطاقم الحكومي ، أي أن ذلك يمكن حدوثه في ذات يوم تقديم السؤال.

أما الآخر فمؤداه برمجة جلسة الإجابة عليه من طرف الوزير المعني خلال دورة البرلمان العادية ، وهو الأمر الذي نتولى تفصيله وتوضيحه في الفقرة الموالية.

ثانيا: إجراءات الرد على السؤال البرلماني

إذا استوفت الأسئلة شروطها وفقا لما ذكرناه آنفا ، تكون مؤهلة للإجابة والرد عليها ، ويتطلب ذلك أن يعطى عضو الحكومة المعني مدة كافية قبل جلسة الإجابة وفقا لما هو موجود في التقاليد البرلمانية الراسخة كبريطانيا وفرنسا ، الغاية منها تمكين الوزير المعني من الإعداد والتحضير لهذه الإجابة سواء كانت الإجابة شفاهة أو كانت كتابة ، لذلك يعتبر نظام المهلة البينية التي تكون بين طرح السؤال وبين إدراجه في جدول أعمال جلسة الإجابة عنه ، من الأمور المستقرة في نظام الجمعية الوطنية الفرنسية ومجلس الشيوخ ، إذ يلزم مرور ثمانية أيام بين الإبلاغ والإدراج[51] ، أما في الجزائر فيلزم القانون العضوي رقم 02/99 السالف الذكر مرور عشرة أيام بين المدتين[52].

مما سبق فإن الأمر يتطلب منا تفصيل هذه المدة (01)، ثم معرفة مدة العرض والإجابة من طرف كل من السائل والمسؤول (02).

01-طول المدة الممنوحة لعضو الجهاز التنفيذي للرد على السؤال فرصة الحكومة لتفادي الإحراج

تختلف الأنظمة الداخلية للبرلمانات فيما بينها في تحديد مواعيد الرد على السؤال البرلماني أو ما أصطلح على تسميته **بالمدة البينية** ، فإن أساليب الدول تختلف اختلافا كبيرا في تحديدها ، وعلى العموم تتميز هذه المدة بالقصر أحيانا وبالطول أحيانا أخرى ، مع أن الأفضل هو تقليصها إلى أبعد الحدود على أساس أن طول هذه المدة قد تؤدي إلى زوال الغاية والمغزى من طرح الأسئلة في الأساس.

ففي ألمانيا مثلا يمنح النظام الداخلي لمجلس البوندستاج الوزير المسؤول مدة قصيرة للإجابة ، بحيث يجب أن تقدم الأسئلة الشفوية للوزير قبل ثلاثة أيام على الأقل من

تاريخ الجلسة المخصصة للإجابة عنها ، ولمرة واحدة على الأقل في الشهر ، وهو الأمر نفسه المحدد في إنجلترا بحيث يجب أن يقدم السؤال الشفوي قبل يومين على الأقل من التاريخ الذي يرغب العضو أن تتم الإجابة فيه[53] ، وفي فرنسا واسبانيا حدد النظام الداخلي لمجلس الشيوخ مدة شهر للرد على السؤال ، مع أنه في فرنسا يمكن للوزير الموجه إليه السؤال أن يطالب بمهلة إضافية ليتمكن من تجميع عناصر إجابته التي ينبغي في كل الأحوال أن لا تزيد كذلك عن الشهر ، وبذلك قد يصل مجموع هذه المدة الشهرين[54] وهي مدة تعتبر طويلة نسبيا للرد على سؤال العضو ، مما قد يؤدي إلى زوال الغاية والحكمة من طرحه[55].

وسار المؤسس الدستوري الجزائري وبموجب الفقرة الثالثة من المادة 152 من التعديل الدستوري لسنة 2016 على نفس المنوال تقريبا ، إذ حدد كذلك هذه المدة بثلاثين(30) يوما ، لكن دون أن يضيف لها مهلة إضافية أخرى كما فعل المؤسس الدستوري الفرنسي"... بالنسبة للأسئلة الشفوية ، يجب ألا يتعدى أجل الجواب ثلاثون (30) يوما.

بقي أن نوضح مسألة أخرى ترتبط بكيفية برمجة الإجابة على الأسئلة الشفوية في نظامنا القانوني نقول أن هذه البرمجة تتم أسبوعيا وفقط في الدورة العادية لكل غرفة هذا ما وضحته الفقرة الرابعة من المادة 152 من التعديل الدستوري لسنة 2016 بقولها : "... يعقد كل من المجلس الشعبي الوطني ومجلس الأمة ، وبالتداول ، جلسة أسبوعية تخصص لأجوبة الحكومة على الأسئلة الشفوية للنواب وأعضاء مجلس الأمة."

أما فيما يخص المدة البينية الممنوحة لعضو الحكومة للرد على السؤال الكتابي فإن أساليب الدول كذلك تختلف اختلافا كبيرا في تحديدها ، خاصة وأن أغلب هذه الدول تعتبر أن هذا النوع من الأسلة استثناءا على الأصل في كون الأسئلة ينبغي لها أن تكون شفاهة ، وبالنسبة لتحديد هذه المدة في النظام الدستوري الجزائري ، فقد حددها بموجب الفقرة الثانية من المادة 152 من التعديل الدستوري الأخير لسنة 2016 بثلاثين (30) يوما حيث جاء فيها ما يلي:" ...ويكون الجواب على السؤال الكتابي كتابيا خلال أجل أقصاه ثلاثون (30) يوما ، وهو نفس الأجل الذي كان النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني لسنة 1997 فقد حدده في المادة96 بالقول " يأتي جواب عضو الحكومة الموجه إليه السؤال المكتوب في ظرف ثلاثين يوما بعد تبليغ السؤال ، وتكون الإجابة في شكل كتابي وتبلغ إلى النائب المعني عن طريق رئيس المجلس الشعبي الوطني " ، والملاحظ هنا أن المشرع الجزائري أخذ في حساب مدة الثلاثون (30) يوما تكون ابتداء من تاريخ التبليغ وليس من تاريخ الإيداع ، وهو الأمر الذي يكون في صالح الوزير على أساس أنه يعطيه وقتا كافيا ومناسبا لإعداد التوضيح المطلوب منه ، وهي المدة التي أكدها القانون العضوي 02/99 حسب المادة 73 منه بقولها " عملا بأحكام المادة 134 من الدستور—التي أصبحت تقابل المادة 152 بعد التعديل الدستوري لسنة 2016 ، يكون جواب عضو الحكومة عن السؤال الكتابي الذي وجه إليه في الشكل الكتابي ، خلال أجل الثلاثين يوما الموالية لتبليغ السؤال الكتابي ، وهو نفس الوضع الذي كان سائدا في دستور 89 وفي المادة 98 من النظام الداخلي للبرلمان ، في حين كانت هذه المدة في دستور 76 وفي النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني لسنة 1977 أقل من ذلك إذ قدرت بخمسة عشرة يوما فقط[56].

02 -مدة السؤال بين العرض والإجابة

من المفيد أن نبين في هذا الصدد ونوضح مسألة غاية في الأهمية تتعلق بتحديد الوقت المخصص لكل من عرض السؤال والإجابة عليه ، ومدى تأثير ذلك في قدرة السؤال في الوصول إلى مبتغاه في الاستعلام والاستفسار أو تنبيه وتحذير للحكومة في أي شأن من الشؤون العامة كل ذلك يكون كما يلي:

أ-مدة عرض السؤال من طرف صاحبه

ما يجب التنبيه إليه أو بالأحرى التأكيد عليه في هذه النقطة بالذات أنه عند منح أعضاء البرلمان مدة قصيرة أثناء تدخلاتهم بغية عرض أسئلتهم ، يكون ذلك عائقا لهم يحول بينهم وبين توصيل كل الانشغالات والاهتمامات التي يريدون تبليغها إلى أعضاء الجهاز التنفيذي ، وهو ما لا يسمح لهم بتبادل وجهات النظر حول مضمون ومحتوى السؤال بالشكل الكافي.

ومن ثم فإنه عند انعقاد الجلسة المقررة لطرح الأسئلة الشفوية يتولى نائب المجلس الشعبي الوطني عرض سؤاله في مدة محددة حسب عدد الأسئلة ومواضيعها ،كما قررته الفقرة

الثانية من المادة 68 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني بقولها: " يقدر مكتب المجلس مدة طرح السؤال الشفوي ...." هذه المدة حصرتها المادة 4 من التعليمة رقم 8 السابقة الذكر في ثلاث (03) دقائق بنصها على أنه " لا يمكن أن تتجاوز مدة عرض السؤال الشفوي الثلاث دقائق " ، وفي نفس السياق نصت المادة 76 من النظام الداخلي لمجلس الأمة على أنه: " يعرض صاحب السؤال الشفوي سؤاله في حدود مدة يقدرها رئيس الجلسة " ، هنا نلاحظ إمكانية تحيز رئيس الجلسة وتعسفه في منح مدة قصيرة للسائل قد لا تسمح له بشرح وعرض كل تفاصيل السؤال ، مادام أن المشرع ترك له السلطة التقديرية في تحديد مدة عرض السؤال.

لذلك فالممارسة البرلمانية في هذا الجانب بينت احتجاج وتذمر بعض نواب المعارضة أو المستقلين عند سحب الكلمة منهم من طرف الرئيس أثناء عرض سؤالهم الشفوي ، بحجة انتهاء الوقت المخصص لذلك ، ومن ثم دارت تساؤلات عدة حول مدى موضوعية رئيس المجلس الشعبي الوطني عند قيامه بهذا الفعل ، لاسيما وأنه طرف رئيسي في العلاقة بين الحكومة والبرلمان ، ومع كونه منتميا -في معظم الأحيان - للحزب صاحب الأغلبية البرلمانية يُعطي المبرر لتلك المخاوف بل وتأكيدها ، خاصة لما قد تقود إليه من خلل للتوازن – المختل أصلا- بين السلطتين التشريعية والتنفيذية[57] ، ولا ترتبط معالم هذه الإشكالية ولا تتعلق بقوة شخصية الرئيس ولا بحنكة تسييره ، بل تتأثر في المقام الأول بالنظام الداخلي للمجلس الذي يعطي له سلطات واسعة[58] بالإضافة إلى العرف السائد الذي دوما ما يضفي هالة وهيبة على هذا المنصب ، تسمح له حتى بتخطي وتجاوز السلطات المرسومة له قانونا والتي هي في الأصل سلطات كبيرة كما قلنا[59].

ب-مدة رد عضو الحكومة

لقد درجت معظم الأنظمة الداخلية للبرلمانات العالمية على تحديد مدة معينة يتم خلالها إجابة ممثل الحكومة على الأسئلة المطروحة ، حيث ينص بعضها مثلا على تخصيص نصف ساعة من الجلسة للأسئلة والأجوبة عنها ، في حين أن أنظمة أخرى لم تتطرق لهذه المسألة تاركة إياها لمجلس النيابي ، الذي له أن يحدد الوقت الذي يراه مناسبا سواء في بداية الجلسة أو في نهايتها ، وفي حالة بقاء بعض الأسئلة دون أن ترد الحكومة عليها فإنها تؤجل وتحال على الجلسة القادمة[60]

أما في الجزائر وتماشيا مع الفقرة الثانية من المادة 68 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني التي تقرر ما يلي: " ... يقرر مكتب المجلس مدة طرح السؤال الشفوي ورد عضو الحكومة عليه..." جاءت التعليمة السابقة وفي مادتها السادسة لتحدد مدة رد عضو الحكومة بسبع دقائق ، وتركت السلطة التقديرية لرئيس الجلسة في إمكانية تمديد هذه المدة إذا ارتأى أن موضوع الإجابة يقتضي ذلك[61]. وهي مدة طويلة نسبيا بالمقارنة مع مدة الثلاث (03) دقائق الممنوحة للنائب السائل عند عرض سؤاله.

03-آثار عدم الاقتناع برد عضو الحكومة

يترتب على عدم اقتناع السائل بجواب الوزير المسؤول نتيجتين أساسيتين يمكن للبرلمان الاعتماد عليهما في إحراج الحكومة وهما حق التعقيب وحق إجراء مناقشة عامة.

أ-حق التعقيب على جواب الوزير

قد تُقنع إجابة عضو الحكومة أعضاء البرلمان بما فيهم صاحب السؤال ، فيكتفي هذا الأخير عند تناوله الكلمة بتعبيره عن رضاه التام وقناعته المطلقة على ما تم توضيحه من بيانات ومعلومات مرتبطة بمحتوى السؤال ، ومن ثم تأييده وانحيازه للانجازات والنتائج التي حققها الوزير في قطاعه.

وقد يحدث العكس بأن تأتي أنواع كثيرة من الإجابات لا تقنع أعضاء البرلمان وتولد حولها انزعاج حقيقي وتذمر كبير ، سواء بسبب أنها غامضة وغير واضحة أو أنها ناقصة وغير كافية لا تمس بكل جوانب السؤال ، ومن ثم فإن العضو السائل عند تناوله الكلمة للتعقيب على مثل هذا النوع من الإجابات يتولى المطالبة بإزالة هذا اللبس وإماطة اللثام على هذا الغموض ، على أن يلتزم النائب هنا حدود ما جاء في الإجابة فقط دون الخروج على الموضوع المطروح حتى لا يتحول التعقيب إلى سؤال آخر ، ومن جهة أخرى فإنه يشترط في هذا التعقيب ما كان يشترط في عرض السؤال أول مرة من ضرورة ابتعاده عن التجريح والنقد والاتهام ، ومن كونه موجزا مختصرا غايته التوضيح المباشر لا غير ، كما يحق للوزير من

جهة أخرى التعقيب على هذا التعقيب[62] ، وتماشيا مع المادة 68 من النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني التي نصت على أنه: "... يقدر مكتب المجلس مدة طرح السؤال الشفوي ورد عضو الحكومة عليه ، وتعقيبهما حسب عدد الأسئلة ومواضيعها " جاءت المادة الرابعة من التعليمة رقم 8 السالفة الذكر لتحدد مدة التعقيب بدقيقتين ، ومدة رد الوزير بدقيقتين ، ويجوز لعضو مجلس الأمة التعقيب في حدود 5 دقائق ، ولممثل الحكومة الرد على التعقيب في حدود 10 دقائق ، وهنا نلاحظ مدى تحيز المشرع لعضو الحكومة في منحه ضعف مدة تعقيب العضو البرلماني.

ب-إجراء مناقشة عامة.

تعتبر عملية إجراء مناقشة عامة من أهم النتائج المترتبة على عدم قدرة العضو الحكومي إقناع العضو البرلماني بإجابته ، هذا ما أشارت إليه الفقرة الخامسة من المادة 152 من التعديل الدستوري لسنة 2016 بقولها: " إذا رأت أيمن الغرفتين أن جواب عضو الحكومة شفويا كان أو كتابيا يبرر إجراء مناقشة ، تجرى المناقشة حسب الشروط التي ينص عليها النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني و مجلس الأمة" ، بيد أنه بالعودة إلى النظام الداخلي الحالي لمجلس الأمة نجد أنه جاء بشرط شاق إن لم نقل تعجيزي حتى يمكن إجراء هذه المناقشة ، وهو ضرورة إيداع طلب موقع عليه من قبل ثلاثون(30)عضوا على الأقل ، هذا ما بينته المادة 75 وأكدته المادة 76 من نفس النظام بقولها: " إذا تبين أن جواب عضو الحكومة الكتابي يبرر إجراء مناقشة تفتح هذه المناقشة بطلب يقدمه ثلاثون(30)عضوا يودع لدى مكتب مجلس الأمة " ، أما النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني الحالي فقد جاء خاليا من النص على مثل هذا الشرط بخلاف الأمر الذي كان سائدا وفق النظام الداخلي لسنة 1997 الذي اشترطت المادة منه على ضرورة إمضاء الطلب من طرف (20) عشرون نائبا.

وما يمكن ملاحظته أنه ما عدا شرط النصاب هذا لم يتطرق المشرع إلى أية شروط إضافية أخرى تتعلق بكيفية ممارسة المناقشة العامة ولا نوعية الآثار التي يمكن أن تنجم عنها ، وهو ما يخلق صعوبة عند الدعوة لمثل هذا الاجراء ويجعلها حتى في حالة الانعقاد عديمة الأثر والفائدة[63].

ثالثا: رفض الإجابة على السؤال والمآل المحتمل

يرى البعض بأن السؤال قد يلغى بسبب طريقة صياغته عند رقابته من قبل الجهة المختصة ببحث مدى توافر شروطه داخل المجالس النيابية ، ولكن هذا الفحص يكون من هذه الأخيرة فقط مما يعني عدم قدرة الوزير رفض الإجابة بحجة أن السؤال غير مستوفي الشروط القانونية المطلوبة ، ومرد هذا المنع كي لا يحل الوزير محل لجان المجلس المختصة بفحص السؤال ، ويقرر عدم الإجابة عليه بداعي عدم توافر شروطه ، وإلا كانت هناك جهتان تفحصان السؤال – لجان المجلس من جهة والوزير من جهة أخرى-الأمر الذي يتنافى مع النصوص القانونية للأنظمة الداخلية للمجالس النيابية[64] ، ويعطي للوزير المختص مبرر للتهرب من الإجابة بالحجة التي يريدها ووفق المبرر الذي يراه مناسبا[65] ، لاسيما وأن الإجابة على السؤال تُعد التزاما يقع على عاتق الوزير متى كان مكتمل الشروط ومستوفي الإجراءات ، يجب بمقتضاه على ممثل الحكومة تقديم المعلومات اللازمة للبرلمان ، وأن تكون هذه المعلومات دقيقة وصادقة وبعيدة عن التضليل ، بحيث تجيب عن كل انشغالات ممثلي الهيئة الناخبة عن طريق شرح وتبرير توجهات السياسة العامة للحكومة ، بغية تصويب أي حكم مسبق للنواب على هذه السياسة[66].

ومع ذلك فإن وصف المعلومات التي تقدمها الحكومة بأنها دقيقة وصادقة وليست مُضللة ، ليس كافيا لفهم الموضوع الذي يشغل بال النواب بالقدر اللازم ، على أساس أن هناك أنواع من الإجابات لا يفهمها الكثير وتبقى بالتالي غامضة وغير دقيقة تحتاج إلى تفصيل أكثر ، لأنه إذا أراد الوزير الإجابة على السؤال ، فإنه يقدم ما يراه هو "إجابة مناسبة" ربما يراها غيره غير ذلك ، فمثلا عندما تقدم عضو معارض في مجلس العموم البريطاني بسؤال لوزير الدولة لشؤون اسكتلندا حول برنامج التنفيذ الفعلي لقانون نقل السلطة ، أجاب الوزير قائلا: " سوف يتم نشر هذه الخطة عندما تكون جاهزة " ، بهذه العبارة فقد أجاب الوزير فعلا لكن إجابته تبقى غامضة جدا[67] ، ومن ثم فالعبرة لا تكمن فقط في مجرد الإجابة ، وإنما ينبغي لهذه الإجابة أن تكون واضحة ومزيلة لكل لبس أو غموض يمكن أن يكتنفها.

أما بالنسبة للوضع في الجزائر فإن المشرع أدرج إلزامية إجابة الوزير المعني على السؤال الشفوي ، حتى ولو تعلق موضوع السؤال بمسائل إستراتيجية وقضايا حيوية

للدولة الجزائرية ، على خلاف ما نص المشرع في بداية الأمر على استثناء هذه المسائل(الاستراتيجية والحيوية) من مجالات السؤال البرلماني ، وفسح الطريق أمام الحكومة في إمكانية امتناعها عن الأجوبة كلما تعلق الأمر بها[68] ، غير أن المجلس الدستوري اعتبر أن هذا الاستثناء غير متطابق مع أحكام الدستور ، وذلك وفق التأسيس التالي: على اعتبار أن المؤسس الدستوري قد بين بموجب الفقرتين الثانية والثالثة من المادة 134 (والتي أصبحت تقابل المادة 152 بموجب تعديل 2016) أن جواب عضو الحكومة يكون وفق الشروط المنصوص عليها في هاتين الفقرتين ، دون أن يقرر حالة أخرى لعدم الجواب حتى وإن كان السؤال متعلق بمصالح إستراتيجية للبلاد ، فإنه يستنتج من ذلك **أن عضو الحكومة لا يمكنه أن يمتنع عن الرد لأي سبب كان وهو ملزم بالإجابة عن أي سؤال** وفق الشروط والآجال المنصوص عليها في المادة 134 سابقا ، 152 حاليا من الدستور[69].

غير أن هذه النصوص جاءت ناقصة من حيث عدم ذكر الجزاء الذي يمكن ترتيبه عند تجاوز الحكومة للمدة المطلوبة ، دون الإجابة على فحوى السؤال أو عند رفض الإجابة على السؤال أصلا[70] ، ولهذا أصبح النواب يترددون كثيرا قبل إقدامهم على توجيه الأسئلة لعلمهم المسبق أنه يمكن للوزير المعني ألا يجيب على السؤال أو يجيب إجابة سطحية وعامة لا تفي بالغرض المطلوب[71].

خاتمة

بعد إلقاء نظرة على آلية السؤال البرلماني في النظام الدستوري الجزائري اتضح لنا أنه في قيام المؤسس الدستوري بمنح هذا الحق لكل من نواب المجلس الشعبي الوطني وأعضاء مجلس الأمة إنما يعكس رغبة كبيرة في تمكين ممثلي الشعب من توظيف أداة رقابية مهمة لتصويب أعمال وتصرفات الجهاز التنفيذي ، بما يعيد للتوازن المفقود بين سلطة التشريع وسلطة التنفيذ.

غير أن هذه الرغبة وتلك الغاية اصطدمت في أرض الواقع بقصور تشريعي واضح عجز عن إيجاد تنظيم مناسب لإجراءات وشروط هذه الأداة الرقابية بالشكل الذي يُفعل دورها ويُبرز آثارها عند أي عملية توظيف لها ، الأمر الذي جعلها توصف بأنها إجراء عديم الأثر اتجاه الممارسات التي تقوم بها الحكومة بسبب غياب الجزاء القانوني الذي يمكن بمقتضاه إحراج الحكومة إذا ما تقاعست عن إعطاء الإجابة المطلوبة ، ولا يمكن الرد على هذا بالقول بأن المؤسس الدستوري بموجب التعديل الأخير للدستور لسنة 2016 قد ألزم الحكومة بالإجابة في غضون (30) على أساس أن هذا الوجوب يفقد مفعوله مع الغيابات المتكرر للوزراء عن جلسات الإجابة لسبب أو من دونه[72].

هكذا تبين أن استعمال آلية الأسئلة البرلمانية في الجزائر قد أبان على محدودية دورها وعلى قلة فاعليتها في التأثير على النشاط والعمل الحكومي وعلى السياسة العامة ما عدا إجراء مناقشة عامة أو الاحتجاج البرلماني الفردي على تصرف أعضاء الحكومة ، الأمر الذي يؤكد أنها لا تزال مجرد وسيلة إعلامية لم تصل بعد إلى حد التأثير على توجهات الحكومة أو إثارة مسؤوليتها السياسية.

لذلك نرى أنه من الضروري تعديل القانون العضوي رقم 02/99 المنظم لغرفتي البرلمان وعلاقتهما مع الحكومة بما يضمن إدراج جزاء قانوني كأثر عن كل امتناع أو تماطل أو تهرب من جانب الحكومة في الإجابة على ما طرح عليها من أسئلة وأنسب جزاء-حسب رأينا-هو تحويل السؤال إلى استجواب ، مع تعديل أحكام هذا الأخير كذلك بما يضمن تأثيره القوي والفعال على توجهات الحكومة.

ولا يتم كل ذلك إلا بعد ضبط الشروط الموضوعية والشكلية وكذا الإجراءات الخاصة بتوظيفه بطريقة تجعله في متناول النواب كلما أرادوا استعماله خدمة للصالح العام

الهوامش

1. يعتبر السؤال البرلماني من أقدم وسائل الرقابة البرلمانية ظهورا ، أقترن وجوده بوجود البرلمان ذاته ، إذ برع في استخدامه أعضاء البرلمان الانجليز عقب ظهور المسؤولية السياسية ، وبسبب التماسك القائم بين العضو الحكومي وبين الحزب الذي ينتمي إليه ، كان النواب الانجليز يرجعون إلى هذه الآلية كثيرا عند رقابتهم لأعوان ومستشاري الملك ، ولا يوظفون الأدوات الرقابية الأخرى إلا نادرا. للمزيد من المعلومات والتفاصيل حول هذا الموضوع. أنظر كل من:- عقيلة خرباشي ، مركز مجلس الأمة في النظام الدستوري الجزائري ، الطبعة الأولى ، دار الخلدونية ، الجزائر ، 2013 ، ص 388.

- ميلود ذبيح ، فعالية الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة في الجزائر ، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم القانونية ، كلية الحقوق والعلوم السياسية ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة ، الجزائر ، 2013 ، ص 114.

محمد محسن عباس ، " الاختصاص الرقابي لمجلس النواب في توجيه الأسئلة البرلمانية (دراسة تشريعية مقارنة) " ، **مجلة الكوفة** ، العراق ، العدد السادس ، 2006 ، ص 108.

سعد الشتيوي العنزي ، " الضوابط الدستورية للسؤال البرلماني من حيث المضمون والاختصاص والغاية-دراسة على ضوء قرار المحكمة الدستورية الكويتية-في طلب التفسير رقم 3 لسنة 2004 ، الصادر بتاريخ 17-4-2005 " ، **مجلة الحقوق الكويتية** ، العدد الثالث ، السنة الرابعة والثلاثون ، سبتمبر ، 2010 ،ص 226.

خالد عبد الأمير الجاروش ورشا شاكر حامد ، " القيود الدستورية على عمل السلطة التشريعية والتنفيذية في العراق " ، **مجلة جامعة أهل البيت** ، كلية القانون ، العراق ، العدد الثاني عشر ، 2012 ، ص 152.

خالد عبد الله عبد الرزاق النقيبي ، **الرقابة البرلمانية على أعمال السلطة التنفيذية في دولة الإمارات المتحدة- دراسة مقارنة** - دار النهضة العربية ، القاهرة ، 2012 ، ص 210

زيرك مجيد ، **مدى التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية** ، الطبعة الأولى ، منشورات الحلبي الحقوقية ، بيروت ، لبنان ، 2014 ، ص 74.

2. أنظر كل من:- محمد باهي أبو يونس ، **الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة – دراسة مقارنة بين النظامين المصري والكويتي**- دار الجامعة الجديدة للنشر ، الإسكندرية ، مصر ، 2012 ، ص 56.

محمد هاملي ، هيمنة السلطة التنفيذية على السلطة التشريعية في النظام الدستوري الجزائري-دراسة مقارنة بالنظامين الدستوري المصري والفرنسي-دار الجامعة الجديدة للنشر ، الإسكندرية ، مصر ، 2014 ، ص 125.

3. إذا كان السؤال عبارة عن استيضاح لا ينطوي على أي اتهام فهو بذلك يختلف عن الاستجواب اختلافا كبيرا ، فالأخير هو استيضاح أو استفهام أساسه الاتهام والمحاسبة التي يوجهها النواب للحكومة برمتها أو لعضو منها. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع أنظر كل من:- محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 93.

علي محمد الدباس ، **السلطة التشريعية وضمانات استقلالها في النظم الديمقراطية النيابية - دراسة مقارنة** - الطبعة الأولى ، المكتبة الوطنية ، المملكة الهاشمية الأردنية ، 2008 ، ص 217.

4. -Gérard Burdeaux, Le control parlementaire, **Documentation d'étude de droit constitutionnel et institution politique**, N° 14, 1970. Page. 24.

سعد الشتيوي العنزي ، المرجع السابق ، ص 249.

تغريد عبد القادر علي ، "رقابة مجلس النواب على أعمال الحكومة-دراسة في السؤال البرلماني" ، **مجلة جامعة المستنصرة للعلوم القانونية** ، العراق ، العدد الرابع ، المجلد 12 ، 2010 ، ص 34.

-حمد هاملي ، المرجع السابق ، 127.

5. على كاظم الرفيعي ، " وسائل الرقابة البرلمانية على الحكومة في العراق-دراسة مقارنة- " ، **مجلة الكوفة** ، العراق ، 2006 ، ص 46.

6. نلاحظ أنه عادة ما يستغل النواب آلية السؤال البرلماني لتوصيل الانشغالات والاهتمامات المحلية المرتبطة بالدوائر الانتخابية التي ينتمون إليها ، وتتعلق هذه الاهتمامات خاصة بالخدمات الاجتماعية والمشاكل الحياتية للمواطن من تشغيل ، رعاية صحية وسكن ، كما قد تتعلق بالبنية التحتية من طرق وجسور والتزود بالمياه والغاز الطبيعي خاصة على مستوى الريف والقرى والمداشر ، ما دامت الفرصة مواتية بالنسبة للنائب وذلك بحضور الجهاز الحكومي.

ومع ذلك فإنه لا ينتقد المنظور الخدماتي في حد ذاته الذي يحاول النواب تقديمه في هذا المجال فهو أمر مشروع قانونيا ومقبول سياسيا ، لكن إذا تعلق الأمر بالسؤال البرلماني فإنه كان من المفترض على النواب التركيز على القضايا الكلية والسياسات العامة ، وهو الأمر الذي أهمله النواب في معظم الأسئلة البرلمانية المطروحة حتى ثار الجدل حول طبيعة البرلمان ومهامه ونظرة الأعضاء لدورهم ومسؤولياتهم النيابية ومدى إدراكهم للفارق بين وظيفة الهيئات المحلية والمجالس التشريعية.

7. ميلود ذبيح ، المرجع السابق ، ص 116.

8. محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 95.

9. عبد الرحيم فهمي المدهون ، حق السؤال كأداة من أدوات الرقابة على أعمال السلطة التنفيذية وفقا لنظام الفلسطيني-دراسة مقارنة-بحث مقدم لاستكمال درجة الماجستير في القانون العام ، كلية الحقوق ، غزة ، فلسطين ، 2010 ، (رسالة غير منشورة) ، ص 64.

10. بول سيلك ورودرى والترز ، **كيف يعمل البرلمان** ، ترجمة علي الصاوي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، مصر ، 2004 ،ص 271.

11. أنظر:

- Michel Ameller, **Les Questions instruments du control parlementaire**, L. G. D. J, Paris, 1964 ; P. 269.

12. أنظر:

13. -Maurice Duverger, **Institution et droit constitutionnel**, Paris, 1968, P. 137.

14. تغريد عبد القادر علي ، المرجع السابق ، ص35.
15. محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 129.
16. بول سيلك ورودري والترز ، ترجمة علي الصاوي ، المرجع السابق ، ص 295.
17. الأصل أن كل أنواع الأسئلة-الشفوية والمكتوبة-توجه مكتوبة إلى أعضاء الحكومة غير أن الفارق بينهما يتوقف على طلب العضو السائل بأن تكون إجابة الوزير المسؤول شفويا أو كتابيا ، ففي انجلترا يستطيع النائب تقديم أسئلة مكتوبة والحصول على إجابات مكتوبة من خلال تقديم أسئلة تحمل عنوان (أسئلة تتطلب إجابات مكتوبة). للمزيد من التفاصيل أنظر:- تغريد عبد القادر علي ، المرجع السابق ، ص 36.
18. عقيلة خرباشي ، المرجع السابق ، ص 389.
19. ميلود ذبيح ، المرجع السابق ، ص 235.
20. محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص57.
21. علي كاظم الرفيعي ، المرجع السابق ، ص 48.
22. بالمقابل نلاحظ بأن النظام الداخلي للمجلس الشعبي الوطني لسنة 1997 كان أكثر وضوحا عندما نص في المادة 99 على أنه " يحق لكل مجموعة برلمانية أن تطرح سؤالا واحدا في كل جلسة ، كما يحق لها أن تطرح سؤالا إضافيا في نفس الجلسة " أنظر:- محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 131.
23. الجريدة الرسمية لمداولات المجلس الشعبي الوطني ، العدد 211 ، المؤرخ في 17-07-2000.
24. محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 131.
25. [1]-وهذه الخصوصية نجدها في أغلب البرلمانات التي تعتمد على هذه الوسيلة ، ومن ثم فالسؤال البرلماني يعتبر الإجراء الرقابي الوحيد الذي لا يشترط فيه أغلبية معينة. أنظر في هذا الخصوص:- العيد عاشوري ، رقابة عمل الحكومة بواسطة الأسئلة الشفوية والكتابية ، وقائع ندوة وزارة العلاقات مع البرلمان ، إقامة الميثاق ، 23 أفريل 2006 ، ص 2.
26. تغريد عبد القادر علي ، المرجع السابق ، ص 38.
27. للمزيد من المعلومات أنظر كل من:- عزيزة شبري ، السؤال البرلماني كآلية من آليات الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة في الجزائر ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الحقوق ، تخصص قانون دستوري ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، 2009 ، مذكرة غير منشورة ، ص 150.

محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص 59.

عقيلة خرباشي ، المرجع السابق ، ص 390.

محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص 59.

28. شرط ألا تكون قد تمت الإجابة على السؤال المقدم أولا ، لأن التعليمة رقم 8 السالفة الذكر اشترطت على مقدم السؤال ألا يكون نظير موضوع سؤال سابق تمت الإجابة عليه في مدة تقل عن ثلاثة أشهر. وللمزيد من التفاصيل حول هذا الضابط أنظر بالخصوص:- محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 134.
29. هذا ولم تنص الأنظمة الداخلية للمجلس الشعبي الوطني أو مجلس الأمة ولا حتى القانون العضوي 02/99 لإمكانية قيام النائب بطرح نفس السؤال الواحد لعضوين في الحكومة في آن واحد ، إلا أن الممارسة البرلمانية بينت أنه حدث وأن طرح أحد أعضاء مجلس الأمة سؤالا شفويا لكل من وزير العدل ووزير التعليم العالي حول شهادة الكفاءة المهنية للمحاماة ، لأن موضوع الكفاءة المهنية للمحاماة يدخل في نطاق الاختصاص الخالص لوزير التعليم العالي عندما يتعلق الأمر بكيفيات وإجراءات تسليم الشهادة وتنظيم التكوين ، ويدخل في الاختصاص الخالص لوزارة العدل إذا كان الأمر يتعلق بممارسة حاملي هذه الشهادة ، ومن الأمثلة كذلك قيام أحد النواب في مجلس الأمة الكويتي بتوجيه سؤالا برلمانيا إلى كل من وزير الداخلية ووزير الصحة العامة حول حادث الاعتداء الذي وقع على رئيس وحدة الأطفال بمستشفى منطقة الجهراء . للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع أنظر كل من: -
محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 97.

عزيزة شبري ، " النظام الاجرائي للأسئلة البرلمانية في الجزائر " ، **مجلة المنتدى القانوني** ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، العدد السابع ، 229 ، ص 226.

بوسالم دنيا ، الرقابة البرلمانية على أعمال الحكومة في ظل دستور 96 ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في القانون ، فرع قانون إداري ومؤسسات سياسية ، جامعة عنابة ، الجزائر ، 2007 ، مذكرة غير منشورة ، ص 105.

30. [1]- وهو ما يعبر عنه بالاستجواب المقنع للتفصيل أكثر حول الفرق بين السؤال والاستجواب أنظر بالخصوص:- عزيزة شبري ، النظام الاجرائي .... المرجع السابق ، ص 223.

-بوسالم دنيا ، المرجع السابق ، ص 104.

31. محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص 58.
32. أنظر:

- Pactet)P(, **institutions politique et droit constitutionnel**, Paris, Masson, p. 462.

33. محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 132 .
34. محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص 60.
35. محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 96.
36. حيث جاء في نص المادة الثالثة من دستور 96 بعد تعديل 2016 ما يلي " اللغة العربية هي اللغة الوطنية والرسمية.
تظل العربية هي اللغة الرسمية للدولة...."

37. حيث نجد المادة 139 من لائحة الجمعية الوطنية الفرنسية تنص على أن " الأسئلة يجب ألا تتضمن أي اتهامات أو تعريض لأشخاص آخرين محددين بالاسم. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر كل من:

محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 99.

سعد الشتيوي العنزي ، المرجع السابق ، ص 268.

38. محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص 147.

39. سعد الشتيوي العنزي ، المرجع السابق ، ص 267.

40. أنظر المادة 69 من القانون العضوي رقم 02/99 السالف الذكر.

41. وذلك بخلاف الحالة التي يودع فيها السؤال لدى رئيس الغرفة الذي غالبا ما يكون ينتمي لحزب الأغلبية الموالي للحكومة وهو الأمر الذي يقرب من احتمال تجاهله إذا كان لا يتناسب مع توجهات الحكومة. أنظر:- محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 136.

42. للمزيد من المعلومات أنظر: محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 137.

43. تنص المادة 74 من النظام الداخلي لمجلس الأمة بأن تدون الأسئلة المكتوبة في سجل خاص وقت ايداعها ، في المقابل لم يرد نص مماثل في النظام الداخلي الحالي للمجلس الشعبي الوطني ، رغم أن النظام الداخلي لسنة 1997 السابق قد تضمن نصا صريحا يقضي بذلك ، هو نص المادة 95 في فقرتها الأخيرة.

44. محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص138.

45. العيد عاشوري ، المرجع السابق ، ص3.

46. محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص65.

47. أنظر:

- Perlot (M) et autre, **institutions politique et droit constitutionnel**, Paris, Dalloz, 2002, p. 836.

48. ففي فرنسا مثلا يقوم الوزير بإرسال إجابته عن السؤال إلى الجمعية الوطنية أو مجلس الشيوخ حسب الأحوال خلال شهر من نشر السؤال بالجريدة الرسمية ، ومن حقه طلب تمديد هذه المدة إلى شهر آخر إذا لم يتمكن من الإعداد والتحضير للإجابة خلال الشهر الأول ، لتصبح المدة في مجملها شهرين. للمزيد من المعلومات أنظر:- محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص 61.

49. محمد باهي أبو يونس ، مرجع نفسه ، 65.

50. أنظر المادة 69 من القانون العضوي رقم 02/99 المشار إليه أعلاه ، هذا ولم تحدد النصوص القانونية المدة المقررة لرئيس المجلس المعني لإخطار الوزير الأول بنص السؤال.

51. محمد باهي أبو يونس ، المرجع السابق ، ص64.

52. أنظر المادة 69 من القانون العضوي رقم 99-02 المشار إليه آنفا.

53. عزيزة شبري ،النظام الإجرائي... المرجع السابق ، ص 229.

54. أنظر:

- Article (75) au Règlement du Senat en date du 14 décembre 1960.

55. محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 104.

56. عزيزة شبري ، النظام الإجرائي ،... المرجع السابق ، ص 230.

57. عبد المنعم المشاط والسيد عبد المطلب غانم ، العلاقة بين تكوين البرلمان وأداؤه ، الطبعة الأولى ، مركز البحوث والدراسات السياسية ، القاهرة ، مصر ، 2008 ، ص 79.

58. يعتبر رئيس المجلس رمزا له وهو الممثل للسلطة التشريعية والحكم المحايد بين الأغلبية والأقلية ، ثم بين الحكومة والمجلس ، لذلك فإن شخصيته تعد من أهم العوامل المؤثرة في سير المناقشات والأعمال داخل البرلمان ، ولا يتماثل موقع ومكانة رئيس المجلس مع باقي الأعضاء ، حيث أن الرئيس يمثل المجلس ويتكلم باسمه ، فضلا على أنه يفتتح الجلسات ويرأسها ويعلن انتهاءها ويضبطها ويدير المناقشات ويحدد موضوعها ويوجه نظر المتكلم إلى حدود الموضوع وإلى غير ذلك من المهام التي يختص بها وحده بهذه الصفة. للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع أنظر بالخصوص:- جلال بنداري ، **تفعيل دور البرلمان وحاجته إلى بيوت الخبرة** ، دون أي معلومات ، ص ص 14- 15.

59. عبد المنعم المشاط والسيد عبد المطلب غانم ، المرجع السابق ، ص 79.

60. محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 106.

61. عزيزة شبري ، النظام الإجرائي... ، المرجع السابق ، ص 230.

62. محمد هاملي ، المرجع السابق ، ص 138

63. شبري عزيزة ، السؤال البرلماني... ، المرجع السابق ، ص 102.

64. محمد عباس محسن ، المرجع السابق ، ص 107.

65. إلا أن جانب آخر من الفقه يرى أن الوزير يستطيع رفض الإجابة عن السؤال ، استنادا إلى بعض النصوص للأنظمة الداخلية للمجالس النيابية ، أو الأعراف والتقاليد البرلمانية ، أو أسباب أخرى يقدرها هو ويقتنع بها أعضاء المجلس. حول هذا الموضوع أنظر بالخصوص:- محمد عباس محسن ، مرجع نفسه ، ص 107.

66. ميلود ذبيح ، المرجع السابق ، ص 240.

67. بول سيلك ورودري والترز ، المرجع السابق ، ص 274.

68. حيث كانت تنص المادة 71 في فقرتها الثالثة من القانون العضوي 02/99 على ما يلي: " يمكن لعضو الحكومة أن يمتنع عن الإجابة لأسباب ذات مصالح إستراتيجية للبلاد "

69. بوسالم دنيا ، المرجع السابق ، ص 109.

70. على خلاف المؤسس الدستوري الفرنسي الذي فرض جزاءات ملموسة على عدم الإجابة على السؤال البرلماني تتمثل في نشر الأسئلة التي لم تتم الإجابة عليها في فصل خاص بذلك في الجريدة الرسمية ، الذي يذكر فيه نص السؤال والوزارة المعنية به والمدة التي كان يجب الإجابة فيها عليه. أما في الجزائر فإن التقارير البرلمانية والإحصائيات الخاصة بها تكشف أن الحكومة لم تجب على الكثير من الأسئلة البرلمانية ، فمثلا خلال الفترة التشريعية الممتدة من 2002 إلى 2007 لم تجب الحكومة على 110 سؤال قدمها نواب البرلمان بغرفتيه لها ، كما أن التجربة العملية بينت أن غالبية الأسئلة الشفوية لا تتم الإجابة عنها أصلا لسبب أو لآخر. ففي خلال الدورة الخريفية لسنة 2003 ومن أصل 119 سؤالا شفويا على مستوى المجلس الشعبي الوطني لم تتم الإجابة إلا على 31 سؤال وبقي 88 سؤال دون إجابة وهذا خلال أربع جلسات مخصصة للرد ، أما على مستوى مجلس الأمة فمن أصل 21 سؤال لم تتم الإجابة إلا على سؤالين وبقي في المقابل 19 سؤال دون إجابة وهذا خلال جلستين.

71. عاشور نصر الدين ونسيغة فيصل ، " علاقة الحكومة بالبرلمان في ظل التعديل الدستوري لسنة 1996 " ، **مجلة الاجتهاد القضائي** ، مخبر أثر الاجتهاد القضائي على حركة التشريع ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، العدد الرابع ، ص 317.

72. كثيرا ما تشهد الجلسات المخصصة للإجابة على الأسئلة الشفوية غياب الوزراء المعنيين بالرد ، والاكتفاء بتوكيل الوزير المكلف بالعلاقات مع البرلمان بذلك ، والذي غالبا ما يعطي إجابات عامة وسطحية بعيدة عن التفاصيل الدقيقة ، الأمر الذي خلق نوع من الامتعاض والاستياء لدى أعضاء البرلمان وأثر سلبا على مردودية وفعالية السؤال. وللمزيد من التفاصيل أنظر:-عقيلة خرباشي ، المرجع السابق ، ص 397.

مصطلح الشعرية بين أرسطو طاليس وحازم القرطاجني

رحموني بومنقاش*

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى مساءلة بعض مفاهيم الشعرية ، ومقارنتها بأصولها العربية واليونانية ، فهي محاورة للتراث العربي واليوناني بحثا عن تأصيل مفهوم الشعرية أولا ، وقراءة في شعرية حازم القرطاجني وكتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" ثانيا ، وأخيرا هي نظرة في مسألة الأثر الأجنبي (اليوناني تحديدا) في البلاغة والنقد العربي ، ومحاولة للوقوف على فضاء التأثير والتأثر بين حازم وأرسطو ، وفق المنهج المقارن ، و من خلال مدونتي فن الشعر و منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، انطلاقا من أن كتاب "فن الشعر" لأرسطو كتابا مؤسسا للشعرية ، وكتاب حازم القرطاجني كتاب في البلاغة المعضودة بالأصول الفلسفية والمنطقية.

الكلمات المفاتيح: أصول ، مقولات ، الشعرية ، مقارنة ، مفاهيم

Résumé

Cette étude consiste à poser certaines questions sur la compréhension poétique et sa comparaison par rapport à ses origines arabo-grecques. Premièrement, c'est la dialogique du patrimoine arabe et grecque recherchant l'origine de la compréhension poétique, et la lecture dans la poésie de HAZEM EL-CATARGENI (Hazem Le Carthaginois) et son livre « MINHADJ EL-BOULAGHA OUA SIRADJ EL-OUDABA » « La méthode des rhéteurs et la lumière des lettrés », deuxièmement, c'est un regard sur le sujet du patrimoine étranger (précisément grecque) en matière de la rhétorique et de la critique arabe, et un essai en s'arrêtant sur l'influence entre HAZEM et ARISTOTE , conformément au modèle comparatif et plus précisément, le modèle de l'école Française, et ce, à partir de deux chroniques de l'art poétique et la méthode rhétorique et la lumière des lettrés ». le livre « Art poétique d'Aristote » est un livre fondamental de la poésie, quant au livre de Hazem El-Catargéni c'est un livre sur la rhétorique soutenue par les origines philosophiques et logiques

Mots clés : Actifs, Catégories, Poétique, Comparer, Concepts.

Summary

This study aims to explore some poetic items and compare them with Arabic and Greek origins. First, the study is a discussion of Arabic and Greek heritage looking for the origin of poetic definition. Secondly, It is a poetic reading of Hazam al kartajani's book "Minhaj elbolaga wa siraj el odabba" . finally it is a careful look at the foreign influence(especially the Greek one) on the Arabic rhetoric and critic, and an attempt . to analyse the interrelation between (Hazam) and (Aristotle) according to the comparative method and exactly French school method depending on the two books (Fan ashiare) and (minhaj elbolaga wa siraje al odabaa)

Keywords: Assets, Categories, Poetry, Compare Concepts.

* أستاذ محاضر ب، لكية الآداب واللغات، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

توطئة

ليس المصطلح مجرد وحدة معجمية لغوية فحسب ، وانما هو مسألة معرفية (ابستمولوجية) ومفهومية قبل كل شيء ؛ يتوقف عليه بناء العلوم والمعارف ، فهو منتهى مقاصدها و مجمع حقائقها ، ودليل خصوصيات كل حقل معرفي ونشاط إنساني ، بفضله تتم عملية التثاقف و الترجمات ، بل هو الواحهة المشرقة لكل وعي نظري وعملي للمنهج النقدي ؛ فهو يعكس قدرة الثقافة على احتواء الأفكار وتحويلها إلى لغة قابلة للفهم والتواصل ، فالمصطلح يتحول عند ترجمته إلى لغة تفاهم بين الثقافات والشعوب ، ليعبر عن مدى ثراء اللغة في استظهار رصيد عملية النقل الدلالي ، مبرزا القدرة على عقد قرائي تواصلي وتداولي يتجاوز الحدود المعجمية له إلى فضاء ايمائي ودلالي مكثف.

وفق هذه الرؤية ؛ تحاول الدراسة اعادة فحص الرصيد الاصطلاحي عند النقاد القدامى ، وتأكيد سيرورة المصطلح التداولية والمعرفية والنقدية ، متخذة من مصطلح الشعرية أنموذجا لهذا الفحص ، على أن الغاية من اعادة فحص المصطلح النقدي ، واللساني ، والبلاغي الموروث هوالعمل على امكانية اعادة تشغيله وتداوله ، وهذا بتدعيم المصطلح بتحديد دلالي ، يبين مجال اشتغال المصطلح وحمولته المعرفية والمفهومية. إذ يتم هذا التحديد الدلالي وفق رؤية ثلاثية الأبعاد: البعد الدلالي لمصطلح الشعرية في الدرس النقدي المعاصر ، البعد الدلالي لمصطلح الشعرية في "فن الشعر" لأرسطو ، البعد الدلالي لمصطلح الشعرية في" منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني.

حيث إن المصطلح النقدي (الشعرية) ينبني على منطلقات ثلاثة:

_ لا تستطيع البلاغة القديمة وحدها تحديد مواطن الجمال في النصوص الإبداعية ، ذلك أنها تعاملت مع النص من منظور بنيته المغلقة ، وأغفلت باقي مقوماته الجمالية.

_ تتصور البلاغة القديمة أن الشعرية لا تكتمل إلا بالمحسنات الجمالية ، بينما يتعدى مفهوم الشعرية خصائص النص الشكلية إلى البحث عن خصائص جوهرية في الخطاب الأدبي.

_ التحرك داخل اللغة الفنية باعتبارها انزياحا عن المعيار يفتح فضاء تأويل النصوص ، بعد أن عمدت البلاغة القديمة على جعل عملية تأويل النصوص الأدبية رهين مجموعة من القواعد المعيارية.

وفي معرض تفتيق دلالة الشعرية ، تستعرض الدراسة بعضا من أجه إشكالية الأثر اليوناني في الدرس النقدي العربي ، وفي الخطاب النقدي عند حازم القرطاجني بصفة خاصة ، وبهذا تجمع الدراسة في ثناياها محاولة الإجابة على التساؤلات الآتية:

ما دلالة مصطلح الشعرية الشعرية عند حازم القرطاجني وعند أرسطو طاليس ؟

هل في شعرية حازم القرطاجني ما يفيد أنها صدى لشعرية أرسطو ؟

أو بمعنى آخر: هل تأثر حازم بأرسطو في تنظيره للشعرية بمفهومها عند صاحب فن الشعر ؟ ،

ما هي أوجه التشابه والاختلاف بين بلاغي عربي عاش في بيئة ثقافية أساسها عقيدة التوحيد وجمالية الشعر الغنائي ، وبين فيلسوف إغريقي عاش في بيئة يونانية مخالفة للبيئة العربية ، أساسها الشعر التمثيلي أولا؟

1 / المصطلح والمفهوم

إن الخلفية الاصطلاحية واللغوية لمفهوم الشعرية[1] أنها مصطلح لساني يوناني (poetic)، يتكون من ثلاث وحدات لغوية: (poeim) وهي وحدة معجمية تعني في اللاتينية الشعر أو القصيدة ، واللاحقة (ic) وهي وحدة مرفولوجية (morpheme) تدل على النسبة وتشير إلى الجانب العلمي لهذا الحقل[2]. وقد حاول النقاد العرب المحدثين نقل هذا المصطلح ، في صورته الحديثة إلى النقد العربي ، فاختلفوا في تسميته بين: الشّعرية ، الأدبية ، الإنشائية ، الشاعرية ، بويطيقا ، بويتيك....

وتعود أصول هذا المصطلح الأولى إلى "أرسطو" وكتابه "فن الشعر" ، والذي ترجمه العرب القدامى (أبو بشر متى بن يونس القنائي 328 هـ) إلى "أبويطيقا" ، أما في تراثنا العربي ، فقد ورد المصطلح في كثير من نصوصه بدلالات مختلفة ، ومن هذه النصوص[3]:

- قول الفارابي:"والتوسع في العبارة بتكثير الألفاظ بعضها ببعض وترتيبها وتحسينها. فيبتدئ حين ذلك أن تحدث الخطبية أولا ثم الشّعرية قليلا قليلا".

- قول ابن سينا: "إن السبب المولد للشّعر في قوة الإنسان.... وانبعثت الشّعرية منهم بحسب غريزة كل واحد منهم وقريحته في خاصته وبحسب خلقه وعادته".

- قول حازم القرطاجني:"وكذلك ظن هذا أن الشّعرية في الشّعر إنما هي نظم أي لفظ اتفق كيف اتفق نظمه وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق ، لا يعتبر عنده في ذلك قانون ولا رسم موضوع.وإنما المعتبر عنده إجراء الكلام على الوزن والنفاذ به إلى قافية"[4].

والملاحظ على المصطلح في النصوص التراثية ، أنه لا يحمل مفهومه النقدي واللساني ، ذلك أن الشعرية : " لم يعرفها العرب القدماء بمعناها الحديث ، وإنما ترددت عندهم ألفاظ من قبيل ، شاعرية ، شعر شاعر ، والقول الشعري ، والقول غير الشعري والأقاويل الشعرية ، ثم ولج المصطلح في الدراسات الحديثة كعلم موضوعه الشعر ، أو علم الأدب"[5] ، وهنا نستثني نص حازم القرطاجني ، لأن لفظ الشعرية في نصه السابق يحمل معناه النقدي ، فالقرطاجني يرفض أن يكون الشّعر تنظيما عشوائيا للألفاظ والأغراض ، بل للشّعرية في الشّعر قوانين تتحكم في عملية بنائه.

وأما المصطلح كمفهوم نقدي ولساني في الدرس الأدبي الحديث ، فهو المفهوم الذي يعالج الوظيفة الشعرية من بين الوظائف الأخرى في نص ما ، أي أنها تهتم بالوظيفة الشعرية في النصوص الشعرية والأدبية ، بحثا عما يجعل منها شعرية وأدبية.

من هنا تكون الشّعرية محاولة لبسط الصرامة العلمية في الحقل الأدبي ، من خلال البحث عن قوانين للخطاب الأدبي أو الشعري ، إنّها حقل همّه الوحيد إيجاد "إجماع جمالي" ، أو لقاءات ممكنة بين المفاصل الجمالية التي تشكل جسد النص ، لا على اعتبار هذا الأخير واقعة منجزة بل بالبنى المجرّدة للأدب ؛أي أن حقل اشتغال الشّعرية ليس العمل الموجود أو ما وجد ؛ يقول "إيخنباوم" في هذا المقام:" إن كل ما تتميز به [أي الشّكلانية] ، هو محاولتها إنشاء **علم مستقل للأدب** ، مهمته دراسة المادة **الأدبية** بالمعنى الدقيق للكلمة ، والسؤال بالتالي فيها ليس كيف يدرس الأدب ؟....وإنما هو ما هي(الماهية) الفعلية لموضوع بحث الدراسة **الأدبية**"[6].

ولعل الخوض في حقيقة أصالة المصطلح عند العرب وبالضبط عند القرطاجني لا يخلو من مجازفة علمية واضحة ، وذلك لوجود نقاط تقاطع بين الشعرية من وجهة نظر عربية والشعرية من وجهة نظر غربية ، ذلك إن:" الكاتب الغربي يرى في الشّعرية متغيرات لا يستقّر عندها وبالتالي تعترض سبيله ، ولذلك يحاول ما استطاع إيجاد مخرج لهذه الأشكال. ويسير على خطاه الكاتب الشرقي حديثا يترجم ما يكتبه في قضية تلتقي في العنوان ولكنها تختلف مضمونا رغم حداثتها المعاصرة وهذه القضية هي إلشعرية"[7]. ومن ثمة نعود بدءا للإجابة عن التساؤلات والإشكالات التالية: هل في شعرية حازم القرطاجني مايفيد أنها صدى لشعرية أرسطو؟ أو بمعنى آخر: هل تأثر حازم بأرسطو وهو ينظر للشعرية ؟ ، ثم ما مفهوم أرسطو للشعرية وما مفهوم حازم لها أيضا؟ وفيما تمثلت رؤيتهما للشعرية؟ وإلى أي مدى أمكننا القول بحداثة مقولاتهما الشعرية ؟

إنها تساؤلات تندرج ضمن سياق حقيقة الهوية الثقافية لتراثنا النقدي والبلاغي والفلسفي ،إذ إن العودة إلى علاقة شعرية وبلاغة حازم بأرسطو ، هي عودة لعلاقة الفلاسفة المسلمين المتأغرقين بثقافة الآخر الغربي/ اليوناني ، فهل الذي حدث هو عملية "تغريب" قام بها الفلاسفة والشراح المسلمون ، انطلاقا من القول بتبعية الاصطلاح الفلسفي العربي للآخر الغربي" فهذا واحد من المتقدمين وليس بأوحدهم وهو أبو محمد عبد الحق بن سبعين ، الفيلسوف الصوفي القريب العهد من ابن رشد يصف هذا الأخير بأنه بلغ النهاية في تقليد أرسطو حتى لوأنه سمعه " يقول: إن القائم قاعد في زمان واحد لقال به واعتقده ؛ وأكثر تآليفه من كلام أرسطو ، إما يلخصها ، وإما يمشي معها[...] ولا يعول عليه في اجتهاده ، فإنه مقلد لأرسطو"[8]. أم إن الذي حدث هو ما يسميه عبد الله إبراهيم "سوء تأويل ثقافي" ، بين ابن رشد والفلاسفة المسلمين وبين أرسطو ، من خلال إسقاط قواعد وقوالب خاصة بأجناس أدبية يونانية (التراجيديا والكوميديا و الملحمة) على شعرية عربية أساسها الشعر الغنائي المخالف لهذه الأجناس؟ أم إن الذي حدث هو محض عملية تلاقح

حضاري بين العرب وبين الغرب تمثلت في شروح فلسفة أرسطو؟

وهنا نستأنس بما كتبه مجموعة من الباحثين حديثا [9] في مسألة الشعرية العربية والغربية من زوايا مختلفة أولا، وما كتب حول إشكالية المثاقفة في التراث الفلسفي والبلاغي العربي ثانيا، فتبلور لدينا موضوع المقارنة بين شعرية حازم القرطاجني وشعرية أرسطو طاليس.

2/فلسفة المحاكاة باعتبارها أساسا للشعرية عند أرسطو

يمثل أرسطو طاليس الفيلسوف المؤسس للشعرية كمفهوم يبحث فيما يجعل من أثر ما أثرا فنيا، ذلك أن كتابه "فن الشعر" نص مؤسس للنظرية الأدبية في أوربا بعبارة "تدوروف"،فالكتاب يقرأ على ضوء مقارنته بمصنفاته الأخرى من قبيل "السياسة" و"الأخلاق" و"الخطابة" و"الطب"، وفي إطار الاعتراض على موقف أستاذه من الفن عموما والشعر والأدب خصوصا، انطلاقا من أن نظريته في الفن هي ردة على نظرية شيخه أفلاطون، حيث لم يكن بحثه في الشعر التمثيلي بأنماطه الثلاثة بحثا في قطاع معين من الفن دون غيره، بل رام أن يكون مدخله هذا إلى الشعر مدخلا كليا لأنه تناول المسألة الأجناسية انطلاقا من مبدأ كلي هو المحاكاة[10].

وهكذا فإن مفهوم الشعر عند أرسطو ليس وزنا وإيقاعا فقط، بل هو وزن وإيقاع ومحاكاة،إذ:" أن الناس قد اعتادوا أن يقرنوا بين الأثر الشعري وبين الوزن، والواقع أن من ينظم في الطب أو الطبيعة يسمى عادة شاعرا ورغم ذلك فلا وجه للمقارنة بين هوميروس وأنباذوقليس إلا في الوزن ولهذا يخلق بنا أن نسمي أحدهما شاعرا، والآخر طبيعيا أولى منه شاعرا"[11]،فمفهوم الشعر حسب هذا التصور ليس إلهاما أو نبوغا بل عملية مؤسسة على أقوال مخيلة ومحاكية للطبيعة تثير اللذة والمتعة، قائمة على الإيقاع الذي بفضله نفرق بين المحاكي بالألوان(الرسم) والمحاكي بالأصوات(الموسيقى)، مع لغة بارعة تتميز بالاستعارة في المقام الأول حيث يقول أرسطو:" وأهم من هذا كله البراعة في الاستعارات لأنها ليست مما نتلقاه عن الغير بل هي آية المواهب الطبيعية لأن الإجادة في المجازات معناها الإجادة في أدراك الأشباه"[12].

لقد أقام الفيلسوف الإغريقي موازنة بين الشعر وباقي الفنون لاشتراكها في المحاكاة التي هي عماد الشعر، فالرسم فن يحاكي بواسطة الألوان والرقص يحاكي بواسطة الإيقاع والموسيقى والشعر يحاكي بواسطة اللغة، وخلص إلى أن الشعر أوفر حظا من الفلسفة وأسمى مقاما من التاريخ لأن الشعر يروي الكلي بينما يروي التاريخ الجزئي، وإلى أن الشعر أقرب إلى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ.

إن الشعرية في تصور أرسطو طاليس مفهوم يرتكز على شبكة اصطلاحية، يشكل فيها كل من: المحاكاة، الحكاية، التعرف والتحول، التطهير أركان هذه الشبكة، وإن كانت الوظيفة الشعرية في النص تتجسد في المحاكاة لأنها -حسب رأيه-لا تشوه الطبيعة بل هي غريزة في الإنسان يحصل بفضلها لذة ومتعة.

إذ أن الملحمة والمأساة والديثرمبوس وجل صناعة العزف بالناي والقيثارة أنواع من المحاكاة، فهي تحاكي الطبيعة بوسائل مختلفة وموضوعات متباينة أو بأسلوب متمايز أما الفن الذي يحاكي بواسطة اللغة نثرا وشعرا فهو الأدب. كما أن الشعراء يحاكون إما من هم أفضل منا أو أسوأ منا أو مساوون لنا شأنهم شأن الرسامين، فالمحاكاة الشعرية هي الخلق من جديد وإعادة تشكيل الواقع سواء طابقه فعلا أم لم يطابقه.

إن المحاكاة -تماما كما الحكاية-آلية فنية خاصة بالمؤلف، أما التعرف والتحول اللذين يحدثان التطهير فهو أمر خاص بالمتلقي، حيث تكون الحكاية تجسيد للمحاكاة فنيا بالأحداث والحبكة، ويكون التعرف والتحول مسار هذه الحكاية بين الشخصيات وأحداثها، أما التطهير فهو همزة وصل بين النص والمتلقي.

إن لدور المحاكاة أثر في تقسيم أرسطو لأجناس النص الشعري فقد " انقسم الشعر وفقا لطباع الشعراء، فذوو النفوس النبيلة حاكوا الفعال النبيلة وأعمال الفضلاء، وذوو النفوس الخسيسة حاكوا فعال الأدنياء، فأنشأوا الأهاجي، بينما أنشأ الآخرون الأناشيد والمدائح"[13].

كما تتبع أرسطو نشأة الأجناس وتطورها فرأى أن التراجيديا نشأت ارتجالا من الديثورمبوس، وأصل الكوميديا الأغاني التي تدور حول الذكر، أما الملهاة فيجهل مؤسسها لقلة الاعتناء بها وعدم التعريف بعناصر الجوقة والممثلين، ومع

هذا التتبع لكل الأجناس نجده يهتم بالتراجيديا اهتماما خاصا ، فلماذا يكون النص المأساوي هو النص المحقق للشعرية في نظر فيلسوف اليونان ؟

إن المأساة نص يتميز بالمحاكاة أولا وباللغة ثانيا ، له وظيفة أخلاقية هي تطهير المتلقي ، ولا يكتمل بنيانه السردي إلا بشخصيات وبطل ، يتقنون دورهم الإبداعي والتمثيلي لعلاقتهم بما سيؤول إليه حال المتلقي بعد مشاهدته للعرض التراجيدي ، ومن ثم فهو نص شعري بامتياز لتوفر أركان الإبداع الأدبي فيه ، من متلقي (يتطهر من أفعاله القبيحة) ، ونص يتميز بلغة تكون بلا فخامة عبارة وجلالة فكرة لأن المهم فيها هو الوظيفة التطهيرية ، وكاتب يحاكي أفعال النبلاء وفعالهم الحميدة.

3/ الغنائية كماهية للشعرية العربية

وفي مقابل هذه الخصوصية الثقافية اليونانية ، يقف حازم القرطاجني في القرن الثامن الهجري بكتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" على وضع ثقافي وسياسي خاص ، من شأنه تحديد نموذج شعري خاص يعيد من خلاله النظر في الموروث البلاغي والفلسفي العربي.

لقد كان حازم على وعي بما لحق الشعر من اختلال في الطباع وقصر للعناية به ، واستهانة وتسفيه" أخساء العالم" و" المغالطين في دعوى النظم" و" من لا علم لهم بالشعر"لمهمته الحضارية ، بسبب اعتقادهم أن مقدماته كاذبة ، وهو الذي كان دستور العرب والشاعر كالنبي ، فكم من خطب هونه بيت شعري وكم من خطب عظمه بيت آخر[14].

وهكذا يجب أن يعاد النظر في بعض المفاهيم الشعرية الرائجة ، إذ أن الشعرية في الشعر ليست نظم أي لفظ اتفق كيف اتفق نظمه وتضمينه أي غرض اتفق على أي صفة اتفق ، دون الاعتبار لأي قانون ولارسم أي موضوع حسب عبارة القرطاجني.

وأول مفهوم يصححه هو مفهوم الشعر ، إذ لا يتحدد بالجانب الشكلاني فقط بل" الشعر كلام مخيل موزون مختص في لسان العرب بزيادة التقفية إلى ذلك ، والتئامه من مقدمات مخيلة صادقة أو كاذبة ، لا يشترط فيها غير التخييل"[15] ، وهو في هذا يستند إلى الأساس النقدي المتضمن للوزن والقافية وإلى التعريف الفلسفي المتكون من التخييل والمحاكاة ، وإلى مقصدية التأليف بإحداث انفعال في نفس المتلقي أي تحبيب الأشياء وتكريهها له ، والوسيلة في هذا هو حسن التخييل والمحاكاة ثم الإغراب والتعجيب.

إن المحاكاة الشعرية عند صاحب المنهاج جبلة إنسانية ، ذلك أن" النفوس قد جبلت على التنبه لأنحاء المحاكاة والالتذاذ بها منذ الصبا ، وكانت هذه الجبلة في الإنسان أقوى منها في سائر الحيوان"[16] ،إنها تصير القبيح جميلا أو مقبولا وبالتالي فهي إما محاكاة تحسين أو تقبيح أو مطابقة لا يقصد بها إلا ضرب من رياضة الخواطر والملح ، أو محاكاة موجود بموجود ومحاكاة موجود بمفروض الموجود ، أو محاكاة محسوس بمحسوس ومحسوس بغير محسوس وغير محسوس بمحسوس ، ومن ثم فالنص محاكاة من زاوية علاقته بالواقع ، تخيلا من زاوية القوى النفسية التي تبدعه ، تخييلا من زاوية القوى النفسية التي تتلقاه حسب جابر عصفور[17] ،أما الإغراب والتعجيب فهو ما يثيره الشاعر من لطائف الكلام التي يقل التهدي إلى مثلها ، أي أنهما كل ما من شأنه أن يثير استغراب النفس.

وللأوزان خاصية شعرية أساسية عند القرطاجني ، حيث لم يهمل الحديث عن البحور الشعرية ، فهي حسب رأيه أربعة عشر بحرا من طويل وبسيط ومديد ووافر وكامل ورجز ورمل وهزج ومنسرح وخفيف وسريع ومتقارب ومقتضب ومجتث ، أما المضارع والخبب فهما-في قناعته-بحران لايرقيان إلى الذوق العربي وأن الذوق العربي أكبر من أن يكون هذين الوزنين من نتاجه.

ولعل نظرته للأوزان الشعرية أساسها نظرية التناسب التي تحقق حلاوة المسموعات ، حيث "أن التناسب بين المسموعات والمفهومات هو أساس الشعرية في القول ولهذا أولاه حازم كل عنايته فلم يقصره على العلاقة بين الأصوات في الشعر بل وسع مداه ليشمل كل مكوناته"[18] وهكذا يحدد في " معرف دال على طرق المعرفة بأنحاء النظر في بناء الأشعار على أفق الأوزان لها" مجموعة من الخصائص الوزنية المناسبة لمختلف الأغراض ، ومن ثم يكون الشاعرحسب توظيفه لهذه الأوزان والأغراض إما ضعيفا أو متمكنا أو بين الإثنين.

4/تعدد الإجابة في سؤال المقارنة

إن تحليل شعرية حازم القرطاجني قياسا بشعرية أرسطو جعل الباحثين يختلفون في الأصول والمنابت المعرفية لحازم أهي أرسطية يونانية أم أنها صنعة عربية فريدة، وهنا اختلاف بين قائل بتأغرقه وقائل بأنه مزج البلاغتين العربية واليونانية، وبين القائل بأنه بلاغي عربي وشاعر مبدع شكل عقله النحو وأصول الفقه.

فشكري عياد محقق كتاب الشعر يعتبر القرطاجني قد جهد أن ينتفع بكتاب الشعر أعظم الانتفاع وأن المنهاج كتاب غلب فيه التيار اليوناني على العربي، وأما محقق المنهاج محمد الحبيب ابن خوجة فقد رأى أن كتاب حازم جمع بين المبادئ الهيلينية والعربية وأنه ملم بفلسفات سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس، أما إحسان عباس فقد قال بأن مسألة الأثر الأجنبي في النقد العربي مسألة موجودة إلى نهاية القرن الثامن للهجرة وأن القرطاجني ما هو إلا حلقة أخيرة من حلقات الاتصال بين أرسطو والنقد العربي، وأنه مزج الاتجاه الفلسفي المستمد من كتاب أرسطو و الاتجاه النقدي المستمد من الآثار النقدية العربية، وهو الرأي نفسه الذي يطالعنا به جابر عصفور، أما محمد أبو موسى فيعتبر حازم عقل عربي فريد أجيز في الفقه والنحو لأنه لم يصرح بنفسه أنه متأثر بأرسطو أو أنه مزج البلاغتين العربية واليونانية وأن الرواة الذين نقلوا عنه لم يصرحوا بهذا مطلقا.

5/مقاصد الخطاب الحازمي في ضوء واقعه الثقافي

إن تنوع الآراء واختلافها دليل على أن المنهاج نص يقبل عدة تأويلات، وبالتالي فالتعويل عليه وعلى الظرفية التاريخية والثقافية التي صاحبته أمر ضروري لحل الإشكال، لأن" محلل الخطاب-شأنه في ذلك شأن المخاطب-لا يملك طريقة مباشرة للوصول إلى المعنى المقصود من طرف المتكلم عند تلفظه بالقول، فهو في الغالب يحتاج إلى الاعتماد على عملية استنتاج تمكنه من التوصل إلى فهم المقولات، أو فهم طبيعة الروابط بينها"[19].

حيث أن القرطاجني عاش زمن بداية سقوط الأندلس، كما أنه ابن فقيه وقاضي، وهو مالكي المذهب كوالده نحويا بصريا كعامة أهل الأندلس حافظا للحديث راوية للأخبار، من مشايخه أبوعلي الشلوبين الذي كان كبير نحاة الأندلس في زمانه جامعا بين العلوم النقلية والعلوم العقلية كالمنطق والفلسفة باثا في صدور الرجال العلوم والفلسفة.

أما القصد الذي رامه حازم من تأليف المنهاج على ضوء الواقع الثقافي الذي عاصره فهو النهوض بدور الشعر الحضاري، وبالتالي البحث عن دقائق الشعرية التي لم يتطرق إليها الفيلسوف اليوناني، من خلال إقامة علم للشعر يستعين فيه بالفلسفة والبلاغة وعلوم اللسان، بناء على رؤى الفلاسفة الإسلاميين وبالضبط الفارابي الذي ذكره مرتين (وهو الخارج من جبة أفلاطون)، وابن سينا الذي ذكره أربع عشرة مرة (وهوالخارج من جبة أرسطو).

ويكثر القرطاجني من الإحالة على الشيخ الرئيس ابن سينا، بل ويصرح بأنه يأمل أن يكون ما صاغه من القوانين هو ما أشار إليه ابن سينا فيقول:" وقد ذكرت في هذا الكتاب من تفاصيل هذه الصنعة ما أرجو أنه من جملة ما أشار إليه أبو علي بن سينا"[20]، كما تتطابق عدة نصوص من المنهاج مع نصوص ابن سينا في كتاب الشفا.واتفقا (ابن سينا مع حازم) على ارتباط قوانين أرسطو بالأجناس الأدبية اليونانية وقصورها على الإلمام بآداب العرب، ومن ثم ضرورة إعادة التنظير الشعري إلى ديوان ونقد العرب.

على أننا قد نفرق بين حازم وأرسطو انطلاقا من تصورهما لمفاهيم الشعرية، فبغض النظر عن المجايلة والسبق إلى تأسيس هذا المفهوم اللساني الأدبي، يبدو أن مؤلفا الرجلين فيها تباين كبير من حيث التقسيم وسياق التأليف ومن حيث عناية الأول بالشعر الغنائي وإهمال الثاني له.

ثم إن كتاب أرسطو المترجم عربي الترجمة، إذ بقي في نسخته السريانية التي ترجمت إلى العربية حتى جاء المترجمون الغرب ونقلوه من تلخيص ابن رشد، وهنا يرى طه عبد الرحمن أن كتاب الميتافيزيقيا لأرسطو قرأه ابن سينا أربعين مرة لكي يفهمه والصعوبة لم تكن في فكر أرسطو الذي تجاوز العقول بل كان في العبارة التي تجاوزت جميع القوانين الجمالية للغة العربية فكان لا يفهم النص ولذلك اضطر ابن سينا أن يكرر وقال تصدق تصور محبة الحكمة لأي درجة أنه تصدق لما فهم الكتاب والمهم - حسب طه عبد الرحمن دائما- هو أن هناك فيلسوفا حاول أن يرفع هذه الركاكة عن العبارة الفلسفية ويعيد صياغة المترجمات بلغتين تجتنب إلى

حد ما قلق العبارة وسماها شروح وهذا هو ابن رشد فابن رشد يعني إلى حد ما شروحه ولا يترجم من النص الأصلي لأنه لم يكن يعرف اليونانية ولا السريانية وإنما كان يعيد صياغة الترجمات صياغة قد يقبلها التعبير العربي.

6/ مختلف ومؤتلف المفاهيم الشعرية

لقد أقام كل من العلمين مقارنة بين الشعري والخطابي، إذ ميز فيلسوف الإغريق بين الشاعر وعالم الطبيعة من خلال الوزن، في حين أن القرطاجني يميز بينهما انطلاقا من الإقناع والتخييل، وهنا تأتي قناعة حازم لتؤكد أن أشعار اليونان إنما كانت أغراضا محدودة يفرضون فيها وجود أشياء وصور لم تقع في الوجود، وأن التشبيه عندهم يقع في الأفعال لا في ذوات الأفعال، وهي نظرة لا تخالف نظرة الشيخ الرئيس ابن سينا في كتاب الشفا.

إن الفاعلية الشعرية كما سطر لها فن الشعر لا تتأتى دون المحاكاة التي هي غريزة في الإنسان تظهر فيه منذ الطفولة وتختلف تباعا للأنحاء التي تكون بها، وهي كذلك في المنهاج جبلة في النفس لتنبهها لأنحائها واستعمالها والالتذاذ بها منذ الصبا، وهكذا فغاية المحاكاة في المنهاج وفن الشعر واحد هو التذاذ النفوس، كما أن تقسيم حازم للمحاكاة إلى تحسين وتقبيح ومطابقة، يذكرنا بالعلاقة التي أنشأها أرسطو بين طباع الشعراء وأصناف المحاكاة فذو النفوس النبيلة يحاكون أعمال الفضلاء وذو النفوس الخسيسة يحاكون فعال الأدنياء.

وحسب سعد مصلوح فإن المحاكاة مفهوم فلسفي موروث انتقل إلى حازم فقرأه وتمثله بل وأفلت من أسر الفلاسفة عندما جعلها محاكاة أحداث وأفعال[21]، ومن ثم فالمحاكاة الحازمية أرسطية الأصل مقرونة بفهم الفلاسفة والبلاغيين العرب مطبقة بطريقة بلاغية على ديوان العرب.

أما التخييل فقد عني به أرسطو في كتاب النفس، وهو عند حازم قرين المحاكاة. وهنا نجد أيضا تشابها بين تخييل حازم وطرق التعرف عند أرسطو وإن اختلف التخييل عن التعرف في المفهوم، ويحط كلهما على غاية واحدة هو إحداث تطهير ولذة في نفس المتلقي، وكذلك كان الحال في مناسبة الأوزان للأغراض الشعرية باتفاقهما بأن شعرية الأوزان يقابلها شاعرية للشعراء وتناسب الأوزان مع الأغراض.

7/ خاتمة

حاولت الدراسة في محاورها الكبرى، تقريب مصطلح الشعرية بوصفه مصطلحا نقديا حديثا، فأقرت أن موضوع الشعرية ظل موضوعا خصبا للناقد الأدبي، فهو يمثل قضية لها خصوصية الامتداد التاريخي والحضور المعاصر، بالإضافة إلى أنها تتسم بالتداخل والتواصل مع العلوم الأدبية والفنية المختلفة، ومن ثم تصبح وظيفتها توجيه الناقد والشاعر -على حد سواء- إلى قوانين العمل الأدبي، وتوجيه الرسام والموسيقي والنحّات -وغيرهم من أهل الفن- إلى شعريات خاصة بفنهم.

كان المصطلح عند أرسطو مفهوما: يدور حول مجموعة من المحاور، أبرز هذه المحاور وأكثرها حضورا مفهوم المحاكاة، فكان الشعر عند أرسطو محاكاة، والفارق بين الذي ينظم في الطبيعة وبين الشاعر ليس الوزن فقط بل المحاكاة، فذو النفوس النبيلة يحاكون الأفاضل من الناس، وذو النفوس الدنيئة يحاكون الأراذل من الناس، كما جعل المحاكاة غريزة فينا بفضلها يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات، فالمحاكاة والحكاية من عمل المؤلف، والتعرف والتحول والتطهير منوط بالمتلقي، والحكاية فهي تجسيد لهذه المحاكاة بالأحداث والحبكة، في حين أن التعرف والتحول هو مسار هذه الحكاية ما بين الشخصيات والأحداث المتغيرة فيها، على أن التطهير هو همزة وصل بين التأليف والتأثير، بين مدى إحكام الصنعة في العمل ومدى تطهيره للمتلقي.

بينما يمثل المفهوم عند القرطاجني صياغة وفق الثقافة العربية، فالشعرية ليست نظم أي لفظ كيف اتفق دون أي قانون أو رسم، إنما للشعرية عند القرطاجني مبادئ وأطر تصنع فرادة القصيدة

أما قضية التأثر من عدمها، فهي قضية غير يقينية ومحط خلاف بين الدارسين أنفسهم، وأن الحقيقة هنا هي حقيقة فكرية معرفية، وهذا النوع من الحقيقة يراها عبد الرزاق عيد " تسير دائما على طريق إنكار ذاتها بسيرورة ذاتية لا تكتمل ولا تنتهي بلا نهائية الكون ولا نهائية المعرفة ولا نهائية القيمة"[22]. وأن اليقين في كل هذا اعتماد حازم على الرؤى الفلسفية والنقدية لمن سبقه.

الهوامش

1. تعمق البحث في الشعرية خلال العقود الاخيرة ، نتيجة التحول في نظرية الأدب ووظيفته إذلم يعد موضوع علم الأدب الأدب نفسه ، بل أصبح " الإجابة عن السؤال: ما الذي يجعل من رسالة لفظية أثرا فنيا" ينظر رومان جاكبسون ، قضايا الشعرية ترجمة محمد الولي مبارك حنون ، دار توبقال المغرب ،1988م ، ص:24.
2. رابح بوحوش ، الأسلوبيات وتحليل الخطاب ، منشورات جامعة باجي مختار ، (د ،ت.د ،ط) ، عنابة الجزائر. ص: 57.
3. حسن ناظم ، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم ، المركز الثقافي العربي ، بيروت الدار البيضاء ، ط 1 ، 1994م. ص: 12.
4. أبو الحسن حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن خوجة ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت-لبنان ، ط 2 ، 1981.ص: 28.
5. مولاي على بوخاتم ، مصطلحات النقد العربي السيميائي الإشكالية والأصول والامتداد ، إتحاد الكتاب العرب 2005 دمشق. ص: 64.
6. .عدنان بن ذريل: النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق.2000م. ص: 26.
7. عبد العزيز إبراهيم ، شعرية الحداثة ، منشورات إتحاد الكتاب العرب ، دمشق ،2005م. ص:06.
8. طه عبد الرحمن فقه الفلسفة القول الفلسفي كتاب المفهوم والتأثيل ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء بيروت ، ط 1 ، 1999م. ص:11
9. يمكن أن نشير هنا إلى بعض من هؤلاء الباحثين مثل ما كتبه محمد محمد أبو موسى في تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني سنة 2006م ، وما كتب أحمد الجوة في بحوث في الشعريات سنة 2004م ، أو ما كتبه محمد العمري سنة 1999م في البلاغة العربية ، أصولها وامتداداتها ، أو مقاله "ثلاث لحظات في تاريخ الشعرية ، أرسطو وحازم وجاكبسون" المنشور في مجلة علامات ، العدد 13-2000.
10. أحمد الجوة ، بحوث في الشعريات مفاهيم واتجاهات ، مطبعة التسفير الفني ، صفاقص تونس ، 2004م. ص:50.
11. أرسطوطاليس ، فن الشعر ، ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي ، دار الثقافة ، بيروت ، (د.ت) ص:06.
12. نفسه. ص:64.
13. نفسه. ص:13.
14. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء.ص:122.
15. نفسه.ص:89.
16. نفسه.ص:116.
17. جابر عصفور ، مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط 5 ، 1995م.ص:191.
18. أحمد الجوة ، بحوث في الشعريات.ص:189.
19. ج.ب. براون و ج. يول ، تحليل الخطاب ، ترجمة وتعليق محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي ، جامعة الملك سعود المملكة العربية السعودية 1998.ص:42.
20. حازم القرطاجني ، منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص:70.
21. سعد مصلوح ، حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل ، ط 1 ، عالم الكتاب ، القاهرة ، 1980م. ص: 85 ، 93.
22. عبد الرزاق عيد سدنة هياكل الوهم نقد العقل الفقهي البوطي أنموذجا ، دار الطليعة بيروت ، ط 1 ، 2003. ص: 88

النزعة الفردية وتجلياتها في الأدب عند نبهاني كريبع

اليزيد بوعروري*

الملخص

يكشف هذا المقال عن أهم خاصية في الفرد ألا وهي القدرة على التقرير بنفسه ، انطلاقا من ضوابط صادرة عن تفكيره النقدي ، والذي يترجم عنه في استراتيجيات ، ويعبر عن شخصيته العميقة برغبات وانفعالات فريدة تستدرجه إلى إرادة العيش وفقها ، ولحسابه الخاص مستقلا قدر الإمكان عن الإرادات الخارجية التي تنزع إلى استلابه. هذا النزوع إلى الاستقلال هو التعبير الأكثر كمالا لطبيعته الإنسانية. وهذا الفرد هو إنسان جديد لأنه مهندس حياته الخاصة ، فهو مالكها الوحيد.

الكلمات المفاتيح: الفرد ، المجتمع ، العزلة ، الإبداع ، الأدب.

Résumé

Cet article traite de la caractéristique la plus importante chez un individu, à savoir sa capacité de décider par lui-même et cela à partir des normes émises par sa pensée critique. Cette capacité se traduit par des stratégies et l'individu exprime sa personnalité profonde à travers des désirs et des émotions uniques qui déterminent son mode de vie propre indépendamment, dans la mesure du possible, des facteurs extérieurs qui ont tendance à s'emparer de lui. Cette tendance à l'autonomie est l'expression la plus parfaite de sa nature humaine ; cet individu est un être nouveau parce qu'il est l'architecte de sa propre vie et est donc son seul propriétaire.

Mots clés : individu, société, isolement, création, littérature.

Summary

This article reveals the most important characteristic of an individual: namely his ability to decide by himself thanks to standards issued by his critical thinking. This ability results in strategies, and the individual expresses his deep personality through certain desires and unique emotions leading him to live his life as independent as possible, from external factors that tend to take hold of him. This tendency to autonomy is the most comprehensive expression of the human nature; this individual is a new human being because he is the architect of his own life and is therefore the only owner of it.

Keywords: individual, society, isolation, creation, literature.

*أستاذ مساعد "أ" جامعة محمد لمين دباغين-سطيف 2

مقدمة

يعدّ سؤال الفرد من الأسئلة المهمة في عصرنا ، على أساس ارتباطه بشروط العيش المشترك الذي يقوم أساسا على تحقيق الانسجام الاجتماعي ، مما يقودنا إلى تفكيك وإعادة خلق الاجتماعي ، أو بالأحرى التفكير جدّيا في علاقة الفرد بالمجتمع ، لأن مسلمة النزعة الفردية ، هي أن الإنسانية لا تتألف من مجموعات اجتماعية ، ولكن من الأفراد ككائنات يتعذر تبسيطها ، فهي وحدها التي تفكّر وتفعل حقيقة ، وكل فرد مختلف وفريد من نوعه ، مكتف ذاتيا ، يستمد هويته من خواصه الداخلية التي تجعل منه كائنا مستقلا ، وهذه الاستقلالية يستمدها من القدرة على الحياة والعمل.

ولا تعني النزعة الفردية طغيان الفرد والشعور بأنه مركز العالم ، والسقوط في وهم الاستقلال التام عن الآخرين ، وعدم قبول أية سلطة أخلاقية ، وأنه فوق القوانين ، وأن تهديد العقوبة وحده هو الذي يمنعه من التصرف حسب إرادته ، كما لا تعني النزعة الفردية ، الأنانية لأن هذه الأخيرة حبّ انفعالي مبالغ فيه للذات لا تحمل صاحبها إلاّ إلى العودة إلى ذاته وتفضيلها على الكلّ ، وإنما النزعة الفردية عاطفة رزينة يتمتع بها كل فرد ينعزل عن الجماعة.

وتتعدّد الفرديات بتعدّد المجالات التي تأخذ فيها طريقها وتبرز فيه ، فهناك الفن ، والعلم ، والسياسة ، والحياة العملية...وواضح أن هؤلاء الأفراد لم يولدوا لكل المهام ، فهناك إذن اختيار ، وبؤرة الاتفاق هو الخير الذي ينطلق من داخل الفرديات ، والكفّ عن الشرّ الذي يصدر منها. على الرغم من أن الفرديات التي ظهرت في التاريخ ليست كلها خيّرة ، فبعض المصلحين الأخلاقيين بذلوا جهدا في التخفيف من قسوة البشر ، وبعض رجال العلم حاولوا تفسير ظواهر الطبيعة بطريقة ملائمة حرّرت البشرية من الجهل ، وبعض الفنانين زينوا العالم بروائع ملأت القلوب سكينة في أشدّ لحظات البشرية يأسا ، لكن هناك فرديات أخرى سارت في الاتجاه المعاكس ، فلم تجد البشرية خيرا من ظهور فردية ك "جنكيز خان" مثلا ، ورغم ذلك ففي كل تلك الفرديات الطيبة والشريرة كانت صفات لا نريدها أن تختفي من العالم ، كالمبادرة الذاتية وسعة الخيال ، والفرد الذي يمتلك مثل هذه الصفات هو مؤهل لفعل الخير الكثير أو الشرّ الكبير ، ولكي لا تتيه المجتمعات البشرية في غياهب التخلف ، فمن الضروري أن تجد مثل تلك الفرديات غير العادية مجالا لنفع البشرية.

ومادام الفرد هو الأساس ، فلماذا يظل المجتمع يفرض عليه القيود ؟ ولماذا ظلت سلطة المجتمع تتسع ما دام الفرد هو محرّك هذا المجتمع ؟ وهو الذي يقوده عن طريق إبداعاته في كل المجالات ؟

وقد حاول نبهاني كريبع تتبع مسيرة علاقة الفرد بمجتمعه من خلال الأعمال الأدبية ، فما طبيعة علاقة الفرد بالمجتمع ، وكيف عكسها الأدب ؟

1- تحديد المفهوم

الفرد l'individu عند الفلاسفة هو كل موضوع فكري معيّن ، مقيّد ، تؤلّف أجزاؤه كلاً ، ولكن لا تدعى باسم الكل ، ويختلف معنى الفرد باختلاف مجالات الدراسة ، ففي المنطق يقال على شخص واحد لا ينقسم ، وفي علم الحياة هو كل كائن حي تتعاون أجزاؤه على حفظ بقائه ، وفي علم النفس الفرد مرادف للشخص الطبيعي من جهة ما هو متميز عن الآخرين بهويته ووحدته ، وفي علم الاجتماع هو وحدة يتألف منها المجتمع.[1]

والفردي l'individuel هو المنسوب إلى الفرد أي كل ما يتميز به الفرد من الصفات المقوّمة له. والفردية l'individualité بالمعنى العام هي ما يتميز به فرد عن آخر من الصفات ، وبالمعنى الخاص ، الفردية مرادفة للشخصية personnalité إلاّ أن المحدثين يفرّقون بينهما: فالفردية تطلق على مجموع صفات الكائن الواعي كما هي في الواقع ، والشخصية هي مجموع الصفات كما يجب أن تكون بالنسبة إلى مثل أعلى مُتصور ، فكل شخص بهذا المعنى فرد ، وليس كل فرد شخصا. وقد تطلق الفردية على ما يتصف به الكائن العاقل من الأصالة أو البعد عن التقليد أو النزوع إلى التحرّر.[2]

والفردانية أو المذهب الفردي l'individualisme هو مذهب من يعتقد بأن الفرد منبع كل حقيقة وجودية ، وهذا المذهب يفسّر الظواهر الفنية والاجتماعية والتاريخية بفاعلية الفرد ، كما يعتقد أصحابه بأن مهمة المجتمع هي رعاية مصالح الفرد.[3]

يمكن القول من خلال هذه التعريفات أن هناك تقابلا بين الفردانية والجماعية ، فالتفسير الفردي للظواهر يقوم على أساس أن الفرد هو نقطة البداية والنهاية ، ونبهاني

كريبع -إذا شئنا تصنيف-ينتمي إلى المذهب الفردي لأنه يؤمن بالفرد ولا شيء غير الفرد. والفرد المقصود هنا هو فرد النخبة ، وليس الفرد العادي. هو الفرد القائد ، الفرد الفنان ، هو النبي ، هو العالم مبدع النظريات العلمية ، هو الفيلسوف الأصيل.

1- الفرد وصراعه مع المجتمع

إذا كان الفن عموما والأدب خصوصا ثورة على ما هو سائد ، فالسيادة هنا غالبا ما تكون اجتماعية ، لذلك يذهب نبهاني إلى أن (الفرد يقوم بردّ فعل ضدّ مجتمعه وضوابطه)[4]ردّ فعل ضدّ الظلم الذي يمارس ضدّه ، وهذا الظلم قد يعوق نمو الفضائل فيه ، ويفرض عليه بأن يكون شريرا على غير إرادته في حين أنه خيّر بطبعه ، وما كانت الثورة على المجتمع إلاّ رغبة في خلق مجتمع مثالي ينشده ، يقوم أساسا على الحبّ وهو قاعدة المجتمعات الصالحة الخالية من الحسد والبغض ، مجتمع ينظر إلى المذنب بعين العطف والإخاء يقول فكتور هيجو: (إن شريعة مقدّسة في هذا العالم تتجلى من طبيعة الأشياء والناس ، علينا أن نعمل بها ، وكل امرئ يستطيع أن يرقى إليها. و هي ألاّ تبغض أحدا ، فإما أن تحبّ الإنسان وإما أن ترثي له.)[5] كما أن القارئ لرواية هيجو "البؤساء" يلمس سعي جان فال جان –ثم مادلين عندما غيّر اسمه- لفعل الخير ومحاولاته نشر الحبّ بينه وبين الناس ، وما لقيه إسداء المعروف للناس البؤساء من صدى طيب في قلوبهم ، جان فال جان الفرد الذي استطاع أن ينتشل مدينة "مونتوفوروميل" من براثن الفقر والتخلف عندما بنا فيها مصنعا لصنع الأزرار الزجاجية ، فشغّل فيه مئات العاملات – منها والدة كوزيت- ومساهمته في بناء مستشفى ومدارس... مادلين –محافظ المدينة- الذي يعفو عن ضحايا ضربات القانون الجائر التي لا ترحم أحدا في ذلك الوقت ، هي رسالة ضدّ شرائع المجتمع الظالمة والقاسية.

فالأفراد إذن مدعوون إلى مغادرة مناخهم الاجتماعي كي يحققوا طموحاتهم في مجال تسوده الحرية[6] ، وهذه الدعوة ليست دعوة إلى الفوضى ، ولا عودة إلى حياة الغابات والكهوف ، لأنهم يعلمون استحالة عودة التاريخ إلى الوراء ، ولكنها دعوة إلى خلق فطري ، يبتغون من ورائه السعادة لأبناء الوطن وللجنس البشري كافة. هؤلاء الأفراد لا يستمدون هذا الخلق من مدونة المجتمع ، ولكنه مستخلص من عواطفهم الإنسانية المغلفة بالفضائل ، وإن شئنا القول عواطف إلهية ، يجابهون بها جحيم التقاليد البالية ، يقول هيجو في مقدمة "البؤساء":(نتيجة لقيام القوانين والعادات توجد نوع من اللعنة الاجتماعية التي تصطنع أنواعا من الجحيم فتعوق بمقدور الناس المقدور الإلهي لمصير الفرد.)[7]

ويحمّل الكثير من الأدباء المجتمع المسؤولية عن ضحاياه من الأفراد ، فلا لوم على هؤلاء في بؤسهم إذا أتوا في المجتمع شرا ، لأن ما فعلوه كان حتمية اجتماعية ولا خيار لهم فيه ، يقول ألفيد دي فيني[8] على لسان شخصية من شخصياته الأدبية وكان قد استمع من محدّثه إلى مآس اجتماعية: (أحسّ في نفسي بشفقة تفوق الوصف على هؤلاء المساكين العظماء الذين حدّثتني أنك رأيتهم يحتضرون ، ولا شيء يوقف حنوي على هؤلاء الموتى الأعزاء. وأرى ويا للأسى! نظائر لهم من البائسين ، هم أنواع مختلفة في تحمل مصائرهم المريرة. فمنهم من يحيلون حزنهم إلى دعابات ومرح عظيم ، وهؤلاء فيما أرى أعمق حزنا ، وآخرون يرتدّ اليأس إلى قلوبهم فيصبحون شرّيرين؟ أصارحك بالحقيقة: إن الفرد قلما يخطئ ولكن النظام الاجتماعي هو المخطئ دائما.)[9]

ويعترف نبهاني كريبع صراحة بأن هناك مجتمعات إقصائية وجبرية تعمل على إذلال الفرد ، وهذا دليل واضح على ركودها وإفلاسها ، وأن الكثير من النزاعات الإقليمية والدولية ناتجة عن استبداد هذه المجتمعات التي حوّلت تصوراتها إلى عقائد صلبة.[10]

ويضيف على لسان شخصية "رشيد" أن البؤس والجهل وضعانا في درجة الحيوانات ، وبقينا بعقلية قروسطوية ، فانحطاطنا منوط بمجتمعنا الذي بقي ساكنا ، حيث الفرد بقي مخنوقا فيه ، والمرأة مسجونة ، نريد أن ننظر إلى المستقبل وأعيننا مثبتة على الماضي ، وهو سبب جمودنا ، ففي هذه الحالة لا يمكننا القول بأن الأوروبي هو الذي ثبّتنا في وضعية متكلسة ، حيث الفوضى في بيوتنا ، أين كبّلنا أولادنا ، وحبسنا نساءنا ، ولكنها العقبات الاجتماعية.[11]

ويستطرد نبهاني على لسان شخصية الفيلسوف "صافي": (أنا لا أؤمن بالاجتماعات ، والحلقات ، ولكن بالفعل الفردي. الحركات التاريخية كانت نتيجة مبادرات فردية بحتة. وفي الجزائر لا المعمرين ولا الانفصاليين ، يمثلون الوجه الحقيقي للوضع ، ولكن الأفراد فقط هم الموجودون سواء من هذا الطرف أو ذاك.)[12]

كما يحيلنا نبهاني إلى شخصية عمر الخيام (1040-1125م) الفردية البارزة في زمانها ، وهو الذي عانى من التقليد

الاجتماعي المتكلس، وروح القطيع، ورغم إمكاناته العلمية والفنية، فإن الوسط الاجتماعي كان أقوى، فلم يستطع التحرر منه.[13]

والمعنى هو أن المسؤولية لا تقع على مثل هذه الفرديات، لأنها عملت كل ما بوسعها من أجل تطوير إمكاناتها، وعلى تغيير ما يمكن تغييره، نحو الأحسن، إلاّ أن ثقل التقاليد الاجتماعية حال دون ذلك، فالمسؤولية تقع على المجموع الذي لم يأخذ بيد فردياته المبدعة لترسم طريق النجاح والتطور.

2- **الفرد والعزلة**

نتيجة الصراع المستمر بين الفرد ونظم مجتمعه كثيرا ما يؤدي الأول إلى اختيار العزلة عن الجماعة والانطواء على الذات.[14] وهذا ما قصده ألفريد دي فيني حينما ذهب إلى أن الفرد العبقري يعيش وحيدا لأن الآخرين لا يفهمونه، إنه يقودهم إلى النور وهم لا يحبونه، وهذا هو مضمون قصيدة "موسى" ويتساءل: هل يجد العبقري العزاء والسلوى في الحبّ؟ هل يجد في حنان المرأة عوضا عن اضطهاد المجتمع له؟ والجواب يكون بالنفي، فالحبّ لا يمكن الاعتماد عليه، وحتى الطبيعة التي كانت الأم الحنون للرومانسيين، هي بالنسبة لفيني القبر حيث يدفن الإنسان، لذلك لا ينصح إلاّ بحبّ الإنسان، كما ينصحنا بتحمّل الشدائد بصبر وثبات، وعزاء فيني هو في إيمانه بتقدم الإنسانية.[15]

وفي نفس القطعة الشعرية "موسى" يعبر عن انفراد العبقري عن الخلق، وشعوره بالوحدة بينهم، إذ يصف مناجاة موسى لله عز وجلّ وهو شيخ طاعن في السنّ، خلّص شعبه من الظلم وحصل له السلطان الذي يتمناه كل واحد، ولكنه بقي يشعر بالوحدة في حياته وسط أصحابه الخاضعين له، حتى شعر بتفاهة الحياة، وأدرك أن الرسالة كانت تكليفا ثقيلا حرمته لذة العيش فيقول لربه: (ألم يأن لي أن أنتهي؟ أين تريد لي أن أنقل خطاي؟ أأظل في الحياة قويّ السلطان ولكني وحيد؟ دعني أستروح النوم في جوف الثرى!)[16] فالشاعر في هذه القصيدة يعبر عن سبب حزن الفرد "موسى" وشقائه وأنه ظلم من المجتمع لأنه عبقري، فقد وضع كل مواهبه الخارقة لتوفير السعادة لبني الإنسان، ولكنه لم يظفر في كل ذلك لا بحب و لا بسعادة، فالفرد "موسى" يمثّل شعور الفرد الثائر على حظه، الوحيد في مجتمعه على الرغم من تضحيته في سبيل المجتمع، يقول ألفريد دي فيني في إحدى رسائله التي كتبها عام 1838: (ليس موسى الذي ذكرته هو موسى اليهود، فإن هذا الاسم العظيم ليس إلاّ قناعا للإنسان في كل العصور، بل إنه أقرب إلى الرجل الحديث منه إلى القديم، وهو رجل العبقرية: مجهود من ترمله الدائم، يائس من رؤيته لعزلته ينفسح مداها ويجدب كلما ارتقى في مجده، وهو في عنائه بسبب عظمته يطلب الموت.)[17]

ويصف بيرون[18] في قصته "دون جوان" نفسه كفرد هرب من المجتمع ليحتمي بالغابة: (حقا إنه كان يهرب من الناس حتى لو كانوا من أمته حينما كانوا يقيمون تحت أشجاره الحبيبة، فينزح بضع مئات من الأميال، ليقيم حيث يوجد قليل من المساكن وكثير من الراحة. وآية المدنية أنك فيها لا تستطيع أن ترضى أو ترضي، ولكنه عندما كان يرى إنسانا فردا كان يبدي من الأريحية ما يستطيع إنسان أن يبدي.)[19]

والفرد كما تصوره الأدبيات الرومانتيكية لشدّة شعوره بالعزلة من الناس، ينطوي على نفسه، متأملا فيها، ولا يريد أن يتحمّل كاهل الروابط الاجتماعية والعمل المنظم، ويلتزم بالواجبات، ويفضّلأن تكون حياته لا تعرف الانضباط، لنستمع إلى شاتوبريان[20] يصف نفسه على لسان بطله "رينيه":(كان رينيه يحيا مستغرقا في ذات نفسه، كأنه في خارج ما يحيط به من عالم، لا يكاد يرى ما يحدث حوله، سجين في وسط آلامه وأحلامه، وهذا الضرب من العزلة النفسية كان يزيد في شراسة طبعه ووحشيته كلما تقدّم به الزمن، فكان ينفر من كل نير، ويضيق بكل واجب، ويثقل عليه ما يبذله غيره من أنواع العناية، حتى إن ما يحبه يسبب له الجهد، لا يريد إلاّ أن يضرب في الأرض. لم يبح بما صار إليه، ولا أين كان يذهب. إنه لا يدري ذلك هو نفسه: أكان فريسة الندم أم العاطفة؟ أكان على فضائل أم رذائل؟ هذا ما لا يعرفه أحد. يمكن أن يعتقد المرء فيه كل شيء إلاّ حقيقة ذاته.)[21]

إن شعار البرج العاجي الذي يرفعه الفرد، لا يجب أن يفهم –عند نبهاني- بأنه عدول عن المهمة الاجتماعية للفرد، ولكن على العكس فالفرد إذا انعزل فلكي يفكّر مليا ويستجمع قواه من جديد لتكون مساهمته كاملة، فكما أن السمكة مكانها في الماء، والعصفور في السماء، كذلك الفرد الإنساني يعيش فكريا في الاجتماعي، فالحقيقة الإنسانية لم توجد قبل وجود الفرد كإنسان، هذه الحقيقة انعكاس للعوالم الذهنية الفردية من مخطّطها الخيالي، الفرديات اللامعة تخلّف

بصماتها أكثر من الفرديات الأخرى على هذا المخطط ، فيخلق عالما منسجما تتبناه المجتمعات وحتى الإنسانية ، ألا يمكننا أن نتحدّث عن عالم شكسبير ، أو عالم هيجو أو راسين ؟[22]

ما نستخلصه من حياة الفرد كما وصفه الأدباء هو أنه في الأساس مخلوق لأن يؤدي خدمة للمجتمع وللإنسانية ، ولكن بشرط ألاّ يكون معهم مندرجا في قطيعهم ، وإنما منعزلا ووحيدا ، فهو على حدّ تعبير بيرون: (أقل الخلق استعدادا ليكون من عصابة الناس ، وهو بينهم ولكنه لا يحسب في عداد قطيعهم.) ولا تعني عزلته عن الناس أنه عدّو لهم ، لأن دوره يكمن في العطف على مظلوميهم والانتصار لهم ، ولكن الفرد العبقري لا يناسبه الاختلاط مع سواد الناس ، يقول بيرون: (الهرب من الناس لا يعني ضرورة أن المرء يبغضهم ، إذ ليس كل امرئ مهيأ لمشاركتهم في حركاتهم وأعمالهم.)[23]وهذا ما قصده كذلك ابن باجة بقوله: (ولذلك يكون المتوحد واجبا عليه في بعض السير أن يعتزل الناس جملة ما أمكنه ، فلا يلابسهم إلاّ في الأمور الضرورية ، أو بقدر الضرورة...)[24]

3- الفرد السير ذاتي

السيرة الذاتية L'Autobiographie ، أصل الكلمة إغريقي وهي مركبة منautoبمعنى الأنا ، bioبمعنى الحياة ، وgrapheinبمعنى الكتابة. وفي الاصطلاح السيرة الذاتية هي نوع أدبي ، فيه يسرد الكاتب حياته الخاصة.[25]

لم يخصّص نبهاني كتابا خاصا يسرد فيه حياته الخاصة ، لكن القارئ يمكن أن يعثر على نصوص متفرقة في كتبه ، يحدثنا فيها عن حياته كفرد ، وعن تجاربه ، يقول في كتابه "الإنساني الشامل": (عندما كنت على وشك إنهاء دراستي الجامعية ، أبي الفلاح والتاجر الأمي –رغم أنه غني بإنسانيته-جاء لينتزعني مما يسميه الحضارة المفسدة ، ويعيدني إلى دواليب إدارة عقيمة ويحشرني في نشاطه التقليدي الأبوي التجاري ، وجعلني أتبنى نمطا من الحياة يحافظ على التماس مع عالمنا الإسلامي الوحيد المقبول في نظره. استسلمت إلى الإغراء الذي عرضه عليّ...)[26]

وهو يشير في هذا النص إلى طلب أبيه العودة من فرنسا ، خوفا عليه من فقدان هويته في خضم المجتمع الفرنسي ، والعودة إلى مسقط رأسه ليشتغل بتجارة التمور ، وأنه امتثل لإرادة أبيه ، والنص يشير كما يلاحظ القارئ إلى السلطة الاجتماعية التي تمارس على الفرد ، وتحدّ من حريته ، وتعطّل تفتح قدراته.

وفي كتابه "الإنسان في الإسلام" نصوص تسرد حياة المؤلف ، منها على سبيل المثال قوله: (واحد من أقربائي طلب مني يوما المقصود تحديدا بالخطاب القرآني الذي جاء للإنسانية...أجبته بأن القرآن جاء ليقوّم نفاق الناس...وأفهمته أنه بخلاف الخطابات الدينية الأخرى ، الإسلام جاء ليشرّع للمجتمع ، ويبني المدينة الأرضية ، بحيث تشارك في ذلك كل الشعوب.)[27]

وهذا النص يدخل في إطار آرائه بخصوص الإسلام ، الذي أراده دينا محرّرا لمعتنقيه ، ورسالة عالمية يمكن أن تعيش تحت ظلاله الإنسانية بأمن وسلام بعيدا عن الإيديولوجيات المتكلسة.

وفي الكتاب نفسه يقول ثانية: (بمراكش وأنا في مطعم ، في صحبة مغربي ، فرنسي وإنجليزي. نتناول شايا بعد وجبة طعام ، الحديث بيننا انصب على مزايا كل نموذج للإنسان القومي. الإنجليزي مجّد النموذج البريطاني ، المليء بالاعتدال والظريف. الفرنسي رفع التحدّي وأظهر نموذجه الناعم ، النبيل والمتسامح. المغربي سكت ولم يقل شيئا ، سحبت نفسا ، ثم انفجرت قائلا: إن العربي-الإسلامي لا يتطلع إلى أية صفة عند الآخرين لأنه يتميز بالمروءة ، ببشاشته واجتماعيته.)[28]

لا شك أن هذه النصوص ليست سيرة ذاتية بحتة بالشكل الأدبي المتعارف ، ولكنها أخبار الأنا النبهانية ، أخبار تخدم السياق الذي من أجله ألّفت هذه الكتب التي اقتبست منها هذه النصوص.

وفي كتابه "أفارقة يتساءلون" نجد ملمحا سير ذاتيا يصف فيه شخصية رشيد ، يقول: (رشيد كانت له عادة الاستيقاظ باكرا والذهاب إلى الحديقة للمطالعة ، لذلك تضايق الأب إسماعيل من سلوكه ، واتخذ موقفا بأن لا يتحدث معه ، وجعل يفكّر في أمر ابنه الذي ربما يكون قد فقد صوابه.)[29]

وعلى ذكر الأفارقة يمكن لنا أن نوسّع دائرة الحديث عن الفرد في الأدب الإفريقي ، فالفرد ليس حقيقة غريبة عن الثقافة الإفريقية ، فلقد قام "ديدريش وسترمان" سنة 1938 بنشر كتاب "سير ذاتية إفريقية" وهي إحدى عشرة سيرة ذاتية لكتاب من مختلف البلدان الإفريقية تمثل درجات ثقافية مختلفة. وهذا يكشف من خلال السيرة عن إبداع بورتريهات

لأفراد. والسيرة الذاتية نوع أدبي مستمد من الأدب الشفوي، المزدهر في الزمن القديم، ذاك التراث الذي يمكن أن تخلق منه مكتبة حية.[30]

صحيح أن مشكلة الفرد في المضمون الثقافي الإفريقي تبدو معقدة للغاية، خلافا لما عرفته في العالم الغربي، فمفهوم الفرد في إفريقيا لم يتعين إلاّ خلال زمن قصير، إذ هناك اختلاف أساسي في ظروف انبثاق هذا المفهوم في أوروبا، وشروط ظهوره في المجتمعات غير الغربية، في الحالة الأولى، الفردانية توضع إلى جانب الحريةوالترقيوالمبادرة والإبداع أما في الحالة الثانية، فتوضع إلى جانب الاغترابوفقدان المعالم وتمزّق لا ينتهي.

في كتابه "مقالات في الفردانية" يقسّم لوي ديمون المجتمعات إلى قسمين كبيرين: مجتمعات حيث الأفراد هم الأساس، تسمى مجتمعات فردانية، ومجتمعات حيث الفرد يمّحي وراء المثل الأعلى الجماعي، وتدعى مجتمعات كليانية. واستنادا إلى هذا التقسيم يكون المجتمع الإفريقي التقليدي مجتمعا كليانيا، وبالنتيجة فتعبير الفردانية غريب نوعا ما بالنسبة إليه. وإذا كانت الفردانية يجب أن تظهر داخل مجتمع بنمط تقليدي، كلياني، فسيكون في تعارض مع المجتمع، وكشيء زائد عنه، ويكون فردا بصيغة "فرد خارج العالم".

ولكن ابتداء من ثلاثينيات القرن العشرين، عرف الأدب الإفريقي تطورا هاما اتسم بالفردانية، والنتاج الأدبي الإفريقي الأول تابع لامتياز الجماعية على الفرد الذي يحاول التعبير عن أفكاره ومشاعره، ورغم ذلك من اللافت أن تستوقفنا الاستراتيجيات النصية المستعملة من طرف بعض الكتاب لتكوين بورتريهات مفردنة، لكن في إطار متطلبات الرؤية الجماعية لمجتمع ما.[31]

إن تقنيات الكتابة المستعملة من قِبَل الكتاب والكاتبات الأوائل تشكّل أمثلة ممتازة لوجهة النظر هذه. الكل يتحدث بصيغة المفرد، ولكن "أنا" المخاطب تبدو موازية لـ "نحن" مجموع الأفراد الذين يحيون في الشروط نفسها.

وفي المنظور نفسه يمكن الحديث عن روايتين: الأولى بعنوان "حياة واحد من الأهالي" لفردناند أيونو الصادرة في باريس عام 1956، والثانية بعنوان "المصير الغريب لوانغرين" لأمادو أمباتيبا الصادرة عام 1973، هاتان الروايتان تستعملان نفس الإستراتيجية في إخفاء ضمير "أنا" وراء "النحن" حتى وإن كانتا تؤسسان لشخصيات فردية، أو مستقلة لها سيرة ذاتية، واسم خاص، فإن الراويين ينكران أبوة القصة المروية، والوقائع تكتسب شكلا ما خارجيا إزاء الراوي، وتحدث نوعا من العقد السردي يكون فيه كل حكم صادرا من القارئ فيما يخصّ صدق القصة معلقا. والقصة المروية بهذا تصبح نموذجا وتربط الفرد بالجماعة التي ينتمي إليها.[32]

والمجتمع الجزائري إبان الخمسينيات من القرن العشرين لا يختلف كثيرا عن بعض المجتمعات الإفريقية، إذ تتوارد إلى ذهن قارئ مؤلف نبهاني "أفارقة يتساءلون" —الذي صدر في الخمسينيات— ملامح السرد التي تحدثنا عنها، إذ نرى نبهاني يختفي وراء شخصيات "فلاسفة بستان النخل الأربعة" ونقاشهم الحادّ الذي مسّ قضايا حساسة تعتبر تابوهات في ذلك الوقت، واللوم الذي تلقاه —أو بالأحرى تلقته شخصية رشيد- من الأب إسماعيل لأنه شارك في هذا الحوار، كما نراه يتقمص شخصية رشيد، ثم علاقته دائمة التوتر مع الأب، والقضايا التي يفتح فيها النقاش أو يختتم لا تخرج عن حيّز المجتمع الذي عاشت فيه هذه الشخصيات.[33]

وعلى العموم يمكن القول —مع بعض الاستثناءات- إن معظم القيم المتبناة من العقلية التقليدية ظلت مرجعية سائدة عند بعض المثقفين، فحيثما يكون التراث مقدسا، فإن الفرد لا يساوي شيئا أمام الجماعة، ولعل هذا يعود إلى الظرف التاريخي للمجتمعات الإفريقية، حيث القيم تمثّل شبكة قاعدية لاحتجاجات الهوية الوطنية، ففي مثل هذه الظروف — ظروف الاحتلال الفرنسي للجزائر وبعض الدول الإفريقية- يمر مشروع تشكيل هوية وطنية في نظر بعض المثقفين والزعماء فوق كل هوية فردية، وهو ما قصده فرانس فانون عندما قال بأن التجربة الفردية عندما تتلون بالوطنية تكف عن أن تكون فردية، ولكن رغم ذلك يمكن أن تنفتح على الإنسانية كما يدعو إليه نبهاني.

لكن الوضعية تغيرت إبان الحركات التحررية في إفريقيا، وتغيرت وجهات نظر المبدعين، أضف إلى ذلك، تأثر الأدب الإفريقي بالرومانسية، وعلى إثر كل ذلك انبثق نموذج جديد للإنسان الإفريقي.

4- الفرد والمنفى

يشكو نبهاني موقعه الثقافي ، ومن ثم النفسي ، من جهة تواجده بين عالمين: عالم إسلامي يشكّل ثقافته الأم وقيمها ، وعالم آخر يداول فيه مفاهيم الثقافة الفرنسية ، وهذا ما خلق شرخا طرح إشكالية الهوية عنده ، ولإلقاء الضوء على ذلك نأخذ كمثال رواية إفريقية هي رواية "الزهيرو ليس أيا كان" لـ وليام ساسين الصادرة عام 1985 ، ومن خلالها نكون أمام ملمح مستجدّ للفرد. شخصية تضيّع كل صلابة ، تكتسب خصائص مظهرية عرضية ، يحاول أن يشكّل شخصية مصطنعة. اللسان الخالي من المعنى واللباس غير اللائق ، هما الخاصيتان اللتان تبناهما الفرد كي يخلق هوية جديدة ، فرد هذه الرواية يشبه ظاهرة اصطناعية ، وتقليدا ضخما للأنا نفسه: (إنه المدعو الأسود الوحيد لحفلة اللباس مستعار من أصدقائه ، والذين يضايقونه ، فيحدثون قرقعة ، إنها وضعية مضحكة لا تمنعه من إلقاء خطابات فلسفية أمام المدعوين ، في إطار هدف واحد هو أن يظهر لهم بأنه "ليس بأي كان".)[34] هذا التصوير يبين عدم توافق الفرد بطريقة ما مع عصره ، وهي نزعة سائدة للروايات المكتوبة سنوات التسعينيات منذ دخول الفرد الإفريقي مرحلة جديدة ، تدين بنسبة كبيرة إلى تغيّر الوضعية الثقافية للكتاب الأفارقة الشباب.

لكن نبهاني لا تنطبق عليه هذه الصورة المضحكة التي عرضتها الرواية لذلك الفرد ، لأن نبهاني استطاع أن يصهر هوية جديدة بعذاب نفسي أقل ، بمعنى أن ثقافته الفرنسية وعمله ودراسته هناك لم يعذبانه إلى درجة كبيرة ، بل استطاع بخياله أن يسمو إلى مفهوم جديد من الفرد هو الإنساني الذي يلتقي عنده كل أفراد العالم ، الخالي من عذاب التمزق الهوياتي ، وأكثر من ذلك حاول أن ينظر إلى الإسلام من خلال هذه المفاهيم العالمية.

إن كتاب المنفى - قسريا كان أم اختياريا- المتواجدين في فرنسا هم في حالة مفاوضة هوية جديدة ، وعناصر أخرى للانتماء ، فالمنفى لا يشير ببساطة إلى تغيير جغرافي ، ولكن إلى أسئلة دقيقة للهوية كذلك ، وإلى ذاكرة الانتماء التي أنتجها هذا المنفى. والفرد المقيم في موضع آخر ، لفترات على الأقل طويلة ، وفي بعض الأحيان نهائيا ، يتخلى رمزيا عن البعد المكاني والجماعي لهويته. إنه يتواجد جمعا ، دون انتماء ثابت ، وجاهز لكل إمكانية جديدة للانتماء. وفي هذه الظروف ، يحاول الفرد أن يجد نقطة جديدة للارتباط ليؤكد مكانته كفرد. وفي ميدان السرد ، يحاولالفرد أن يعيد تعريف نفسه. وأمثلة هذا البعد الجديد للفردانية متعدّدة في الأدب الإفريقي المعاصر ، وفي أغلب الروايات تبدو الشخصيات أفرادا يريدون أن يبرزوا خارج كل تحديد داخلي ، ولكنهم يبحثون ، على النقيض ، عن تعريف هويتهم.[35]

في العام 2001 ظهرت روايتانتشكلان مثالين للتغيير الذي أصاب ملمح الفرد الإفريقي وهما "صناعة المراسيم" لـ كوسيإفوي ، و"مكان الحفلات" لـ سامي تشاك ، روايتان بنتا عوالم لا مركزية ، وغربية بالنسبة للفرد. الحوار الدائم مع الأب ، متخيل في عالم من الزمن ، ولكنه حاضر في "مكان الحفلات" وهو يؤسّس لبحث رمزي للهوية ورحلة البحث عن فضاء للانتماء. الجينيالوجيا[36] مرفوضة من الشخصية التي خلقها سامي تشاك ، وحقيقة أحكام القيمة التي يطلقها الأب مرفوضة ، يقول القاص على لسان شخصيته: (أحاول أن أضع في جمجمته قليلا من الفهم ، وهذا ليس سهلا ، نظرا إلى أن أبي بعد فحص بجهاز سكانير ، تبين بأن له دماغا بحجم نملة...) ففي الرواية يريد القاص أن يجتذب انتباه القارئ إلى التكوين التدريجي لفردية كاملة العضوية ، مختلطة ، تتموضع بين فضاءين مختلفين ثقافيا ، ولكنها تحتجّ على حقّ الوجود: (أنا لا أتحدث إليك بسبب المشكل ، إنه بالأحرى لكي أحدّثك عن نفسي (أنا) وأريد أن أعرف نفسي كذلك. أستسمحك إنه مدّع مغرور ، ولكن الجميع يودّ أن يعرفه ، إنه أمر عادي.)[37]

إذا كانت الشخصية التي لا اسم لها ، والتي خلقها سامي تشاك تحاول أن توجد طرقا أصيلة كي تحدّد هويتها الفردية داخل فضاء ولادته ، فالشخصية الأخرى في رواية "صناعة المراسيم" هي حالة "إدغار فال "الذي غادر بلده الأم رغما عنه ، وبمبادرة من مدير مجلة "Périple Magazine" هذه الشخصية متواجدة في حالة ضرورة تحديد وضعيتها بين فضاءين ، وصنفين من السرد الهوياتي. الرحلة تتحول إلى بحث عن هوية شخصية. "إدغار فال "ينكشف في الرواية كفرد دون ضوابط ، فرد تافه ، يعيش حياة جمعية ، ولكن إضافة إلى الرحلة في بلده الأم ، بدأ يعاني إحباطا نفسيا بارزا تدريجيا ، فالهوية الداخلية الإفريقية ، متبرئ منها ، ولكن لا هوية أخرى تم تشكيلها ، تاريخ الوطن والمعيش تم طردهما من ذاته ، وفضّل حياة يومية دون هدف ودون أمل.[38]

ومن خلال الروايتين يمكن القول بأن الفرد يبدو غريبا ، وحيدا ومنعزلا عن الآخرين. التواصل يبدو شبحيا ، تواصل حيث الآخر لا يجيب. إنه حالة من حوارات كاذبة مع

الأب في رواية سامي تشاك ، وحوارات "إدغار فال"مع "إربان مانغو" في رواية كوسي إفوي. والشخصيات التي تعرضها الروايتان تعرض إذن كأفراد منخرطين في علاقات زائفة مع الآخرين ، شخصيتا الروايتين ترفضان كل تحديد وكل انتساب هوياتي ضمني وخارجي. والبحث عن الهوية تجسّد في الروايتين كمشروع تطوري في حركة البحث عن المعنى الإجمالي للوجود الذي بقي بعيد المنال في العالمين اللذين خلقهما القاصان.[39]

وعلى عكس الضياع الهوياتي الذي عاشته الشخصيات السالفة الذكر ، نجد الشخصيات التي خلقها نبهاني كريبع في "فلاسفة بستان النخل الأربعة" أكثر إدراكا ووعيا بهويتها ، ونلمس حرارة كبيرة في الدفاع عن آرائها ، سواء تلك المتمسّكة بهويتها الإسلامية ، أم تلك التي تسعى إلى اكتساب هوية فرنسية غربية,

فالفيلسوف "بالي" يعتقد كما يعتقد توماس هوبز بأن جانب الشرّ أكبر من جانب الخير في الإنسان ، وبالتالي فالإنسان ذئب للإنسان ، فعلى صعيد الهوية ينبغي للمسلمين أن يبقوا مسلمين ، لأن الخضوع للغير والرضا بذلك يخرج المسلم من دينه ، وعلى الصعيد الوطني ، على الجزائريين أن يسلكوا طريق التحرير والاستقلال. والفيلسوف الثاني هو "صافي" يؤمن بالحاضر فقط ، ويثق بعقل الإنسان مطلقا ، وعلى صعيد الهوية يؤمن بتماثل غربي-إسلامي ، وهذا يمهد - حسب تعبيره-لزواج شرقيغربي ، والناس على اختلافهم مدعوون للتعاون والاتحاد في أمة روحية عالمية ، وعلى المستوى الوطني يدعو إلى تعاون جزائري فرنسي كخطوة أولى للانصهار النهائي بينهما. أما "باشا" فيعتقد في مقولة كارل ماركس "الدين أفيون الشعوب" وأن ربط العقل بالدين يمنع سيره العادي ، ويعرقل التوجّه لدراسة الواقع ، والمسلمون اليوم يعيشون في وهم زمن العزّة والقوة ، لكن الحقيقة أنهم متخلّفون وسيبقون كذلك ، أما على المستوى الوطني فذهب إلى أن ما تقوم به فرنسا في الجزائر هو خير للجزائريين لأنهم غير قادرين على حكم أنفسهم. وبالنسبة إلى الفيلسوف "ساسي" وهو مادي ملحد ، يعتقد فإن الحقيقة لا وجود لها إلاّ في خيالنا ، بمعنى أن ما نخاله حقيقة في العقل ، هو مجرد سراب. انصب تفكير الرجل على الجانب الوطني ، إذ انتقد الفرنسيين في توجهاتهم سواء في فرنسا ، أو في الجزائر ، وهو يؤمن بإمكانية تطور الجزائريين ، لو تلقوا تعليما جيدا وحرّروا المرأة ، وتعاونوا مع الأمم المتطورة.[40]

إذن لعلّ القارئ لمس الفرق بين شخصيات الروايات التي تم التطرق إليها ، والشخصيات التي خلقها نبهاني ، فالثانية أكثر نضجا ووعيا بحالتها ، والدليل على ذلك أنها استقرت على آراء تدافع عنها بالبراهين ، ولا يلمس القارئ بأنها تعاني من أية عقدة نقص تجاه لون بشرتها كما هي شخصيات الأدب الزنجي[41]ولا ضياعا فوضويا غير محدّد المعالم لهوياتها.

5- العفو عن الابن المطرود

كثيرا ما يقسو المجتمع على الفرد بدعوى أنه يثير القلاقل ، ويهدّد توازنه ، فيحاصر الفرد المسكين إلى أن يستسلم للعزلة ، ويعيش المنفى بكل مرارته ، لكن هناك حقيقتان واضحتان لا يمكن إنكارهما: الأولى تتمثل في أن المبدعين دوما يقفون ضدّ تيار زمانهم الذي يغشاهم بكل ما هو مبتذل كعقبة تقف في طريقهم إلى الإبداع وكطريق للترقي ، ولا يمكن التعويل عليهم إلاّ إذا اكتسبت مساهمتهم حق الوجود ، وليس من السهولة التنازل عن سلطتهم الإبداعية أمام مجتمعهم. والحقيقة الثانية هي أن هذا المجتمع بالذات يعاني من التكلّس ، لذلك فهو بحاجة إلى تجديد وتهوية ، وذلك لا يتأتى إلاّ بمصالحة الفرد ، لأن الترقي الإنساني المنشود ليس معطى خارجيا ، بل يرجع إلى الإنسان ، إنه نتاج حريته ، وهو مراد ومحقق عن طريق الفرد.[42]

بمعنى أن إزالة التكلّس عن دواليب المجتمع يبدأ من التحول السيكولوجي الداخلي للفرد ، إذ التحول الجذري للبنية الاجتماعية ، مشهد مستحب رؤيته لدى كل الشعوب ، لكن الأهم هو الثورة الداخلية ، وبالتالي فمن أجل بناء مجتمع جديد يمتصّ صدمات التفكّك ، ويكون حيا على الدوام ، ينبغي أن تحدث ثورة في البنية النفسية للفرد ، ذلك أنه من دون ثورة نفسية داخلية ، فإن مجرّد تحويل البنية الخارجية لا أهمية له. (لماذا ينهار المجتمع ويتفتّت ، كما يحصل الآن ؟ إن أحد الأسباب الجوهرية هو أن الفرد ، أنت ، قد توقف عن أن يكون خلاّقا.)[43]

إن المجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر احتاج إلى "نابليون" كي يعلّمه بأن المستحيل غير موجود في الحياة ، وقد لاقت صفات هذا الرجل صدى قويا لدى الأدباء ، كفكتور هيجو صاحب الخيال الجامح والعبقرية الوقادة ، والراجح أن

هيجو واجه في حياته واقعا مرّا خاليا من العدالة والمشاعر الإنسانية ، واستطاع أن يبني عالما جماليا كان لعظمة الفرد فيه مكانة مرموقة ، وفعل العظمة هذا إضافة إلى أنه انعكاس للأحداث التاريخية في جزء منه ، هو إدراك إبداعي خاص لقدرة الفرد على صناعة التاريخ أو التأثير القوي في أحداثه ، وسيد الموقف هنا هو الفنان ، لا رجل الحرب ولا قوانين المجتمع ، إنما العمل الفني يغيّر طبيعة الأشياء ، وطبائع الشخصيات التاريخية ، وتكتسب كينونة خاصة.[44]

والشخصية الفنية البارزة في القرن التاسع عشر هي الموسيقار "بيتهوفن" كان فنانا يفعل ما بداخله (كان فقيرا ، جاهلا ، فظا ، سلوكه سيئ ، ويعرف القليل ، ولا يظهر مثيرا جدا ، باستثناء إلهامه الذي يدفعه إلى الأمام ، لكنه لم يتنازل ، إنه يجلس في عليته ويؤلّف ، إنه يبدع وفق ما يمليه النور الذي بداخله ، وهذا كل ما على الإنسان فعله ، هذا ما يجعل الإنسان بطلا ، حتى لو لم يكن عبقريا كبتهوفن.)[45]

إن الفردية إذن هي أثمن طابع للعمل الفني ، ففوق الهيكل المصري أو اليوناني ، وفوق كاتدرائية القرون الوسطى ، نضع الروائع المتنوعة والشخصية لكبار فناني عصر النهضة أو الفن الحديث والمعاصر ، يقول إميل زولا في هذا المعنى: (إن مثالنا الأعلى هو حبنا ، وانفعالاتنا ، ودموعنا ، وابتساماتنا...نحن نخلق أسلوبا وفنا بدمائنا ونفوسنا...فإذا كنت تسألني عما جئت أصنع في هذا العالم ، أنا الفنان ، فإني أجيب: جئت لأعيش في الأعالي.) إن الفنان بما فيه الكاتب ، يجب أن يبقى مستقلا عن المجتمع ويعمل عمله الفردي بحرارة ذاتية ، وهذا الإظهار الحرّ للأفكار الفردية هو بالنسبة لـ"زولا" الشرط الأول للخلق الأدبي ، إن ما ينادي به زولا هو: تفوق الفرد على المجتمع بعلو المقام.[46]

إن الفنان المبدع هو ذاك الذي يفكّر أبعد من الآخرين ، يريد أن يرفع عن أعين مجتمعه الغشاوة التي تجعله يرى الحقيقة بأعين الآخرين ، المبدع يعرف بأن ما يراه الآخرون لا وجود له ، لذلك يريد أن يعتمد وجهة نظره هو ، لأنها الوحيدة المشروعة ، ولكي يفرض نفسه ، فهو يستخدم شكلا من الفكر شخصيا ، ومظاهر من أسلوب يحمل طابعه الخاص.[47]

ولكن لماذا يهتم الفرد الفنان بالشخصيات الفردية إلى هذا الحدّ ؟

الجواب على ذلك هو أن الفنان يصحّح الحياة من خلال الحياة ، يصحح حالاتها الناقصة ، من خلال حالاتها الأكثر كمالا ، إنه يعتقد بأن الفكرة المجردة للأشكال أكثر كمالا من كل أصل ، ذلك هو الجمال المثالي المشهور ، والفكرة التي تشخّص ذلك هي أن أفرادا بعينهم أكثر بروزا من غيرهم ، فالإسكندر الأكبر هو شخصية أكثر عظمة من متسول أعمى يجلس على قارعة الطريق ، فالحياة تتجه نحو الكمال ، والفنان يعرف الكمال من خلال حدس باطني يخبره ما هو الطبيعي ، وما هو غير الطبيعي ، وما هو المثالي وما الذي يعدّ انحرافا عن المثال. وقد احتجّ بعض النقاد على هوميروس عندما سمح لأبطاله بأن يحتكّوا مع مربّي الخنازير ، لأن ذلك يسيء إلى هؤلاء الأبطال ، وإن مهمة الفنان ليست ببساطة إعادة إنتاج ما هو واقعي موجود.[48]

هذه إذن الصورة الفنية التي ينبغي أن نقدّم بها الفرد ، الذي يقلقل المجتمع الجامد ، ويفتح ممرا للرقي له ، فلا خيار لأي مجتمع إلاّ بأن يعفو عن أفراده المتمردين ، وأن يعيد احتضانهم من جديد ، ومن دون ذلك ستسقط المجتمعات في الغفلة ، والويل للمجتمعات وللإنسانية إذا بقي الأفراد عبيدا ، استولت عليهم العائلة ، وتقلّص أفقهم الذهني ، وتبنوا عواطف الجماعة التي ليست عواطفهم بحق ، فإذا استولى عليهم المجتمع حينئذ يفشلون في مهمتهم التي هي الاتساع والانتشار على مقاس الإنسانية في تنوعها.

6- نتائج إقصاء النظرة الجمالية إلى الفرد

إن نبهاني كريبع انطلق في بناء مفهوم الإنساني الشامل من ضرورة إعادة ترتيب الحقائق الإنسانية ، حيث يحتل الفن المرتبة الأولى ، ثم تليه الميادين الأخرى على التوالي: الفلسفةوالعلوم والأديان ، فلماذا احتل الفن المرتبة الأولى ؟

الجواب على ذلك يكمن في أن الثورة العلمية الحديثة القائمة على العقل ومع أنها أحلت العقل محل العادة والتقليد ، فإنها لم تستطع أن تحرّر الفرد ، بل توجست منه ، وفضّلت عليه القوانين غير الشخصية للعلم التي تطبق على الحياة الإنسانية ، وعلى الفكر في الآن نفسه ، فالفكر الحديث يريد أن يكون علميا ، إنه فكر مادي وطبيعي ، ويذيب خصوصية الظواهر في قوانين عامة. وفي المجتمعيعد معيار الخير هو المنفعة الاجتماعية ، لذلك تضمنت المناهج التربوية إجبار المتعلمين القيام بواجبات وأداء أدوار بهدف خلق

مجتمع عاقل ومعتدل ، على الطفل أن يكون منضبطا ، مُحفزا بمكافآت أو مقموعا بعقوبات ، من أجل السيطرة على نفسه وكي لا يهدّد توازن المجتمع. هذا التعلم هو تعلم الواجب ، والانضباط ، وهذه الكلمة تطلق في وقت واحد على نوع من الإلزام ، وأداة للعقاب ومجال للمعرفة ، وهذا المفهوم كما يرى القارئ يصعب اعتباره مفهوما يمت بصلة إلى ما هو فردي وإنساني ، فالتعليم يُدخل وسائط بين طلبات الفرد وبين إشباعها المقبول ، كما يُدخل آليات للتسامي تفلت من سيطرة الفرد وتتحول إلى العمومية قدر الإمكان ، فأين هي الفردية في هذا التصور العلمي المادي للكون ؟

لقد كان شارلز ديكنز Charles Dickens(1812-1870) الروائي الإنجليزي شاهدا على عصره ، فصوّر لنا قبضة المجتمع على الفرد ، هذا الملمح يجد جذوره قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وتقف وراءه عدة عوامل: تاريخية وسياسية واجتماعية ، فالثورة الصناعية فرضت رؤية جديدة على المجتمع ، أولها التقسيم الطبقي الجديد: العمال والبورجوازيين الذين أصبحوا أرباب عمل ، وعلى إثر هذا الانقلاب تغير مفهوم الفرد ، وأصبح مأخوذا في دوامة الجماعة ، وغدا جزءا من آلية اجتماعية ضخمة.

ويبدو أن رواية ديكنز "الأزمنة الصعبة hard times" الصادرة في لندن عام 1920 تعكس هذه الظاهرة ، فالظروف التي تتواجد فيها شخصيات الرواية في الغالب خيالية ، فالغموض يلف العائلات التي تتشكل ثانية بطريقة شاذة ، تُدخل القارئ في عالم خيالي ، وفي الوقت نفسه لها علاقة بالواقع ، وفي هذه الرواية يُهاجم ديكنز النفعية بصراحة ممثلة في السيد غرادغريندMr grandgringوتربيته لأولاده ، ففي الرواية يربي السيد أولاده عن طريق الوقائع ، إضافة إلى الرياضيات وبعض المعارف التي يعتقد بأنها نافعة ، ولا مجال يترك للخيال ومتعة الفرد ، يقول ديكنز على لسان هذه الشخصية: (وإذن ، ما أريده ، هو الوقائع ، علّم الوقائع لهؤلاء الأولاد ولهؤلاء البنات ، لا شيء إلاّ الوقائع. الوقائع هي الشيء الوحيد الذي نحتاجه. لا تغرس فيهم إلاّ الوقائع واقتلع الباقي. بالوقائع فقط يمكننا أن نشكل عقل كائن يفكّر: والباقي لا يفيد بشيء. ومن خلال هذا المبدأ أدرّس أولادي...كونوا على علاقة مع الوقائع ، ساداتي!).

إذن هذه هي ذهنية المجتمع الصناعي ، والفرد لا مكان له ، لأن مكانه استحوذ عليه النفع الأساسي الذي هو المال. فالأنا الفردية مقيدة في قالب من تربية جماعية تجحد الفردانية والآمال الشخصية. وهذا الجحود هو الذي يتحكم في مصير "لويزة وتوم" أبناء السيد ، لويزة تزوجت الشيخ "بوندرباي" لأنها لا ترى في ذلك ضررا ، إنه محكوم عليها بأن تعيش دون حبّ ، ثقافتها مجموعة من المعارف النظرية والمُفرغة من العواطف ، ومن جهته يستفيدتوم من كرم أخته كي يُشبع رغبته في اللعب. الشخصيتان تعيشان في عالم حيث الخيال ولذة الإبداع لا وجود لهما ، وحين يُغادران السجن العائلي يكونان في مواجهة واقعية الوجود. وهذا النمط من الحياة الآلية والنفعية لدى ديكنز لا يُؤدي إلاّ إلى حياة عقيمة.

إن الفرد لا يصبح ذاتا ، مُنتزعا نفسه من الماهية ، إلاّ إذا عارض منطق السيطرة الاجتماعية باسم منطق الحرية ، والإنتاج الحرّ للذات ، إنه رفض لصورة اصطناعية من الحياة الاجتماعية كآلة أو كنظام. لهذا يقوم التعارض بين أخلاق الواجب التي أفرزتها العقلانية العلمية ، والأخلاق التقليدية المتمحورة حول الفرد ، والتي كانت تودّ أن تحرّره من انفعالاته ، أليست أخلاق الواجب الحديثة قواعد ينبغي تطبيقها من أجل مصلحة المجتمع الذي لن يصل إلى الرفاهية إلاّ إذا ضحّى الأفراد من أجله ؟

إن نتيجة إعادة ترتيب الحقائق الإنسانية الذي دعا إليه نبهاني كان يريد به تحذيرنا من أن الفكر العقلاني معادٍ للفرد بشكل صريح ، أما تفتّح الفرديات فإن ميدانها الخصب يكمن في النظر إلى العالم نظرة جمالية ، حينها ينحجب الفكر العقلاني الذي يدعو البشر إلى الخضوع لمبدأ ما ، وللحقيقة التي تعلو بهم فوق اندفاعية العواطف.

ولم تكن رواية ديكنز هي الوحيدة التي فضحت شراسة العقلانية العلمية المعادية للفرد في القرن التاسع عشر وفي إنجلترا وحدها ، وإنما كان القرن التاسع عشر في فرنسا هو قرن الفرد بامتياز ، ضد النمو الاقتصادي والاجتماعي الذي أطبق عليه ، عبادة الأنا في مختلف الأنواع الأدبية ، سواء الموجودة أو التي تم تحويلها أو التي تم استحداثها ، كالسيرة الذاتية ، واليوميات ، والكراساتالشخصية...يعبر فيها الكتاب عن عواطف عائلة واسعة من الناس ، يقول هيجو في ذلك :(أخرق أنت الذي تعتقد بأنني لست أنت.) ويقول بودلير: (منافق ، أيها القارئ ، شبيهي وأخي.)

إن الفرد عند نبهاني لا يظهر لا في العلوم ولا في الفلسفة. هو لم يحدّد نماذج أو صفات خاصة دقيقة يجب أن تتوفر فيه ، وإنما حدّد الأطر العامة التي تسمح بتفتق مواهبه ، وذلك ينبغي إذن أن نستقيه من الأعمال الأدبية على اختلاف أجناسها ، ففيها يتجلى الفرد المبدع ، يتحدث عن نفسه ، عن آماله ، عن مشاريعه ، عن نظرته للكون والحياة ،وعن موقفه من المجتمع.

إن السيرة الذاتية يمكن تفسير نشأتها عند بعض النقاد بالضغط الاجتماعي الذي مُورس على الفرد ، هذا النوع الأدبي الذي بدأ مع مونتني ، ثم تلتها اعترافات روسو ، ثم منشورات سير ذاتية أخرى كسيرة ستندال ، وبنجامين كونستان ، وثيوفيلغوتيه...إن السيرة الذاتية هي لحظة نموذجية لكتابة الذات ، وفي كتب نبهاني مساحات سير ذاتية كشفت لنا عن نظرته إلى الحياة ،وموقفه الجمالي ، الإسلام...وكتابة الذات تحت أي نوع أدبي كان ليس تمجيدا للذات نفسها ، وهذا لم يحدث سواء في ظاهر السطور أو ما تحتها ، لدى نبهاني ، إذ المفهوم العامي للحديث عن الذات ، يعني التباهي بها ، لأن الناس لا إراديا يميلون إلى التباهي بأنفسهم ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة لنبهاني ، والحديث عن الذات ليس مجالا للتواضع المتصنع ، فقد خصص القليل من الصفحات للحديث عن نفسه ، إنه يتجلى في نثر أكثر تواضعا ، يعرض دون رمز ، ودون هالة.

أن تكون ، فردا هو أن تكون أصيلا ، وأن تكون أصيلا هو أن تؤكد على ما أنت عليه ، تجاه العالم أو ضدّه. وأن تكون كذلك عليك أن تتمالك نفسك من الداخل ، وتجد الوسائل والحيل التي تعطي معنى لما كان معطى جماعيا. والسيرة الذاتية هي الميدان الذي "ينكتب" فيه الأفراد المبدعون و"ينعرضون" بهذا الشكل ، إنها بمثابة إطار لفحص الذات في حقل متنام ، وهذا يسمح بخلق فرد لا يعيش فقط مستقلا ، ولكن يمتلك فضلا عن ذلك حميمية متميزة.

إن سؤال الفرد لا يزال مطروحا حتى اللحظة ، في القرن الواحد والعشرين ، وسيبقى مطروحا ، وهذا ما تظهره الكثير من الكتب والمقالات الصادرة حديثا[49] ، وليس هو سؤال القرن التاسع عشر وحده. وكلها تؤكّد الجدلية القائمة بين الفرد والمجتمع ، فهذا الأخير ينزع إلى تكييف الفرد مع حياة الجماعة ، من خلال الأسرة والمدرسة ، وباقي المؤسسات الأخرى لأجل التطابق مع القوانين الاجتماعية السائدة ، وكل مجتمع يعيد إنتاج هذا النمط من أجل كبح جماح الفرد ، ولضمان السير الحسن له ، من خلال جعل هؤلاء الأفراد يتصرفون بدقة ، والتأثير الذي يمارس عليهم لا بد أن يكون منذ الطفولة ، أي أن الإجبار لابدّ أن يكون تدريجيا وفي غفلة من الفرد. أما الفرد الذي يريد الخروج من الإرغام الاجتماعي وتقرير مصيره الذاتي ، فهو إنسان جديد ، خالق حياته الخاصة ، يبرهن في كل خطوة بأنه يسيطر على ذاته بليونته النفسية ، بإمكاناته العملية ، بقدرته على تحمل مسؤولية إخفاقاته. هذا الفرد يمتلك نوعا من البوصلة الداخلية لإدارة مظهره الجسماني ، وممارسة حياته المهنية ، العاطفية وإخفاقاته كمالك لحياته الخاصة.

ومهما كان نبهاني معارضا لسلطة المجتمع ، ممثلة في سلطة الأب أولا ، ونقصد بذلك تواريه خلف شخصية رشيد الذي كان في صراع دائم مع الأب إسماعيل ، فإن تصوره لا يتخطى إيجاد الظروف المناسبة التي تسمح بنمو حرّ للمواهب ، وليس عودة عن سلطة العائلة والسير في اتجاه استقالة الآباء من وظيفة القيام برعاية الأبناء ، كما ذهبت "جسيكا بنجامين" في مقالها المعنون "عودة على سلطة العائلة أو عالم بدون آباء" الذي تتساءل فيه عما إذا كانت المجتمعات الغربية متجهة إلى الاستغناء تماما عن سلطة العائلة ، بما فيها سلطة الأب ، نظرا لضعف دوره في الإشراف على تربية الأبناء ، والنص التالي يعطينا صورة واضحة عن هوية الطفل عندما تضعف سلطة الأب في العائلة: (قطعة من الهوية تم جمعها من المدرسة ، زائد جزء التُقط ضمن جماعة من الرفاق ، يُضاف إليه بقايا تلقفها خلال العطل من تنظيمات أي كانت ، ونصيب من الأب ، وآخر من الأم...والكل مخلوط في طبقة من الحميمية الأسرية موزعة بعدم تساوي طوال السنة.) أبدا لم يكن هذا تصوره لتربية الفرد ونشأته.

إن الإنساني في نظر نبهاني تقضي عليه النظرة العلمية للكون والحياة ، لأنها تحلّله وتلبس عليه ثوبا ماديا ، والنزعة العلموية scientisme في الفترة المعاصرة برهنت على فشلها ، في تفسير كل الظواهر ، ووصلنا معها إلى قناعة بأن العلم لن يستطيع أن يكون الديانة الجديدة ، وبالتالي لابدّ أن نتوخى الحذر ، ففي الجانب الآخر هناك النفس التي ينبع منها الإنساني والذي ندركه بالحدس[50] ، هذا الجانب كان يمكن أن يتخذ الصدارة في تصنيف الحقائق ، أو أولويات البشرية ، لأن

الفن يساعد الأجيال التالية على معاناة المشاعر الإنسانية التي عانى منها الناس من قبلهم، ومثلما يتم تطور المعارف وارتقاؤها بحلول المعارف الأكثر صدقا ونفعا محل المعارف الباطلة والمضرة بعد إزاحتها، يكون تطور الأحاسيس بواسطة الفنّ، إذ تُزاح الأحاسيس الوضيعة، والأقل خيرا ونفعا لصالح الناس، وتحل محلها الأحاسيس الأكثر خيرا ونفعا لهذا الصالح، وهنا تكمن غاية الفنّ ومهمته، وبهذا يكون الفن أفضل بقدر ما يحقق هذه المهمة، ويكون أسوأ بقدر ابتعاده عنها.

إن الفن أداة من أدوات تقدم البشرية، فمن خلال الكلمة الصادرة من النفس وحرارتها، يعاشر الإنسان الآخرين روحيا بأحاسيسه، وليس أناس الحاضر فقط، ولكن أناس الماضي والمستقبل، ومثلما يتأثر الناس سلبيا بالنظرة المادية إلى الكون، يتأثرون كذلك بالفن المزيّف، الذي لا يقدّم شيئا، لأنه يشوّه في الناس القدرة على التأثر بنتاجات الفن الحقيقية، وبذلك يجردهم من إمكانية معرفة المشاعر السامية، التي بلغتها البشرية، والتي يمكن للفنّ وحده أن ينقلها إلى الناس. ونتيجة الحرمان من قدرة التأثر بالنتاجات الفنية، يعيش الناس –خاصة في الطبقات الغنية-ويتربون بعيدا عن تأثير الفن، هذا التأثير الذي يسهّل الحياة، ويجعلها أكثر خصوبة، ولذلك فهم لا يتحركون نحو الكمال، ولا يصبحون خيّرين، بل على العكس من ذلك، ففي ظل التطور السريع للوسائل الخارجية يصبحون أكثر وحشية وفظاظة وقسوة.

هذه هي عواقب غياب نشاط وسيلة الفن الضرورية في أي مجتمع، وعواقب انحراف نشاط هذه الوسيلة أكثر ضررا.

ولعل القارئ عرف بشيئا بخصوص الفرد وكيف تم سحقه من طرف النظرة المادية للكون والحياة، وكيف حاول الأدب أن يبرزه ويعيده إلى الواجهة.[51]

7- في نقد النزعة الفردية

وفي مقابل النظرة الفردية إلى الآثار الفنية عموما، هناك النظرة السوسيولوجية التي أهملها نبهاني، هذه النظرة التي يمكن أن نجد فيها تفسيرا للكثير من الظواهر الفنية لأنها تبدو أكثر شساعة من الأولى، ففكرة الفرد العبقري تطورت من قبل شريحة واسعة من مفكري القرن التاسع عشر المعروفين باسم الرومانسيين، الذين سعوا للاحتجاج ضدّ ما وجدوه من تفاقم في الطبيعة الكئيبة والمبتذلة للحياة في المجتمع البورجوازي الصناعي القائم على الربح، وليس على الأخلاق أو القيم، وقد أسس الرومانسيون الصورة الجديدة للفنان العبقري كبطل يصارع ضدّ ذلك المجتمع المتجه إلى أن يصبح أقل إنسانية.

وإذا كانت الفردية مصدرها ظروف تاريخية غربية، فإننا لا يمكن أن نبقى مدينين بالفضل لأفكار الرومانسيين وخلفائهم، لأن الزمن تجاوزها، ولا يمكن تعميم "فرد فنان" على كل المجتمعات، لأن فكرة الفرد المنعزل هي فكرة غربية تعود إلى بواكير العصر الحديث، فقبيل هذا العصر في الغرب وفي كل المجتمعات الأخرى وفي كل العصور، لم يكن هناك تصنيف مماثل، وذلك لأن مثل هذا العمل الإبداعي كان ينجز عادة ضمن فريق وليس من قبل أفراد، لذا فإن فردية الفكرة الغربية الحديثة عن الفنان تعني أن المصطلح لا يمكن تطبيقه مباشرة على المجتمعات الأخرى.

صحيح أن هناك فنونا فردية لكنها تحتمل التعاون الجماعي، إلاّ أن هناك فنونا نعدها جماعية في صميمها، لأنها بدون عون المجتمع تكون مستحيلة، فالمعمار مثلا هو فنّ تعاوني إلى أقصى حدّ، لأن أبعاده وتنوعه وضخامته تتعارض مع أي تنفيذ فردي، والحال كذلك بالنسبة إلى الفن المسرحي، فالمسرح في كل زمان ومكان لم يكن سوى ساحة كبرى يلتقي فيها المؤلف بالممثلين وتتعالى فيها صيحات المخرج حين يصدر أوامره إلى الممثلين، ويصبح فيها الممثل نفسه مجرد متفرج يشهد تتابع المواقف المسرحية على نحو يروقه أو يسوؤه أو يفاجئه بما لم يخطر له على بال.

وفضلا عن ذلك، هناك فنون يمكن اعتبارها اجتماعية من حيث الموضوع، بمعنى أنها لا تدور حول الفرد، وإنما تدور حول المجتمع، وربما كان في وسعنا أن ندخل في عداد تلك الفنون فن التاريخ، حينما يتخذ صبغة أدبية، فيعمد إلى وصف أحداث المجتمع البشري وسردها بطريقة فنية مشوقة، وهكذا الحال بالنسبة إلى لرواية حينما تصور لنا مجتمعا من الشخصيات العديدة التي تتلاقى وتتصارع في بيئة اجتماعية تتحكم فيها عقلية جماعية مشتركة.[52]

وبالجملة فإن النظرة السوسيولوجية التي تجاهلها نبهاني، تؤكد بأنه لا فنان يشكل عمله بمفرده كلية، فالأفراد المبدعون يعتمدون بشكل مباشر أو غير مباشر على سلسلة من الأفراد الآخرين. ولذلك يجب الابتعاد عن أسطورة المبدع الفريد والمتفرد.

خاتمة

نستنتج مما سبق بأن العلاقة بين الفرد والمجتمع مسألة بالغة الأهمية ، لأن الوضعية السليمة لهذه العلاقة هي التي تحدّد السير الحسن لمجتمع ما ، ولحضارة من الحضارات. وما دام الأمر كذلك فقد تناولت العلوم الإنسانية بتعدد فروعها هذه المسألة ، لكن التناول الفلسفي ذا البعد الجمالي له أهميته كذلك ، وقد خلصنا من ذلك إلى النتائج التالية:

– الأدب يصوّر حالة الضغط الاجتماعي الممارس ضدّ الفرد ، بطريقة فنية ، وإنسانية ، بمعنى أنه لا يجرّد الفرد عن ظروفه في قوانين عامة خالية من كل حرارة الحياة اليومية ، ثم يعرضها بطريقة يمكن أن تمسّ أي فرد في العالم ، فكل قارئ يمكن أن يتعاطف مع تلك الشخصيات الفردية ، مهما تكن عقيدته ، ظروفه أو جنسيته.

– الفرد الحقيقي في نظر نبهاني هو الذي يعمل على تمزيق خيوط العقبات والأطر الاجتماعية المفروضة ، تلك التي تثبط عزيمته وتعمل على إذلاله وتعرقل إبداعه. ليس رغبة في إشاعة الفوضى ، وليس سلوكه لاشعوريا شاذا ، وإنما عودة إلى خلق فطري ، هو إحداث الجديد لإخراج المجتمع من حالة الثبات إلى حالة التغير نحو الأحسن.

– التاريخ يثبت بأن الأفراد هم الذين يبنون المجتمعات وليس العكس ، والأفراد هم الذين يأخذون بيد مجتمعاتهم عن طريق مبادراتهم في الخلق والإبداع ، ولنا في الأنبياء والعلماء والفنانين خير مثال على ذلك.

– يبدو الفرد من خلال الأدب وحيدا منعزلا عن عصابة المجتمع ، فالعزلة تمنحه السكينة والعودة إلى الذات ، ولا يعني ذلك أن الفرد يبغض مجتمعه ، بل العكس ، فالفرد مخلوق لأن يؤدي خدمة لهذا المجتمع والإنسانية.

– إن كتابة الذات "السيرة الذاتية" تساهم كثيرا في إبراز تصورات الفرد ومعاناته ، وآماله وتطلعاته ، وترسم الحدود بشكل حميم مع المجتمع. وبخصوص الفرد الإفريقي تبين كتابة الذات حجم السيطرة الاجتماعية المفروضة على حرية الفرد ، وصدّه عن تحقيق تطلعاته وتعطيل إبداعاته ، فلا يستفيد منها المجتمع ولا الإنسانية.

– إن الفرد يعيش المنفى ، لأنه عادة يجد نفسه أمام عالمين مختلفين أحدهما عن الآخر ، يقتضي أن يختار عالما واحدا ويطلّق الآخر ، لكن نبهاني استطاع بتكوينه المزدوج – الغربي والإسلامي-أن يُحدث تقاربا دون خسائر نفسية كبيرة ، بين العالم الغربي حيث الفرد حرّ في أن يبدع ، والعالم الإسلاميالذي تكلست مجتمعاته ، ولا مكان للفرد فيه إلاّ تحت سلطة الجماعة. والمنفى قد يكون مكانا جغرافيا ، وقد يكون عالما ذهنيا يلجأ إليه الأفراد ، ونبهاني نفسه بدا فردا معتزا بهويته لم ينسف المنفى انتماءه ، وكذلك بدت شخصياته التي خلقها.

– إن نبهاني مؤمن بأن الفرد هو الذي يقود المجتمع إلى ما فيه الخير ، فلا مناص لهذا المجتمع ، إذا أراد السعادة ،إلا أن يصالح الفرد ، لأنه العقل المفكر الذي يقود الناس إلى الحقيقة ، بعد أن يطرد الغشاوة عن أعينهم.

– تحذير نبهاني من العقلية العلمية في الحكم على كل مظاهر النشاط الإنساني ، هو في محله لأن هذه العقلية معادية للفرد ، وبالتالي فهي تعمل على قتل ما هو إنساني في الإنسان ،فلا ينبغي إهمال النظرة الجمالية للإنسان ، كي يبقى الإنسان إنسانا.

– التطور الحضاري في السنوات الأخيرة يجعل من النظرة الفردية إلى المبدعين نظرة ضيقة ، فلا بدّ من اعتبار الفرد كائنا اجتماعيا ، لا يمكنه أن يحيا ويبدع خارج المجتمع ، كما أن المجتمع هو الحلقة الضرورية للوصول إلى الإنسانية ، خاصة وأن نبهاني يستهدف في فلسفته الجمالية بناء الإنساني الشامل.

–

الهوامش

1. جميل صليبا ، **المعجم الفلسفي** ، ج 2 ، د ط ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، 1982 ، ص ص138-139.
A. Mazel, **L'individualisme son principe et ses conséquences**, Paris, 1882, p. 25.
2. جميل صليبا ، **المعجم الفلسفي** ، ج 2 ، مرجع سابق ، ص ص140-141. A. Mazel, op. cit, p. 29.
3. المرجع نفسه ، ص 141.
4. NabhaniKoribaaNabhani Koribaa, **Humain universel** -philosophie esthétique, Entreprise national du livre, Alger, 1989 p. 143.
5. من ديوانه **التأملات** ، عن محمد غنيمي هلال ، **الرومانتيكية** ، د ط ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، د س ، ص 172.
6. Nabhani Koribaa, **Humain universel**, op. cit, p. 143.
7. محمد غنيمي هلال ، **الرومانتيكية** ، مرجع سابق ، ص 111.
8. Vigny Alfred De (1863-1797) كاتب فرنسي ، إنساني النزعة ، أصبح مبكرا من الشعراء الرومانتيكيين المهمين في زمانه ، أهم مؤلفاته: رواية تاريخية بعنوان "الخامس من مارس"، "أشعار قديمة وحديثة"، "سيرة ذاتية" و "يوميات شاعر". Claude Eterstein, **Lalittérature française de A à Z**, Hatier, Paris, 1998, p. 457.
9. محمد غنيمي هلال ، **الرومانتيكية** ، مرجع سابق ، ص 114.
10. Nabhani Koribaa, **Humain universel**, op. cit, p. 144.
11. Général Jean Charbonneau. Nabhani Koribaa, **Des Africains S'Interrogent,** LA COLOMBE, Paris, 1955, p. 109.
12. Ibid, p. 108.
13. Nabhani Koribaa, **Omar Khayam**-messager de l'Iran universel, PUBLISUD, Paris, 1988, p. 12.
14. Nabhani Koribaa, **Humain universel**, op. cit, p. 144.
15. آمال فريد ، **الرومانسية في الأدب الفرنسي** ، د ط ، دار المعارف ، القاهرة ، 1977 ، ص ص 38-39.
16. محمد غنيمي هلال ، **الرومانتيكية** ، مرجع سابق ، ص 55.
17. المرجع نفسه ، ص 56.
18. Byron George Gordon 6em Baron Lord (1824-1788) شاعر بريطاني من جيل الرومانتيكيين ، جسّد "مرض العصر" بحياته المتقلبة ، وتمرده على المجتمع والأخلاق ، أهم مؤلفاته: "دون جوان" **Le Robert**-illustré & Dixel, 2012, Paris, 2012, p. 267.
19. محمد غنيمي هلال ، **الرومانتيكية** ، مرجع سابق ، ص 57.
20. Chateaubriand François Vicomte De (1848-1768) كاتب فرنسي رومانسي ، بدأ حياته ضابطا في الجيش ، لكن غادره في خضم الثورة الفرنسية ليرتحل إلى أمريكا 1791 ، ثم إلى لندن 1793 ، ليعود إلى فرنسا عام 1800 ، كما ارتحل إلى الشرق ، عين قنصلا في لندن 1822 ، ثم وزيرا للخارجية (1822-1824)، أهم مؤلفاته "أتلا" و"ريني" و"عبقري المسيحية" وملحمة "الشهداء" و"مذكرات" وكتاب عن هنود أمريكا. Claude Eterstein, **Lalittérature française de A à Z**, op. cit, p. 88.
21. عن محمد غنيمي هلال ، **الرومانتيكية** ، مرجع سابق ، ص 58.
22. Nabhani Koribaa, **Humain universel**, op. cit, p. 143.
23. محمد غنيمي هلال ، **الرومانتيكية** ، مرجع سابق ، ص 54.
24. ابن باجة ، **تدبير المتوحد** ، د ط ، سراس للنشر ، تونس ، 1994 ، ص 80.
25. Claude Eterstein, **Lalittérature française de A à Z**, op. cit, p. 31.
26. Nabhani Koribaa, **Humain universel**, op. cit, p. 20.
27. Nabhani Koribaa, **L'homme en Islam**-Historicité et Ouverture, PUBLISUD, Paris, 2001, p. 31.
28. Ibid, p. 35.
29. Général Jean Charbonneau. Nabhani Koribaa, **Des Africains S'Interrogent,** op. cit, p. 34.
30. Carmen Husti-Laboye, **L'individu dans la littérature Africaine contemporaine**, thèse de doctorat, université de LIMOGES, soutenue le 14-12-2007, Directeur de thèse : professeur Michel Beniamino, p. 62-63.
31. Ibid, p. 69-70.
32. Ibid, p. 70.
33. Général Jean Charbonneau. Nabhani Koribaa, **Des Africains S'Interrogent,** op. cit, p. 26-155.
34. Carmen Husti-Laboye, **L'individu dans la littérature Africaine contemporaine,** op. cit, p. 72.
35. Ibid, p. 72-73.
36. المقصود بالجينيالوجيا في هذا المقام هو هوية الشخصية وتاريخها.
37. Ibid, p. 74.
38. Ibid, p. 74.
39. Ibid, p. 74-75.

40. Général Jean Charbonneau. Nabhani Koribaa, **Des Africains S'Interrogent,** op. cit, p. 88-109.

41. للتوسع أكثر في هذه النقطة أنظر: Frantz Fanon, **Peau noire, masques blancs**, Editions TALANTIKIT, Bejaïa, 2014, p. 39.

42. Nabhani Koribaa, **Humain universel**, op. cit, p. 131-132.

43. جودو كريشنا مورتي ، **الحرية الأولى والأخيرة** ، ترجمة أسامة إسبر ، ط 1 ، دار بدايات ، سوريا ، 2012 ، ص ص 35-36.

44. فيكتور هيجو ، **مقدة كرومويل**-بيان الرومانتيكية ، ترجمة وتقديم علي نجيب إبراهيم ، د ط ، دار الينابيع ، دمشق ، 1994 ، ص ص 36-40.

45. إيزايا برلين ، **جذور الرومانسية** ، ترجمة سعود السويدا ، ط1 ، دار جداول ، لبنان ، 2012 ، ص ص 44-45.

46. فيليب فان تيغيم ، **المذاهب الأدبية الكبرى في فرنسا** ، ترجمة فريد أنطونيوس ، سلسلة زدني علما ، ط 3 ، منشورات عويدات: بيروت-باريس ، 1983 ، ص 255.

47. Nabhani Koribaa, **Humain universel**, op. cit, p. 133.

48. إيزايا برلين ، **جذور الرومانسية** ، مرجع سابق ، ص ص 69-71.

49. - نذكر على سبيل المثال كتاب:

- Irène Jonas, **L'individu Auto-Déterminé**, anatomie du noveau caractère social, L'Harmattan, 2003.

ومن المقالات نذكر:

- Patrick Savidan, **Individu et Société** : les enjeux d'une controverse, information sociales 2008/1(n 145).
- Anne Conchon, **Entre Identité Individuelle et Détermination Sociale**, Genèses 2002/2(n 47).

50. Nabhani Koribaa, Initiation à la Philosophie, Office Des Publications Universitaire, Alger, 1995, p. 95.

51. استأنست في كتابة هذا العنصر بالمراجع التالية:

- آلان تورين ، **نقد الحداثة** ، ترجمة أنو مغيث ، د ط ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، 1997. ص ص 331-332.

- Agathe Brun, **L'Émergence de l'individualisme et le questionnement de la vérité dans la littérature victorienne, 1830-1900**, thèse de doctorat, université de Nice Sophia-Antipolis, soutenue le 28 juin 2013, directeur de thèse le professeur Michel Rémy, p. 34, 35, 36.

- Irène Jonas, **L'Individu Auto-Déterminé**-anatomie du nouveau caractère sociale, L'Harmattan, 2003, p. 14, 15, 16, 39.

- Jean-Yves Tadié, **Introduction a la vie Littéraire du XIX siècle**, BORDAS, Paris, 1984, p. l'introduction, 12, 15, 16, 20.

- Beaulieu Etienne, **L'Individu Autobiographique, revue interrogations** ?, n 17, janvier 2014, en ligne, www.revue-interrogations.org

- Jessica Benjamin, « **Retour sur l'autorité de la famille ou : un monde sans pères ?** », *Tumultes*2004/2 (n° 23), p. 191-224.

- ليف تولستوي ، **ما هو الفن ؟**، ترجمة محمد عبدو النجاري ، ط1 ، دار الحصاد ، دمشق ، 1991 ، ص 149 ، 189 ، 190 ، 191 ، 218.

52. استأنست في كتابة هذا النقد بالمراجع التالية:

- زكريا ابراهيم ، **مشكلة الفن** ، د ط ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د س ، ص 94 وما بعدها.
- شارل لالو ، **مبادئ علم الجمال** ، ترجمة مصطفى ماهر ، د ط ، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ، 2010 ، ص 132.
- ديفيد إنغليز وجون هغسون ، **سوسيولوجيا الفن** ، ترجمة ليلى الموسوي ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد 341 ، يوليو 2007 ، ص 39-43.

الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك ودوره في تحقيق التنمية المستدامة

مري شفيقة*

الملخص

تناولت هذه الدراسة الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك كوسيلة هامة وفعالة في إحداث عملية التنمية المستدامة ، حيث أثبت الإعلام أدواره الهامة والمؤثرة في تحقيق التنمية بشكل عام والتنمية المستدامة بشكل خاص في مختلف الدول الغربية ، التي أصبحت التنمية المستدامة لديها ثقافة وممارسة يومية وذلك بتأثير الحملات الإعلامية البيئية المستمرة وانتشار ثقافة التنمية المستدامة ، والوعي البيئي في منظومتها الاجتماعية ، وباعتبار مجال الإعلام البيئي مجال ناشئ وفتي الاهتمام في وسائل الإعلام العربية ، تم تسليط الضوء على الإعلام البيئي الإلكتروني عبر دراسة استكشافية للإعلام الجديد "تحديدا عبر موقع فايسبوك ، ومحور الاهتمام بموضوع البيئة والتوعية البيئية به ، عبر رصد واستطلاع نماذج الصفحات البيئية و الجمعيات البيئية الناشطة بموقع الفايسبوك كنموذج للإعلام الاجتماعي البيئي الإلكتروني ، ومساهمة هذه الأنشطة الإعلامية في تحقيق التنمية المستدامة والحفاظ على حقوق الأجيال القادمة

الكلمات المفتاحية: الإعلام البيئي ، الإعلام البيئي الإلكتروني ، الفايسبوك ، التوعية البيئية ، التنمية المستدامة

Résume

Cette étude a porté sur l'information environnementale électronique via le réseau social Facebook comme un moyen important et efficace dans le processus de développement durable.

Ce rôle important s'est révélé d'une grande influence sur la réalisation du développement en général et en particulier le développement durable dans les différents Etats d'Europe occidentale, où le développement durable est devenu une culture quotidienne. A cet effet et grâce aux campagnes d'information environnementale et la diffusion de la culture du développement durable et le progrès de conscience environnementale dans se système social, on considère que l'avenir de l'information environnementale est un domaine émergent dans les médias arabes, qui se sont penchés sur l'information environnementale électronique par une étude exploratoire des nouveaux médias, précisément le Face book dans lequel sont exposés les sujets traitant de l'environnement comme un modèle pour l'information environnementale électronique sociale.

Ceux-ci afin de connaitre la contribution de ces activités d'information et de la réalisation du développement durable et de préserver les droits des générations futures.

Mots-clés : l'information environnementale, l'information environnementale électroniques, Facebook, sensibilisation de l'environnement, le développement durable

Summary

This study addressed to the environmental electronic media through the Facebook site as an important and effective means in the sustainable development process, where the information has proved important roles and influential in achieving development in general and sustainable development, in particular in various Western countries, which have become sustainable development with culture and of daily practice by the impact of information campaigns continued environmental and the spread of a culture of sustainable development and environmental awareness in their social system, as the area of environmental media nascent area and a boy attention in the Arab media, have been in the spotlight of environmental information through an exploratory study the new information the focus of attention to the topic of the environment and environmental awareness, through monitoring and explore models of environmental pages in Facebook and , models of environmental associations active in Facebook site as a model of social environmental electronic information , and the contribution of these information activities in achieving Sustainable development and the preservation of the rights of future generations.

Keywords: new media ,environmental information, environmental electronic information , Facebook, environmental awareness, sustainable development

* أستاذة مساعدة قسم –ب-بقسم الإعلام والاتصال، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2، مسجلة بالسنة الثالثة دكتوراه علوم بجامعة الجزائر 3

المقدمة

تزداد حاجة المجتمعات بشكل عام والتنمية بشكل خاص إلى الإعلام البيئي يوما بعد يوم، وهذه الحاجة ملحة ومستمرة ومتجددة، وتزداد إلحاحا عند ظهور مشكلة بيئية مثل التلوث وانتشار الأوبئة والآفات الزراعية، وتلوث البحار بتسرب الزيوت والبترول والمواد الكيميائية، فحضور الإعلام البيئي، خلافا لما يعتقد معظم الناس، يتجاوز الموضوعات المتعلقة بالنفايات ومجاري الصرف الصحي، والبناء العشوائي إلى مجالات الحياة كلها"[1]، التي تهدف في المقام الأول لتحقيق التنمية .

حيث تستطيع السياسات الإعلامية تحقيق التنمية الشاملة المستدامة عن طريق إدماج مبدأ الإعلام والاتصال في خطط التنمية وإعطائها دورا هاما عن طريق توعية أفراد المجتمع بأهمية خدمة المجتمع المحلي، وأهمية العمل التطوعي كقيمة اجتماعية وتوعية الجمهور بالحفاظ على البيئة وحمايتها وترشيد استخدام المياه والطاقة والمنتجات النظيفة.[2]

فظهور ما يسمى بالإعلام البيئي أو الأخضر كمجال هام جاء استجابة لتحقيق متطلبات التنمية المستدامة ، التي يعتبر الشق البيئي والتوعية البيئية ضمنها من أهم ركائزها، فضرورة تشكيل الوعي البيئي هي متطلب أساسي لتحقيق التنمية المستدامة ،"فالإعلام البيئي هو أحد أدوات نشر وتعميم التنمية المستدامة القائمة على التناغم والترابط بين البيئة وسلامتها والتنمية الاجتماعية والاقتصادية التي لا غنى عنها في كافة المشروعات والبرامج التنموية"[3] ، وللنهوض بمستويات الوعي البيئي يجب رصد الوسائل الإعلامية المناسبة لإحداث التغيير ، فالإعلام بأوعية إلكترونية مجال متنامي ومؤثر ووسيلة هامة للتغيير ،خصوصا أنه يكتسب أكبر قاعدة جماهيرية من المستخدمين لشبكة الانترنيت.

من بين المجالات التي بدأت تنمو في العالم الافتراضي مجالات التوعية بالتنمية المستدامة عبر شبكة الانترنيت كثقافة عالمية مشتركة لحماية كوكب الأرض والموارد للأجيال الحالية والمستقبلية، فبعد أن تعدى ظهور هذا المفهوم الحلقات والمؤتمرات العالمية لحماية البيئة، بدأ هذا المفهوم ينتشر وفي هذا الإطار لعب الإعلام البيئي كنوع من أنواع الإعلام المتخصص دورا هاما ومؤثرا في الفترة الأخيرة في نشر الوعي البيئي وثقافة التنمية المستدامة التي أصبحت من بين الرهانات الأساسية للألفية الثالثة

إن بروز تطبيقات الويب 0.2 في هذا السياق المعروفة بالإعلام الجديد والثورة التي أحدثها الإعلام الاجتماعي عبر مواقع شبكات التواصل الاجتماعي والمدونات .... حدثت ثورة مست مجالات الاقتصاد، السياسة، الثقافة، البيئة، وحتى التنمية المستدامة، هذا الزلزال الاتصالي الجديد جعل من الفاعلين في تحقيق التنمية المستدامة من مؤسسات دول وزارات ومنظمات بيئية ناشطة في مجال التنمية المستدامة تظهر وتمارس أنشطة إتصالية توعوية بيئية تهدف إلى نشر ثقافة التنمية المستدامة وجعلها ثقافة عالمية مشتركة.

وهذا ما جعلنا نختار هذا الموضوع الهام الذي يتطرق لدور الإعلام المتخصص المتمثل في الإعلام البيئي الإلكتروني ودوره في نشر ثقافة التنمية المستدامة عبر وسيط اتصالي حديث المتمثل في شبكات التواصل الاجتماعي وتحديدا موقع الفايسبوك.

خصصنا إشكالية هذه الدراسة لدراسة أهم مواقع شبكات التواصل الاجتماعي كإحدى تطبيقات الإعلام الجديد"موقع الفايسبوك"حيث تخطى عدد مستخدمي الموقع في جانفي 2016 " 1.5 مليار مستخدم [4]، ووفقا لإحصائيات موقع social bakers ، نهاية سنة 2015 بلغ عدد مستخدمي الموقع 936 مليون مستخدم يوميا ، و1440 مليون مستخدم شهريا [5]

هذه الإحصائيات تؤكد على توفر قاعدة كبيرة من المستخدمين الذين يمكن إشراكهم في القضايا البيئية بشكل خاص وقضايا التنمية المستدامة بشكل عام ، من ناحية أخرى من خلال الملاحظة والإستطلاع الخاص بهذا الموقع فقد لاحظنا وجود أنشطة إتصالية بيئية وتوعية ، وحملات توعوية بالمحافظة على البيئة والتحسيس بمخاطر المشاكل البيئية من قبل مجموعة من الناشطيين البيئيين عبر موقع فايسبوك ، وذلك عبر نشاطات المنظمات والجمعيات البيئية والمجموعات البيئية الناشطة عبر شبكات التواصل الاجتماعي في العالم والوطن العربي والجزائر ،" من منظمات مجتمع مدني، جمعيات ، مختصين بيئيين، مراكز توعية بيئية، صفحات رسمية لهيئات وطنية ودولية لحماية البيئة ،

ومختلف أنصار حماية البيئة "،حيث ينشطون في إطار مجموعات بيئية ، وصفحات بيئية خاصة ...

دراستنا سوف تكون دراسة نظرية وميدانية تحليلية لعينة الصفحات البيئية للناشطين البيئيين ومنظمات المجتمع المدني التي تنشط عبر موقع الفايسبوك ، في إطار نشر ثقافة التنمية المستدامة بكل قضايا وأنشطتها

حيث سوف نقوم في هذا المقال بعرض مفهوم الإعلام البيئي الإلكتروني ووظائفه ووسائله ، ثم سوف ننتقل لعرض مفهوم شبكات التواصل الاجتماعي وكيفية استغلالها في مجالات التوعية البيئية المستدامة ، وأخيرا سوف نعرج على ثقافة التنمية المستدامة ومشتملاتها وكيفية تأثيرها عبر موقع الفايس بوك ، انطلاقا من هذا المفتتح الإشكالي تناول هذا المقال الإشكالية التالية:

كيف يسهم الإعلام البيئي الإلكتروني في نشر ثقافة التنمية المستدامة عبر موقع الفايسبوك؟ للإجابة على هذه الإشكالية تناولنا الأسئلة الفرعية التالية:

- ماهي أهم الصفحات البيئية العربية الخاصة بالبيئة والتنمية المستدامة عبر موقع الفايسبوك ؟
- من هم أهم الجمعيات البيئية الناشطة في تحقيق التوعية البيئية والتنمية المستدامة بموقع الفايسبوك.
- ماهي أهم المجموعات البيئية العربية الناشطة في مجال البيئة والتنمية المستدامة ؟
- كيف ينشط الفاعلين البيئيين كمستخدمين لموقع الفايسبوك عبر الصفحات والمجموعات البيئية ، في نشر التوعية بالتنمية المستدامة ؟

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة أيضا من خلال إبراز أدوار الإعلام الرقمي الإلكتروني تحديدا عبر موقع الفايسبوك في نشر ثقافة التنمية المستدامة كسلوك ، من خلال إجراء دراسة استطلاعية عبر هذا الموقع لعينة من الصفحات والمجموعات والجمعيات الناشطة في مجال البيئة والتنمية المستدامة ، حيث أثبت الفايسبوك أدواره المؤثرة في تشكيل الوعي الإجتماعي بشكل عام بمختلف مجالاته كما أنه أداة هامة للتغير الإجتماعي نحو الأفضل ، وهو وسيلة هامة للإتصال الإجتماعي ونشر الحملات التوعوية البيئية في إطاره لنشر التنمية المستدامة ليس فقط كثقافة وإنما كممارسة عملية ، فالإعلام البيئي في هذا الإطار وعاء هام لتحقيق التنمية المستدامة ، وذلك من خلال الوظائف المختلفة التي يجسدها الإعلام البيئي بدءا بالتوعية البيئية وصولا للسلوك البيئي الإيجابي الذي يحقق مواطنة بيئية فاعلة ، فالمواطنة تعتبر كسلوك تطوعي يسهم في تحقيق التنمية المستدامة وتحقيق العدالة بين الأجيال .

أهداف الدراسة: تسليط الضوء على مفهوم الإعلام البيئي والإعلام البيئي الإلكتروني كمفهوم جديد في مجال الإعلام.

- إبراز مساهمة الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك في تحقيق التنمية المستدامة من خلال توضيح دور كل من :
  - الصفحات البيئية العربية الناشطة عبر موقع الفايسبوك في إطار التنمية المستدامة "عينة من النماذج"
  - المجموعات البيئية العربية الناشطة عبر موقع الفيسبوك في إطار التنمية المستدامة." عينة من النماذج"
  - الجمعيات البيئية العربية والجزائرية الناشطة عبر موقع الفايسبوك في إطار التنمية المستدامة" عينة من النماذج"

- **منهج الدراسة وأداة الدراسة:** "حيث يعتبر المنهج الطريقة العلمية التي تمكن الباحث من التعرف من التعرف على الظاهرة المدروسة من حيث العوامل المكونة لها والعلاقات السائدة داخلها.[6] "

فالمنهج الوصفي التحليلي يعتبر أحد المناهج في البحوث الوصفية لأنه الأنسب لدراستنا حيث سيمكننا من:

- وصف العلاقة بين متغيرات الدراسة ، والكشف عن أبعاد هذه العلاقة من خلال الوقوف على مختلف العناصر المكونة للموضوع ، وبالتالي استخلاص مختلف نتائج دراسة الظاهرة ، فالوصف في هذه الحالة يركز على فهم الظاهرة كما هي في الواقع عن طريق تشخيصها وفهمها عن طريق وصفها وصفا دقيقا وشاملا ، يكشف عن كافة جوانبها والعلاقات القائمة بينها ، وتحديدها بشكل دقيق مما يسمح بالتعرف على حالة واقع الظاهرة والتنبؤ بتطورها مستقبلا ، خصوصا وأن مجال الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك ، يعد

ظاهرة جديدة تستدعي الدراسة والوصف والتحليل ولا يوجد أنسب من المنهج الوصفي التحليلي في هذه الحالة .

أداة الدراسة

تم الاعتماد على جملة من الأدوات البحثية منها أداة الملاحظة والمقابلة، تم استخدام أداة الملاحظة بنوعيها بالمشاركة والملاحظة البسيطة للإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك " حيث صممت الباحثة شبكة ملاحظة " تستهدف متابعة صفحات بيئية عبر الإعلام الاجتماعي وتحديدا عبر موقع الفايسبوك ومتابعة عينة من الناشطيين في مجال التنمية المستدامة، كما تم استخدام أداة المقابلة مع عينة الناشطين البيئيين بموق.ع الفايسبوك لتحديد ملامح الاهتمام بموضوع البيئة والتنمية المستدامة.

عينة الدراسة

تم اختيار العينة القصدية، التي تعتبر نوع من العينات غير الاحتمالية وذلك عن طريق استهداف عرض النماذج المختصة بمجال الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك ، من صفحات إلكترونية ومجموعات ، وناشطيين بيئيين عبر موقع الفايسبوك ، وعادة ما يستخدم هذا النوع من العينات في الدراسات الاستطلاعية ، وتعرف العينة القصدية (العمدية)، وهي التي يقوم فيها الباحث باختيار مفرداتها بطريقة تحكمية تبعًا لما يراه من سمات أو صفات أو خصائص تتوفر لهذه الوحدات أو المفردات والتي تخدم أهداف البحث ،كما أن الباحث يقوم شخصيًا بانتقاء المفردات الممثلة أكثر لما يبحث عنه من بيانات[7]. قمنا بإختيار عينة متكونة من خمسة صفحات بيئية، وخمسة مجموعات بيئية هي: "صفحة إعلام وتوعية بيئية ديالي، صفحة، **صفحة** Environnement et développement durable -Algérie، صفحة جمعية حماية البيئة قالمة، صفحة جمعية اصدقاء البيئة والتنمية، صفحة جمعية الأمل للمحافظة على البيئة. "

أما المجموعات البيئية فهي "مجموعة شباب أفوار من أجل تنمية مستدامة "، " مجموعة جمعية مواطنة وتنمية مستدامة "، " مجموعة شباب وبيئة للألفية الثالثة "، "مجموعة منتدى التربية البيئية والتنمية المستدامة"، "مجموعة جمعية البيئة من أجل التنمية المستدامة "

الإطار المكاني والزماني للعينة: الإطار المكاني صفحات ومجموعات بيئية عربية عبر موقع الفايسبوك ، الإطار الزمني للتحليل "شهر أفريل وشهر ماي 2016"

مفاهيم الدراسة:

- **مفهوم الإعلام المتخصص والبيئي**

الإعلام هو التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت، كما عبر عن ذلك " أوتجروت"، وهذا ما يقتضي أن تتوافر في الإعلام ثلاثة مواصفات أساسية وهي الجدة والحداثة، الأهمية والضخامة، الدقة والموضوعية[8].

أما الإعلام المتخصص فهو إعلام يهدف إلى نقل المعلومات إلى الجمهور حول مجال معرفي معين بهدف تنوير الرأي العام وجعله على إطلاع وعلم بما يحدث في هذا المجال المعرفي المتخصص ظهر الإعلام المتخصص استجابة لتطلعات ورغبات الجمهور المختلفة، حيث تم تجزئة اهتمامات الجماهير إلى تخصصات إعلامية متخصصة لإشباع هذه المتطلبات الإعلامية الخاصة.

من بين أشكال الإعلام المتخصص الإعلام الرياضي، الإعلام السياسي، الإعلام السياحي، الإعلام الصحي، الإعلام الثقافي، والإعلام البيئي الذي سوف نركز عليه بالتعرض إلى تحديد مفهومه، فهو إعلام متخصص يختص بالشؤون البيئية التي تتطلع لتحقيق التنمية المستدامة التي نادت إليها رئيسة وزراء النرويج جروهاليم بروتلاند بظهور هذا المفهوم لأول مرة في تقريرها عام 1987.

لكن الظهور الفعلي لمصطلح الإعلام البيئي وأخذ بالتطور المتواتر في التعريف والمفهوم والاستخدام منذ سبعينات القرن الماضي، فبعدما كان نقلا للخبر البيئي والإثارة الصحفية لمزيد من المبيعات، أصبح له سياسات وخطط ووظائف لتحقيق أهداف مختلفة، فكما للإعلام للحديث «الإعلام التنموي» دور في مساعدة الناس على تكوين رأي صائب في مضمون الواقع، أصبح الإعلام البيئي أداة تعمل على توضيح المفاهيم البيئية من خلال إحاطة الجمهور المتلقي والمستهدف للرسالة والمادة الإعلامية البيئية بكافة الحقائق والمعلومات الموضوعية الصحيحة بما يسهم في تأصيل التنمية البيئية المستدامة[9].

والإعلام البيئي هو إعلام متخصص يوجه رسالته ويوظفها في خدمة قضايا البيئة، مستخدما في ذلك العديد من الوسائل والقنوات الاتصالية للوصول إلى الجمهور، وتزايدت الحاجة إليه في الآونة الأخيرة بالتزامن مع تعاظم الاهتمام الدولي بالبيئة، وظهور الكثير من المشكلات البيئية في كثير من دول العالم، فعند الحديث عن الإعلام البيئي لا يمكن أن نغفل نقطة أساسية تتمثل في الوعي البيئي الذي يعتبر من أهم المكونات الأساسية التي توجه السلوك البيئي الإيجابي لدى الفرد أو حتى المؤسسات ككيانات معنوية أو شخصيات اعتبارية، فالوعي هو نقطة التحول لإحداث التغيير في حماية البيئة ، لهذا فأهم هدف يركز عليه الإعلام البيئي هو خلق الوعي البيئي وتحفيزه للمشاركة الفعالة في مشاريع التنمية والبيئة للحفاظ على حقوق الأجيال القادمة والعيش في بيئة صحية وسليمة.

والإعلام البيئي هو إعلام متخصص يوجه رسالته ويوظفها في خدمة قضايا البيئة، مستخدما في ذلك العديد من الوسائل والقنوات الاتصالية للوصول إلى الجمهور، وتزايدت الحاجة إليه في الآونة الأخيرة بالتزامن مع تعاظم الاهتمام الدولي بالبيئة، وظهور الكثير من المشكلات البيئية في كثير من دول العالم ،فعند الحديث عن الإعلام البيئي لا يمكن أن نغفل نقطة أساسية تتمثل في الوعي البيئي الذي يعتبر من أهم المكونات الأساسية التي توجه السلوك البيئي الإيجابي لدى الفرد أو حتى المؤسسات ككيانات معنوية أو شخصيات اعتبارية، فالوعي هو نقطة التحول لإحداث التغيير في حماية البيئة لهذا فأهم هدف يركز عليه الإعلام البيئي هو تشكيل الوعي البيئي وتحفيزه للمشاركة الفعالة في مشاريع التنمية والبيئة للحفاظ على حقوق الأجيال القادمة والعيش في بيئة صحية وسليمة.[10]

عرفه البنك الدولي: La banque mondiale بأنه نقل المعلومات البيئية من أجل إثراء معارف الجمهور والتأثير على أرائه وسلوكياته تجاه البيئة " ويقصد به المادة الإعلامية في وسائل الإعلام، التي تعنى بقضايا البيئة وأسبابها وأبعادها وحلول علاجها بهدف التأثير على الجمهور وتوعيته وتعديل سلوكه تجاه حماية البيئة "[11]

مفهوم الإعلام البيئي الإلكتروني

يمكن تعريف الإعلام الإلكتروني " ELECTRONIC MEDIA "على أنه نوع جديد من الإعلام يشترك مع الإعلام التقليدي في المفهوم، والمبادئ العامة والأهداف ويتم عبر الطرق الإلكترونية على رأسها الانترنيت[12]، ما يميز الإعلام الإلكتروني عن الإعلام التقليدي هو اعتماده على وسيلة جديدة من وسائل الإعلام الحديثة، وهي الدمج بين كل وسائل الاتصال التقليدي بهدف إيصال المضامين المطلوبة بأشكال متمايزة ومؤثرة بطريقة أكبر.[13]

هو عبارة عن نوع جديد من الإعلام البيئي الجديد الذي يشترك مع المفهوم التقليدي للإعلام في وسائل الاتصال الكلاسيكية في المفهوم والمبادئ العامة ، والأهداف ويختلف عنه من حيث أنه يعتمد على وسيط اتصالي جديد وهو الانترنيت هذا الوسيط الجديد يسمح بالدمج بين كل من وسائل الاتصال التقليدية بهدف إيصال المضمون البيئي إلى الجمهور المستهدف ، عبر الشبكة بأشكال متمايزة ومؤثرة بطريقة أكبر وبأسلوب مقنع ، نظرا لتوافر سمة التفاعلية التي غالبا من تكون غائبة في إطار نموذج الاتصال البيئي التقليدي الذي يكون في اتجاه واحد ، فالانترنيت كقناة للإعلام الجديد تتيح تقديم المضامين والرسائل الاتصالية البيئية بطريقة إلكترونية رقمية عبر شبكة المعلومات الدولية ، دون اللجوء إلى محطات البث أو المطابع وبطرق تجمع بين النص والصورة والصوت، وتكسر في الوقت نفسه الحاجز بين المرسل والمتلقي بحيث يمكن للمتلقي أن يرد الفعل مباشرة ، ويمكن له أن يتفاعل مع الرسائل والمضامين البيئية التي يستقبلها إما مع إدارة الموقع أو مع متلقين آخرين يجمعهم الاهتمام البيئي ، بحيث تنحصر هذه العملية الاتصالية الإلكترونية البيئية على استخدام الانترنيت تحديدا.

الفرق بين الإعلام البيئي التقليدي والإلكتروني

يتمثل الفرق الأساسي بين الإعلام البيئي بشكله التقليدي عبر وسائل الإعلام الكلاسيكية ، والإعلام البيئي الإلكتروني عبر وسائط الإعلام الجديد باستخدام تطبيقات شبكة الإنترنيت ، في الفرق فقط في استخدام القناة الاتصالية أو الوسيط الاتصالي ، فالفرق بين وسائط الإعلام التقليدية ، ووسائط الإعلام الجديد يتمثل في التفاعلية والوسائط المتعددة والفائقة التي يحظى بها الإعلام الجديد بالإضافة إلى

سمات اللاتزامنية ، والعديد من المزايا الإضافية التي تجعل هناك فرق واضح في أساليب التوعية فالرسالة هي الوسيلة حسب ماكلوهان صاحب نظرية الحتمية التكنولوجية[14].

ففي سنة 1964 انتقدت القناة من طرفه في كتابه " من أجل فهم وسائل الإعلام" ، فالوسيلة هي الرسالة تقودنا إلى التفكير أن قناة التوزيع تمارس تأثير هام على مستقبل الرسالة ،فماكلوهان ميز بين الوسائل الساخنة " كثيفة المعلومات ، ومنخفضة المشاركة ، والوسائل الباردة الجيدة للانتقاد ، عرض ماكلوهان يستحق أن يكون السبب في الاعتقاد بحيادية التقنية على فهم الرسائل ، فمعنى الرسالة يجب أن يكون فيه شيء له درجة انتباه كبيرة في الاتصال بين الأفراد ،بحيث يجب أن يكون موجه لخدمة أربعة مستويات " آليات نقل الرسائل ، ماذا نعتقد ، ماذا نريد القول ، ماذا يفهم المستقبل [15] بالإضافة للجانب التقني الذي يسهم في نقل الرسالة بكفاءة.

من بين الفروقات الأخرى بين الإعلام البيئي التقليدي والإعلام البيئي الإلكتروني نجد:

- أن مصادر المعلومات البيئية محتكرة في الوسائل الاتصالية التقليدية ، إلا أن المصادر في الأنترنيت غير محتكرة وحرة تتميز بتعدد حراس البوابة وقد تكون هي في حد ذاتها مصدرا للوسائل الإعلامية التقليدية في مجال البيئة.

-مختلف الفاعلين في الإعلام البيئي التقليدي هم هيئات رسمية لحماية البيئية ، كوزارات البيئة ، والصناعة .... إلا أن الفاعلين في الإعلام البيئي الإلكتروني يتمثلون في المؤسسات الصناعية والخدماتية بمختلف أنواعها ، الأفراد بمختلف فئاتهم وشرائحهم ووضعياتهم الاجتماعية والاقتصادية "شباب ، نساء ، أطفال" ، منظمات المجتمع المدني من جمعيات بيئية ، وأحزاب سياسية ناشطة في مجال البيئة ، باحثين ومختصين في العلوم البيئية ، كتاب ومدونين بيئيين.

- الإطار الجغرافي للإعلام البيئي التقليدي محدود ، بينما هو عبر الإعلام الإلكتروني غير محدود بل يتجاوز المستويات الوطنية إلى الإقليمية والعالمية وهو نقطة إيجابية لتدويل الرسالة الإعلامية البيئية.

مفهوم الفايسبوك: تعريف الفايسبوك: يعتبر الفيسبوك أحد أهم المجتعات الإفتراضية التي نشأت على الأنترنيت ، والذي يجمع الملايين من المشتركين من مختلف بلاد العالم ، ويعتبر عالم تخليلي فهو يحتوي على الدردشة ، إضافة للعديد من التطبيقات التي تتيح للفرد أن يعبر عن نفسه بشتى الطرق وأن يتعرف على حياة الأخرين ، كما يتيح الإشتراك في العديد من المجموعات والتي يجتمع أفرادها على فكرة ما أو هدف ما.[16]

يعتبر واحد من أهم مواقع التشبيك الاجتماعي ، وهو لا يمثل منتدى اجتماعيا فقط ، إنما أصبح قاعدة تكنولوجية سهلة بإمكان أي شخص أن يفعل بواسطتها ما يشاء[17].

ويعرف قاموس الإعلام والاتصال "فايسبوك" "على أنه موقع خاص بالتواصل الاجتماعي أسس عام 2004 ، ويتيح نشر الصفحات الخاصة وقد وضع في البداية ، لخدمة طلاب الجامعة ، وهيئة التدريس والموظفين لكنه إتسع ليشمل كل الأشخاص"[18].

هو شبكة اجتماعية على الانترنيت تضم مئات الملايين من المستخدمين يتواصلون بالصور والمشاركة عن طريق الانترنيت ، حيث تعرف الموسوعة العالمية الحرة بأنه موقع ويب للتواصل الاجتماعي يمكن الدخول إليه مجانا وتديره شركة فايسبوك محدودة المسؤولية كملكية خاصة لها فالمستخدمون بإمكانهم الانضمام إلى الشبكات التي تنظمها المدينة أو جهة العمل أو المدرسة أو الإقليم وذلك من أجل الإتصال بالأخرين والتفاعل معهم كذلك ، يمكن للمستخدمين إضافة أصدقاء إلى قائمة أصدقائهم وإرسال الرسائل إليهم ، وأيضا تحديث ملفاتهم الشخصية وتعريف الأصدقاء بأنفسهم[19].

هو موقع تواصل إجتماعي مصمم للإستخدام التواصلي بين الأفراد ، بهذه الفكرة فموقع فايسبوك هو شبكة تواصل إجتماعي ، حيث يستخدم علماء الإجتماع هذا المصطلح للإشارة إلى نية التفاعلات بين مجموعات الأفراد ، ويشترك هذا الموقع مع بقية شبكات التواصل الإجتماعي في خاصية البناء ، للجمهور في ملف ضمن نظام محدد لتوضيح قائمة المستخدمين الآخرين الذين يتواصلون ويشاركون في

عرض ونشر والتفاعل مع قائمة الاتصالات التي أدلى بها آخرون داخل هذا النظام[20]

يمكن ان نعرفه **على** أنه شبكة اجتماعية، يمكن الدخول إليه مجانا وتديره شبكة "Facebook" محدودة المسؤولية كملكية خاصة لها، فالمستخدمون بإمكانهم الانضمام الى الشبكات التي تنظمها المدينة أو جهة العمل أو المدرسة أو الإقليم، وذلك من أجل الاتصال بالآخرين والتفاعل معهم، كذلك يمكن للمستخدمين إضافة أصدقاء إلى قائمة أصدقائهم، وإرسال الرسائل إليهم، وأيضا تحديث ملفاتهم الشخصية وتعريف الأصدقاء بأنفسهم.

مفهوم التنمية المستدامة

ولقد تعددت التعاريف المتعلقة بالتنمية المستدامة واختلفت باختلاف الفترات الزمنية والانتماءات الفكرية، فأصبحت المشكلة ليست في غياب التعاريف وإنما في تعددها وتنوعا ، فقد عرفت بأنها التنمية المتجددة والقابلة للاستمرار ، التنمية التي لا تتعارض مع البيئة، التنمية التي تضع نهاية لعقلية لانهائية الموارد الطبيعية وغير الطبيعية غير أن هذه التعاريف تفتقد للمرجعية لذا سنركز على التعاريف التي تتسم بالمرجعية [21]، فتعرف بأنها التنمية الحقيقية ذات القدرة على الاستمرار و التواصل من منظور استخدامها للموارد الطبيعية، والتي يمكن أن تحدث من خلال إستراتيجية تتخذ التوازن البيئي كمحور ضابط لذلك التوازن، الذي يمكن أن يتحقق من خلال الإطار الاجتماعي البيئي، والذي يهدف إلى رفع معيشة الأفراد من خلال النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تحافظ على تكامل الإطار البيئي[22].

وقد عرف المبدأ الثالث الذي تقرر في مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية الذي عقد في ريو دي جانيرو عام 1992، التنمية المستدامة بأنها "ضرورة إنجاز الحق في التنمية، بحيث تتحقق على نحو متساوي الحاجات التنموية والبيئية لأجيال الحاضر والمستقبل."

كما أشار المبدأ الرابع الذي أقره مؤتمر ريو دي جانيرو على أن:" تحقيق التنمية المستدامة لا يكون إلا بحماية البيئة التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من عملية التنمية، ولا يمكن التفكير فيها بمعزل عنها[23] ، و هذان المبدءان اللذان تقررا باعتبارهما جزءا من جدول أعمال مؤتمر الأمم المتحدة الحادي والعشرين، ينطويان على بعض الدلالات العميقة للغاية بالنسبة لاستخدام وإدارة الموارد الطبيعية، والنظام الايكولوجي والبيئة.

أما الذي رسّخ هذا المفهوم وحدد ملامحه الكبرى فهي Gro Harlem Brundtland رئيسة وزراء النرويج، حيث لعبت دورا هاما في ترسيمه في تقرير مستقبلنا المشترك" الصادر عن اللجنة العالمية للتنمية والبيئة التي كانت تترأسها عام 1987، وأصبح هذا التقرير فيما بعد حاملا لاسمها في أول التعارف الرسمية للتنمية المستدامة[24].

حيث عرفها هذا التقرير بأنها السعي لتلبية احتياجات الحاضر دون المساس بالقدرة على تلبية الحاجيات القامة [25]

وعندما يرتبط مفهوم الإعلام مع التنمية المستدامة، يظهر إعلام ذو نمط أوسع من الإعلام البيئي يسمى الإعلام المسؤول الذي يشمل في أبعاده مختلف الجوانب الاتصالية لمفهوم التنمية المستدامة الذي يشمل حسب المقاربة الأنجلوسكسونية 3 أبعاد تسمى ب P3 "Profit، People، Planet" **هي موضحة في الشكل البياني التالي:**

شكل بياني: يوضح أبعاد التنمية المستدامة

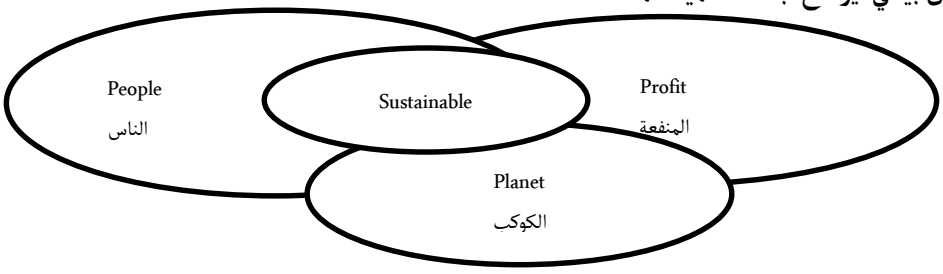

Référence[26] : Mathieu Baudin : le développement durable ? Nouvelle idéologie du xxIe siècle ?édition l'Harmattan, 2009, paris, page 18.

1-دور الإعلام البيئي وأساليبه في نشر الوعي البيئي

لعل الدور المهم للإعلام البيئي هو نشر الثقافة البيئية والرقي بالوعي البيئي من خلال وسائل الإعلام المختلفة المقروءة والمسموعة والمرئية ، من أجل حماية البيئة والبحث عن سبل الحد من مشكلاتها الحالية ، لأن الإنسان الذي لا يعرف بيئته سوف يدمرها وبالتالي فإنه يدمر نفسه ، دون أن يعلم ، وهنا يأتي دور الإعلام البيئي في توعية هذا الإنسان بالأضرار المحدقة ببيئته ، وتوعيته لكيفية مواجهتها والحد منها ، وأيضا توعيته بالطريقة المثلى للتعامل مع بيئته والمحافظة عليها بل وتحسينها.

"فوسائل الإعلام تضطلع بمهمة هامة تتمثل في تحريك الاهتمام الجماهيري بجرائم البيئة وبلورة رأي قادر على التصدي لها فوسائل الإعلام من أكثر المؤسسات التربوية قدرة على نشر الوعي البيئي بين أفراد المجتمع " [27]

ويمكن تلخيص دور الإعلام البيئي في النقاط التالية:

1- نشر الوعي البيئي من خلال أجهزة الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية.

2- الترشيد للتخلص من القمامة والمخلفات بالسلوك الإنساني

3- تكوين ثقافة جديدة تهدف لتحقيق بيئة أفضل

4- إنتاج برامج متخصصة وأعمال تلفزيونية تسجيلية حول حماية البيئة من أخطار التغيرات المناخية والبيئية المختلفة

5- عرض برامج إرشادية وبرامج توعوية مختلفة بالتلفزيون وأماكن تجمع الجماهير والشباب

6- تكوين الوعي البيئي على مستوى جماهيري واسع باعتبار أن البيئة هي المجال العام للحياة ، ويتحقق هذا من خلال البرامج والمسلسلات الهادفة والإعلانات المعتمدة على الرسوم المتحركة.

7- الإعلان التلفزيوني كأحد الأدوات الفعالة في تناول موضوع البيئة " محاربة السلوكيات المختلفة ومواجهة أخطار التغيرات المناخية والبيئية المختلفة" ، من خلال الرسائل الإعلانية التي تدور حول أفكار مختلفة.

8- لفت الانتباه إلى البيئة من حولنا والتركيز عليها وذلك من خلال مواقف تمثيلية توضح أثر البيئة الصحية على حياتنا وسلامتنا

9- تناول السلوكيات الخاطئة في حياتنا اليومية والتي يمارسها بعض الأفراد ولإظهارها في صورة مرفوضة بما يؤدي إلى التنفير منها ، حتى يتجنب باقي الأفراد الوقوع فيها أو تكرارها.

10- تصوير البيئة الطبيعية في أزهى صورها وألوانها بما ينمى داخل المواطن الرغبة والسعي إلى التمتع بتلك البيئة الجميلة النظيفة[28].

2-أساليب الإعلام البيئي في تحقيق التوعية البيئية

1- تنفيذ محاضرات متخصصة وندوات وحلقات بحث ومؤتمرات وورش عمل لنشر التوعية وزيادة التعليم في مختلف قضايا البيئة.

2- تنفيذ البرامج الإذاعية والتلفازية التي تكشف الحقائق البيئية للمواطن وتبصره بدوره ومسؤولياته تجاه مشكلات البيئة

3- تسخير الصحافة لنشر الوعي البيئي عبر مقالاتها وتحقيقاتها ورسومها الكاريكاتيرية وغير ذلك من أساليب.

4- تشجيع الأفراد على زيارة المتاحف والمعارض وحدائق الحيوان والمحميات الطبيعية التي تشكل مصادر هامة للمعلومات البيئية للناس بكافة فئاتهم على أن من شأن هذه الزيارات أن تنمي عند الناس المواقف الإيجابية نحو البيئة.

5- تشجيع الأفراد على تشكيل النوادي والجمعيات المهنية والهيئات الأهلية ذات الأهداف البيئية والانخراط فيها ، وتسليط الضوء على أهدافها ونشاطاتها ودعم برامجها والعمل على إنجاح مشاريعها في المحافظة على البيئة.

6- إنجاح برامج التوعية الصحية والأسرية وبرامج التثقيف الجماهيري التي تنفذها المؤسسات الحكومية المختلفة كوزارات التربية والتعليم العالي والصحة والزراعة والطاقة والتنمية الاجتماعية والسياحة والمياه وغيرها.

7- توجيه معدي البرامج وكاتبي السيناريوهات والمخرجين إلى تطعيم البرامج والتمثيليات والأفلام بمعلومات خفيفة عن البيئة[29].

3-جمهور الإعلام البيئي

من هو جمهور الإعلام البيئي وماذا ينتظر من وسائل الإعلام؟ إنه جمهور ذكي لم يعد يقبل رشقه بالمعلومات المعاد تدويرها، وأصبح ينتظر إعلاما موثقا وتحليلا علميا يرتفع بموضوع البيئة إلى مستوى القضية الكبرى.

ليس جمهور الإعلام البيئي محصورا في الناشطين البيئيين والجمعيات البيئية، فهو يمتد في قطاعات المجتمع جميعا، وتتقاطع فيه الاختصاصات والأعمار، الناشطون البيئيون والجمعيات الأهلية وأصحاب الاختصاصات العلمية المرتبطة بالبيئة، هم القاعدة الأساسية لجمهور الإعلام البيئي، لأنه يخاطب اهتمامهم المباشر غير أن على الإعلام البيئي الذكي أن يثير إهتمام المعنيين الأخرين، السياسيين، والمؤسسات الحكومية، والصناعيين، ناهيك عن المثقفين والطلاب والمهنيين والموظفين وربات البيوت.

على الإعلام البيئي أن يحدد قطاعات جمهوره، ويتوجه إليها بمعلومات موثقة مفيدة تثير اهتمامها، إذ أن المعلومات وطريقة تحليلها تبقى العنصر الأساسي في نجاح الإعلام البيئي، في الوصول إلى جماهيره، وعليه أيضا احترام إهتمامات الجمهور، وهذا لا يحصل حاليا، لقد أظهر استطلاع للرأي العام البيئي في العالم العربي أن الجمهور يضع في أولى إهتماماته تلوث الهواء والنفايات الخطرة والأخطار الصحية من المبيدات والأسمدة بينما نجد أن هذه المواضيع بقيت شبه غائبة في الإعلام العربي [30]

تتجسد جماهير الإعلام البيئي بشكل عام في:

قطاعات حكومية ومؤسسات حكومية بيئية " وزارات البيئة، والهيئات والمراكز الحكومية لحماية البيئة "

وسائل الإعلام والصحفين ومهنني الإتصال

الجمعيات البيئية ومختلف منظمات المجتمع المدني

رجال الصناعة والمؤسسات الاقتصادية

الرأي العام ومختلف الجماهير بمختلف فئاتهم " نساء، رجال أطفال ...."

4-الإعلام البيئي الإلكتروني وتخضير الإعلام الجديد

الوسائل والوسائط الإعلامية الجديدة تتميز بسرعة الانتشار وسهولة الوصول للفئات المستهدفة في أي مجال من مجالات الحياة، ولذلك أصبح من الأهمية بمكان استخدام وتوظيف هذه الوسائط في نشر الوعي البيئي بين الجماهير

- من خلال الوسائط الجديدة يمكن القيام بحملات توعوية مكثفة لمحاربة السلوكيات الضارة بالبيئة والتي تنتشر في مجتمع من المجتمعات وتؤثر سلبا على البيئة والإنسان وعلى الكائنات الحية
- ومن الأدوار الهامة للإعلام الجديد في الحفاظ على البيئة توعية المستخدمين بمخاطر التدهور البيئي على الكرة الأرضية وتوعيتهم بمخاطر التلوث البيئي والنفايات وبخاصة النفايات الإلكترونية التي يزداد حجمها باستمرار بل ويتضاعف نتيجة التقنيات الحديثة التي تدخل الأسواق كل يوم، وإقبال الجماهير على اقتناء المنتجات الجديدة والتخلص من المنتجات القديمة التي تحتوي على مواد ضارة بالبيئة مثل المعادن الثقيلة كالزئبق والرصاص والكادميوم
- **وتخضير الإعلام الجديد يمكن تحقيقه من خلال عدة أمور منها:**
- الاهتمام بالموضوعات البيئية وذلك باستخدام الألوان والتصاميم والشعارات التي تدعو للمحافظة على البيئة في المواقع والمنتديات
- الاهتمام بالبعد والأثر البيئي في تغطية الأحداث التي لها صلة بالبيئة ولها تأثير على صحة الإنسان وعلى الكائنات الحية الأخرى وبخاصة الأصناف المهددة بالانقراض
- حث الجماهير على ترشيد استخدام التقنيات الحديثة حتى لا تتحول إلى مصدر جديد للتلوث البيئي، واستنزاف الطاقة والموارد الطبيعية، فالتقليل من استخدام محركات البحث يسهم في ترشيد الطاقة وحماية البيئة، حيث تشير التقارير إلى عملية البحث الواحدة باستخدام محرك البحث "جوجل"، تستهلك قدرا من الطاقة يكفي لتشغيل مصباح كهربائي لمدة ساعة.
- دعم الشركات التي تستخدم الطاقات المتجددة في أنشطتها مثل طاقة الرياح، فهناك على سبيل المثال شركات استضافة لمواقع الانترنيت ومحركات بحث يتم تشغيلها بواسطة الطاقة النظيفة والمتجددة.
- تشجيع الممارسات البيئية التي تحد من استهلاك الموارد البشرية، ومن الأمثلة على ذلك الحد من استهلاك المنتجات البلاستيكية، والتقليل من استخدام الأوراق في

عمليات الطباعة والتصوير ، وذلك من خلال توفير نسخ إلكترونية من الكتب.

- تشجيع المستخدمين على توفير الطاقة ، وذلك من خلال تعديل وضبط إعدادات الأجهزة الإلكترونية التي يستخدمونها لكي تكون أقل استهلاكا للطاقة " نمط موفر للطاقة".

- نشر مفهوم الرفاهية الحديثة المتوافقة مع البيئة ، ودعوة الجماهير إلى التخلي عن مظاهر الرفاهية التقليدية التي أضرت بالتوازن البيئي وعرضت الكثير من الكائنات الحية للانقراض

- عرض المبادرات الرائدة والتجارب الناجحة في التوعية البيئية وفي المحافظة على البيئة من التلوث ، ومن الأمثلة على ذلك تجربة رجل الأعمال "بول بوليزوتو" ، الذي كون ثروته من خلال مشروعات وأفكار ترتبط مباشرة بحماية البيئة ، وهو مؤسس شركة إيكو ميديا. التي جعلته أحد رواد الإعلان الأخضر ، وتم اختياره في عام 2008 ضمن أبرز 10 مستثمرين في مجال حماية البيئة ، وفي عام 2009 منحه مؤتمر عمد المدن الأمريكية جائزة التفوق في مجال الشراكة بين القطاعين الخاص والعام.[31]

- **5-مساهمات موقع الفايسبوك كأحد تطبيقات الإعلام الجديد في نشر ثقافة التنمية المستدامة**

يستطيع موقع الفايسبوك أن يقوم بأدوار أساسية في حملات التوعية الإعلامية وذلك بنشر ثقافة التنمية المستدامة ، خاصة إذا ما تم توظيفه ضمن منظومة الوسائل الإعلامية للحملة التوعوية ، وذلك للخصائص الكبيرة التالية التي يمتلكها:

إنتشاره الواسع: حيث للفيسبوك شعبية كبيرة وانتشار متزايد ليس فقط عالميا ، ولكن أيضا محليا حيث توضح الدراسات الميدانية الحديثة التي تمت في المملكة إنتشاره بين الشباب والفتيات على حد سواء حيث أن انتشاره في تزايد مستمر.

خصائصه المتعددة: يستخدم الفايسبوك اليوم من قبل مستخدميه في أغراض شتى بناء على نوعية وطبيعة وديمغرافية مستخدميه فهو يستخدم كأداة اتصالية بين الأصدقاء والمعارف ، وأداة للتعرف على الأخبار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومتابعتها ومناقشتها ، وكأداة إعلانية توعوية.

تطبيقاته المختلفة: يمتاز الفيسبوك بأنه من أكثر الوسائل الاجتماعية قدرة على العمل ضمن تطبيقات عدة مثل اليوتيوب ، Iphone ، الدردشة ، التويتر ، خدمات التلفون النقال إلخ بل إنه يتيح لصاحب الموقع خلق التطبيق الذي يرغبه ... وهذا ما يساعد القائم على الحملة التوعوية في ربط الفيس بوك بمواقعه على الأنترنيت وربطه بالوسائل الإجتماعية الأخرى بل ووسائل الإتصال المختلفة.

إستخدامه في التنظيم والإجتماعات: يمكن الإفادة من الفيس بوك في تنظيم التجمعات التي تحتاجها الحملة والمقابلات التي ترغب في قيامها ، كما أنه من أفضل الوسائل في الوصول للجماهير المستهدفة بدقة[32].

كما يتمتع موقع الفايسبوك بمجموعة من الخصائص الأخرى نجد من أهمها:

- يستخدم الأغلبية الساحقة من الشباب موقع الفيس بوك في وقت كبير طوال اليوم للتواصل مع أصدقائهم ومعارفهم من خلال الموقع

يتيح موقع الفايس بوك الشباب فرصة تحميل الصور والمشاركة في مجموعات النقاش والتمتع بالألعاب على ملفاتهم الشخصية ، حيث يتم تحميل أكثر من 14 مليون صورة يوميا على الملفات الشخصية للشباب

- يمكن للمستخدمين الاشتراك في شبكة أو أكثر على موقع الفايس بوك حسب التخصصات أو أماكن العمل أو المناطق الجغرافية أو الأصدقاء ، وهذه الشبكات تتيح للمشتركين الإتصال بالأعضاء في نفس الشبكة بإضافة أصدقاء جدد لصفحتهم مع إتاحة الفرصة لهم لتصفح ورؤية الصفحات الشخصية لأعضاء نفس الشبكة

- يقوم الفيس بوك بتزويد المستخدمين بالأخبار الجديدة سواءا كانت News feed والتي تسمح للمستخدم أن يحصل على أحدث العناوين الرئيسية والأنشطة التي قام بها أصدقائه أو المجموعات المشارك بها و Mini feed والتي تزود المستخدم بتفاصيل هذه الأنشطة أو الأخبار .

- يعد الفايس بوك واحدا من أكثر المواقع الإجتماعية شعبية ويتضاعف عدد مستخدميه النشطين كل

عام وذلك بعد توسع نطاق إستخدامه من خلال الهاتف الخلوي

- يتمتع موقع الفايس بوك بقدرته على بناء العلاقات الإجتماعية وإمكانية المشاركة بملفات الصور والفيديو بإعتباره موقعا يمثل مزيجا من غرف المحادثة ومعرضا للصور بأنواعها ومساحات للكتابة والتعليق بجانب صندوق البريد الإلكتروني كما يستخدم لبناء وتدعيم العلاقات والترويج للأفكار والأراء والمشروعات الفردية والجماعية وقد اشار Kristin Drogos إلى أن متوسط أعداد تحميل الصور وملفات الفيديو على موقع الفايس بوك وصل إلى 5 مليون ملف كما وصل عدد الملفات الشخصية Status التي يقوم الأفراد بتحديثها في خلال شهر واحد إلى 60 مليون ملف[33].

5-1-نماذج عن مجموعات وصفحات بيئية ناشطة على مستوى الوطن العربي بموقع الفايسبوك

إيكو للتسويق البيئي

تعد صفحة إيكو للاعلام والتسويق من الصفحات الهامة على الفايس بوك تعمل على تقديم الخدمات الإعلامية والتسويقية بأعلى جودة بما يخدم قضايا البيئة مع الالتزام بمسؤوليتها الاجتماعية فهذا الفضاء يسمح بتبادل الأفكار والالتفاف حول القضايا البيئية كما يسعى لتغطية الأحداث الاقتصادية والبيئية بطريقة إعلامية مهنية ، تراعي اهتمامات الجمهور ، وتلبي احتياجاته بتنويع المادة الإخبارية الموجهة أساسًا لخدمة البيئة والترويج لاقتصاد أخضر ، بالإضافة إلى ما يلبى أذواق واهتمام الجمهور فى مختلف المجالات.

تضم هذه الصفحة 1.150 شخص مع ازدياد المعجبين بالصفحة ما يسمح بالمشاركة العربية على التوافق فى حماية البيئة لان الخطر لا يقتصر على دولة بل أصبح التلوث زاحفا يخترق كل الحدود [25] ونظرا لتوسع مجال هذه الصفحة ساهم بإنشاء موقع إلكترونى متنوع لها يعنى بالقضايا البيئية بالدرجة الأولى و تضمين الفئة الشبابية كعنصر فاعل لتلاقى الآراء والأفكار بالتشكيل الإيجابى نحو تفعيل هذا الفضاء الرقمى لصالح القضايا البيئية ،فصفحات الفايس بوك البيئية تعمل على دفع الشباب و إشراكهم ضمن مخططات حماية البيئة من حملات توعية ،عمليات إصلاح البيئة ،دورات تدريبية ،إعلان مؤتمرات ،عمليات التشجير وغيرها من الحملات المهتمة بالبيئة.[34]

صفحة مجلة البيئة والتنمية بالفايس بوك

كذلك تم عرض صفحة المجلة على فيسبوك www.facebook.com/Afedmag التي باتت تضم بعد أقل من سنة على إطلاقها أكثر من 400 ألف متابع ويبلغ معدّل زائريها أكثر من 35 ألف شخص يومياً ، تعتبر صفحة المجلة على الفايس بوك كامتداد للموقع الالكتروني المحدّث لمجلة "البيئة التنمية" www.afedmag.com الذي بات يضم أرشيف المجلة كاملاً وهو بمثابة مرجع بيئي يضع بمتناول الطلاب والباحثين مجاناً آلاف الصفحات والمقالات البيئية التي نشرت على مدى 18 سنة ، بالإضافة إلى أخبار يومية ومقالات لكتّاب عرب وأجانب يكتبون خصيصاً لصفحة المجلة التي يتخطى عدد زوارها 80 ألفاً يومياً.[35]

5-2-التوعية البيئية كجزء أساسي من ثقافة التنمية المستدامة عبر موقع الفايسبوك

وتعد القضايا والمشكلات البيئية واحدة من المواضيع المطروحة عبر مواقع التواصل الاجتماعي وبصفة أساسية موقع الفايسبوك حيث أصبحت العديد من الجمعيات والمنظمات المحلية وكذا الدولية تنشط عبر الموقع من أجل نشر الوعي والثقافة البيئية من خلال الإحاطة بالمعلومات والأخبار البيئية والدعوة إلى المساهمة في الحملات التطوعية

لحماية البيئة والمحيط إلى جانب إدراج الصور والفيديوهات والتعليقات من أجل جذب إنتباه المستخدمين وبلورة الوعي البيئي لديهم.

وفيما يلي بعض عناوين الصفحات الخاصة بالجمعيات والمنظمات البيئية على المستوى الوطني لحماية البيئة التي اضحت تعرف التفافا من قبل الشباب بغية تحقيق ثقافة بيئية شاملة وهي:

— جمعية حماية البيئة وتهيئة الإقليم في إطار التنمية المستدامة بـ أرزيو (Apeatdd) وتضم الصفحة الخاصة بهذه الجمعية 923 مشترك ، وهي تساهم في التوعية البيئية من خلال إطلاق الحملات التحسيسية لتنظيف الأحياء وكذا الشواطئ بمنطقة وهران وضواحيها ، وهي من ضمن جمعيات المجتمع المدني ولها مقر إلى جانب نشاطها عبر موقع الفايسبوك.

— جمعية البيئة والمجتمع جيجل: وتضم الصفحة الخاصة بها 212 مشترك وشعارها

بيئتنا حياتنا وتعنى هذه الجمعية بدورها بحماية البيئة البحرية ، وكذا المناطق الحضرية والأحياء على مستوى ولاية جيجل.

— جمعية الجزائرية للتراث والبيئة وتحسين المناطق الصحراوية فرع حاسي مسعود وتضم 144 عضو ، وتهتم هذه الجمعية بحماية المناطق الصحراوية من التلوث الصناعي بفعل الشركات النفطية بالإضافة إلى حماية الثروة الحيوانية (الإبل) والطابع الجمالي للمناطق الصحراوية.

بالإضافة إلى مجموعات أخرى وصفحات لحماية البيئة على المستوى العربي و أهمها على الفايس بوك صفحة الاتحاد العربي للشباب و البيئة وهي منظمة عربية تطوعية ضمن الاتحادات الشبابية العربية التابعة لمجلس وزراء الشباب والرياضة العرب بجامعة الدول العربية تهدف مناقشة المشاكل البيئية في الوطن العربي من زاوية علمية و تحديد دور الشباب العربي في مواجهة هذه المشاكل والتصدي لها إذ تضم 2.354 شخص ، أما الصفحات العالمية فهي كثيرة التي تنادي بحماية البيئة و التي تضم تجمعا عالميا يطرح كل القضايا البيئية الشائكة في العالم أهمها صفحة منظمة السلام الأخضر .

3-5 الناشطين في مجال التنمية المستدامة عبر موقع الفايسبوك: رؤية وصفية تحليلية"

أولا: عينة من الناشطين في مجال الإعلام البيئي والتنمية المستدامة عبر موقع الفايسبوك

اسم الصفحة أو المجموعة	النوع	عدد الفاعلين	الرابط
إعلام بيئي	صفحة بيئية	1142	https://www.facebook.com/a3lam.be2e/info/?tab=page_info
إعلام بيئي	صفحة بيئية	86	**https://www.facebook.com/nonna.nermo.982?fref=ts**
إعلام بيئي المنوفية	صفحة بيئية	50	https://www.facebook.com/pr.menofiauniversity
مادة توعوية بيئية الجامعة الهاشمية 2	مجموعة	384	https://www.facebook.com/groups/350546461816566/
إعلام وتوعية بيئية ديالي	صفحة	439	https://www.facebook.com/sami.abd.7399?fref=tshttps://www.facebook.com/sami.abd.7399?fref=ts
Développement durable	صفحة	10927	https://www.facebook.com/pages/D%C3%A9veloppement-durable/104001926303150?fref=ts
Maroc Sciences Developpement Durable	صفحة	4969	https://www.facebook.com/MS2D.Maroc?fref=ts
Sciences et Développement Durable	صفحة	350	https://www.facebook.com/Maroc.MS2D/?fref=ts
Environnement et développement durable -Algérie	صفحة	4423	https://www.facebook.com/mascara.eco/?fref=ts
تنمية مستدامة	مجموعة	15	https://www.facebook.com/groups/159143827485467/?fref=ts
شباب أفوار من اجل تنمية مستدامة	مجموعة	229	https://www.facebook.com/groups/1095224170489512/?fref=ts
جمعية مواطنة وتنمية مستدامة	مجموعة	581	https://www.facebook.com/groups/192402350933327/
الأرض الخضراء جمعية خيرية بيئية	مجموعة	127	https://www.facebook.com/groups/486649704678629/?fref=ts
جمعية أصدقاء البيئة والتنمية	صفحة	-	https://www.facebook.com/65420344648330
جمعية الأمل للمحافظة على البيئة	صفحة	-	https://www.facebook.com/9920080041
جمعية حماية البيئة قالمة	صفحة	-	https://www.facebook.com/profile.php?id1000216659900&fref:ts
جمعية البيئة من أجل التنمية المستدامة	مجموعة	-	https://www.facebook.com294551491726/?fref:ts.
جمعية شباب وبيئة للألفية الثالثة	مجموعة	1256	https://www.facebook.com/groups/486649704678629/

ثانيا: عينة من الناشطين في مجال التربية البيئية

اسم الصفحة أو المجموعة	النوع	عدد الفاعلين	الرابط
التربية البيئية المستدامة شبكة الكرك	صفحة	132	https://www.facebook.com/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A6%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D8%AA%D8%AF%D8%A7%D9%85%D8%A9-%D8%B4%D8%A8%D9%83%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%83-1637443746520782/?fref=ts
منتدى التربية البيئية والتنمية المستدامة	مجموعة	1250	**https://www.facebook.com/groups/414740601943998/**
التربية البيئية وترقية السياحة	صفحة	141	https://www.facebook.com/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%B1%D8%A8%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%A6%D9%8A%D8%A9-%D9%88%D8%AA%D8%B1%D9%82%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B3%D9%8A%D8%A7%D8%AD%D8%A9-153543991369547/
Éducation à l'environnement et au développement durable	صفحة	416	https://www.facebook.com/pages/%C3%89ducation-%C3%A0-lenvironnement-et-au-d%C3%A9veloppement-durable/103367189695520?rf=830005277052687

6-نتائج تحليل شبكة الملاحظة والمقابلة على عينة من الصفحات البيئية، والمجموعات البيئية الموضحة في الجدول أعلاه:

قمنا بإختيار عينة متكونة من خمسة صفحات بيئية ، وخمسة مجموعات بيئية من الجدول أعلاه هي "صفحة إعلام وتوعية بيئية ديالي ، صفحة ، **صفحة** Environnement et développement durable -Algérie ، صفحة جمعية حماية البيئة قالمة ، صفحة جمعية اصدقاء البيئة والتنمية ، صفحة جمعية الأمل للمحافظة على البيئة. "

أما المجموعات البيئية فهي "مجموعة شباب أفوار من أجل تنمية مستدامة "، " مجموعة جمعية مواطنة وتنمية مستدامة "، " مجموعة شباب وبيئة للألفية الثالثة "، " مجموعة منتدى التربية البيئية والتنمية المستدامة"، " مجموعة جمعية البيئة من أجل التنمية المستدامة "

بالنسبة للنتائج فكانت كما يلي:

- هناك اهتمام ملحوظ من طرف الناشطيين البيئيين عبر موقع الفايسبوك بموضوع التنمية المستدامة الإعلام البيئي والتربية البيئية ، لكن هناك تفاوت واختلاف في نسبة الاهتمامات بين متصفحي هذه الصفحات بهذه المواضيع.

- تتناول هذه الصفحات أو المجموعات مواضيع التنمية المستدامة ، الإعلام البيئي وحملات التوعية البيئية وحملات التشجير والنظافة ، مواضيع التربية البيئية والطاقات المتجددة النظيفة وأنواعها المختلفة واستخدامات الطاقة البديلة.

- تهدف المجموعات إلى إيجاد أفكار جديدة وتبادلها بين الأعضاء وطرح الآراء ووجهات النظر ومناقشتها نقاشا علميا بحتا ، فالمجال البيئي مجال ثري للمناقشة والاهتمام خصوصا من طرف المختصين البيئيين والجمعيات الناشطة في مجال حماية البيئة.

- بالنسبة للقائمين بعملية الإعلام البيئي عبر موقع الفايسبوك فهم ، المختصين في مجالات البيئة وعلم البيئية ، والإعلام البيئي والتربية البيئية

ينشط أغلب المختصين في إطار توعوي حر شخصي ، مع وجود بعض المختصين الذين ينشطون في إطار رسمي لمنظمات حكومية وغير حكومية مختصة بالبيئة ، تليها نسبة من الجمعيات البيئية ذات الطابع الوطني والمحلي والعربي ، مع وجود عدد ضئيل من الناشطيين البيئين المسؤولين عن مكاتب الدراسات البيئية ، كما تم ملاحظة ضعف الإهتمام من طرف الهيئات الحكومية لحماية البيئية عبر موقع الفايسبوك ، وضعف دور المراكز البحثية البيئية التي يغيب دورها في النشاط الإتصالي عبر موقع الفايسبوك.

فمختلف الفاعلين البيئيين في الصفحات والمجموعات البيئية هم منظمات المجتمع المدني وبشكل خاص الجمعيات البيئية ، في حين يقل دور الهيئات الرسمية لحماية البيئة عبر موقع الفايسبوك كالوزارات.

- يقل اهتمام المستخدمين العامين من الأفراد بانشغالات التوعية البيئية عبر مواقع التواصل نظرا لاستخدامها بشكل كبير لأغراض العلاقات الاجتماعية والتواصل العام بين الأفراد.

- نسبة كبيرة من الناشطيين البيئيين من خلال ملاحظة المحتويات المنشورة في الصفحات البيئية والمجموعات البيئية يمارسون أنشطة إعلامية بيئية تفاعلية تهدف إلى رفع مستوى الوعي البيئي العام لدى مستخدمي موقع الفايسبوك ، وبتحليل الرسالة الإتصالية بشكل دقيق نجد أن أغلب المضامين تندرج في إطار أهداف إعلامية بيئية بنقل أخبار عن البيئية وما لوحظ عن هذا الجانب الإعلامي غياب الرؤية التحليلة للأخبار البيئية مع طغيان الجانب الإخبا ري الإعلامي فقط.

- اغلب المعلومات البيئية عبر الصفحات البيئية ، هي تقنية غامضة نشرت بدون تبسيطها للقاري وتحليلها ، وهو من بين اسباب ضعف الإهتمام بالتفاعل مع صفحات الناشطيين البيئين.

- من خلال رصد بعض الصفحات والمجموعات البيئية أعلاه ، لاحظت أن بعض المقالات حررت بطريقة لا تراعي فنيات التحرير الصحفي ، ولا تراعي اللغة الإعلامية واللغة العلمية.

- تم ملاحظة ضعف الإهتمام بأنشطة التربية البيئية ما عدا في إطار مناسباتي وأعياد خاصة بالبيئة ، كعرض أنشطة التشجير والإحتفالات بالمناسبات البيئية ، في حين يغيب البعد التربوي البيئي بمختلف أدواته ووسائله.

- تم ملاحظة وجود عدد معتبر من المضامين البيئية الهادفة لنشر الثقافة البيئية ، بمختلف وسائلها ، تتعرض

لؤسائل حماية البيئية ، تكنولوجيات حماية البيئية ، عرض اساليب معالجة المشاكل البيئية ، الثقافة الإستهلاكية البيئية ....

- مختلف مواضيع القضايا البيئية تركز على مواضيع التلوث والنفايات ، الإحتباس الحراري ، الطاقة ، التنمية المستدامة ، مع ضعف الإهتمام بقضية التصحر وتناقص التنوع البيولوجي في حين أنه هناك مجالات مهمة تستحق التوعية والتحسيس كآليات حماية البيئية ، وتوظيف التكنولوجيا لحماية البيئية ، ومواضيع الاستهلاك الأخضر.

-من خلال المقابلة مع عينة من الناشطين البيئيين في الجدول أعلاه ، فأغلب وسائل الإتصال المستخدمة هي الوسائل التفاعلية ، من خلال إستخدام أسلوب المنشورات ، اسلوب المحادثة الإلكترونية ، نشر الفيديوهات والصور ، بشكل عام إستخدام كل وسائل الإتصال المتاحة عبر الموقع.

- من خلال إستخدام الملاحظة والمقابلة بالنسبة للتفاعلية مع صفحات الناشطين البيئيين والمجموعات البيئية ، فهي ضعيفة جدا من طرف المستخدمين بشكل عام ، حيث أن الأشخاص الذين يتفاعلون مع المواقع هم في الغالب هم من المستخدمين الذين لديهم اهتمام خاص بالبيئة ، كالمختصين البيئيين ودارسي العلوم البيئية ، والجمعيات البيئية ، ويكاد يغيب التفاعل من المستخدمين الذين لديهم استخدام عام لمواقع التواصل الاجتماعي وإن وجدت تفاعية فهي ضئيلة جدا ولا تتعدي الضغط على " إعجاب فقط" بدون نشر وبدون تعليق ، مع ملاحظة وجود درجة تفاعلية معتبرة من طرف الناشطيين البيئيين والمختصين البيئيين المنضمين لهذه الصفحات والمجموعات البيئية ، اشكال التفاعلية إجمالا تندرج في إطار " الإعجاب ، النشر ، والتعليق "..

7-بالنسبة لنتائج المقابلة كانت كمايلي

- يعتبر الفايسبوك وسيلة هامة وفاعلة للتوعية بقضايا البيئية والتنمية المستدامة إذا تم تخطيط إستراتيجية توعوية جيدة عبر هذا الموقع للإستهداف الجماهيري المناسب ، كما أنها وسيلة إعلامية مناسبة لتكوين رأ ي عام بيئي نحو قضية أو مشكلة بيئية وخير مثال كما اجابت بعض الجمعيات تم تحريك قضية الغاز الصخري في الجزائر عبر موقع الفايسبوك .
- ينظر المبحوثين أيضا للفايسبوك بأنه وسيلة هامة لنشر ثقافة التنمية المستدامة والوعي البيئي بوجود جمهور واعي ومسؤول بيئيا
- حيث أن الفايسبوك وسيلة تأثير هامة على المعارف الإتجاهات والسلوكيات البيئية.
- من بين معوقات إستخدام الفايسبوك في التوعية البيئية وفي نشر ثقافة التنمية المستدامة هي ضعف الإهتمام بالبيئة من طرف المستخدمين وقلة تفاعليتهم بالرغم مما تتيحه الوسيلة التكنولوجية " الفايسبوك من إمكانيات تفاعلية" ، فهناك عدم إهتمام بالمنشورات البيئية وحملات التوعية البيئية من طرف السواد الأعظم من المستخدمين ما عدا المختصيين والناشطيين البيئيين عبر موقع الفايسبوك وبعض المهتمين بالبيئة ، وهو ما يحد من فاعلية الإعلام البيئي الإلكتروني ، بالنسبة لهذه النقطة وفق رأي الباحث بالإستناد إلى دراسات سابقة ، فعدم الإهتمام بالبيئة قضية مطروحة ليس فقط في الفايسبوك بل حتى في وسائل الإعلام الكلاسيكية " صحافة ، إذاعة ، تلفزيون ."
- يرجع سبب عدم إقبال المستخدمين على مواضيع الوعي البيئي إلى ضعف التنشئة الإجتماعية البيئية ، بالإضافة لترتيب أولويات المستخدمين لإستخدام مواقع التواصل لأغراض التواصل الشخصي والعلاقات الإجتماعية مع الإهتمام بمضامين ترفيهية بالدرجة الأولى ، وغياب الإهتمام بالمضامين الجادة.
- أجاب المبحوثين من خلال المقابلة الإلكترونية أن الوعي البيئي في العالم الحقيقي يعاني من إختلالات كبيرة ، فمابالك بالوعي البيئي في العالم الإفتراضي ، وهو ما يستدعي إعادة بناء الوعي من اللبنة الاولى للفرد وصولا لأدوار مختلف مؤسسات التنشئة الإجتماعية للمساهمة في بناء مواطن واعي ومسؤول بيئيا ينشر رسالة حماية البيئة بكل الوسائل بما فيها الوسائل الإتصالية الحديثة.

خاتمة

في ختام هذه الورقة البحثية ما نؤكد عليه من خلال إجراء هذه الدراسة الاستطلاعية هو أن الإعلام البيئي

الإلكتروني أداة فعالة في تحقيق التنمية المستدامة ، فشبكات التواصل الإجتماعي وسائط فائقة متعددة الاستخدامات والتأثيرات ، خصوصا إذا ما تم استخدامها لخدمة مجالات متخصصة بالتنمية المستدامة ، فالبيئة والوعي البيئي الركيزة الأولى لتحقيق تنمية مستدامة ويمكن الاستدلال بالتجربة الماليزية في تحقيق التنمية في الستينات حيث كانت محاور الإستراتيجية التنموية تستهدف تغيير سلوك الإنسان تجاه بيئته واحترام الوطن سيكون ضرورة حتمية لتحقيق التنمية الشاملة المستدامة ، هذه الدراسة الاستطلاعية وضحت الملامح العامة لمفهوم الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسسبوك ، من خلال تقديم جملة من النماذج التي خلصنا من خلالها للنتائج التالية:

- تنامي الاهتمام بموضوع البيئة من طرف الناشطين البيئيين في عبر موقع الفايسبوك ، حيث يعتبر وسيلة هامة للناشطين البيئيين ، غير أن هذا الاهتمام لا يزال ضئيل حيث تم رصد عدد قليل من المختصين البيئيين عبر الموقع ، وجميعات بيئية قليلة ، ونسبة ضئيلة من الصفحات البيئية الإلكترونية ذات الطابع الرسمي الحكومي.
- بالنسبة للقائمين بعملية الإعلام البيئي عبر موقع الفايسبوك فهم ، المختصين في مجالات البيئة وعلم البيئية ، والإعلام البيئي والتربية البيئية ينشط أغلب المختصين في إطار توعوي حر شخصي ، مع وجود بعض المختصين الذين ينشطون في إطار رسمي لمنظمات حكومية وغير حكومية مختصة بالبيئة ، تليها نسبة من الجمعيات البيئية ذات الطابع الوطني والمحلي والعربي ، مع وجود عدد ضئيل من الناشطيين البيئين المسؤولين عن مكاتب الدراسات البيئية ، كما تم ملاحظة ضعف الإهتمام من طرف الهيئات الحكومية لحماية البيئية عبر موقع الفايسبوك ، وضعف دور المراكز البحثية البيئية التي يغيب دورها في النشاط الإتصالي عبر موقع الفايسبوك .
- —الإعلام البيئي الإلكتروني عبر موقع الفايسبوك كوسيلة لتحقيق التنمية لا يزال يفتقد للكادر الإعلامي المتخصص والمتمرس والمؤهل في الإعلام البيئي ، من خلال بناء إستراتيجية إتصالية بيئية قادرة على الإستهداف الجيد للمستخدمين
- يرجع سبب عدم إقبال المستخدمين بشكل كبير على مواضيع الوعي البيئي إلى ضعف التنشئة الإجتماعية البيئية ، بالإضافة لترتيب أولويات المستخدمين لإستخدام مواقع التواصل لأغراض التواصل الشخصي والعلاقات الإجتماعية مع الإهتمام بمضامين ترفيهية بالدرجة الأولى ، وغياب الإهتمام بالمضامين الجادة.
- يقل اهتمام المستخدمين العامين من الأفراد بانشغالات التوعية البيئية عبر مواقع التواصل نظرا لاستخدامها بشكل كبير لأغراض العلاقات الاجتماعية والتواصل العام بين الأفراد.
- نسبة كبيرة من الناشطيين البيئيين من خلال ملاحظة المحتويات المنشورة في الصفحات البيئية والمجموعات البيئية يمارسون أنشطة إعلامية بيئية تفاعلية تهدف إلى رفع مستوى الوعي البيئي العام لدى مستخدمي موقع الفايسبوك ، وبتحليل الرسالة الإتصالية بشكل دقيق نجد أن أغلب المضامين تندرج في إطار أهداف إعلامية بيئية بنقل أخبار عن البيئية وما لوحظ هو غياب الرؤية التحليلة للأخبار البيئية.

"بشكل عام الإعلام البيئي كمجال إعلامي إستراتيجي ما زال في مرحلته الجنينية يعاني من غياب إستراتيجية إعلامية بيئية وما زال إعلام مناسبات يبرز عند ظهور المشاكل والأزمات البيئية وخلال المناسبات كالاحتفال باليوم الوطني أو اليوم العالمي للبيئة ثم يختفي لأجل غير مسمى في ظل هذا الزخم من المشاكل نلاحظ كذلك عدم تحديد أولويات مجالات الرسالة الإعلامية ، الإعلام البيئي الإلكتروني يعاني كذلك من نقص الميزانية وضعف الإمكانيات والوسائل المادية والبشرية على حد سواء وهذا راجع بالدرجة الأولى إلى غياب الوعي البيئي في المجتمع انطلاقا من رجل الشارع إلى صانع القرار ، من المشاكل التي يعاني منها الإعلام البيئي كذلك غياب منهاج إعلامي واضح للتعامل مع القضايا البيئية" .[36]

ملحق-1-شبكة ملاحظة لعينة من الصفحات والمجموعات البيئية عبر موقع الفايسبوك

الناشطين البيئيين بموقع الفايسبوك في الجزائر "ملاحظة إستطلاعية "

متخصصين في مجالات علم البيئة " أساتذة ، طلبة"	جمعيات بيئية محلية ووطنية	مكاتب للدراسات البيئية	مواطنين مهتمين بالبيئة	مراكز بحثية	هيئات رسمية حكومية لحماية البيئية "الوزارة ومديريات البيئة"
✓	✓	✓	✓		

الناشطين البيئيين يشاركون في تحقيق التوعية البيئية بموقع الفايسبوك في الجزائر من خلال:

بتكوين مجموعة بيئية	إنشاء صفحات بيئية توعوية	إنشاء حساب تواصل بيئي عبر موقع الفايسبوك	التواصل مع المهتمين البيئيين والمشاركة معهم	الترابط بين مجموعة بيئية ومجموعات بيئية أخرى	التواصل مع المختصين وغير المختصين لتعميم التوعية
	✓	✓	✓		✓

التوجهات البيئية للناشطين البيئيين

1 الإعلام البيئي

أخبار بيئية			دراسات علمية بيئية	تقارير بيئية			إتفاقيات بيئية	قوانين وتشريعات بيئية	مؤتمرات بيئية	إعلانات بيئية	تحقيقات بيئية
محلية	وطنية	عالمية		محلية	وطنية	عالمية					
✓	✓	✓				✓	✓	✓	✓		

2-التربية البيئية

المناهج المدرسية	الأنشطة البيئية	البستنة	المسابقات	حملات التشجير	النوادي البيئية	الرحلات	الرسكلة
	✓	✓	✓	✓	✓	✓	✓

3-الثقافة البيئية

وسائل حماية البيئة	المشاكل البيئية	قوانين وتشريعات	المستجدات البيئية	تكنولوجيات حماية البيئة	السلوك الإستهلاكي البيئي
✓	✓	✓	✓	✓	✓

مواضيع التحسيس البيئي

التلوث	النفايات	الطاقة	الإستهلاك	التنمية المستدامة	الإحتباس الحراري	التصحر	إزالة الغابات	التنوع البيولوجي
✓	✓	✓			✓		✓	✓

وسائل الإتصال المستخدمة في نقل الرسالة البيئية عبر موقع الفايسبوك

منشورات كتابية	محادثة إلكترونية	وسائل سمعية	وسائل سمعية بصرية	صور	وسائط متعددة	إستخدام كل وسائط الإتصال
✓	✓	✓	✓	✓	✓	

الهوامش

1. علي عبد الفتاح كنعان: الإعلام البيئي ، دار اليازوري ، ط1 ، 2014 ، الأردن ، ص ص 114 ، 115
2. صالح خليل أبو إصبع: إستراتيجيات الإتصال وسياساته وتأثيراته ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2005 ، الأردن ، ص ص1، 20
3. محمد إبراهيم خاطر: الإعلام والتوعية البيئية ، دار اسامة ، ط1 ، 2016 ، عمان ، الأردن ، ص57.
4. DMR,Amazing facebook statistics , january 2016,article publiched on the site web : http://expandedramblings.com/index.php/by-the-numbers-17-amazing-facebook-stats/see it on 6-4-2016 at time18.29.m
5. Free Social Media Statistics, article publiched on the site web http://www.socialbakers.com/statistics/facebook, see the web site on 6-4-2016 at time 18.37 m/
6. أحمد بن مرسلي: مناهج البحث في علوم الإعلام والاتصال ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط2، 005 ، ص286.
7. Jean Claude JAVEAU, L'enquête par questionnaire, troisième édition, les éditions d'organisation, Paris, France, 1985, p 40.
8. علي عجوة: الإعلام وقضايا التنمية ، ط1 ، القاهرة ، عالم الكتب ، 2004 ، ص12
9. سناء محمد الجبور: الإعلام البيئي ، دار أسامة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2011 ، الأردن ، ص 12.
10. د ، محمد قيراط: تشكيل الوعي الاجتماعي ، دور وسائل الإعلام في بناء الواقع وصناعة الرأي العام ، مكتبة الفلاح للنشر ، ط1، 007 ، الكويت ،
11. رضوان سلامن: الإعلام البيئي ودوره في إدارة الكوارث الطبيعية ، مجلة العلوم الإنسانية جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد 24 ، مارس 2012 ، ص99
12. مروى عصام صلاح: الإعلام الإلكتروني ، الأسس وأفاق المستقبل ، دار الإعصار العلمي ، ط1 ، 2015 ، ص 148.
13. قينان عبد الله الغامدي: التوافق والتنافر بين الإعلام التقليدي والإعلام الإلكتروني ، ورقة بحثية مقدمة لندوة ، الإعلام والأمن الإلكتروني ، جامعة الأمير نايف العربية للعلوم الأمنية ، ماي 2012 ، ص7.
14. الباحثة
15. Thierry Libaert : le plan de communication, définir et organizer votre stratégie de communication, Dunod,3 éme, édition , paris, 2008,page13.
16. محمد السيد حلاوة: العلاقات الإجتماعية للشباب بين دردشة الأنترنيت والفيس بوك ، ط1 ، 2011 ، الإسكندرية ، مصر ، ص 113
17. عباس مصطفى صادق: الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات ، عمان ، دار الشروق ، ص ص 18 ، 20.
18. Marcel Denisi dictionary of media and communication ,M E sharpe .New York.2009, p118
19. الصحافة الإلكترونية ، بحوث وأوراق عمل ملتقة الصحافة الإلكترونية "مستقبل وسائل الإعلام في العصر الرقمي" القاهرة ، مصر ، 2010 ، ص ص 0، 11
20. 19 James Grimmelmann : Facebook and the Social Dynamics of Privacy, August 25, 2008,page4: http://www.ciberdemocracia.net/recursos/textosrelevantes/facebook.pdf, day 2-2-2015. Time 15:11
21. أمال مهري: التوجه من الإعلام البيئي إلى الاتصال المسؤول في إطار التنمية المستدامة لدى المؤسسة الاقتصادية ، مجلة العلوم الاجتماعية ، سطيف ، العدد 19 ديسمبر 2014 ، ص 251.
22. نهى الخطيب ، اقتصاديات البيئة والتنمية ، مركز دراسات واستشارات الإدارة ، 2000 ، ص220
23. ف. دوجلاس موسشيت ، مبادئ التنمية المستدامة ، ترجمة بهاء شاهين ، ط1 ، مصر: الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، 2000 ، ص 17.
24. مبارك بوعشة ، التنمية المستدامة ؛ مقاربة اقتصادية في إشكالية المفاهيم ، المؤتمر العلمي الدولي حول التنمية المستدامة والكفاءة الاستخدامية للموارد المتاحة ، جامعة فرحات عباس ،يومي 07/08 أفريل 2008.ص
25. Audrey Aknim et autre : Environnement et dévellopement durable ?quelleques réflescions autour du concept de développement durable, article paru dans l'ouvrage : dévellopement durable, www.gemdev.org/recherche/groupe3/g3-cr-archive/article-dvdurable.pdf p51 -
26. Mathieu Baudin : le developpemant durable ? nouvelle idéologié du xxI^e siecle ?edition l'Harmattan ,2009,paris ,page 18
27. علي عبد الفتاح كنعان: مرجع سبق ذكره ، ص 85.
28. زينة بوسالم: الإعلام البيئي ومشكلات البيئة ، ورقة بحثية منشورة ضمن كتاب فعاليات الملتقى الوطني "البيئة والمجتمع ، مخبر علم إجتماع الترجمة ، جامعة منتوري قسنطينة ، 2011 ، ص08، 207
29. راتب السعود: راتب السعود: الإنسان والبيئة-دراسة في التربية البيئية ، دار الحامد ، ط2 ، 2007 ، ص257
30. محي الدين إسماعيل محمد: الإعلام البيئي ، مكتبة الوفاء القانونية ، ط1 ، 2014 ، الإسكندرية - ، ص ص ،07 ، 108
31. محمد إبراهيم خاطر: الإعلام والتوعية البيئية ، دار اسامة للنشر والتوزيع ، ط1 ، 2016 عمان ، الأردن ، ص ص77 ، 78
32. عبد اللطيف بن ديبان العوفي: حملات التوعية الإعلامية — الأسس النظرية والإجراءات التطبيقية-النشر العلمي والمطابع جامعة الملك سعود ، دط ، 2012 ، الرياض ، ص ص247 ،48.

33. ليلى حسن السيد: تأثير الإعلانات التجارية بموقع الفيس بوك على السلوك الشرائي للشباب المصري ، مداخلة مقدمة ضمن فعاليات الملتقى الدولي تكنولوجيا الاتصال والمعلوماتية في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجزائر 2 ، يومي 19-20 ماي 2014 ، بقصر الثقافة مفدي زكرياء الجزائر ، ص ص24، 123.

34. https://www.facebook.com/eco.palestine?ref_type=bookmark

35. موقع مجلة البيئة والتنمية اللبنانية 26-6--2015 http://www.afedmag.com/web/akhbar-albia-details.aspx?id=1207-

36. محمد قيراط: تشكيل الوعي الإجتماعي دور وسائل الإعلام في بناء الواقع وصناعة الراي العام ، مكتبة الفلاح للنشر ، ط1، 007 ، الكويت ، ص188

أنساق الحـــــوار في ثلاثية عبد القادر علولة

أسماء غجاتي*

الملخّص

يعتبر الحوار أحد الأجهزة السيميوطيقية للنص المسرحي. وإنّ تشكيل أي خطاب مسرحي يستدعي إبراز هذا المستوى من خلال أنساقه التي تتمظهر من خلالها خصائص التنغيم والنبر والصوتيات ...

وقد جاء الحوار في مسرح عبد القادر علولة منوّعا غير خاضع لنمطية خاصة ، رغم أنّ الطابع السردي هو الإطار العام له ، حيث نجده –أحيانا-يستغرق وقتا طويلا ، فيأتي في شكل مناجاة وأحيانا أخرى في شكله العادي بتقابل إرادتين ، وقد يخرج تماما عن هذه الأشكال.

الكلمات المفاتيح: الحوار ، التحقيق ، المونولوغ ، السرد ، النص المسرحي.

Résume

Le dialogue est considéré comme l'un des outils sémiotiques du texte scénique et l'élaboration de tout discours théâtral nécessite la mise en œuvre de ce niveau, à travers des entraînements lesquels se manifestent par les couleurs, les tons et les sonorités.

Dans le théâtre d'Abdelkader ALLOULA, le dialogue est varié et n'obéit à aucun modèle spécifique, en dépit du fait que le caractère narratif constitue son cadre général. Nous l'observons, des fois, occuper un temps assez long et prendre l'aspect de conversation confidentielle ; d'autres fois dans son aspect ordinaire par la rencontre de deux volontés, comme il lui arrive également de sortir complètement de ces formes

Mots-clés : Interrogatoire, Monologue, Narration, Texte théâtral

Summary

The dialogue is considered as one of semiotic tools of a play and the development of any stage speech requires the implement of this level, through its trainings, which appear via colors, tones and sounds.

In Abdelkader ALLOULA's play, the dialogue is varies and does not follow any specific model, even if the narrative character constitutes its general framework, so that we notice sometimes that it occupies more time and takes the confidential conversation aspect , and other times we notice it is in its ordinary aspect by meeting two aims, as it may come out totally of those forms.

Key words: interrogation, Monologue, narration, stage text

* طالب دكتوراة، أستاذ مساعد أ، جامعة محمد بوضياف المسيلة.

" إذا ذكرت المسرحية ذكرت معها الحوار... ذلك أن الحوار هو أداة مسرحية فهو الذي يعرض الحوادث ويخلق الأشخاص ، ويقيم المسرحية من مبدئها إلى ختامها"[1] ، ويبدو ذلك طبيعيا باعتبار المهمة المسندة إليه في الواقع اليومي ، فهو مادة الاتصال والتواصل.

ولكن هذا لا يعني نقل الحوار اليومي العادي بكل ما يحمل من ضعف في السياق وتكرار في الألفاظ إلى المسرح ، كما أن العملية لا تعني إنشاء خطاب رفيع لا يتماشى ومقتضيات العمل المسرحي ، ولكن العمل أدق من هذا ، ففيها اختيار وترتيب وحذف وصياغة على أسس موضوعية ، حيث إن " هم الكاتب المسرحي أن يضع في فم كل بطل من أبطال عمله ، الكلام الذي يناسب طبعه وموقفه ووضعه ، ومختلف الظروف التي تتجاذبه في المسرحية من كل جانب".[2]

والحوار في المسرح أداة يتعدى نطاق الاتصال من خلالها بين الممثلين ليكون الجمهور أيضا من بين المستقبلين له ، حيث ترسل الشخصية حوارها لشخصية أخرى (شركاؤها في التمثيل) في الوقت نفسه الذي يرسله للجمهور ، وتعتبر هذه النقطة من أهم الاختلافات بين الحوار المسرحي والحوار اليومي ، وما تسميع المناجاة الداخلية من طرف الشخصيات للجمهور إلا دليل على هذا المبدأ.

والحوار في المسرح لا يعمل على أنه حوار مكتوب للأدب الدرامي فقط ، ولكن هو حوار منطوق شفاهي له صفة الزوال السريع ، لكن بعد أن يكون قد أعطى للمتفرج مضمون رسالته من خلال " تحديد الشخصية والمكان والفعل".[3]

وعلى العموم فإن " الحوار يتركب من كلمات ومقاطع وعبارات يضعها المؤلف ، ويحملها أفكاره ، آراءه ، وكل ما يريد توصيله لجماهيره"[4] ، وتتضام وتتراكب هذه العبارات في مسرحيات عبد القادر علولة ضمن مجموعة من الأنساق المختلفة ، إذ يمكن أن نجد الصورة الأكثر شيوعا ، وهي صورة تبادل عبارة بعبارة أخرى بين شخصيتين ، أي أن شخصية توجه الحديث لشخصية أخرى ، هذه الأخيرة تستمع إليها وتجيب بدورها لتكون في دور المتكلم.

ووفق هذا يمكن أن يأخذ هذا النسق شكل واسم التحقيق ، كما يمكن أن نجد نسقا آخر وهو المونولغ ، إلى جانب نسق ثالث يمكن ضمنه إلى هذين النسقين وهو السرد.

وهذا لا يعني الفصل بين هذه الأنساق ، بل يبقى تقسيما شكليا ، ذلك أن السرد قد يرد في صيغة مونولوغ أو تحقيق ، كما أن هذا الأخير يمكن أن يكون في شكل سرد ، والسياق العام هو الذي يفيد في معرفة أنساق الحوار هذه ، مع التأكيد على أن " إذا جمع الحوار بين أكثر من نسق ، من هذه الأنساق ، فإنه يضمن فعلا مسرحيا ناجحا من وجهة نظر المتفرج. إذ تصبح "مشاهدته" أكثر متعة".[5]

أ-التحقيق

إلى جانب أنه يمثل نوعا من التقابل بين شخصيتين ، فإنه مسرحيا يعني " قسمة انتباه المتفرج على اثنين ، بحيث يكون الانتباه منصبا على المباراة التي يلعبها الممثلون بالانفعالات والأداء وحركة الممثل".[6]

ونجد لهذا النسق مجالا واسعا من الحوار في مسرحيات عبد القادر علولة ، ففيها مواضع كثيرة يتحقق المعنى المباشر لهذا النسق ، والمبني على تدفق السؤال والجواب مما يشبه نوعا من المحاكمة: ففي مسرحية «الأجواد» من خلال لوحة الربوحي الحبيب ، الذي أراد إخراج حديقة الحيوانات من الوضع المتردي الذي آلت إليه ، وذلك بتضامن الكثير من أبناء الحي الشباب منهم خاصة ، انطلاقا من فكرة أن الحديقة ملك لهم ، وقد كان ذلك بطريقة سرية ، لكن يفاجأ بدخول حارس الحديقة عليه ليكون التحقيق التالي:

" العساس: طلع يديك للسماء قلت لك... وين هي الصفارة تاع الهم... وين هي بنت الكلب.

الحبيب: السي محمد اهمد واسمع لكلامي... إذا صفرت واللا رميت الخيزران علي راهم يهجموا هذا الكلاب وهذا القطط واللي مرافقيني[...]

صدقني حط الخيزران... قرب غير بالعقل ما تخافش يا السي محمد نتفاهموا.

العساس: ماكان حتى مفاهمة... واش راك حامل معاك

الحبيب: تفضل بحدايا نوريك... قرب قرب يا السي محمد [...]

العساس: هندي ياه ؟ ... اتمسخر... اتمسخر... درك ما يطولوش ويوصلوا رجال الدرك والشرطة... استنى تشوف...

الهندي!!...درك تشوف الباكور اللي غادي تاكله... الدنجال ؟ الركلة والصفعة.

الحبيب: هيا نبقى هكذا نستنى في رجال الدرك والشرطة ويديا للسماء ؟ [...]

الحبيب: حط مطرقك وقرب لي نتكلموا بالعقل ونتفاهموا.

العساس: نعام باغي تخدمني راك غالط... السي الهاشمي اللي واقف قبالتك ما ينباع ما ينشرى... واذا تحتك "الدوفيز" غير ماكان لاه تغويني... اتجعد.

الحبيب: أنا ما وجه "الدوفيز" يا السي الهاشمي واش ادانا لهذا الكلام.

العساس: أحكي... أحكي... أنت جاسوس... نعم جاسوس ما فيها شك هكذا رآها ظاهرة القضية... جاسوس مخرب خدام لفائدة الامبريالية [...]

الحبيب: اترزن يا السي الهاشمي واش ادانا للامبريالية أنا خدام مثلك في البلدية... حداد فيها واسمي الربوحي الحبيب.

العساس: الربوحي الحبيب... الربوحي الحبيب زيد اسمع عندهم الحق جاسوس... الربوحي الحبيب سيدك... أما أنت... اتجعد [...].

العساس: اسكت... اتجعد... زيد... واش بغيت تقول ؟

الحبيب: أنا هو الحبيب الربوحي يا السي الهاشمي... [...]".[7]

من خلال هذا المقطع تتبين طبيعة التحقيق المسرحية ، حيث نلتمس سرعة في أداء الممثلين ونبرة أداء كل من السؤال والجواب ، وحتى مكان كل شخصية بالنسبة للأخرى في الفضاء المسرحي.

إن طرقة الأسئلة والأجوبة في حوار شخصيات عبد القادر علولة هنا لا تأخذ اتجاها من أعلى إلى أسفل ، أي من السلطة إلى العامل البسيط ، ولكن يمكن أن تأخذ قراءة هذا الحوار أكثر من شكل من خلال تحديد السرعة ، الحركة والنبرة ، فالشخصيات في حقيقتها تنتمي إلى نفس المستوى أي إلى نفس الطبقة: الحارس والحداد ، وهذا ما يمكن أن يكسر أفق التوقع لدى المتلقي ، بحيث يتجه الحوار في الأخير إلى منحى آخر غير الذي كان في البداية ، ويمكن استخلاص من العناصر المسرحية من خلال دلالة التحقيق كالتالي:

		الحارس	الربوحي الحبيب
قبل التعرف على هوية الربوحي الحبيب	سرعة الأداء العلاقة المكانية نبرة الأداء	سريعة هجوم مرتبكة	عادية ثبات دفاعية
بعد التعارف	سرعة الأداء العلاقة المكانية نبرة الأداء	عادية تعايش إنسانية	/ / /

وفي مسرحية «اللثام» نجد نوعا آخر من التحقيق ، فهو موجه من السلطة (مفتش الشرطة) إلى العامل الضعف (برهوم) ، وهو يتضمن مفارقة واضحة حين يتم التحقيق مع (الضحية) وليس (المتهم) ، فبرهوم سعى إلى مركز الشرطة لتقديم شكوى ، عن الضرر الذي لحق به ، لكن في الوقت نفسه تكون قد أرسلت إليه الشرطة باستدعاء للحضور ، متهمة إياه بالتشويش والتخريب والدعوة إلى الإضراب وتوزيع منشورات سرية وغيرها ، مما يؤدي إلى نتيجة حتمية تتعلق بمصير برهوم وهو السجن:

" المفتش: أنت ولد أيوب ؟ ...

برهوم: نعم

الشرطي الأول: برهوم... قضية البرمة اللي خونها وطيبوا بيها... مصنع الورق.

الشرطي الثاني: ايه... برهوم... هذا هو برهوم ؟ ... من العينين عرفته.

المفتش: بعتنا لك استدعاء للدار... اليوم الصبح... ياك اليوم خرجت من المستشفى ؟ ...

برهوم: نعم... ربما كنت خرجت من الدار لما وصلت.

المفتش: بعدما خرجت من الدار وين مشيت ؟

برهوم: قطعت البلاد ومشيت ندور شوية في الخردة قلت [...]

المفتش: لقاء سري عملية جديدة... كانش إضراب...

برهوم: لقاء سري ؟ ... اضراب ؟ ... اسمح لي راك تسأل فيا وأنا مزال ما تكلمت.... خليني نشتكي ومن بعد أسأل.

المفتش: السي برهوم صاحب البرمة راه بحت مفتوح عليك وأنا المسؤول... المكلف بالبحث هذا... الاستدعاء أنا اللي بعتها لك للدار... جواز السفر...؟

برهوم: جواز السفر ما عنديش ما نيش فاهم هذ القضية.

المفتش: دورك تفهم... شحال تلبس في الصباط ؟

برهوم: 43 في شتاء و42 في الصيف 43 كذلك منين نخرج من الحمام [...]

المفتش: علاقتك بالنقابة ؟

المفتش: نشاطك السياسي كيفاش ؟

برهوم: فقير مثل حالتي... أخيرا انتخبت على نواب ما نعرفهمش انتخبت عليهم زهر".[8]

ويستمر التحقيق ، كما يكمل القوال سرد وقائعه ، بحيث أنه يحمل كثيرا من المراوغة: «القوال: [...] يسأل فيه على العمال المصنع والبرمة ويسأل فيه كذلك على أشياء خارجة الموضوع ، باش يتلف له الطريق...".[9]

يمكن أن نلاحظ أن التهم ثابتة وموضوعة دون أي أساس صحيح أو منطقي ، مما يعكس جانبا من سلبيات جهاز الشرطة ، حين أصبح المواطن الضحية متهما ، وحين أصبح العمل التصحيحي تخريبا ، وحين أصبح أي حديث عن تغيير الواقع المتردي تشويشا سياسة وتدخلا في الحكم.

ويمكن أن نصل إلى قراءات عدة للعناصر المسرحية لهذا التحقيق:

نلمس نوعا من التوازن بين النبرتين من خلال السؤال والجواب ، خاصة حين يكون مستوى المراوغة في السؤال بنفس طريقة الجواب التي تحمل نوعا من التهكم من طرف برهوم ، كالجملة الدالة التالية: " المفتش: دورك نفهم... شحال تلبس في الصباط ؟

برهوم: 43 في شتاء و 42 في الصيف 43 كذلك منين تخرج من الحمام".

وهذا راجع إلى كون برهوم لا يعلم بأنه في موقع المتهم ، فيظهر أنه في موضع المحاصَر ، بينما يأخذ المفتش صفة المهاجم ويبرز هذه الرؤية جمل برهوم:

" لقاء سري ؟... اضراب... اسمح لي راك تسأل فيا وأنا مزال ما تكلمت... خليني... خليني نشتكي ومن بعد أسأل/ جواز السفر ما عنديش ما نيش فاهم هذ القضية".

وبالنسبة لحيز التحقيق الزماني فيكون قصيرا اطلاقا من سرعة الأداء الناتجة عن طبيعة التحقيق البوليسي.

كما يمكن أن نجد وفق رؤية أخرى أن نبرة برهوم تحمل كثيرا من الجزع والبراءة ، بينما تكون نبرة المحقق قوية ، وجملة المفتش " أنا اللي راني نسأل" يمكن أن تشير إلى ذلك.

وإذا نظرنا إلى طبيعة الأسئلة في حد ذاتها مثلا: " فمك كمال.../ تصلي ؟..." ، وغيرها كثير تم إتمام سرده من طرف القوال مثلا: " إذا يأمن في السحور وإذا مرته الشريفة تشري الحنة الورقية واللا المدقوقة..." ، فنستطيع أن نتوقع زيادة انفعال المفتش خاصة عند مواجهته بنفس السؤال الذي طرحه والمتعلق (بالصلاة) لأنه يوقعه في حرج ، وبالتالي فهي تعكس زيف التحقيق الذي كانت نتيجته ظالمة لبرهوم.

وفي موضع آخر يحمل التحقيق كثيرا من الرموز الاجتماعية بين برهوم ، زوجته ، السي خليفة وعدد من الذين يعيش معهم برهوم في المقبرة ، والهدف منه هو تبين موقف برهوم من الحالة الجديدة التي آل إليها: " السي خليفة: استنى... كيفاش داير برنامجكم ؟

برهوم: حافرين أنفاق... غيران... يخرجوا من المدافن للقنطرة اللي من ورى المقبرة... نخرجوا عند الواد ومن الواد ناخذوا الطرق حتى لشط البحر.

السي خليفة: وإذا جابوا الكلاب معاهم ؟

برهوم: يباتوا في الجبانة قاع الليل وهما ينبشوا في الرخام.

السي خليفة: عاد وين راني نفهم... اعطيتني البرهان... في "الفيتنام"[10] "وأيضا في:

" الشريفة: قول برهوم واش ناوي تدير ؟

برهوم: ما نطولش هنا...

الشريفة: علاش باغيين تزيدوا اتقعدوا...؟ درك يسمعوا بيكم رجال الشرطة ويهجموا عليكم.

مسلكة الأيام: ما نطولش ونقفوا التجربة

السي خليفة: هذي غير تجربة ؟

برهوم: نعم... هذا الناس كانوا عايشين شهر في كوخ شهر في حمام شهر تحت الباش وشهر في القزدير... بغاوا أيبدلوا في نفس الوقت يستقروا شوية... في الحق بغاوا يجربوا كل واحد حسب مصايبه... أنا... أنا باش نوجد من جديد الثيقة في نفسي. نوجد القوة الفكرية اللي تسمحلي نشبط مرة

ثانية في الحياة... نلصق في الحياة ، نتغلب على الإهانة اللي سكنتني ونوجد كرامتي من جديد... هذا التجربة بينت لي باللي الانسان حامل معاه محيط... بحر واسع م الطقات و ... مهما كانت الظروف ولو اهبط إلى أسفل الوجود قادر يوجد فتحة... يوجد حل ويصعد من جديد... قادر يصبح لا يُؤْخَذ".[11]

فتغير موقف برهوم بين أول المسرحية وآخرها واضح ، إذ انتقل من حالة الارتباك و التهرب إلى حالة الثبات والتحدي ، ولو أنه يؤخذ عليه طريقة التوجه السري للتغيير.

ولنا أن نتوقع تغير نبرة أدائه من المرتبكة إلى المدافعة المعترضة ، وسرعة أدائه من السريعة إلى العادية ، وهو ما يفسر طول المقطع الأخير لبرهوم نوعا ما.

وفي لوحة عكلي ومنور يكون التحقيق بين المعلمة والمنور بطريقة أخرى تماما ، فهو يتعلق بشخص ثالث هو عكلي ، فبينما تتكلم المعلمة عن أعضاء هيكله العظمي ، يلحقه المنور بحديث عن صاحب هذا الهيكل ملبسا إياه لحمه وأفكاره ، في شكل إجابة ضمنية عن سؤال ضمني غير مباشر من طرف المعلمة ، وهنا يتحد نسقان من الحوار هما التحقيق والسرد.

إلى جانب أن جواب المنور يكون استكمالا لدرس المعلمة في جانبه العلمي كما هو الحال في:

" المعلمة: 2-الساعد: فيه عظمان هما:

المنور: الزهد من الخلف والكعبرة من الأمام.

المعلمة: 3- اليد تتألف من ثلاثة أقسام.

المنور: المعصم: فيه ثمن عظام قصيرة.

المعلمة: المشط.

المنور: فيه خمس عظام طويلة...".[12]

ويتحقق هنا تبادل للأدوار في تقديم درس العلوم بين المعلمة والمنور ، وبالتالي يفترض أن يكونا في مواجهة التلاميذ الذين يكون موضعهم بنفس ترتيب الجمهور مما يعني أن الخطاب موجه للجميع.

وفي لوحة جلول الفهايمي من مسرحية « الأجواد » يتحقق تجمع الأنساق الثلاثة للحوار: التحقيق ، المونولوغ ، السرد.

فالمونولوغ يفضح من خلاله جلول سلبيات تسيير قطاع الصحة في الجزائر في الوقت الذي يقوم فيه بالجري ، ونجد تضمنا للسرد في هذا الشكل من الحوار ، حين يحكي عن تجاوزات المسؤولين ، ويبرز بصفة واضحة في آخر اللوحة حين يسرد أسباب غضبه التي جعلته يتصرف هذا التصرف (الجري).

ويُتوقع أن تكون سرعة آدائه بين السريعة المتدفقة ، والعادية ، كما تكون نبرة الأداء اعتراضية تحمل نوعا من السخرية.

أما بالنسبة للتحقيق والسرد: فيكون من طرف بعض عمال المستشفى من زملاء جلول الممرضين ، الذين يتبادلون الأسئلة والأجوبة ، لتبين سبب حالة الغضب التي آل إليها جلول ، في الوقت الذي يقومون فيه بسرد مواقفه النضالية في المستشفى ، والتي كانت ضد وسوء التسيير.

وتختلف نبرة الأداء وسرعته والمواقع المكانية بحسب طبيعة رد فعل كل شخصية إزاء هذا الموقف ، على أن السمة العامة هي التعاطف مع جلول من طرف زملائه.

وفي مسرحية « الأقوال » نكون أمام نوع آخر من التحقيق ، يتعلق بمقطع قدور السواق الطويل من خلال حديثه (المفترض) مع صديقه المدير السي ناصر ، و هو في شكل مونولوغ - المكون الأساسي لهذا المقطع - ، فيمكن أن نستنتج اتحاد نسقا التحقيق والمونولوغ ، كما نستطيع أن نستنتج نبرة الأداء وسرعته حسب المواقف الدرامية التي تقع فيها الشخصية ، وكذا حركتها (المواقع المكانية) ، ولو أن ذلك يبدو من قبيل التخيل لأن قدور في حالة مونولوجه يجعل المستمع/ المتفرج يتخيل وجود شخص ثان في مواجهته ، وقد تحصل هنا مواجهة الجمهور بالحقائق الخفية عن الفئة التي يكون مدير الشركة نموذجا منها.

ب- المونولوغ

" كلمة مونولوج تعني كلام الشخص الواحد "[13] ، وهي تقابل كلمة حوار (ديالوج) التي تعني الكلام بين شخصين أو أكثر.

وفي اللغة العربية قد يستخدم هذا اللفظ الأجنبي (المونولوغ) ، كما تستعمل ترجمته المناجاة* أو النجوى.

ويمكن تجاوز الحديث عن الاختلافات بين أشكال المونولوغ في هذا البحث ، ذلك أن الموضوع لا يتعلق بها ، بل يمكن الاكتفاء بالأساس ، وهو المعنى العام الذي يشير إليه هذا المصطلح ، فهو يعني الحديث المنفرد الذي يضطلع به شخص واحد على الخشبة ، في صوت مسموع ، "حيث تعبر الشخصية عن بعض أفكارها الداخلية العميقة ودوافعها ،

أو تهدف إلى إخطار المتفرجين بمعلومات معينة ترتبط بما يجري في المسرحية من وقائع".[14]

و لا تقف وظيفة المونولوغ عند هذا الحد ، أي إعلام المتفرج بداخل الشخصية ، وإنما تتعداه إلى ما هو أهم من هذه الوظيفة الدرامية (الأدبية)، وهي أن "المتفرج يكون أكثر قربا من (الممثل) وليس من (الشخصية)".[15]

إنَّ المعيار الذي اتخذ في هذه الدراسة لتحديد المونولوغ ، - على الرغم من نقص علميته ، إلا أنه أتى أكله- هو: معيار (طول الحديث)، بالمقارنة مع الأحاديث الأخرى التي تمثل حوارات بين شخصيات متعددة ، وأيضا معيار (الحديث عن النفس)، كما أن هناك معيارا ثالثا قد يسقط خاصية طبيعية في المونولوغ ، وهي إيقاف الحدث ، فمن طبيعة المونولوغ أنه يجمِّد الزمان والمكان.

ولكن في نصوص عبد القادر علولة لا يحدث هذا التجميد ، ويبقى المونولوغ يعين الزمان والمكان أي يعين هنا والآن.

وفي بعض الحالات يمكن تحديد المونولوغ إلى جانب كل ما سبق من معايير ، انطلاقا من بعض الإشارات المتضمنة في مسرحيات عبد القادر علولة ، التي تدل على شكل المسرحية ، كما هو الحال في مسرحية «الأقوال» ، انطلاقا من كلام القوال: (نبدو بقدور السواق ونخلوه يقول:)، مما يدل على إنفراد ممثل بالخشبة ، حيث يكون التقرب إليه أكثر.

في مسرحية «الأقوال» -دائما- لدينا مونولوغين ، الأول يمثل لحظة انفجار قدور السواق ، عندما يتبين له أن صديقه المدير السي ناصر ، الذي طالما دافع عنه باعتباره رفيق دربه أثناء الثورة التحريرية وبعدها ، لا يمثل إلا إنسانا فاسدا ووجها من أوجه البورجوازية المستغِلة ، بل اعتبره من مخلفات الاستعمار التي يجب الثورة عليها: " ...بديت تربط في العلاقات بالشوية وليت تعرف السي فلان والسي فلتان... بديت لاهي في العلاقات دخلت ناس جدد وكلفتهم بالمسؤولية. ناس فرضوهم عليك دوك العلاقات. من هذاك الوقت وليت تتغيب من العمل وتسافر للخارج بغير سبة... عدت تتكلم غير على الخارج...".[16]

ولهذا كان قرار قدور السواق الاستقالة من الشركة التي يديرها السي ناصر: "... إذن اليوم قصدتك باش نستقيل من الشركة الوطنية وفي نفس الوقت باش نستقل من عقيدة الصداقة اللي كانت رابطتنا...".[17]

إن قدور السواق على مدى مقطع كامل (11 صفحة) يتحدث عن ماضي السي ناصر وحاضره ، كنوع من النقد لتاريخ هذه الشخصية ، مضمنا إياه أساليب الاستغلال التي يمارسها: كقطع الطريق أمام العمال لتفادي تكوين نقابة تدافع عن حقوقهم ، إهمال المؤسسة الوطنية حين يتم استيراد وسائل لا تحتاجها ويتم تخزينها من دون استغلال ، وغيرها من الأساليب التي أثبتت تحول وتغير المبادئ والقيم الأخلاقية بمجرد اعتلاء مناصب معينة ، وفي الوقت نفسه نجد قدور يحاسب نفسه و يعترف بخطئه الفادح حين دافع عنه وتبعه: "... باقي كالبليد مشدود من كرشي وعقلي يتبع فيك... عقلي تالف مرويه بالأمان في الصداقة والأخوة..."[18] ، "... غلطت ودافعت على انسان عوض ما ندافع على مبادئ ولكن اليوم الحمد لله...[19]

وانطلاقا من هذه الرؤية -النقد والمحاسبة- لا نلمس الجانب الميلودرامي الذي ينتهي ببكاء الشخصية ، وإنما يعتبر مواجهة وكشف ليس فقط للسي ناصر ، بل لكل الفئة المستغِلة التي يمثلها ، وفي نفس الوقت هو اتخاذ قرار نهائي من طرف قدور بالاستقالة ومواصلة طريق النضال عن طريق نقابة العمال: "... حبيتك تعرف كذلك باللي قدور إذا استقال من الشركة هذي ما يتخلاش على واجبه وعلى الكفاح في حفظ مكاسب الشعب..."[20] ، وهذه النزعة التفاؤلية في النهاية هي إحدى السمات البارزة في مسرح عبد القادر علولة.

إن هذه الوظيفة التي يقوم بها المونولوغ تجعلنا نستنتج كيفية الأداء التي تعتمد على المواجهة ، فيكون عندئذ تنغيم الألفاظ بين النغمة الجادة والساخرة.

وعند قرائتنا لهذا المونولوغ نجد مواجهة قدور للسي ناصر وكأنها حقيقية ، فهو يفترض إجاباته ، سلوكاته ، وحتى تغير ملامح وجهه ، هذا إلى جانب طلبه الملح بسكوته والاستماع إليه دون قطع ، وكأن هذه الشخصية موجودة فعلا على الخشبة ولكن تبقى صامتة: " وجهك صفار وشواربك يبسوا ، راك تتساءل وما عارفش إذا تلغى للشرطة وإلى تخدمنين بالكلام والتوبيخ... راك تقول في نفسك " عمروه المشوشين ورسلوهلي"... راك تتساءل وتقول ..." مين نبداه...".[21]

وهذا ما يحيل إلى شكل من أشكال المونولوغ الذي يكون فيه الحوار مع شخصية غائبة ، لأن الشيء الأكيد هو انفراد الممثل بالخشبة ومواجهته للجمهور ، وما إشارات قدور السواق ، إلا انعكاس لقدرته على استيعاب ردود فعل صديقه ،

وبالتالي فتخيل وجود شخصية مقابلة له تمثل نقطة ارتكاز بالنسبة للمثل ، ومن جهة أخرى فإن مثل لغة الحديث هذه التي استعملها قدور (الممثل) تجعل المونولوغ قابلا للتمثيل وتُخرِجه عن طبيعته التي توقف الحدث ، وذلك لتضمنه أدوات لغوية تأشيرية وطاقة إيمائية كامنة.

والمونولوغ الثاني في مسرحية «الأقوال» هو مونولوج غشام العامل البسيط ، الذي أُحيل على التقاعد ، فتعرض نتيجة لهذا القرار إلى الضغط الذي أجبره على البوح بما داخله لابنه مسعود ، هذا الأخير هو شخصية غير حاضرة فعلا ، ولذا ارتكز الممثل (المتكلم) على غرض* (الكرسي) في حواره ، مبرزا مسيرته المهنية عبر مراحل تاريخية مختلفة: قبل الثورة ، أثناءها ، بعد الاستقلال ، حيث يفضح الاستعمار الجديد الذي تمارسه الفئة البرجوازية في حق العمال ، وربطه بالاستعمار المحتل حيث شابه أساليبها به: " بعد الاستقلال يا ابني خرجت من الأمة الجزائرية وحد الفئة يالطيف منها... المنكر اللي بدعاته والصيفات اللي استعملها باش تستغني تحير العقل... الفئة ديك راها اليوم منظمة وتعرقل. طالقة الخيوط في الميادي كلها تعرقل وتستغل..."[22]

ويصل غشام في الأخير إلى تحميل مشعل النضال لابنه مسعود باعتباره رمزا للمستقبل: "... نتمنى ونطلب ربي ما تخيبش وتأدي الواجب متاعك كما متمنيين أمك وأنا... نطلب ربي تفيد وطنك في طريق الاشتراكية..."[23]

إن معرفة وظيفة هذا المونولوغ هي التي تجعلنا نستنتج الأداء التمثيلي للشخصيات ، فغشام في موقع انسان أراد قذف حقائق كثيرة في وجه ابنه ، بل والناس جميعا ، عندما قبل (على مضض) بقرار التقاعد حيث لا مهرب منه: "... العامل اللي يضيع خدمته يضيع شرافه ، أنا اليوم حسيت بها ودارت بيا الأرض ولوكان ما محتمة ما نقبلها... الله غالب الصحة خانتني وقضيتها كلها ما بقاش...أنا اليوم لما ودعت المعمل حسيت بنفسي معزول غرت وملاني حزن كبير ولما بقيت ندور في البلاد غاضتني نفسي اللي ما بقيتش تنتج..."[24]

وبالتالي نلتمس نوعا من الأداء الذي يجمع بين نغمة الإنسان الجريح الذي يتقبل قرار إنهاء مساره العملي ، وبين نغمة الكاشف لسلبيات الفئة البرجوازية ، إلى جانب نغمة الواعظ لابنه والمرشد له لاستكمال طريق النضال في كنف العدالة الاجتماعية والاشتراكية.

ومنه فإن نبرة الأداء تكون تبعا للموقف الذي تعيشه الشخصية.

ويمكن أن نصل إلى تشابه كبير بين مونولوغي قدور وغشام باعتبارهما نوعا من السرد ، حيث تحكي هاتان الشخصيتان وقائع من المفترض أن الجمهور لا يعرفها ، لأن المؤلف يصور بعمق التغيرات الاجتماعية التي طرأت على الجزائر ، فأزال كل الغموض وطرح الحقائق بوعي كبير ، فكان قدور وغشام في حالة إبلاغ وإعلام المتفرج بهذه الحقائق ، مما يؤكد توجههما إلى الجمهور فعليا.

وفي هذا الإطار (السرد) تلعب هاتين الشخصيتين دور الراوي (القوال) ، بحيث يحيل لهما الكلمة ليقوما بسرد مسيرتيهما المهنية على التوالي ، هذه الإحالة تُعرف في السرد بتعدد الرواة ؛ حيث " يسمع الحكي باستخدام عدد من الرواة ، ويكون الأمر في شكله الأكثر بساطة عندما يتناوب الأبطال أنفسهم على رواية الوقائع واحدا بعد الآخر ، ومن الطبيعي أن يختص كل واحد منهم بسرد قصته [...] وهذا ما يسمى عادة بالحكي داخل الحكي".[25]

ورغم أن الشكل العام لهذين المقطعين يؤكد أنهما مونولوغان ، إلا أن التداخل واضح بين الأنساق الثلاثة للحوار: التحقيق (من خلال حديث قدور لصديقه ورد هذا الأخير المفترض الذي جاء في صورة محاكمة حقيقية تنتهي بقرار الاستقالة) ، والسرد (من خلال استرجاع الماضي) ، و المونولوغ (كما تم توضيحه) ، وفي مقطع غشام يبرز أكثر التداخل بين المونولوغ والسرد.

وفي مسرحية « الأجواد» نجد نوعا آخر من المونولج ، ويتعلق الأمر بشخصية جلول الفهايمي ، الذي ينفجر في المستشفى ، منتقدا طريقة تسيير الطب المجاني ، والعناصر الانتهازية التي تقف ضد تنظيمه.

ولكن لحظة الانفجار بالضبط كانت الحادثة التي حصلت في جناح حفظ الجثث الذي يشتغل فيه جلول ، حين أدخل المريض إلى هذه المصلحة على أنه ميت ، وأدخل الميت مصلحة الاستعجالات على أنه حي.

إن هذه اللحظة هي التي دفعت جلول إلى الجري وإلى الصراخ ، بعد تجمع سعة كبيرة من الضغط والتوتر ، فكان المونولوغ " أفضل التقنيات المعبرة عن ذلك الانفجار الذي يولده هذا الموقف".[26]

لكن لو لاحظنا هذا المونولوغ لوجدناه يستمر رغم دخول شخصيات تحاور بعضها بين مقاطعه:

" جلول: أجري يا جلول أجري... أنت بغيت حد ما رغم عليك... شفت الفهامة وين توصل... أنا نستاهل الضرب... نستاهل [...].

العاملة: مسكين جلول فلت من عقله وقيلا... هذي الثالثة من المرات وهو يفوت علينا طاير يسب.

العامل: واقيل فلت كما راكي تقولي... عمري ولا شفت جلول يجري... عمري ولا سمعته يسب... هو يتنرفز صح ولكن ما يجري ما يسب ينسف صدره "كالسبع" يجعد الوقفة ويزهر كالسبع".[27]

ففي الوقت الذي يتحدث فيه العمال عن حالة جلول وعن مجموع ردود فعله إزاء مشاكل المستشفى طيلة مسيرته المهنية ، يستمر جلول الفهايمي في حواره عن الاختلاسات الحاصلة في المستشفى ، وعن الإهمال الذي تعيشه كتعطل أجهزتها ونقص الأطباء... ، ورغم أن زملاءه يشاركونه الحوار – من حيث الشكل الدرامي- إلا أنه يستمر في مونولوجه.

والسؤال هو: هل كان جلول يحدث زملاءه أو يحدث نفسه ؟

ولنفترض جوابا قد يكون هو الأقرب إلى الصحة فبينما يستمر جلول في الجري مع حديثه المتواصل عن الوضع المتردي للمستشفى ، فإن صوته يبقى مسموعا للجمهور وللعمال ، وهذا طبعا يعتبر كعرف من الأعراف المسرحية ، إذ لا يعقل قطع التواصل مع الآخرين في حالة المونولوغ أو الحديث الجانبي ، فظروف التمثيل تفرض قوله بصوت عال مما ينافي شرط مشابهة الواقع ، لكن في هذه الحالة يُفترض أن جلول يجري مكلما نفسه ، وزملاءه يتحدثون عنه ويسردون تاريخه النضالي في المستشفي ، دون حدوث تواصل بينهما: "العاملة: أنا قاع ما فرز تلهش الكلام المخلوق... لوكان في عقله يد خلنا معاه في الجرية ويفسر لنا.

العامل: كان يتكلم معانا باللغز... أنت ما تفهميش... ضربت الحجج معنتها بعدو لا يقسكم الرش... لو كان محتاج للإعانة يطلبها جهاز جلول ما يخافش... ما تشفيش على الإضراب اللي نظمه في النهار القهار وأدى عليه شهرين".[28]

وفي الأخير نجد العمال يشاركون جلول الجري ، والحوار أيضا ، حيث يتبادل معهم الحديث مفسرا لهم سبب الحالة التي آل إليها ،و ذلك عن طريق السرد.

ويمكن من رؤية أخرى أن نخلع فكرة حديث النفس عن جلول ، لأن الأهم في المسرح هو إحداث التواصل مع الجمهور ، الذي لم ينقطع في حالة جلول ، فهو في حالة إبلاغ بواقع الصحة في الجزائر ، مما يستدعي مواجهة وكشفا مباشرا ، فتكون النغمة حينئذ جادة ساخرة بعيدة عن الشرود.

ومن خلال المونولوغات السابقة (قدور ، غشام ، جلول) يتبين أن المونولوغ عند عبد القادر علولة يتكشف في الزمان وفي المكان أيضا ، وبذلك يخرج عن القاعدة العامة ، حيث يتكشف المونولوغ عادة في الزمن فقط ، ولعل الدليل على ذلك هو عدم توقف الحدث وتحقق الهنا والآن خلال المونولوغ ، من خلال الإمساك بالماضي الذي أخذ يتدفق متداخلا في حاضر الشخصيات ابتغاء عقد صلة بينهما.

إلى جانب احتفاء هذه المونولوغات بالأدوات اللغوية التأشيرية ، وعلى الطاقة الإيمائية ، والحركة أيضا.

وفي مسرحية « اللثام» نجد مونولوجا قصيرا (حوالي صفحة) في بدايتها يقوم به برهوم. ومن خلاله نستنتج شخصيته المتذبذبة في بعض مواقفها النضالية:

" بغيت ندير ولكن كيف ندير باش ندير ؟ عندما نتمنى يا سيدي ندير تنبت فيا الإرادة وتقوى تقوى وعند ما نبدى ندير ننفش ضربة وحدة ونوخر... كللي ابن آدم آخر ساكن فيا...".[29]

فهذا المونولوغ على قصره يعبر عن واقع اجتماعي جديد ، وعن تراكمات نفسية ، وجد برهوم صعوبة كبيرة في التغلب عليها ، خاصة فيما يتعلق بالصراع الدائم بين الطبقة البرجوازية والطبقة العاملة ، إذ يتصف برهوم بتهربه المستمر والمتعمد من ساحة هذا الصراع ، رغم أن انعكاساته السلبية واضحة عليه باعتباره من الطبقة العاملة التي تزداد فقرا وتُستغل أبشع الاستغلال.

وقد لجأ عبد القادر علولة للمونولوج باعتباره " تفجير لا شعور الشخصية خلال حلم أو انهيار ، حيث تتهاوى الحواجز بين الشعور واللاشعور وتكشف الشخصية عن رغباتها المكبوتة المختزنة ، وذلك سعة تعبيرية".[30]

إن وجود هذه الوسيلة الدرامية في بداية المسرحية بعد التعريف الذي قدمه القوال ، يعد تعريف آخر لشخصية برهوم ينزع من إلى الدقة ، باعتباره جاء من طرفه هو ، فكان بصيغة أنا المتكلم ، كاشفا مكنون ذاته ، معترفا بعجزه ، وأنّ لا حيلة له إزاء الوضع الاجتماعي الذي يهزمه ، وبالتالي تكون نبرته تابعة لهذه الحالة ، وحركته ستكون لا محالة حركة المستسلم اليائس ، الذي يعود بخطواته إلى الوراء كلما أراد التقدم: " ما عندك طاقة يا برهوم ما عندك ثيقة في نفسك دير

على روحك وادرى... استغفر الله... ماندیرش یا سیدي ما نديرش".[31]

ويظهر جليا أن هذا المونولوغ يأخذ شكل المناجاة ، ذلك أنها " كثيرا ما تحفل بتحليل النفس والجدل الداخلي [...] ويختص المناجي بالحقيقة ، محاولا التوصل إلى وجهة النظر الصحيحة".[32]

ورغم أن برهوم يتراجع عن الوجهة الصحيحة وهي التقدم وإحداث التغيير إلى الأحسن ، إلا أن هذه النظرة تمثل حقيقته.

ج- السرد

إن حديثنا عن السرد ، يقودنا مباشرة إلى تحديد بنيته التي عهدناها في الرواية ، والتي تتشكل "من تضافر ثلاثة مكونات هي: الراوي والمروي والمروي له".[33]

لكن ونحن بصدد الحديث عن السرد كأداة تم استثمارها في المسرح ، فإنه من الضروري أن نشير إلى طبيعته في هذا المجال ، حيث نجد من أعطى له تسمية (السرد الشفهي التمثيلي) -كما في أمريكا اللاتينية-، كما نجد من وصف المسرح ككل بـ(المسرح السردي)، لارتكازه على أداة السرد –كما هو الحال عند عبد القادر علولة-، وهو يعرف بأنه: "إحدى وسائل الاتصال التي يقوم فيها الراوي بتوصيل رسالة للجمهور ويتلقى الرد: وذلك عندما يسرد بصوته الحي ويستخدم جميع أعضاء جسده ، وفي هذه الحال لا يقوم بدور الإبلاغ ؛ وإنما بدور الاتصال ؛ لأنه يؤثر في سامعيه ويتأثر بهم لحظة بلحظة".[34]

إن هذه الخصوصية التي يضطلع بها السرد في المسرح ، لها دوافعها ، من بينها ما تم الإشارة إليه ؛ وهو تحقيق التواصل بين الجمهور (المستمعون) و الراوي ، لأن الشيء المسلم به هو إن: " المسرح رسالة ومرسل ومستقبل ، مثلث أو رسالة ذات أضلاع ثلاثة وغياب ضلع من أضلاع المثلث ينفي وجود المثلث نفسه".[35]

وضمن هذا الإطار ، نجد السرد من بين الأدوات التي استعملت لأجل تحقيق التغريب* Distanciation ، من خلال قطع استمرارية الحدث ، وكسر الإيهام ، ولعل المسرح الملحمي الذي صاغه برتولد بريخت B.Brecht هو الذي استفاد أكثر من القالب السردي لتحقيق هذه الغاية.

ونجد أيضا أن "السرد يتيح للمؤلف الفرصة في أن يقص ويسرد الكثير من الأحداث التي تُطْلع الجمهور على كثير من الأحداث الخاصة بالشخصيات وذلك لضيق المساحة المرسومة لهم"[36] ، فيتجاوز فترات تاريخية طويلة يصعب تمثيلها على الخشبة.

ومن ناحية أخرى " يلجأ المؤلف إلى السرد لعدم قدرته على عرض بعض الأحداث التي يدرك مقدما عدم إمكانية تقديمها لما بها من بشاعة وقسوة يرفضها الجمهور".[37]

وغيرها من المبررات التي تجعل المؤلف المسرحي يلجأ إلى السرد ، حيث أصبحت له مكانة كبيرة في النص المسرحي ، زالت مع استخدامه –الذي أصبح بوعي كبير- القواعد التقليدية التي تحكم الكتابة المسرحية ، سواء في المسرح الغربي أو العربي.

ففي هذا الأخير تم اللجوء إلى القالب السردي ، باعتباره جزءا من التراث الثقافي (الشفوي) للمنطقة ، فاستغله كثير من المبدعين العرب ، واهتموا به اهتماما واضحا ، فكان لكل واحد منهم أسباب جعلته يلجأ إلى أشكال الفرجة –التي تقوم في غالبيتها على القص كالمغني الشعبي ، شاعر الربابة ، الحكواتي ، القوال ، السامر ،...-، لكن كان أهم هدف هو " محاولة لخلق شكل مسرحي. جديد يستمد من صميم الموروث شكلا ومضمونا وتلقيا وابداعا معا".[38]

ولعل من بين الأسماء التي تحضر في هذا الإطار: اللبناني روجيف عساف ، المصري محمود دياب ، المغربي الطيب الصديقي ، وغيرهم كثيرون.

وفي الجزائر نجد أن أهم مبدعيْن توجها هذا التوجه: ولد عبد الرحمان كاكي ، وعبد القادر علولة ؛ هذا الأخير الذي لجأ إلى التراث الثقافي الجزائري ، باعتباره منبعا خصبا ، لأجل الخروج بمسرح جزائري متميز ، فكان السرد أداة جوهرية في مسرحه.

وقد أسند عبد القادر علولة وظيفة السرد إلى القوال ، كما نجد أن بعض شخصياته أيضا تقوم بهذا الدور ، بحيث يتم إظهار بواطن الأمور وحقائقها إلى الجمهور.

إن القوال كأحد أوجه التراث الشعبي الفرجوي ، فإنه إلى جانب قيامه بسرد الحكايات الشعبية في الأسواق والأماكن العامة ، وذلك ضمن حلقة ، فإنه " يستخدم الأداءات الحركية الجسمية حسب معنى الكلمة وأحيانا الإيماءة والتلميح بالكلمة وقد تكون إيحاءات ، وعادة ما تتميز بالتشويق وبديناميكية الفعل وتوتر الصراع"[39] ، مما يُخرجه عن السرد الصرف.

في مسرحية «الأقوال» ، نجد القوال يظهر في البداية ، ليعلن عن بدء الحكي ، بحيث يحدد شخصيات المسرحية ، وبداية أحداثها ، ويتدخل عند نهاية كل مقطع ، ليعطي مصير الشخصية الأولى ، وينقل المتفرجين (المستمعين) إلى المقطع التالي ، بحيث تَمْثل أمامهم شخصية أخرى ومكانا آخر ، أما المقطع الأخير فيسرده هو شخصيا.

وبالتالي فإن القوال هنا قد استُخدم كأداة لتنظيم المسرحية ، وكشف الفكرة العامة لها.

وفي جانب آخر ، نجد أن مقطعي (قدور السواق) و (غشام) ، يتم السرد فيهما على لسان الشخصيتين ، بحيث يتم الكشف عن هموم الطبقة العاملة المستغَلة ، فتروى الأحداث والأخبار للجمهور.

وفي مسرحية «الأجواد» ، تسند للقوال وظيفة واضحة ؛ فهو ينظم الأحداث المسرحية ، وينسق أجزاء المسرحية ، بحيث يسكبها كلها في إطار واحد ، رغم أن شكلها ينبيء بعدم وجود أي علاقة بين لوحاتها السبع.

إنه يقدم الشخصيات في اللوحات القصيرة (علال ، قدور ، المنصور ، سكينة) بصفة كلية ، بحيث تتشكل انفعالاته بانفعالات هذه الشخصيات التي يحكي عنها ، كما تتلون نبرات صوته بنبرات أصواتها. أما في المقاطع المطولة فيقدم الشخوص من جميع جوانبها ، ليختفي ويُبقي الأمر لها ، بحيث نجد منها من يقوم بدور التمثيل إلى جانب السرد ، كما هو الحال بالنسبة لـ: حارس حديقة الحيوانات ، المنور ، جلول الفهايمي ، عمال المستشفى.

وفي مسرحية «اللثام» يظهر القوال في المقطع الأول (جلول) بصفة تامة ، أما في الجزء المتعلق بالشخصية المحورية (برهوم) فيظهر عدة مرات (سبع مرات) ، حيث أنه في البداية يقدم لشخصية برهوم ، أما في باقي تدخلاته ، فكان يقوم بالسرد لأجل تجاوز أحداث كثيرة – طويلة نوعا ما- يصعب تقديمها تمثيليا على الخشبة ، وضمن هذه الحكايات قام بفضح عينات من المجتمع الجزائري ، فمثَّل مصالحها بمصالح العدو ، وفي المقابل قدم من هم على النقيض من ذلك ، وفسر كل ما يحدث من تناقضات بطريقة جد موضوعية وواعية ، تنم عن معرفة كبيرة بالأبعاد السياسية والاجتماعية لها.

على أنه رغم هذه المهام التي أسندت للقوال ، من تنظيم للأحداث ، وتقديمها ضمن امتداد زمني ، وتنسيق لأجزاء المسرحيات ، إلا أن الهدف من وراء استخدام السرد هو تحقيق التفاعل بين الخشبة والجمهور ، وذلك من خلال كسر الإيهام وتحقيق التغريب ؛ فلجوء عبد القادر علولة إلى هذه الأداة كان عن قصد ؛ باعتبارها تغلغل في الوجدان الشعبي للجمهور الجزائري ، وبالتالي فعلولة قد راعى هذا البعد ، كما أنه أراد استنباط عناصر التغريب من تراثنا الشعبي ، حين أعطى دورا مستقلا للقوال ، بحيث يسرد ويعلق على الأحداث ، وحين جمع بين الأدوار التي تؤديها الشخصيات وسردها للأحداث ، وحتى عندما يخرج الممثل عن الدور ويتحول إلى قوال ، وأيضا حين قطع تدفق الأحداث واستمرارها بتدخل القوال أو احدى الشخصيات بين الأحداث والقيام بالسرد.

ولعل القيام بتصفح نصوص عبد القادر علولة –ولو سطحيا-سيكشف عن مثل هذه الأمور ، بحيث نجد أمثلة كثيرة بهذا الخصوص.

والشخصية الراوية في هذه النصوص (سواء القوال أو الشخوص) ، غالبا ما نجدها تقوم بتشخيص الحكايات ، وهي بذلك لا تخرج عن الإطار العام للشكل الشعبي (القوال) ، بحيث لا يقوم بالسرد المحض ، وإنما أيضا يقوم بالإيماءات ، الإيحاءات ، الحركات... .

ففي مقطع زينوبة في مسرحية «الأقوال» ، نجد أن القوال ، حرص على إنتاج الصورة المتخيلة عن طريق الحركة ، لما يستخدم الأدوات التأشيرية: " الفرحة سعات تقطع الشهية ، شربوا بسرعة ومشات أمها غير بالسياسة ، قطعت النفس واستخطات بوزيان كرع من هنا وكرع من لهيه وكللي مدارية في اجياب البالطو سرسبت صباعها. نطقت من عند المايدة زينوبة وقلدت أبوها: النزع ينعلك ويخزيك يا الشيطان الحرامي ".[40]

فالاستعارة التي تدل على المكان تؤكد الأداء الحركي للشخصية ، كما أن تقليد صوت الأب يوحي بتغير نبرة (القوال).

ونجد أن نصوص عبد القادر علولة تحرص بصفة كبيرة على رسم تفاصيل الحركة والانفعالات على غرار مثلا:

" القوال: برهوم الخجول ولد أيوب الأصرم فتح الباب بالرجفة حين ما سمع الدقديق... اتسكج لما شاف الفيلالي لعرج البكوش واقفين مجعدين عند العتبة كالأعمدة... قالوا السلام جاوب من فمكم لربي واسرط النفس. طلع له الدم للراس ورن حس مُصِم في ودنيه ".[41]

و أيضا في:

" في مسكنها سكينة على الحيط متوركة.
ملحفة الماضي على رجليها مرمية
وهي تتبسم وتبصر في أولادها
مرارا تمزح قصدها تشجع راجلها".[42]

وبالنسبة للشخصيات (حارس حديقة الحيوانات ، المنور ، جلول الفهايمي ، عمال المستشفى ، السي خليفة ،...) ، فإنها لا تقتصر حكاياتها على الشخصيات الأخرى التي تشاركها الخشبة ، وإنما ترويها أيضا للجمهور ، مما يؤكد طبيعة التلقي في الخطاب المسرحي.

ونلاحظ أن نصوص عبد القادر علولة تقوم في أغلبها على سرد تاريخ الشخصيات ، في صورة حكاية ، هي المكون الأساسي سواء للنص أو للعرض ، وهذا لأجل تحقيق عدة غايات: فقد تكون لأجل نقد تاريخ هذه الشخصيات كما هو الحال مثلا في مقطع قدور السواق ، حين كان الفصل بين أنا الماضي وأنا الحاضر ، وقد تكون لأجل إعطاء المعلومات الكافية عن هذه الشخوص كما هو الحال مثلا في لوحة المنور ، وقد يكون لإظهار أزمة الشخصية مثل شخصية برهوم ، وفي جميع الأحوال نجد أن أهم غاية تبقى مثبتة هي تأصيل الجانب الاجتماعي للشخصيات باعتبارها عينات من الطبقة العاملة الكادحة ، فيحاول المؤلف/المخرج تصوير نضالها عبر المراحل التاريخية ، في مواجهة الفئة المستغِلة لها.

وهناك ملاحظتين يجب إيرادهما هنا وهما:

1- إن عبد القادر علولة على الرغم من سعيه إلى كسر البناء الأرسطي ، القائم على الحدث المتصاعد والحبكة ، إلا أننا نجد في كل جزء من أجزاء كل مسرحية هذا البناء ، خاصة مسرحية «الأجواد».

2- إن المسرح السردي الذي أراده عبد القادر علولة ، لا يعني تنظيم حكايات جاهزة وإلقائها على الجمهور ، ولكن تجربته هذه أعقد بكثير ؛ فهي تقوم على فعالية القول ، والقول الفاعل في الوقت نفسه ، أي بأن يتم الانتقال من المسموع إلى المنظور ، بالاعتماد على عناصر أو أدوات من تراثنا الشعبي ، وإن وجود السرد يعني انفراد الممثل بالفضاء المسرحي ، وأن هناك تشخيص للحكاية ، ويعني أن هناك تشكيل لانفعالات وحركات الشخصيات التي يُحكى عنها ، مما ينفي عن هذا المسرح ما ذكره نورالدين عمرون في كتابه " المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000 " حين قال: " نجد في العروض القوالية ، الحوار السردي يتغلب على الحوار الدرامي أكثر ، بمعنى الاعتماد على الإلقاء اللفظي ولا يعطي أهمية لدور الممثل من الناحية التجسيدية والمحاكاة بمعنى يلغي فن التمثيل الذي يعتبر أساس العرض المسرحي".[43]

إن مسرح عبد القادر علولة ينافي هذا الطرح ، صحيح أنه لا يعطي أهمية للتجسيد وللمحاكاة ، ولكن هناك العكس: تشخيص ، وحركة ، وإيماء ، وهناك تمثيل إلى أقصى الحدود ، ولعل حجة عمرون على الرغم من أنها ظاهريا تبين صحة قوله بأن السرد يقتل دور الممثل ، إلا أنها في حقيقتها تمثل حجة ضد هذا الرأي ، أي أن السرد يعطي للممثل كل الأهمية ، وبالتالي يجب معرفة الفعل المسرحي عند عبد القادر علولة لأجل الحكم على مسرحه.

الهوامش

[1] — توفيق الحكيم الفنان ، د ت ، د ط ، دار الكتاب الجديد ، ص: 109.

[2] — ميشال عاصي ، 1980 ، الفن والأدب ، ط3 ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، لبنان ، ص: 182-183.

[3] — إلين أستون وجورج سافونا ، 1996 ، المسرح والعلامات ، ترجمة: سباعي السيد ، د ط ، أكاديمية الفنون ، وحدة الإصدارات ، مصر ، ص: 80.

[4] — شكري عبد الوهاب ،2001 ، النص المسرحي ، ط2 ، مؤسسة حورس الدولية ، الإسكندرية ، مصر ، ص: 96.

[5] — حازم شحاتة ، 1997 ، الفعل المسرحي في نصوص ميخائيل رومان ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ص: 148.

[6] — المرجع نفسه ، ص: 147.

[7] - عبد القادر علولة ، 1997 ، من مسرحية علولة: الأقوال-الأجواد — اللثام ، د ط ، موفم للنشر ، الجزائر ، ص: 88-89-90.

[8] — المصدر السابق ، ص: 208-209-210.

[9] — المصدر نفسه ، ص: 211.

[10] — المصدر السابق ، ص: 231.

[11] — المصدر نفسه ، ص: 229.

[12] — المصدر السابق ، ص: 122-123.

[13] — ماري إلياس وحنان قصاب حسن ، 1997 ، المعجم المسرحي ، ط1 ، مكتبة لبنان ، ص: 494.

[*] — المناجاة: Soliloquy: هي شكل من أشكال المونولوج ، وإلى جانبها نجد ثلاثة أشكال أخرى له وهي: دراما الممثل الواحد (المونودراما) (Mono Drama)، التجنبية أو مخاطبة الممثل للجمهور في المسرحية (A.Side). المونولوج الدرامي (Dramatic Monologue). ينظر: أسامة فرحات ، 2005 ، المونولوج بين الدراما والشعر ، مكتبة الأسرة القاهرة ، مصر ، ص: 23-24.

[14] — المرجع نفسه ، ص: 113.

[15] — حازم شحاتة ، الفعل المسرحي في نصوص ميخائيل رومان ، ص: 148.

[16] - من مسرحيات علولة ، ص: 30.

[17] — المصدر نفسه ، ص: 24.

[18] — المصدر نفسه ، ص: 28.

[19] — المصدر نفسه ، ص:31.

[20] — المصدر نفسه ، ص: 33.

[21] - المصدر نفسه ، ص: 24.

[*] — الغرض في المسرح يستخدم اليوم بدل الإكسسوار ، وبعد أن كان يتعلق بالشيء المادي الذي يقع موقع النقيض من الكائنات المفكرة أو التي تملك عقلا ، أصبح ينظر إليه كعلامة لها دلالة ، فالتاج مثلا يحدد صفة الملكية والسيف صفة الفروسية. ينظر: ماري إلياس و حنان قصاب حسن ، المعجم المسرحي ، ص: 226-327.

[22] — من مسرحيات علولة ، ص: 51.

[23] — المصدر نفسه ، ص: 56.

[24] — المصدر نفسه ، ص: 52.

[25] — حميد الحمداني ، 2000 ، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي ، ط3 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص: 49.

[26] — حازم شحاتة ، الفعل المسرحي في نصوص ميخائيل رومان ، ص: 156.

[27] — من مسرحيات علولة ، ص: 133-134.

[28] — المصدر نفسه ، ص: 137.

[29] — المصدر السابق ، ص: 162.

[30] — سعد أبو الرضا ، 1989 ، في الدراما ، اللغة والوظيفة ، ط د ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، مصر ، ص: 69.

[31] — من مسرحيات علولة ، ص: 162.

[32] — أسامة فرحات ، المونولوج بين الدراما والشعر. ص: 39.

[33] — عبد الله ابراهيم ، 2000 ، السردية العربية ، ط2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، ص: 19.

[34] — فرانثيسكو جارثون ثيسبدس ، 1996 ، مسرح السرد التمثيلي ، ترجمة سمير متولي ، أكاديمية الفنون ، وحدة الإصدارات ، ط2 ، القاهرة ، مصر ، ص: 6-7.

[35] — أبو الحسن سلام ، د ت ، الممثل وفلسفة المعامل المسرحية ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، مصر ، ص: 19.

[*] — التغريب ، هو تقنية تقوم على إبعاد الواقع المصور بحيث يتبدّى الموضوع من خلال منظار جديد يظهر ما كان خفيا أو يلفت النظر إلى ما صار مألوفا فيه لكثرة الاستعمال. وبالتالي يبعد المتفرج عن المتعة السلبية ودفعه إلى اتخاذ موقف واع ونقدي مما يراه. وإن أداء الممثل هو الذي يعطي التغريب كل فعاليته من خلال الحركة والإلقاء وكسر العلاقة الأحادية بين الممثل والشخصية ، وغيرها من الوسائل المتعددة لتحقيق التغريب. ينظر: ماري إلياس وحنان قصاب حسن: المعجم المسرحي ، ص: 139-140.

[36] — أحمد صقر ، 1998 ، توظيف التراث الشعبي في المسرح العربي ، د ط ، مركز الإسكندرية للكتاب ، مصر ، ص: 140.

[37] — المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

[38] — فاروق خو رشيد ، 1991 ، الجذور الشعبية للمسرح العربي ، د ط ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، ص: 191.

[39] — نور الدين عمرون ، 2006 ، المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000 ، ط1 ، الجزائر ، ص: 50.

[40] – من مسرحيات علولة ، ص: 58.

[41] – المصدر نفسه ، ص: 176.

[42] – المصدر نفسه ، ص: 151.

[43] – نور الدين عمرون ، المسار المسرحي الجزائري إلى سنة 2000 ، ص: 250.

الإشهار: مفهومه الإداري والوظيفي لدى المؤسسة الاقتصادية الجزائرية.
دراسة ميدانية على عينة من المؤسسات الاقتصادية

نور الدين مبني*

الملخص

تكمن أهمية هذه الدراسة في تناولها بالبحث أحد المواضيع المهمة في دراسات الإشهار وهي على حد اعتبارنا ناقصة في الكتابات والأبحاث على المستوى الوطني ألا وهي الدراسات الخاصة بالجوانب الإدارية والوظيفية للإعلان ، وتتجلى أهمية الدراسة في المكانة المتزايدة التي أصبح يحظى بها الإشهار على جميع المستويات والأصعدة إذ أصبح من ضروريات العصر لمواكبة هذا التعقيد والتشابك ، ونظرا لأهمية الموضوع فقد حاولت الدراسة الراهنة البحث في المفهوم الحقيقي للإشهار لدى المؤسسة الاقتصادية الجزائرية ، كما تعتبر هذه الدراسة تدعيما لما قدمه باحثون آخرون من مجهودات في هذا الشأن ، ونحاول أن نتحدث عن بعض العناصر التي ارتأينا أنها جديرة بالدراسة من حيث انتشار المفهوم الإداري والوظيفي للإشهار.

الكلمات المفتاحية: الإشهار، المؤسسة الاقتصادية، المفهوم الإداري والوظيفي للإشهار.

Résumé

La présente étude se focalise sur le sujet de la publicité notamment ses aspects administratif et fonctionnel. Cette étude a pour objectif d'étudier l'impact de la publicité sur la société d'aujourd'hui. De ce fait découle des enjeux économiques, notamment pour les entreprises économiques dans le monde entier. En effet, pour ces entreprises, la publicité constitue un investissement immatériel qui a une grande importance dans les stratégies publicitaires des sociétés.

Compte tenu de l'importance de ce thème, nous aborderons les différentes études pour définir le concept de la publicité au sein de l'entreprise économique Algérienne.

Mots clés : publicité - institution économique - le concept administratif et fonctionnel de la publicité.

Summary

This study is important because it raises one important topics in the publicity studies , so we know it's deficient in the scientific studies and research at the national level , namely the studies of administrative and functional concepts of the announcement .The study is important because of the growing prestige became attractive to the publicity at all levels. It has become the necessities of the times to keep up with this complexity and interdependency also, the importance of research in this subject in being offered a framework intellectually serve as a reference for the sector notification and other relevant sectors in order to develop advertising and promotion work.

This study also considered for his support of other researchers in this area so we will try to talk about some of the elements that we have seen as worthy of study and primarily related to the administrative and functional concept of publicity.

Keywords: Publicity, Economic enterprise, administrative and functional concept of publicity.

*أستاذ محاضر ب، عضو في فرقة بحث« pnr » وسائل الإعلام ومعالجة قضايا البيئة، عضو في فرقة بحث«cnepru » الممارسة الإعلامية في الجزائر بين التحديات المهنية والتكنولوجية، جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2

مقدمة

يقول روبرت لودوك: "**إنّ الهواء الذي نستنشقه مركّب من أكسيجين ونتروجين وإشهار**"، فالإشهار اليوم أصبح سلطة قائمة بذاتها تمارس علينا - أفرادا وجماعات ومؤسّسات- سلطانها في كلّ مكان ووقت والملاحظ أن الاتّصال في المؤسّسات المعاصرة أصبح جزءا مهمّا وكبيرا من نشاط أيّ مؤسّسة في تفاعلها الخارجي ودون أدنى شكّ يمثّل الإشهار الجزء الأكبر والمهم من هذا الاتّصال وتحديدا في التّفاعل الخارجي للمؤسّسة مع مفردات البيئة المحيطة بها من أفراد وجماعات ومؤسّسات وهيئات مختلفة إذ أنّه يسعى بهذه النّظرة إلى تحقيق أهداف المؤسسة الإستراتيجيّة والمتعلّقة ببلوغ مستوى مبيعات وحصّة سوقيّة معيّنة وكذا تحسين ورفع مستوى الأرباح، وأيضا تحسين صورة وتعزيز مكانة المؤسّسة في البيئة المحيطة.

ولقد حاولنا في هذه الدّراسة التّطرق إلى واقع الإشهار في المؤسّسة الاقتصاديّة الجزائريّة من حيث طبيعة مفهوم الإشهار وباعتبار المؤسّسات الاقتصاديّة الجزائريّة تتعامل مع مثل هذه المفاهيم ارتأينا إجراء الدراسة الميدانيّة بها، بحيث نركّز فيها على دراسة المكانة التي يحظى بها الإشهار من الاستعانة بأشكال الاستراتيجيّات الاشهارية من جهة (الأبعاد العلمية الوظيفية) والجهة المكلّفة بأداء الأنشطة الاشهارية من جهة أخرى (الأبعاد الإدارية).

ووفقا لهذه المحاور صيغت محاور الدراسة في المحاور التالية:

- **المحور الأول**: إشكالية البحث
- **المحور الثاني**: الإشهار من منظور إداري وظيفي في المؤسسة الاقتصادية.
- **المحور الثالث**: المفهوم الإداري والوظيفي في المؤسسات ميدان البحث.

المحور الأول: إشكالية البحث

ما يلاحظ على النشاط الاشهاري في الجزائر أنه بدأ يرسي دعائمه في المؤسسات الاقتصادية الجزائرية من خلال التطور الكمي والنوعي خلال السنوات القليلة الماضية انعكاسا للانفتاح الاقتصادي، ومساهمة القطاع الخاص في هذا التطور وكذا اقتحام عدد كبير من المؤسسات الأجنبية للسوق الوطنية التي فرضت تقاليدها في هذا الميدان، والتي أثرت على ظهور وتطور الإشهار في الجزائر من خلال إرساء تقاليد جديدة (**الثقافة الإعلانية**) أثرت على مفهوم الإشهار لدى المؤسسة الاقتصادية الجزائرية.

ولأننا بصدد البحث عن الواقع وكيفية النهوض بالإشهار وتطويره، نطرح التساؤل الرئيسي التالي:

- ما مدى إدراك المؤسسة الاقتصادية الجزائرية للمفهوم الإداري والوظيفي للإشهار؟

وتندرج ضمنه التساؤلات التالية:

- هل تمتلك المؤسسات الاقتصادية الجزائرية ثقافة الإشهار؟

- هل تركز المؤسسات الاقتصادية الجزائرية على تطوير الجوانب الإدارية للإشهار أم الجوانب الوظيفية أم تركز عليها معا؟

وفي هذا السياق تم صياغة فرضيات كالأتي:

1-لا تعتمد المؤسسات الاقتصادية الجزائرية في أدائها للأنشطة الاشهارية على عناصر وإطارات متخصصة في مجال الإشهار، مما يضعف دور الإشهار في المؤسسة.

* ومن مؤشراتها أنها بنيت على أساس أن الجهة المكلفة بالإشهار في المؤسسة لا تعتمد على كوادر علمية متخصصة وتعطي أهمية للجوانب الفنية فقط.

2-لا تستند المؤسسات الاقتصادية الجزائرية في أدائها للأنشطة الاشهارية على أسس علمية، مما يؤدي إلى نقص في فاعلية إعلاناتها، وقد تم مراعاة بعض المؤشرات من أجل معالجة هذه الفرضية:

* عدم وجود إعلانات مقنعة ومؤثرة تؤدي وتحقق أهدافها بكفاءة وفعالية.

- أهداف الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على قطاع الإشهار في المؤسسات الاقتصادية الجزائرية، بهدف تقييم وضعه الحالي وتحديد نقاط القوة وتعزيزها وتدعيمها وتحديد نقاط الضعف ومعالجتها بالضرورة المطلوبة.

- تأسيس إطار نظري متكامل عن الإشهار تستفيد منه المؤسسات (بما فيها الوكالات الاشهارية) في إعانتها على أداء أدوارها الاجتماعية عموما وعلى المستوى الاقتصادي خصوصا

وتمثل هذه الأخيرة الأدوار في تسويق وترويج المنتجات سلع ، خدمات أفكار للمجتمع من جهة والحصول على عائد اقتصادي من جهة أخرى.

- تحديد مدى وجود وعي إعلاني (**ثقافة إعلانية**) في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية وهو ما يقصد به الثقافة الاشهارية المرسخة لديها ومعرفة ما إذا كان هناك سعي للنهوض وتطوير هذه الثقافة وهل تركيزها منصب على الجانب الإداري أم الوظيفي.

- هدف علمي يسعى للمساهمة ولو باليسير في إرساء مفاهيم مرتبطة بالإشهار تتلاءم وطبيعة المجتمع وخلفيته الثقافية.

- هدف عملي من خلال المساهمة في بلورة أهمية الإشهار وضرورته الحتمية لأي مؤسسة اقتصادية جزائرية وهذا لضمان استمراريتها في ظل المعطيات الجديدة.

المحور الثاني: الإشهار **من منظور إداري وظيفي في المؤسسة الاقتصادية.**

تحليل الإشهار في ضوء البنائية الوظيفية: إن التحليل الوظيفي للإشهار يقود إلى البحث في زوايا واسعة النطاق ، بحيث أن الإشهار سينظر إليه في إطار هذا التحليل انطلاقا من الكيفية التي تسهم بها ظاهرة الإشهار في سير المجتمع بمختلف جوانبه الاجتماعية والاقتصادية ، ومعرفة أوجه التساند أو الاعتماد المتبادل بين ظاهرة الإشهار وبقية الظواهر الأخرى.

- **الإشهار كمفهوم إداري ووظيفي:** علينا أن ننظر أولا إلى الإشهار من خلال كونه جزءا من المحتوى العام الذي تقدمه وسائل الإعلام المتنوعة (باعتبارها وسائل لنشر الاشهارات) ، وكيفية مساهمة مختلف مكونات النسق الداخلية والخارجية في صياغة محتوى الإشهار وإنتاجه ، كما يمكننا كذلك أن نتناول الإشهار بوصفه شكلا من أشكال العلاقات التبادلية بين بعض الأنساق إن لم تكن معظمها.

واعتمادا على هذا المنطلق يمكننا تحديد الدور الذي يلعبه الإشهار في إطار النظام (النسق) الاجتماعي الكلي وذلك من خلال تحليل علاقات التبادل التي تتم بين جميع أنساق (وحدات) هذا النظام وأول هذه الأنساق التي تبرر اعتمادها القوي على الإشهار هو بلا شك "النسق الاقتصادي" إذ تتبين تلك العلاقات الثنائية لتبادل الوظائف والتي تهيئ مناخ ايجابي يساهم في تفعيل دور المؤسسة الاقتصادية من جهة ، وتتحقق بفضلها سيرورة واستمرارية عمل مختلف الأنساق وبالتالي النسق الكامل[1].

ومن هنا نجد أن الإشهار هو أحد العناصر المؤثرة والمحركة لنشاط المؤسسات كافة والاقتصادية خاصة ، فهو مصدر تمويل لها ويؤثر على الأنماط الاستهلاكية بتزويد المستهلك بمعلومات عن مختلف المنتجات (سلع أو خدمات) واتخاذ قرار الشراء ، كما يلعب الإشهار الدور في لفت الانتباه للعلامة التجارية وتنمية اتجاه ايجابي نحوها.

النظرية البنائية الوظيفية في دراسة المؤسسات (المؤسسة الاقتصادية): تعتبر البنائية الوظيفية أحد الاتجاهات الأساسية في علم الاجتماع المعاصر ، وعندما تستخدم كإطار لفهم المؤسسات فإنها تواجه متطلبات عديدة ، حيث يعتبر هذا المنهج المؤسسة عامة أو التنظيم نسقا اجتماعيا يعمل ضمن نظام خارجي معين وهو المجتمع ، فالمؤسسة هي بناء يؤدي وظائف متعددة تواجه متطلبات المجتمع وكذلك وحدات المؤسسة فكل وحدة أو قسم يقوم بوظائف معينة لكنها جميعا تتكامل وتتفاعل من أجل استمرار وبقاء البناء ككل.

وهذا الاتجاه يفهم المجتمع في ضوء البنيات التي يتكون منها ، وكذا الوظائف التي تؤديها هذه البنيات كما يتصور الاتجاه البنائي الوظيفي في معظم اتجاهاته أن المؤسسة مهما كان حجمها أو نشاطها أو مجالها فهي نسق من الأفعال المحددة والمنظمة ، تتألف من المتغيرات أو الأبعاد المترابطة بنائيا والمتساندة وظيفيا كما أشار أصحاب هذه النظرية إلى عملية التوازن ، ففاية كل وأي مؤسسة أداء وظائفها لضمان بقاءها واستمرارها ولا يتحقق هذا إلا بتحقيق التناغم والانسجام بين مكونات البناء المؤسساتي وكذلك التكامل بين الوظائف الأساسية.

وتعتبر المؤسسة الاقتصادية الحديثة النواة الأساسية في النشاط الاقتصادي للمجتمع ، كما أنها تعبر عن علاقات اجتماعية. لأن العملية الإنتاجية داخلها أو نشاطها بشكل عام ، يتم ضمن مجموعة من العناصر البشرية متعاملة فيما بينها من جهة ، ومع العناصر المادية والمعنوية الأخرى من جهة ثانية ، كما يشمل تعاملها المحيط لأنها تتكيف مع متغيراته ، وباعتبار أن المؤسسة الاقتصادية كغيرها من المؤسسات والتنظيمات الأخرى تعد نسقا اجتماعيا ننتهي إلى اتجاهين في التحليل:

- دراسة المؤسسة الاقتصادية كنسق اجتماعي فرعي ضمن نسق أكبر يمثل بالنسبة له المحيط ، ويرتكز التحليل على دراسة علاقات التبادل بين نسق المؤسسة وهذا المحيط.

- دراسة المؤسسة الاقتصادية كنسق معزول بشكل مجرد ، وبالتالي فالتحليل ينصب حول معرفة العناصر المكونة لها والعلاقات الموجودة بينها.

ومن خلال ما سبق ذكره فكل مؤسسة (تنظيم) يجب أن تدرس على أساس أنها نسق مفتوح حسب ما تمليه معطيات العصر فالمؤسسة الاقتصادية نسق مفتوح باعتبار أنها تتواجد ضمن بيئة أوسع يمكن تصورها كنسق أكبر يمتاز بالتعقيد ويؤثر عليها من قريب أو من بعيد ، سواء على نشاطاتها الداخلية أو الخارجية ، لأنها هي التي توفر لها مدخلاتها المتعلقة بالجوانب الثقافية ، التكنولوجية ، السياسية ، التربوية الديموغرافية الاجتماعية ، الاقتصادية ، كما تؤثر على علاقاتها الخارجية حيث توفر لها العناصر الأخرى كالموردين المنافسين ، الموزعين ، ومجموعة من العناصر السوسيولوجية الأخرى.

وتتميز المؤسسة الاقتصادية كنسق مفتوح باعتمادها المتبادل مع هاته البيئة الخارجية وتداخلها معها من حيث التأثير والتأثر ونعني بما تقدم طرحه أن المؤسسات الاقتصادية كنسق مفتوح تأخذ مدخلاتها من البيئة الخارجية وفي الوقت ذاته تصدر مخرجاتها ، وضرورة استجابتها للظروف المجتمعية لتضمن لنفسها البقاء والاستمرار والاستقرار والتطور.

ونتيجة لهذا تتأثر المؤسسة بالتغييرات التي تحدث في المحيط (تطور أذواق المستهلكين ، تكنولوجيا جديدة ، مبادرة من أحد المنافسين) وفي نفس الوقت فهي تؤثر على المحيط (سياسة الاتصال سياسة الإبداع الثورة الاقتصادية التي تنتجها وتوزعها) وتتلقى المؤسسة معلومات من المحيط كمدخلات تعالج وتحول بفضل النظام إلى مخرجات والتي تبث من جديد في المحيط وهذا تحقيقا للهدف الذي أُنشئت من أجله المؤسسة.

المحور الثالث: المفهوم الإداري والوظيفي في المؤسسات ميدان البحث

- إجراءات الدراسة الميدانية

1-المنهج: نعتمد في دراستنا على المنهج المسحي ، حيث يفيدنا في التعرف على الظاهرة المدروسة في الوضع الطبيعي الذي ينتمي إليه من خلال جزء أو مسح المعلومات ذات العلاقة بمكوناتها الأساسية وما يسودها من علاقات خارجية وداخلية ضمن ظروف غير مصطنعة من خلال جمع المعلومات والبيانات المحققة لذلك.[2] ودراستنا هاته تنتمي إلى نوع الدراسات الوصفية التحليلية التي تتناسب مع نوع المنهج المستخدم.

2-المجال البشري: (مجتمع البحث) حتى يتاح لنا معرفة واقع الإشهار وأساليب تطبيقه وتطويره في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية ، ارتأينا دراسة عينة منها بدل دراسة مؤسسة واحدة فقط ، وما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق انه ليس من السهل على الباحث وخصوصا في ميدان الاتصال والإشهار أن يجد الأبواب مفتوحة أمامه عند توجهه إلى المؤسسات الاقتصادية الجزائرية.

- **عينة الدراسة وطريقة اختيارها:** العينة هي جزء من مجتمع الدراسة الذي من خلاله تجمع البيانات الميدانية ، بمعنى أن نختار مجموعة من أفراد المجتمع على أن تكون ممثلة للمجتمع الأصلي لنجري عليها الدراسة ، فهي إذن جزء معين من أفراد المجتمع الأصلي ثم نقوم بتعميم نتائج الدراسة على كل المجتمع ، فبعد أن يحدد الباحث المنهج الذي يطبقه في الوصول إلى حل المشكلة التي يدرسها وكذلك الوسائل والأدوات التي يستخدمها في جمع المعلومات والبيانات التي توصله إلى ذلك ، عليه أن يحدد بعدها نوع العينة التي يقوم بسحبها من المجتمع الأصلي ليجمع بياناته عنها ، أي على الباحث تحديد طريقة لسحب جزء من المجتمع يمثله تمثيلا يكفي لضمان صدق تعميم النتائج على المجتمع بأكمله.[3]

أما بالنسبة للعينة المعتمدة في البحث فقد تم الاستعانة "بالعينة القصدية" وهي التي نختار فيها الوحدات أو المفردات بطريقة عمدية ، وذلك تبعا لما يراه الباحث من سمات أو صفات أو خصائص تتوفر لهذه الوحدات أو المفردات التي تخدم أهداف البحث وتتشكل العينة ممن تتوفر فيهم المواصفات المحددة قبلا ، وعليه فالاختيار العشوائي يمكن أن تكون فيه مفردات لا تحمل المواصفات المطلوبة في البحث وهي التي تخضع في اختيار مفرداتها إلى التقدير الشخصي للباحث بحيث يلعب عامل التأكد الشخصي دورا في الاختيار المحقق للنتيجة النهائية.[4]

وتتمثل وحدة العينة في بحثنا بالنسبة للمؤسسات الاقتصادية في مختلف الأفراد المكلفين بمهام الإشهار في المؤسسة(**سواء كانوا مسؤولين أو إطارات مكلفة بهذه المهام باعتبارهم انسب وحدة للتحليل**) ، ومعنى هذا أن كل

مؤسسة هي مفردة ممثلة لمجتمع البحث(**مع مراعاة أن بعض المؤسسات يمكن أن تضم أكثر من مكلف بالاتصال**) وفيما يخص تحديد حجم العينة ، فهي متنوعة بحسب قطاع النشاط الذي تنشط فيه المؤسسة فشملت مؤسسات خدمية وأخرى صناعية وأخرى تجارية ، وشملت المؤسسات المتواجدة بالشرق الجزائري (سطيف ، برج بوعريريج ، قسنطينة ، سكيكدة ، عنابة)

وما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد أن عدد المؤسسات الاقتصادية الناشطة يفوق بكثير عينة الدراسة ولكن الملاحظ أن دراستنا استهدفت دراسة المؤسسات الاقتصادية المتواجدة بالمناطق الصناعية وهذا لحصر مجتمع البحث وإمكانية الإلمام بمفرداته من جهة ، ومن جهة ثانية أن نسبة كبيرة من المؤسسات تسيّر بطريقة المؤسسات العائلية(الذهنيات التقليدية في التسيير ، المالك هو كل شيء في المؤسسة ، بمعنى أنها لا تمتلك هيكلا تنظيميا واضحا يمكّن من دراستها)وكذا انتهاج أسلوب المفهوم الإنتاجي(المنتج يبيع نفسه بنفسه)، وهو السبب الأساسي في استبعاد عدد كبير منها لعدم تلاؤمها مع موضوع البحث وهذا بعد القيام بدراسة استطلاعية للعديد من المؤسسات الاقتصادية ، ويذكر أن الدراسة الحالية بنيت على أساس دراسة استطلاعية شملت مجموعة من المؤسسات بالولايات التالية: عنابة ، سكيكدة ، قسنطينة ، بجاية ، تيزي وزو ، قسنطينة ، سطيف ، برج بوعريريج ولكن بالرجوع إلى العدد الكبير للمؤسسات والتي انجر عنها صعوبات متمثلة في استحالة تغطية المؤسسات الاقتصادية بالولايات السالفة بالنظر إلى الاتساع الجغرافي من جهة والصعوبات التي واجهتنا من جهة أخرى والعراقيل الكبيرة في الوصول إلى هذه المؤسسات وكذا محدودية إمكانيات الباحث ، ارتأينا في الأخير الاعتماد على المؤسسات الاقتصادية المتواجدة بثلاث ولايات هي سطيف ، قسنطينة ، برج بوعريريج بالنّظر إلى إمكانية الإلمام بحجم المؤسّسات الاقتصادية من حيث العدد وكذا بحكم المجال الجغرافي ، وتبعا لذلك جاءت استمارة الاستبيان وتضمنت 14 سؤالا وفق المحاور التالية:

- **المحور الأول:** البيانات الشخصية
- **المحور الثاني**: الأبعاد الإدارية للإعلان في المؤسسة الجزائرية.
- **المحور الثالث**: النشاط الاشهاري الاتصالي في المؤسسة مجال البحث.
- **المحور الرابع**: الأبعاد الوظيفية للإعلان في المؤسسة.

المحور الخامس: مقترحات لتطوير المفهوم الإداري

- .والوظيفي لدى المؤسسة الاقتصادية الجزائرية

المحور الأول: البيانات الشخصية

جدول رقم 1: يوضح فئات العينة وفقا للجنس

الجنس	التكرارت	النسبة المئوية
إناث	35	68.63%
ذكور	16	31.37%
المجموع	51	100%

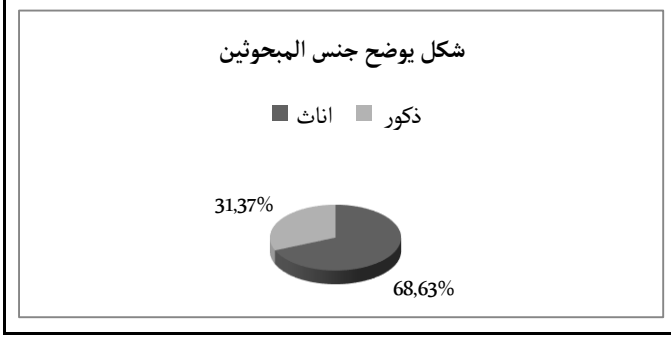

من خلال البحث حول توزيع المكلفين بالإشهار في المؤسسات ميدان البحث من حيث الجنس كشفت لنا الدراسة الميدانية أن نسبة الإناث تمثّل أعلى نسبة بـ68.63% في حين أن نسبة الذكور هي أدنى بـ31.37 %وهذا راجع إلى طبيعة النشاط الممارس في المؤسسات ، والذي يركز على استقطاب الجانب الأنثوي أكثر من الذكور.

ومن الخصائص البارزة الأكثر ملاحظة في مجال الاتصال والإشهار في الجزائر خاصية أساسية* [5] يتميز بها المكلفون بقطاع الاتصال والإشهار ، وهذا بالرجوع إلى كون قطاع الاتصال عموما والإشهار خصوصا من القطاعات القليلة جدا التي تعرف تفوق عدد النساء العاملات به على عدد الرجال العاملين به ، وكذلك أن هذا النوع من الأنشطة المؤسساتية القليلة التي تستقطب أكبر عددا من النساء ، ويمكن اعتبار ذلك أن الإشهار يتطلب:

- الاتصال المستمر مع الجمهور بأنواعه وتوظيف المرأة في عملية استقطاب الجمهور.

- استقبال الأطراف التي لها علاقة بالمؤسسة من جمهور ، مؤسسات ، وسائل الإعلام. الخ ، وهذا ما يفسره تفوق عدد النساء يصل إلى 68.63% في حين أن عدد الرجال لا يتعدى 31.37%.

وهناك العديد من العوامل التي تؤثر في نسبة المستخدمين في مجال الاتصال والإشهار في الجزائر وذلك مرتبط بعامل اجتماعي ، بحيث يعتقد أن المرأة في المجتمع الجزائري هي المرجعية في الأسرة وكذا الأكثر ارتباطا بالأسرة ، ومن ثمة بالمستهلكين ، فالنساء لهنّ ميل وقابلية اتجاه هذا النوع من النشاطات في المؤسسات الجزائرية أكثر من الرجال ، وخلف هذا التوظيف نيّة من وراء هذا الاستخدام ولكن السؤال الذي يبقى مطروحا هو هل هذا التوظيف مبني على أسس علمية كما هو الحال بالنسبة للمؤسسات التي تتبنى النظريات الذي ظهرت في مجال الإشهار والتي أثبتت أن هناك تأثيرا كبيرا لتوظيف المرأة والطفل (وان كان الأمر هنا مرتبطا أكثر بالصورة الاشهارية إلا أن الأمر سيان ، فالمهم حضور المرأة في العملية الاشهارية) أم أن هذا الحضور هو مجرد عملية روتينية غير محسوبة ، وهذا السؤال بحد ذاته يحتاج إلى دراسة في العوامل المختلفة لانتشار الظاهرة(أي اقتباس هذه الفكرة دون إيجاد مبررات علمية وموضوعية لها).

جدول رقم 2: يوضح سن المبحوثين

السن	التكرارت	النسبة المئوية
]20-29]	10	%19.61
]30-39]	27	52.94%
]40-49]	09	17.65%
]50 فما فوق	05	%9.80
المجموع	51	%100

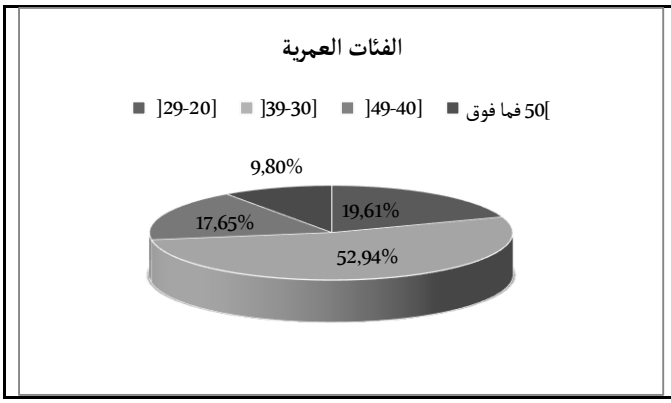

من خلال الجدول يتضح أن الفئة العمرية [20-29[تمثل نسبة 19.61% تليها الفئة من[30-39[بنسبة 52.94% ثم تأتي بعدها الفئة من[40-49[بنسبة 17.65% وفئة]50 فما فوق بنسبة 9.80% ، واعتماد المؤسسة على الفئة [20-29[راجع إلى أن هذه الفئة لا تزال في عمر الشباب وتتميز بالحيوية والنشاط والسرعة في التنفيذ في العمل ، وكثرة عددها يدل على كثرة التوظيف داخل المؤسسة وبالتالي زيادة تطور النشاطات التي تقدمها لاعتمادها على تجديد جمهورها الداخلي ، وما يقال عن هذه الفئة يقال عن فئة [30-39[بحكم الانتماء إلى فترة عمرية متقاربة ، أما اعتماد المؤسسة على الفئة [40-49[راجع إلى أن هذه الفئة تتميز بالحكمة والرزانة في اتخاذ القرارات وكذلك تمتعها بالخبرة والاحترافية في العمل.

وبالنسبة للعوامل الأخرى التي نرى بان لها دورا يتحكم في سنّ المكلفين بالإشهار على مستوى المؤسسات ميدان البحث هي:

- أنّ قطاع الإشهار قطاع يعتمد بالأساس على عنصر الشباب بحيث أن 72.55% منهم يقل عمرهم عن الأربعين سنة ، في حين أن الذين يفوق عمرهم الأربعين فلا يتعدى 27.45% ، منهم 9.80% يفوق عمرهم الخمسين سنة وهو عادة من مديري الاتصال أو ذوي التجربة.

وحضور الشباب شيء طبيعي في مجال الإشهار وذلك لعدة اعتبارات[6] * ، من بينها أن معظم المناصب والوظائف العاملة في الاتصال والإشهار في المؤسسات ظهرت خلال الخمسة عشرة سنوات الأخيرة بمعنى أنها حديثة (منذ سنة 2000)، وكذلك كون مجال الإشهار يمتاز بحركية الأطراف العاملة به من جهة وكون النشاط الاشهاري يستقطب العنصر الشباني أكثر بالنظر إلى انعدام هذا النشاط في فترة زمنية سابقة (حوالي عقدين من الزمن) لأسباب اقتصادية وقانونية واجتماعية.

جدول رقم 3 يوضح المستوى التعليمي

المستوى التعليمي	التكرارت	النسبة المئوية
جامعي	45	%88.24
دون الجامعي	06	%11.76
المجموع	51	%100

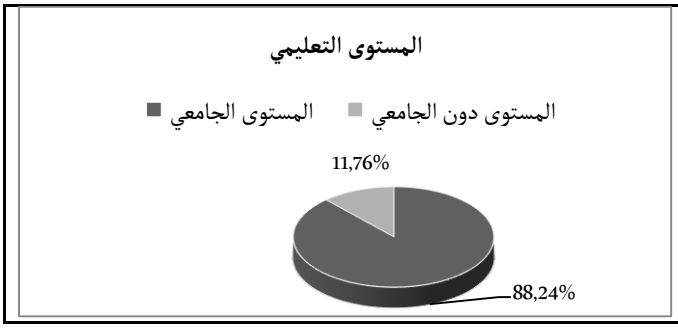

في إطار تحديد المستوى التعليمي لمفردات العينة ، تبين من خلال إجابات المبحوثين أن اغلب العاملين بالإشهار والاتصال بالمؤسسات ميدان البحث حاملون لشهادات جامعية ، بحيث أن 45 منهم لهم مستوى جامعي ، و6 منهم دون المستوى الجامعي طبعا باختلاف درجة تحصيلهم الجامعي(ليسانس ، دراسات عليا ، دراسات تطبيقية)، ومن خلال الأرقام الواردة في الجدول أعلاه أن نسبة الحاصلين على المستوى الجامعي تمثل أعلى نسبة بـ 88.24% في حين أن نسبة من لهم مستوى دون الجامعي هي أدنى بـ 11.76 %وهنا ربما يطرح الموضوع حول أهمية المستوى التعليمي وعلاقته بممارسة الوظيفة الاشهارية.

وما لا يختلف فيه اثنان انه من البديهي التأكيد على أن مستوى التطور والرقي في أي قطاع أو مهنة أو نشاط -بصفة عامة والنشاط الاشهاري والاتصالي بصفة خاصة -هو رهين بمستوى الكفاءات والفاعلين الذين يعملون به ، كما أن مستوى هذه الكفاءات مرتبط بتوفر عدة عوامل:

- مستوى ونوع التكوين المتحصل عليه ، فالملاحظ في بلادنا أن التكوين هو نتاج التعليم في القطاع العمومي مع نقص كبير في المعاهد والمراكز المتخصصة في مجال الإشهار لأسباب قانونية تنظيمية.

- مستوى التجارب والخبرة ، ودرجة المهنية والتمرس على العمل في مجال الإشهار والاتصال ، لأن التكوين لوحده لا يكفي لكي يجعل من خريج أحد المعاهد والمدارس أو الجامعات ، مهنيا فاعلا منذ الوهلة الأولى التي يلج فيها هذا المجال (إشكالية التحصيل العلمي النظري وعلاقته بالواقع).

وتأسيسا على ذلك يمكن أن نقول أن مستوى الكفاءة الذي يتوفر عليه المشتغلون بقطاع الإشهار والاتصال بالمؤسسات الاقتصادية الجزائرية مرتبط كثيرا بالفرص التي تتاح للقائمين على هذا النشاط ليس على أساس أهمية هذا النشاط والاعتراف به ولكن تلبية لأغراض أخرى في كثير من الأحيان ليس لها علاقة بأهداف ووظيفة الإشهار وأهميته الاقتصادية والاجتماعية والاتصالية ، وهو ما يجعل وجهة النظر إزاء النشاط الاشهاري ليس على أساس انه ضرورة حتمية بل كونه من الكماليات بالنسبة للمؤسسة.

- المحور الثاني: الأبعاد الإدارية للإعلان في المؤسسة الجزائرية.

المفهوم الإداري للإشهار لدى المؤسسة الاقتصادية:

تعد إدارة الإشهار ركنا أساسيا من أركان المؤسسة الحديثة ويستدل على هذا من خلال الاهتمام المتزايد الذي أصبحت توليه المجتمعات الحديثة لها ، فتأثير الإدارة ككيان ووجود فعلي في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية يؤثر في العملية الإنتاجية من جهة وفي فعالية المؤسسة من جهة أخرى ، مما يجعلها مكونا أساسيا يحظى بأهمية كبيرة أكثر من عناصر الإنتاج التقليدية الأخرى لا يمكن الاستغناء عنها.

ومن خلال هذا المحور للدراسة الميدانية حول المؤسسات الاقتصادية نتطرق إلى البعد الأول والمتمثل في البعد الإداري للإعلان ومفهومه لدى المؤسسات الاقتصادية ميدان البحث.

جدول رقم 04: هل هناك جهاز يتولى إدارة النشاط الاشهاري في المؤسسة [19]

هل هناك جهاز يتولى إدارة النشاط الإشهاري في المؤسسة	التكرارت	النسبة المئوية
نعم	30	%58.82
لا	21	%41.18
المجموع	51	%100

من خلال إجابات المبحوثين حول وجود جهاز يتولى إدارة النشاط الاشهاري من عدمه في المؤسسات ميدان الدراسة ، بينت لنا الأرقام أن ما نسبته 58.82% أجابت بوجود جهاز إداري يدير النشاط الاشهاري بالمؤسسة بغض النظر عن الطبيعة والمسمى الإداري لهذا الجهاز ، بينما أجاب ما نسبته 41.18% من المبحوثين بعدم وجود جهاز إداري.

والملاحظ من خلال الأرقام أن هناك غموضا فيما يخص الجهاز الإداري في حالة وجوده بالمؤسسة ، وهل أن الإجابات المتعلقة بعدم وجوده تحيل إلى أن الإشهار غائب في المؤسسة في الحالة الثانية ، وهذا السؤال في الحقيقة يشير إلى ممارسة الإشهار بطريقة ما قد تأخذ شكلين أو بعدين.

فالنسبة التي تؤكد على وجود جهة مكلفة بالإشهار في المؤسسة تمارسه عن طريق أجهزة إدارية مختلفة ، وفي الحالة الثانية لا يوجد جهاز إداري ولكن تتم ممارسة الإشهار بطرق ووسائل أخرى.

وفي هذا السياق يمكن تناول مفهوم إدارة الإشهار في المؤسسات الاقتصادية الجزائرية أيا كان نوعها من جانبين هما إدارة الإشهار كممارسة (عدم الاهتمام الكافي به من الناحية العلمية والإدارية) وإدارته كعلم (توفر الشروط العلمية والإدارية)[7].

- إدارة الإشهار كممارسة: الإدارة هنا هي استخدام للموارد البشرية والمادية والمالية والمعلومات والأفكار والوقت من خلال العمليات الإدارية المتمثلة في التخطيط ، والتنظيم والتوجيه والرقابة بغرض تحقيق الأهداف ، هذا ويقصد بالموارد:

- الموارد البشرية: الناس الذين يعملون في المنظمة بغض النظر عن تخصصهم وهنا نطرح إشكالية التخصص العلمي في ممارسة وظيفة الإشهار وهو حال الكثير من المؤسسات الاقتصادية الجزائرية.

- الموارد المادية: كل ما يوجد في المنظمة من مباني وأجهزة وآلات.

- الموارد المالية: كل المبالغ من المال التي تستخدم لتسيير الأعمال الجارية والاستثمارات الطويلة الأجل.

- المعلومات والأفكار: تشمل الأرقام والحقائق والقوانين والأنظمة.

- الوقت: الزمن المتاح لإنجاز العمل.

ويقصد بالعمليات الإدارية: التخطيط والتنظيم والتوجيه والرقابة.

الفاعلية: ويقصد بها مدى تحقيق أهداف المنظمة

الكفاءة: ويقصد بها الاستخدام الاقتصادي للموارد أي الاقتصاد في استخدام الموارد وحسن الاستفادة منها.

إدارة الإشهار كعلم: هو ذلك الفرع من العلوم الاجتماعية الذي يصف ويفسر ويحلل ويتنبأ بالظواهر الاشهارية ، والسلوك الإنساني الذي يجري في التنظيمات المختلفة لتحقيق أهداف معينة.

- المهارات الإدارية: يتطلب من أي مكلف بالإشهار أن يتمتع بالمهارات التالية:

* مهارات فكرية: كالقدرة على الرؤية الشمولية للنشاط الاشهاري ككل ، وربط أجزاء الموضوع ببعضها البعض ، وهذه المهارة مطلوبة أكثر لدى القائمين على النشط الاشهاري من جهة والإدارة العليا الإدارة العليا من جهة أخرى لتكون المحصلة ثقافة إعلانية فعالة وعلمية.

* مهارات فنية: كاكتساب مهارة اللغة والمحاسبة ، واستخدام الحاسوب وهي مطلوبة أكثر في المستويات الإدارية الدنيا.[8]

جدول رقم 05: يوضح الجهاز الذي يتولى إدارة النشاط الاشهاري في حالة الإجابة بنعم

الجهة المكلفة بالنشاط الإشهاري في المؤسسة	التكرارت	النسبة المئوية
مديرية التسويق	21	%70
مديرية التجارة	03	%10
قسم المبيعات	0	%0
قسم الاتصال	04	%13.33
قسم الإشهار	02	%6.66
المجموع	30	%100

لكي تكون العملية الاتصالية الإشهارية متكاملة ومتجانسة يفترض أن يكون القائم بالاتصال ذو كفاءات وقدرات تؤهلانه لأن يقوم بمهامه الاتصالية بطريقة جيّدة ، وقد يكون هذا العنصر فردا كرئيس إداري أو مدرّس أو عامل موجّه في المؤسسة ، أو في حالات أخرى قد يكون هذا المصدر منظمة أو هيئة.

ويمكن تعريف المكلف بالاتصال الاشهاري بأنه: "ذلك الشخص أو فريق العمل الذي ينتمي إلى الهيكل التنظيمي لإحدى المؤسسات أو خارجه ويتولى مهمة صنع وإنتاج وإدارة العملية الاشهارية بدءا من وضع الفكرة والسياسة العامة مرورا بمراحل الصياغة المختلفة وصولا إلى

الإخراج من اجل تقديم رسالة إعلانية للجمهور بهدف إقناعه والتأثير عليه.[9]

والمؤسسات اليوم على اختلافها أصبحت شبكات معقدة وكبيرة لتعدد الأطراف التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بها، تتطلب هي بدورها شبكات اتصال ضخمة خصوصا المؤسسات الاقتصادية التي أصبحت تعتمد بشكل كبير على الإشهار كشكل من أشكال الاتصال.

ومن خلال البيانات الواردة في الجدول أعلاه يتبين أن الجهات المكلفة بالإشهار على مستوى المؤسسات الاقتصادية مجال البحث كما يلي:

- مديرية التسويق بنسبة 70%-قسم الاتصال بنسبة 13.33%-مديرية التجارة بنسبة 10%-قسم الإشهار 6.66%

وعلى أساس هذه النسب نتساءل عن طبيعة القسم المسؤول عن إعداد العملية الاشهارية؟ إن القسم المسؤول عن إعداد العملية الاشهارية في عدد كبير من المؤسسات ميدان البحث هو مديرية التسويق التي تحتوي في عمومها على قسمين: قسم قوة البيع المكلف بشبكة التوزيع وتحديد قنواتها وقسم البيع المختص باستقبال طلبات الزبائن.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أنه يتعين على القائمين بالنشاط الاشهاري في المؤسسات أن يستوعبوا جيدا كيفية حدوث العملية الاشهارية والعوامل والمتغيرات المؤثرة فيها والعمل على فهم الطرف الثاني في العملية الاتصالية الاشهارية من خلال فهم كيفية تفسير الجمهور للرسائل الاشهارية وكيفية الاستجابة لها ومدى فعالية الإشهار في تحقيق الأهداف وهو ما يمكن أن نسميه بعملية اتخاذ القرار الاشهاري، وما يمكن قوله أن بإمكان القائم بالاتصال في المؤسسة أيا كانت وظيفته (مكلف بالعلاقات العامة، مكلف بالاتصال، مكلف بالترويج مكلف بالتسويق) القيام بشؤون النشاط الاشهاري بحكم أن الإشهار هو نشاط اتصالي بالدرجة الأولى.

ويمكن حصر مختلف الوظائف التي يقوم بها الجهاز في النشاط الاتصالي والإشهاري في المؤسسة وذلك من خلال عرض مختلف الأنشطة التي يقوم بها قسم التسويق ضمن السياق الداخلي والخارجي لعمل المؤسسة، بحيث أن مدير التسويق يعتبر طرف هام في عملية اتخاذ القرارات الاشهارية الاتصالية وصلاحيات عمله تكون ضمن حدود منصبه الإداري.

يعتبر فردريك تايلور المؤسس الأول لحركة الإدارة العلمية*، وكان حجر الأساس في مبادئ تايلور العلمية هو تحقيق أقصى كفاية إنتاجية للأفراد والآلات المستخدمة في الإنتاج من خلال ما يعرف بدراسة الزمن والحركة. ويحدد تايلور مبادئه في الإدارة العلمية على النحو التالي:

- تطبيق الأسلوب العلمي في تحديد العناصر الوظيفية بدلا من أسلوب الحدس والتقدير، وذلك من خلال تعريف طبيعة العمل تعريفا دقيقا، واختبار أفضل طرق الأداء، وأهم الشروط للعمل من حيث المستوى والمدة الزمنية المطلوبة لتحقيقه.

- تطبيق الأسلوب العلمي في اختيار وتدريب الأفراد لتحسين الكفاءة الإنتاجية.

جدول رقم 06: يوضح إذا كانت المؤسسة تلجأ إلى مصدر خارجي في حالة الإجابة بلا

هل تلجأ المؤسسة لمصدر خارجي	التكرارت	النسبة المئوية
نعم	18	%85.71
لا	03	%14.29
المجموع	21	%100

من خلال البيانات الواردة في الجدول أعلاه والمتعلق بمدى لجوء المؤسسة إلى الإشهار بواسطة مصادر خارجية، يتضح أن هناك إقبالا لا بأس به طرف المؤسسات للإعلان بواسطة مصادر خارجية وهذا بنسبة 85.71% في حين أجاب ما نسبته 14.29% بعدم اللجوء إلى مصدر خارجي.

ويرجع اهتمام المؤسسات الاقتصادية للجوء لهذه المصادر الخارجية إلى بعض العوامل التي نراها مهمة كما يلي:

- تلجأ هذه المؤسسات إلى الوكالات الاشهارية لعدة أغراض منها الإشهار للمنتجات والخدمات التي تقدمها، والعمل على ترسيخها في ذهن المستهلك، بالإضافة إلى دخول منافسين جدد في نفس المجال، وهذا ما يزيد من حدة المنافسة وبالتالي لا بد عليهم من إدخال أساليب وطرق جديدة من أجل خلق الميزة التنافسية والتعريف بها. كما قد تلجأ إلينا من أجل رفع المبيعات أو في حالة حدوث تغيرات أو تعديلات في المنتجات.

وما يلاحظ أن المؤسسات بمختلف نشاطاتها وأحجامها تلجأ إلى الوكالات الاشهارية لعدة أسباب ومشاكل تعاني منها وهذا ما يفرض عليها اللجوء إلى الوكالة باعتبارها وكالات متخصصة لديها القدرة على الإبداع والابتكار وإدخال أساليب وأفكار جديدة من شأنها ترسيخ المنتجات في أذهان الجماهير وإقناعهم باستخدام جميع الطرق والأساليب الإقناعية، ونلاحظ أن المؤسسات تلجأ إلى هذه الوكالات عند ظهور المنافسة واشتدادها، كما تلجأ إليها في حالة دخول منتج جديد يستدعي التعريف به وذكر مزاياه وخصائصه.

وما يقال في هذا الصدد أن هناك تباينا في أسباب إقبال المؤسسات على هذه الوكالات إلا أن هدفها واحد ألا وهو تحقيق الربح والمحافظة على الاستمرار والبقاء، وبما أنه سبق وذكرنا أن مختلف هذه المؤسسات لا تعي المعنى الحقيقي لوكالات الإشهار، لذلك فإن مجال اعتمادها عليها محدود جدا يقتصر في معظم الأحيان على الطباعة ولكن سبب اللجوء إليها يختلف من مؤسسة إلى أخرى حسب الهدف الذي تسعى مختلف المؤسسات إلى تحقيقه، فهناك مؤسسات تلجأ إلى الوكالات نتيجة دخول منافسين في مجال الإشهار، مما يستوجب عليها القيام بإعلانات وذلك باللجوء إلى متخصصين في المجال من أجل المحافظة على زبائنها وولائهم لماركاتها، كما قد تلجأ إليها عندما يكون هناك حاجة لكسب زبائن جدد من خلال التعديل في منتج معين، أو عند نقص في المبيعات، وتلجأ المؤسسات إلى هذه الأخيرة من أجل رفع مبيعاتها. وبالحديث عن هذه المؤسسات نجد أنها لم تع أهمية الإشهار ودوره الفعال إلا منذ فترة قصيرة حيث نجد هذه الأخير قد وضعت أقسام ومكاتب خاصة به على مستوى إدارتها ولذلك فهي في طريقها إلى إدراك المعنى الحقيقي للوكالات وأهم الوظائف التي يجب أن تقوم بها، بمعنى أنها في المستقبل سوف تلجأ إلى هذه الوكالات لأسباب أخرى كالحصول على نصائح وإرشادات فيما يخص وضع إستراتيجية الإشهار داخل المؤسسة.

وما نخلص إليه في الأخير انه بالرغم من أهمية وكالات الإشهار إلا انه لا يمكن الاستغناء عن إدارة الإشهار بالمنظمة والحقيقة أن إدارة الإشهار ووكالة الإشهار مكملتان لبعضهما البعض ولا يتنافسان بل تدعو لإنشاء إدارة الإشهار بجانب وكالة الإشهار لأسباب هي:

- أن استعانة المنظمة بوكالة الإشهار لا يعني عدم وجود وحدة متخصصة للإعلان نظرا لان هذه الوحدة تقوم بهمزة وصل بين المنظمة ووكالة الإشهار بحيث تقوم بإعداد المخصصات الاشهارية والموافقة على الخطط التي تضعها الوكالة وعلى الوسائل الاشهارية التي تعدها الوكالة والقيام ببعض النشاطات التي لا يقوم بها عدد كبير من الوكالات كالإشهار بالبريد والإشهار في المناطق البيعية الخ.

- أن مهمة وضع سياسة الإشهار وإستراتيجيته لا تفوض بأي شكل من الأشكال إلى وكالة الإشهار الخارجية بسبب ارتباط هذه السياسات بخطة التسويق العامة للمؤسسة وبذلك فعند استخدام وكالة خارجية للإعلان فان مدير الإشهار يجب أن يشترك اشتراكا فعليا مع الوكالة في تخطيط الحملات الاشهارية حتى يتأكد من مسايرتها لإستراتيجية التسويق العامة بالإضافة إلى أن الإدارة العليا للمنظمة تعتبر مدير الإشهار مسئولا مسؤولية مطلقة عن فشل أو نجاح الإشهار حتى إذا فوض جميع أعماله إلى الوكالة.

- قد تنصّ سياسة المنظمة بالسماح للإعلان عن السلعة فقط أو إعلان بقدر معين عن الشركة لتحسين سمعة إلى جانب ترويج سلعة قد يتولى العمل مدير عام أو مساعدين، إلا أن الذي يقوم بالعمل هو إدارة الإشهار.

- إذا استخدمت المؤسسة وكالة إعلانية فان المشرف والمحاسب والمراقب على أعمالها هو إدارة الإشهار بمعنى أن إدارة الإشهار هي الرقيبة على أعمال الوكالة وحسابات المنظمة معها ومدى صلاحيتها في رسم الخطط وتنفيذها.

جدول رقم 07: يوضح المواصفات المرتكز عليها عند الاعتماد على القائم بالإشهار

المواصفات	التكرارت	النسبة المئوية
الصفات الشخصية	20	%31.75
الإعداد العلمي	43	%68.25
المجموع	63	%100

***ملاحظة: عدد التكرارات اكبر من العينة وهذا راجع إلى إجابة المبحوث على أكثر من احتمال**

من المؤكد أن القائم بالاتصال يمثل دورا رئيسيا وهاما في نجاح النشاط الاتصالي في المؤسسة فهو كما يقول "إبراهيم إمام" يشبه الوتر الحساس الذي ينقل الأنغام

الصادقة الأصيلة من الرأي العام إلى المؤسسة ومن المؤسسة إلى الرأي العام، وهو المحور الأساسي الذي يدور حوله كل نشاط اتصالي أو إعلامي لذلك فمن الواجب أن تتوفر فيه خصائص شخصية ومهارات اتصالية معينة تمكنه من الإطلاع بمهامه الأساسية على وجه مرض، فالقائم بالاتصال يجب أن يكون حساسا ويقظا لاتجاهات الرأي العام وأراء الجماهير لينقلها بصدق وأمانة إلى مؤسسته، كما يتوجب عليه أن يكون ذا مهارة اتصالية ليستطيع بها أن يتعامل بالكلمة الواضحة المعبرة وبالأسلوب الصادق المؤثر مع الجماهير.

ويمكن أن تقسم متطلبات الاشتغال في ميدان الاتصال إلى قسمين هما[10]: -الصفات الشخصي-الإعداد العلمي.

فكفاءة القائم بالاتصال ترجع إلى مؤهلاته العلمية، هي نسبة المبحوثين الذين يرون أن كفاءة القائم بالاتصال ناتجة عن الدورات التكوينية المتحصل عليها من خلال التكوين العلمي المنتظم 68.25%.

ويمكن الاستناد إلى المقابلة لتدعيم رأي المبحوثين في كفاءة القائم بالاتصال إذ جاءت اكبر نسبة معبرة على أن كفاءة القائم بالاتصال ناتجة عن المؤهل العلمي بحكم تخصصه في الإعلام الاتصال وحصوله على شهادة جامعية في الإعلام والاتصال، وتلي ثاني نسبة 31.75% لتضيف أن كفاءة القائم بالاتصال ترجع إلى الخبرة المكتسبة في الميدان.

جدول رقم 08: يوضح أسباب الاهتمام بالإشهار في المؤسسة

إلى ماذا يرجع الاهتمام بالإشهار في المؤسسة	التكرارت	النسبة المئوية
درجة اهتمام المؤسسة بالنشاط الاشهاري	40	%47.06
حجم المؤسسة وحجم أعمالها (رأسمال).	25	%29.41
طبيعة القطاع الذي تعمل فيه المؤسسة	20	%23.53
المجموع	85	%100

***ملاحظة: عدد التكرارات أكبر من العينة راجع إلى إجابة المبحوث على أكثر من احتمال**

من خلال إجابات المبحوثين الواردة في الجدول أعلاه والمتعلق بأسباب الاهتمام بالإشهار في المؤسسة، يتضح أن هناك دواعي كثيرة لاهتمام المؤسسات ميدان البحث بالإشهار، وهذا وبينت الأرقام أن السبب الرئيسي للاهتمام بالإشهار هو درجة اهتمام المؤسسة بالنشاط الاشهاري بنسبة 47.06%، والسبب أنه من هنا بدأت الوظيفة التسويقية تظهر كضرورة لازمة لتواكب المؤسسة الاقتصادية الخاصة الظروف الجديدة، وأضحت كل من العلاقات العامة والإشهار أو الاتصال الاشهاري أدوات أساسية لتسيير وضع المنافسة، ذلك أن التصور التقليدي للمنتج باعتباره إشباعا بيولوجيا فقط أصبح متجاوزا وحل محله تصور جديد لدى المؤسسة الخاصة يعتبر المنتج بالإضافة إلى كونه إشباعا بيولوجيا يتضمن إشباعا نفسيا واجتماعيا ومعرفيا واتصاليا كذلك، وكان هذا هو الهدف الجديد لإستراتيجيات التسويق في ظل قدرة جميع المنتجات الموجودة في السوق على ضمان الإشباعات البيولوجية.

من هذا المنطلق اكتسب المستهلك مكانة ريادية في النشاط الاقتصادي، حيث وبعد أن كان الطلب في ظل الاقتصاد المسير مهمّشا لصالح العرض، قد أصبح بخصوصيته المحرك الأساسي لعملية الإنتاج كلها، وأصبحت بذلك خطوة مراعاة الأذواق والتفضيلات ومختلف السلوكيات الاستهلاكية النوعية والكمية مدخلات يجب الحصول عليها قبل اتخاذ أي قرار إنتاجي، هذا ما يوافق قول "بينو مارتينو" Martineau.P حين قال "**بدلا من النظر للمستهلك انطلاقا من المنتج، ينبغي علينا النظر إلى المنتج بعيني المستهلك**" وفي ظل كل هذه المتغيرات وجد الإشهار مكانته كأحد ركائز الاقتصاد الحر وشعاع توجيه المنافسة الحرة.

والسبب الثاني والمتمثل في حجم المؤسسة وحجم أعمالها (رأسمال) بنسبة 29.41% والعامل الأخر والمرتبط بالنقلة النوعية التي عرفها اقتصاد الجزائر بعد خروجه من نمط الاقتصاد الموجه إلى الاقتصاد الحر، نقلة لم تكن سهلة ودون عقبات، إذ بات يواجه تحديات عديدة أملتها نمطيات الاقتصاد الليبرالي، غيرت واقعنا الاقتصادي رأسا على عقب، وفي الوقت الذي كانت تحاول فيه المؤسسة الجزائرية تجاوز

مشكلة التسيير والإنتاج والتمويل بدأت المؤسسات والمنتجات الأجنبية تتهافت على سوقها كنتيجة مباشرة للسياسات التي انتهجتها الجزائر في ظل العولمة ، فالوصول الفجائي والقوي للسلع الأجنبية وبالنوعيات المختلفة والأسعار التنافسية كذلك اتفاق الشراكة مع الاتحاد الأوربي والمناطق الحرة وما سيترتب عن انضمام الجزائر إلى المنظمة العالمية للتجارة مستقبلا ، لن يزيد الواقع إلاّ تعقيدا من خلال الحضور الرهيب للمؤسسات الأجنبية التي تفرض منطقها في السوق ، كونها لا تكتفي بالحضور الكلاسيكي الظرفي في السوق بل تسعى للاستحواذ على أكبر حصة ممكنة في السوق ، وهذا ما يفسر دخولها السوق بكل الأدوات اللازمة[11] ، وفي الأخير طبيعة القطاع الذي تعمل فيه المؤسسة بنسبة 23.53%) .

جدول رقم 09: يوضح مكانة الإشهار في الهيكل التنظيمي للمؤسسة

مكانة الإشهار في الهيكل التنظيمي للمؤسسة	التكرارت	النسبة المئوية
الإشهار كوظيفة أساسية تتبع مجلس الإدارة مباشرة	06	%20
الإشهار فرعا من فروع التسويق	21	%70
الإشهار تابعا لمدير المبيعات	02	%6.66
الإشهار تابعا لمدير العلاقات العامة	01	%3.33
المجموع	30	%100

يختلف موقع إدارة الإشهار في الهيكل التنظيمي من مؤسسة لأخرى وذلك باعتبار حجم المؤسسة ونطاق نشاط هذه الإدارة وأهميتها في النسيج المؤسساتي ويتحدد مكان إدارة الإشهار في الهيكل التنظيمي بحسب درجة اهتمام المؤسسة بنشاط الإشهار داخلها ويوضح الهيكل التنظيمي للمؤسسة حدود السلطة والمسؤولية لكل وظيفة من وظائفها ويحدد قنوات الاتصال وتدفق المعلومات كما يحدد السلطات الاستشارية والتنفيذية والذي يساعد على تنظيم العمل وتحقيق الأداء الجيد ، ولا يختلف تنظيم إدارة الإشهار عن باقي الإدارات.

ومن خلال البيانات الواردة في الجدول أعلاه حول تبعية لجهاز إداري ما في الهيكل التنظيمي للمؤسسات ميدان البحث تبين أن ما نسبته 70% من المؤسسات التي تمتلك جهازا إداريا للإعلان تتبع إدارة الإشهار إلى مديرية التسويق وتعتبره فرعا تابعا لها ، وربما يمكن تفسير تموقع جهاز الإشهار وتبعيته إلى مدير التسويق كون أن هذه المرحلة طبيعية جدا تعكس الاهتمام بنشاط أصبح من غير الممكن لأي كان أن ينكر أهميته وجدواه بالنسبة للمؤسسة في حد ذاتها.

في حين أن ما نسبته 20% من المؤسسات تجعل من إدارة الإشهار تابعة إلى المديرية العامة للمؤسسة ، وهذا يدل على النظرة الاحترازية والاحتياطية للإعلان كنشاط في المؤسسة واعتباره نشاطا لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يخرج عن سيطرة المديرية العامة ، وفي هذه الحالة يعتبر الرئيس المدير العام الممثل الطبيعي والضروري للمؤسسة في المجال الاشهاري الاتصالي ، لأن له صلاحيات إدارية كبيرة جدا ، فهو الممثل الوحيد للمؤسسة أمام الصحافة ، الموظفين ، الأوساط المالية... وغيرها ، وبذلك فشخصيته وخطاباته تنعكس على صورة المؤسسة الداخلية والخارجية ، وهو يجمع عدّة وظائف اتصالية تجعله يتميز بميزات أهمها:

- يعتبر محور الاتصال الداخلي.
- يعتبر القطب الموحد لعمليات الاتصال الخارجي.
- يعتبر المسؤول الاتصالي الأول في الحالات العادية وفي حالة الأزمات.[12]

وتكتسي إدارة الإشهار أهمية بالغة داخل المؤسسة وخارجها بالنظر إلى الأسباب الداعية لإيجاد مثل هذه الإدارة ، ومن أهمها أنّ التنظيم الجيد للنشاط الاشهاري من تحديد المسؤوليات وتوجيه الجهود نحو تحقيق الأهداف يحقق للمؤسسات الاقتصادية الجزائرية الأهداف التالية:

1) تحديد أهداف الإشهار داخل المؤسسة من قبل الإدارة المعنية بذلك وهي إدارة الإشهار.
2) التنسيق بين الإدارة داخل المؤسسة ووكالات الإشهار الخارجية.
3) اتخاذ القرارات المتعلقة بالمنتج الواجب الإشهار عنه ، الأسواق التي ينبغي استهدافها ، والوكالات الاشهارية التي ينبغي الاستعانة بها.

تقييم المواقف التي تحتاج فيها إدارة الإشهار إلى خدمات خارجية لتعزيز فعالية الإشهار وإضفاء الصبغة الاحترافية عليه.

وفي الأخير يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أن التنظيم الداخلي لإدارة الإشهار، يتوقف إلى حد كبير على وضع الإشهار في التنظيم العام من حيث كونها إدارة مستقلة أو قسم صغير تابع لمدير المبيعات أو مدير العلاقات العامة بالإضافة إلى تحديد مدى الاستعانة بوكالات إعلانية أو بمكاتب استشارية متخصصة بصفة دائمة أو مؤقتة وبشكل عام يمكن القول أن التنظيم الداخلي لإدارة الإشهار يتوقف على عدة عوامل منها: -طبيعة عمل المؤسسة المعلنة ونطاق نشاطها-مدى انتشار عملائها و تمركزهم.

-تنوع منتجات المؤسسة أو الأطراف التي تتعامل معها-المسؤولية الملقاة على عاتق إدارة الإشهار.

جدول رقم 10: يوضح أسس تنظيم إدارة الإشهار

أسس تنظيم إدارة الإشهار	التكرارت	النسبة المئوية
التنظيم الإداري للإعلان على أساس وظيفي	16	%53.33
التنظيم الإداري للإعلان على أساس العملاء	05	%16.67
التنظيم الإداري للإعلان على أساس المنتجات	05	%16.67
التنظيم الإداري للإعلان على أساس جغرافي	04	%13.33
المجموع	30	%100

تأخذ الأسس التنظيمية لإدارة الإشهار أشكالا مختلفة، بالنظر إلى مجموعة من العوامل هي طبيعة عمل المؤسسة المعلنة والنطاق الجغرافي لنشاطها أولا، مدى انتشار عملائها وتمركزهم ثانيا، وأخيرا تنوع منتجاتها، وتنوع الجهات التي تتعامل معها.

وتبين البيانات المتحصل عليها من الدراسة الميدانية حول الأسس المتبعة في تنظيم إدارة الإشهار، أن التنظيم على أساس وظيفي يحتل مكانة جد مهمة لدى المؤسسات ميدان الدراسة وهذا بنسبة 53.33 %

- التنظيم الإداري للإعلان على أساس العملاء بنسبة %16.67

- التنظيم الإداري للإعلان على أساس المنتجات %16.67

- التنظيم الإداري للإعلان على أساس جغرافي %13.33

- **المحور الثالث: النشاط الاشهاري الاتصالي في المؤسسة مجال البحث.**

جدول رقم11 : يوضح النشاط الاتصالي في المؤسسة

النشاط الاتصالي		التكرارت		النسبة المئوية
إعلان		40		%36.70
علاقات عامة		17		%15.60
اتصال تسويقي		35		%32.11
أخرى	رعاية	11	17	%10.09
	تمويل	06		%5.50
المجموع		109		%100

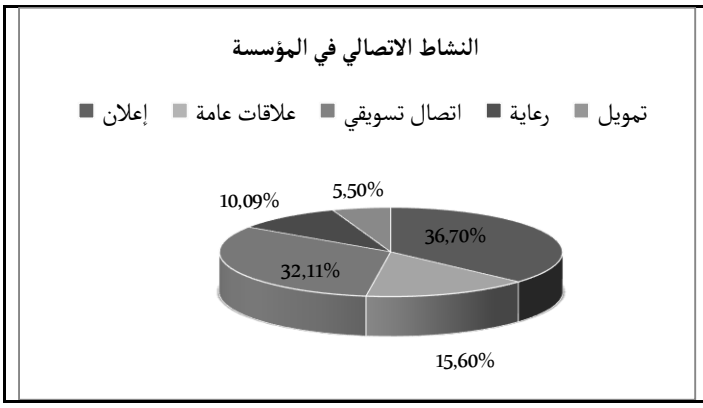

***ملاحظة: عدد التكرارات أكبر من العينة راجع إلى إجابة المبحوث على أكثر من احتمال.**

في حقيقة الأمر أن العلاقة بين المؤسسة وجمهورها لا يمكن حصرها في عملية الإنتاج والبيع فقط وفق ما يظنه البعض من أصحاب المؤسسات الاقتصادية، فالمؤسسة مطالبة بالسعي لأن تعرف حاجات ورغبات المجتمع بصفة عامة وجمهورها بصفة خاصة، فالاتصال الاشهاري هنا يمثل الجسر الذي يعزز التفاعل بين المؤسسة وجمهورها من خلال

الحصول على مدخلات وصياغتها في مخرجات تحقق التكيف مع البيئة الخارجية (جمهور ، مؤسسات ، مجتمع) فالملاحظ هنا وجود عملية تبادل للمعلومات بين طرفي الاتصال.

ولا يقف الأمر عن هذا الحد من وراء الاستعانة بالإشهار بل يتعداه إلى عملية الإقناع لما تقدمه المؤسسات الاقتصادية سواء تعلق الأمر بها أو بمنتجاتها وهذا لإدامة صلة العلاقات لما بينها وهذا يكون في إطار التذكير بين الحين والآخر بالمؤسسة ومنتجاتها وأفكارها ، وهنا يطرح السؤال حول ما هي الأساليب الاتصالية المعتمدة ؟

ومن خلال البحث حول الأنشطة الاتصالية المعتمدة في المؤسسات ميدان البحث ، كشفت لنا الدراسة الميدانية من خلال الأرقام الواردة والتي تعكس إجابات المبحوثين في الجدول أعلاه أن نسبة الاعتماد على الإشهار تمثل 36.70 %في حين أن نسبة الاعتماد على العلاقات العامة هي 15.60 ، بينما كانت نسبة الاعتماد على الاتصال التسويقي بـ 32.11% وحازت نسبة الأنشطة الاتصالية الأخرى على نسبة 15.60% والمتمثلة في نشاطي الرعاية والتمويل والتي يعتبرها البعض نشاطا ثانويا ضمن الأنشطة السابقة ، وهذا راجع إلى طبيعة نشاط المؤسسات الاقتصادية مجال البحث.

وبالرجوع إلى هذه النسب نجد أن اغلب المؤسسات لا تعتمد على الإشهار فقط لترويج منتجاتها فإضافة إليه تعتمد على تنشيط المبيعات والرعاية بالإضافة إلى حضور تظاهرات عديدة من بينها المشاركة في المعارض الوطنية والدولية التي تقام بصفة دورية ، ويعتبر نشاط الإشهار من الأنشطة الهامة التي تتسم بالاستمرارية والتطور وهذا لاشتداد المنافسة بين مختلف المؤسسات وفي جميع المجالات خاصة الاقتصادية منها ، وقد شهد هذا النشاط ازدهارا ملحوظا في الجزائر مؤخرا نتيجة للمنافسة التي فتح بابها كل من القطاع الخاص والمؤسسات الأجنبية التي تلجأ كثيرا لهذا النشاط وتعتمد عليه إدراكا منها لأهميته الكبرى في توطيد علاقة المؤسسة بعملائها.

وتبرز مجموعة من العوامل تؤثر في اختيار المؤسسة الاقتصادية الجزائرية لأشكال الاتصال ، وترجع المؤسسات إلى عنصر دون آخر أو مزج عنصرين أو أكثر بالنظر إلى الأسباب التالية [13] *:

- **طبيعة الجمهور المستهدف**: إذ أن تنوع الجمهور الجزائري يستلزم طريقة وشكلا اتصاليا معينا.

- **طبيعة المنتج**: فكل نوع من أنواع المنتجات وله شكل اتصالي معين فمثلا منتج موزعات البنزين لا يحتاج إلى الإشهار في التلفزيون مثلا بقدر ما يحتاج إلى تقنية حول المنتج وتنظيم زيارات للزبائن والتعريف بالمنتج من خلال مندوبي البيع.

- **طبيعة المنافسة**: كذلك تفرض نوع الأسلوب أو الشكل الاتصالي المتبع ففي حالة المنافسة الشاملة تفرض على المؤسسة إتباع الأساليب الاتصالية للمنافسين.

- **طبيعة الأهداف**: فكل هدف وله شكله الاتصالي الذي يؤدي إلى تحقيق أكبر عدد من المكاسب للمؤسسة.

- **الموارد المتاحة**: فالمخصصات المالية للاتصال هي التي تفرض شكل الاتصال الذي ستعتمده المؤسسة وكلما كانت المخصصات كبيرة كلما كان التركيز على جميع العناصر والعكس كلما قلت كان التركيز على عنصر أو اثنين فقط.

وما هو ملاحظ أن نسبة معتبرة من المؤسسات لا تكتفي بالإشهار وحده في تعريف منتجاتها بل هي تنوع في الأساليب حتى تضمن شهرة واسعة لجمهورها لان ما جاء في إجابة المبحوثين يعكس أن هناك سعيا لتحقيق أهدافها المتمثلة في زيادة شهرة المؤسسة بإتباع شتى وسائل تسويقية متكاملة كما سبق ذكرها بالإضافة إلى هذه الأساليب هناك أساليب أخرى يمكن للمؤسسة أن تلجأ إليها تدعيما وتكميلا لهذه الأساليب من بينها العلاقات العامة والبيع الشخصي ، وتنشيط المبيعات.

وكنتيجة أمكن الوصول إليها أن الثقافة الاتصالية في المؤسسات ميدان البحث محصورة في إعطاء الإشهار أهمية اكبر من الأشكال والأنماط الاتصالية الأخرى كالعلاقات العامة والاتصال التسويقي والاتصال الحدثي (الرعاية ، التمويل ، التبني) وان كانت هذه الأخيرة لا تحظى بالاهتمام الكافي كون هذه الثقافة ليست منتشرة بالحد الكافي.

إنّ نجاح المؤسسة في تحقيق أهدافها المنتظرة يتطلب من المكلف بالإشهار حسن اختياره لأسلوب يتناسب مع طبيعة المنتج المعلن عنه والجمهور المستهدف وهنا يطرح

التساؤل ما هي المكانة التي يحتلها الإشهار ضمن المزيج الاتصالي المعتمد من قبل المؤسسات ميدان البحث على المديات الطويلة والمتوسطة ؟

- المحور الرابع: الأبعاد الوظيفية للإعلان في المؤسسة

جدول رقم 12: يوضح أسباب اللجوء إلى الاعتماد على الإشهار

الأسباب	التكرارت	النسبة المئوية
التناقص التدريجي للمبيعات -الحصة السوقية-بفعل المنافسة	37	%54.41
التطورات الحاصلة في السوق	16	%23.53
من مواصفات الجودة	15	%22.06
المجموع	68	%100

***ملاحظة: عدد التكرارات أكبر من العينة راجع إلى إجابة المبحوث على أكثر من احتمال.**

من خلال البحث في أسباب اللجوء إلى الاعتماد على الإشهار في المؤسسات ميدان البحث ، كشفت لنا الدراسة الميدانية من خلال إجابات المبحوثين الواردة في الجدول أعلاه أن هناك تنوع في الأسباب التي تدفع بالمؤسسات إلى اللجوء للإعلان من بينها:

- التناقص التدريجي للمبيعات -الحصة السوقية-بفعل المنافسة بنسبة 54.41%.
- التطورات الحاصلة في السوق بنسبة 23.53%.
- من مواصفات الجودة بنسبة 22.06%.

ومن خلال التمثيل البياني يمكن توضيح أسباب الاعتماد على النشاط الاشهاري في المؤسسات ميدان البحث كما يلي:

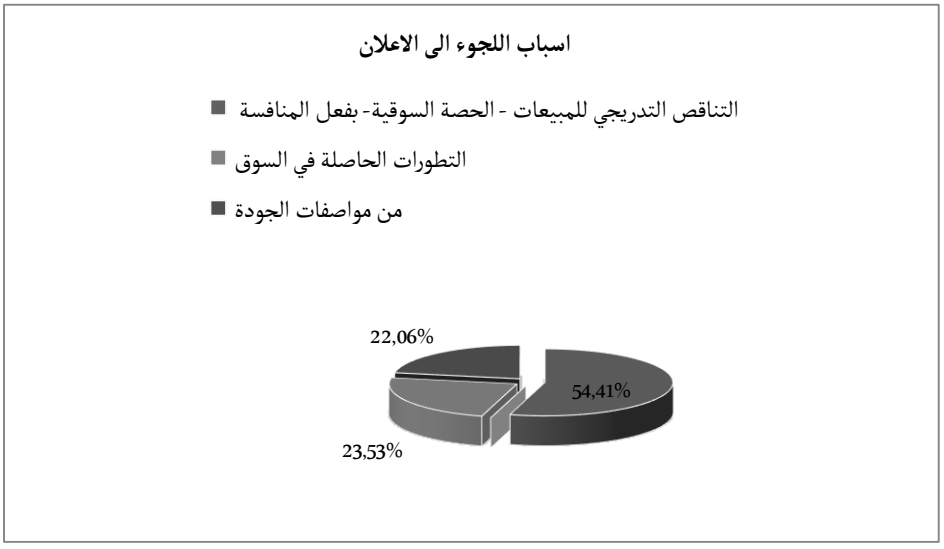

والسؤال الذي يطرح هنا هو لماذا تحتاج المؤسسات الاقتصادية الجزائرية إلى تبني التوجه الاتصالي عموما والاشهاري خصوصا ؟

وعلى هذا الأساس يمكن التطرق إلى المراحل التي يمكن من خلالها الوصول إلى تحقيق الأهداف وهي مراحل تاريخية لا يمكن إجراء عملية تطوير المفهوم الإداري والوظيفي ما لم تمر عليها وهي كما يلي:

- **المرحلة الأولى:** وهو المفهوم الإنتاجي.
- **المرحلة الثانية:** المفهوم البيعي.
- **المرحلة الثالثة:** المفهوم التسويقي.

- **المرحلة الرابعة:** المفهوم الاجتماعي للتسويق.

جدول رقم 13: المقصود ببحوث الإشهار

المقصود ببحوث الإشهار	التكرارت	النسبة المئوية
تطبيق الطريقة العلمية في الإشهار	04	%7.84
التأكد من تحقيق الأهداف	15	%29.41
لا اعرف ماهي	32	%62.75
المجموع	51	%100

تعتبر بحوث الإشهار من الوظائف المهمة التي ينبغي على المؤسسة الاهتمام بها ، لأنها تؤدي إلى إنتاج إعلان ناجح وفعال (مؤثر ويصل إلى الجمهور) يحقق الهدف المطلوب ، وبتعبير بسيط يتفق عليه المشتغلون في مجال الإشهار انه:"تطبيق الطريقة العلمية في حل المشاكل الاشهارية".[14]

والمقصود بالطريقة أو النشاط العلمي هو أنه أسلوب يهدف إلى تخفيض عنصر عدم التأكد إلى أقل حد ممكن فبحوث الإشهار تهدف بالدرجة الأولى إلى إدخال الطريقة العلمية إلى ميدان الإشهار حيث أنها تساعد القائمين على الإشهار على تضييق دائرة الشك وعدم اليقين ، والبحث العلمي مرادف لمفهوم الطريقة العلمية لأنه يمتاز باستخدام معيارين هما: الثبات والمصداقية ، فتعني الأولى أن نتائج البحث لا تتغير بتغير الزمان والمكان والثانية قدرة البحث على قياس ما هو مطلوب قياسه.

ومن خلال النتائج الملاحظة من الجدول يتبين أن وجهة نظر المبحوثين متفاوتة إزاء مفهوم بحوث الإشهار بحيث يرى ما نسبته 62.75% أنها لا تحمل أي فكرة عن المقصود ببحوث الإشهار ، وما نسبته 7.84% أن البحوث هي تطبيق الطريقة العلمية.

ويرى ما نسبته 29.41% من المبحوثين أنّ بحوث الإشهار هي التأكد من أن إعلانات الوكالة الاشهارية ستحقق الأهداف والأثر الإقناعي لدى الجمهور ومن أهم الوظائف التي يرتكز عليها هنا ما يلي[15] *:

- دراسة الجمهور من اجل معرفة خصائصه وكيفية الوصول إليه من خلال صياغة رسالة إعلانية مناسبة.

- تحديد الاستراتيجيات الإقناعية والاستمالات والأساليب المناسبة.

- اختيار الوسائل الاشهارية المناسبة.

- تقييم الحملة الاشهارية.

ومن خلال وجهات النظر هاته يتضح أن هناك غموض كبيرا وعدم وضوح الإشهار بالنسبة للقائمين على النشاط الاشهاري في المؤسسات الاقتصادية ميدان البحث ، حيث أنها تهمل بعض النقاط التي تحدد أسباب تفضيل المستهلكين والنقاط البيعية ذات التأثير الأكبر ، وبحوث المستهلكين والدوافع والمنتجات والخدمات وبحوث المبيعات من حيث التحليل والتنبؤ والرقابة وبحوث منافذ البيع ، وتكمن أهمية الإلمام بمفهوم بحوث الإشهار على مستويين (نظري وتطبيقي) في تحقيق فائدتين يمكن أن تعم نتيجتها على المؤسسات الاقتصادية الجزائرية هي:

- إبراز أهمية بحوث الإشهار في تفعيل النشاط الاشهاري.

- الاستدلال على جدوى أن الاشهارات المبنية على أساس البحوث الاشهارية تكون ناجحة عن تلك التي تكون بشكل عشوائي أو نتيجة الحدس والتخمين.

وكل هذا يؤدي إلى تطوير الثقافة الاشهارية والتي تعني الاستخدام المنظم للمعرفة العلمية بهدف استحداث أو تحسين أداء القائمين على الإشهار(الإداريون) مما ينعكس على إستراتيجية النشاط الاشهاري كلية ويكون تطوير النشاط الاشهاري محصلة الاستعانة بالبحوث العلمية في مجال الإشهار ، وهو ما ينتج عنه تكوين وترسيخ ثقافة اشهارية تساهم بدرجة كبيرة في تحقيق الفعالية والكفاءة.[16]

شكل رقم 01: يوضح المراحل التاريخية لتطور مكانة الإشهار[17]

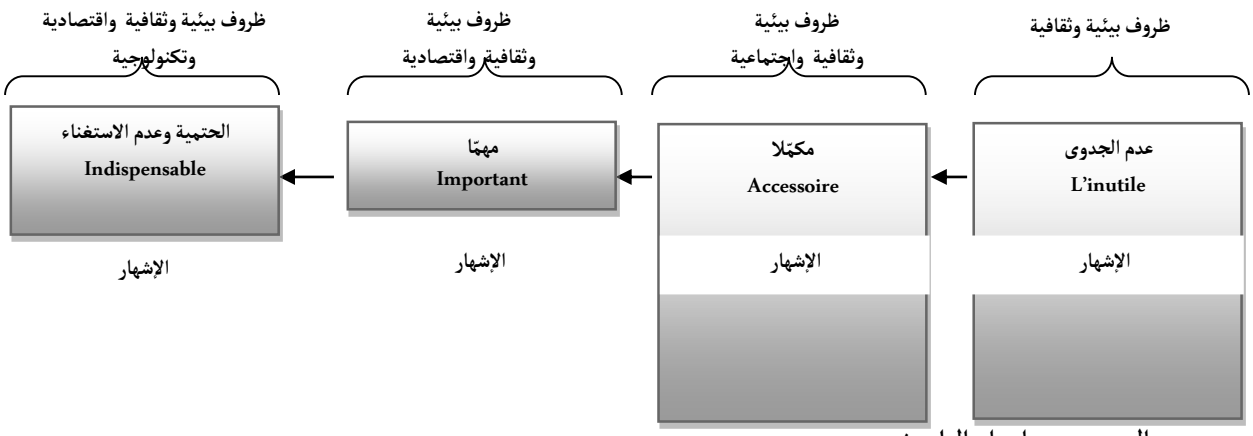

المصدر: من إعداد الباحث

جدول رقم 14: يوضح الهدف من القيام ببحوث الإشهار

الهدف من القيام ببحوث الإشهار	التكرارت	النسبة المئوية
جمع المعلومات عن بيئة المؤسسة	11	% 815.2
تحديد مكانة المؤسسة والمنتج والعلامة	36	% 50
تطوير الأداء المؤسساتي	08	% 11.11
عمل وطريقة روتينية	17	% 23.61
المجموع	72	% 100

***ملاحظة: عدد التكرارات اكبر من العينة وهذا راجع إلى إجابة المبحوث على أكثر من احتمال**

من خلال البيانات الواردة في الجدول أعلاه والمتمثلة في البحث عن الهدف من وراء القيام ببحوث الإشهار تبين أن هناك أهدافا عديدة من القيام ببحوث الإشهار حسب ما تبينه النسب التالية:

- الهدف من القيام ببحوث الإشهار هو جمع المعلومات عن بيئة المؤسسة بنسبة 15.28% ومما لا شك أن هذا الأخير يعتبر من أهم المسائل التي يتعرض لها القائمون على النشاط الإشهاري للمؤسسة الاقتصادية الجزائرية علما بان موضوع بيئة المؤسسة لا يقتصر على المؤسسة في حد ذاتها بل يتعدى ذلك ليشمل العلاقات بين المؤسسة والمحيط.

وهذا ما يؤكده تعريف المؤسسة كنظام مفتوح في إطار نظرية الأنظمة ، وبذلك فان المؤسسة الاقتصادية تعتبر نظاما مكون من مدخلات وعمليات تحويل ومخرجات كما يوضحه الرسم التالي:

شكل رقم 02: يوضح المؤسسة كنظام مفتوح.[18]

المصدر: من إعداد الباحث

-

الهدف من القيام ببحوث الإشهار هو تحديد مكانة المؤسسة والمنتج والعلامة بنسبة 50%

- الهدف من القيام ببحوث الإشهار هو تطوير الأداء الاشهاري بنسبة 11.11%

- الهدف من القيام ببحوث الإشهار هو عمل وطريقة روتينية بنسبة 23.61%

وبصفة عامة وكملاحظة شاملة حول وجهة النظر إزاء هذه البحوث يمكن أن نخلص إلى أن النظرة التي يمكن

اعتبارها أكثر انتشارا في أوساط المؤسسات الاقتصادية الجزائرية هي اعتبار أن بحوث الإشهار هو تحقيق التميز المؤسساتي عن طريق أداة من أدوات الإشهار، وهذا يدل على أن عنصر المنافسة بوجوده يؤدي بالمؤسسة إلى استخدام الإشهار للتعريف بالمؤسسة ومنتجاتها وعلامتها التجارية والإقناع بأهمية كل هذه العناصر في الحياة الاقتصادية، وتبني أطروحات وأفكار إلى وقت قريب كانت في طي اللامبالاة.

ولكن كذلك يمكن أن نلاحظ بان هناك نظرة سلبية لاعتقاد الكثير من المبحوثين أن هذه البحوث هي ماهي إلا تأدية لوظائف روتينية نجدها تفتقر إلى التكيف مع شروط ومتطلبات البيئة الاقتصادية، وهو ما يجعلنا نقول أن المبحوثين يقومون بهذه البحوث لحد ذاتها وليس لتحقيق أغراض تساهم في تحقيق أهداف المؤسسة بحسب المواقف التي تصادفها.

نتائج الدراسة

من خلال النتائج الدراسة تتجلى لنا نسبيا الصورة العامة للظاهرة محل الدراسة من حيث وجود توافق بين متغيرات الدراسة من عدمها من جهة، ومدى إعطاء المؤسسة أهمية للإعلان من حيث الشكل والمضمون من جهة أخرى، أو بالأحرى من حيث إسناد وظيفة الاتصال إلى جهة مكلفة به تضم أشخاصا أو إطارات ذوي كفاءات والتي تقوم بإسقاط هذه الكفاءات الاتصالية على ممارسة أنشطة إعلانية تراها مناسبة حسبها.

- نسبة الإناث تمثل أعلى نسبة بـ 68.63 %في حين أن نسبة الذكور هي أدنى بـ 31.37 %

- تمثل نسبة المبحوثين من الفئة العمرية 30-39 أعلى نسبة وقدرت بـ 52.94%

- اغلب العاملين بالإشهار والاتصال بالمؤسسات ميدان البحث حاملون لشهادات جامعية، بحيث أن 88.24% منهم لهم مستوى جامعي، و11.76% منهم دون المستوى الجامعي.

- نسبة الاعتماد على الإشهار تمثل 36.70 %في حين أن نسبة الاعتماد على العلاقات العامة هي 15.60 %بينما كانت نسبة الاعتماد على الاتصال التسويقي بـ 32.11% وحازت نسبة الأنشطة الاتصالية الأخرى على نسبة 15.60% والمتمثلة في نشاطي الرعاية والتمويل.

- نظرة المبحوثين متفاوتة إزاء مفهوم بحوث الإشهار بحيث يرى ما نسبته 62.75% أنها لا تحمل أي فكرة عن المقصود ببحوث الإشهار، ويرى ما نسبته 29.41% من المبحوثين أنّ بحوث الإشهار هي التأكد من أن إعلانات الوكالة الإشهارية تحقق أهداف المؤسسة.

- أغلبية هذه المؤسسات تحتوي على جهة مكلفة بالإشهار مع اختلاف في طبيعة هذه الجهة.

- الجهةالأساسية المكلفة ببحوث الإشهار هي قسم التسويق وهذا بنسبة 78.43%، ثم تلي المديرية التجارية بنسبة 11.76%، وتكاد تنعدم الجهة المكلفة بالبحوث في حالة قسم الاتصال أو الإشهار حيث لا نكاد نجدها إلا في حالات قليلة وهذا ما تعكسه النسب 5.89% و 3.92% على التوالي.

- هناك أهداف عديدة من القيام ببحوث الإشهار حسب ما تبينه النسب، الهدف من القيام ببحوث الإشهار هو تحديد مكانة المؤسسة والمنتج والعلامة بنسبة 50%.

- ما نسبته 58.82% أجابت بوجود جهاز إداري يدير النشاط الاشهاري بالمؤسسة بغض النظر عن الطبيعة والمسمى الإداري لهذا الجهاز، بينما أجاب ما نسبته 41.18% من المبحوثين بعدم وجود جهاز إداري.

- هناك إقبالا لا بأس به طرف المؤسسات للإعلان بواسطة مصادر خارجية، وهذا بنسبة 85.71%

- جاءت أكبر نسبة معبرة على أن كفاءة القائم بالاتصال ناتجة عن للمؤهل العلمي، وثاني نسبة لتضيف أن كفاءة القائم بالاتصال ترجع الخبرة المكتسبة في الميدان

- هناك دواعي كثيرة لاهتمام المؤسسات ميدان البحث بالإشهار، وهذا وبينت الأرقام أن السبب الرئيسي للاهتمام بالإشهار هو درجة اهتمام المؤسسة بالنشاط الاشهاري بنسبة 47.05% والسبب الثاني والمتمثل في حجم المؤسسة وحجم أعمالها (رأسمال) بنسبة 29.41%

- ما نسبته 70% من المؤسسات تتبع إدارة الإشهار إلى مديرية التسويق وتعتبره فرعا تابعا لها.

- وجود توافق نسبي من حيث الجوانب العلمية والإدارية للإشهار، فبالرغم من وجود مكلف بالاتصال باختلاف وظيفته إلا أن النظرة ليست شمولية للاتصال، إذ تم حصرها في أساليب محددة تتسم بالتكرارية والجمود دون إحداث تجديد فيها مواكبة للتطورات الحاصلة.

- التزام المؤسسة بأساسيات الإشهار أمر نسبي بحيث تولي القائم بالاتصال أهمية محدودة من حيث الصلاحيات الممنوحة والميزانية المخصصة.

- محدودية عدد المكلفين بالاتصال والإشهار في بعض المؤسسات مقارنة بحجمها.

المحور الخامس: مقترحات لتطوير المفهوم الإداري والوظيفي لدى المؤسسة الاقتصادية الجزائرية:

نحاول من خلال هذه الاقتراحات النزول بالبحث- وما تم الوصول إليه من كشف المشاكل والمعوقات في قطاع الإشهار في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية – إلى ارض الواقع من اجل الاستفادة منه على مختلف المستويات (المؤسسة الاقتصادية – الوكالة الاشهارية-الجهات الوصية على قطاع الإشهار).

1-المقترحات المرتبطة بالمؤسسات الاقتصادية

- ضرورة الاقتناع بأهمية وجدوى الإشهار، وتغيير النظرة القائلة بان المنتج الجيد يبيع نفسه بنفسه أو انه مجرد تكاليف إضافية لا جدوى منها (الثقافة الاشهارية).

- ضرورة الاقتناع بأهمية وجدوى الوكالات الاشهارية والتقليل من التعامل المباشر مع وسائل الإعلام دون اللجوء إلى الوكالات الاشهارية باعتبار هذه الأخيرة تقدم تسهيلات أكثر من وسائل الإعلام (ضمان الخدمة الاشهارية وكذا الدفع الآجل، التخصص والمهنية).

2-المقترحات المرتبطة بالوكالات الاشهارية

- ضرورة اهتمام الوكالات الاشهارية بالجانب العلمي في عملها وذلك بالاستناد إلى البحوث العلمية(بحوث الإشهار وبحوث التسويق).

- الاعتماد على عناصر بشرية متخصصة في مجال الإشهار والتسويق من اجل الوصول إلى إنتاج إعلانات ناجحة سندها الأساسي العلم والمعرفة وفي حالة ما إذا لم تسمح إمكانيات الوكالة الاشهارية بتوظيف متخصصين فبالإمكان حينها الاستعانة بمتخصصين لمكاتب استشارية أو الاستعانة بأساتذة الجامعات المتخصصين في الميدان أو خبراء بصفتهم كاستشاريين.

- الترويج لخدمات الوكالات الاشهارية لإقناع المؤسسات الاقتصادية بصفة خاصة والمجتمع بصفة عامة بأهمية الإشهار في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. (كما هو الحال بالنسبة للمؤسسة التي تروج لمنتجاتها) وهذا من اجل المساهمة في تطوير الثقافة الاشهارية.

3-المقترحات المرتبطة بالجهات الوصية على قطاع الإشهار

- زيادة اهتمام الدولة بقطاع الإشهار باعتباره من القطاعات الحيوية المنتجة التي يمكن الاستثمار فيها وهذا من خلال صياغة القوانين المنظمة للنشاط الاشهاري. (ضبط نشاط الإشهار ومنع الدخلاء من غير المتخصصين وتقديم التسهيلات).

- ضرورة إسناد النشاط الاشهاري إلى الوكالات الاشهارية واكتفاء وسائل الإعلام بنشر الاشهارات فقط، لان هذا من شانه أن يسهم في زيادة نشاط الوكالات الاشهارية التي ستؤدي إلى وجود المنافسة والتي لدورها تساعد في وجود بيئة تنافسية يسودها تحكيم العلم والتخصص وتقسيم العمل وبهذا يمكن تطوير النشاط الاشهاري وتنميته.

- توسيع الاهتمام بالإشهار إلى المستويات الأكاديمية (جامعات ومعاهد) من اجل تكوين كفاءات محلية يمكن لها الإسهام في تطوير النشاط الاشهاري.

خاتمة

إن الحديث عن الإشهار في الجزائر يحتاج في حقيقة الأمر إلى إجلاء الغموض الذي يعيشه هذا القطاع من حيث قلة المعلومات حوله (قطاع الإشهار) وكذلك من حيث حجم الاستثمارات المخصصة له وتوزيعها بين المعلنين والمؤسسات وحجم الناشطين أو العاملين فيه وفي الأخير العلاقات التنظيمية بين مختلف أطراف العملية الاشهارية. (المؤسسات الاقتصادية/الوكالات الاشهارية/الإطار القانوني المنظم). فالإشهار كقطاع اقتصادي له خصوصية تميزه عن باقي القطاعات الأخرى، يحتاج إلى توفير الآليات التنظيمية التي تؤدي به لان يلعب دوره الفعال في دعم النشاط الاقتصادي ككل وذلك من خلال توفير المعلومات المفصلة عن هذا القطاع لتحقيق الشفافية بين أطراف النشاط الاشهاري.

إن تبني مفهوم الإشهار يستدعي إعادة توجيه المؤسسة من التركيز على منتجاتها إلى التركيز على حاجات المستهلكين، وفي ظل هذا التصور، يتطلب ذلك أولا إيجاد جهاز إداري متخصص وهذا لتحقيق أقصى درجات الفعالية في العملية التواصلية بين المؤسسة والأطراف ذات العلاقة بها.

الهوامش

1. محمد عبد الحميد: **البحث العلمي في الدراسات الإعلامية** ، عالم الكتب ، ط1 ، 2000.
2. أحمد بن مرسلي: **مناهج البحث العلمي في علم الاعلام والاتصال** ، ديوان المطبوعات الجامعية ،2005.
3. محمد عبد المعطي ومحمد السريقوسي: **أساليب البحث العلمي** ، مكتبة الفلاح ، دط ، الكويت ،1988.
4. محمد عبد الحميد: **دراسة الجمهور في بحوث الإعلام** ، عالم الكتب ، ط1 ، 1993.
5. مقابلة مع المكلفة بالاتصال والإشهار في المؤسسة الوطنية (لصناعة البطاريات).
6. مقابلة مع مدير مؤسسة إتقان للطباعة والإشهار سطيف
7. علي السلمي-الإشهار-مكتبة غريب-مصر ، 1998.
8. Détrié Philippe : **La communication interne au service du management**, France, 1995.
9. نجوى فوال: **القائم بالاتصال** ، المركز القومي للبحوث الاجتماعية ، القاهرة ،1992.
10. مقابلة مع السيد مدير التسويق بمؤسسة كوكاكولا فرع سكيكدة
11. شريف حمزاوي: **المتطلبات التنظيمية لإدماج التوجه التسويقي في المؤسسات الاقتصادية** ، مقال غير منشور ، جامعة باجي مختار عنابة.
12. زكي حسين الوردي وعامر ابراهيم قنديلجي: **الاتصالات** ، الجامعة المستنصرية ، دط ، البصرة ، العراق ، 1990.
13. حسب ما أفادنا به المكلف بالاتصال على مستوى مؤسسة أجهزة القياس والمراقبة
14. حجازي سعيد أبو غانم: **تخطيط وإدارة نشاط الحملات الإعلامية** ، دار أسامة للنشر – عمان ، الأردن ، 2011.
15. مقابلة مع المكلف بالتسويق على مستوى مؤسسة كوندور-برج بوعريريج
16. نمير نجيب نعوم: **إدارة مشروعات البحث والتطوير لتلبية احتياجات القطاع المستفيد** ، منشورات جامعة بغداد ،1990.
17. شكل رقم **01**: يوضح المراحل التاريخية لتطور مكانة الإشهار
18. شكل رقم **02**: يوضح المؤسسة كنظام مفتوح.
19. فيما يتعلق بأهمية وجود الإدارة العلمية فلقد كان ذلك مع بداية ظهور الثورة الصناعية ، حيث بدأ يطرأ أمر جديد على هيكل الاقتصاد وهو ظهور المشروعات الاقتصادية ذات الحجم الكبير ، وبدأ الأمر يتطور إلى أن ظهرت الشركات المساهمة. ويعمل بها مئات أو ألاف الأفراد ، وبدأت ظاهرة ما تسمى الإنتاج "الحجم الكبير"في الظهور ، ومن هنا لم يعد الأمر يحتمل أن تظل الإدارة تمارس كما كانت تمارس من قبل في ظل المشروعات الفردية الصغيرة (الملكيات الأسرية الصغيرة)، طبقا لمبدأ التجربة والخطأ بل أصبح من الضروري وجود مبادئ وأصول مستقرة للإدارة يمكن الاسترشاد بها في ممارسة هذه الوظيفة المهمة.
20. وتعتبر الإدارة العلمية بمثابة مدخل لمعالجة المواقف والمشكلات الإدارية بالأسلوب العلمي الذي يستخدم وسائل التعريف والتحليل والقياس والتجربة والبرهان ، وهكذا يحل البحث العلمي في الإدارة محل عشوائية التصرف. وقد أبرز الباحثون الإداريون أهمية الإدارة كعلم قائم على مبادئ مرنة تتميز بطابع العموم في التطبيق الإداري وتستخدم في ضوء الظروف الخاصة والمتغيرة للمشروعات ، أي يراعى في تطبيقها خصائص المواقف الإدارية وطبيعة الظروف والعوامل البيئية المحيطة لكل موقف.

آلية التّقابل المصطلحي ودورها في تيسير الدّرس الصّوتي عند تمّام حسّان

مصرع إسمهان *

الملخّص

في هذه الورقة البحثية تظهر آلية التّقابل المصطلحي جليّة في النّظام الصّوتي بوصفه أحد أنظمة اللّغة العربية ، وتتجلّى عند تمّام حسّان في طائفة من المتقابلات على سبيل التّخالف أو التّضاد ، نحو:

الفونيتيك والفونولوجيا ، الصّوت والحرف ، الصّحاح والعلل ، الشّدة والرّخاوة ، الجهر والهمس ، الإطباق والتّغوير ، التّفخيم والتّرقيق... ولهذه الأخيرة دور مهم في تيسير الدّرس الصّوتي ؛ لأنّ ماهية أيَّ عنصر تُعرف بذكر ما يخالف هذا الأخير ، وكذا لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها.

الكلمات المفاتيح: آلية ، التّقابل المصطلحي ، التّيسير ، الفونتيك ، الفونولوجيا ، الصّوت ، الحرف

Résumé

Notre recherche s'intéresse au mécanisme de la terminologie contrastive, celle-ci est apparente dans le système de la langue arabe en général, et le système phonétique en particulier. Tammâm Hassân manifeste un ensemble d'équivalences opposées, tels : phonétique et phonologie, phonème et morphème, consonnes et voyelles, rigidité et mollesse, déclamation et chuchotement, dislocation et extraction, amplification et aiguisement. Ce dernier joue un rôle important dans la simplification du cours de phonologie, car l'essence de tout élément se connait par son opposé, par ailleurs, on connait les choses par leurs contraires.

Mots clés : Mécanisme, Terminologie Contrastive, Simplification, Phonétique, Phonologie, Phonème, Morphème.

Summary

Our research paper focuses on the mechanism of contrastive terminology is clearly shown in the system of the Arabic language in general, and in the phonetic system in particular. Tammâm Hassân demonstrates a set of opposed equivalencies like phonetics and phonology, phoneme and morpheme, consonant and vowel, rigidity and softness, declamation (loudness) and whisper, disruption and extraction, amplification and attenuation. The latter plays an important role in simplifying the course of phonology, because the essence of every element is determined by its opposite, furthermore, we determine things by their opposites.

Key words: Mechanism, Contrastive Terminology, Simplification, Phonetics, Phonology, Phoneme, Morpheme.

* أستاذ مساعد أ ، كلية الآداب واللغات ، جامعة محمد لمين دباغين سطيف2

انطلاقا من **التّقابل المصطلحي** بين: المعيارية والوصفية تجدر الإشارة إلى أنّ **تمام حسّان** قد أبحر في المناهج اللّغوية الحديثة، وتمكّن من فهم إجراءاتها ولم يكتف بتناولها نظريا؛ إذ طبّق المنهج الوصفي بآلياته المتعدّدة على اللّغة العربية الفصحى. ويظهر ذلك جليا في مؤلّفاته الّتي "تعدّ حتّى الآن هي الأساس الوحيد لدراسة اللّغة دراسة علمية جادّة "[1].

إنّ التّقابل المصطلحي يكون بين مصطلحين أو أكثر ممّا يساعد على التّمييز بين معاني هذه المتقابلات. ويرى **تمّام حسّان** أنّ "كلّ نظام من أنظمة اللّغة العربية [والنّظام الصّوتي واحد من هذه الأنظمة ينبني] على طائفة من المقابلات أي أنواع التّخالف"[2] أو التّضاد؛ فمن أمثلة التّخالف: التّقابل بين اللّغة والكلام، وبين الفونتيك والفونولوجيا، وبين الصّوت والحرف، ومن أمثلة التّضاد: التّقابل بين الصّحاح والعلل، وبين الشّدة والرّخاوة، وبين الجهر والهمس، وبين الإطباق والتّغوير، وبين التّفخيم والتّرقيق، و فيما يأتي تفصيل ذلك :

أوّلا -التّقابل المصطلحي بين اللّغة والكلام

يمهّد **تمام حسّان** حديثه عن الأصوات بالتّمييز بين اللّغة والكلام؛ فيرى أنّ اللّغة هي النّظام المجرّد في ذهن الجماعة اللّغوية المعيّنة، وتدرس عن طريق مناهج متعدّدة: الدّلالة، والأسلوب، والمعجم، والنّحو والصّرف، والتّشكيل الصّوتي. في حين يرى أنّ الكلام هو النّشاط الّذي يقوم به المتكلّم في الموقف المعيّن طبقا لصورة صوتية ذهنية، ويُدرس عن طريق منهج الأصوات[3].

ويفرّق تمام **حسّان** بين طابع عمل المتكلّم وبين طابع عمل اللّغوي؛ فيرى أنّ اللّغة بالنّسبة للمتكلّم معايير تُراعى، وبالنّسبة للباحث ظواهر تُلاحظ. وهي بالنّسبة للمتكلّم ميدان حركة، وبالنّسبة للباحث موضوع دراسة. وهي بالنّسبة للمتكلّم وسيلة حياة في المجتمع، وبالنّسبة للباحث وسيلة كشف عن عرف المجتمع. والمتكلّم يشغل نفسه بواسطتها والباحث يشغل نفسه بها. ويُحْسِنُ المتكلّم إذا أحسن القياس على معاييرها، ويُحْسِنُ الباحث إذا أحسن وصف نماذجها.

وينظر تمام **حسّان** إلى اللّغة والكلام من زاوية جديدة -هي طبيعة كلّ منهما وتكوينه -فيرى أنّ: الكلام عمل واللّغة حدود هذا العمل. والكلام سلوك واللّغة معايير هذا السّلوك. والكلام نشاط واللّغة قواعد هذا النّشاط. والكلام حركة واللّغة نظام هذا الحركة. والكلام يُحَسُّ بالسّمع نطقا وبالبصر كتابة، واللّغة تفهم بالتّأمّل في الكلام. والكلام قد يحدث أن يكون عملا فرديا، ولكن اللّغة لا تكون إلاّ اجتماعية[4]. ويشير إلى أنّ " الكلام في النّهاية هو التّطبيق العملي لشروط اللّغة؛ أي وضع الجهاز اللّغوي السّاكن في ظروف عمل وحركة"[5].

وممّا سبق ذكره يتّضح أنّ الكلام يُدرس في حقل علم الأصوات أي الفونيتيك، أمّا اللّغة فتُدرس في حقول متعدّدة منها ما يرتبط بالصّرف والنّحو، ومنها ما يرتبط بالدّلالة والمعجم، وكلّ ذلك يصبّ في منهج التّشكيل الصّوتي أي الفونولوجيا

.ثانيا- التّقابل المصطلحي بين الفونيتيك و الفونولوجيا

على الباحث أن يحترم درجات سلّم البحث في نظام اللّغة، بتسبيق دراسة الصّوت عن سائر أنظمة الدّراسة اللّغوية؛ إذ يرى **تمام حسّان** أنّ " للبحث في نظام اللّغة درجات منتظمة في رتبة محفوظة لا يمكن تجاهلها، لأنّ كلّ درجة منها تبدأ من حيث انتهت سابقتها، غير أنّ أولى هذه الدّرجات (وهي درس الأصوات اللّغوية) لا يسبقها إلاّ إدراك المسموع من الكلام بلغة ما"[6].

وهذه سيرة الأقدمين من علمائنا الأجلاّء؛ فقد تفطّنوا إلى أنّ اللّغة العربية لا يمكن أن يُفهم نحوها وصرفها فهما صحيحا إلاّ بعد دراسة أصواتها. **فسيبويه** كان على وعي تامّ بأنّ دراسة الأصوات مُقدِّمة لا بدّ منها لدراسة اللّغة، وأنّ النّظام الصّوتي ضروري لمن أراد دراسة النّظام الصّرفي وغيره[7].

ودراسة الصّوت تقوم على محورين متقابلين؛ أحدهما يربط الأصوات بالكلام ويسمّى: علم الأصوات، والآخر يربط الحروف باللّغة ويسمّى: علم التّشكيل الصّوتي. ولتوضيح ذلك يشير **تمام حسّان** إلى قول تروبتسكوي:" إنّ علم دراسة أصوات الكلام هو علم الأصوات، وعلم دراسة أصوات اللّغة هو علم التّشكيل الصّوتي"[8].

وقد تحدّث **تمّام حسّان** عن محوري دراسة الصّوت سابقي الذّكر في كتابه: **مناهج البحث في اللّغة** [9] فنعت الأوّل بمنهج الأصوات -الفوناتيك، وسمّى الثاني بمنهج التّشكيل الصّوتي -الفونولوجيا. وفي كتابه: **اللّغة العربية معناها**

ومبناها[10] خصّص الفصل الثّاني للمحور الأوّل، وسمّاه: الأصوات؛ ويقصد به ما تشير إليه النّظرية اللّغوية الحديثة بمصطلح: Phonetics؛ أي الدراسة الصّوتية الّتي تقوم على الملاحظة والتّسجيل والوصف للجوانب الفسيولوجية والنّطقية والسّمعية والآثار المصاحبة لها دون النّظر إلى وظائف الأصوات داخل اللّغة[11]. وخصّص الفصل الثّالث للمحور الثّاني وسمّاه: النّظام الصّوتي أو علم الصّوتيات؛ ويقصد بهما ما تشير إليه النّظرية اللّغوية الحديثة بالمصطلح الإنجليزي: Phonology؛ أي دراسة الأصوات من حيث هي نظـام داخل لغة معيّنة، وهذه الأصوات لها وظائف مميّزة[12].

ويرى تمّام **حسّان** أنّ الفرق بين علم الأصوات وعلم الصّوتيات ينعكس على من يشتغل بهما؛ فعالم الأصوات ملاحظ ومُسجّل، وعالم الصّوتيات مفسّر ومنظّم ومقعّد[13].

ثالثا-التّقابل المصطلحي بين الصّوت والحرف:

لقد جرت العادة في اللّغة العربية، على أنّ اصطلاح الحرف يُطلق على مفهوم واسع؛ فيشمل الحرف بمفهومه الأبجدي التّقسيمي، ويشمل الحرف بمعناه الرّمزي الكتابي. والحديث عن الحرف بمفهومه الأبجدي التّقسيمي، يُحيل إلى الحديث عن تقسيم عربي أبجدي فكري لحروف لا تُنطق لأنّها أقسام لا أصوات[14]، وهذه الأقسام تُعرف في الدّراسات اللّغوية الحديثة باصطلاح الفونيمات أو الحروف. وأمّا الحديث عن الحرف بكونه الخط الرّمزي الكتابي، فيرى **تمّام حسّان** أنّ الحروف ليست هي تلك الصّورة الكتابية الّتي تخطّها، فهذه رموز كتابية إلى الحروف. وليست الحروف هي ما تنطقه بلسانك أثناء الكلام، فهذه أصوات. ولكن الحروف هي أقسام يشمل كلّ منها عددا من هذه الأصوات[15].

أمّا الصّوت فهو" عملية [نطقية] حركية يقوم بها الجهاز النّطقي، وتصحبها آثار سمعية تأتي من تحريك الهواء فيما بين مصدر إرسال الصّوت وهو الجهاز النّطقي، ومركز استقباله وهو الأذن"[16].

وإذا كانت الأصوات تدخل في نطاق حاسّة السّمع والبصر وفي العمليات الحركية فإنّ الحروف تدخل في نطاق الفهم، فكلّ حرف منها هو عنوان مجموعة من الأصوات يجمعها نَسَبٌ معيّن، فهو فكرة عقلية. وإذا كان الصّوت ممّا يوجده المتكلّم فإنّ الحرف ممّا يوجده الباحث. ولكلّ حرف رمز في الكتابة التّشكيلية. وعدد الأصوات في كلّ اللّغات تقريبا أكثر من عدد الحروف[17].

رابعا-التّقابل المصطلحي بين الصّحاح والعلل:

يُفرّق **تمّام حسّان** بين: الصّحاح Consonants، والعلل vowels. ويرى أنّ الباحثين لم يستقرّوا على تعريف لهما يقبله الجميع. ويُسلّط الضّوء على الأسس الّتي بنى عليها العلماء التّفريق بين الصّحيح والعليل متناولا إياها بالشّرح النّقد، متدرّجا في استقراء الأسس الآتية:

الأساس الأوّل: ويضمّ الجانب الفسيولوجي.

الأساس الثّاني: ويضمّ الجانب الصّوتي.

الأساس الثّالث: ويضمّ الجانبين الفسيولوجي والصّوتي معا.

الأساس الرّابع: ويصمّ التّطريز اللّغوي؛ الوظيفة و التّوزيع[18].

ويُشير تمّام **حسّان** إلى أنّ التّداخل كبير حدّ الخلط بين علم الأصوات وعلم التّشكيل الصّوتي في التّفريق بين الصّحاح والعلل، انطلاقا من الأسس سابقة الذّكر، فأمّا العلم الأوّل فيشمل الأساسين الأوّل والثّاني متفرّقين أو مجتمعين. وأمّا العلم الثّاني فيتناول الصّحاح والعلل من ناحية الأساس الأخير أي التّطريز اللّغوي الّذي يضمّ الوظيفة والتّوزيع.

وبعد تحليل **تمّام حسّان** للأسس السّابقة نقضها بعد أن نقدها جملة؛ وفيما يأتي تفصيل ذلك:

رأى أنّ الأساس الأوّل القائم على المدخل الفسيولوجي قاصر على التّفريق بين الصّحاح والعلل؛ على أنّ الأولى -الأصوات الصّحيحة -يحدث معها تضييق في مجرى الهواء أو إقفال تام له، وأنّ خاصية الثّانية -أصوات العلّة - غياب أيّ تضييق أو سدّ في مجرى الهواء. ويؤكّد على أنّ هذا التّفريق سطحي مصطنع لأنّه يعتمد على مادة من خارج اللّغة، بعد قطع الصّلة بين هذه المادّة وبين بيئتها الأصلية الّتي هي علم الفسيولوجيا، لأنّ الصّحاح والعلل في علم التّشكيل الصّوتي حروف لا أصوات؛ أي أنّها ليست حركات تشرّحها الفسيولوجيا، ولهذا -كما يرى **تمام حسّان**-ليس من الدّقة أن نقول حرف العلّة لا يوجد في نطقه تضييق ولا سدّ في مجرى نطقه، لأنّ الحروف لا تُنطق، وإنّما تُنطق الأصوات. وهو تفريق قاصر لأنّه لا يكفي الحاجات العملية للبحث؛ وأكثر من ذلك أنّ هذا المدخل الفسيولوجي استخدم لحلّ

مسألة لم يُعيّن مستوى بحثها، أهو الأصوات، أم التّشكيل الصّوتي، أم هما معا[19].

وكذلك الحال بالنّسبة للأساس الثّاني الّذي ينطلق من أنّ التّفريق بين الصّحاح والعلل مبني على اعتبارات صوتية؛ كالعلوّ النّسبي أو قوّة الاستماع، وطريقة النّطق وحال المخرج. وبهذا يؤكّد **تمّام حسّان** قصور المدخل الفسيولوجي سواء أكان بمفرده أم مُضافا للأساس الصّوتي، ويبرّر ذلك -كما سبقت الإشارة إليه -بكون الحروف وحدات فكرية تقسيمية، لا جرس لها ولا وضوح سمعي لها لأنّها غير منطوقة.

وأمّا الأساس الأخير الّذي يرتكز على الوظيفة الّتي تؤدّيها الصّحاح والعلل، فينطلق **تمّام حسّان** ممّا ذهب إليه بعض الباحثين أمثال: فندريس، من أنّ الوظيفة قد تختلف في الصّحاح والعلل، إلاّ أنّه لا يوجد في الطّبيعة الفعلية للأصوات حدّ فاصل يفرّق بينهما. وبالتّالي لا يُمكن الفصل بين ما هو أصواتي، وما هو تشكيلي من الصّحاح والعلل[20].

وانطلاقا من أنّ: "في اللّغة العربية أصوات كثيرة مقسّمة إلى أقسام، أي حروف، أقل في العدد؛ و كلّ من الحروف و الأصوات ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما الصّحاح والعلل"[21]، وعليه فكلّ واحد منهما -أي الصّحاح و العلل-يعدّ عملة بوجهين؛ الوجه الأوّل: يمثّل الأصوات، والوجه الثّاني: يُمثّل الحروف. وتحوي اللّغة العربية من الحروف الصّحيحة ثمانية وعشرين قسما، يدخل تحت كلّ قسم منها واحد أو أكثر من الأصوات؛" فأمّا الحروف العربية الصّحيحة فهي: ء ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي" [22] وأمّا الأصوات فعددها يزيد عن ذلك.

تهدف دراسة أعضاء النّطق إلى الكشف عن المخارج الصّوتية وصفات الأصوات اللّغوية، ويتجلّى ذلك في "غرض علم الأصوات اللّغوية من دراسة الصّوت، أن يُبيّن ما في نطقه من حركات عضوية، وما فيه من ظواهر صوتية. فأمّا الحركات العضوية فتُدرس عادة تحت اسم المخارج، ... وأمّا الظّواهر الصّوتية المصاحبة لهذه الحركات فيُطلق عليها اسم الصّفات"[23].

يُشير **تمّام حسّان** إلى أنّ المخارج والصّفات الّتي تستخدمها اللّغة العربية الفصحى، يُمكن حصرها في التّمييز بين أصواتها. وهذا الاستخدام للتمييز إنّما يعدّ من منهج التّشكيل الصّوتي لا من منهج الأصوات، ولكن من ذا الّذي يستطيع أن يكتفي من العملة النّقدية بأحد وجهيها عن كليهما؛ فالأصوات والتّشكيل الصّوتي وصف ثم تقعيد للموصوف. والمعروف أنّ كلّ شيء يُمكن أن يحدّ إيجابا وسلبا، والحدّ الإيجابي ذكر الماهية، والسّلبي ذكر النّقيض، وهذا ما يدخل في القيم الخلافية الّتي تعدّ ضرورية في فهم أيّ شيء؛ فالقيم الخلافية هامة جدّا في دراسة الأصوات والتّشكيل الصّوتي، بل لها من الأهمية ما يساوي أهمّية القيم الوفاقية[24]. وعليه فإنّ دراسة المخارج والصّفات، سيكون من باب الجمع بين وجهي العملة النّقدية.

يُفرّق **تمّام حسّان** بين الأصوات والحروف فيقول: " ليست الحروف هي ما تنطقه بلسانك أثناء الكلام، فهذه هي الأصوات، ولكن الحروف هي أقسام يشتمل كلّ منها على عدد من هذه الأصوات"[25].

ومن هذا المنطلق يرى أنّ تقسيمات الحروف لا تبنى على اعتبارات فيسيولوجية عضوية أو طبيعية صوتية كالأصوات؛ لأنّ الحروف الصّحاح وحروف العلّة لا تنطق، وإنّما الأصوات الصّحاح وأصوات العلّة هي الّتي تنطق.

ويمكن أن تنسب المخارج والصّفات للحروف كما تنسب للأصوات، ولكن دون القصد من هذه النسبة لأي معنى عضوي فسيولوجي في المخارج، ولا طبيعي صوتي في الصفات؛ وإنّما يستعمل اصطلاحا المخرج والصّفة بالنّسبة للحروف استعمالا تشكيليا محضا غير أصواتي، على نقيض مخارج الأصوات وصفاتها[26]. وعليه سيتمّ الجمع بين مخارج الأصوات ومخارج الحروف وكذا بين صفات الأصوات وصفات الحروف، مع محاولة عدم الخلط بين المفاهيم. وفيما سيأتي تسليط للضّوء على ما أورده **تمّام حسّان** في موضوعي المخارج والصّفات الصّوتية:

1 -مخارج الأصوات والحروف

1.1 .تعريف المخرج

يرى **تمّام حسّان** أن الإنسان قادر على تحريك الأعضاء المتحرّكة في جهازه النّطقي وتقريبها من أجزائه الأخرى فيُحدث تضييقا في مجرى الهواء، كما يمكنه إلصاق الأجزاء المتحرّكة بالأجزاء الأخرى الثّابتة فيُقفل مجرى الهواء إقفالا تاما، وبهذا التّضييق وذلك الإقفال أو عدمهما يستطيع المرء أن يُحدث الكثير من الأصوات، ومكان التّضييق أو

الإقفال هو المخرج[27] وجمعه المخارج Articulations[28]. وبما قلّ ودلّ يعرّفه فيقول: " المخرج مكان النّطق "[29].

1.1.أ.مخارج الأصوات ومخارج الحروف عند تمّام حسّان

ولأنّ **تمّام حسّان** يُحدّد مكان النّطق -أي المخرج - بالتضييق أو الإقفال التّام النّاتجين عن تلاحم الأعضاء المتحرّكة بالأعضاء الثّابتة في الجهاز النّطقي تمّ تحديد المخارج الصّوتية على ضوء ذلك في الجدول الآتي[30]:

مخارج الأصوات		أقسام مخارج الحروف	العضو المتحرّك	العضو الثّابت
1.شفوي	Bi-labial	ب ، و ، [م] *	الشّفة السّفلى	الشّفة العليا
2.شفوي أسناني	Labio-dental	ف	الشّفة السّفلى	الأسنان العليا
3.أسناني	Dental	ظ ،ذ ، ث	طرف اللّسان	الأسنان العليا
4.أسناني لثوي	Denti-alveolar	ض ، د ، ط ، ت ز ، ص ، س	طرف اللّسان مقدّمة اللّسان	الأسنان العليا اللّثة
5.لثوي	Alveolar	ل ، ر ، ن	طرف اللّسان	اللّثة
6.غاري	Platal	ش ، ج ، ي	مقدّمة اللّسان	الغار و هو الحنك الصّلب
7.طبقي	Velar	ك ، غ ، خ	مؤخّر اللّسان	الطّبق و هو الحنك اللّين
8.لهوي	Uvalar	ق	مؤخّر اللّسان باللّهاة	———
9.حلقي	Pharyngal	ع ، ح	———	تضييق الجدار الخلفي للحلق
10.حنجري	Glottal	ء ، هـ	إقفال أو تضييق في الأوتار الصّوتية	———

تجدر الإشارة إلى الإجابة عن السّؤال الّذي طرحه **تمّام حسّان** في كتابه: **اللّغة العربية معناها ومبناها**، وهو: كيف كان موقف النّحاة العرب من دراسة الأصوات العربية ؟

انطلق **تمام حسّان** للإجابة عن هذا التّساؤل من عرض رؤية **سيبويه** كبير أئمّة النّحاة، ومنهجه في دراسة الأصوات ، و جعل ذلك ركيزة أساسية لطرحه الجديد ؛ مظهرا منهج **سيبويه** في قوله:" ويظهر أنّ سيبويه كان على وعي تام بأنّ دراسة الأصوات مقدّمة لابدّ منها لدراسة اللّغة ، وأنّ النّظام الصّوتي ضروري لمن أراد دراسة النّظام الصّرفي بل لعلّه كان يرى في النّظام الصّوتي جزءا لاحقا ، أو من دراسة الصّرف نفسها حتّى إنّه حين وضع الدّراسات الصّوتية تحت عنوان (باب الإدغام) قد كشف عن وجهة نظره من جهة و قيّد دراسة الأصوات ، وضيّق مجالها من جهة أخرى. وتأتي دعوى تضييق سيبويه لمجال دراسة الأصوات من أنّ الإدغام ليس جزءا من النّظام الصّوتي ، وإنّما هو ظاهرة سياقية...ولكنّ **سيبويه** مهّد لدراسة الإدغام بدراسة الأصوات... فتناول هذه الأصوات بالوصف من حيث المخرج وطريقة النّطق والجهر والهمس والتّفخيم والتّرقيق ناظرا إلى الصّوت في حالة عزلة عن السّياق "[31].

ومن خلال ما سبق يتّضح أنّ **تمام حسّان** أراد أن يُبيّن عدم استقلالية الدّراسات الصّوتية عند **سيبويه** ، الّذي جعل النّظام الصّوتي جزءا من دراسة الصّرف ، وهذه الشّمولية هي الّتي أوخذ عليها القدماء في منهجهم لدراسة اللّغة.

ويشير تمام **حسّان** إلى أنّ **سيبويه** ومعاصريه قد اتّجهوا عند النّظر في استنباط الحروف من الأصوات اتّجاها عكس البحث الحديث ، الّذي ينطلق في دراسة الصّوتيات من الأصوات إلى الحروف ؛ فبعد ملاحظة الأصوات ووصفها تبوّب في مجموعات ، وتسمّى كلّ مجموعة منها حرفا. في حين أنّ **سيبويه** ومعاصريه قد ارتضوا لتحليل الأصوات العربية بالنّظام الصّوتي المشهور الّذي ينطلق من أنّ لكلّ حرف رمز كتابي يدلّ عليه دون النّظر إلى ما تندرج تحته من أصوات ، فجعلوا الأصوات العربية الّتي تحت كلّ حرف من هذا النّظام لا تعدوا أن تكون صفة لهذا الحرف كأن تكون إدغاما له أو إقلابا أو إخفاء[32].

يرى **سيبويه** أنّ أصول حروف العربية تسعة وعشرون حرفا ، ولها رموز متّفق عليها نحو: **الهمزة** ورمزها (ء) ، **الألف** ورمزها (ا)... وصولا إلى الحرف التّاسع والعشرين وهو **الهاء** ورمزه (**هـ**)، ويُضيف إلى ذلك ستّة فروع أصلها من التّسعة والعشرين وهي كثيرة الورود في الكلام ؛ إذ يُؤخذ بها وتُستحسن في قراءة القرآن والأشعار ، وهي: النون الخفيفة ، والهمزة الّتي بين بين ، والألف الّتي تُمال إمالة شديدة ، والسّين الّتي كالجيم والصّاد الّتي تكون كالزّاي ، وألف التّفخيم.

وأضاف إلى ما سبق ثمانية حروف مستهجنة في قراءة القرآن والشّعر ، ولا تكثر في لغة من تُرتَضى عربيته وهي: الكاف الّتي بين الجيم والكاف ، والجيم الّتي كالكاف ، والجيم الّتي كالشين **، والضاد الضّعيفة ، والصّاد التي كالسين ، والطّاء التي كالتاء ، والظاء التي كالثاء ، والباء التي كالفاء[33].

يرى **تمام حسّان** أنّ **سيبويه** -رغم تفريقه بين أصول الحروف وفروعها-إلاّ أنّه لا يُفرّق بين اصطلاحي **الحرف** و**الصّوت** كما فرّق علم اللّغة الحديث بين Phenemeو Soundو Allophone **فالحرف** لديه يشمل كلّ ذلك[34].

إنّ استعمال **سيبويه** لمصطلح الحروف بدلا من الأصوات ، لا يعني أنّه لم يكن يُفرّق بين اصطلاحي الحرف والصّوت -كما ذهب إليه **تمّام حسّان** -إذ أنّ ما ذكره **سيبويه** من فرق بين الحروف الأصول والفروع ، يدلّ على معرفة تامّة بما يعنيه كلّ من الحرف والصّوت[35].

وتنبُّه **سيبويه** إلى الفرق الكامن بين الحروف الأصلية والفرعية يُنمّ عن إدراكه الفرق بين الفونيم والألوفون إذ أنّ " الحروف الّتي سمّها **سيبويه** الحروف الفروع هي الّتي تُسمّى في الدّرس الصّوتي الحديث بالصّورة الصّوتية أو الألوفون"[36].

1.1.ب-مخارج الحروف عند سيبويه

ذهب **تمّام حسّان** إلى أنّ **سيبويه** أحصى المخارج الّتي تخرج منها الأصوات العربية ، فعدّها خمسة عشر مخرجا. ويورد جدولا لأصوات العربية كما كان يراه سيبويه[37]:

مخارج الحروف عند سيبويه	الأصوات العربية
1.ما بين الشّفتين	ب .م .و
2.باطن الشّفه السّفلى و أطراف الأسنان	ف
3.طرف اللّسان و أطراف الثّنايا	ظ .ذ .ث
4.طرف اللّسان و فويق الثّنايا	ر*** .ص .س
5.طرف اللّسان و أصول الثّنايا	ط .د .ت
6.ما بين طرف اللّسان و فويق الثّنايا	ن
7.ما بين اللّسان و فويق الثّنايا أدخل في ظهر اللّسان	؟ ****
8.حافة اللّسان إلى الطّرف و ما فوقهما	ل
9.أوّل حافة اللّسان و ما يليه من الأضراس	ض .ش
10.وسط اللّسان و وسط الحنك الأعلى	ج .ي
11.مؤخّر اللّسان و ما يليه من الحنك الأعلى	ك
12.أقصى اللّسان و ما يليه من الحنك الأعلى	ق
13.أدنى الحلق	غ .خ
14.وسط الحلق	ع .ح
15.أقصى الحلق	ء .هـ

من خلال الجدول السّابق يؤكّد **تمّام حسّان** أنّ مخارج الأصوات عند **سيبويه** خمسة عشر مخرجا ، في حين يذهب أغلب الدّارسين-كالفايز صدار-إلى أنّ المخارج عند **سيبويه** ستّة عشر[38]. و**سيبويه** نفسه يقول:" ولحروف العربية ستة عشر مُخرجا: فللحلق منها ثلاثة. فأقصاها مُخرجا: الهمزة ، والهاء ، والألف. ومن أوسط الحلق مُخرج: العين ، والحاء. وأدناه مُخرجا من الفم: الغين ، والخاء. ومن أقصى اللّسان وما فوقه من الحنك الأعلى مُخرج القاف. ومن أسفلَ من موضع القاف من اللّسان قليلا ، وممّا يليه من الحنك [الأعلى] ، مُخرج: الكاف. ومن وسط اللّسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى ، مُخرج: الضّاد. ومن حافة اللّسان من أدناها إلى منتهى طرف اللّسان ، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ، وما فويق الضّاحك والنّاب والرّباعية والثّنية ، مخرج: اللاّم. ومن حافة اللّسان من أدناها إلى منتهى طرف اللّسان ، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى ، وما فويق الثّنايا ، مُخرج: النّون. ومن مُخرج النّون غير أنّه أدخل في ظهر اللّسان قليلا ، لانحرافه إلى اللاّم ، مُخرج: الرّاء. وممّا بين طرف اللّسان وأصول الثّنايا ، مُخرج: الطّاء ، والدّال والتّاء. وممّا بين طرف اللّسان وفُويق الثّنايا ، مُخرج: الزّاي ، والسّين ، والصّاد. وممّا بين طرف اللّسان وأطراف الثّنايا ، مُخرج: الظّاء ، والذّال ، والثّاء. ومن باطن الشّفة السّفلى وأطراف الثّنايا العليا ، مُخرج الفاء. وممّا بين الشّفتين ، مُخرج الباء ، والميم ، والواو. ومن الخياشيم ، مُخرج: النّون الخفيفة"[38].

إنّ نظرة تأمّلية فاحصة إلى مخارج الأصوات عند سيبويه -كأنموذج قديم-ومخارج الأصوات عند **تمام حسّان** - كأنموذج حديث-تبيّن ما يأتي:

الاختلاف في عدد المخارج الصّوتية عند **سيبويه**، ولتفسير ذلك، وُضع احتمال اختلاف الطّبعات لكتاب **سيبويه**، علما أنّ **تمّام حسّان** لم يشر إلى الكتاب لا في متنه ولا في هامشه، فهو لا يُشير غالبا إلى مصادر بحثه، و إن أشار فلا يعبأ بمعلومات الطبع. وبموازنة بسيطة بين طبعة بولاق الأولى والطّبعة الخامسة لكتاب سيبويه والّتي حقّقها عبد السّلام هارون، لوحظ على الأخيرة منهما سقوط عبارة: "ومن حافة اللّسان من أدناها إلى منتهى طرف اللّسان، ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى، وما فويق الضّاحك والنّاب والرّباعية والثّنية، مخرج: اللّام"[39].

ولكن، وبعد تأمّل لوحظ أنّ مُخرج اللاّم لم يسقط ممّا سمّاه **تمّام حسّان** بجدول الأصوات العربية كما يراه **سيبويه**، وإنّما حدث خلط بين مخرج الرّاء ومخرج الزّاي، ففي كتاب: **اللّغة العربية معناها ومبناها طبعة** دار الثّقافة[40] نُسب الرّاء إلى مخرج طرف اللّسان وفويق الثّنايا، في حين أنّ هذا مخرج الزّاي إلى جانب الصّاد والسّين. ولم يُنسب إلى مخرج: ما بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا أدخل في ظهر اللّسان أيّ صوت، وهو -من المفروض-مخرج صوت الرّاء الّذي وُضع خطأ مكان الزّاي.

وللتّأكّد أكثر تمّت العودة إلى كتاب: **اللّغة العربية معناها ومبناها** طبعة عالم الكتب فلوحظ أنّ الخطأ نفسه مع فارق بسيط؛ وهو أنّ الرّاء نُسب إلى مخرجين: مرّة عن خطأ - كما سبق ذكره-إذ وُضع مكان الزّاي في مخرج طرف اللّسان وفويق الثّنايا، ومرّة عن صواب: إذ وُضع في مخرجه وهو ما بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا أدخل في ظهر اللّسان، ويمكن عدّ ذلك من قبيل الخطأ المطبعي بسقوط نقطة الزّاي لتُصبح راء[41].

وفي الأخير تمّ التّوصل إلى المخرج الّذي سقط، وهو مخرج الخياشيم؛ الّذي تخرج منه النّون الخفيفة بمصطلح **سيبويه**، أمّا **تمام حسّان** فيرى أنّ الأصح هو النون الخفية، لأنّ النوّن الخفيفة تُقابل النّون الثّقيلة في التّوكيد في علم النّحو، أمّا النون الخفية فهي نون الإخفاء قبل حروف الفم وهي: التّاء، الثّاء، الجيم، الدّال، الذّال، الزّاي، السّين، الشّين، الصّاد، الضّاد، الطّاء، الظّاء، الفاء، القاف، والكاف[42].

والنّون الخفيّة هي النّون السّاكنة المتبوعة بحروف الإخفاء ممّا يؤدي إلى ضياع الكثير من خصائصها الصّوتية، واكتسابها من خصائص الحرف الّذي يليها على خلاف النّون المتحرّكة واضحة الصّوت[43].

يذهب **تمّام حسّان** إلى أنّ النّحاة العرب قد أخلطوا خلطا كبيرا في تحديد بعض المخارج[44]، **فسيبويه** مثلا يُسمّي النّون مرّة خيشومية لأنّها تُنطق في تجويف الفم، ويخرج الهواء من الخيشوم-وهي النون الخفية الّتي أسقطت من الجدول السّابق-ومرّة ثانية يقول إنّها من بين طرف اللّسان وما فويق الثّنايا -وهي النّون الأصلية الّتي أثبتت في الجدول- فتمّام **حسّان** أثبت الأصل وأسقط الفرع.

تجدر الإشارة أيضا إلى أنّ **تمّام حسّان** قد جعل -فيما عنونه بجدول الأصوات العربية كما يراه **سيبويه**-مخرج الشّين من أوّل حافة اللّسان وما يليه من الأضراس، إلى جانب الضّاد في حين أنّ مخرج الشّين إلى جانب الجيم والياء من وسط اللّسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى.

من منطلق تعريف **تمّام حسان** للمخرج على أنّه مكان النّطق من زاوية، ومن زاوية أخرى تبنّيه لفكرة الإجمال أكثر من فكرة التّفصيل في المخارج الصّوتية، يُطرح التّساؤل الآتي:

هل يُمكن لصوتين أو أكثر الاجتماع في مكان نطق واحد؟

للإجابة عن هذا السّؤال، تجدر الإشارة إلى الفرق الكامن بين المخرج الصّوتي والحيّز الصّوتي؛ **فالخليل بن أحمد الفراهيدي** فرّق بينهما؛ فرأى أنّ المخرج هو النّقطة الدّقيقة الّتي يخرج منها الصّوت، في حين أنّ الحيّز الصّوتي هو المنطقة الّتي يُنسب إليها أكثر من صوت. في حين أنّ الحيّز الصّوتي هو المنطقة الّتي يُنسب إليها أكثر من صوت، وهذه الأصوات بعضها أرفع من بعض[45].

من هنا يمكن القول إنّ الحيّز الصّوتي أشمل وأعمّ من المخرج الصّوتي؛ فالحيّز يضمّ مخرجين أو أكثر، شريطة التّقارب بين هذه المخارج. وعليه فلكلّ صوت نقطة مخرج دقيقة ومحدّدة له وله فقط، لا يشترك فيها معه أيّ صوت آخر. ولكن، قد يجتمع مخرج هذا الصّوت مع غيره من

المخارج المتقاربة معه في منطقة محدّدة تُسمّى الحيّز الصّوتي.

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أنّ جدول أصوات العربية كما كان يراه **سيبويه**، يحوي ستّة مخارج صوتية وما دون ذلك، فهي أحياز صوتية تضمّ أكثر من صوت. والمخارج عنده هي:

مخرج الفاء: باطن الشّفة السّفلى وأطراف الأسنان.

مخرج النّون: ما بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا.

مخرج اللاّم: حافة اللّسان إلى الطّرف وما فوقهما.

مخرج الكاف: مؤخّر اللّسان وما يليه من الحنك الأعلى.

مخرج القاف: أقصى اللّسان وما يليه من الحنك الأعلى.

مخرج الرّاء: ما بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا أدخل في ظهر اللّسان.

كذلك الحال بالنّسبة إلى ما ذهب إليه **تمّام حسّان**؛ فالمخارج الصّوتية عنده اثنان فقط، وهما:

مخرج الفاء: شفوي أسناني. مخرج القاف: لهوي. وما دون ذلك، فهي أحياز صوتية بعضها يضمّ صوتين، وبعضها الآخر ثلاثة أصوات. وأمّا الأسناني اللّثوي فيضمّ سبعة أصوات.

إنّ **تمّام حسّان** عكس ترتيب مخارج الأصوات العربية -حتّى عند ذكره للمخارج عند **سيبويه**-فقد سار على نهج معاصريه في بدء الوصف الصّوتي من الشّفتين وصولا إلى الحلق. في حين أنّ **سيبويه** قد سار على نهج أستاذه **الخليل بن أحمد الفراهيدي** في ترتيب المخارج الصّوتية من الحلق وصولا إلى الشّفتين والخياشيم.

ومن منطلق أنّ الوصف الصّوتي اليوم يبدأ من الشّفتين إلى الحلق، انطلاقا ممّا يكون أسهل في الرّؤية، وأنّ القدامى جميعا منذ **الخليل** و**سيبويه**، قد اتّبعوا ترتيب المخارج الصّوتية من الحلق إلى الشّفتين تماشيا ولا شكّ مع اتّجاه مجرى النَّفَس، إذ يعبر جهاز التّصويت[46].

انطلاقا ممّا سبق يمكن ترجيح كفّة القدماء على كفّة المحدثين؛ لأنّ ترتيب القدماء لمخارج الأصوات العربية من الحلق إلى الشّفتين أكثر علمية من ترتيب المحدثين، الّذي ينطلق ممّا يكون أسهل في الرّؤية؛ فأساس التّرتيب القديم صوتي، وثيق الصّلة بطريقة إنتاج الصّوت اللّغوي، الّذي يرتبط بدوره بالهواء الزّفيري الخارج من الرّئتين، مارّا بالحلق، وصولا إلى الشّفتين، فأينما يكون التّضييق أو الانحباس يكون المخرج الصّوتي.

إنّ اختلاف عدد المخارج الصّوتية بين النّموذج القديم-الّذي يُمثّله **سيبويه**-والنّموذج الحديث-الّذي يُمثّله **تمّام حسّان**-مردّه إلى شدّة التّقارب والتّداخل بين بعض المخارج لغياب الحدود الفاصلة فصلا تامّا بينها[47].

فسيبويه نظر إليها نظرة تفصيل، في حين أنّ **تمّام حسّان** نظر إليها نظرة إجمال؛ فما ذكره سيبويه مفصّلا في مخارج: أقصى الحلق ووسطه وأدناه، ذكره **تمّام حسّان** مجملا في مخرج واحد: حلقي. وقد جعل **سيبويه** طرف اللّسان وفويق الثّنايا مخرجا للزّاي والصّاد والسين، وضمّ الطّاء والدّال والتّاء في مخرج طرف اللّسان وأصول الثّنايا، وذهب إلى أنّ الضّاد تخرج من أوّل حافة اللّسان وما يليه من الأضراس. في حين ضمّ **تمّام حسّان** كلّ هذه الأصوات: الضّاد، والدّال، والطّاء، والتّاء، والزّاي، والصّاد، والسّين في مخرج واحد سمّاه: أسناني لثوي.

كما فصّل **سيبويه** في مخارج النّون، واللاّم، والرّاء؛ فجعل مخرج النّون ممّا بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا، والرّاء ممّا بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا أدخل في ظهر اللّسان، وقال إنّ حافة اللّسان إلى الطّرف وما فوقهما مخرج اللاّم. في حين أنّ **تمّام حسّان** جمع النّون واللاّم والرّاء في مخرج واحد سمّاه اللّثوي. وهذا على سبيل التّمثيل لا الحصر، **فتمّام حسّان** يذكر التّكرار الوارد في المخارج الصّوتية عند **سيبويه** إذ يقول: "والملاحظ أنّ طرف اللّسان يرد ذكره في المخارج الخمسة ذوات الأرقام: 3-4-5-6-7، وكذلك ترد معه الثّنايا مع تباين الجزء الّذي يتّصل به طرف اللّسان منها، ولقد ورد ذكر اللّسان في المخرجين 8-9، وورد ذكر وسط اللّسان في رقم:10، وأقصاه في:12، وذكر الحلق في:13-14-15 أي أدناه ووسطه وأقصاه"[48].

ولقد "تتابعت الدّراسات الحديثة حول أصوات اللّغة العربية، ولم يخرج معظم مؤلّفيها عمّا أورده **تمّام حسّان** في ترتيب مخارج الحروف العربية، وربّما زاد بعضهم موضعا أو مخرجا، وربّما أنقص موضعا"[49]. والملاحظ أيضا في المخارج الصّوتية عند **تمّام حسّان**، سقوط صوت الميم من المخرج الأوّل، فهو صوت شفوي كالباء والواو.

إنّ الحكم بأنّ الهمزة هي أوّل الأصوات العربية مخرجا حكم سليم، ولكنّها ليست من أقصى الحلق، وإنّما هي ممّا يلي الحنجرة[50]. ولكنّ **سيبويه** لم يُصنّف الحنجرة مخرجا.

في أقصى الحلق وإلى جانب الهمزة والهاء ذكر **سيبويه** الألف، وهو صائت عليل للمدّ دائما؛ إذ يُعدّ حركة في كلّ مواضع اللّغة العربية، ومخرجه ليس الحلق، وإنّما هو حركة يتحدّد موضع نطقها بوضع اللّسان وضعا معيّنا في الفم تجاه الحنك الأعلى، حاله حال الواو والياء المدّيتين، إذ تحدّد بطريق وضع الفم تجاه الحنك، وبدرجة ارتفاع اللّسان أو هبوطه[51].

والاختلاف الكامن بين معطيات الدّرس الصّوتي القديم– ومن أعلامه **سيبويه**-وبين الدّرس الصّوتي الحديث- ومن أعلامه **تمّام حسّان**-في نسبة الأصوات إلى المخارج نحو اختلافهم في الضّاد والواو غير المدّية... واختلافهم في ألقاب المخارج، قد يُفسّر بتطوّر الأصوات؛ فإنّ بعضها قد تغيّر نطقها – مثل الضّاد – فليس غريبا أن يعدّها الدّرس الصّوتي القديم من مخرج، و يعدّها الدّرس الصّوتي الحديث من مخرج آخر. كما قد يُفسّر باستعانة المحدثين بأجهزة دراسة الصّوت كالأجهزة الفسيولوجية، مثل: البلاتوغراف والكيموغراف والأجهزة الصّوتية الفيزيائية مثل: السيلوغراف. وكذا الاستفادة من علم التّشريح[52].

ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ للمتقدّم قصب السّبق في الإبداع حتّى وإن تعثّر، وللمتأخّر التّبعية له حتّى و إن أجاد وأصاب، **فسيبويه** وغيره من القدامى نبغوا في دراسة اللّغة عامّة وأصواتها خاصّة رغم إمكاناتهم البسيطة.

2-صفات الأصوات والحروف

تُستعمل صفات الأصوات عند الحديث عن الظّواهر الصّوتية المصاحبة للحركات العُضوية. أمّا صفات الحروف فتستعمل عند الحديث عن الأقسام؛ فكلّ قسم يشمل عددا من الأصوات الّتي تتسم بصفة معيّنة.

2-1 .تعريف صفات الأصوات

يسمّيها **تمّام حسّان** الصّفات التّطريزية والصّفات التّصنيفية Correlations[53]، وهي إحدى أسس التّطريز اللّغوي؛ فالصّفات التّطريزية والمخارج الصّوتية هما الأساسين اللّذين يقوم عليهما بناء التّطريز اللّغوي في منهج التّشكيل الصّوتي.

ويُعرّفها **تمّام حسّان** بأنّها الظّواهر الصّوتية المصاحبة للحركات العضويـة للجهاز النّطقي[54]. ويرى أنّه يمكن النّظر إليها من زاويا متعدّدة:

أولاها: الطّريقة الّتي يتمّ بها النّطق في مخرج ما.

ثانيها: حدوث ذبذبة في الأوتار الصّوتية وعدمه.

ثالثها: تحرّك مؤخّر اللّسان أو مقدّمه تحرّكا ثانويا أثناء حدوث النّطق في موضع آخر[55].

وفيما سيأتي شرح مفصّل لكلّ زاوية بربطها بصفات الأصوات:

2-1-أ-صفات الصّحاح عند تمّام حسّان

1-التّقابل المصطلحي بين الشّدة والرّخاوة وما بينهما

يستعمل تمّام حسّان الشّدة والرّخاوة كاصطلاح قديم، ويستعمل الانفجار والاحتكاك كاصطلاح حديث[56].

يرى **تمّام حسّان** أنّ صفتي الشّدة والرّخاوة وما بينهما يُمكن الوقوف عليها بالنّظر إليها من الزّاوية الأولى؛ وهي الطّريقة الّتي يتمّ بها النّطق في مخرج ما.

أ- **صفة الشّدة**

وتكون إذا صادف الهواء الزّفيري الخارج من الرّئتين مجرى مسدودا سدّا تامّا، عند نقطة المخرج في الجهاز النّطقي – من الأوتار الصّوتية إلى الشّفتين-فيُحتجز الصّوت خلف نقطة الانسداد، في حالة ضغط أعلى من ضغط الهواء الخارجي، وإذا انفصل العضوان المتّصلان لسدّ المجرى انفصالا مفاجئا، اندفع الهواء الدّاخلي ذو الضّغط الثّقيل إلى الهواء الخارجي ذي الضّغط الأخف محدثا انفجارا، وهذا الانفجار هو عنصر مهمّ لنطق **الأصوات الشّديدة**؛ لأنّ نطقها يتكوّن من أكثر من عنصر واحد، ويتّضح ذلك فيما يأتي:

(1)اتّصال عضوي لسدّ المجرى	(2)انحباس الهواء خلف نقطة تلاقيهما	(3)انفصال العضوين فجأة وتسريح الهواء

والأصوات الشّداد كما يسمّها **تمّام حسّان** هي: **الباء، التّاء، الدّال، الضّاد، الطّاء، القاف، الكاف، والهمزة** ؛ وهي الّتي ينفصل العضوان اللّذان يسدّان مجرى الهواء فيها انفصالا سريعا ومفاجئا. والسّرعة والمفاجأة بالإضافة إلى الانفجار هي من أهمّ شروط تسمية الصّوت شديدا[57].

ب- **صفة الرّخاوة**

تكون إذا صادف الهواء الزّفيري الخارج من الرّئتين مجرى ضيّقا لا مسدودا ، يسمح للهواء بالمرور محتكّا بنقطة التّضييق بين العضوين. والأصوات الّتي يصحبها هذا النّوع من طريقة النّطق تُسمّى: **الأصوات الرّخوة**، وهي: **الثّاء، الحاء، الخاء، الذّال، السّين، الشّين، الصّاد، الظّاء، العين، الغين، والفاء**[58].

ت-**صفة التّعطيش (التّركيب من الشّدة والرّخاوة)**

وتكون عند الجمع بين عنصر الشّدة وعنصر الرّخاوة ؛ أي يكون الصّوت مركّبا منهما ، فتتوفّر فيه شروط الشّدة كالانسداد المطلق والانفجار ، ولا تتوفّر فيه أخرى كالسّرعة والمُفاجأة ؛ إذ لا يصاحبه انفصال مفاجيء للعضوين المتّصلين لسدّ المخرج ، بل يُصاحبه انفصال بطيء. وفي هذا الأخير مرحلة بين الانسداد المطلق والانفتاح المطلق شبيهة كلّ الشّبه بالتّضييق الّذي يكون مع صفة الرّخاوة ؛ فهذه المرحلة تأتي بعد انفجار الهواء الزّفيري مباشرة ، فتسمح له بالاحتكاك بالعضوين اللّذين في طريق التّباعد البطيء احتكاكا شبيها بما يُصاحب الأصوات الرّخوة[59].

والصّوت العربيّ المركّب بين الشّدة والرّخاوة هو صوت: الجيم ، ويتمّ النّطق به بان يرتفع مُقدّم اللّسان في اتّجاه الغار ، حتّى يتّصل به محتجزا وراءه الهواء الخارج من الرّئتين. ثمّ بدل أن ينفصل عنه فجأة — كما في نطق الأصوات الشّديدة — يتمّ هذا الانفصال ببطء ، فيُعطي للهواء بعد الانفجار فرصة الاحتكاك بالعضوين[60].

ث-**صفة التّوسّط بين الشّدة والرّخاوة**

وتكون إذا مرّ الهواء الزّفيري بمجراه دون انحباس أو احتكاك من أيّ نوع ؛ فالصّوت هنا لا يكون شديدا ولا رخوا ، وذلك لما يأتي:

- إمّا لخلوّ مجراه في الفم من المعوّقات ، كما في صوتي: **الواو، والميم.**

- إمّا لأنّ مجراه في الفم يتجنّب المرور بنقطة السّد أو التّضييق ، كما في صوت: **اللاّم.**

- إمّا لأنّ التّضييق غير ذي استقرار على حاله ، كما في صوت: **الرّاء.**

- إمّا لأنّ الهواء لا يمرّ بالفم ، وإنّما يمرّ بالأنف ، كما في صوتي: **الميم، والنّون.**

ومن هنا يُمكن القول إنّ **تمّام حسّان** يَعُدُّ **الواو، الياء، اللاّم، الرّاء، الميم، والنّون أصواتا متوسّطة**؛ لأنّها ليست شديدة ولا رخوة.

ويصف **تمّام حسّان** الأصوات المتوسّطة **بصفة الاستمرار** أيضا ، وفيما يأتي تفصيل ذلك:

ج- **صفة الاستمرار**

يرى **تمّام حسّان** أنّ الاستمرار صفة تُعرف بالنّظر إلى الزّاوية الأولى وهي: الطّريقة الّتي يتمّ بها النّطق في مخرج ما[61].

ومن الأصوات المستمرّة عند **تمّام حسّان** ما يأتي:

ج1-**التّكراري** (Rolled)

وهو صوت ينطلق بترك اللّسان مسترخيا في طريق الهواء الخارج من الرّئتين ، فيُرفرف اللّسان ، ويضرب طرفه في اللّثة ضربات مكرّرة ، والصّوت التّكراري في اللّغة العربية هو: **الرّاء**[62].

ج2-الجانبي (Lateral)

وهو صوت يُنطق برفع طرف اللّسان حتّى يتّصل باللّثة ، ورفع الطّبق حتّى يتّصل بالجدار الخلفي للحلق ، فيسدّ المجرى الأنفي ، وكلّ هذا مصاحَب بذبذبة في الأوتار الصّوتية. والصّوت الجانبي في اللّغة العربية هو: **اللاّم.** ومعنى الجانبية في نطق هذا الصّوت أنّ إحدى جانبي اللّسان أوكليهما يدع الفرصة للهواء الرّئوي ليمرّ بينه وبين الأضراس ، في الوقت الّذي يمتنع فيه مروره على وسط اللّسان لحيلولة طرف اللّسان المتّصل باللّثة دون ذلك[63].

ج3-الأنفي (Nasale)

ففي صوت **الميم** تتّصل الشّفتان حين النّطق به ، ويهبط الطّبق فينفتح المجرى الأنفي ، ويمرّ الهواء منه ، في حين تحدث ذبذبة في الأوتار الصّوتية. أمّا صوت **النّون** فيتمّ النّطق به بجعل طرف اللّسان ضدّ اللّثة مع خفض الطّبق لفتح المجرى الأنفي ، وإحداث ذبذبة في الأوتار الصّوتية[64].

ج4-نصف **علّي** (semi-vowel)

صوت الواو يُنطق بضمّ الشّفتين ضمّا دون الإقفال، مع نتوئهما إلى الأمام، ورفع مؤخّر اللّسان، وسدّ المجرى الأنفي، ووجود ذبذبة في الأوتار الصّوتية. أمّا صوت الياء فهو أيضا صوت علّي يُنطق برفع مقدّم اللّسان في اتّجاه الغار، ورفع الطّبق حتّى يسدّ المجرى الأنفي، مع وجود ذبذبة في الأوتار الصّوتية[65].

إنّ ما اصطلح عليه **تمّام حسّان** نصف علّي لا يختلف عمّا أدركه علماء العربية واصطلحوا عليه نصف حركة ؛ إذ يشير **ابن جنّي** أنّ الواو والياء " لما تحرّكتا قويتا بالحركة فلحقتا بالحروف الصّحيحة"[66]، ويُعقّب **كمال بشر** عن ذلك بقوله: إنّ" هذين الصّوتين يقلّ فيهما الاحتكاك بدرجة تُقرّبهما من الحركات. ومن ثمّ كان الاصطلاح أنصاف الحركات، وهو ما عبّر عنه ابن جنّي بأنّهما ملحقان بالأصوات الصّحاح أي الصّامتة أو مضارعان لهما...إنّهما صوتان صامتان وظيفيا، ولكنّهما يشبهان الحركات نطقا"[67].

إنّ الأداء النّطقي لأنصاف الحركات أو أنصاف العلل يؤكّد أنّ 50% الأولى من الواو أو الياء غير المدّيتين تتّسم نسبيا بالوضوح السّمعي لخلوّ مخرجها من أيّ سدّ أو تضييق في المخرج، على خلاف 50% الثّانية منهما الّتي تقلّ قوّة الإسماع فيها نتيجة تضييق المخرج ؛ وعليه فإنّ الجزء الأوّل منها فيه من صفات الحركات أو العلل، وأمّا الجزء الثّاني منها ففيه من صفات الصّامت الصّحاح. وهذا هو سرّ تسميتها بأنصاف الحركات أو العلل، أو أنصاف الصّوامت، والاسم الأوّل منهما أكثر شيوعا.

2-التّقابل المصطلحي بين الجهر والهمس

يرى **تمّام حسّان** أنّ صفتي الجهر والهمس يُمكن الوقوف عليهما بالنّظر إليهما من الزّاوية الثّانية وهي: حدوث ذبذبة في الأوتار الصّوتية وعدمه.

أ- **صفة الجهر**

وتكون بحدوث ذبذبة في الأوتار الصّوتية تُصاحب نطق الصّوت فيُسمّى: **مجهورا. والأصوات المجهورة** عند **تمّام حسّان** هي: **الضّاد، الباء، الدّال، الظّاء، الذّال، الزّاي، الغين، العين، الهاء، الجيم، اللاّم، الرّاء، النّون، الواو، والياء**[68].

ب- صفة الهمس

وتكون بغياب ذبذبة الأوتار الصّوتية عند النّطق بالصّوت، فيُسمّى: **مهموسا. والأصوات المهموسة** عند **تمّام حسّان** هي: **الطّاء، التّاء، الكاف، القاف، الهمزة، الصّاد، الفاء، الثّاء، السّين، الخاء، والحاء**[69].

ويستحضر **تمّام حسّان** آلية التّقابل المصطلحي بين الجهر والهمس فيرى أنّهما صفتان تختلف فيهما الأصوات وتتقابل، حتّى ولو اتّحدت في المخارج، وهنا تتجلّى فكرة القيم الخلافية في تحديد الصّوت تحديدا إيجابيا أو سلبيا ؛ فالجانب الإيجابي يتّضح في الاتّحاد في المخرج، والجانب السّلبي يتّضح في الاختلاف والتّقابل في الصّفات. ويسوق **تمّام حسّان** أمثلة لذلك موضّحة في الجدول الآتي:

	جهـر	همـس
شـدّة	د	ت
رخـاوة	ز	س
المعطّـش	ج	–
توسّـط	ل	–

ويُعلّق قائلا:" الجهر والهمس ناحيتان تختلف فيهما الأصوات وتتقابل، حتّى لو اتّحدت مخارجها، كما في صوتي الدّال والتّاء، وكما في صوتي الزّين***** والسّين ؛ فالصّوت الأوّل من كلّ زوج مجهور والثّاني مهموس، والزّوج الأوّل شديد والثّاني رخو، والزّوجان معا من الأصوات الأسنانية اللّثوية، فبعض معنى (د) أنّها صوت شديد مجهور، وبعض هذا المعنى أيضا أنّها ليست (ت) ولا (ز)، مع اشتراك بينهما وبين القرين الأوّل في الشّدة، وبينها وبين الثّاني في الجهر. فالبعض الثّاني من المعنى، أوسمّه مفهوم المخالفة إن أردت أو الجانب السّلبي إن شئت، هو الّذي ينبني على القيمة الخلافية بين (د)، (ت) من ناحية، وبين (د) و (ز) من ناحية أخرى. ومثل ذلك يُقال في التّفريق بين كلّ صوت وآخر من أصوات اللّغة. ولعلّك قد لاحظت أنّ(ج) و(ل) في هذا الجدول ليس لهما مقابل مهموس"[70].

3-التّقابل المصطلحي بين الإطباق والتّغوير

يرى **تمّام حسّان** أنّ صفتي الإطباق والتّغوير يُمكن الوقوف عليهما بالنّظر إليهما من الزّاوية الثّالثة وهي: تحرّك مؤخّر اللّسان أو مقدّمه تحرّكا ثانويا أثناء حدوث النّطق في موضع آخر.

أ- **صفة الإطباق** (Velarization)

قبل الوقوف على ماهية الإطباق – واستنادا إلى القيمة الخلافية-ينبّه **تمّام حسّان** القارىء محذّرا إياه من الخلط بين اصطلاحين يختلفان أكبر اختلاف، وإن اتّحدا في كثير، ممّا يخلق صلة بينهما، وهما: **الطّبقية** (Velar Articulation) **والإطباق** (Velarization)، فمن خلال آلية التّقابل المصطلحي يميّز بينهما فيرى أنّ:

الطبقية: هي حركة عضوية يبقى اللّسان معها في وضع مُحايد، إذ يكون النّطق في مخرج الطّبق؛ أي ارتفاع مؤخّر اللّسان حتّى يتّصل بالطّبق، فيسدّ المجرى أو يُضيّقه تضييقا يؤدّي إلى احتكاك الهواء بهما في نقطة التقائهما[71]." ويحدث هذا عند نطق خ-غ-ق"[72].

وأنّ **الإطباق:** هو ظاهرة عضلية تصحب النّطق؛ إذ يرتفع مؤخّر اللّسان في اتّجاه الطّبق دون أن يتّصل به، فيجري النّطق في مخرج آخر غير الطّبق غالبا ما يكون طرف اللّسان أحد الأعضاء العاملة فيه. وتنتج عن الإطباق قيمة صوتية تُلوّن الصّوت المنطوق برنين خاص، كما في نطق: **الصّاد، والضّاد، والطّاء، والظّاء.** وتجدر الإشارة إلى أنّ **تمّام حسّان** نفسه يقع فيما حذّر القارئ منه إذ يقول: " الاستطالة وهي نتيجة طبيعية لامتداد اللّسان من الأسنان إلى ما يُداني الجدار الخلفي للحلق، ويُسمّى التّحليق ... وهو يوجد في الضّاد المصرية الحديثة، وفي كلّ الأصوات الطبقية وهي: **الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء**"[73]. وهنا يلتبس الأمر؛ **فالصّاد والضّاد والطّاء والظّاء** أصوات إطباق أي مطبقة وليست أصوات طبقية ودليل ذلك قوله:" الطّبقيات الّتي يتمّ نطقها في الطّبق هي أصوات الخاء والغين والقاف"[74] ويقول: " وصوت القاف لهوي، ومن ثمّ كان طبقيا لا مطبقا"[75]؛ أي يوصف بالطّبقية لا بالإطباق فأصوات الأولى هي: القاف والخاء والغين. وأصوات الثّانية هي: الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء. وهذا ما ذهب إليه **سيبويه** في قوله:" ومنها [أي الحروف] المطبقة والمنفتحة، فأمّا المُطبقة فالصّاد والضّاد والطّاء والظّاء. والمنفتحة: كلّ ما سوى ذلك من الحروف؛ لأنّك لا تُطبق لشيء منهنّ لسانك ترفعه إلى الحنك الأعلى"[76].

ويرى تمّام **حسّان** أنّ الإطباق هو أحد عناصر التّفخيم، ويُشير إلى أنّ النّحاة والقرّاء الأقدمين قد عبّروا عن الطّبقية والإطباق كليهما باصطلاح **الاستعلاء**، وقصدوا بذلك علوّ مؤخّر اللّسان في اتّجاه الطّبق سواء اتّصل به كما في الطبقية، أم لم يتصل كما في الإطباق[77].

ب- **صفة التّغوير** (Palatalization)

صفة التّغوير عند **تمّام حسّان** تُقابل صفة الإطباق، والتّغوير هو: نطق الصّوت الّذي مخرجه خلف الغار من الغار، أو أقرب ما يكون إليه. ويضرب لذلك أمثلة منها في لهجة العراق صوت الكاف المجاور لحركة الكسرة مغوّر كما في: فيكِ، فهم يقولون: فيتش[78]. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ **تمّام حسّان** قد وضع مصطلح الإطباق مقابلا لمصطلح التّغوير، في حين أنّ **سيبويه** جعل **مصطلح** الإطباق مقابلا لمصطلح الانفتاح[79].

4-التّقابل **المصطلحي بين التّفخيم والتّرقيق**

يرى **تمّام حسّان** أنّ الإطباق هو أحد عنصري التّفخيم، وأنّ التّغوير هو من أسباب التّرقيق، وعليه يُمكن النّظر إلى التّفخيم والتّرقيق كالإطباق والتّغوير من الزّاوية الثّالثة، وهي: تحرّك مؤخّر اللّسان أو مُقدّمه تحرّكا ثانويا أثناء حدوث النّطق في موضع آخر.

أ- **صفة التّفخيم**

هي ظاهرة أصواتية ناتجة عن حركات عضوية تُغيّر من شكل حُجُرات الرّنين بالقدر الّذي يُعطي الصّوت هذه القيمة الصّوتية المفخّمة. وإذا كان الإطباق هو أحد عنصري التّفخيم، فإنّ عنصره الثّاني هو التّحليق. **والتحليق** (Pharyngalization): هو قرب مؤخّر اللّسان من الجدار الخلفي للحلق، نتيجة لتراجع اللّسان بصفة عامّة[80].

ويرى **تمّام حسّان** أنّ الاستطالة هي نتيجة طبيعية للتّحليق، وهذا الأخير يوجد في الصّاد والضّاد والطّاء والظّاء[81]. ويُشير إلى أنّ حروف الإطباق الأربعة سالفة الذّكر، مُفخّمة إلى درجة أكبر من تفخيم الحروف الطّبقية الثّلاثة: الغين، الخاء، والقاف؛ ذلك لأنّ حروف الإطباق يبقى لها تفخيمها في كلّ وضع، ومع كلّ حرف علّة سابق أو لاحق. أمّا الحروف الثّلاثة الطّبقية فإنّها لا تُفخّم في مجاورة الكسرة[82].

وممّا سبق ذكره يتّضح أنّ التّفخيم صفة صوتية دائمة مع حروف الإطباق، وعارضة مع الحروف الطّبقية؛ إذ تُفخّم الغين والخاء والقاف إذا لم تجاورها الكسرة، ولا تُفخّم إذا جاورتها، وصنّفها **تمّام حسّان** في خانة الأصوات غير المفخّمة كما يظهر في الجدول.

ب- صفة التّرقيق

تُقابل صفةُ التّرقيق صفة التّفخيم، وتنطلق في الأساس من "حركة مؤخّر اللّسان في أثناء النّطق؛ إذ إنّ هذه الحركة معناها إعادة تكييف حُجرة الرّنين لدى البلعوم من حيث الشّكل والحجم"[83].

ويُشير تمّام **حسّان** إلى أنّ التّغوير من عوامل التّرقيق، إذ يقول: "أمّا التّغوير فنتيجته قيمة أصواتية مرقّقة ترقيقا عظيما"[84] تنتج عنها الأصوات المرقّقة غير المفخّمة وهي: **الباء، الدّال، التّاء، الكاف، القاف، الهمزة، الذّال، الغين، العين، الهاء، الفاء، الثّاء السّين، الشّين، الخاء، والحاء**[85].

ويمكن تلخيص أسباب التّفخيم والتّرقيق فيما قاله **تمّام حسّان:** "وإذا كان السّبب في التّفخيم، وهو ظاهرة صوتية، ما يُلابسه من إطباق (رفع مُؤخّر اللّسان إلى الطّبق)، وتحليق (تقريب اللّسان من الجدار الخلفي للحلق)، وهما حركتان عضويتان؛ فإنّ السّبب في التّرقيق عدم هاتين الحركتين"[86] مع حضور التّغوير (نطق الصّوت الّذي مخرجه خلف الغار، من الغار أو من قربه).

ويُلخّص تمّام **حسّان** صفات الأصوات في الجدول الآتي[87]:

جدول صفات الصّحاح عند تمّام حسّان

صفات الحروف													
المخارج	شديد				رخو		مركّب		متوسّط				
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور	مجهور كلّي			
	مفخّم	غير مفخّم	مفخّم	غير مفخّم	مفخّم	غير مفخّم	مفخّم	غير مفخّم		جانبي	تكراري	أنفي	نصف حرف علّة
شفوي		ب										[م]	و
شفوي أسناني								ف					
أسناني					ظ	ذ		ث					
أسناني لثوي	ض	د	ط	ت		ز	ص	س					
لثوي										ل	ر	ن	
غاري								ش	ج				ي
طبقي				ك		غ		خ					
لهوي				ق									
حلقي						ع		ح					
حنجري				ء		هـ							

ويُشبّه تمّام **حسّان** هذه المنظّمة التّشكيلية الحرفية في مجموعها بمربّعات رقعة الشطرنج؛ فالمربّعات في هذه الرّقعة تختلف بحسب الاعتبارات الآتية:

1- سواد المربّع وبياضه.
2- مكان المربّع في الخط الرأسي.
3- مكان المربّع في الخط الأفقي.
4- مكان المربّع في الخط المائل.

ويشير تمّام **حسّان** إلى أنّ هذا الجدول بخطّه الأفقي الّذي يمثّل المخرج والصّفات جميعها، وهذا هو التّطريز الحرفي في اللّغة، إذ لا يُمكن أن يتّحد مربّعات في كلّ هذه الصّفات[88]، فلو اتّفق حرفان في المخرج والصّفات لكانا صوتا واحدا.

لمعرفة الجديد الّذي أتى به **تمّام حسّان** في صفات الأصوات، تجدر الإشارة إلى القديم لاكتشاف ما جدّ عليه، وذلك من خلال صفات الأصوات عند **سيبويه**، والّذي قسّمها على النّحو المبيّن في الجدول الآتي[89]:

المخارج	الصّفات													
	شديد								رخو				لين	هاو
	يمتنع النفس معه				بين الشّدة ما				مهموس		مجهور			
	مجهور		مهموس			منحرف	أنفي	مكرّر	مرقق	مفخّم	مرقق	مفخّم		
	مفخّم	مرقق	مفخّم	مرقق										
1- ما بين الشّفتين		ب					م						و	
2- باطن الشّفة السّفلى وأطراف الأسنان												ف		
3- طرف اللّسان وأطراف الثّنايا									ذ	ظ		ث		
4- طرف اللّسان وفويق الثّنايا									ز		ص	س		
5- طرف اللّسان وأصول الثّنايا	ط	د		ت										
6- ما بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا							ن							
7- ما بين طرف اللّسان وفويق الثّنايا أدخل في ظهر اللّسان								ر						
8- حافة اللّسان إلى الطّرف وما فوقهما						ل								
9- أوّل حافة اللّسان وما يليه من الأضراس										ض				
10- وسط اللّسان ووسط الحنك الأعلى		ج										ش	ي	
11- مؤخّر اللّسان ومل يليه من الحنك الأعلى				ك										
12- أقصى اللّسان وما يليه من الحنك الأعلى	ق													
13- أدنى الحلق										غ	خ			
14- وسط الحلق					ع							ح		
15- أقصى الحلق		ء										هـ		ا

بعد تأمّل صفات الأصوات عند **سيبويه** وتمّام **حسّان** تبيّن ما يأتي:

اتّفق **تمّام حسّان** مع **سيبويه** في الشّدة والرّخاوة وما بينهما على مستوى الاصطلاح، فرجّح بذلك كفّة المصطلح القديم على كفّة المصطلح الحديث: الانفجار والاحتكاك، إلاّ أنّ نقاط الاختلاف تظهر فيما يأتي:

أقصى **سيبويه** الألف والواو والياء، فعدّ الأوّل هاو في الهواء، فإقصاؤه مقبول لأنّه في مقام دراسة الأصوات الصّحيحة. ولكن، إقصاءه لحرفي اللّين: الواو والياء يحيل إلى أنّه لم ينظر إلى صورتهما غير المدّية؛ فهما أنصاف حركات Semi-Vowels. و**تمّام حسّان** أدرك أنّهما تختلفان عن الألف المقصية المدّية العليلة دائما، فصنّفهما في خانة التّوسّط بين الشّدة والرّخاوة.

عدّ **سيبويه** الجيم صوتا شديدا في أن تمّام حسّان أدرك أنّه صوت معطّش مركّب من الشّدة والرخاوة. وفي هذا يرى **كمال بشر**" أنّ علماء العربية في القديم لم يلتفتوا إلى التّطوّر الذي أصابها [أي الجيم] أي صيرورتها وقفة-احتكاكية بعد أن كانت وقفة خالصة"[90]. ويرى أنّ الجيم صوت "مركّب Affricate ورمزه [dj] وهذه الصّورة من النّطق متطوّرة عن الأصل السّابق، وعليها سار ويسير الثّقات من قرّاء القرآن الكريم"[91].

وصف **تمّام حسّان** صوت العين بالرّخو، في حين أنّ **سيبويه** يقول:" وأمّا العين فبين الرّخوة والشّديدة "[92]. ويرى كمال **بشر** أنّ "الحكم ببينية صوت العين حكم غير دقيق في النّظر الحديث؛ إذ هو صوت احتكاكي دون شكّ، وإن كان ينماز بأنّه أقلّ الأصوات الاحتكاكية احتكاكا. ولعلّ هذا هو السرّ الّذي قاد سيبويه وغيره إلى هذا الحكم"[93]. وعليه يمكن القول باحتكاكية العين وترجيح وجهة النّظر الحديثة لاستناد هذه الأخيرة على الأجهزة الصّوتية الدّقيقة لدراسة الصّوت.

يرى **تمّام حسّان** أنّ العربية الفصحى تعترف بثلاثة حروف علّة يختلف كلّ منها بين الطّول والقصر؛ أي أنّها عنده ثلاثة لكلّ منهما كمّيتان؛ إحداهما قصيرة، والثّانية طويلة أو لين[94].

وذهب تمّام **حسّان** إلى أنّ الأبجدية العربية لم تُعن بالعلل لا من النّاحية الأصواتية، ولا من النّاحية التّشكيلية، بل جعلت لها رموزا إضافية تابعة لرموز الصّحاح، وتدلّ على الحرف أكثر ممّا تدلّ على الصّوت[95]، ورموزها هي: الفتحة (ـَـ)، الضّمة (ـُـ)، والكسرة (ـِـ). ورأى أنّ " الفتحة

القصيرة مثلا ذات أصوات ثلاثة في العربية الفصحى أحدها مفخّم ، وثانيها أقلّ تفخيما ، وثالثها مرقّق ، ومع ذلك لم يُعن واضعوا الرّموز العربية بهذا ، بل وضعوا لكلّ أولئك خطّا فوق رمز الحرف الصّحيح قلّما يستعمل في أيّامنا هذه إلاّ في ظروف خاصّة ومواقف معيّنة"[96].

إنّ ما اصطلح عليه **تمّام حسّان** بالعلل ، وهي بالمصطلح الصّوتي الصّوائت ، تُعاني فعلا قصورا سواء من النّاحية التّشكيلية أومن ناحية الاستعمال الصّوتي ، فمن النّاحية الأولى قلّما تُستعمل حتّى في المراحل الأولى من التّعلّم. أمّا من النّاحية الثّانية ، وانطلاقا من المثال الّذي ساقه **تمّام حسّان** فإنّ الفتحة القصيرة الّتي لا يُمكن أن تظهر بمعزل عن الصّامت ، قد يغيب رمزها حتّى وإن كان الصّامت حاضرا. أمّا من النّاحية الأصواتية ، فالتّلوّن الصّوتي للفتحة العربية بتفخيمها أو ترقيقها أو بينهما ، لا يُمثّله من النّاحية التّشكيلية إلاّ رمز واحد هو خط صغير فوق الحرف الصّحيح. ناهيك عن ارتباط هذا الرّمز الوحيد – الّذي كثيرا ما يغيب- بالتّفخيم والتّرقيق وهما ثنائية ضدّية من قبيل الصّفات الصّوتية العامة العارضة الّتي تحضر لسبب ، وتغيب لغياب هذا السّبب. ومن هنا قد يلتبس الأمر أصواتيا حتّى وإن كان الرّمز حاضرا تشكيليا ، ويتّضح ذلك من خلال الأمثلة الآتية:

	حركة مفخّمة	حركة مرقّقة	حركة بين بين
أمثلة الفتحة القصيرة	صَبر	سَبر	قَبر
أمثلة الضّمة القصيرة	صُم	دُم	قُم
أمثلة الكسرة القصيرة	صِيام	رِمال	قِيام

والفرق في المعنى لا يرجع إلى التّفخيم في الحركات أو التّرقيق أو الحال الوسطى بينهما ، وإنّما يرجع إلى وُجود الصّاد في صَبر ، والسّين في سَبر ، والقاف في قَبر ؛ فالفتحة القصيرة إذن حركة واحدة من النّاحية الوظيفية ، وثلاث من النّاحية النّطقية الفعلية ، ومثلها الفتحة الطّويلة أي الألف. كذلك الحال بالنّسبة للضّمة والكسرة القصيرتين ، فكلّ واحدة منهما تُمثّل حركة واحدة من النّاحية الوظيفية ، وثلاث من النّاحية النّطقية الفعلية ، ومثلهما الضّمة الطّويلة ، أي الواو ، والكسرة الطّويلة ، أي الياء[97]. وبهذا يكون مجموع الحركات من النّاحية الأصواتية هو: ثمانية عشر ، وليس كما ذهب **تمّام حسّان** في أنّها ثلاثة لكلّ منها كمّيتان ، إحداهما قصيرة ، والثّانية طويلة ؛ فلا يُمكن أن نستعيض بالجزء عن الكلّ ، خاصّة وأنّ الحركات القصار لا تّعوّض الطّوال ؛ فلا الفتحة(ـَ) تحلّ محلّ الألف (ا)، ولا الضّمة(ـُ) تحلّ محلّ الواو (و)، ولا الكسرة(ـِ) تحلّ محلّ الياء (ي)، والعكس صحيح.

وفي الأخير يمكن القول إنّ آلية التّقابل المصطلحي تظهر جليّة في أنظمة اللّغة العربية عامّة ، والنّظام الصّوتي خاصّة ، ومن خلال هذه الورقة البحثية حول: **آلية التّقابل المصطلحي ودورها في تيسير الدّرس الصّوتي عند تمّام حسّان** ، تتجلّى طائفة من المتقابلات على سبيل التّخالف أو التّضاد ، نحو: اللّغة والكلام ، الفونيتيك والفونولوجيا ، الصّوت والحرف ، الصّحاح والعلل ، الشّدة والرّخاوة ، الجهر والهمس ، الإطباق والتّغوير ، التّفخيم والتّرقيق... ولهذه الأخيرة دور مهم في تيسير الدّرس الصّوتي ؛ لأنّ ماهية أيَّ عنصر تُعرف بذكر ما يخالف هذا الأخير ، وكذا لأنّ الأشياء تُعرف بأضدادها ، ويظهر ذلك قابل **تمام حسّان** بين مصطلحي الفونيتيك والفونولوجيا وفرّق بينهما على أساس التّفريق السوسيري بين الكلام واللّغة كما أنّه قابل بين مصطلحي الصّوت والحرف ؛ فرأى أنّ حقل الصّوت هو الفونيتيك وحقل الفونيتيك هو الكلام ، وأنّ حقل الحرف هو الفونولوجيا وحقل الفونولوجيا هو اللّغة.

الهوامش

[1] صلاح الدّين صالح حسنين. جهود الدّكتور تمّام حسان الصّوتية. مقال في كتاب تذكاري: تمّام حسان رائدا لغويا. عبد الرّحمن العارف. عالم الكتب. ط 1. (2002). ص 191.

[2] تمام حسّان.اللّغة العربية معناها ومبناها. دار الثّقافة. الدّار البيضاء. (2001). ص 9.

[3] للاستزادة يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. من ص 38 إلى ص 64.

[4] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص 13.

اللّغة العربية معناها ومبناها ص 32.

[5] تمّام حسّان. أمن اللّبس ووسائل الوصول إليه في اللّغة العربية. حوليات دار العلوم. مطبعة جامعة القاهرة.1969. ص123.

[6] تمام حسّان. الفكر اللّغوي الجديد. ص 27.

[7] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 50.

اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص 160.

[8] .Trubetskoy. Principe de Phonologie. Parie.1949.P 03

نقلا عن: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 139.

[9] تمام حسّان. المرجع نفسه. ص67 -وص139.

[10] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 45 - وص 65.

[11] يُنظر: حلمي خليل. العربية وعلم اللّغة البنيوي " دراسة في الفكر اللّغوي العربي الحديث" دار المعرفة الجامعية. 1996. ص 227 - 228.

[12] يُنظر: حلمي خليل. المرجع نفسه. ص 228.

[13] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 48.

[14] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 151 – 152.

[15] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص 119.

[16] تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 66.

[17] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص 119 -129.

[18] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 141.

[19] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 142 -ص147.

[20] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 148 -149.

[21] تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 152.

[22] تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 152.

[23] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص 118.

[24] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 110.

[25] يُنظر: تمام حسّان. اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص 119.

[26] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 153 -154.

[27] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 73.

[28] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 115.

[29] تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 110.

[30] تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 110-111.

*.سقط الميم من الجدول

[31] تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 50.

[32] تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 50 . 51.

** يشير محقّق الكتاب عبد السّلام هارون في هامش ص 432 إلى أنّ سيبويه عدّ هذين الجيمين جيما واحدة ، وهي الجيم الّتي تكون كالشين.

[33] يُنظر: سيبويه. الكتاب ج4. تح: عبد السّلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. (2009). ص 431 -432.

[34] تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 57.

[35] ينظر: مهين حاجي زاده. دراسة آراء سيبويه الصّوتية في ضوء البحث اللّغوي الحديث. مجلّة التّراث الأدبي. السّنة الثانية. العدد الخامس. (1388/11/18هـ). ص 64. على الرّابط: www.sid.ir/fa/. محرّك البحث: Ask.

[36] خديجة إيكر.تنبّه سيبويه إلى الفرق بين الحروف الأصلية أو بين الفونيم والألوفون. منتديات رُواء الأدب. فضاء اللّغة"الأصوات". تاريخ النّشر: (2012/01/15).على السّاعة:01:16.على الرّابط:www.ruowaa.com.محرّك البحث: Ask.والمقال منشور أيضا على صفحة:

ملتقى إحياء علوم الدّين.الغرفة الصّوتية.التّعديل الأخير بواسطة:أ.د.خديجة إيكر (يوم:2012/01/25).على السّاعة:14:12.على الرّابط:almolltaqa/com.محرّك البحث:Ask.

[37] تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. دار الثّقافة. (2001). ص 59.

***خطأ مطبعي والصّواب هو: الزّاي.

****سقط الصّوت الّذي يخرج من هذا المخرج وهو: الرّاء.

[38] الفايز صدّام. الدّرس الصّوتي عند سيبويه (عرض ، مشكلات ، تقييم). على شبكة الألوكة. المجلس العلمي. (شعبان 1430هـ). على السّاعة:09:05. على الرّابط: majles.alukah.net /38007/. محرّك البحث: Ask.

وأحمد القرشي. الخلاف بين سيبويه والخليل في الصّوت والبنية. على الرّابط: https://uqu.edu.sa/majalat/ . محرّك البحث: Ask.

[39] للاستزادة ينظر: سيبويه. الكتاب.ج2. طبعة بولاق. المكتبة الكبرى الأميرية.ط1.القاهرة. (1316) هـ. ص 405.

سيبويه. الكتاب.ج4. تح: عبد السّلام محمد هارون. مكتبة الخانجي.ط5. القاهرة. (1430هـ.2009). ص433.

[40] تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. دار الثّقافة. 2001.ص 59.

[41] تمام حسّان. المرجع نفسه. ط5. عالم الكتب. 2006.ص 59.

[42] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 53.

[43] يُنظر: الفايز صدّام. الدّرس الصّوتي عند سيبويه (عرض ، مشكلات ، تقييم). على الرّابط: majles.alukah.net /38007/. محرّك البحث: Ask.

[44] تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 111.

[45] للاستزادة ينظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرائي ، ج1 ، سلسلة المعاجم والفهارس ، ص57-58.

[46] مهين حاجي زاده. دراسة آراء سيبويه الصّوتية في ضوء البحث اللّغوي الحديث. مجلّة التّراث الأدبي. السّنة الثانية. العدد الخامس. 1388/11/18هـ. ص 64. على الرّابط: www.sid.ir/fa/. محرّك البحث: Ask.

[47] كمال بشر. علم الأصوات. دار غريب. (2000). ص 191.

[48] تمام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص 58.

[49] للاستزادة يُنظر: غانم قدوري الحمد. مخارج حروف العربية: عددها و ترتيبها بين الدّرس القديم و الدّرس الحديث(عرض و مناقشة). مجلّة الحكمة. العدد:38. (محرّم1430هـ). ص315-358.على الرّابط: http://vb/tafsir/net/tafsir19744/. محرّك البحث: Ask.

[50] يُنظر: كمال بشر. علم الأصوات. ص192.

[51] يُنظر: كمال بشر. علم الأصوات. ص194-195.

[52] مهين حاجي زاده. دراسة آراء سيبويه الصّوتية في ضوء البحث اللّغوي الحديث. ص67-68.

[53] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 115.

[54] تمام حسّان. اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص 118.

[55] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 112.

[56] يُنظر: مناهج البحث في اللّغة. ص 131.

[57] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 112-113.

[58] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 112-113.

[59] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 113.

[60] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 131-132.

[61] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 112.

[62] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 132.

[63] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص133.

[64] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 133-134.

[65] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 135-136.

[66] ابن جني. سرّ صناعة الإعراب. ج1. ص22-32.

[67] كمال بشر. علم الأصوات. ص 381.

[68] يُنظر: تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 156.

[69] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 156.

*****الزّاي.

[70] تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص 114.

[71] يُنظر: تمام حسّان. المرجع نفسه. ص 115.

[72] صلاح الدّين صالح حسنين. جهود الدّكتور تمام حسّان الصّوتية. ص196.
[73] تمام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص125.
[74] تمام حسّان. المرجع نفسه. ص121.
[75] تمام حسّان. المرجع نفسه. ص125.
[76] سيبويه. الكتاب.ج4. ص 436.
[77] يُنظر: تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص116.
[78] يُنظر: تمّام حسّان. المرجع نفسه. ص116.
[79] يُنظر:سيبويه. المصدر السّابق. ج4.ص 436.
[80] يُنظر: تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص116.
[81] يُنظر: تمّام حسّان. المرجع نفسه. ص120.
[82] يُنظر: تمّام حسّان. نفسه. ص188.
[83] تمّام حسّان. اللّغة بين المعيارية والوصفية. ص118.
[84] يُنظر: تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص116.
[85] يُنظر: تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص116. ينعت تمّام حسّان هذه الأصوات بغير المفخّمة ، وفي نفس الكتاب ص187. واللّغة بين المعيارية والوصفية.ص118.يستعمل مصطلح التّرقيق كمقابل للتّفخيم.
[86] .تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص127
[87] تمّام حسّان. المرجع نفسه. ص116.
[88] يُنظر: تمّام حسّان. المرجع نفسه. ص157.
[89] فكرة الجدول مستقاة من كتاب تمّام حسّان. اللّغة العربية معناها ومبناها. ص59. وتمّ الاعتماد على: سيبويه. الكتاب.ج4.تح: عبد السّلام محمد هارون. ص433.
[90] كمال بشر. علم الأصوات. ص329.
[91] كمال بشر. المرجع نفسه. ص339.
[92] سيبويه. الكتاب.ج4.ص 435.
[93] كمال بشر. علم الأصوات. ص207.
[94] يُنظر: تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص116 وص136.
[95] يُنظر: تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص15.
[96] يُنظر: تمّام حسّان. مناهج البحث في اللّغة. ص15.
[97] كمال بشر. علم الأصوات. ص207.

نحو أفق دراسة نسقيّة للظاهرة الأدبيّة وتاريخ الأدب

خالد زيغمي *

الملخص

توجهت العديد من الأبحاث والدراسات الثقافية والأدبية في السنوات الأخيرة ، نحو الاستفادة من جميع التراكمات المعرفية ، النظرية منها والتطبيقية ، فلم تستثن من ذلك أيّ حقلٍ معرفيٍّ. وكانت تروم في ذلك أن تصل بالدراسة الأدبية نحو آفاق جديدة ، غير معروفة وغير مألوفة في عالم النقد والأدب. وقد تُوجَّت هذه الجهود بالدعوة إلى ما يسمى بتصور تعدد الأنساق / تشييد النسق ، والتحليل النسقي في دراسة الظاهرة الأدبية والتاريخ الأدبي.

تعرض هذه الدراسة ، البدايات النظرية الأولى التي آمنت بالنّسق ، وكان من ذلك جهود الشكلانيّين الروس ، ثم تصورات النظرية البنيوية ، ثمّ وكنتيجة للجهود الطويلة التي بُذلت في البنيوية والتفكيكية والسيميائية وجمالية التلقي ، وعلم اجتماع الأدب ، وغيرها من الحقول البحثيّة والمعرفية ، نمت وتطورت الأبحاث التي تدعو إلى نظرة أشمل في دراسة الظاهرة الأدبية وتاريخ الأدب. فكان منها نماذج ذكَرتْها الدراسة ، وأشارت إلى مبادرات بعض الباحثين العرب الذين أفادوا من هذه الأبحاث الأخيرة.

الكلمات المفاتيح: النّسق ، تعدد الأنساق ، تشييد النسق ، التحليل النسقي ، الظاهرة الأدبيّة ، تاريخ الأدب.

Résumé

Au cours des dernières années, De nombreuses recherches culturelles et études littéraires se sont dirigés pour profiter de toutes les accumulations de connaissances, à la fois théorique et pratique. Cependant l'intention était d'atteindre l'étude littéraire sur un nouvel horizon d'étude littéraire dans le monde de la critique littéraire. Ces efforts ont abouties à l'appel à la soi-disant « polysystème » et « édifice systémique », ainsi que « l'analyse systémique » dans l'étude du phénomène littéraire et de l'histoire littéraire.

Cette étude expose les premiers vues théoriques qui a crues au système littéraire ; telle que les efforts des formalistes russe, puis les points de vues théorique du structuralisme.

Et par conséquence aux efforts déployés dans la déconstruction et la sémiotique et l'esthétique de la réception, et la socio littéraires et d'autres domaines de la recherche scientifique, La recherche a évolué dans le domaine de l'étude du phénomène littéraire et de l'histoire littéraire. Cette étude a abordé certaines modèles, et a souligné quelques-unes des initiatives de chercheurs arabes qui ont bénéficié de ces recherches récentes.

Mots-clés : Système, Polysystème, Analyse Systémique, Phénomène Littéraire, Histoire De La Littérature

Summary

During the recent years, researchers in cultural and literary studies have been increasingly making use of the accumulated knowledge (both theoretical and practical), aiming at widening the scope of literary studies to reach new horizons in the field of literary criticism. This led to the development of the polysytem theory and the polysystemic analysis of the literary phenomenon and the history of literature.

This paper aims to present an overview of the historical and theoretical backdrop of the theory of polysystems grounded in russian formalism and structuralism.

In addition, the efforts and advances made in the fields of deconstruction, semiotics, aesthetics of reception, and sociological approaches to literature and other disciplines resulted in a broadening of the scope of the study of the literary phenomenon and the history of literature.

In this paper, we discuss few models and highlight the initiatives made by Arab researchers who benefited greatly from recent research advances.

Keywords: System, Polysystem, Systemic Analysis, Literary Phenomenon, Literary History

* أستاذ محاضر ب، قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب واللغات، جامعة محمد لمين دباغين، سطيف -2-

المـقــدمة

تطمح هذه الدراسة إلى إبراز التحوّل النظري والإجرائي الذي حدث في حقل النظرية الأدبية الحديثة في مجال دراسة الأدب والظاهرة الأدبية والتاريخ الأدبي. وقد انطلقت من قناعة أنّه ما من تحوّل يعتمل في المدارس النقدية الأدبية الحديثة إلا وتستوحي منه الدراسة الأدبية من الآليات والإجراءات ما يدفعها إلى آفاق جديدة تقوم على أنقاض رؤى وممارسات نقدية سابقة. فلقد مسّت الدراسات الأدبية في السنوات الأخيرة سلسلة من التطورات بعضها لا وزن له، وأخرى فعّالة ومؤثّرة، ولا أدلّ على ذلك من كثرة الدراسات والأبحاث الثقافية الأخيرة التي كانت لعدة باحثين أكاديميّين لا سيّما في فرنسا وألمانيا وكندا.

والسؤال الذي فرض نفسه في الدوائر العلمية والمعرفية هو: هل حصل فعلا تغيّر ملموس في الدراسات الأدبية؟، هل هناك مقاربات جديدة، غيّرت نظرة الباحثين الأدبيّين لموضوعات تخصصاتهم ومشاكلها ومناهجها وأهدافها؟[1]، وليس المقصود بالمقاربات الجديدة، تلك التي صارت معهودة مثل البنيوية، والتفكيكية، وجمالية التلقي، بل المقصود هي الدراسات الثقافية الاجتماعية. فقد بات من المؤكد في السنوات الأخيرة أن هناك دعوات كثيرة لإعادة النظر في المنهج الذي تُدرس به النصوص الأدبية فضلا عن الظاهرة الأدبية وتاريخ الأدب. بالنسبة للنصوص فقد صار من غير الملائم عند بعض الدارسين الجُدد عزلها عن سياقاتها الثقافية والمجتمعية وعن مجموع المتفاعلين معها، قبولا، أو رفضا، طباعة أو نقلا، قراءة أو إهمالا.

أما عن الظاهرة الأدبية الثاوية ضمن دراسات التاريخ الأدبي، فقد تراكمت العديد من الدراسات التي تُلِّح على ضرورة تناولها بالدراسة، بكل مكوناتها المتعالقة بدل التوجه إلى دراسة النصوص مفردة. لا سيما بعد أن أصبح» يقال في درس النص الأدبي الواحد المتناقضات، ويبدو أن هذا التناقض قد كان من الأسباب التي دعت بعض الباحثين المحدثين، إلى أن يتجهوا بأبحاثهم إلى نواح أخرى في درس الأدب لم تلق حظّها من العناية لدى أصحاب الاتجاهات السابقة «[2]، ونعني بأصحاب الاتجاهات السابقة، الاتجاه التاريخي، والاتجاه الاجتماعي، والاتجاه النفسي، بل وحتى البنيوي. ومن ثم ظهرت دراسات؛ تَسَاءَلَ فيها أصحابُها عن مدى الجدوى في حصر معنى الأدب في النصوص الأدبية والاكتفاء بها، دراسة وتفسيرا، وأثاروا قضايا لم تكن معهودة في عالم الدراسات الأدبية.

ولعل أبرز هذه الأعمال كتابان أحدهما عمل جماعي أشرف على إنجازه وأسهم فيه الباحث الفرنسي روبير إسكاربيت[3] Robert Escarpit ظهر سنة 1970 تحت عنوان: ((الحدث الأدبي والحدث الاجتماعي)) (Le Littéraire et le social)، حاول فيه كُتّابه أن يؤسِّسوا لعلم اجتماع يُعني بالأدب. من خصائص هذا الاتجاه أنه يدعو للخروج بدرس الأدب من الاقتصار على النظر في النصوص الأدبية، إلى العناية بالظاهرة الأدبية في شتى مظاهر تأثيرها واستعمالها.[4] وأما الدراسة الأكاديمية الثانية، فهي للباحثة الفرنسية ((فرانس فيرنيي)) (F.Vernier) ظهرت سنة 1974 تحت عنوان: ((الكتابة والنصوص)) (L'écriture et Les Textes). وكانت نتيجة هذه الأبحاث وغيرها، أن دعت إلى ضـرورة دراسـة الظاهرة الأدبية وتاريخها بالنظر إلى الأنساق المـتعددة[5] التي تحْكُمها وتتعالق ضمنها، وقد انبثق هذا المفهوم »تطويرا وتنويعا للمنظور النسقي الذي يظهر بأنه لا يقوى على الإحاطة بالظاهرة الأدبية في تعالقاتها المختلفة والتي لها نسقها الخاص، ويدّعي هذا المنظور بأنه يسعى إلى الإمساك بكل المكونات الأساسية والفرعية، والمركزية، والهامشية، التي تكوّن الأدب وتاريخيه «[6].غني عن البيان أن مصطلح "النسق" كان المحور الجوهري في نظرات ((دي سوسير)) اللغوية، » فاللغة -في تصوره- نسقٌ لا يعرف إلا طبيعة نظامه الخاص، وهي نسقٌ سيميائيٌّ يقوم على اعتباطية العلامات، ولا قيمة للأجزاء إلا ضمن الكلّ، فجاراه كثير من البنيويين في هذا الشغف بالنسق حتى أطلق فوكو على جيله اسم ((جيل النسق)) «[7].

أولا:دور الشكلانيّين الرّوس في تأسيس مفهوم النسق

غنيّ عن البيان أن مفهوم تعدد الأنساق، انبثق أصلا من مفهوم النسق[8] الذي طوّره الشّكلانيون الرّوس، فلقد أخذوا» على عاتقهم وصف النسق، ثم تحليل عناصره البنيوية، واستنباط القوانين التي تشكِّل نسقه، من خلال

الوقوف على العلاقات القائمة بين عناصره«[9]. وقد قام الشكلانيون بدراسات نصيّة عديدة عبر تاريخ الأدب، وجعلتهم يقعون على مجموعة من العناصر التي تتكرر وتطرّد في العديد من الأعمال الأدبيّة مما دفعهم إلى القول **بنسقية الأدب**، وصار لهم مفهومهم الخاص حول تطوّر الأدب، قادحين بذلك فيما نعتوه بالتاريخانية البيدائية Historicisme primitife [10]، والتي تعتمد على المناهج» التقليدية القائمة على النقد التاريخيّ والفيلولوجي للنصوص، أو على علم نفس الملكات الإنسانية...والاقتباس من تاريخ الحركات الاجتماعية ومن تاريخ الأفكار«[11]، وكنتيجة لهذا المنظور فقد رفضوا البيوغرافيا[12]الأدبيّة التقليدية كأساس لتفسير العمل الأدبي، والتي كان معمولا بها بشدة في تواريخ الأدب التي برزت للوجود في الربع الأول من القرن العشرين، كما رفضوا كل ميتافيزيقا أدبيّة؛ فهذا أديب "مُلهم" وهذا "مُوحى إليه" وهذا "عبقريّ فذّ"، وما إلى ذلك من التفاسير الماوراء طبيعية، ورفضوا أيضا سلطة المرجع في التأويل وإعادة الإنتاج، وأخيرا رفضوا المدارس الرمزية وتأويلها للأعمال الأدبية[13]. ولعل هذا ما يطلّع عليه الدارسون في النصوص التي ترجمها تزفيتان تودوروفTzvetan Todorov ضمن كتابه ((نظرية الأدب)) Théorie de la littérature عام1965 [14].

ومن أهم أعمال الشكلانيين الرّوس التي اهتمت بدراسة النسق الأدبي نجد أعمال يوري تينيانوف[15] Yuri tynyanove (1894-1943) وبوريس إيخنباوم Ejchenbaum Boris (1886-1959)، «فالنسق في تصورهما أوليّة من أوليّات النظرية الأدبية، لأنه يجابه النزعة الذرّية...بيد أن تينيانوف كان يميّز بين النسق من جهة وبين مبدأ البناء أو الإجراء (Procedé)، وهو ما أضفى على مقاربته البعد النسقي، لأنه كان يعتقد بأن النسق كفيلٌ بتطبيقه على العديد من أنظمة الوقائع» [16]، ومن ضمنها الظاهرة الأدبية أو الحوادث الأدبية. وقد جابه تينيانوف مُسلَّمة، أن هناك "**نسق نموذج**" لحقبة أدبيّة ما، ويُطبّق-أي النسق النموذج-آليا على بقيّة الحقب الأدبيّة الأخرى، دون مراعاة لأوجه التباين بينها، ولعل من مخاطر هذه النظرة، أنها تهمل الخصوصيات النسقية لكل حقبة أدبية. وحرصا منه على إعطاء مفهوم خاص للتطوّر الأدبي، ميّز بين الواقعة/ الحادثة /الظاهرة الأدبية والأدب، «ورأى أنه من الصعب وضع تعريف للأدب في حين يمكن وضع تعريف للحدث الأدبي في كل عصر، ويقوم هذا التمييز على ما هو وصفي وما هو وظيفي، فالوصفي هو الذي يتطلّب تجربة مباشرة، وإدراكا بسيطا، بينما يتجاوز الوظيفي ذلك الإدراك البسيط»[17]، وعليه-حسب تينيانوف- فإن الظاهرة الأدبية أو الحدث الأدبي مرتبط بالنسق الأدبي، « أما الأدب فلا يمكن أن يشّكل أي نسق، ولهذا يستبعد بعض المفاهيم التي ظلّت لصيقة بتاريخ الأدب، مثل المؤثرات والتقاليد...فالتطور الأدبي حسب تينيانوف، لا يرادف تلك التحولات التي تطرأ على جملة من الوظائف التي تشّكل نسق العمل الأدبي، فمثل هذه التحولات تحصل داخل النسق العام للأثر الأدبي»[18]، ويرى الباحث أحمد بوحسن أن تينيانوف بهذا التصور قد طبّق على الأدب ما طبّقه دو سوسير على اللغة[19]، حيث ميّز بين اللغة والكلام، وخلص إلى نسق اللغة الذي يحكم فعلها. وأن مقاربته-أي تينيانوف-قريبة من نظريات كوفكا الذي ميّز بين المفاهيم الوصفية والوظيفية، وإرنست أ.Ernst A.cassirer، الذي ميّز بين المادة والوظيفة. «كما يمكن أن يكون التقليد الهيجلي Hegelianism قد قاد المثقفين الرّوس إلى إدراك الأدب على أنه تراتب دينامي، وصراعٌ مستمرٌ للهيمنة بين الأفراد والجماعة، وقدشخّص تينيانوف هذه الدينامية الداخلية للبنيات الأدبية كمظهر مميّز للأدب، فالأدب عنده تركيب كلامي يُدرك كما يُدرك البناء تماما، أي أن الأدب هو بناء ديناميّ. وقد اهتدى تينيانوف إلى مفهوم يحرك هذه الدينامية كلّها، وهو مفهوم ((المهيمن)) الذي يعطي للأدب تناغمه الخاص» [20].

ومن المفاهيم الأساسية للشكلانيّين عن "التطور الأدبي"، مسألة التمييز بين "شكل" و"وظيفة" الأدب، فالدوال الأدبيّة (الأشكال) منبعها اللغة اليومية مثل (أكل، شرب، نام، درس، خرج..إلخ)، غير أن هذه الأشكال المتداولة، تنتظم داخل إطار الأدب فتحوز وظائف أدبيّة (مدلولات ثانية)، وتتركب فيما بينها عبر مستويات مختلفة، و«ضمن هذا المنظور تتناوب الأشكال وتتعاقب، لا من خلال ضرورة الإحاطة بحقائق جديدة بل لأسباب ملازمة للأشكال ذاتها التي تنحطّ وتتلاشى»[21]، ويصبح تاريخ الأدب

حسب تينيانوف هو »تاريخ للأشكال الأدبية ، والذي يسميه جيرار جنيت Gérar Genette[22] تاريخ الشّفرات الأدبية ، ويدعوه ويليك Wellek ووارين Warren تاريخا للأدب باعتباره فنا ، ويعرّفه غولدمان Lucian Goldman باعتباره تاريخا بنيويا تكوينيّا ، ويراه هانز روبير ياوس Hans Robert Jauss من زاوية تاريخ تلقي الأعمال الأدبية ، فيما يَعتبره ميكائيل ريفاتير Michael Reffatere تاريخا لقراءة الأعمال. إن القاسم المشترك بين كل هذه المحاولات التنظيرية هو الاهتمام بالعمل والأعمال الأدبيّة ، باعتبارها مكانا لتنظيم تاريخيّ ممكن«[23]. ولا يسع الدراسة أن تفصّل رؤى كل هؤلاء ، فيما يتعلق بدراسة الظاهرة الأدبية وتاريخ الأدب ، وإنما يمكن القول إنها تسعى جميعا إلى نبذ النظرة الذرّية وتقدّس البحث عن "الكلّ" ضمن النسق الأدبي العام الذي يكتنف الظاهرة الأدبية ، إلى درجة أن حدد ريفاتير للتاريخ الأدبي ثلاثة حقول: «العلاقة مع بين النصوص ، وبين النصوص والأنواع ، وبين النصوص والحركات الأدبيّة ، ثم الدلالات المتغيّرة للنص ، تبعا للأجيال المتعاقبة للقرّاء ، ثم دلالة النص الأصلية» ، في حين ينحو رولان بارت Roland. Barthes إلى التوفيق بين المظهرين الأساسيْن للأدب ، (المؤسسة) و(الإبداع). يكتب بارت في هذا السياق: « إذا ما رُمنا كتابة التاريخ الأدبي ، تنازلنا حتما عن ((راسين)) الفرد ، وانتقلنا طوعا إلى مستوى الطرائق الفنية والقواعد والطقوس والذهنيات الجماعية ، أما إذا رمنا المكوث في ((راسين)) في شكل من الأشكال إن صحّ التعبير ، وباختصار في الأنا الرسينيّ فإن علينا أن نقبل أكثر المعارف تواضعا وقد صارت نسقا ، وأكثر النقّد حذرا وقد اكتشف نفسه كائنا ذاتيّا وتاريخيّا تماما»[24].

وتعرّف الدراسات البنيوية "النّسق" بأنه: «مجموعة من العناصر المتفاعلة فيما بينـها»[25]، وباعتبار أن هذا التعريف مستوحى من الحياة المادية الفيزيائية ، فإنه قد ينسحب على أنساق أخرى غير مادية. ومن ثمّ شاع مفهوم النسق وتعدد الأنساق في العديد من الحقول المعرفية التي تتشكل من عناصر عديدة ، بينها علاقات وتفاعلات. ولقد انتقل مفهوم النّسق من الدراسات العلمية الدقيقة إلى اللسانيات وإلى العلوم الاجتماعية والإنسانية بل انتشر أكثر في الدراسات الأدبيّة في العقود الأخيرة ،« فكل ممارسة نظرية فكرية أو فنية تفترض مفهومين: مفهوم له علاقة بالممارسة ذاتها ، ومفهوم آخر يتعلّق بوضع تلك الممارسة في تعالق معين ، سواء فيما بينها أو بين أمور خارجة عنها. لذلك لا بدّ من التميّيز بين المفاهيم التي لها علاقة مباشرة بالممارسة الأدبية ، من خلال تجارب النصوص والممارسة التي تُدخل تلك النصوص أو التجارب ، في علاقة غير مشروطة بها »[26].

تأسيسا على ما سبق ، بدا أن الشكلانيّة الروسيّة ، قد فتحت الباب للتعاطي مع الأدب من مبدأ "النسق" ولا سيما أعمال تينيانوف ، وإيخنباوم وياكبسون ، ثم تطوّر هذا التصور عند البنيويين ، لاسيما في أعمال مدرسة براغ ، عند يان موكاروفسكي Jan Mokarofski وفيليكس فوديكا Felixe Vodicka ، أو في أعمال ميخائيل باختين Mikhalil Bakhtin ويوري لوتمان Yuri Lotman بالخصوص. بالإضافة إلى ما سبق ، نجد الدراسات الحديثة للأدب التي تدرس أساسا ((الحياة الاجتماعية) أو ((حقل الأدب)) كمؤسسة مستقلة ، كما عند بيير بورديو Pierre Bourdieu وجاك دي بوا Jaque Dubois وبيير زيما V.Zima Pierre وغيرهم. كما أفادت الدراسات المهتمة بجمالية التلقي والقراءة من نظرات الشكلانية ، وبخاصة عند هانس روبرت ياوس ، بل نجد لها امتدادا متطورا في الدراسات التي تبحث في تاريخ الأدب ، مثل أعمال إيثمار إيفن زوهار Etman Even Zohar ، كل هذه الدراسات اهتمت بمفهوم "**تعدد الأنساق**".غنيّ عن البيان أن الكثير من المجالات المعرفية ، قد تناولها الدراسون في السنوات الأخيرة ، « من منظور نسقي كالثقافة واللسانيات والأنتروبولوجيا وعلم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع ، كما أن الفنون مثل التشكيل والمعمار والرّقص ، نالت حظّها من هذه الدراسة بأشكال متفاوتة»[27]، مما يؤكد على هيمنة مقولة ((النسق)) ، و((تعدد الأنساق)) .

ثانيا: مقاربة نسقية للدراسات الأدبية

أشارت الدراسة فيما سلف ، أن كل التصورات التي تعاملت مع الظاهرة الأدبية من منظور النسق ، قد تأسّست على منظومة المفاهيم الشكلانيّة ، بالإضافة إلى ما استحدثته البنيوية فيما بعد.ثمّ انبنت مشاريع نقدية كثيرة ، استهدفت البحث فيما يسمى بـ((**الكلّ النسقي**))، وكل الفعاليات الإنسانية بما فيها الأدب ، لاشك أنها تشكّل في ذاتها نسقا

فرعيا يتفاعل ويتعالق مع أنساق مجتمعية أخرى، قد تكون مشابهة له أو مخالفة له، ضمن نسق كليّ وينبثق هذا التصور من الفكرة القائلة إن «النظريات العلمية مثل النظريات الأدبية والثقافية تشييدات اجتماعية، وإن الإبدالات العلمية لا توجد في فضاء مثاليّ هو ما فوق الثقافة أو ما بعدها. إنها جزءٌ من ثقافتها، وهي تُضاعف منها وتُعزّزها في آنٍ واحد» [28]. فالإطار الأوحد الذي يشمل كل هذه التفاعلات البشرية أيًّا كان شكلها، هو إطار الثقافة بكل ما تحمله الكلمة من دلالات واسعة، يستحيل حصرها في جانب أو فاعلية معينّة.

الواقع أن مفهوم تعدد الأنساق، قد فرض نفسه، وأبان عن جدواه في الدراسات التي لا تتأسّس على نسق واحد، أو أن النسق الواحد لا يلائم هذا الاتجاه في الكشف عن ديناميته الكليّة، الناتجة عن تفاعلات عناصره وأجزائه التي تنتظم، ومن ثم ظهرت مفاهيم نسقية كثيرة «مثل التراتب والتدرّج والاتصال والانفصال، والتشعب، والتناظر، والتشابه والقرابة، والتنظيم، والتنظيم الذاتي، والفوضى والاختلال... في تحليل النصوص الأدبية والثقافات المختلفة، من أجل رصد جوانب الثبات والتحوّل، الاستمرار والقطيعة[29]و كذا اكتشاف الآليات والقوانين المتحكمة فيها»[30]. وكنموذج عن هذا المسلك، تستوقفنا دراسة لمحمّد مفتاح حينما درس الثقافية المغربية موظفا مفاهيم شمولية، معتبرا أنها أثبتت جدواها في مجالات اجتماعية وإنسانية كثيرة، ومن ثم «أمكن إيجاد صلة وصل بين مختلف المجالات والنظر إلى الانسان وفعاليته في وحدة» [31]. وقد انطلق مفتاح من منظور أن» النسق عبارة عن عناصر مترابطة متفاعلة متمايزة، وتبعا لهذا فإن كل ظاهرة أو شيء ما يعتبر نسقا ديناميا، والنسق الدينامي له دينامية داخلية ودينامية خارجية، تحصل بتفاعله مع محيطه «.[32] كما نجده يكرّس هذا المنظور النسقي في قراءته لفكر وجهود علال الفاسي(1910-1974)[33]، طمعا في فهم شعره، حيث انطلق من فرضيّة أن فكره نسقيٌّ بامتياز، ويستدل على ذلك بمجموعة من الأقوال لعلال الفاسي[34]من كتابه "النقد الذاتي"، ليخلص بعد مجموعة من المقولات من كتاب الفاسي إلى »أن تفكير علال الفاسي كان نسقيا، بل إنه كان يتبنى المنهاجية النسقية بوعي وبقصد وإصرار...ما جاء في أقواله السابقة[35] يفرّع النسق إلى مكونات ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعلمية، وأن كل مكوّن يتفرّع إلى أجزاء، وأن كلّ جزء يتشعب إلى عناصر، ومكوّنات النسق وأجزاؤه وعناصره متفاعلة ومتعالقة وذات وظائف وغايات...كما تبنى المقاربة النسقية والعقدية والاجتماعية بما تعنيه من دعوة إلى الإصلاح بالحكمة والموعظة والحوار والمسامحة«[36]. ويصل مفتاح إلى بيت القصيد من هذه القراءة النسقية قائلا:» إن هذا التوجه النسقي لدى علال الفاسي، يفترض فهم شعره بفكره«[37].

إذا هي قراءة نسقية شاملة، من أجل فهم بعض الجزء من هذا الكلّ الشامل، إذ لا سبيل لفهم هذا الجزء الأدبي/ الشعري إلا ضمن نسق الكلّ، أو ضمن تعدد الأنساق المتعالقة والمتفاعلة.

ومن الآليات الأساسية للمقاربة النسقية أنها تركز على استكناه التفاعل Interaction الذي يحدث بين عناصر النسق المتعدد في ذاته، والأنساق المتعددة أيضا، هذا فضلا عن فكرة التعالق والانتظام في تحليل الثقافة والأدب بما هو جزء لا يتجزأ من الثقافة ككل. ومن هذه الدراسات التي تبنّت منظور الأنساق المتعددة، نجد دراسة رائدة لسعيد يقطين، بعنوان: "الأدب والمؤسسة والسلطة"، درس فيها الظاهرة الأدبية في تعالقاتها وتفاعلاتها مع سائر الأنساق الثقافية الأخرى، والباحث لم يَسِمْ دراسته في العنوان بأنها "نسقية"، لكن المطلّع على الكتاب يلاحظ بجلاء أنها كرّست مبدأ النسق وتعدد الأنساق في الدراسة، وقد فتح الباحث كتابه بتساؤلات تنّم عن ذلك ضمن عنصر "التاريخي والأدبي"، يقول: »كيف يمكن أن نتصور إنتاجا أدبيا ما دون أن يكون هذا الانتاج متصلا اتصالا وثيقا بالمسألة الثقافية، ودون أن يكون على ارتباط بالمجتمع في مختلف صوره وأشكاله، أي دون أن يكون ((مؤسّسا)) على ما للإنتاج الفني والأدبي أو على صلة بالمجتمع في واقعه وصيرورته؟ وكيف يمكن لنا أن نتخيّل هذا التصور الفني أو الأدبي بدون أن يكون له تاريخه الذي هو جزء من تاريخ المجتمع الذي ينتمي إليه «[38]. وذهب الكاتب إلى ضرورة أن تتكفل مؤسسة ما بالأدب، ترعاه وتُمدّه بالقيم، وتوجه مآربه ومقاصده، بل وتنقده، وتنشره وتذيعه في أوساط الناس، وتهتم بالمبدعين والمتلقين على السواء. بل وتتضافر هذه المؤسسة المجتمعية الثقافية مع السلطة

لخلق رأيّ عامٍ ثقافيٍّ أو أدبيّ، بالاعتماد على الصحافة والجامعة، وسائر المؤسسات الإعلامية الأخرى[39].

وفي هذا السياق، ومن أهم الأطروحات الغربية التي انبثقت من منطلقات مجتمعية وثقافية، نجد أطروحة نيكلاس لومان ((Niklas Luhmann 1984، الذي يؤكد أنه على علم الاجتماع أن يستند إلى نظرية للنسق من أجل تفسير ظاهرة ما.[40] ويرى الباحث بوحسن أن من فوائد التعامل مع الأدب من منظور نسقي، أنه» يجعل الباحث في الأدب العربي وتاريخه بخاصة، قد ينتهي إلى الأنساق الأصلية الأولى التي تحكم هذا الأدب في الزمان والمكان، كما يمكن أن تؤدي به إلى الأنساق الفرعية أو الثانوية التي تصاحب باستمرار ذلك النسق الأولي، ولكنها تبقى دائما في الهامش«[41]. وهذا ما يتيح تقديم تأويلات أكثر عمقا للدينامية الفكرية والفنية التي امتازت بها مدونة تاريخ الأدب العربي.

ثالثا: نماذج من نظرية الأنساق في الأدب

من بين أهم الأبحاث التي اشتغلت بعمق على منظور تعدد الأنساق، نجد، النماذج (Modèles) التالية :

1-نموذج تعدد الأنساق: إيثمان إيفن زوهار Itamar Even-Zohar

يعد نموذج ((إيثمان إيفن زهر)) من أبرز النماذج في دراسة الأدب من وجهة نظر نسقية، حيث تناول هذا المنظور في كتابه "مقالات في الشعرية التاريخية" سنة 1979، فقد فكّر إيثمان إيفن زوهار في الأدب وتاريخه وكذلك الترجمة والأدب المقارن، لا من منظور النسق الواحد فقط، وإنما من منظور الأنساق المتعددة (Polysystème) (أو تعدد الأنساق[42]. وقد استند إيفن زوهار إلى »الشكلانيّين الروس ليطرح أن فرضية الإنتاج الأدبي، هي تعدد أنساق ونسق أنساق«[43]. ومن أهم القضايا التي تناولها في كتابه، ذات العلاقة بموضوع تعدد الأنساق، قضية العلاقة بين الأنساق الأوّلية، والثانوية، ووجْه النزاع/التعارض بينها، بين الأدب المُشرَّع الموافق للأصول Canonique والأدب غير المشروع المخالف للأصول non canonique، وكلٌّ من النسقيْن يحتوي على» أنساق فرعية. إن هذا التمييز يكشف عن وجود عدد من القوانين والقوالب التي تتحكم في تداول الأدب في علاقته بالمؤسسات (الدولة/ القانون/ الأعراف، الدّين) وبجمهور القرّاء. غير أنها تشهد اختلافا في مراعاتها بين الكتّاب، من عصر إلى آخر. فالصّراع بين النسقيْن يحدّد، بأشكال متفاوتة، تراتبية الكتّاب والأجناس الأدبية في حقبة أدبيّة معيّنة، من خلال رصد أنواع الصراعات والتعالقات الموجودة بينها، سواء على مستوى الإنتاج أو التلقي وهذا يفترض أيضا أن يتحوّل الكاتب إلى ناقد ومستهلك في الوقت ذاته، أو أن يكون النص أدبيا أو غير أدبي، تخيّليّا أم لا«[44]، وكأن مفهوم تعدد الأنساق يصدر عن التوتر الحاصل عبر كل الأزمنة والعصور، بين الإطار الثقافي الرسمي للأدب والإطار غير الرسمي الذي لا تحكمه مؤسسة ولا قانون ولا ميثاق مجتمعي، ممّا يُحيلنا للحديث عن مسألة الهامش والمركز، الأولي والثانوي[45]، الأساسي وغير الأساسي، النمط الأول والنموذج الأساس، والأنماط الفرعية التي تحوم حول هذا النمط، وتحتكم بقوانينه وضوابطه، بل وتقاليده. ولعل هذا ما حصل لتواريخ الأدب العربي كمدونة تاريخيّة أدبيّة، حينما صار النمط الأول الذي يحتكم بمنهجه وقوانينه هو نمط التآليف الأوربية التي ارتضت التحقيب السياسي والحضاري، فسار على هذا النمط عديد المؤلفين العرب وقبلهم المستشرقين، وعلى رأسهم "كارل بروكلمان" Carl Brockelmann.

إذاً وحسب المنظور النسقي، قد» يكون لنمط أدبي مقنن واحد، ولتقاليده الغلبة على الأنماط الأدبية الأخرى، وهذا ما يفكر فيه تاريخ الأدب من منظور تعدد الأنساق، كما تفترض العلاقة المركزية والهامشية، سواء في المستوى المقنن أو غير المقنن. وهذه العلاقة تسمح بملاحظة أكثر من مركز واحد، أو هامش واحد داخل كل نسق«[46]، من ذلك مثلا الأدب العربي، الذي كان له عدة مراكز واحد في المشرق وآخر في المغرب، وآخر في الأندلس، غير أن نمط المشرق كان هو المهيمن، وكانت بقيّة المراكز تتعالق معه وتتفاعل، في دينامية ثقافية وأدبية واسعة الحدود والمجالات. وتبقى أهم مسألة عند إيفن زوهار ضمن مسألة ثنائية المستوى الأولي والثانوي هي» مدى المقبولية للعناصر الجديدة في السجل المغلق المحافظ«[47]، أي السّجل المركز/ النمط الأول / الأساس. ويرى الدارسون[48] أن منظور إيفن زوهار، يدعو إلى مبدأ تداخل الاختصاصات Interdisciplinarités باعتبار أنه يدعو للإحاطة بالكيفية التي تتفاعل وتترابط بها

هذه الأنساق، وهذه لا تتاح للدارس إلا بالاعتماد على مبدأ تعدد الاختصاصات[49]. وحسب كليمان موزان، فإن العمل بمنظور تداخل الاختصاصات يستوجب على الباحث النسقي، إحاطة شاملة بحالة النسق الأدبي في تاريخيّة معينة.[50] بمعنى النظر إلى النسق بوصفه ظاهرة فريدة مقارنة مع بقية الأنساق الثقافية والاجتماعية الأخرى، ومن ثم تبيُّن هل النسق مركز (centre) أو على الهامش (périphérie)[51].

ومن أهم الجوانب التي استرعت انتباه الدارسين، عن نظرة إيفن زوهار، هو تبنيه فكرة ((السِّجل))، وهي فكرة جديدة اعتمدت عليها العديد من الدراسات النسقية، سواء أتعلق الأمر في حقل السيميائة أم في حقل جمالية التلقي، أم الترجمة أم الدراسات المقارنة. والسّجل هو ما تنصهر فيه ذاكرة الفرد والجماعة، به يتواصل الفرد مع جماعته، سواء أسبقته أم عاصرته، وبه تتواصل الجماعة مع أفرادها في أي مكان أو زمان كانوا. ويخضع هذا السِّجل إلى الانغلاق أو الانفتاح، إلى الاكتمال والنمو[52]، وهو نوعان: سجل إستاتيكي، محافظ، ثابت وقار، وسجل متجدد يسعى دائما للبحث عن وضع سجل جديد له. وقد رأت النظرية أن الأدب الأولي الرسمي، سجِّل متجدد على الدوام، يفرض مصطلحاته ورؤاه ونمطيته على بقية الأنساق، في حين أن السجل الثانوي هامشي، جامد لا ينتج سجلا جديدا للنّسق. وبالتالي أُبعد» دوره في الدروة النسقية التي تصوغ التاريخ الأدبي وقوانينه وجماليته«[53]، ومن ثم تمّ التوجه إلى التعامل مع النص الأدبي بناء على قيمته ضمن نسق تاريخ الأدب، وبالنظر إلى المكانة التي يحوزها في خلق دينامية ضمن النسق العام. » وهكذا لم يتم التعامل مع النصوص كأنساق مغلقة بل تم التوجه إلى تطوير مفاهيم السجل الأدبي نفسه، فظهرت بعض الأسئلة الدقيقة التي يمكنها أن تستوعب المفاهيم السابقة في دراسة مرحلة تاريخية أدبية خاصة، أو أنواع من النصوص، تعتمد أساسا على مفاهيم النسق وتعدد الأنساق من قبيل: ماهي المعايير المهيمنة والمُهيمن عليها؟ ماهي الأنساق المهيمنة والمهيمن عليها؟ ماهي تراتبيات المعايير والأنساق التي يمكن استخراجها؟ ماهي الظاهرة ((المؤلفون، النصوص، الأساليب، الأماكن ...)) التي تحتل وضعية مركزية أو هامشية؟ ماهو دور منظومة النصوص الوضعية-الميتانص- في علاقتها بالخصوص، مع النصوص الأدبية الخالصة؟ كيف تتطابق العناصر الخلاقة الأولية والعناصر المحافظة جدا والعناصر الثانوية؟ ويبقى الأساس الذي يحكم مثل هذه الأسئلة الدقيقة هو البحث عن نسق الأنساق الذي يتحكم في الظاهرة الأدبية، عبر سيرورتها داخل حقبة زمنية مؤطرة بذلك النسق المتعدد«[54].

وباعتبار أن هذه النظرية لإيفن زوهار قد استفادت من العديد من الاختصاصات والنظريات، فهي إذاً تركيبة من عدة أنساق معرفية في إطار ما يسمى بـ ((نسق الأنساق))، فهي ليست أصيلة بل هي تركيب من تصورات الشكلانية والبنيوية والسيميائية والثقافية والاجتماعية. وقد اعترض بعض النقاد على هذه النظرية بسبب هذا التعدد النظري والإجرائي ولبوسها هذا الطابع التكاملي، حيث تساءل "ويسغربر"Weisgerber Jean: ألا يمكن يؤدي هذا التعدد من المناهج إلى التناقض؟ وما العمل إذا تجمعت داخل العمل الواحد، تقنيات متعارضة في مبادئها؟[55] ويجيب حسن الطالب على هذا الانشغال قائلا:» لكن الباحث سرعان ما يخفف من حدّة الاعتراض إذا ما قيم، في نظره، بخلق جدليّة بين المستويات المتعارضة (المظهران التعاقبيّ والتزامنيّ مثلا) فضلا عن أن النظرية تتوقع دوما أن يتزامن داخل النسق الواحد، وجود مظاهر متعددة كالنظام والفوضى، الثّبات والتحوّل، والتنوّع والوحدة، والكشف عن الوظائف الدّينامية التي تحدد تراتبيّة هذه المستويات في النّسق هو الذي يتيح فهماً أفضل لاستغلال النّسق وسيرورته داخل مجتمع أدب معيّن«[56]. وحينئذ يمكن القول، إن الاستغلال التركيبي لعديد الإجراءات، بات السمة الجلية في الدراسات الأدبية النسقية الحديثة، طمعا في استكشاف ((نسق الأنساق)) في كل ظاهرة أدبية.

2-نموذج تشييد النسق: سيغفريد شميدت (Siegfried Schmidt)

لعله من أهم تمخضّات نظريــة ((تعدد الأنساق)) في دراسة الظاهرة الأدبية، هــو بروز مفهوم التواصل الأدبي ضمن نموذج "تشييد النسق" الــذي طـوّره سيغـفريـد شميدت[57](Siegfried Schmidt)، مع أنه قبل ظهور نموذجه كانت قد ظهرت عدة نظريات منها »نظرية الأنساق وتعدد الأنساق التي ستدمج تاريخ الأدب في إطار النسق

الاجتماعي العام ، ونظرية التلقي التي اعترفت بتاريخيّة التلقي والوقائع.كلّ هذه التوجهات وجدت صداها عند شميدت الذي حاول أن يؤلّف بينها ، ويعود بالتالي بتاريخ الأدب إلى المفهوم النسقي ويرسخ البعد التواصلي«[58].

تجمع عديد الدراسات أن سيغفريد شميدت قد استفاد كثيرا من نظرية تعدد الأنساق من جهة ، كما استفاد من الدراسات النسقية الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى ، وقد توالت أهم أبحاثه منذ السبعينيات ، ولعل أهمّها بحثه عن كتابة (تاريخ الأدب)، فقد ناقش فيه جلّ الآراء الراهنة حول تاريخ الأدب[59] وتندرج جهود سيغفريد شميدت في إطار إبستيمي ، ضمن التحولات السياسية والإيديولوجية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، التي أدت »إلى إعادة النظر في الممارسة الأدبية ، والافتراضات المسبقة للمفاهيم الأساسية عن ((الأدب)) و((التاريخ))، وكذلك أُعيد النظر في المفاهيم الوسيطة بين الأدب والمجتمع ، مثل مفاهيم السببية والغائية ، والإبداع والاستمرار والانقطاع والتأثير والتأثّر ، والبنية والتطور...هذه المفاهيم التي تحكم العلاقة بين الأدب والتاريخ والمجتمع ، التي كانت تستمد تصوراتها من مفاهيم نظرية خاصة ، بكل مفهوم ، ومدى تحكّمه في توجيه الممارسة الأدبيّة«[60].بيد أن من أهم كتبه المتعلقة بهذا الموضوع هو كتابه" أسُسٌ لدراسة تجريبيّة للأدب ، مكونات النظرية الأساسية" صدر سنة 1982 ، وقد قام شميدت بدراسة كل التصورات السابقة للنسق ، واكتشف أن معظم هذه التصورات ترجع إلى» نظرية الأنساق الاجتماعية ، وخاصة إلى نظرية تالكوت بارسنر ، ونيكلاس لومان (Talcot Parson and Niklas lumann) ، والمحاولات الأخرى تستعير جهازها النظري عن النسق من نظرية الأنساق العامة«[61].بداية رأى شميت أن مفهوم النسق يتلاءم والنسق الاجتماعي الذي تبناه نيكلاس لومان ، وبعد أن ناقش تصورات نيكلاس لومان ذهب إلى أن النسق الاجتماعي الذي يعتقده " يجب أن تتوافر فيه ثلاثة شروط هي:[62]

1-يجب أن يعبّر عن بنية داخلية.

2-يجب أن تكون له حدود قارة معترف بها من طرف الفاعلين.

3-يجب أن يكون مقبولا من طرف المجتمع ، ويؤدي خدمة للمجتمع لا يؤديها نسق آخر.

وفضلا عن نظرية الأنساق العامة التي استفاد منها ، فإنه أخذ أيضا» من نظريات رياضية وفلسفيّة واجتماعية ولسانية ، وجمالية...وانطلق من مفاهيم نظريّة العمل لسببين اثنين ذكرهما: أوّلهما أنه لا يمكن البحث في النصوص الأدبية بمعزل عن الارتباط الضروري بالأعمال الإنسانية وبالأوضاع العامّة التي أنشئت فيها تلك النصوص. وثانيهما أن نظرية العمل (Théorie de l'action) تتجذّر في العوامل المعرفيّة والبيولوجية للذّات الإنسانية...واستند إلى نظرية الأنساق العامة حيث صادر على أن المجتمع بمثابة نسق الأنساق التواصلية...وبالإضافة إلى ما سبق فقد استعان بنظريات تجريبية وعلميّة مثل البيولوجيا والتحكم الذاتي والذكاء الاصطناعي ، وناقش نظريات لسانية وسيميائية وجماليّة «[63]. إذًا ، هو نسق اجتماعي كليٌّ ، تندرج تحته مجموعة من الأنساق المتباينة ، تباين وضعها في المجتمع ، وقد قام شميدت بالكشف عن فروع معمار هذه الأنساق ، بما في ذلك نسق الأدب. فالنسق الاجتماعي يتفرّع إلى أربعة أنساق تواصلية كبرى: هي: نسق الثقافة ، نسق العلوم. نسق الاقتصاد ، ونسق السياسة.ويتفرّع **نسق الثقافة** إلى أنساق فرعية هي: نسق الدين ، نسق الفن ، نسق التربية. ويتفرّع **نسق الفن** إلى أنساق فرعية أساسية هي: نسق الرقص (الحركة) ونسق الأدب (الكتابة). ونسق التشكيل (الرسم) ونسق الصوّت (الموسيقى) ويتفرّع عن **نسق الأدب**: -نسق الشعر. -نسق الرواية –نسق المسرح.

وعن هذه الأجناس / الأنساق ، تتفرّع أنساق أدبيّة فرعية أخرى.

والخطاطة التالية كفيلة بإعطاء صورة شاملة لهذا التصنيف.

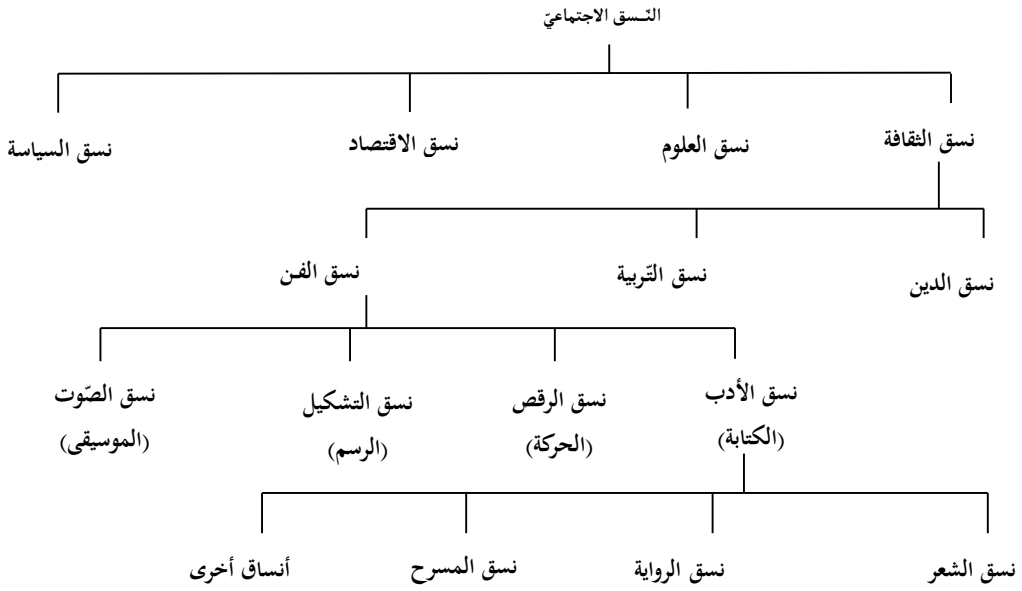

من خلال هذه الخطاطة، يتبيّن أن دراسة الأدب، إنما تتّم على اعتبار أنه نسق فرعيّ، »نستطيع تحديد مكوّناته الداخليّة بطريقة بنيويّة، وتحديد علاقة هذه المكونات بعضها ببعض وعلاقة النسّق برّمته بأنساق أخرى بطريقة نسقيّة، ومن ثم ينتفي التعارض المفتعل بين المقاربة البنيوية والنظرية النسقيّة«[64].

كما تبرز الخطاطة أنه يُنظر إلى المجتمع -من منظور شميدت-، على أساس أنه مجموع من البُنى المركَّبة، والتي تتفاعل فيما بينها تواصليا، وأن بعض البنى قد أتيح لها الباب أن تستقر ضمن المعمار العام للنسق الاجتماعي، وهذا كله بفضل المواضعات القومية والعالمية، أما غيرها فلم يُتح له ذلك لأن المواضعات هي التي لفظتها خارج إطار النسق الاجتماعيّ الكلّ.

وباعتبار أن شميدت قد أعطى اعتبارا كبيرا للمفهوم الاجتماعي كتفاعل تواصلي، فإنه بذلك قد فتح الباب واسعا للعوامل البعيدة عن عالم النصوص في عملية التواصل والتلقي. ومن ثمّ سيُولي هذا المنظور بعين النظر الطريقة التي نشيّد بها تصوّرنا للظاهرة الأدبية[65]. وقد حفر الباحث أحمد بوحسن في الخلفية النظرية لتصور شميدت الذي أدمج في تصوره ((السلوك الاجتماعي))، ووجد أن الجذور الأولى في تصور النسق الثقافي تمتد إلى مدرسة طارتو Tartu للسيميائيات الثقافية، ولا سيما نظرات يوري لوتمان Yuri Lotman، كما لها امتدادات في التصورات الظاهراتية وفي نظرية التلقي. وقد تبلور عن الاتجاهات السابقة مفاهيم ((التشييدية)) Constructivisme وانتقل الهدف الأساسي »من الموضوعات إلى السيرورات، ومن الهوية إلى الاختلاف، ومن الحقيقة إلى المحتمل، ومن ماذا نعرف؟ إلى كيف نعرف؟ «[66]، فهي دعوة إلى التركيز على كيفية انبناء الأنساق وكيف تتولد الظاهرة الأدبية في إطار الكلّ/ النسق الاجتماعي العام، وهذه في الحقيقة هي عين النسبية التي يسلّم بها شميدت، ويراها واقعا فرض نفسه وسيفرض نفسه أكثر في المستقبل.[67]

3-نموذج "التحليل النسقي " كليمان موزان

لا يختلف كليمان موزان في نموذجه عن سابقيْه، فقد أفاد هو أيضا من عدّة نظريات أدبية، في مقدمتها التصوّر الشكلاني، الذي يَعدّ الظاهرة الأدبية نسقا، وارتكز أكثر على منظورات تينيانوف؛ الدينامية، الإواليّة، الوظيفة، والمتوالية. كما استلهم مفاهيم كثيرة من بارت وتودوروف، »أخذ عن الأول مفهوم ((القرائن)) و((الخبرات)) و((الكتابة)) ووظيفتها في تحديد الخطاب الأدبيّ للتاريخ الأدبيّ. وأخذ عن الثاني فكرة القوانين العلمية العامة للظاهرة الأدبية وتحديد خصوصية التطوّر الأدبي، من خلال التركيز على مفهوم المتوالية والاستبدال. «[68]. كما أفاد من تصورات بول فاليري (Paul Valéry) حول الأدب، فعدّل من بعض مفاهيمه وأفكاره كمفهوم الحياة النصيّة، وفكرة التعميمات والتبادلات داخل النسق الأدبي الواحد. كما لم يبتعد كثيرا عن نظرية جمالية التلقي عند ياوس وإيزر، لاسيما مفهوم أفق الانتظار وتعاقب القراءات، ونسق الإنتاج الأدبي، والمتعة الجمالية، وتعدد القراءات وتداخلها، كما اقتبس من تنظيرات

نيكلاس لوما، في كتابه النسق الاجتماعي، واعتمد على نظرية تعدد الأنساق عند إيفن زوهار في مسألة التفريق بين النسق الشرعي وغير الشرعي، وأفاد من قريماس واستعار منه مفاهيم الكفاءة المعرفية والبَنينة والصياغة الصورية وغيرها.كما أفاد من نظريات علم الاجتماع وبعض رموزه، لا سيما بيير بورديو وشارل بوعزيز، وروبير إسكاربيت[69].

غني عن البيان أننا لا نستطيع الإحاطة بكل الجوانب المتعلقة بنظرية موزان في هذه الدراسة، لكن حسبنا أن نشير إلى بعض الأفكار الأساسية ضمن نظريته النسقية ... وحسبنا بلوغ الفائدة في هذا الموضوع الحسّاس، لاسيما وأن هذا الموضوع نادر التناول لدى الدارسين.

يذهب كليمان موزان، إلى أن الظاهرة الأدبية /التاريخ الأدبي، مجرّد نسق فرعيّ ضمن نسق كليّ، هو "الثقافة" على اعتبار أنها نسق اجتماعي / كلٌّ، يكتنف أنساق فرعية أخرى كالفن والقانون والسياسية واللغة. وهو يرى أنه يستوجب في التناول النسقي، أن يتم التعامل مع موضوعات مجال معيّن (نسق) ما، على أساس أنها » مرجعيّات مكتفية بذاتها وبناء عليه، فهي لا يمكنها أن تتحدّد إلا بالقياس إلى موضوعات مجال آخر (نسق آخر). ما يؤسّس الموضوعات، إذن، مجالين بالقياس إلى بعضها بعضا. ومن ثمّ فإن للتعالق أو التنظيم، هنا، دورا تأسيسيا «[70]، في خلق الدينامية التي يجب أن تحدثها مختلف الأنساق المتعددة.

ومن ثم فإن تصور كليمان موزان النسقي يدعو إلى التخلي عن فكرة التطوّر، التي لطالما هيمنت على المقولات التي تفسِّر الظاهرة الأدبية وتاريخ الأدب: نشأة / تقدّم، انحطاط/ بداية، أوج/ اضمحلال فالتحليل النسقي —حسب كليمان-يفضي بنا» إلى فكرة التقدّم، بل إلى فكرة الحركة التي تتصل بها فكرة السكون، ومجمل القول إلى فكرة للدينامية والسكونيّة اللتين تعتبران خاصيّة الأنساق«[71].

يعتبر كليمان موزان أن أفضل سبيل لفهم مفهوم التعالق والتنظيم بين الأنساق، هو التأمل من فوق —كما سمّاه-فلنأخذ مثلا منعطفات الطرق السيارة عند مدخل مدينة لوس أنجلس الأمريكية، » تلك المنعطفات المثيرة للدهشة، عندما نكون على سطح الأرض ما نراه هو سطح البنيات فقط:الأعمدة الإسمنتية، الفرُج، الأعمدة الواقية، أجهزة الإنارة الضخمة، وهلم جرّا. أما ما نراه من الأجواء العالية فهو الأنساق لا غير، وطرق يتشابك بعضها ببعض، وتسير تمفصلاتها في جميع الاتجاهات، من نقطة إلى أخرى، وتتحرّك العناصر بالقياس إلى بعضها بعضا ويحدّدُ موقعها نظاما داخل هذا النسق المسمّى حركة المرور. ضمن هذا المنظور ليس هناك تقدّم، أوج، انحطاط. ليس هناك غير الحركة. وتنظيمات مختلفة بحسب الموقع الاستراتيجي أو الدينامي للعناصر المتواجهة «[72]. ففي السابق كانت الرؤية المتاحة في التاريخ الأدبي تسمح برؤية تقدم الخطوط التي تعلو وتستقل، وأيضا رؤية لكل الخطوط الممكنة.

حينئذ فإن الرؤية النسقية تجمع بين رؤيتين: صعود /نزول التاريخ المؤرّخ، تزامن /تطور» أي تنظيم الأنساق المكوَّنة من عناصر مُنظَّمَة، داخل علاقات وتعالقات مؤلِّفة لكل معين«[73]، أي إنه التحليل البنيوي داخل رؤية واحدة وشاملة لكل البنى المسّطحة، والأفقية، العمودية والخطيّة.

وقد تتضح مقولات موزان أكثر إذا سلّمنا أن الظاهرة الأدبية عنده تتجاوب أكثر مع مفاهيم النظرية النسقية، ذلك لأنّه وبهذا الاعتبار سوف» يجعل منها (الظاهرة الأدبية) نسقا منفتحا بامتياز، تتداخل في تكوينه عدّة عناصر متداخلة ومتعالقة، تلقى بظلال كثيفة تحول دون معرفة البنيات الحفيّة الثاوية وراء الصناعة الأدبيّة، بوصفها صناعة مشوبة بكثير من الغموض واللّبس. وإنّ تاريخ التأويل والتفسير الأدبي (تواريخ الأدب، النقد، الشروح، المحاولات، التعليقات، الحواشي... إلخ) ليولِّدان انطباعا باستحالة الوصول إلى قوانين عامّة/موحّدة في التعامل مع الظاهرة الأدبيّة. ولن يكشف التاريخ المذكور سوى عن الاختلاف والتباين المفرط في طرح التصوّرات والنظريّات والمناهج، التي عجزت عن الوصول إلى منهج شموليّ !؟ مجهّز بمنظومة مفاهيمية مصطلحية متكاملة«[74].

فحسب موزان فإن على محلّلي الأنساق أن يميّزوا بين ثلاثة أنواع من الأنساق: النسق المنعزل isolé والمنغلق clos والمنفتح ouvert.

أما النسق المنعزل: فهو فلا وجود له في عالم الواقع والفيزياء، بل هو مفهوم فكري محض. أما النسق المنغلق: فهو الذي يُختزل فيه الكلّ في قليل من أجزائه.

أما النسق المنفتح: فهو تنظيم حي ونسق فكريّ وواقعيّ في آن، فيه الحياة، والحركة والتبادل وحتى العلاقات. فهو يتلقى ويمنح، فيه طاقة تأخذ وتعطي باستمرار،» ويوفّر التواصل القانون ـ الذي ينظِّم الكيفية التي يجب على المادة أن تنظم بها، وما هي الوظائف التي يجب

أن تفُرض (المقرّرة) حتى تحافظ على نفسها[75]«، لأن عدم التوازن شيء ممكن حتى في الأنساق المادية الصارمة.

انطلاقا من هذا التمييز بين الأنساق، يُفرِّق موزان في تاريخ الأدب بين نسقين:

هناك التاريخ الأدبي التقليدي ذو النسق المغلق، لأنه تنظيم يختزل الكل إلى مجموع أجزاء مكوناته: قليلٌ من التاريخ العام، وقدر من بيوغرافيات الأدباء وأعمالهم، وتجميع لهذه العناصر في تفسيرات سببية، وإذا وصل النسق إلى ما يسميه المؤرخون "الأوجّ" حدثت مرحلة الانحطاط والاضمحلال، عندئذ يغدو التاريخ الأدبي آلة ثابتة يمكن أن يتكهن فيها بالتطّورات[76]. وما من شك أن مثل هذا الفهم للتاريخ يعد سطحيا، لأنه في حدود تاريخ المشاهير والعباقرة والأحداث السياسية البارزة والمتعاقبة.

بيد أن النسق المنفتح عند كليمان موزان، فإنه يعتبر التاريخ الأدبي الجديد، كلٌ نسقيٌّ معقّدٌ، لأن موضوعه الأدب» باعتباره موضوعا غير متجانس (الأدب والمجتمع) ومنظّم (نظام، تراتبيّة، علاقات العناصر، بالإضافة إلى المراقبة والقواعد) في الوقت ذاته «[77]. ويبقى الدور الأساسي للمحلل النّسقي هو استكناه العلاقات التبادلية بين عناصر النسق ضمن الكلّ. كي يستجلي النظام من الفوضى التي تبطن على المستوى العميق» نسقا ضمنيا كامنا في لا وعي المثقف أو الكاتب الشيء الذي يجعل منه ((نسق أنساق)) أي نسقا موحدا للأنساق المعرفية المختلفة «[78].

إذاً، هي بعض النبذ من تصورات كليمان موزان، ولا يسع الدراسة أن تتطرق إلى جميع تصوراته النظرية، غير أنها اكتفت بما يلامس موضوعها.

خـــــاتـــــمة

جدير بالذكر أنه لم تكن غاية هذه الدراسة تقديم تفاصيل موسعة عن مختلف النظريات التي تبنت مفهوم النسق أو تعدد الأنساق أو التحليلي النسق، بقدر ما كان غرضها هو إظهار قيمة هذه التصورات في إدخال التعامل مع الظاهرة الأدبية وتاريخ الأدب، ضمن ممارسة جديدة ((نسقية))، قد تسمح له بدراسة وتحليل مختلف العلاقات التي تحكم العناصر التي تنتظم ضمن الظاهرة الأدبية بعامة. ولعله كما يقول سعيد علّوش» قد آن الأوان لوضع خريطة الأفكار والتأريخ الثقافي إلى جانب تاريخ الأدب، تتوجه إلى ظواهر (الإنتاج والتشفير، وتلقي النصوص) لإحقاق جمهورية الآداب بدل جمهورية السياسات، وقيم الجمالية بدل قيم التبعية «[79].

إن دراسة الظاهرة الأدبية من منظور نسقي هو جزءٌ من همٍّ إبستيميٍّ كبيرٍ» يسميه إدغار موران بالرأسمال المعرفي Capital coghnitifc الذي هو حصيلة وعيّ جمعيّ بالمعرفة المكتسبة والمهارات المعرفية المحصّلة، والتجارب المعيشة، والذاكرة التاريخية، والمعتقدات الأسطورية، ويخضع الأدب شأنه شأن باقي أشكال الوعي، لتنظيم يفرضه المجتمع نسقا كليا «[80].

تأسيسا على ما سبق، يمكن القول إنه بهذا التصور النسقي، قد توسّع مفهوم الأدب وتاريخه كثيرا، وصار يصدر عن أنساق تتفاوت في» صرامتها ووضوحها، واختلاف عناصرها وطبيعة علاقاتها وتقاليدها، فكثيرا ما نتعامل مع أدبنا وتاريخ أدبنا، على أنه غير محكوم بنسق خاص به، وإن كان له نسق أو أنساق فهي غير موصوفة وكأنه نسق غير معروف، لا يحتاج إلى المساءلة والبحث عنه «[81].

فلا بأس إذاً باستعارة هذه المناهج الدراسية للظاهرة الأدبية وتاريخها، لاسيما إذا كانت سوف تضيف جديدا نظريا وإجرائيا للنظرية الأدبية الحديثة. وهذا ما دفع الباحث أحمد بوحسن إلى تطبيق هذا المنهج في دراسته لكتاب الأغاني، منطلقا من مسلّمة» أن كل كتابة أو تفكير إلا ويخضع لمجموعة من القوانين تختلف من حيث الصرامة والضبط، ولكنها مع ذلك ما دامت تنتج معنى أو معرفة إلا ويكون ذلك الإنتاج محكوما بنسق معين، يختلف بدوره قوة وإحكاما. فقد يكون نسقا مغلقا أو مفتوحا أو نسقا خطيّا أو ديناميّا وقد يكون متعدد الأنساق«[82].

في ختام هذه الدراسة، يصدح الباحث، أن خط السّير المعرفي نحو هذه الآفاق البحثية الجديدة، قد كان طويلا وشاقا، بدأ بالتصورات اللسانية الأولى لسوسير، وبجهود الشكلانيّين الروس، ثم تصورات البنيوية ثم تواشجت المناهج النظرية الأخرى مع العديد من الحقول المعرفية، حتى وصلت أبحاث الدارسين إلى هذه الآفاق الجديدة. ولعلّه في قابل الأيام سوف تطل علينا دراسات أكثر استثمارا للرصيد النقدي والمعرفي الذي أبدعته البشرية وما زالت تبدعه.

الهوامش

1. ينظر المقال المترجم للباحث الألماني ((شميت)) S.J.Sehmidt ،عنوانه:مقاربة نسقية موجّهة للدراسات الأدبية ، ترجمه ، أحمد بوحسن.ضمن كتاب ، نظرية الأدب: القراءة-الفهم-التأويل ، دار الأمان ، ط1 ، 2004 ، ص127.
2. حسين الواد ، في تاريخ الأدب مفاهيم ومناهج ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.ط 2 ، 1993 ، ص 18.
3. روبير إسكاربيت (R.Escarpit) هو أستاذ بجامعة بوردو 3 ، عرف بأبحاثه في ((علم اجتماع يعني بالأدب)) وهو أحد منشطي حلقة بوردو في البحث ، له أعمال أسهم فيها جمع من زملائه سواء بالجامعة التي يدرّس بها أو بحلقة البحث التي ينتمي إليها ، نذكر منهم على سبيل المثال:روبير أستيفال(R.Estivals) وبيار أورشيوني(P.Orechioni) وشارل بوازيز(Ch.Bouazis) ومن الأعمال التي أنجزتها هذه الحلقة : الحدث الأدبي والحدث الإجتماعي)) و((وتحليل مفهوم التداول الزمني في تاريخ الأدب)) .
4. المرجع نفسه ، ص 19.
5. مصطلح جديد يقصد به: الأنساق التي تعتمل فيما بينها ، فتولّف وتحرّك وتفعِّل وتشيّد الظاهرة الأدبية.بل وتتفاعل أي الأنساق العديدة ضمن الظاهرة الأدبية المجتمعية. بما في ذلك النصوص.ومن خلالها أي الأنساق توجهت بعض الدراسات لدراسة تاريخ الأدب. ينظر: كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ، ترجمة حسن الطالب ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ، 2010.
6. أحمد يوسف ، القراءة النسقية ، سلطة البنية ووهم المحايثة ، منشورات الإختلاف ، ط 1 ، 2007 ، ص117.
7. المرجع نفسه الصفحة نفسهه.
8. عادة ما يعرّف النسق في المعاجم العربية القديمة بالنظام ، وما يجمع بين النسق والنظام ، هو الصفات العامة التي تفيد الضم ، والجمع والعطف. وفي اللغة ايضا ما جاء من الكلام على نظام واحد ، والنسق يمتد في اللغة وفي وضعيتها في أي خطاب كان ، بينما النظام يكاد يختص بشكل أو مادة معينة. ينظر أحمد بوحسن: العرب وتاريخ الادب ، ص 31.
9. المرجع نفسه ص125.
10. historicisme : نزعة فلسفية تبحث في تفسير ظاهرة ما(خصوصا في العلوم الإنسانية) تبعا لموقعها من التاريخ.

ينظر: Petit Larousse illustré 1984,Librairie Larousse, Paris ,1980,p.495-496

11. كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ، ص ص ، 72 ، 73.
12. مصطلح يقصد به العناية بحياة ونشأة وعوامل التأثير في شخصية الأديب ، وغيرها من العوامل الخارجية التي تعين على فهم مؤلفات الأديب.
13. ينظر: المرجع نفسه ، هامش الصفحة 73 ، الشرح للمترجم حسن الطالب.
14. قبل هذا التاريخ لم يكن للحركة الشكلانية أيّ صدى في الأوساط الثقافية الأوروبية ، فيما كانت أمريكا سبّاقة إلى الاهتمام بها وبتنظيراتها ، فقد نشرت أول دراسة عنها عام 1955 بعنوان: الشكلانيون الرّوس (Russian Formalism). بعد ذلك نشر نيكولا ريفيت أول ترجمة لكتاب رومان ياكبسون ((دراسات في اللسانيات العامة)) عام 1963.وفي عام 1965 ترجم تودوروف معظم طروحات الحركة في كتابه المعروف ((نظرية الأدب: نصوص الشكلانيّين الروس)) واعتبر منذئذ فصاعدا أهم مرجع يعتمد عليه في دراسة طروحاتهم الأدبيّة. وفي عام 1991 نشرت الباحثة كاترين دو بريطو جونتي Catherine Depretto Genty ترجمة شبه كاملة لنصوص تينيانوف في مؤرف بعنوان: الشكلانيّة والتاريخ الأدبي. وصدرت عن دار L'age d'homme ، وهوما يؤكد استمرار صدى الحركة في المشهد الثقافي الأوربي عامّة ، والأدبي منه بصفة خاصة.
15. يوري تينيانوف:أحد رواد الشكلانية الروسية ومنظرِّيها.
16. أحد يوسف ، القراءة النسقية ، سلطة البنية ووهم المحايثة ، ص126.
17. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص33.
18. أحمد يوسف ، القراءة النسقية ، ص ص 126 ، 127.
19. الإشارة هنا إلى كتاب ، ف ، دي سوسير ، دروس في اللسانيات العامة 1916 ، وقد تأثر بهذا الكتاب الشكلانيون الروس ،كما أشار إلى ذلك أهم الذين درسوه: بيتر شتاينر Steiner Peter ، في كتابه (الشكلانيون الروس)Russian Formalism ،وكتاب فيكتور إرليتش Erlich Victor ، في أهم دراسة مبكرة عن الشكلانيّين الروس ، بعنوان الشكلانيون الروس:التاريخ-العقيدة.Russian Formalism :Histoire-Doctrine
20. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص ص ، 34 ، 35.
21. كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ، ص74.
22. جينيت جيرار (1930): كاتب مقالات ، وأديب فرنسيٌّ مبرّز في الآداب ، متخرّج في دار المعلمين ، نشر أهم أبحاثه في أشهر المجلاّت النقدية:"النقد و"تيل كيل" ، و"المجلة الفرنسية الجديدة". جمعها سنة 1966 في كتاب Figures 1 و1969) Figyres2) و 1972) Figures 3)، من أهم مؤلفاته: إيحائيات (1976) ، عتبات 1987 .
23. كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ، ص ص 76 ، 77.
24. Barthes.R (1963).Discours sur l'histoire.op.cit.p.166.
25. أحمد بو حسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص 32
26. المرجع نفسه ، ص 33.
27. ينظر دراسة حسن الطالب ، ضمن كتاب ، ما التاريخ الأدبي ، لكليمان موزان ، ص 25.
28. محمد مفتاح ، التشابه والاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، (1996) ، ط1 ، ص 24.
29. ينظر دارسة محمد مفتاح بعنوان: الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي ، ضمن منشورات كلية الآداب الرباط ، بعنوان: التحقيب مطبعة النجاح الجديدة ، الدر البيضاء ، ط1 ، 1997. ص66.

30. ينظر دراسة حسن الطالب ، ضمن كتاب ، ما التاريخ الأدبي ، لكليمان موزان ، ص 25.
31. محمد مفتاح ، التحقيب (التقليد ، القطيعة السيرورة)، دراسته بعنوان: الاتصال والانفصال في التاريخ الثقافي ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ، ط1 ، 1977 ، ص63
32. المرجع نفسه ، ص60.
33. مفكر مغربي ، وزعيم سياسي ، ومقاوم للاستعمار.
34. ينظر عرضه لهذه الأقوال ، ضمن كتابه ، مشكاة المفاهيم ، النقد المعرفي والمثاقفة ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 2000 ، ص 154.
35. للاطلاع على أقوال علال الفاسي ينظر: محمد مفتاح ، مشكاة المفاهيم ، النقد المعرفي والمثاقفة ، المركز الثقافي العربي ، ط1 ، 2000 ، ص ، 154.
36. المرجع نفسه ، ص ، ص ، 154. 155.
37. المرجع نفسه ، ص 155.
38. سعيد يقطين ، الأدب والمؤسسة والسلطة ، نحو ممارسة أدبية جديدة ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، 2002 ، ص 13.
39. ينظر المرجع نفسه ، ص ص25 ، 26.
40. ينظر دراسة حسن الطالب ، ضمن كتاب ما التاريخ الأدبي ، لكليمان موزان ، ص 27.
41. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص ، ص ، 39 ، 40.
42. Barthes.R (1963).Discours sur l'histoire.op.cit.p.166. نقلا عن أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب.ص40.
43. كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ؟ ص 263.
44. حسن الطالب ، مفهوم التاريخ الأدبي (مجالات التوسع وآفاق التجديد)، دار أبي قراقر ، ط2008 ،1 ، ص 119.
45. النسق الأولي هو نسق الأعمال الموافقة للأصول ، أما لنسق الثانوي فهو نسق الأعمال الشعبية أو المخالفة للأصول:الأدب الشعبي ، أدب الجمهور ، الأدب العادي ، ينظر كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ، ص 262
46. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص 42.
47. المرجع نفسه ، ص 42.
48. منهم حسن الطالب ، في كتابه الموسوم ، بـمفهوم التاريخ الأدبي (مجالات التوسع وآفاق التجديد).
49. Weisgerber (Jean) (1989), Ecrire L'histoire, in : Théorie Littéraire.op.cit.p.365
50. ينظر كليمان موزان ، ما التاريخ الادبي ، ص 262.
51. حسن الطالب ، مفهوم التاريخ الأدبي (مجالات التوسع وآفاق التجديد)، ص ص ،120 ،119
52. Itmar Even-Zohar. Plysystem theory,in poetics toay,VI.n :1-2 (1979)P.287-310. نقلا عن أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب.ص43.
53. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص 43.
54. المرجع نفسه ، ص ص ، 43 ، 44.
55. Weisrgerber J.op.cit.p365.
56. حسن الطالب ، مفهوم التاريخ الأدبي (مجالات التوسع وآفاق التجديد)، ص ،120.
57. باحث ألماني ، من معهد لوميس ، جامعة كـ.هـ. يسّن.ألمانيا.له مؤلفات كثيرة في الدراسات التجريبية في الأدب ، والتشييدية ، والتواصل الأدبي.وقد كتب أهم أعماله بالألمانية والإنجليزية.أهم دراسة له خاصة بالدراسات النسقية هي: Foundation : the components of a basic theorie, for the empirical study of literature ,Translated by Robert de Beaugrand, Helmut. Buske Verlag.Hamburg.1982
58. أحمد بوحسن ، ضمن كتاب ، كتابة التواريخ ، مقال أحمد بوحسن: تاريخ الأدب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الرباط ط ، 1 ، ص 154.
59. On writing Histories of literature: some remarks from a constructivist Point of view,in Poitics,n°14,1985.
60. أحمد بوحسن ، كتابة التواريخ ، ضمن مقاله ، تاريخ الأدب ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ص 151.
61. شميدت ضمن المقال المترجم. نظرية الأدب أحمد بوحسن ص 129.
62. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص 45.
63. محمد مفتاح ، التشابه والاختلاف ، ص 170.
64. حسن الطالب ، مفهوم التاريخ الأدبي (مجالات التوسع وآفاق التجديد)، ص 122.
65. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص 46.
66. سيغفريد شميدت ، المقال المترجم. ضمن كتاب ، نظرية الأدب ، أحمد بوحسن ، ص 193.
67. ينظر المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.
68. حسن الطالب ، مفهوم التاريخ الأدبي (مجالات التوسع وآفاق التجديد)، ص 138.
69. ينظر المرجع نفسه ، ص ، 139.
70. كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ، ترجمة حسن الطالب ، ص222.
71. المرجع نفسه ، 226.
72. المرجع نفسه ، ص ص 226 ، 227.
73. المرجع نفسه ، ص 227.

74. حسن الطالب ، ضمن دراسته في مقدمة كتاب ما التاريخ الأدبي ، لكليمان موزان ، ص ص37 ، 38.
75. كليمان موزان ، ما التاريخ الأدبي ، ص 236.
76. المرجع نفسه ، ص 237.
77. المرجع نفسه ، ص 273.
78. محمد مفتاح ، التشابه والاختلاف ، ص 10
79. سعيد علوش ، ضمن مقدمة كتاب ، ما التاريخ الأدبي ، لكليمان موزان ، ص 7.
80. حسن الطالب ، ضمن الدراسة في مقدمة كتاب ما التاريخ الأدبي لكليمان موزان ، ص ص 26 ، 27.
81. أحمد بوحسن ، العرب وتاريخ الأدب ، ص ص 47 ، 48.
82. المرجع نفسه ، ص 48.

أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية

بلوصيف كمال*

الملخص

تعتبر أسطورة المسخ والتحوّل من أهم المعتقدات التي حفلت بها مختلف الثقافات القديمة ، بما تمثله من دلالة على أنماط التصورات التي ميزت طريقة التفكير في الميثولوجيات القديمة ، وسيقدم هذا البحث دراسة لتجلياتها في الثقافات الإنسانية المختلفة: الفلسفية اليونانية والعربية الدينية والشعبية الجزائرية.

الكلمات المفاتيح: الأسطورة ، المسخ ، التحول ، صور المسوخ ، الثقافة.

Résumé

Le mythe de la métamorphose et de la transformation est l'une des croyances les plus importants qui a été entièrement traitées par diverses cultures anciennes, car il représente un signe des perceptions qui ont caractérisé la façon de penser dans l'ancienne mythologie, cette étude présentera ses manifestations dans les différentes cultures humaines : grecque philosophique, l'arabe religieuse et le populaire algérien.

Mots-clés : Mythe, Métamorphoses, Transformation, Photos Des Mutants, Culture.

Summary

The myth of metamorphosis and transformation is one of the most important beliefs that was fully dealt with by various ancient cultures, as it represents a sign of the perceptions that have characterized the way of thinking in the old mythology, this research study will present its manifestations in different human cultures: philosophical Greek , Arabic religious and popular Algerian.

Keywords : Myth, Metamorphosis, Transformation, Mutants Photos, Culture.

* أستاذ مساعد أ، كلية الآداب واللغات، جامعة باجي مختار عنابة

قبل الولوج إلى أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة ، يكون لزاما علينا الخوض في قراءات تحليلية لعقلية الإنسان البدائي ومدى ارتباطها بخلق الأساطير؟ وبما عبرت عنه هذه الأساطير وما مثلته من أهمية في حياته؟ ، بما أنها كانت معتقدات وتصورات لقوى غيبية اتخذها ذريعة لتعليل مخاوفه وتصوراته ، ومن هذا المنطلق يرى الدارسون والباحثون في مجال الأسطورة أنها أقدم ما وصل إلينا من محاولات تفسيرية لما غمض على الإنسان من ظواهر عامة ، سواء أكانت نفسية أو اجتماعية أو دينية ، ومنه مثلت الأسطورة حدثا بارزا في تاريخ الأولين ، فاهتموا بها أيما اهتمام ، وحاكوا حولها الكثير من الوشائج والروابط في قصصهم وتواريخهم. وبما أنها كانت امتدادا لما نرمي إليه من دراسة ، وجب علينا تحديد ماهيتها ومعالمها كي يتسنى لنا فهم موقعها في الدراسات النقدية الحديثة وأثرها على الفن والإبداع.

تعريف الأسطورة

أ-لغة

جاء في تعريف الأسطورة لغة أنها: "من سطر يسطر إذا كتب ، قال الله تعالى: "نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ " القلم: الآية: 01. أي وما تكتب الملائكة ، وفي التنزيل: وكل صغير كبير مستطر ، وسطر يسطر سطرا: كتب ، واستطر مثله. قال أبو سعيد الضرير: سمعت أعرابيا فصيحا يقول: أسطر فلان اسمي أي تجاوز السطر الذي فيه اسمي ، فإذا كتبه قيل: سطره ، وقال الزجاج في قوله تعالى:"وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥" سورة الفرقان ، الآية: 05. خبر لابتداء محذوف المعنى ، وقالوا الذي جاء به أساطير ، معناه سطّره الأوّلون وواحد الأساطير أسطورة. والأساطير: الأباطيل ، والأساطير: أحاديث لا نظام لها. وقال أبو عبيدة: جمع سطر على أسطر ثم جمع أسطر على أساطير. ويقال سطّر فلان علينا يسطّر إذا جاء بالأحاديث تشبه الباطل ، يقال هو يسطر مالا أصل له أي يؤلف. يقال: سطر فلان على فلان ، إذا زخرف له الأقاويل ونمقها وتلك الأقاويل الأساطير والسطر"[1]

ب-اصطلاحا

يذهب الكثير ممن درسوا الأسطورة أنها لا تستقر على تعريف محدد وشامل ، وإنما تعددت تعاريفها وفقا لتعددها واختلافها واختلاطها بغيرها من الأجناس الأخرى ، وبذلك ليس من السهولة أن نطأ هويتها وحيثياتها ؛ لأنها لم تنزع إلى مشرب واحد ، وإنما اختلطت منذ البدء مع غيرها من المشارب والثقافات المتعددة ، مما حدا بها أن تتداخل مع كثير من الأجناس الأخرى ، ومن ثم صعب تحديد ماهيتها ، إلا أننا سوف نورد بعضا من التعاريف لعلها تشفي غليل هذا التنوع ، فنجد خاصية جامعة لها من كل ذلك ، ويعضد هذا الطرح ما ذهب إليه **مرسيا إلياد** في: "أن الأسطورة هي رواية لتاريخ مقدس يخبر عن أحداث وقعت في الزمان الأول قامت بها الآلهة والكائنات الخارقة العظيمة"[2] ، وفي هذا التعريف الذي اختاره **مرسيا إلياد** دون غيره من التعاريف الأخرى مثل نوعا من الإلمام بالأسطورة ، رغم ما عرف عليها من تعدد واختلاط بغيرها من المعارف الأخرى ، والقصد هنا أن الأسطورة تختص بطابع التقديس ، وهذا ما يؤكده **فراس السواح** بقوله: "هي حكاية مقدسة ذات مضمون عميق يشف عن معان ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان"[3] ، كما يرى **عبد الحميد يونس** : "بأنها حكاية إله أو شبه إله أو كائن خارق تفسر بمنطق الإنسان البدائي ظواهر الحياة والطبيعة والكون والنظام الاجتماعي وأوليات المعرفة"[4].

وعليه فإن الأسطورة هي دين وعقيدة وتاريخ وإبداع ، لذلك اختلف تفسيرها حسب كل مدرسة وما حملته من رؤية إيديولوجية اتجاهها ، فارتباطها بالدين ناتج عن تصورات ومعتقدات الناس نحو الغيبيات والماورائيات ، التي لم يستطيعوا موضعتها في عقولهم ، فاتجهوا بها إلى التعدد والتنوع الذي توزعته وفقا للحقول المعرفية والثقافية والفلسفية ، لذلك يرى **محمد عجينة** أنّ: "الأسطورة كما عاشتها المجتمعات القديمة هي التاريخ والدين والمعرفة والأخلاق ، فهي التاريخ لأنها تحكي قصة علوية هي محل تقديس واحترام ، لأنها أصل كل شيء. وهي الدين تبعا لذلك. كما أنها المعرفة لأنها تخبر بأصل الموجودات بدءا من الكون إلى المؤسسات الإنسانية وكيف ظهرت. وهي الأخلاق إذ تقدم من خلال التاريخ والدين والمعرفة نموذجا ومثلا أعلى للتصرف والسلوك"[5]. وعلى هذا الأساس توزعت الأسطورة على مختلف المعارف الإنسانية التي تأسست من خلال القول الذي أبان لنا صعوبة تحديد المفاهيم والتعاريف

حول هذا المصطلح ، مما حدا بكل باحث في هذا المجال أن ينطلق في تحديد مفهومها من خلال تخصصه ، محاولا أن يجد لها تفسيرا من هذا المنطلق. ولا شك أن المعارف الإنسانية قد حاولت أن تؤسس للأسطورة كظاهرة إنسانية مست جميع جوانب الفكر والفنون والإبداع ، وكل ما اتصل بالتفكير الإنساني في بداية مراحله الأولى. وقد آثر الكثير من الباحثين في العصر الحديث أن يربطوا الأسطورة بمجالات شتى من المعرفة ، وهو ما يراه **رينيه ويلك** من خلال قوله أن:" الأسطورة هي الاصطلاح المفضل في النقد الحديث ، وهي تشير إلى ، وتحوم على حقل هام من المعاني ، يشترك فيه الديانة والفولكلور وعلم الإنسان وعلم الاجتماع ، والتحليل النفسي والفنون"[6].

و توكؤا على ما سبق ، يتضح لنا أن مفهوم الأسطورة يتوزع على العديد من الحقول المعرفية التي أنتجتها الثقافة الإنسانية في جميع مراحل تطورها ، ومن هذا المنطلق اهتمت الدراسات الحديثة بهذا النوع من الثقافة التي تمثل الفكر الإنساني القديم ، فكان "اهتمام العلماء والفلاسفة واللغويين وعلماء الأنثربولوجية بدراسة الأسطورة ، وبعض كتابات ذلك القرن تعتبر معالم أساسية على الطريق ، وإن كانت لم تبلغ بطبيعة الحال نوعا من الدقة والعمق ، ولكي نتعرف على الاتجاهات والمسارات التي سلكتها البحوث الميثيولوجية ، يمكن الرجوع إلى الدراسات التي قدمت تفسيرات مختلفة للأسطورة"[7].

من هنا يمكن أن نستخلص من كتابات بعض الفلاسفة والمفكرين الذي اهتموا بشأن الأسطورة ، أنها تمثل إيديولوجيا خاصة بالشعوب في محاولة منها لإقناع ذاتها بالكثير من التساؤلات التي أثارتها الأسطورة ، ونعضد هذا الرأي بهذا القول الذي يؤسس لهذا المنحى في اعتبار الأسطورة نوعا من الإيديولوجيا:" إن الإيديولوجيا أو الأسطورة هي الأداة التعبيرية للشعوب والجماعات القادرة على تحريك حشود البشر ودفعها لتأكيد طموحاتها وأهدافها. بل إنها تمثل الرغبات والإرادات الإنسانية الخلاقة التي تقود الناس إلى الاستعداد للمعركة من أجل تحطيم كل ما يوجد. ومن هنا عدّها "**سوريل**" هي والأسطورة حقيقة واحدة." [8]

الأسطورة والأدب

بعدما تطرقنا إلى الأسطورة من منظورها اللغوي والاصطلاحي ، ننتقل إلى علاقتها بالأدب ، حيث اندمجت الأسطورة وألبست ثوب السرد ، ومنه دخلت عوالم النصوص ، فأصبحت ملهما إبداعيا للكتاب والأدباء ، فانسلخت الأسطورة من الطابع القدسي إلى عوالم الفن ، محافظة على مكانتها داخل ثقافات الشعوب حتى هذا العصر. "فالأسطورة تجسد فكرة من الأفكار أو هما من الهموم لتصبح موضوعا يقلق الفكر البشري في مراحله البدائية يجيب عن تساؤلاته إجابة تقنعه ويقنع بها غيره ، فتصبح قناعة يقينية جماعية إلى حد التقديس ، ومع مرور الزمن وتطور الفكر البشري تفقد القناعة قداستها ، إلا أنها تبقى متجذرة في عقل الإنسان ووجدانه ، فينقلها جملة وتفصيلا إلى مجالات إبداعه كالأدب بمختلف أشكاله وأجناسه"[9] ، وعلى هذا الأساس نجد أن المبدع قد استمر في توظيف الأساطير داخل نصوصه الإبداعية ، وأعطاها من الإسقاطات ما يتماشى مع سيرورة الحياة والثقافة في كل عصر ، وهذا ما يراه بعض الباحثين في "أن الأسطورة ليست مادة للتفسير ، وإنما هي موضوع لمعارف من حياة سابقة ، وهكذا يجب إعادة تقويم هذه المعارف عند انحصارها ، لا إعادة تفسيرها ، لكي تدلنا على القوانين الأطر والنماذج الناظمة لها ، مع إمكانية إعادة استخدامها آنيا. لا تستطيع الأسطورة بالتأكيد تناسي أصولها الدينية بسهولة ، ولا يمكن أخذ بعد أدبي إلا إذا بقيت كلاما حيا"[10] ، لذلك حاول الإنسان منذ القديم البحث في الظواهر والأشياء التي تشد انتباهه وتثير غموضه ، ليبحث لها عن تفسير وتعليل ، بما تيسر له من تفكير وتأويل يتماشى وطبيعة تلك الظاهرة. ومن هذه الظواهر التي أصبحت فيما بعد معتقدا أسطوريا راسخا في الثقافات القديمة والحديثة: المَسخُ والتحول.

وعليه فإنني في هذا المقام أحاول تحديد المصطلح وتتبعه في المعاجم اللغوية ، وأصوله في الديانات ، ثم أتطلع بعد ذلك إلى الثقافات القديمة وكيف أسطرته في تصورها عبر القصص والحكايات المتوفرة في آثارها التاريخية أو الإبداعية.

تتفق المعاجم العربية والغربية ، في قضية المسخ ودلالته في اللغة على أنه الانتقال من صورة الانسان إلى هيئة الحيوان. وهو ما نجده في لسان العرب لابن منظور: «الذي يرى أن المسخ هو تحويل صورة إلى صورة أقبح منها ، أو تحويل خلق إلى صورة أخرى...

فمسخه الله قردا ، تمسخه ومسيخ. وكذلك يشوه الخلق. وفي الحديث النبوي عن ابن عباس: الجان مسيخ الجن كما مسخت القردة من بني إسرائيل»[11].

وجاء في ترجمة مسخ الكائنات لأوفيد ناسو على لسان المترجم «أن كلمة (ميثاموفورز) التي عنون بها أوفيد كتابه تعني: الانتقال من حال إلى حال ، لا يشرط فيها حال دنيا وحال عليا ، غير أن الكتاب كله تحول من مرتبة عليا إلى مرتبة دنيا».[12]

نستنتج مما سبق أن المسخ هو النزول من المراتب العليا إلى الدنيا لأسباب دينية أو عقوبات سلطت من الآلهة على الإنسان ، وقد نلاحظ أن هناك فرقا بين المسخ والتحول ، ذلك أن التحول ليس بالضرورة الانتقال من أعلى إلى أدنى ، فقد يكون التحول تصاعديا أي من مرتبة دنيا إلى عليا. فأساطير المسخ والتحول «تزود المعتقدين فيها سلاح رهيب جدا ، إذ أنها تبشر بقدرة الغيب على الإرهاب المباشر. فالمسخ مثلا يرمز إلى القدرة الإلهية على تحويل الإنسان من وضع أعلى إلى وضع أدنى (وضع حيواني)، ويختلف التحول عن المسخ بأنه لا يتضمن الانتقال الحصري من مرتبة دنيا ، فهو قد يكون تحولا ارتقائيا أو تحولا انحطاطيا أو تحولا محايدا ، والتحول يشمل الأشياء والبشر على السواء ، فيما ينحصر المسخ في تحويل البشر إلى حيوانات أو أشياء»[13].

لذلك تعتبر أسطورة المسخ والتحول من بين أهم الأساطير لدى الشعوب على مختلف منطلقاتها الفكرية والايديولوجية التي تدور موضوعاتها حول تغير صور الكائنات إلى أشكال متنوعة وتلبس حقيقة غير حقيقتها.

ولم يقتصر المسخ على ثقافة دون أخرى ، وإنما مس تصورات جميع الأمم في ثقافاتها الأسطورية التي حاولت أن تحدد طبيعة المسخ من منطلقات ايدولوجية سواء أكانت عقدية أم اجتماعية أم سياسية. ولم تكن الديانات بمعزل عن هذا التصور الذي نجده في التوراة وقصتها حول المسخ الذي أثبته القرآن والسنة النبوية باعتبارهما أبرز مقومات الثقافة الإسلامية المرجعية لدى المسلمين ، حينما يعرض لقضية مسخ بعض بني إسرائيل في القرآن وتحويلهم إلى قردة وخنازير.

المسخ في الثقافات الدينية

صرح القرآن الكريم في عدد من الآيات بأن الله عز وجل غضب على جماعة من بني إسرائيل فمسخهم إلى قردة وخنازير. وكان هذا المسخ عقوبة لمعصيتهم.قال تعالى مخاطبا بني إسرائيل:"**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾** " البقرة :65 وفي آية أخرى: " **فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾**" (الأعراف:166). وقال تعالى: "**قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾**" (المائدة :59-60). فهذا المسخ عقوبة من الله تعالى لهم على ارتكاب ما حرم عليهم.

جاء في تفسير ابن كثير «أن الله لما مسخ بعض بني إسرائيل وجعل منهم القردة والخنازير. جعل الشباب منهم قردة ، والشيوخ خنازير. وقال ابن عباس فمسخهم الله قردة بمعصيتهم ، إذ لايحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام ، ولم يعش مسخ قط فوقها ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل»[14]. ولعل أهم ما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام أنّهناك الكثير من الأحاديث التي تناولت ظاهرة المسخ في الثقافة الإسلامية وتبين من خلالها أن المسخ هو عقوبة نتيجة لكثرة المعاصي والفواحش.

ولهذا فإنّ الأرجح أنّ القردة والخنازير الموجودة الآن ليست من المسوخ التي كانت في الأمم السابقة ، ذلك أن الله عز وجل لم يجعل لممسوخ نسلا بل يهلكه الله بعد مسخه ، وهذا ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه في صحيح مُسلم: «قال **رجل يا رسول الله القردة والخنازير هى ما مسخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا إن الله لم يجعل لمسخ لا نسلا ولا عقبا وأن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»**[15].

ولا يقتصر الحديث عن المسخ على الثقافة الإسلامية ، فالمتتبع لحقيقة المسخ والتحول يجد أنّه«كان جزءا من معتقد الإنسان القديم ، كما عرفته أمم وشعوب عديدة في المجتمعات الأكثر تقدما وتحضرا. لذا فالنصوص الدينية على اختلاف مصادرها الوضعية منها والسماوية أشارت إليه وربطته بالجانب العقدي لتمنحه مصداقية الكينونة والوجود»[16].

ومن الديانات القديمة التي تؤسس لهذا اللون من الأساطير التي تتحدث عن المسخ والتحول الديانة الهندية ونجد ذلك في بعض المقاطع من إنجيل بودا في مثل قصة الإله إندرا الذي اتخذ صورة صياد يقول بوذا: «كان في قديم الزمان ملك ظالم ، فاتخذ الإله

إندرا هيئة صياد ، ونزل إليه مع الشيطان متالي ، وهذا الشيطان اتخذ صورة كلب ذي قامة عجيبة ، دخل الصياد والكلب إلى القصر ، وبدأ الكلب بالنباح بقوة وبحزن؟ مما جعل بناء القصر الملكي يهتز من شدة الصوت»[17] ، وفي مقطع آخر نجد في إنجيل بودا أن أحد الخياطين المخادعين كان يتخذ صورة طائر يسمى مالك الحزين «هذا الشخص عينه الذي لا يشبع عاش عدة حيوات قبل حياته الحاضرة بصورة طائر يسمى مالك الحزين الذي اختار مأوى له قرب إحدى البحيرات»[18].

وغير بعيد عن المعتقدات الدينية التي بلورت مفهوم المسخ وفق عقائد الأمم والشعوب ، انتقل بدوره إلى الفنون والآداب وأصبح يوظف في كثير من الكتابات الإبداعية التي حاول من خلالها المبدعون أن يمارسوا نوعا من الإسقاطات التي تمس الجوانب الهامة في حياة الإنسان وما يدور حوله.

وقد آثرت في هذا المقام أن أركز على قضية المسخ والتحول في نماذج بعض الثقافات القديمة التي حفلت بها الملاحم والكتب عند بعض الأمم ، التي اعتقدت في أسطورة المسخ والتحول اعتقادها الجازم ، فانتقل من الإيمان إلى الرواية عنه ونسج الكثير من القصص حوله في قالب تراجيدي يحدد معالمه القاص.

فمن النماذج: الأوديسة التي تتحدث عن عودة أودوسيوس إلى بلده لما انتصر في حرب طروادة ، فلما لم يقدم أودوسيوس القرابين إلى آلهة الأولمب ، عاقبته بالتيه في عرض البحار ، وبدلا من أن يقصد مملكته رست سفينته على جزيرة ملكة السحر سيرس التي حولت أصحابه الى خنازير بفعل شراب سحري قدمته لهم."و أقبلت سيرس فهشت لهم وبشت ، وأذنت لهم أن يدخلوا ... فدخلوا , وأسفاه إلا يوريلاخوس فخشي أن تكون مكيدة أو أحبولة , قادتهم الى بهو كبير ، صفت فيه عروش ضخمة من ذهب ، ما كادوا يستقرون عليها حتى أقبل الساقي بخمر وعسل ، ثم جيء بجبن وطعام آخر ، مخلوط بعقاقير سحرية تذهب وعي آكليها ، وتنسيهم ما سلف من أمورهم ، واستاقتهم إلى حظائرها حيث مسخوا ، فكانوا خنازير وإن أبقى السحر على ألبابهم "[19].

وغير بعيد عن هذه الأسطورة في ملحمة الأوديسة يطالعنا أوفيد بكتاب ضخم حول أساطير المسخ في الثقافة القديمة ، ويتعرض لها بالتفصيل في حديثه عن تغيراتها وصورها وأشكالها ، فمثلا «جوبتر رب الأرباب يهبط من عليائه إلى الأرض ، ويتحول في صورة آدمي. وشخصية (إليكاوون) حينما مسخته الآلهة ذئبا وحشيا وكذلك شخصية دافني التي طلب من الآلهة أن تمسخها بسبب جمالها الذي أثار الإعجاب في قلوب الرجال ، وقد مسخت شجرة»[20].

ومن أساطير المسخ والتحول في الثقافة اليونانية أسطورة رأس ميدوسا «التي حولت الآلهة شعرها إلى ثعابين ووجهها إلى وحش فكان من ينظر إليها يتحول إلى حجر. وقد كانت من الجميلات»[21].

ومثل تلك الأساطيرالتي عجت بها الثقافات القديمة: «أسطورة نرسيس عند اليونان ، وهو الفتى الجميل الذي ابتلته الآلهة (إفروديت) بحبه نفسه وولوعه بالنظر إلى صورته في الماء ، وفي سبيل حصوله على هذه الصورة مات غرقا في الماء ، وتحول الى زهرة هي زهرة النرجس. ولذلك تحب هذه الزهرة الماء وتنمو على الشطآن»[22] ، وهي من الأساطير التي لها اتصال وثيق بالمسخ عند أكثر الشعوب.

ولا تختلف الثقافة الإفريقية عن باقي الثقافات الأخرى في تصورها العام للمسخ وصوره ؛ لأننا نعثر حين قراءتنا لبعض المدونات التي نجدها تتطرق لمثل هذا النوع من الأساطير ، والتي «تدور حول أشخاص تغادر أرواحهم جسدهم ، وتتقمص كائنات أخرى خلال الليل ، هناك اعتقاد سائد بأن مثل أولئك الأشخاص يمكن مشاهدتهم محلقين على عصا غليظة ، أو يتحول إلى بومة ويتجه إلى قمم الأشجار ، حيث تقام الولائم لنهش اللحم نيئا. ففي ساحل العاج تدور إحدى اساطيرهم حول امرأة غادرت روحها جسدها وتقمصت بومة. وظل جسدها راقدا في الفراش ، وحلقت البومة ولكن صيادا شجاعا تمكن من إصابتها ، وفي تلك اللحظة ماتت الساحرة في الفراش»[23]. وقد كثر هذا النوع من الأساطير خاصة في قبائل إفريقيا ، وتناقلها أبناؤها ، واعتقدوا بصحتها ، ومما «تناقلتها قبائل جيكويا GIKUYAI التي تقطن كينيا ، والتي تدور حول إحدى المخلوقات الممسوخة ، التي كان نصفها بشر من لحم ، والنصف الآخر من حجر. أو نصفها بشر من لحم والنصف الآخر من شمع ، أما في مالاوي فيتحدثون عن تلك المخلوقات الممسوخة التي تتخذ الغابات مأوى لها ، متحدية الكائنات البشرية في صراعاتها ، والتغلب عليها»[24].

المسخ في الثقافة العربية

لم تخل الثقافة العربية من القصص الأسطوري حول ظاهرة المسخ ، بل كان لها تصور عنه وعن التحول في كثير من القصص في التراث العربي ، التي تهيأت من خلال المسخ الأسطوري الذي ساد الجزيرة العربية ، وما تبعه من هوس في دهاليز تلك الصحراء ، فكثرت الاساطير والاعتقادات انطلاقا من الانسان.

وفي الحكايات العربية الكثير من القصص حول المسخ والتحول ، منها: الأسطورة العربية حول قصة مسخ (أساف ونائلة) إلى صنمين من أصنام قريش التي كانوا يعبدونها «وتروى الأخبار أن أساف بن يعلى ، ونائلة بنت زيد تعشّقا بعضهما في الكعبة فعدّ فجورا ، فمسخا أصناما. وكأن الخطيئة تم التكفير عنها بالمسخ في صورة لهذين الصنمين. وكأن المسخ عقاب وتحريم للاتصال الجنسي بين الحجاج. وفي الوقت نفسه هو تحريم لتعاطيه الكعبة أو في حماها»[25].

ولعل أهم أسطورة مسوخية ترددت كثيرا في الثقافة العربية القديمة وبقيت تراكماتها حتى في الثقافة الشعبية العربية ، أسطورة الغول ، التي تحدثت عنها المدونات التراثية مثل: الدوميري في حياة الحيوان الكبرى ، وعجائب المخلوقات للقزويني ، ونهاية الأرب للنويري ، والحيوان للجاحظ ، وقد حددت معالمها وضبط مفهومها في كثير من المدونات التراثية ، نأخذ منها ما ذكره الجاحظ في كتابه بقوله: «اسم لكل كائن من الجن ، يعرض للسفار ، ويتلون في ضروب شتى من الصور والثياب ، ذكر أو أنثى ، إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى»[26].

ويتضمن كلام الجاحظ أن الغول جن يعرض للسفّار ، ثم يتلون لهم في ضروب الصور والثياب ، وغالبا ما يكون أنثى ، فكانت تظهر(السعلاة) في صورة امرأة جميلة وتتعرض للسفار حتى تغويهم ثم تأكلهم ، وتشعل نارا فيظن العرب أنها نار ضيف فلما يأتيها تأكله ، وقد وردت في كثير من الشعر العربي القديم وجسدها الكثير من الشعراء أشهرهم تأبط شرا ، وكعب بن زهير ، وعنترة ، وارتبطت عند كعب بن زهير بالمرأة وتلونها وتحولها ، وهي كائن عنيف مخيف ، وتبدو بصورة حيوان شاذ يسبب الخوف والرعب.

لقد خصص الجاحظ في مدونته التراثية جزءا هاما في معالجة مصطلح "المسخ والتحول" ، إذ يرى أن المسخ قد مسّ الحيوان والنبات والانسان ، وهو موجود بكثرة في معتقدات الناس في بعض الحيوانات ، فمثلا يرى أنهم "يزعمون أن الحية مسخ ، والضب مسخ ، والكلب مسخ والفأر مسخ" [27] ، بل يذهب إلى أبعد من ذلك فيتناول المصطلح عند أهل الكتاب ، يقول "ولم أر أهل الكتاب يقرّون بأن الله تعالى مسخ إنسانا قط, خنزيرا ولا قردا ، إلا أنهم أجمعوا أن الله تبارك وتعالى قد مسخ امرأة لوط حجرا ، حين التفتت. وتزعم الأعراب أن الله قد مسخ كل صاحب مكس وجابي خراج إتاوة إذا كان ظالما ، وأنه مسخ ماكسين ، أحدهما ذئبا والآخر ضبعا"[28] ، كما اعتقدت العرب "أن جرهم من الملائكة الذين كانوا إذا عصوا في السماء أنزلوا إلى الأرض ، كما قيل في هاروت وماروت ، فجعلوا سهيلا عشارا مسخ نجما ، وجعلوا الزهرة امرأة بغيا مسخت نجما وكان اسمها أناهيد"[29].

و يبدو أن الجاحظ من خلال تحليله لمصطلح المسخ والتحول في الثقافة العربية ، أراد أن يستنتج بعض الصور المسوخية التي جاءت نتيجة لبعض المعتقدات العربية ، والتي ترى "أن الله تعالى قد ملّك الجن والشياطين والعمار والغيلان أن يتحولوا في أي صورة شاءوا ، إلا الغول فإنها تتحول في جميع صور المرأة ولباسها إلا رجليها ، فلا بد من أن تكون رجلي حمار" [30] ، وهذا التحول الذي يتحدث عنه الجاحظ إنما يكون إراديا بما أثبتته الثقافة العربية قياسا على بعض القصص والأحاديث والسير والتاريخ الإسلامي الذي يعج بمثل هذه الصور للمتحولين ، خاصة في الثقافة الإسلامية ؛ لأن الناس "قاسوا تصور الجن على تصور جبريل عليه السلام في صورة دحية بن خليفة الكلبي ، وعلى تصور الملائكة الذين أتوا مريم وإبراهيم ولوط وداود عليه السلام في صور الآدميين ، وعلى ما جاء في الأثر من تصور إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم"[31].

ويطالعنا في الثقافة العربية كتاب"ألف ليلة وليلة" بمسحته العجائبية التي لا تخلو من القصص الغريب والمثير الذي نسج الكثير من الحكايات المسوخية عن الأشخاص الذين تحولوا إلى حيوانات أو أشياء أخرى ؛ «حيث يتحول الآدميون في هذه الكتابات إلى حيوانات مختلفة ، وتدعو تفاصيل هذه التحولات الخلقية من الصورة البشرية إلى الصورة الحيوانية ، إلى الاهتمام بتوظيفها الدلالي وتكرارها بصورة نمطية معينة تمكننا من استخلاص معان أدبية ورمزية».[32]

وقد اعتبرت ألف ليلة وليلة في قضية تناولهاالأسطورة المسخ إنجازا عربيا وابتكارا أدبيا جديدا. وقد وجدت في الليالي حكايات حول المسخ مثل حكايات التاجر والعفريت والحمال وثلاث بنات[33] ، وغيرها من الحكايات الأخرى التي تناولت هذه الأسطورة بطريقة عجائبية.

ويكتسي «موضوع التحولات ومسخ الكائنات بطبيعته أبعادا وإيحاءات خاصة ويناقشه الدارسون باعتباره موتيفا أدبيا يشير إلى الانفصال بين الجسد والوعي ، أو العقل بين الشكل والجوهر وذلك عندما يحدث الانقلاب من خلقة إلى أخرى... فالمسخ والتحول يختلف في دراسته بين مجموعة من العلوم مثل الأنتربولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الجمال ودراسة الأديان ، أما التحول في الأدب فله علاقة بالبحث عن الهوية ، فالانفصال والخروج إلى الآخر ليتعرف الانسان على هويته الأصلية من جديد»[34].

وهذا ما نجده في رواية الحمار الذهبي لأبوليوس في مسخ الانسان إلى حيوان(الحمار) ثم عودته إلى حالته الأولى ، وهي تعتمد على طابع المسخ وتحويل الكائن البشري إلى حيوانات أو أشياء على غرار الإبداعات اليونانية.

تتحدث الرواية قبل تحول لوكيوس إلى حمار , عن دور السحر وقدرته على تحويل الناس والأشياء إلى حيوانات وطيور ، كما فعلت الساحرة بامفيلة التي تحولت بفضل خلطتها السحرية إلى بومة ، حنيما كان لوكيوس يشاهد ذلك خفية بغية التعلم ، " لقد تعرت بامفيلة أولا , ثم فتحت صندوقا صغيرا وأخرجت منه علبا كثيرة ، رفعت غطاء إحدى العلب ، وأخرجت منها مرهما دعكته طويلا بين يديها , ثم دهنت به جسدها كله من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وأخذت بعد أن أجرت أحاديث سرية مع مصباحها تهز أعضاءها وتحركها كلها ، ... فتحولت بامفيلة إلى بومة ! وأرسلت أنة صارخة. ووثبت عن الأرض قليلا على سبيل التجربة ثم ارتفعت منشورة الجناحين وانطلقت الى الفضاء "[35].

و قد استعرض لوكيوس في هذه الرواية تجربته الخاصة بعدما أخطأ في الوصفة السحرية التي تحول من خلالها إلى صورة حمار ، حيث حاول أن يتبع طريقة بامفيلة السحرية لكن دربته في السحر وتجربته قليلة ، مما جعله يرتبك ولا يحسن ذلك ، " غرفت كمية صغيرة من المرهم , ودهنت بها جسمي وأخذت أحرك ذراعي صعودا وهبوطا وأتمرن على طائر معين ، لم ينم لي زغب قط ، ولا ظهرت لي ريشة واحدة ! ، لكن شعري نما بشكل واضح وأصبح خشنا ، وصارت بشرتي الناعمة طبقة سميكة من الشحم ، وتجمعت أصابع يدي وقدمي ، ليتحول كل منها ببساطة إلى حوافر ، وانبثق في أسفل ظهري ذيل عظيم"[36] ، وبذلك تحول لوكيوس إلى حمار لكنه بقي محتفظا بعقله وشعوره الإنساني.

المسخ في الثقافة الشعبية الجزائرية

لما كانت أسطورة المسخ والتحول قديمة قدم تصورات الانسان لوجوده وكينونته وتعليلاته للظواهر القديمة ، واعتقد الانسان فيها الحقيقة وأسست لفلسفته في الحياة والوجود. من خلال ما وجد في الملاحم القديمة من أساطير تتحدث عن التحول الإنساني إلى شكل حيواني مثل قرد أو نحلة أو حشرة أو حجرة.

ويشير المسخ إلى طقوس وعقائد شعبية ، وبذلك لم تخل أمة من الأمم عن هذا الاعتقاد السائد في ثقافة الشعوب ، وعليه فإن الثقافة الشعبية الجزائرية لديها تصور عن مثل هذه الأساطير التي تراكمت في ذاكرتها من خلال تلك القصص التي كانت تروى في الجلسات والأسمار.

وقد اهتمت الثقافة الشعبية الجزائرية بموضوع التحول والمسخ ، لتعكس قدرة الراوي الشعبي في تصوره لهذه المعتقدات والأساطير التي تتحدث عن الجسد وتحولاته ، من خلال المعتقدات الدينية أوعوالم القوى الخارجية الغيبية التي آمن بها الانسان منذ القديم ، كالسحر أو العقاب الذي يصدر من الآلهة أو غيرها من القوى التي لها القدرة على ذلك السلاح الرهيب ، الذي يحول الانسان إلى شكل جديد وصورة لم يعهدها تختلف عما كان عليه ، ولكن روحه وعقله يبقى كما كان. «فالإنسان الممسوخ ملغى من مؤسسة المجتمع الإنساني كفرد فعال ، ليضاف قصريا إلى مؤسسة المجتمع الحيواني وهو بذلك ذو طبقة مزدوجة. حيوانية في بنيته الخارجية وإنسانية في بنيته الداخلية ، لذلك كانت جل الصور المسوخية لا تحيد عن صور الحيوان ، وقلما كان نباتا أو جمادا»[37].

وقد لاحظت من خلال قراءتي للقصص الشعبي الجزائري أن التحول والمسخ الموجود فيها لا يخرج عن الإطار المفاهيمي الذي رسم في غيرها من الثقافات التي ذكرت نماذجها سابقا ، إذ إن هذه القصص تنتمي إلى ما يعانيه الشخص الممسوخ في كل مرة بعد تعرضه لتجارب قاسية تتمثل في المسخ والتعذيب والتشويه. على ان يكون ذلك الشخص الذي مر بهذه التجربة المسوخية هو المنتصر في الأخير وذلك بتدخل أشخاص آخرين أو إحدى القوى الخيرية ، لتخلصه مما كان فيه وتعاقب المتسبب أو الفاعل عقابا سرمديا ، ومن أمثلة هذه القصص: قصة لونجة ، بقرة اليتامى ، طرنجة ، الحسناء أشرقت ، سميع بلحنش[38]. وغيرها كثير مما تعج به الثقافة الشعبية الجزائرية.

ومن خلال قراءتنا لمجموعة من القصص الشعبي الجزائري استخلصنا أنه يتحدد من خلال العوالم والخوارق والعجائبية التي تدخل ضمن موضوع التحول أو المسخ ، على أننا نجد في هذه القصص نوعين من التحول أو المسوخ ، كما نجده في غيرها من الثقافات الأخرى ، وقد تكون هذه الكائنات المتحولة ذات قوى غيبية كالجن والعفاريت والغيلان ، فيكون ذلك بإرادتها للتقمص أوالتخفي ، إذ يتحول ذلك الكائن أو يمسخ نفسه بكل سهولة ، في هيئات متعددة وصور متنوعة ومن أمثلة ذلك ما جاء في قصة "ولد المحقورة" الذي جاءه عفريت على هيئة إنسان « هو يدور ويحوس اخرجلو عفريت في صورة إنسان .. قاله: شوف ... هام كاينين أخرين حكماء يحوسوا عليّ وراهم يتلاقاو بيك يسقسوك عليّ قلهم ماشفتش! ... عاهدني بللي تقولهم ماشفتوش ، راه يطول الزمان ويقصر ونتلاقاو. عاهدني ولاّ نقتلك. أعطاه العاهد بللي إذا نلاقى معهم ما يقلهمش راني شفته. دخل العفريت ادرق في وحد المغارة ، أمّال هذاك امشي تلاقى مع الحكماء هاذوك»[39].

بينما نجد نمطا آخر من التحول أو المسخ الخارج عن إرادة الإنسان بفعل الانتقام أو الغيرة أو الحسد ، فيمسخ الشخص بفعل اتحاد بين القوى الغيبية والبشر ، ويكون الشخص الممسوخ ضحية لذلك ، ودون إرادته كما ورد في قصة الطفلة المسحورة: «ماحاجاتك يا ماجاتك ... على وحد الطفلة في هاك البلاد ، اللي يحل عليها العزيمة يقول لها: راكي باش تاخذي غول! ... ، وهي كان هي عند باباها وأمها ، واحد النهار قالت لأمها: نخرج من هذه البلاد يزيني منها. قالت لها أمها: يابنتي يهديك ... مانروحيش. ما حبتش تاخذ رأيها ، أمّالة قالت لها: روحي. تمشي تمشي حتى ان لقت عشه في الجبل دخلت لها. وهاك العشة فيها زوز من الناس ، دخلت وقالت لهم: السلام عليكم. وقالولها: أنت جنس ولاّ ونس. قالت لهم: ونس كان لقيت من يوانسني. وقعدت معاهمنهارات وبعد تجوزت بالكبير فيهم ... وهي كانت حامل حتى كيف ضرب عليها الليل طلعت فوق شجرة ، وهاك الشجرة يبات تحتها الهوش الكل ، حتى جاء هاك الهوش وشمو ريحتها وجاو طالعين باش يهبطوها ياكلوها ، وما نجم حتى واحد يطلع لها غير النمالة. طلعت هبطتها وكيف هبطوها تنافقوها كل واحد اخذا لقشة. أما الارنب قالتلهم: اعطوني الجني اللي في كرشها ... والارنب خذت هاك الجني الي في كرشها. امالا راحت خباته وظهرت بنت. اماله ربتها هاك الارنب ورضعتها حتى كبرت هاك البنت. حتى واحد النهار خرجت لارنب خلات دارها محلوله حتى خرجت هاك الطفلة وقعدت في الشمس ، وتمشط في راسها ، حتى عقب عنها نسر وهزها وطار بيها وحطها فوق شجرة حتى هاو عقب ولد السلطان ححتى هزها وداها وكان عندو سبع نساء وزاد تزوج بيها هي حتى صبحت حامل وجابت له ولد وحيد وكيف عاد هاك الولد عمره عامين راح بوه للحج ووصاهم قالهم: هنوني ، حتى واحد النهار شدوها النسا ينسلولها في شعرها وكل شعرة يحطوا في بلاصتها ابرة ، حتى طارت ذاك الطفلة وصارت عصفورة... وعاودو هاك النسا الكل آشدارولها. ينحو ابره ويديرو شعره حتى رجعت امره كيما كانت بكري»[40].

ولما كان البحث يحفر في داخل أسطورة المسخ والتحول في الثقافات الانسانية ، وكيف تشكل وعيها بهذه الأسطورة داخل النسق الثقافي العام لجميع الثقافات المتعاقبة ، يجد الفاحص لهذه العقيدة الأسطورية أنها أثرت في العقل البشري ككل ، فكانت ثقافة الشعوب على مرّ أجيالها وحقبها الزمنية تؤثر في بعضها البعض في تصورها لموضوع المسخ والتحول ، وإن اختلفت في القصص والأبطال فإنها تتشابه في أدق التفاصيل التي من شأنها أن تجعل المسخ معتقدا راسخا في ثقافة الإنسان حتى اليوم.

و إن كنت في هذا الصدد قد أعطيت بعضا من النماذج حول أسطورة المسخ في معظم الثقافات الانسانية ، فإني أحاول استجلاء الأثر البعيد في القريب ، أو بتعبير آخر ؛ أثر بعض الثقافات القديمة في الثقافة الشعبية الجزائرية من خلال تحليل نماذج من الأساطير القديمة ومقارنتها ببعض الأساطير المسوخية في الثقافة الشعبية الجزائرية فمن خلال قراءتي للمصطلح وجهازه المفاهيمي ،

وتلقيه داخل سياق الشعوب ، فإن المسخ كما ذكرت سابقا يرتبط بالآلهة ، وهو عقوبة أبدية تسلط على البشر الذين ارتكبوا المحرم ويكون أبديا ، وسنأتي على ذكر النماذج ومقارنتها ثم ملاحظة الأثر الاعتقادي في ذلك .

لقد استلهم الراوي الشعبى قصصه من خلال التراكمات الثقافية التى وصلت اليه ، وتخمرت فى ذهنه حتى ترسخت إيمانا وعقيدة فى ذاته ، ونبعت في قصصه. فالمسخ في وعيه هو السخط الإلهي على البشر جراء انتهاك المحرمات ومخالفة الأوامر ، والذي تكون فيه العقوبة أبدية ، فنموذج "إساف ونائلة" في انتهاك المقدس ومسخهما إلى حجر ، هو نفسه نموذج الثقافة الشعبية الجزائرية حول قصة "حمام المسخوطين" الذي انتهك بطله حرمة القداسة الإلهية بزواجه من أخته فمسخ الى حجارة هو ومن معه ، فتسمية الحمام ترجع إلى أسطورة مسوخية تصور فيها الحكاية الشعبية في المنطقة أشخاصا نزل بهم العقاب الإلهي ، نتيجة لانتهاك حرمة المقدس ، وتتحدث القصة بإيجاز عن بطل عرف منذ صغره بشجاعته وقوته ومكانته داخل قبيلته ، فداخله التجبر والطغيان ، والتمرد على الأعراف والتقاليد ، من خلال رغبته فى الزواج من أخته ، رغم أنه لاقى معارضة شديدة من شيوخ قبيلته ، إلا أنه صمم واستمر فى الإعداد لحفل زفافه ، وحضر الحفل بعض الأفراد من بينهم القاضي لترسيم الزواج ، مع معارضة ومقاطعة معظم أهل القبيلة استنكارا لهذا الفعل ، حتى أنهم غادروا القبيلة وخرجوا منها ، لكن عند عودتهم إلى المكان بعد مدة من الزمن صدموا بمنظر الناس الذين حضروا الزفاف وقد صاروا حجارة.[41]

أما نموذج "إساف ونائلة" فهو يحكى قصة "إساف" الذي أحب "نائلة" و"تعشقها فى الكعبة ، فعدّ ذلك فجورا ، فمسخا أصناما ، وكأن الخطيئة تم التكفير عنها بالمسخ فى صورة لهذين الصنمين ، وكأن المسخ عقاب وتحريم للاتصال الجنسى بين الحجاج ، وفى الوقت نفسه ، هو تحريم لتعاطيه في الكعبة أو في حماها. إنه تلبس المقدس بالدنيوي ، أو العقاب من أجل الغريزي فينا ، وقد يكون إقصاء المادي والطبيعى ، أو هو امتزاج الأسطوري بالحقيقى. إنه درس ترهيبى لكل من تسول له نفسه أن يتجاوز المقدس".[42]

فنموذج القصة العربية حول قصة مسخ "إساف ونائلة" أثّر فى الذاكرة الثقافية للشعوب التى تؤمن بمثل هذه العقوبات الإلهية لانتهاك المحرم أو المقدس ، ومن ثم غضب الآلهة وسخطها فيكون المسخ والعقوبة الإلهية التي تسلط على المذنب ، فإذا قارنا في ناحية الشخصيات وجدناها تتمثل فى شخصيتين (إساف ونائلة) , (الفارس وأخته) أما من حيث الرغبة فكلاهما اقتنع بالفعل (الزنا) و(الزواج) ، أما من حيث انتهاك الحرمة فالزنا محرم وفى مكان مقدس والزواج من الأخت محرم وهو انتهاك للمقدس ، وبذلك كان المسخ إلى حجارة في كلتا القصتين ، ويبدو الاثر واضحا من خلال هذه المقارنة للأحداث والشخصيات ، وإنما التغير في انتهاك المقدس أما العقوبة فكانت المسخ والاعتقاد بأبديته.

أما النموذج الثاني فيرجع إلى تأثير الثقافة الاسلامية في الشعوب التي دخلت الاسلام وخاصة شعوب شمال افريقيا ، ففي الثقافة الاسلامية يظهر جليا فيما سبق ذكره من قصة المسخ, أن الله مسخ بعض بني اسرائيل قردة وخنازير ، وهي الآيات الصريحة الواضحة على ذلك ، وقد وجد تصور واحد عن المسخ في صريح القران أن الله مسخ الانسان العاصي والمنتهك للحرمات الى قرد أو خنزير ، ولا شك أن هذا النموذج الثقافي قد أثر في ذاكرة الشعوب وتعاقبت في وعيها ومن ثم دمجها الراوي في قصصه للعبرة والرمزية ، وعليه فإن نموذج مسخ العروس إلى قرد[43] ما هو إلا تصوير لثقافة شعبية متأثرة بالثقافة الاسلامية ؛ في الايمان والاعتقاد لمثل هذه العقوبة الصادرة في حق هذه العروس التي أهانت النعمة التي أعطاها الله لها (النعمة بالعامية "الأكل") والتي نظفت بها جسم الطفل ، فمسخها الله قردا كمثل نعمة أصحاب السبت الذين تحايلوا على الله فمسخهم الله الى قردة وخنازير. هذه النماذج فيما يخص أسطورة المسخ التي ترجع إلى اعتقاد بشري لدى جميع الثقافات والشعوب ، وبذلك فإن الفكرة الأولى حول هذه الأسطورة بقيت مسيطرة على ذاكرة الشعوب وفي جميع الثقافات ، وبقيت بنفس التصور والرؤية والاعتقاد رغم اختلاف القصة او الشخصية أو حرمة المقدس.

دوافع أفعال المسخ وحوافزه

يكاد يتضح لنا من خلال قراءتنا للمدونات التي تحدثت عن أساطير المسخ والتحول في الثقافات القديمة أو في الثقافة الشعبية الجزائرية ، أن لفعل المسخ دوافع عديدة تكون من منطلقات دينية أو أمراض نفسية ، ففي الجانب الديني الدافع لفعل المسخ العقوبة من الآلهة التي ترى أن الشخص استباح الحدود والأخلاق والنواميس التي فرضتها الآلهة.

لذا فالأشخاص الذين مسخوا يكون مسخهم أبديا وعقابهم أزليا كما ذكرنا آنفا في مسخ بني إسرائيل ، أو في مسخ أسافا ونائلة ، وغيرها من القصص الذي له علاقة بعقوبة دينية وأخلاقية ، وهي عقوبة أبدية كان فاعلها من الناس المغضوب عليهم الذين تمادوا في المعصية لذلك لن يكون ثمة غفران لهم.

أما القصص الشعبي فقد أبان لنا عن صور مسوخية كان الدافع فيها بعض الأعراض النفسية التي تصيب الإنسان كالحسد والغيرة ، والانتقام لذلك فالتحول فيها يكون جزئيا وله وقت محدد ، فكثيرا ما يظهر المساعد للشخص الممسوخ أو المتحول ويعود لهيئته الأولى ، وينتقم من الشخص الذي قام بالفعل ؛ أي أن الإنسان المتحول أو الممسوخ يعاني في بداية الأمر جراء هذا الفعل ، لكن صراعه ذلك يمكنه من الرجوع إلى صورته البشرية يتغلب على ذلك.

والملاحظ أن من الوسائل المسخية في القصص الشعبي الجزائري هو: السحر الذي يحول الأشخاص إلى حيوانات. وهو أيضا إلى جانب ذلك الحل لظاهرة المسخ وإرجاع الممسوخ إلى طبيعته الأولى ، «فالتركيبة السحرية تعتمد على ثالوث يقدم على شخصية الساحر وانصهارها في عالم الطقوس والتعاويذ ، وتحالفها مع قوى غيبية ، وبالتالي فالسحر ليس طلاسم تكتب وتلقى وإنما هو علم وفضيلة لا يملكها إلا المتبحرون فيه»[44].

إن للسحر علاقة وطيدة بالمسخ خاصة بالثقافات القديمة التي تؤمن بالقدرة العجيبة للساحر الذي يستطيع أن يغير حتى خلقة الناس من خلال بعض التعاويذ والطلاسم التي يستخدمها في ذلك ، وقد رأيت أن أكثر الشعوب ارتباطا به ، وخاصة ما يسمى بالسحر الأسود هم شعوب إفريقيا التي لازالت حتى اليوم تربط مصيرها بمثل هذا النوع من السحر ، «فالسحر هو صناعة التعاويذ التي بواسطتها يمكن مساعدة الناس أو إلحاق الأذى بهم»[45].

ويستفاد من القول أن السحر هو علم قائم بذاته لا يملكه كل الناس وإنما يحتاج إلى شخص أكثر بصيرة ونفاذا لذلك ، والجلي في القصص الشعبي الجزائري أن هذه الحرفة -السحر-لم يتقنها شخص بغير المرأة التي بدت في جل القصص القائم على هذا العالم الغريب.

ومما لا شك فيه أن القصص الشعبي الجزائري الذي تطرق لموضوع المسخ والتحول أبان لنا عن الكثير من الصور المسوخية ، التي تراءت لنا من خلال النماذج المدروسة ، وبذلك فهي تعرض لنا أنماطا جديدة من الصور التي أصبح غليها الإنسان بعد مسخه أو تحوله ، في لحظة السحر أو العقاب ، وغالبا ما كانت الصور المسوخية في القصص الشعبي لا تخرج عن هيئة الحيوان كالطاروس ، الكلب ، الغزال ، العصفور ، الأفعى .... ورغم عملية المسخ التي تطال الإنسان الممسوخ فإنها لا تؤثر إلا على الصورة الخارجية أو الهيئة الفيزيولوجية ، وهذا ما يتضح من النماذج المدروسة.

من خلال تناول أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة والقصص الشعبي الجزائري نلاحظ ما يلي:

- شكّل المسخ في الثقافات المختلفة محور الصراع بين الخير والشر ، والآلهة والإنسان ، أي بين القوى المتسلطة والإنسان المتحرر ، أو هو بالأحرى صراع قيم دينية واجتماعية.
- المسخ الأبدي الدائم هو عقوبة نتيجة غضب الآلهة على البشر ، ويكون دائما ومستمرا ، أما المسخ الذي يكون بفعل السحر أو القوى الغيبية فهو غير دائم ويمكن أن يزول بالمساعدة لأن الشخص الممسوخ يحاول أن يجد نفسه في عالمه الإنساني حتى ولو تغير شكله.

- أكثر القصص الشعبي تناول قضايا اجتماعية كانت النوازع النفسية فيها هي الحافز في عملية المسخ ، وذلك جراء الصراع الحاصل بين أفراد الأسر إذ لا يعدو الفعل بسبب الغيرة أو الحسد أو الانتقام ، ممثلا في الأخت أو امرأة الأب ، ويكون ذلك باستعمال السحر بالتعاقد مع قوى غيبية ، كالجن والعفاريت.

وفي الأخير ، لا بدّ من التنويه بأنّ أسطورة المسخ والتحوّل وظّفت في الأدب والفنون ، وأصبحت تمثل ملهما فنيا وأدبيا لكثير من الأدباء والرسامين ، الذين أعادوا صياغة هذه الأساطير المسوخية على شكل روايات أدبية أو أفلام سينمائية ، أو لوحات فنية تعج بالموتيفات والتأويلات لمثل هذه التصورات البدائية التي ركنت في ذاكرتها الثقافية مثل هذا النوع من الشخصيات المسوخية ، ذات التركيبة المرعبة ، وبخاصة المسوخ الشيطانية التي هي «تجليات من الأساطير القديمة في الشرق والغرب ، وقد حفل بها الأدب والشعر والفن منذ العصور الكلاسيكية وما قبلها ، وهي شخوص وحيوانات سلطت عليها لعنة إلهية لارتكاب معاص ، أو لعدم امتثالها للقوى السماوية الكبرى. ففتحت أمام الفنانين مضمارا واسعا لإعمال الخيال الميتافيزيقي. وتواصل هذا النوع من الخيال ألإبداعي في عصر الديانات السماوية كنوع من العبر الدينية ، فصورها فنانو الزجاج المعتق والملون في كنائس وكاتيدرائيات أوربا فيما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر ، والتي يسميها إيميل مال Emile Male إنجيل الفقراء الحقيقي»[46].

لقد انتقلت هذه الأساطير المسوخية من الاعتقاد إلى التوظيف الإبداعي الذي شمل كل الفنون ، حتى الرسم والنحت والسينما ، وبذلك مثلت هذه المسوخ تراكمات اعتقادية لازال الإنسان يعتقد بها ويجسدها في إبداعه بحسب رؤيته وإيديولوجيته التي انطلق منها. فالإنسان البدائي جسدها على شكل قصص وروايات تاريخية أملتها عليه خيالاته ، فانعتقت هذه الأساطير التي تتحدث عن المسخ والنحول من التهيئات والخيال إلى التجسيد الفني وألإبداعي في العصر الحديث ، التي انتشرت من الرسومات والنحوت لفنانين معاصرين ، للتعبير عن قضايا العصر الرامزة للتحول والوحشية والتدمير والترهيب الذاتي الذي يعيشه الإنسان في معترك حضارة العولمة ، « وربما تكون المسوخ الشيطانية التي تطل من فوق أسوار كاتيدرائية "نوتردام" بمدينة باريس أكثر تلك الأشكال الرمزية انتشارا ، ومعها المسوخ الكابوسية التي صورها الفنان هيرو نيميوس بوش Heron Ymus Bosch 1450 – 1516 كمفردات للتعبير عن هول الجحيم وعذاب الخطائين ... بينما صور ونحت ماكس ارنست Max Ernst 1891-1976 مسوخا شيطانية بشعة الهيئة. كما ظهرت تلك الأشكال بقوة في أعماله التلصيقية وأشكال "الفروماج" ، وقد كانت حياة هذا الفنان مشحونة بمواقف قاسية ، ما أسلمه إلى اللاشيئية والتشاؤم ، وأصبحت حياته سحرية ، مما انعكس على أعماله الفريدة من نوعها»[47] ، كما أبدع بيكاسو في فن الرسم الكثير من رسوم المسوخ استنادا إلى الحكايات الموجودة في كتاب المسخ لأوفيد ، وكذلك انتقلت أسطورة المسخ والتحول إلى الأدب والسينما ، كعبثية الحياة في رواية المسخ لكافكا ،التي تحول فيها البطل غريغور إلى حشرة ، وفي السينما أنتجت الكثير من الأفلام التي تدور حول المتحولين والمسوخ كأفلام: فرانكشاين ، المستئذب ، الزومبي ، دراكولا.

الهوامش

1. ابن منظور ، 1988 ، لسان العرب ، (مادة سطر) ، دار الجيل ، د.ط ، بيروت ، لبنان ، ص. 143.
2. مرسيا إلياد ، الأساطير والأحلام والأسرار ، ترجمة حبيب كاسوحة ، دط ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ص. 7.
3. فراس السواح ، 1997 ، الأسطورة والمعنى ، ط8 ، دار علاء الدين للنشر ، دمشق ، سوريا ، ص14.
4. يوسف حلاوي ن 1992 ، الأسطورة في الشعر العربي ، ط1 ، دار الحداثة ، بيروت ، لبنان ، ص 34.
5. محمد عجينة ، 1994 ، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها ، ط$_1$ ، دار الفرابي ، بيروت ، لبنان ، ص. 35.
6. رينيه ويلك وأوستن وارين ، نظرية الأدب ، ترجمة محي الدين صبحي وحسام الدين الخطيب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1987 ، ص.198.
7. أمل مبروك ،2011 ، الأسطورة والإيديولوجيا ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ص.26.
8. أمل مبروك ، الأسطورة والإيديولوجيا ، ص.137-138.
9. عبد المجيد حنون ،2007 ، الأسطورة والأدب. ملتقى الأدب والأسطورة ، عن الأدب العام والمقارن ، جامعة باجي مختار ، عنابة ، ص6.
10. هنري باجو دنييل ، 1997 ، الأدب العام والمقارن ، ترجمة غسان السيد ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، ص.153.
11. ابن منظور ،1994 ، (مادة مسخ) ، لسان العرب ، ج3 ، ط3 ، دار صادر ، بيروت ، لبنان ، ص.55
12. أوفيد ناسو ،1992 ، مسخ الكائنات ، ترجمة ثروت عكاشة ، ط$_3$ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص27.
13. خليل أحمد خليل ،1986 ، مضمون الأسطورة في الفكر العربي ، ط3 ، دار الطليعة ، بيروت ، ص.94
14. ابن كثير ، 2006 ، تفسير القرآن العظيم ، تحقيق أنس الشامي ، محمد سعيد محمد ، ج1 ، دار الوعي ، الجزائر ، ص.139
15. موسى بن الحجاج مسلم ، صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، ج4 ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ص.2050
16. ماجدة بن عميرة ،2007 ، التمظهرات الموضوعاتية لأسطورة التحول في كتاب الليالي ، ملتقى الأدب والأسطورة ، جامعة عنابة ، ص.36
17. إنجيل بوذا ، 1991 ، تعريب الفقير سامي سليمان شياد ، ط$_1$ ، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع ، ص. 172.
18. إنجيل بوذا ، تعريب الفقير سامي سليمان شياد ، ص.169.
19. هوميروس ، 1986 ، الأوديسة ، تر: عنبره سلام الخالدي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ص: 144.
20. أوفيد ناسو ، مسخ الكائنات ، ص36.
21. نبيل سلامة ، 2014 ، الشيفرة الإلهية ، المعاني الخفية للأساطير اليونانية ، ط1 ، دار نينوى ، سوريا ، ص.36
22. غنيمي هلال ، 2004 ، الأدب المقارن ، دار نهضة ، مصر ، ص.148
23. جيوفري باريندر ، 2007 ، الأساطير الإفريقية ، ترجمة هيثم الطريحي ، مراجعة النص العربي محمد سعيد الطريحي ، دار نينوى ، دمشق ، سوريا ، ص. 130.
24. جيوفري باريندر ، الأساطير الإفريقية ، ص. 131.
25. الساسي بن محمد الضيفاوي ، 2014 ، ميثولوجيا آلهة العرب قبل الإسلام ، ط$_1$ ، المركز الثقافي ، الدار البيضاء ، المغرب ، ص.29
26. الجاحظ ، 2015 ، الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون ، المكتبة العصرية ، مج6 ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، ص.100.
27. الجاحظ ، الحيوان ، ص.48
28. الجاحظ ، الحيوان ، ص.49
29. الجاحظ ، الحيوان ، ص.126
30. الجاحظ ، الحيوان ، ص. 140
31. الجاحظ ، الحيوان ، ص.140
32. أميمة أبو بكر ، 1994 ، المسخ في حكايات ألف ليلة وليلة ، مجلة فصول ، ع4 ، مجلة13 ، الهيئة العامة للكتاب ، مصر ، ص.240
33. ألف ليلة وليلة ،2005 ، دار الكتب العلمية ، ج1 ، ط3 ، بيروت ، لبنان ، ص10-33.
34. أميمة أبوبكر ، المسخ في حكايات ألف ليلة *وليلة* ، ص.240
35. أبوليوسلوكيوس ، 2001 ، الحمار الذهبي ، تر: أبو العيد دودو ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ص.89
36. أبوليوسلوكيوس ، الحمار الذهبي ، ص.90.
37. ماجدة بن عميرة ، التمظهرات الموضوعاتية لأسطورة التحول في كتاب الليالي ، ص.37

38. بورايو عبد الحميد ، 1998 ، البطل الملحمي والبطلة الضحية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص.161
39. بورايو عبد الحميد ، البطل الملحمي والبطلة الضحية ، ص.161
40. بورايو عبد الحميد ، البطل الملحمي والبطلة الضحية ، ص.198-199.
41. أسطورة حمام المسخوطين بمدينة قالمة كما تداولتها أغلب الروايات الشعبية.
42. الساسي بن محمد الضيفاوي ، 2014 ، ميثولوجيا آلهة العرب قبل الإسلام ، ص: 30.
43. تتداول قصة العروس القرد في الثقافة الشعبية وتروى بصيغ مختلفة حسب المنطقة.
44. ماجدة بن عميرة ، التمظهرات الموضوعاتية لأسطورة التحول في كتاب الليالي ، ص.40
45. جيوفري باريندر ، الأساطير الإفريقية ، ص.129.
46. مصطفى الرزاز ، أفريل 2012 ، الأسطورة في الفن الحديث ، مجلة عالم الفكر ، مج40 ، ع4 ، الكويت ، ص.161.
47. مصطفى الرزاز ، الأسطورة في الفن الحديث ، ص.162.

Revue des Sciences Sociales

Anciennement Revue des Lettres et des Sciences Sociales

Identité et objectifs de la revue

Revue des Sciences Sociales

Revue scientifique périodique indexée, soit une publication dédiée aux deux domaines du savoir et de la méthode, puisqu'elle contribue à la fois à l'enrichissement de la recherche scientifique, de même que celui du dialogue systématique de fond, dans les domaines du savoir social. Elle vise à:

1. Hisser la recherche scientifique au plus haut niveau de qualité, grâce à la construction systématique de la pensée et à la pratique de la recherche.
2. Permettre une interdisciplinarité entre les différents domaines du savoir social et les diverses méthodes de la recherche.
3. Créer un lien entre le mouvement scientifique dans les sciences sociales, d'une part, et le développement social et les questions pertinentes de la société, d'autre part.
4. Soulever la controverse scientifique portant sur les questions récentes du domaine des sciences sociales, puis les orienter vers des horizons mondiaux.

Revue des Sciences Sociales

-Anciennement Revue des Lettres et des Sciences Sociales-

Université Mohamed Lamine Debaghine Sétif 2

Directeur de la revue

Pr. khier Guechi Récteur

Rédacteur en chef

Pr. Youcef Aibeche

Comité de rédaction

Pr. Miloud Sefferi

Pr. Djazia Lechheb Sache

Dr. Mohamed Eltaher Belaissaoui

Pr. Salah Eddine Zeral

Pr. Nadia Aichour

Pr. Amhamed Azoui

Pr. Abdelmelek Boumendjel

Dr. Mohamed Ben arabe

Dr. Abdelrezak Belagrouze

Secrétariat

Mabrouk Sebaihi

Wassila Bouras

Mofida Cherifi

Comité Scientifique

Pr. Naouari Saoudi	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Pr. Mouissi Belaid	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Pr. Mohamed Esghir Chourfi	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Pr. Lahcen Bouabdallah	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Pr. Said Kesskes	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Dr. Noureddine Ben Echiekh	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Dr. Nacer eddine Gharaf	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Dr. Toufik Sammai	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
D. Mohamed Kadjali	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
D. Sofiane Zedadka	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
D.Fouzia Reghad	Universite Med Lamine Debaghine Sétif 2
Pr. Mabrouk Ghodbane	Université de Batna
Pr. Amhend Berkouk	Université de Alger
Pr. Nacer Eddine Samar	Université de Jijel
Pr. Fadhil Deliou	Université de Constantine 2
Pr. Bouba Medjani	Université de Constantine 2
Pr. Mahmoud Bousenna	Université de Alger 2
Pr. Tayeb Bouderbala	Université de Batna
Pr. Abdelkader Charchar	Université d'Oran
Pr. Bachir Abrir	Université de Annaba
Pr. Karoum Boumediene	Université de Tlemcen
Pr. Mohamed Boumediene	Université Adrar
Pr. Mohamed Ahcene	E.N.S Tunisie
Pr. Azeddine Ben Zeghiba	Centre Juma Al Majid Dubaï
Pr. Rezki Madani	Farance
Pr. Mohamed Etraouna	Jordanie
Pr. Ahmed Berissoul	Maroc
Pr. Ismail Mahmoud Elkaieme	Jordanie
Pr. Abed Elatif Mahfoud	Maroc
Pr.Houari Addi	Université Lyon2 France
Pr.Joseph Mc Conagol	Manchester UK
Pr.A.Jalil Akari	Université Genève Suisse

Conditions de publication dans la Revue

La Revue des sciences sociales publie des recherches et études scientifiques, intellectuelles et littéraires dans les disciplines des sciences humaines et sociales, droit et sciences politiques, rédigées en arabe, en anglais, ou en français.

La revue accueille également des études critiques qui s'intéressent aux nouvelles publications qu'elles présentent dans 2000 mots environ.

- **Les articles proposés à la publication doivent remplir les conditions suivantes:**

1 / Que l'article soit original et nouveau, non publié dans d'autres publications de toute nature, ni présenté dans un séminaire ou colloque scientifique, ni extrait d'une thèse académique (magister ou doctorat).

2 / Qu'il respecte l'éthique du dialogue et de la critique constructifs et soit libre de toute diffamation.

3 / Qu'il adopte une méthodologie particulière dans l'organisation des éléments de la recherche, et respecte la structuration d'un travail écrit (chapitre, section, ...)

4 / Que le nombre de pages soit ni inférieur à 12 pages ni supérieur à 25 pages, les sources, notes, tableaux et figures compris. Les pages doivent être numérotées séquentiellement.

5 / Que l'article soit saisi sur ordinateur sous forme d'un document "Microsoft Word" et enregistré dans un CD.

6 / Les marges de la page doivent être comme suit:

Droite : 03 cm, gauche : 1,5 cm, haut : 1,5 cm, bas : 1,5 cm, taille de la page : 21 cm X 29.7 cm.

7 / L'article en arabe doit être rédigé avec la police de caractère *Traditional Arabic* 14 pts, interligne : 21. Le titre doit être écrit en gras avec la police *Traditional Arabic* 14 pts**.** Les sous – titres doivent être écrits en gras avec la police *Traditional Arabic* 12 pts**.** Les articles rédigés en français ou en anglais doivent être rédigés, quant à eux, avec la police de caractère *Times New Roman* 12 pts.

8 **/** La revue s'abstient de publier deux articles successifs d'un même auteur dans un même numéro ou dans deux numéros successifs.

9 / Les éléments suivants doivent être pris en compte dans la rédaction de l'article:

- L'article ne doit pas contenir des fautes d'orthographe, de grammaire, de langue ou de frappe autant que possible.

- Le respect des règles d'écriture en:

- Indentant les paragraphes et évitant les longs paragraphes et phrases.

- Ne pas laisser d'espace avant les signes de ponctuation comme le point (.), la virgule (,), le point-virgule (;), les deux points (:), le point d'exclamation (!) et le point d'interrogation (?). En revanche, un espace doit être laissé après eux lorsqu'ils sont suivis d'un mot ou d'un texte. Ne pas laisser d'espace entre le (و) et le mot qui suit.

- Les abréviations sont à proscrire tant qu'elles n'ont pas été préalablement définies.

- Un terme scientifique ou un nom propre en arabe suivis de leurs équivalents en anglais ou en français sont mentionnés une fois dans la recherche lorsqu'ils apparaissent la première fois. Seule l'écriture en arabe suffit après.

- Dans les travaux contenant des textes poétiques, des versets coraniques, ou des noms propres, la vocalisation des mots est obligatoire. La mention de la référence des versets coraniques, des hadiths et des vers poétiques l'est aussi.

10 / Les notes, renvois, références et sources doivent être insérés à la fin de l'article, de manière automatique, et selon l'ordre de leur apparition dans le texte (les références de l'article sont seules celles dont des passages ont été réellement cités). Les références doivent être mentionnées comme suit :

***Ouvrages:** nom et prénom de l'auteur, **titre du livre,** tome, traduction (s'il en existe), édition, maison d'édition (éditeur), lieu d'édition, année d'édition, numéro de page. (Lorsqu'il est **certain** de la non existence des données substantielles obligatoires **seulement** (maison d'édition, pays d'édition, année d'édition), l'auteur doit en référer en utilisant les abréviations : s. m. Éd /s. p. Éd /s. a. Éd, selon le cas).

***Articles:** nom et prénom de l'auteur, «titre de l'article», **titre de la revue,** (organisme publiant), numéro, page.

***Recherches incluses dans un livre:** nom et prénom de l'auteur, « titre de l'article », dans [ou *in*] : **(titre)**, coordinateur général (nom de celui qui a recueilli la matière scientifique), tome, édition, maison d'édition (éditeur), lieu d'édition, année d'édition, numéro de page.

***Thèses universitaires:** nom de l'étudiant, titre de la thèse ou du mémoire (souligné), sa nature (doctorat, magister), la faculté et l'université dans lesquelles la thèse a été soutenue, année, état de publication (publiée ou non publiée), page.

***Textes juridiques:** nature du texte (Constitution, loi organique, ...), son numéro (01/15), en date du (jour, mois et année), objet du texte (portant...), **Journal Officiel de la République Algérienne Démocratique et Populaire**, numéro**,** date de publication.

***Dispositions et décisions juridiques:** il est impératif de mentionner l'autorité de laquelle émane la décision (Tribunal, Cour), indiquer la section ou la chambre (numéro, spécialité), numéro du jugement ou de la décision, date d'émission (jour, mois et année), mentionner les parties de l'affaire ou les initiales de leurs

noms suivis de leurs prénoms, (affaire entre ...), identifier l'état de publication (décision ou jugement, publiés ou non publiés), source (revue, bulletin, émanant de), numéro, année, page.

***Publications internes:** organisme publiant, numéro de l'instruction ou de la décision, objet.

***Rapports:** organisme délivrant le rapport, objet du rapport, occasion de sa présentation, date, page.

***Références électroniques:** nom de l'auteur ou de l'institution, « titre de l'article », lien complet, (date de consultation: jour, mois, année).

***Manuscrits:** nom complet de l'auteur, **titre complet du manuscrit,** nom du lieu où la citation est conservée. L'année et le nombre de pages doivent être mentionnés. Il faut indiquer le numéro de page, en précisant le recto ou le verso desquels la citation est extraite. Le recto est symbolisé par la lettre (a) et le verso par la lettre (b).

***Journaux:** s'il s'agit d'une information, le nom du journal, le numéro, la date et le lieu de parution doivent être mentionnés. S'il s'agit d'un article, le nom de l'auteur, le « titre de l'article », le **nom du journal**, sa nature (quotidien, hebdomadaire, mensuel), le (lieu de parution), le numéro, la date et la page doivent être indiqués.

* Lorsqu'une référence est directement répétée, le mot : ibid. puis la page suivent le renvoi. S'il s'agit d'une répétition indirecte (séparation par une ou plusieurs référence(s) ou une nouvelle page), les nom et prénom du chercheur doivent être mentionnés, suivis du mot: Op.cit. puis le numéro de page.

* Les figures, cartes et graphiques doivent être de qualité supérieure. L'ombrage foncé est à éviter. Les tableaux et figures sont numérotés séquentiellement à part, en attribuant un titre court à chacun d'eux, écrit (au-dessus) de la figure, la source, quant à elle, est écrite en dessous. (Le chercheur doit envoyer chaque carte ou image dans un fichier à part et en format (jpeg) pour faciliter le travail du comité technique de la Revue).

11 / Une copie papier de l'article, jointe d'un CD, doit être envoyée ou remise. Elle doit également être envoyée par mail à l'adresse électronique de la Revue ci - dessous, en tenant compte des éléments suivants:

- Le chercheur doit dissiper son identité dans l'étude et éviter d'y mentionner un détail qui pourrait la révéler. Par conséquent, les informations personnelles (nom de l'auteur, grade, institution à laquelle il est rattaché) doivent être écrites dans une page à part. Le titre de la recherche est réécrit sur la première page sans mention du nom.
- Fournir une photographie biométrique récente.
- L'auteur ou le traducteur doit être précis à la signature de l'engagement (contrat de publication) écrit selon un modèle établi par le comité de rédaction de la Revue.
- Remettre une copie du CV de l'auteur ou du traducteur (dans le cas où l'article est présenté par deux chercheurs, un accord expresse de chacun d'eux exprimant l'acceptation de la co-publication est requis).
- Fournir un document constatant l'approbation de l'encadreur pour les recherches présentées par des doctorants (LMD).
- Fournir une copie du livre original s'il s'agit d'en présenter un.

12 / Que l'article contienne impérativement un résumé exprimant le contenu intégral et sincère de l'article (150 mots environ) dans les trois langues : arabe, français et anglais, suivi de mots clés (Keywords) renvoyant à son contenu, ne dépassant pas 7 mots, cités selon l'ordre de leur apparition dans l'article, et mentionnés dans la traduction dans les trois langues.

Notes importantes:

***** En cas de pluralité d'auteurs, l'ordre alphabétique des noms est suivi dans le cas où les grades sont identiques, mais s'ils ne le sont pas, le grade le plus élevé doit être mentionné en premier.

***** L'article est transféré au comité d'arbitrage confidentiel qui en effectuera l'arbitrage scientifique, une fois sa conformité aux règles de publication est constatée. L'auteur doit en apporter les modifications requises durant une période fixée par le comité de rédaction.

* Tout article qui ne respecte pas les conditions de publication est écarté. La revue n'est pas tenue d'en notifier l'auteur, ni d'exprimer les motifs de son rejet.

* La revue a le droit (si elle en juge nécessaire) d'apporter certaines modifications de forme à la matière soumise à la publication, sans en affecter la substance. Par ailleurs, la revue se réserve le droit de supprimer ou de reformuler certaines expressions qui ne correspondent pas au style de publication.

* Les recherches sont classées dans chaque numéro. La date de leur publication est choisie en fonction de considérations techniques du comité scientifique n'ayant aucun lien avec le nom du chercheur, son grade ou la valeur du travail.

* Les recherches publiées dans la revue ne peuvent être publiées ailleurs sans une autorisation écrite de son rédacteur en chef. Par ailleurs, la revue n'est pas tenue de retourner les articles refusés à leurs propriétaires.

* L'auteur supporte toutes les conséquences résultant d'une violation des droits de propriété intellectuelle d'autrui.

- Les auteurs des articles retenus ne sont pas rémunérés, néanmoins, le chercheur reçoit deux exemplaires du numéro dans lequel son article est publié.
- Les thèmes de la revue sont publiés sur le site de l'université après leur parution.

*** Les articles publiés n'engagent que leurs auteurs et ne reflètent pas nécessairement le point de vue la Revue.**

Correspondance et abonnement : **toutes les correspondances sont adressées à M. le rédacteur en chef de la Revue des sciences sociales - Université Mohamed Lamine Debaghine – Sétif 2**

Téléphone: 036661181

Adresse électronique:

revue@univ-setif2.dz

revue.setif2@gmail.com

Site de la revue: http://revues.univ-setif2.dz

Sommaire

Auteur	Titre	Page
	Mot de la rédaction	08
Farida Guemez **Fayza Djenidi**	**L'instabilité de certains patterns d'attachement comme facteur de vulnérabilité psychologique chez l'adolescent psychasthène**	10
Messaouda Mekhilef	**Approches des expressions figées en linguistique contrastive** Locutions, collocations, expressions figées, proverbiales ou idiomatiques : définitions et commentaires	26
Hacene Bellemmouche **Fouzia Malki-Reggad**	**Effet Du Genre Sur Les Premières Productions Lexicales D'enfants Arabophones : Une Étude Longitudinale**	36
Loubna Achheb	**A la lisière des mondes, entre répulsion et fusion dans *L'amour, la fantasia* d'Assia Djebar**	47
Ikhlas GHERZOULI	**Action Research for Curriculum Development: An Alternative Approach in the Algerian Centralised Framework**	58
Haron Bouras	**Teacher Impact on EFL Students' Motivation**	75

Mot de la rédaction

L'équipe de la Revue des sciences humaines et sociales a le grand plaisir de présenter le Numéro 23 de cette Revue qui, comme à son coutume, contient des articles relevant de divers thèmes et spécialités. Cette nouvelle édition vient concrétiser deux importants enjeux que le Comité de rédaction et la famille scientifique de la Revue visent à atteindre. Le premier aspire à rattraper le retard dans les dates de parution. En effet, la parution du Numéro à la date prévue a requis des efforts considérables pour assurer l'harmonie entre les étapes d'expertise et d'arbitrage et les opérations de réalisation et de révision. Le second reposait, quant à lui, sur la réussite de l'équipe de la Revue à indexer cette dernière dans la base de données DOAJ*, un acquis systématique que peu de revues algériennes a pu réaliser.

De nombreuses problématiques sont abordées dans ce Numéro, celles-ci couvrent des champs de connaissance variés. Le premier article aborde la problématique de « **la réalisation du développement durable dans le cadre des exigences de l'environnement** » d'un regard juridique à la lumière de la réalité de la vie sociale affectée et dominée par les aspects de la concurrence, du profit, de la croissance économique, des monopoles et des normes de bien-être croissants. Ainsi, il tente de répondre à la dualité de la réalisation du développement durable devant une nécessité de préserver l'environnement. Cette approche se prolonge dans l'article « **Les médias électroniques de l'environnement via Facebook et son rôle dans la réalisation du développement durable** » qui s'intéresse également à l'importance et au rôle des médias, notamment des réseaux sociaux, dans la diffusion des valeurs de la culture et de la conscience environnementales dans les différents milieux sociaux. Suit ensuite un texte sur « **La modernité politique de l'établissement de l'origine de la violence à la déconstruction de ses paradoxes** » qui est une recherche dans l'analyse des textes de Rousseau et Locke contre l'envie de violence, afin de parvenir à une vie digne et à la coexistence, réfutant l'idée dominante qui définit l'Etat à partir de la violence, car celui-ci puise de la légitimé politique pour préserver la liberté et la citoyenneté, et non pas de sa domination par la violence. Par ailleurs, le thème « **Les normes du traitement journalistique des révolutions arabes dans la presse écrite algérienne** » traite la problématique des « valeurs de l'information » contenues dans le traitement journalistique des événements des révolutions arabes à travers un échantillon de journaux algériens. D'autre part, l'article « **Les mécanismes juridiques pour parvenir à l'égalité en matière d'emploi dans les entreprises publiques algériennes** » porte sur le principe de l'égalité incarné par les diverses révolutions intellectuelles et sociales en tant que l'un des droits de l'Homme fondamentaux. Par conséquent, le principe de l'égalité dans le domaine de l'emploi est l'une des formes les plus visibles de ce droit. Une étude sur « **les médias tels un maillon fort dans la communication politique** » explore la nature de la relation entre les éléments du processus de communication politique et l'importance des médias tel un maillon fort dans la relation qui soutient fortement la pratique de l'action politique comme étant celle qui concrétise au mieux la volonté politique et la polarisation de l'opinion publique. Vient ensuite un article intitulé « **La publicité : son concept administratif et fonctionnel au sein de l'entreprise économique algérienne** » pour expliquer le vrai concept de la publicité au sein de ce type d'entreprises. Puis un texte sur « **la question en tant que moyen de contrôle des travaux du pouvoir exécutif dans le système constitutionnel algérien** » vient étudier et analyser l'aspect théorique et la réalité pratique de la question parlementaire dans le système constitutionnel algérien, en essayant de répondre à la problématique-clé qui suit : la question parlementaire en Algérie a-t-elle joué le rôle escompté dans l'octroi du droit constitutionnel à l'obtention de l'information en matière des agissements du gouvernement aux représentants du peuple ? D'un autre côté, un article intitulé « **Les exigences du développement de la créativité dans les organisations professionnelles** » aborde la question de la créativité et son rôle dans la promotion du processus d'apprentissage organisationnel dans l'entreprise algérienne, à travers un sondage effectué avec les travailleurs d'une entreprise économique, pour arriver à de multiples résultats et recommandations afin de faire face aux obstacles que rencontrent les organisations professionnelles dans l'introduction de la technologie.

* https://doaj.org/toc/1112-4776

En matière de littérature, le texte « **Le lecteur dans les approches critiques contemporaines** » nous transporte au pouvoir du texte littéraire. Il s'agit d'une recherche sur comment ce pouvoir passe-t-il du producteur au lecteur, ce dernier contribuant ainsi aux yeux de ces approches à la production de la signification par l'acte de la lecture avec ses différents modes : paradigmatique, déconstructif, historique et implicite. D'autre part, le texte sur « **la Sociologie et l'approche critique du texte littéraire** » s'intéresse au lien entre la production littéraire et son contexte social et le droit de critique au sujet de la responsabilisation de l'auteur, du texte littéraire et du lecteur à l'égard des mécanismes de la Sociologie. Aussi, l'article « **L'importance du contexte dans l'interprétation des paronymes dans le Coran chez l'imam al-Kermani** » démontre l'importance du contexte du discours quant à identification de la signification et à la dissipation de l'ambiguïté en termes de structures ressemblantes dans le Coran, en s'appuyant dans cela sur l'approche de l'imam al-Kermani dans le traitement de ces structures. Dans le même contexte, le texte « **La critique culturelle chez Abdullah al-Ghathami** » aborde l'impact de la littérature dans la création des modèles culturels affectant le système des valeurs socio-civilisationnelles, à partir de l'approche d'Abdullah al-Ghathami qui suggère la critique culturelle au lieu de la critique littéraire. Dans une même tendance, l'article « **Le terme *poétique* entre Aristote et Hazim al-Qartayanni** » est une étude comparative tout comme l'est le texte « **Le mécanisme de la terminologique contrastive et son rôle dans la simplification du cours linguistique** ». Dans le domaine de l'histoire de la littérature, l'art théâtral et la culture populaire, nous lisons un article qui examine la problématique de l'historisation de la littérature d'un point de vue philosophique, tendant « **vers l'horizon d'une étude systémique du phénomène littéraire dans l'histoire de la littérature** », et un autre article sur « **les modes du dialogisme dans la trilogie de Abdelkader Alloula** ». D'un autre côté, l'article intitulé « **L'individualisme et ses manifestations dans la littérature chez Nabhani koribaa** » explore les raisons à l'origine de l'intérêt porté à la tendance esthétique dans la philosophie de Nabhani koribaa et le concept vital qu'il associe à l'individualisme, qui ne signifie pas s'isoler ou s'opposer à la société, en s'arrêtant sur des points importants, à savoir : la signification du mot *individu*, et l'individu et l'isolement. L'article « **La légende de la métamorphose et de la transformation dans les cultures antiques et leur impact sur la culture algérienne** » évoque les manifestations du mythe de la métamorphose et de la transformation dans les cultures antiques dans les modèles de perception qui ont caractérisé le schéma de pensée dans les mythologies antiques.

Le Numéro contient également des études rédigées en langues étrangères dont l'article « **L'instabilité de certains patterns d'attachement comme facteur de vulnérabilité psychologique chez l'adolescent psychasthène** » qui tente de comprendre le phénomène de la fatigue psychologique chez l'adolescent et ses complications psychologiques, à partir de la théorie de l'attachement qui la considère comme un danger pouvant engendrer la Seixastineya chez l'adolescent. Quant au texte « **Approches des expressions figées en linguistique contrastive. Locutions, collocations, expressions figées, proverbiales ou idiomatiques : définitions et commentaires** », il s'intéresse aux formes langagières telles que les expressions fixes ou figées et les différences fondamentales dans la recherche de leurs synonymes et l'explication de leurs notions. D'autre part, l'article « **Effet du genre sur les premières productions lexicales d'enfants arabophones : une étude longitudinale** » étudie un échantillon d'enfants dans les premières étapes de la croissance des deux sexes, pour s'arrêter sur la production lexicale, l'émergence du premier mot, et les différences entre les deux sexes, essayant ainsi de trouver des explications d'ordre scientifique, biologique ou culturel pour rendre compte de ces différences. Le texte « **A la lisière des monde, entre répulsion et fusion dans L'amour, la fantasia d'Assia Djebar** » aborde le dualisme de la répulsion et de la fusion résultant de l'époque coloniale à travers les écrits de cette auteure. Parmi les articles en langue anglaise, nous trouvons « **Action Research for Curriculum Development : An Alterntive Approach in the Algerian Centrelised Framework** » qui démontre l'importance de la participation des enseignants dans l'élaboration des programmes scolaires et le développement de leurs méthodes comme l'un des fondements de la réforme de l'enseignement secondaire en Algérie. Quant à l'article « **Teacher Impact on EFL Students' Motivation** » qui est une étude sur le terrain, il analyse les perceptions des enseignants et des étudiants de certaines caractéristiques de l'enseignant et leur impact sur la motivation des étudiants à apprendre l'Anglais, en suggérant quelques solutions d'ordre méthodologique pour parvenir à cette fin

Rédacteur en chef

L'instabilité de certains patterns d'attachement comme facteur de vulnérabilité psychologique chez l'adolescent psychasthène

Fayza Djenidi* Farida Guemaz**

الملخّص

إنّ الاهتمام بالصحّة النفسية للمراهق وما ينجرّ عنها من مشاكل أصبحت تشكّل مطلبا ضروريا للبحث عن سبل جديدة للكشف عن العوامل المرضية في ميدان الأمراض النفسية وطرق التكفل بها. ويهدف هذا المقال إلى محاولة اعتماد تصورايتيوباتوجيني لفهم نوع من أنواع العصاب النفسي قليل التناول ، ألا وهو الإعياء النفسي " السيكاستينيا, اضطراب من الممكن أن يتطور إلى اضطرابات أكثر خطورة مثل حالات الاكتئاب ،... لقد حاولنا التطرق لهذا الموضوع من وجهة نظر نظرية التعلق ، التي تؤكد على أهمية أنماط التعلّق كعوامل خطرواحتمال لظهور السيكاستينيا لدى المراهق.

الكلمات المفاتيح: أنماط التعلق ، السيكاستينيا ، المراهق ، الضعف النفسي ، العصاب النفسي.

Résumé

L'intérêt accordé à la santé mentale de l'adolescent ainsi qu'à sa vulnérabilité psychologique est devenu d'une telle exigence qu'il parait essentiel d'investiguer d'autres pistes de recherche dans le champ de la psychopathologie des jeunes. Cet article a pour ambition de porter une réflexion sur une éventuelle perspective étiopathogénique d'une psychonévrose peu abordée en clinique, il s'agit de la psychasthénie, un trouble pouvant évoluer vers d'autres troubles plus graves tels que les états dépressifs.. Nous voulons aborder à travers cette synthèse l'impact de l'instabilité de certains patterns d'attachement comme une probable étiologie de la psychasthénie chez l'adolescent.

Mots clés : Patterns D'attachements, Psychasthénie, Adolescent, Vulnérabilité Psychologique, Psychonévrose

Summary

The adolescent mental health's focus and vulnerable psychology became very important, that it would be overly required to investigate other research areas, within the field of psychopathology. The main objective of this article is to discuss reflection on a possible Etiopathogenic perspective of a psychoneurosis which dealts with clinical psychology. It is a question of psychasthenia, such a trouble could developed the another one more dangerous such as depressive state . we want to achieve through this synthesis the impact of instability of patterns attachment as a probale etiology of pyschasthenia in an adolescent.

Keyswords : Patterns Of Attachement, Psychasthénia, Adolescent, Psychological Vulnerability, Psychoneurosis

* Département de psychologie, Université Mohamed Lamine Debaghine .Sétif 2

** Département de psychologie, Université Mohamed Lamine Debaghine .Sétif 2

Introduction

L'approche clinique de la santé mentale de l'enfant ainsi que celle de l'adolescent, nous oblige aujourd'hui à soulever un certain nombre de réflexions quant à la nature et également l'étiologie psychopathologique de la souffrance chez ces derniers, une souffrance, qui vraisemblablement traduit une altération cliniquement significative du fonctionnement affectif sous-jacent qui entrainera plus tard une inadaptation relationnelle et sociale, c'est pourquoi il importe de toujours réaffirmer que la qualité des premiers liens que tisse tout enfant avec son entourage a de réelles répercussions sur son développement affectif, émotionnel et social, étant donné que parmi les troubles que l'on retrouvent à l'adolescence les uns sont apparus dans l'enfance et font le lit d'un bon nombre d'autres pathologies, c'est le cas notamment des patterns d'attachement et plus précisément leur instabilité pouvant entrainer par la suite un disfonctionnement sur le plan affectif, ayant pour contrainte d'enfermer l'enfant et plus tard l'adolescent dans la répétition de conduites mentales ou comportementales négatives, en effet, la santé mentale de l'enfant est constamment soumise à un ensemble considérable de stimuli positifs et négatifs trouvant leur origine dans l'entourage de celui-ci puisque l'influence familiale, sociale et matérielle auxquelles est exposé tout enfant est la base sur laquelle il s'appuie pour construire sa personnalité, dans ce contexte les parents représentent des figures majeures à la fois point d'appui et de repère pour la consolidation et le maintien d'un équilibre affectif stable, depuis l'enfance jusqu'à l'adolescence, une période représentative d'un processus d'autonomisation, pivot qui consiste, en grande partie pour l'adolescent, à se détacher de ses parents pour pouvoir investir d'autres objets d'attachements et parachever ses identifications….. Néanmoins si les relations changent entre l'adolescent et ses parents et deviennent parfois source de tension, celui-ci a constamment besoin de leur présence, une relation permanente et stable est plus que nécessaire à son développement., car l'adolescence constitue cette période critique où le sujet désorienté est sans cesse en quête de lui-même et à la recherche d'un sens de toute cette désorganisation interne, un climat conflictuel lui est imposé, qui va le rendre particulièrement lié à son environnement et détaché en même temps, plus le jeune est en insécurité intérieure, plus il sera dépendant de son entourage, une dépendance plus pathogène que normale, dans cette sphère conflictuelle l'adolescent accumule des tensions générées par les transformations physiologiques, ainsi que les pressions environnementales, n'arrive plus à gérer ses conflits intérieurs faute de capital défensif adéquat et probablement un processus d'attachement entravé par des ruptures relationnelles et affectives antérieures avec les figures d'attachement, celui-ci aura tendance à se vulnérabiliser intérieurement et physiquement, faisant apparaitre les stigmates d'une probable névrose ou psychonévrose .

Dans une perspective plausible la théorie de l'attachement, présente plusieurs hypothèses pouvant être à l'origine de l'évolution d'un trouble névrotique tel que la psychasthénie, un trouble très peu connu du milieu clinique et également très mal diagnostiqué de part sa similarité avec d'autres troubles.

L'article présent a pour ambition d'ouvrir une piste de recherche sur l'instabilité de certains patterns d'attachement et leurs modes d'action dans le développement de la psychasthénie depuis l'enfance jusqu'à l'adolescence.

Au centre de cette réflexion le questionnement suivant : L'adolescent psychasthène a-il pu trainer dés l'enfance un patrimoine d'attachement instable bien spécifique l'ayant rendu vulnérable sur le plan psychologique ?

1-L'engouement pour la théorie de l'attachement

La théorie de l'attachement a suscité un grand intérêt, et a fait couler beaucoup d'encre, pour notre part il ne s'agit pas de nous étaler sur les fondements de cette dernière mais plutôt d'apporter quelques élucidations relatives à cette approche, et plus particulièrement aux concepts clés qui ont

caractérisé cette dernière pour mieux cerner notre problématique.

Beaucoup de théoriciens ainsi que d'autres chercheurs et spécialistes de la psychologie de l'enfant comme Wallon, Spitz,… attestent que les fondements de la personnalité de l'adulte se construisent à partir de la sociabilité et la stabilité affective de l'enfant et si ces derniers ce sont intéressés plus particulièrement au développement psychoaffectif de celui-ci, c'est pour l'unique raison que l'apport de la relation d'attachement est un facteur essentiel dans la contribution au développement des compétences sociales et émotionnelles du jeune enfant, en effet le premier modèle de ce qu'est une relation pour l'enfant et de ce qu'il peut en attendre est incontestablement ce lien avec sa mère ou une figure d'attachement présente et prédisposante.[1]

Donc le mieux pour qu'un enfant puisse se développer le plus normalement du monde, tant sur le plan affectif qu'émotionnel, serait qu'il ait une relation d'attachement harmonieuse avec au moins une personne qui lui prodiguera des, soins stables et continus **.** ce que St- Antoine (2000) définit comme ; « La personne significative la plus stable que l'enfant a connu au départ et ce, en fonction des réponses empathiques données par celle-ci aux besoins de celui-ci. Ce rôle est souvent joué par la mère mais peut également être joué par le père, une tante, une mère d'accueil ou toute autre personne significative pour l'enfant.[2]

« Un bébé seul n'existe pas » : disait Winnicott ! Le bébé dépend pour sa survie de soins d'une personne adulte.[3]

Dans ce contexte il n'est pas à exclure qu'a coté des travaux de ces nombreux chercheurs et spécialistes, John Bowlby, considéré comme le premier fondateur de la théorie de l'attachement, s'est inspiré ultérieurement de leurs recherches, puisque dés les années 40, il attira l'attention sur les répercussions néfastes que peuvent générées les carences maternelles précoces et des ruptures à répétitions sur le développement des enfants et plus spécialement sur leur adaptation sociale, sans pour autant rompre complètement avec ses prédécesseurs et leurs théories des liens sociaux et affectifs,, il reconnait l'existence des besoins primaires essentiels à satisfaire, mais il insiste en rajoutant un autre besoin primordial celui de l'attachement.[4]

Pour lui, l'attachement remplit un besoin primaire et assume une fonction adaptative liée à la protection et à la survie de l'espèce, pour sa part, Ainsworth (1989), considère que l'attachement renvoie à un lien affectif durable qui se développe dans les premières années de la vie et qui unit l'enfant à une figure parentale.[5]

On ne peut quantifier ni mesurer l'attachement mais on peut le représenter par des variables qui permettent généralement de mesurer le type et le degré d'attachement chez l'enfant et l'adulte. Ce sont principalement quatre variables, le besoin de proximité physique, comme base de sécurité ; la capacité d'exploration et d'autonomie, l'existence d'un port d'attache en cas de stress, et enfin la présence d'une réaction de protestation en cas de rupture.[6]

Afin de mieux recarder les origines et l'évolution du concept du trouble de l'attachement dans le DSM, il faudrait revenir en 1980 ou la première mention du trouble réactionnel de l'attachement (TRA) fait son apparition dans le DSM III, celui-ci est définit comme un mode de relation sociale gravement perturbée et inappropriée au stade du développement [7],ce diagnostic repose alors sur l'existence d'un retard de croissance et d'un manque de réponses sociales pouvant se manifester à l'âge de 8 mois, néanmoins cette âge est repoussé à 5 ans lors de la révision du DSM en 1987,ou deus sous types sont mis en avant (inhibé/désinhibé), en 1994 le DSM IV, met autant l'accent sur l'étiologie des troubles que sur leurs manifestations et associent le trouble de l'attachement et les soins gravement déficients et pathogènes dans l'enfance, dont le principal symptôme est un contact social inapproprié, à moins que ce diagnostic ne décèle un trouble envahissant du développement ou une déficience intellectuelle.[8]

Mais depuis le fondement des sa théorie sur l'attachement, Bowlby (1978 a, 1978 b, c1984), quand à lui avance que **l**a notion

d'***attachement*** renvoie à la fois à une composante innée et apprise. Pour lui (1978 a), le sujet a un besoin primaire (inné) de s'attacher à sa figure d'attachement (préférentiellement la mère). Tel que appuyé aussi par Zazzo (1979), « le besoin d'attachement est inné alors que l'attachement est appris » Ainsi, l'attachement est fait d'une part, de schèmes innés consistant à rechercher la proximité physique et affective avec la figure d'attachement et, d'autre part, de schèmes appris consistant à s'adapter psychiquement, émotionnellement et cognitivement aux réponses de la figure d'attachement, [9] cependant le pattern ou bien le type d'attachement que l'enfant va développer au courant de sa vie dépend essentiellement de la façon avec laquelle il a construit ses liens affectifs dans l'enfance auprès de sa figure d'attachement, ceci dit que l'attachement est une construction qui s'opère au fil du temps à travers un processus d'actions et de réactions qui s'installe progressivement entre le donneur de soin et l'enfant et qui par conséquent garantie une base de sécurité plus tard à celui-ci. [10]

Pour Bowlby(1984) les expériences infantiles quotidiennes avec les figures parentales serviraient à l'enfant à intériorisé le lien d'attachement et développer des schémas cognitifs, (Bowlby 1987b), ajoute une fois acquis et consolidés, ces modèles se pérenniseraient et continueraient à agir sur la perception et la réaction de celui-ci vis à vis de son entourage (Sroufe, Carlson, Lévy & Egeland, 1999; Thompson, 2008). Élaborés à partir d'expériences précoces préverbales, ceux-ci seraient résistants au changement, puisqu'ils seraient encodés dans la mémoire implicite, fonctionnant de façon automatique et en dehors de la conscience (Kandel, 1999; Main, 1999) [11] D'où l'importance de ces premiers liens affectifs entre l'enfant et ses figures d'attachement, des liens qui sans doute joueront un rôle important tout au long de la vie de tout individu.

a- Les figures d'attachement

Les figures d'attachement sont toutes les personnes qui prendrons soin de l'enfant lors des premiers mois qui précèderons sa naissance, la mère parait être la principale personne vers laquelle l'enfant dirigera ses comportements d'attachement, car elle est susceptible d'être en générale la figure d'attachement la mieux positionnée pour remplir cette fonction de part son lien biologique, mais d'autres personnes peuvent également remplir cette fonction comme le père, substitut parental, grands-parents, nourrice, référent de crèche vers lesquels l'enfant apprendra à se tourner électivement. [12]

La figure la plus adéquate et qui répond correctement et le plus chaleureusement aux attentes du bébé, est habituellement la figure principale, il s'agit le plus souvent dans nos sociétés de la mère, cependant le bébé acquière la capacité de distinguer entre figures principales et subsidiaires, sans pour autant qu'il ait une préférence pour l'une ou l'autre mais, c'est parce que la figure principale lui procure plus de sécurité qu'elle est mise en avant. D'ailleurs, Mary Ainsworth, le dit très bien: « c'est la figure qui a répondu le plus souvent, le plus rapidement et le plus adéquatement en s'engageant dans des relations animées et chaleureuses, qui sera investie comme figure d'attachement principale » [13]

b-Styles d'attachement

Le contact avec les figures d'attachement implique incessamment une réciprocité entre l'enfant et l'adulte et une recherche de proximité et éventuellement de protection lors des situations de stress, et en fonction des réponses que ces figures d'attachement apporterons à l'enfant, quelles soit bonnes ou mauvaises, celui-ci développera son propre style d'attachement, sur lequel il fonctionnera jusqu'à l'âge adulte.[14]

sur la base de plusieurs observations sur le sujet, beaucoup de chercheurs ont mis en évidence plusieurs styles d'attachement, les plus importants ont été proposés par Ainsworth et ses collègues (1978) et Bowlby (1988) qui avancent trois styles d'attachement observables à 12 mois ***secure, anxieux-évitant et anxieux-ambivalent***

.Chaque style est associé à la façon plus ou moins sensible, plus ou moins appropriée et rapide avec laquelle la figure significative répond aux signaux de détresse de l'enfant. [15]

L'enfant ayant une organisation « Secure » utiliserait la figure d'attachement comme base de sécurité pour explorer son environnement, cette base lui procurerait une confiance affective primordiale pour toute relation stable afin d'aider celui-ci à se projeter vers l'avant et lui permettre de se détacher progressivement et surement de sa figure d'attachement initiale tout en gardant la possibilité de faire appel à celle –ci dans des situations de frustrations ou il ressentirait de l'anxiété et le plus souvent lorsqu'il est confronter à un danger, dans ce style d'attachement « Secure » l'enfant serait généralement coopératif enthousiaste, son monde serait prévisible et empreint d'une atmosphère confiante. Par contre dans le type d'attachement «anxieux- évitant » qui est caractérisé par des interactions intrusives et rejetantes de la part de la personne significative, l'enfant serait « détaché », il aurait appris à désactiver à chaque fois son système d'attachement, ainsi son exploration pour son environnement se ferait d'une façon défensive comme si l'enfant était sur ses gardes, il serait généralement hostile, antisocial, renfermé et rechercherait négativement à attirer l'attention des autres.[2]. Dans le type « ***anxieux-ambivalent »,*** l'enfant serait généralement tendu, impulsif et passif. Ce dernier style d'attachement semblait associé aux incohérences des réponses maternantes correspondant au manque de disponibilité et au rejet de la personne significative. L'enfant avait appris de son côté, à suractivé son système d'attachement (Lemieux, 2000; St-Antoine, 2000).

La définition d'un quatrième style a été introduite ultérieurement., cette catégorie porte le nom « ***d'évitant-ambivalent »***dans le système de Crittenden (1992) et de « ***désorganisé-désorienté*** » dans le système de Main et Solomon (1986) dans ce style d'attachement, l'enfant aurait constamment des attitudes contradictoires et déroutantes, son monde serait généralement pour lui carrément imprévisible, il aurait besoin de l'adulte mais sans pouvoir lui faire confiance, il comblerait ses besoins dans un type de relations utilitaires dans ***le*** « ***ici et maintenant*** » car l'avenir serait trop incertain et angoissant, rendu à cette étape, l'enfant aurait une distorsion de base de sa sécurité, sur ce qui est bien ou non pour lui, sur la légitimité ou non de ses désirs et de ses besoins, sur sa perception du bien et du mal et sur l'approbation des comportements des adultes (St-Antoine, 2000).[16]

c- Les comportements d'attachement

Afin d'obtenir une proximité avec sa figure d'attachement, l'enfant dispose d'un répertoire comportemental qui est en réalité un ensemble de signaux lui permettant d'attirer l'attention de celui qui s'occupe de lui en cas de malaise ou d'inconfort. Au fur et à mesure du développement du bébé, d'autres registres de comportement apparaissent qui, tous, ont la même finalité, permettre au petit humain de se rapprocher de ceux qui peuvent le protéger ou de maintenir cette proximité autant de temps qu'il lui est nécessaire .[17]

Le comportement instinctif de l'enfant caractérisé par les pleurs les sourires et les agrippements etc, permet à celui-ci d'augmenter ses chances de survie et ceci bien évidemment par le rapprochement avec toute personne pouvant s'occuper de lui, si ce comportement est a l'origine spontané, il devient par la force des choses un comportement d'attachement, ce dernier est plus distinctement sécurisant lorsque l'enfant fait l'expérience d'un parent accessible répondant de manière chaleureuse à ses exigences, mais également face à un danger ou un état physiologique menaçant l'enfant qui auparavant a former un lien sécurisant sera en mesure d'utiliser ce réconfort pour atténuer sa détresse et par la suite surpasser ces comportements d'attachement pour pouvoir s'engager dans la découverte et l'exploration de l'environnement qui l'entoure et ainsi développer et acquérir son autonomie(Ainsworth, Blehar, Waters & Wall, 19787), [18] Mais là, ce n'est pas toujours le cas, un passif important dans l'enfance marqué par des événements traumatisants une dépendance

exagérée à l'environnement et des perturbations affectives pourraient être expressifs d'un bon nombre de symptômes qui referont surface à l'adolescence.

2-Des signes précurseurs dès l'enfance jusqu'à l'adolescence

L'adolescence est l'âge ou le jeune remet en question les valeurs familiales transmises jusqu'ici considérées comme protectrices, il se débat dans un mouvement contradictoire qui l'amène à vouloir se détacher de son entourage, mais en même temps il a besoin d'être sécurisé par ses parents, l'intensité du conflit dans lequel il se débat dépend de la qualité et la nature des relations d'attachement qu'il a entretenu avec ces parents.[9] En effet, l'enfant qui n'a pu bénéficier dans les premières années de vie d'une présence chaleureuse quelle soit maternelle ou autre apte à favoriser l'apparition de liens d'attachement (soit en raison de ruptures répétées ou encore de l'incapacité de la figure d'attachement à être sensible à ses besoins) risque de se détourner peu à peu de la relation pour devenir complètement détaché plus tard. [19]

Cela a été dument été prouvé car, l'évolution des connaissances scientifiques, plus particulièrement dans le domaine des neurosciences, et des connaissances cliniques quant aux besoins d'attachement de l'enfant nous enseigne que la continuité des soins et la stabilité des liens et des conditions de vie de l'enfant sont les facteurs à prioriser pour son développement, lui permettant ainsi d'investir en toute confiance et de développer sur cette base secure, une capacité relationnelle solide telle qu'il saura se tourner vers le monde extérieur avec confiance et établir avec les autres des rapports harmonieux .[20]

Néanmoins, faute de patrimoine affectivo-relationnel stable l'enfant est exposé à des conjonctures conflictuelles le mettant dans un état probable de vulnérabilité psychologique qu'il trainera plus tard à l'adolescence, à travers cette exposition émergerons des réponses émotionnelles pouvant faire apparaitre chez certains enfants des comportements reflétant un climat insécurisant dans lequel baignera l'enfant tout au long de son développement affectif. présentant de sérieux problèmes de sociabilité et de troubles psychologiques à l'adolescence ensuite à l'âge adulte.

Steinhauer (1996), pour sa part soutient que l'échec à former un lien sélectif durant la première enfance entraîne plus tard toute une série de comportements sociaux inadéquats, pour cet auteur, l'incapacité à établir un lien sélectif dans la première enfance compromet sérieusement l'adaptation sociale de l'enfant, ce handicap ne pouvant être entièrement surmonté plus tard que par le placement de l'enfant dans un environnement plus favorable .[21]

Dans ce contexte, aborder la période de l'adolescence et les problèmes de santé mentales ou physiques relatives à cette période, revient à étudier le développement de l'adolescent dans son ensemble dés l'enfance en passant par celle-ci jusqu'à l'âge adulte, celle-ci est un véritable ébranlement identitaire si profond que pour certains sujets il y'a une éventualité d'un changement de structure, une structure qui ne prend son sens que par rapport à un milieu dysharmonique dont il faut sans cesse tenir compte, qu'il soit dans l'agir ou dans le conformisme, l'adolescent est en quête du sens de toute cette désorganisation interne, et la seule réponse qu'il obtient c'est celle du corps social qui est plus volontiers de l'ordre de la répression, de la réadaptation que de l'ordre de la réhabilitation [22], un processus inévitable infligé par la force des circonstances du milieu à l'adolescent, méconnaissant pour autant l'importance du climat affectif antérieur dans lequel il a évolué faisant passé sous silence un bon nombre de troubles qui révélerons plus tard un disfonctionnement émotionnel et comportemental, car l'adolescence est incontestablement ce passage critique ou l'adolescent est sensé faire preuve d'autonomisation et d'indépendance vis à vis de son entourage, supposant faire preuve également de la solidité et de la qualité des acquis qu'il a pu emmagasiner lors de son développement précédemment établit .

Greenberg, Siegel & Leitch, 1983;Kenny et Donaldson, (1991),. ont mis en évidence le fait que

les adolescents qui ont des relations d'attachement sécurisantes et empreintes de confiance envers leurs parents rapportent un niveau plus élevé de compétences (meilleure estime de soi) et une plus grande satisfaction générale de la vie que ceux dont les relations sont dépourvues de ces attributs.[23] par contre ceux qui se détournent et se détachent facilement de leurs parents sont à l'origine des jeunes dépourvus de compétences émotionnelles et affectives stables, ils entretiennent plus des relations perturbées et éprouvent des sentiments d'hostilité envers leur parents et leur trouvent facilement des substituts tels que les groupes de pairs.

En période d'adolescence les jeunes sont exposés à plusieurs difficultés même si les soucis affectifs sont le plus souvent au centre de cette période critique d'autres difficultés viennent parfois aggraver les comportements des adolescents tels que des problèmes physiques et intellectuels, les comportements délinquants, les conduites internalisées ou externalisées, et même bien au-delà l'apparition de certains troubles de santé mentale**,**

en fait nous retrouvons une association de ces manifestations ou s'entremêlent refus scolaire refus de l'autorité parentale caractérisé par des troubles oppositionnels, insomnies plaintes somatiques et plus particulièrement une fatigue, car l'adolescent est souvent fatigué et cela sans avoir fournit aucun effort physique et même au réveil après une longue et bonne nuit de sommeil, certainement que la cause la plus fréquente de la fatigue chez l'adolescent en est son énorme poussée de croissance et sa transformation physiologique et psychologique car l'effort physique et mental qui lui sont imposés par sa maturation est considérable, mais cette fatigue persistante et incompréhensible cache bien d'autres symptômes, si bien que l'adolescent n'est pas seulement fatigué et épuisé, se plaignant constamment de troubles somatiques mais il est aussi inhibé, aboulique, manquant d'entrain et bien d'autres symptômes pouvant s'inscrire dans le registre clinique d'une névrose telle que la psychasthénie que, Janet (1859-1947) définie comme un trouble déficitaire de l'effort, le déficit énergétique peut, dans certains cas, provoquer la libération des activités de bas niveau, véritable gaspillage énergétique, sous forme d'agitations psychomotrices (phobies et compulsions) et idéoverbales (obsessions), il a mis en avant une notion pouvant expliquer ce déficit et l'a appelé « baisse de la tension psychologique » qui contraint le sujet à fournir au quotidien un effort excessif, ou le sujet est incapable de parvenir à un niveau suffisamment élevé des fonctions du réel pour formuler des pensées efficaces et des actes volontaires capables de transformer le milieu ou plus exactement le vécu.[24], il assigne également un rôle central à la psychasthénie qui équivaut à un manque d'énergie mentale, il s'agit d'un trait de personnalité permanent chez l'obsessionnel, elle correspond fondamentalement à un déficit qui pourrait être inné ou acquis et serait la base commune au obsessions aux phobies et aux états anxieux aigus ou chroniques, elle est donc sous jacente à l'ensemble de la pathologie névrotique, à l'exception de l'hystérie qui dérive des idées fixes subconscientes.[25]

l'adolescent psychasthène peut souffrir d'une psychasthénie sans pour autant que son entourage ne s'en rende compte, mais ce dernier incombe plutôt les symptômes générés par le trouble à la période charnière que le jeune est en phase de traverser et parmi toutes les manifestations cliniques que la famille perçoit parfois comme dérangeantes et parfois d'autre comme inquiétantes, la fatigue parait être le symptôme principale qui alerte ou dérange certainement l'entourage, mais qui pour les spécialistes est significatif d'une souffrance psychologique antérieure, car toute cette symptomatologie porteuse d'un sens clinique, nous renseigne sur un vécu psychique douloureux chez l'adolescent, ayant contraint celui-ci à se confiner à travers un processus d'attachement inadéquat, dans des conduites d'inhibition d'évitement et de restriction, à l'origine de ces conduites des disfonctionnements affectifs vulnérabilisants l'ayant par la suite fragiliser au cours de son développement.

3-La fatigue chez l'adolescent révélatrice de problèmes affectivo- relationnels sous-jacents

Si la fatigue est révélatrice de malaises ou de troubles affectivo- relationnels latents, un signe précurseur en quelque sorte de la qualité des liens établis précédemment entre l'enfant et son entourage, l'adolescence en elle-même est une période de dévoilement de ce qu'a pu intérioriser l'adolescent pendant son enfance, ainsi une sécurité intérieure largement nourrie d'une bonne estime de soi et une confiance en soi suffisantes permettront à l'adolescent de bien gérer la distance entre lui et son environnement, la souplesse avec laquelle va être empreinte cette relation va de surcroit favoriser l'acquisition d'un bon nombre d'aptitudes émotionnelles et sociales sur la base desquelles celui-ci développera son autonomie.

Dés l'apparition de la puberté, l'adolescent se voit imposer non seulement la modification de la distance avec les parents mais aussi une modification en lien avec les transformations physiologiques, une modification brutale rapide du corps de celui-ci, apte à agir sa vie pulsionnelle en particulier la sexualité et l'agressivité, la manifestation de ce changement se fait immédiatement sentir et se répercute invraisemblablement sur la relation avec les parents et le reste de l'entourage, dans ce schéma l'adolescence est supposée être cette période reflétante d'un capital d'expériences précédentes solides et la réussite d'un aménagement psychique stable, car en leur absence l'adolescent va révéler inopinément et le plus souvent brutalement la fragilité et la vulnérabilité du monde interne et l'ampleur des besoins et des attentes à l'égard des objets externes, tout en conflictualisant ces liens.

une sphère ou s'opère un véritable changement relationnel empreint parfois de comportements oppositionnels mal compris et mal gérer par l'entourage ou au contraire, des conduites plutôt internalisées et mal interprétées, pour ainsi dire si l'importance des comportements d'affrontement et même les fréquentes ruptures avec l'entourage sont des agissements caractérisés par un aspect agressif traduisant surtout un intense besoin du rôle défensif chez l'adolescent pour extérioriser ses conflits et font partie intégrante du vécu d'un bon nombre d'adolescents, d'autres par contre auront tendance se confiner dans des conduites de retrait et d'isolement, leurs comportements sont plutôt empreints d'attitudes hésitantes, on les sent plus flotter dans une passivité, leurs peurs d'affronter les autres les rend exposer davantage à des situations gênantes tel que rougir en public en prenant la parole, leur champ de contact se restreint de plus en plus à force qu'ils cèdent à leurs craintes, toutefois ces manifestations peuvent paraitre très normales et transitionnelles pour la période, cependant leurs persistances et leurs évolutions vers des conduites d'inhibition et de malaise sont synonyme d'une fragilité intérieure.

Et même si ces conduites d'inhibition et de restriction des activités du Moi apparaissent souvent dans un premier temps comme rattaché à des traits de caractère propre à l'adolescent, leur brutale accentuation et leur présence affirmée, doivent toujours faire craindre et rechercher une angoisse sous-jacente que de rechercher une explication du comportement mis en avant. Restrictions et inhibitions peuvent également porter sur la vie pulsionnelle et sur la vie imaginaire fantasmatique. Ascétisme et intellectualisme sont considérés comme des modes de défense classiques de l'adolescence. La répression pulsionnelle qui va parfois jusqu'à la perte de tout désir, peut dans un premier temps favoriser la disponibilité intellectuelle mais rapidement les contre-investissements nécessaires pour assurer le maintien de la répression deviennent trop dispendieux d'énergie et épuisent le sujet.[26]

Ce processus, pourtant grave par ses conséquences, est trop bien toléré au début par tout l'entourage pour constituer un motif de consultation, néanmoins, les conduites d'évitement finissent par aboutir à un comportement qui alarme l'entourage: baisse du rendement scolaire, refus scolaire, repli sur soi, refus de sortir et plaintes de fatigue sans aucun effort physique, une fatigue qui peut cacher une symptomatologie lourde de conséquences d'où

l'intérêt de ne pas sous- estimé la fatigue physique chez l'adolescent pouvant être à l'origine une fatigue psychique transformée en asthénie inconsciemment refoulée pendant l'enfance.[27].

4-Fragilité du fonctionnement défensif chez l'adolescent

Il est clair que tout enfant manquant d'affection et de sollicitude lors de ses premières années éprouvera certainement une souffrance, que si elle n'est pas ressentie ni intégrée dés lors dans ses comportements provoquera plus tard une succession de maladies et de névroses. Il nous parait à première vue impossible de mesurer la souffrance conséquente d'une carence affective, pourtant lorsque un enfant a été négligé ou ignoré il s'est indéniablement produit des transformations physiologiques dans ses processus internes et cérébraux que l'on peut parfaitement mesurer, des années plus tard lorsqu'il revivra sa souffrance.

Les découvertes récentes concernant la psychologie, la biologie et la neurologie ont bien évidemment contribué à enrichir nos connaissances, ce qui a amélioré considérablement notre compréhension des êtres humains, de leurs actes conscients et inconscients, nous savons dorénavant que tout individu est affecté par sa propre histoire.[28]

Mijolla(1999), L'explique assez bien en rappelant que tout enfant est obligé de supporter le climat dans lequel il grandit, mais aussi les effets pathogènes restés en séquelles, du passé pathologique de sa mère et de son père, Il est porteur de cette dette contractée à son époque fusionnelle prénatale, puis de dépendance post-natale qui l'a structuré.. Ainsi, l'histoire psychique de l'enfant commence dès l'annonce de la grossesse qui lui donnera naissance tandis que la préhistoire psychique, correspond à tout ce qui s'est passé dans le réel ou dans les fantasmes des parents avant que cette annonce soit faite Lorsque les rôles sont fixés et que la réappropriation subjective est empêchée, les symptômes peuvent apparaître et persister.[29]

Au regard de ces données et de bien d'autres hypothèses cliniques nous pouvons comprendre sur quel mode défensif l'enfant névrosé a pu fonctionner et ce qui pourrait également nous éclairer sur les fixations ayant caractérisées la période de latence précédant l'adolescence, et que tout enfant présentant des symptômes issus de sa petite enfance a certainement développée des mécanismes de défenses inopérants, un refoulement insuffisant et une sublimation qui ne parvient pas à s'instaurer, à la suite de toute cette panoplie de mécanismes succédera une variété de troubles qui s'installeront plus tard au fur et à mesure que l'enfant avancera en âge et ce n'est entre autre qu'un signe significatif d'une intense anxiété sous-jacente s'exprimant à travers des manifestations symptomatiques pouvant s'extérioriser dans le registre de l'agir ou la sphère, somatique ce qui est parfois le cas des troubles de sommeil et éventuellemt les plaintes incessantes de fatigabilité mal comprise.

Toutefois, la non émanation du ressenti psychique douloureux ne doit pas faire conclure à son absence (Arbisio-Lesourd, 1997), car sans présenter réellement une symptomatologie reconnu,l'enfant anxieux de la période de latence semble être « mal à l'aise » et surtout inhibé, sa souffrance risque de passer inaperçue aux yeux de son entourage pourtant quelques fois les parents s'inquiètent et vont en consultation, lorsque elle provient des stades prégénitaux, l'angoisse va s'exprimer ouvertement à travers des symptômes ayant débuté dés la petite enfance,elle va générer dans certain cas des troubles du sommeil et bien d'autres troubles somatiques alors qu'habituellement ils tendent à disparaitre à l'entrée de la période de latence, il reste tout de même que l'anxiété au cours de cette période est manifestement difficile à déceler tant son expression peut passer sous silence,elle peut par ailleurs lors d'un évènement stressant s'exprimer brutalement . En définitive, l'enfant de la période de latence présentant des symptômes sévères et expressifs d'une anxiété permanente, possède l'âge chronologique d'appartenance à cette période mais ne possède pas toutes les caractéristiques psychologiques et psychiques ainsi que les aptitudes émotionnelles requises auxquelles on peut habituellement s'attendre. Ainsi que le rappelle D. W. Winnicott (1965), l'enfant de cette période qui

ne possède pas une bonne santé est un enfant cliniquement très malade, car habituellement toute symptomatologie est justement en « latence. [30]

pour sa part et d'un point de vue psychanalytique, (Dolto 1984), avance que lors de la période de latence, tant la qualité des castrations orales et anales que l'élaboration de la position dépressive sont réactivées, ce qui pourrait expliqué entre autre les difficultés à quitter les parents s'accompagnent parfois de manifestations anxieuses telles que des problèmes d'endormissement, des cauchemars, des tics ou une énurésie transitoire tout au long de cette période.[31]

Thibeault (2002), considère que chez les enfants âgés de la naissance à trois ans, les, ruptures fréquentes dans les relations d'attachement auprès des personnes significatives, représentent un facteur qui augmente le risque de développer des troubles de comportements sérieux.

Corcos, pour sa part admet qu'un disfonctionnement des interrelations précoces et ses conséquences sur le développement de l'enfant et le processus d'identification et de séparation-individuation sont dans la continuité des processus qui se sont joués dans les deux premières années de l'enfant et par la suite de l'adolescent, puisque par défaut de nourriture affective l'enfant a manqué d'espace psychique requis pour la construction et la reconstruction de son moi corporel et psychique.

Gauthier (2000), quand à lui avance que la qualité de la relation, entre un enfant et ses parents au cours des deux ou trois premières années de sa vie jouerait, un grand rôle dans la façon de percevoir le monde et d'interagir avec lui, cet auteur avance, que pour un enfant, les trois premières années de vie sont cruciales pour la formation d'un attachement de qualité et que les troubles de l'attachement risquent de, survenir chez cet enfant lorsque la qualité de la relation avec la personne significative est compromise.[32]

En plus à l'adolescence, les problématiques objectale et narcissique se conflictualisent réciproquement, La dialectique entre le besoin que l'on a de s'appuyer sur les autres, la sexualisation des liens et le besoin de se différencier et de s'affirmer dans son autonomie, peut se présenter sous la forme de ce paradoxe.

Selon Jeammet, la conduite d'opposition est à considérée comme un aménagement de cette situation de dépendance, un moyen de sortir de ce paradoxe. Le sujet continue ainsi de s'appuyer sur ses objets d'attachement, tout en méconnaissant qu'il a besoin d'eux, puisqu'il en est en désaccord.[33]

5-L'insécurité de certains modèles d'attachement à l'origine d'un état psychasthénique

Afin de mieux positionner les troubles d'attachement dans la sphère psychasthénique il nous ai demandé d'abord de mieux saisir l'origine du concept « psychasthénie »,et de le comprendre, le mérite revient à Pierre Janet (1859-1947) d'avoir popularisé ce terme, il s'agit d'après lui d'une affection mentale caractérisée par un affaiblissement du tonus vital (baisse de la tension psychologique) et dont les principaux symptômes sont la dépression physique et morale, un sentiment d'incomplétude et la perte du sens du réel, une tendance marquée aux phénomènes anxieux et aux manies ou aux obsessions.

Par ailleurs il nous semble important de rappeler quelques distinctions entre certaines névroses et la psychasthénie qui sert de socle a ces mêmes névroses, une sorte de première phase aux obsessions et aux phobies qui ne sont qu'une aggravation des manifestations psychasthéniques, propulsant vraisemblablement le sujet vers une deuxième phase dans laquelle celui-ci se sent obligé de manière irrésistible et incontrôlable de penser à certaines choses et d'accomplir certains actes .Janet a nommé cette deuxième étape par « les processus obsédants » et « les agitations forcés » ces dernières peuvent être sous formes de trois types mentales (manies- et rémunations) motrices (tics rituels) émotionnelles (phobies-anxiété), enfin les obsessions et compulsions pour Janet ne sont que le troisième stade des manifestations psychasthéniques, mais aujourd'hui la psychasthénie regroupe les stigmates et les

symptômes qu'on décrit dans la névrose obsessionnelle ou de la névrose phobo-obsessionnelle mais il serait plus juste de dire que la névrose obsessionnelle et bien d'autres névroses et troubles tels que les phobies et les dépressions ne sont autres que le pronostics fâcheux de la psychasthénie … pour rappel historique, on doit à Janet la distinction des phobies en trois groupe, phobie d'objet, phobie de situation et phobie de fonction dont s'est inspiré le DSM III.

Malgré leur apparence d'intégrité intellectuelle, les personne présentant des stigmates psychasthéniques souffrent d'insuffisance psychologiques et physiologiques, ils ont le sentiment angoissant d'incomplétude d'abord dans l'action qui se manifeste par la difficulté à entreprendre une tache et l'incapacité à prendre une décision ayant souvent pour conséquence la perception douloureuse d'être imparfait, le plus souvent mécontent de leur sort ils se confinent dans une révolte intérieure ne faisant qu'accroitre le souffrance, une incomplétude qui peut également s'opérer sur le plan intellectuel, ayant pour premier handicap la difficulté de penser et le sentiment que leurs perceptions sont incomplètes, la conceptions des choses n'est pour eux qu'imaginaire ne pouvant évoluer vers l'action, enfin sur le plan émotionnel, un état incompréhensible caractérisé par un besoin d'excitation toujours renouvelé et toujours plus intense leur est nécessaire pour pouvoir atteindre une quelconque émotion un ressentit d'indifférence leur est imposé générant une incapacité non seulement de jouir mais aussi de souffrir .

Pour ainsi dire la perception personnelle en est aussi affectée par ce sentiment d'incomplétude qui se perçoit comme le point central de l'état psychasthénique revêtant un sentiment d'étrangeté et de dédoublement de personnalité [34], il y'a pour ainsi dire une chute du niveau de la conscience de la vitalité organique et de la tenson nerveuse, il est évident que chez ces sujets il existe bien des insuffisances psychologiques spécifiques aux troubles de la volonté qui traduisent la diminution voire même la disparition totale de celle-ci ou le sujet éprouve des difficulté à mettre en œuvre toute action, ce manque de volonté n'est pas des plus banals,un comportement que l'on retrouve le plus souvent chez les gens ordinaires mais bien plus que cela les sujets psychasthéniques sont abouliques, un symptôme très rencontré dans les milieu clinique, se traduisant par une incapacité à exécuter les actes pourtant planifiés, c'est un symptôme inclus dans différentes pathologies psychiatriques ou neuro-psychiatriques. Perçu comme un sujet dont l'activité mentale est faible, le psychasthénique est aboulique, inhibé, dérouté et fatigué. Il ne peut effectuer que des actes bien réglés de transposition ou de répétition. Sa pensée peut se réduire aux ruminations ou au raisonnement sans fin. Il éprouve en permanence un sentiment d'incomplétude lié à la perception douloureuse et gênante d'être imparfait et en décalage avec la situation présente. Le doute et l'effort excessif à fournir pour prendre des décisions diminuent les capacités du sujet à agir, ainsi que sa confiance en soi,.[35] ce qui nous laisse supposé que la nature de certains patterns d'attachement et leur défaillance et plus particulièrement celles empreintes et caractérisées par des conduites d'inhibition, ainsi que la similitude des symptômes de ces derniers avec ceux de la psychasthénie peuvent constituer un point de départ pour la compréhension de l'installation d'une symptomatologie propre à la psychasthénie qui évolue par poussées avec des périodes de stabilisation ou de rémission parfois longues . (Cassidy & Berlin, 1994) apportent, que les enfants dont l'attachement est instable comparativement aux enfants avec un attachement sécurisant, manifestent une grande dépendance sur le plan relationnel, ce qui affecte la qualité de leur exploration et conséquemment le développement de certaines aptitudes cognitives nécessaires à la conscience émotionnelle. En effet, comme leur attention est focalisée sur la mère, ils sont plus inhibés, que les autres dans leur exploration, leurs exploration de leur environnement est restreinte en définitif ils sont moins engagés.

(Bandura, 1997; Barlow, 2002; Heppner, Witty Dixon, 2004; Weems et al., 2001) ont indiqués par leurs études, que L'inhibition de

l'autonomie et de l'exploration pourrait aussi être impliquée, en l'occurrence des symptômes intériorisés, parce que cela engendre des réponses de peur et des perceptions de soi axées sur la faiblesse et l'incompétence, lesquelles jouent un rôle important dans le développement de troubles anxieux et de l'humeur [36]

Partant d'une hypothèse clinique plausible, l'instabilité de certains trouble d'attachement définie initialement, peuvent constituer un modèle de vulnérabilité psychologique fructueux pour la compréhension de l'évolution de la psychasthénie depuis l'enfance jusqu'à l'adolescence l'observation de ces troubles permettra d'ouvrir une réflexion psychopathologique, qui consolidée et validée par des études standardisés sur le trouble en lui-même permettraient d'attribuer une relation étiopathogénique entre l'origine de l'état psychasthénique et certains modèles d'attachement insécures.

L'intérêt ici et à travers ce constat c'est de ne pas laisser les choses s'installer et s'aggraver mais plutôt de les intercepter au bon moment, en un mot prendre le trouble et son évolution en amont et non pas en aval pour les multiples raisons de complication et d'aggravation pouvant survenir par la suite

6– Discussion et conclusion

L'adolescent psychasthène vit dans son malaise, psychique et physique, mal compris il se débat entre les exigences d'une période ou se rejoue des réactivation des premiers stades infantiles et la nécessité de se maintenir dans un statut d'adulte autonome, en l'absence d'aptitudes relationnelle solides supposées le protéger, il est parfois provocateur, d'autres fois passif ne sachant pas exactement, ou et comment revendiquer son plein droit à l'existence, pour la simple raison qu'il est désarmé face à l'énorme pression générée par le trouble et éventuellement victime de l'incompréhension de son entourage qui vraisemblablement est à l'origine de son malaise, ce processus plutôt dispendieux en énergie pour l'adolescent le rend vulnérable et limite ses stratégies de défense et ses capacités physiques et intellectuelles.

nous avons tenté a travers ce constat d'établir un lien entre les troubles de l'attachement et les symptômes de la psychasthénie, puisque nous avons supposé que certains patterns d'attachement instables pourraient être à l'origine de cette vulnérabilité psychologique, chez l'adolescent psychasthène, il reste tout de même que ce n'est qu'une analyse hypothético-déductive, par laquelle nous avons voulu contribuer à l'enrichissement de la compréhension de la psychopathologie de l'adolescent et à la promotion de sa santé mentale et psychique.

Nous ne cesserons jamais de le répéter, il ne s'agit en aucun cas d'établir un lien causal linéaire mais de présenter ce qui semble plutôt être un facteur de vulnérabilité. A travers la compilation de plusieurs études, démontrant l'évolution symptomatologique de certains troubles psychiatriques en relation avec l'insécurité des troubles d'attachement et que certainement la littérature a démontré à maintes reprises qu'il pourrait exister des liens entre la nature des troubles psychiques de l'adolescent ou de l'adulte et son type d'attachement, nous essaierons de dégagé à travers cette compilation quelle est la catégorie la plus adéquate qui pourrait nous éclairer sur une éventuelle relation entre attachement insécure et psychasthénie ?

Il faut dire aussi que les différentes problématiques psychologiques liées au modèle de l'attachement sont retrouvées dans plusieurs modèles explicatifs comme la théorie psychanalytique, la théorie cognitive et dans les études portant sur les événements de vie. Le modèle de l'attachement peut aussi être considéré plus généralement comme un modèle de personnalité rendant les sujets plus ou moins vulnérables à la pathologie psychique. En effet, à l'instar de la personnalité, l'attachement renvoie à des modalités durables concernant la cognition (la perception et l'image de soi et d'autrui sont issues des modèles internes opérants), l'affectivité (manière spécifique de réguler les émotions et de traiter les expériences

affectives) et les relations interpersonnelles (l'appréhension et l'établissement des relations interpersonnelles à l'âge adulte sont en fonction des relations affectives dans l'enfance auprès des figures parentales.[37]

Ainsi, la théorie de l'attachement suggère que les relations et leurs difficultés peuvent influencer la survenue de troubles psychiatriques de trois façons Les ruptures ou les pertes peuvent être en elles-mêmes une cause de trouble. L'internalisation de ***patterns*** d'attachement précoces pathologiques peut influencer les relations ultérieures de façon à rendre une personne plus exposée et plus vulnérable.

Pour éclairer les liens entre attachement et psychopathologie, Bowlby a comparé le système comportemental d'attachement au système immunitaire. La comparaison se justifie, non seulement parce que ces deux systèmes jouent un rôle dans l'intégrité et la sécurité du sujet. [38]

Pour sa part la théorie de Janet sur la psychasthénie, nous permet de comprendre la clinique des névroses et leurs évolutions, sa conception sur la notion de la tension psychologique a bien évidemment ouvert des pistes sur l'étiologie de ces névroses et plus précisément sur celle de l'obsession compulsive

La baisse de cette tension psychologique expliquerait parfaitement cette affaiblissement psychique que Janet attribue à une prédisposition constitutionnelle, et qui d'après lui**,** les symptômes et les comportements s'opèrent plus précisément dans l'enfance, lors du développement psychique et physique de celui-ci il 'agit d'un déficit plus ou moins net d'une fonction énergétique maintenant les différents niveaux d'activité mentale dans une sorte de hiérarchie qui aboutit aux aspects les plus élevés du fonctionnement neuropsychique, La « fonction du réel », avec pour corollaire la volonté, la capacité de décision, d'action précise et synthétique sur le monde extérieur, semble affaiblie chez le psychasthénique en quelque sorte « une maladie de la volonté ». [39]

Il semblerait donc que l'apparition de ces symptômes est relativement précoce, évolueraient par poussés dés l'enfance, favorisés certainement par divers facteurs parmi le quels nous avons estimé que certains trouble de l'attachement instables n'étaient pas à exclure, cependant cette symptomatologie est également propre à l'adolescent même si celle-ci est passée sous silence depuis l'enfance jusqu'à l'adolescence mais elle refait surface inopinément à l'occasion de situations conflictuelles ou à l'occasion d'une remise de crise identitaire, d'où la nécessité d'une prise en charge précoce de ces manifestations psychasthéniques, pour cette raison et bien d'autres selon toute vraisemblance que Janet a eu le génie d'introduire dans le traitement des psychonévroses de l'adolescent une thérapeutique classique qui reposait sur une patiente invigoration, il s'agissait de remédier au troubles énergétiques, à l'hypotonie, ou à l'asthénie de ces sujets en rééquilibrant leur moyens, en provoquant d'une part « des économies psychologiques » pour éviter les déperditions et les diffusions, et d'autre part des activités attentionnelles de difficulté croissante. C'était en somme une tentative de restaurer dynamiquement les fonctions insuffisantes du « moi », car la psychasthénie, en plus de réunir un grand ensemble de troubles, qui semblent souvent être liés les uns à la crise juvénile, les autres à des aspects névrotiques précoces (phobies ou obsessions),les autres enfin, parfois à une préschizophrénie c'est aussi une évolution psychopathologique très probable,»[40] En somme il propose comme levier thérapeutique central la réinstallation de la fonction du réel par le relèvement de la tension psychologique et la rééducation de l'émotion et de l'attention, les techniques proposées représentent une sorte de rééducation progressive fractionnée et répétée, proche de la thérapie comportementale actuelle.[41] Si la comparaison entre système attachemental et immunitaire se justifie selon Bowlby l'hypothèse d'un relâchement psychologique selon Janet ne peut que consolider et approuvé ce constat, c'est pourquoi il est nécessaire de passer en revue ce que la littérature nous a proposée concernant les différents styles d'attachement instables, pour pouvoir dégager ceux qui nous semble correspondre à notre hypothèse,

Ainsi, le style d'attachement « insécure-détaché » ou « évitant » prédisposerait les adolescents à des troubles, psychiatriques dits ; « externalisés » Ces jeunes ont des stratégies relationnelles visant à minimiser leurs besoins d'attachement ; l'expression des affects est minimale ; le discours est verrouillé, rationalisé. Ils ont très peu accès à leur souffrance psychologique,. Les pathologies pouvant être rencontrées seront plutôt dans le registre des personnalités antisociales, des troubles des conduites alimentaires, des abus de substances, des formes hostiles de dépression et de certains troubles anxieux (ex : symptômes phobiques).[42]

Le style d'attachement « insécure-préoccupé » caractérise des adolescents accaparés psychiquement par leur anxiété, avec un sentiment d'insécurité dans la relation avec leurs figures d'attachement. Ils seraient plus à risque de présenter des troubles dits « internalisés » : pathologies plutôt du registre hystérique, narcissique et anxio-dépressif. Mais les études disponibles actuellement ne vont évidemment pas dans le sens d'un modèle aussi simpliste. L'intérêt que présente la théorie de l'attachement est principalement d'offrir un modèle d'intégration des expériences infantiles précoces dans le développement ultérieur et particulièrement dans l'apparition de la psychopathologie.

D'autres données nous enseignent que les enfants du profil « inhibé » se caractérisent par leur retrait de la relation., à l'allure triste et plutôt amorphes, ils rejettent ce qui vient de l'extérieur. Ils donnent l'impression d'avoir renoncé à la relation et de ce fait, ils peuvent présenter une apparence d'autosuffisance plus importante que les autres types. Le tableau clinique de retrait et de passivité apparaît très tôt et leur vulnérabilité psychique est souvent camouflée par une allure « parentifiée »

Comme la majorité des enfants en troubles sévères d'attachement, les enfants « retirés » démontrent des retards dans une ou plusieurs sphères de leur développement. L'histoire de certains enfants dévoile même, de façon particulière, des retards ou un arrêt de croissance au cours de leur petite enfance. [43]

En définitif si on prend en compte cette catégorie, d'un point de vue étiologique c'est-à-dire les troubles d'attachement avec «inhibition et retrait » celle-ci nous parait la mieux corrélée avec notre hypothèse de départ puisque les mêmes symptômes se retrouvent dans la psychasthénie, évitement, inhibition, ambivalence et bien d'autres symptômes qui se retrouvent dans les patterns d'attachement instables, ce qui nous laisse supposer que probablement l'adolescent psychasthène a pu trainer depuis l'enfance ce type d'attachement instable et a emprunté une trajectoire bien spécifique aux troubles névrotiques et que faute de fonctionnement défensif adéquat, celui- ci s'est élaboré et s'est consolidé dans une structure névrotique, qui par la suite s'est développée et s'est manifestée par des traits d'une personnalité psychasthénique caractérisant l'adolescent par une vulnérabilité psychologique difficilement surmontable et essentiellement prédisposante à d'autres troubles névrotiques plus compliqués tels que les phobies, les obsessions et enfin les dépressions.

Néanmoins si la vulnérabilité psychologique est la conséquence d'un déséquilibre affectif et attachemental,qui a été réellement prouvé à travers un grand nombre d'études peu d'entre elles ont mis en relation d'une manière spécifique l'instabilité de certains patterns d'attachement avec la psychasthénie., ce qui permettrait une évaluation diagnostique plausible et une prise en charge appropriée et qui pourrait nous renseigner sur un éventuel pronostic claire à l'avenir**,** puisque c'est ce qu' affirme Janet,

N'étant pas une pathologie en soit mais semble être un précurseur révélateur dans l'apparition d'un bon nombre de troubles psychologiques, et psychiariques de l'enfance à l'adolescence, l'insécurité du système d'attachement pourrait être un indice potentiel pouvant nous renseigné sur le développement et la nature de ces troubles, tels que la psychasthénie, et bien évidemment contribuer à intercepter et prendre en charge ces troubles au moment opportun.

Références

1. Reynaud,M(2011). Le modèle de l'attachement adulte dans la perturbation de la régulation émotionnelle et des liens affectifs des femmes hospitalisées souffrant de dépression Université de Bourgogne, France, p118,

2. Gagnon,A Les styles d'attachement, le contexte familial et les troubles de comportements sérieux chez les adolescents et adolescentes pris en charge par le centre jeunesse du Saguenay-Lac-Saint-Jean, mémoire, Québéc, Chicoutimi p19.

3. Guedeney,N (2010). L'attachement un lien vital, Edition Fabert, p 5.

4. St-Antoine,M et Rainville,S Les troubles d'attachement en regard de certains profils cliniques et leur pronostic, Montréal,Canada,p1 .

5. Vanda,C (2012). Etude longitudinale du rôle de l'attachement à l'enfance dans le développement de symptômes intériorisés et de déficit de la conscience émotionnelle à l'âge adulte, p7.

6 Foucaut,P Traitement des troubles et des pathologies de l'attachement selon la théorie de l'attachement, compte rendu de formation, P1.

7. Quellet,M(2011).théorie de l'attachement : repères pour l'intervention auprès des familles d'accueil ou adoptantes, mémoire présentée comme exigence partielle de la maitrise en travail social, université Québec,Canada, p11.

8.St-Antoine,M et Rainville,S Les troubles d'attachement en regard de certains profils cliniques et leur pronostic, Montréal,Canada,p1 .

9 Reynaud,M(2011). Le modèle de l'attachement adulte dans la perturbation de la régulation émotionnelle et des liens affectifs des femmes hospitalisées souffrant de dépression Université de Bourgogne, France, p118

10. Quellet,M(2011).théorie de l'attachement : repères pour l'intervention auprès des familles d'accueil ou adoptantes, mémoire présentée comme exigence partielle de la maitrise en travail social, université Québec,Canada, p.26.

11. Vanda,C (2012). Etude longitudinale du rôle de l'attachement à l'enfance dans le développement de symptômes intériorisés et de déficit de la conscience émotionnelle à l'âge adulte, p,55.

12. Savard, N (2010), La théorie de l'attachement, une approche conceptuelle au service de la protection de l'enfance, ONED

13. Guedeney,N (2010). L'attachement un lien vital, Edition Fabert, p, 8.

14. Guérin,J et Lamarche,J Favoriser la relation d'attachement chez les enfants et les adolescents .p23.

15.. Gagnon,A Les styles d'attachement, le contexte familial et les troubles de comportements sérieux chez les adolescents et adolescentes pris en charge par le centre jeunesse du Saguenay-Lac-Saint-Jean, mémoire, Québéc, Chicoutimi. P20.

16.Ibid , P27

17. Ibid, p41.

18. Guedeney,N (2010). L'attachement un lien vital, Edition Fabert, p 13.

19. Vanda,C (2012). Etude longitudinale du rôle de l'attachement à l'enfance dans le développement de symptômes intériorisés et de déficit de la conscience émotionnelle à l'âge adulte, p7.

20.. Hallet,F et Beaufort,M (Mars 2003). L'enfant souffrant de troubles de l'attachement, Pétales asbl, Belgique,.p5

21..Ordre des psychologues du Québec(2005),.mémoire sur le projet de loi 125, p3

22. Quellet,M(2011).théorie de l'attachement : repères pour l'intervention auprès des familles d'accueil ou adoptantes, mémoire présentée comme exigence partielle de la maitrise en travail social, université Québec,Canada, p.26.

23. Goffinet,S (2003). Effondrement – Suicide adolescent, Le Bulletin Freudienne n°41-42, p 3,4.

24.Gagnon,A Les styles d'attachement, le contexte familial et les troubles de comportements sérieux chez les adolescents et adolescentes pris en charge par le centre jeunesse du Saguenay-Lac-Saint-Jean, mémoire, Québéc, Chicoutimi. p40.

25. Thomas,P 16.10. Personnalité obsessionnelle compulsive, Chapitre 16. Troubles de la personnalité, p 431,Edib

26.. Cottraux,J(1998).Les ennemis intérieurs, obsessions et compulsions, Edition,Odile Jacob,p23 .

27. Romano,M-C, Bravard,C(2006). La souffrance psychique de l'enfant et de l'adolescent, Paris, France, p35,Edib

28. Janov.A(1996), Le corps se souvient, Edition du Rocher, pour la traduction française (1997), P 14.

29.Hazotte,E(2007)la transmission intergénérationnelle des angoisses et des troubles du sommeil associés chez l'enfant en période de latence, Université Nancy II, P 28.

30.Ibid , p75.

31. Demogeot,N (2009).Echec scolaire et problématique d'attachement, thèse de Doctorat, approche clinique comparative, Université Nancy2, France . p74 .

32. Ibid, p83.

33. Gallien,E(2006). le lien d'attachement et son évolution : concepts et incidences psychopathologiques, Université D'Angers, p, 83.

34. Janet,P. Les obsessions et la psychasthénie Tome I. Analyse des symptômes p 9,10

35.Pionnié,N . Atger,F . Attachement et psychopathologie,France. p129,130

36.Les différents type de personnalité In ,https://www.ifsi.paca.free.fr/document/view/.../fiches-dsm-iv-personnalités-pathologiques,p 8.

37.Ibid,p9.

38. Male.P (1980), psychothérapies de l'adolescent, bibliothèque Payot, p122.

39. Cottraux,J(1998).Les ennemis intérieurs, obsessions et compulsions, Edition,Odile Jacob,p,26.

40. Moss,E et al (2007). Les rôles de l'attachement et des processus individuels et familiaux dans la prédiction de la performance scolaire au secondaire, Rapport final de recherche, Québec.

41. Boukerrou, A (2009-2010), Emergence du fonctionnement de résilience chez l'enfant abandonné, mémoire université de Constantine.

42. Paquette,F (2004). A chaque enfant son projet de vie permanent, Programme d'intervention, Institut universitaire, Montréal

43. Combaluzier,S Introduction à la psychopathologie de l'adulte, Université de Rouen, France.

.

Approches des expressions figées en linguistique contrastive Locutions, collocations, expressions figées, proverbiales ou idiomatiques : définitions et commentaires

Messaouda Mekhilef *

الملخص

نهدف من هذا المجال مقاربة هذا الكائن اللغوي العبارات المجمدة حيث الدارس اكان طالبا بقسم اللغة الفرنسية او حتى فضوليا يجد صعوبات جمة لادراك المعنى وبما ان هذا الدارس الجزائري لهذه العبارات باللغة الفرنسية يلجا تلقائيا لترجمتها او على الاقل للبحث لها عن مرادف في اللغة العربية يمكننا ان نقول انها خطوة صحيحة يجب اعتمادها علنيا في مقاربة مثل هذه الحالات اللغوية

تتمثل مقاربتنا هذه في ايجاد وتبيين الفروقات الاساسية بين التسميات المعتمدة لتوضيح المفاهيم تليها دراسة وصفية بنيوية لهذه العبارات بمختلف تسميتها ونخص بالدراسة في هذه المداخلة أربع اشكال التجميد وهم كالتالي

-عبارات مجمدة و عبارات مزدوجة -العبارات المثلية - العبارات الشفهية و الامثال - العبارات المجمدة التعبيرية

الكلمات المفاتيح: تعليمية ، نداخل الثقافات ، عبارات مجمدة ، لسلنيان مقارنة

Resume

Nous envisageons, dans une perspective de linguistique contrastive, d'approcher cette réalité linguistique, que sont ce qu'on appelle communément les expressions figées. En effet, autant l'étudiant en langue française que n'importe quel lecture francophone (non français) éprouvent devant ce fait langagier, très récurrent dans les échanges verbaux, de sérieuses difficultés à accéder au sens y inscrit. De même, ils arriveraient très difficilement à se départir de la tendance à trouver à ce type d'expression un équivalent en langue maternelle ou nationale. Prévisible, cette tendance est aussi admissible et, ajoutons nous, bien indiqué pour bien s'imprégner de l'expresion figée et approcher le plus possible de son sens, la traduction parfaite étant une vue de l'esprit.

Aussi, pour plus d'efficience de cette approche, nous procédons, dans un premier temps, à la discrimination de ce que recouvrent les appellations *locutions, collocations, expressions figées ou idiomatiques* de façon à faire ressortir ce qui les caractérisent, les uns par rapport aux autres, c'est-à-dire leurs différences. C'est donc un travail analytique et descriptif qui nous permettra de définir les notions et concepts opératoires dans l'étude de ce fait langagier. Nous nous arrêterons particulièrement à quatre distinctions fondamentales, qui sont respectivement : a) *expressions figées* et *collocations* ; b) *expressions* et/ou *locutions* ; c) *locutions verbales* et *proverbes* et enfin d) *expressions figées, idiomatiques* ou *phraséologiques*.

Mots Clés : Linguistique Contrastive, Expressions Figées, Enseignements, Interculturalité

Summary

Our study envisages, through a contrastive linguistic perspective, to shed light on the linguistic reality of what we call the set phrases. In fact, a student of the French language or any other language (not French) faces serious difficulties that are mostly recurrent in verbal exchanges and in the identification of the meaning insinuated. Indeed, they even find difficulties in finding appropriate equivalent for such expressions in their national or mother tongue .The expected tendency in all this is to come to a compromise for the exact meaning of the set phrase. Firstly and for an efficiency in such an approach ,we thought to sort out the difference in characteristics between the concepts locutions, collocations, idiomatic or set phrases .Hence ,our work will be analytical and descriptive that help us define these operational notions in the study of this language fact. In sum, our distinctions are classified into four fundamental distinctions-a) set phrases and *collocations* ; b) *expressions or/ locutions* ; c) verbal *locutions and proverbs* lastly d) set phrases, *idiomatic or phraseo logic.*

Key words: Contrastive Linguistics, Set Phrases, Teaching, Interculturality

* Maître assistant - classe "A" Université Sétif 2 M-L. DEBAGHINE

Introduction

Nous envisageons, dans une perspective de linguistique contrastive, d'approcher cette réalité linguistique, que sont ce qu'on appelle communément les expressions figées. En effet, autant l'étudiant en langue française que n'importe quel lecture francophone (non français) éprouvent devant ce fait langagier, très récurrent dans les échanges verbaux, de sérieuses difficultés à accéder au sens y inscrit, ainsi qu'à se départir de la tendance à lui trouver un équivalent en langue maternelle ou nationale. Cela est prévisible et, ajoutons nous, bien indiqué pour bien s'imprégner de l'expresion figée et se rapprocher le plus possible de son sens, la traduction parfaite étant une vue de l'esprit.

Aussi, nous procédons, dans un premier temps, à la discrimination de ce que recouvrent les appellations *locutions, collocations, expressions figées ou idiomatiques* de façon à faire ressortir ce qui les caractériseraient, les uns par rapport aux autres, c'est-à-dire leurs différences. C'est donc un travail analytique et descriptif qui nous permettra de définir les notions et concepts.

Nous nous arrêterons particulièrement sur les distinctions fondamentales, respectivement : d'*expressions figées* et de *collocations* ; d'*expressions* et/ou de *locutions* ; de *locutions verbales* et de *proverbes* et enfin d'*expressions figées, idiomatiques* ou *phraséologiques.*

1. Différences locutions, collocations, expressions figées ou idiomatiques

1.1. Les collocations

Avant d'entamer une analyse syntaxique et formelle de ces *expressions figées*, nous tenterons d'abord de préciser ce qu'on entend au juste par la forme lexicale ''*collocation*'' et d'en présenter quelques typologies dont la ''*locution*'', la ''*collocation'',* la *''phraséologie'' etc.*

En linguistique, une collocation est une cooccurrence privilégiée, un rapprochement de termes qui, sans être fixe, n'est pas fortuit, comme : '' *voix suave, tirer profit, calme olympien, entraîner des conséquences*''. On parle aussi d'expression ou de locution figée. La collocation intéresse les linguistes car elle manifeste une relation potentielle entre les mots d'une langue, indépendante du locuteur. E. Lipchitz (1981), par exemple dira L. Langlois (1996)[1], « *utilise tour à tour phraséologies et phraséologismes pour parler de groupements qui ne sont pas créés au fur et à mesure des besoins, mais qui sont reproduits intégralement par l'usager, car ils sont formés d'avance.* »

La désignation ''*collocation*'' est d'origine anglaise. Lucie Langlois, (*Bitexte, bi-concordance et collocation*, 1996) rappelle que le terme *collocation* a été proposé par J.R. Firth (1951) et que, comme sur beaucoup de termes/concepts méthodologiques en linguistique et en lexicographie, les spécialistes divergent autant sur sa définition que sur ce qu'il est censé désigner.

Contrairement aux Anglais qui ont adopté et l'idée et le vocable proposés par Firth, les linguistes français ont utilisé, chacun en ce qui le concerne, une terminologie spéciale, recourant à des termes plus au moins synonymes tels que *cooccurrences ;* phraséologie puis *phraséologismes* (E. Lipchitz) ; *unités idiomatiques* (Maurice Pergnier, 1980) ; *combinaisons libres.*

Maurice Pergnier, par exemple, refuse d'adopter la désignation '' *unités structurales*'', lui préférant ''*unités idiomatiques* '', rejetant les réalisations du type « on *ouvre* un procès, l'orage *éclate*, des pourparlers sont *entamés* et on *entonne* une chanson » dans le registre oral et leur déniant toute approche syntaxique.

Il a fallu attendre 1974 pour voir Georges Mounin inclure le terme *collocation* dans son dictionnaire tout en prenant la précaution d'avertir sur le fait que *collocation* est « *surtout employé par les linguistes anglais* ». Depuis, son usage s'est propagé dans les travaux des linguistes francophones et son emploi s'est maintenant banalisé.

La définition du fait linguistique désigné par le terme de collocation, enfin convenue et adoptée par les linguistes et lexicographes français, n'a pas été aisée à établir. D'abord, celle de Firth -le premier

à avoir usé de cette désignation- pêchait par son imprécision, voire son approximation. En effet, elle ne correspondait pas à la définition actuelle du terme ; ce n'est qu'en s'y inspirant que les linguistes contemporains définissent maintenant la *collocation* en termes de

Combinaison phraséologique de deux ou plusieurs mots dans laquelle les mots composants, quoique soumis à une contrainte lexicale, gardent encore leur autonomie de sens (S.Q. Liang) [2]

Lucie Langlois (1996)[3] qualifie ce phénomène de langue -que les locuteurs récupèrent tout naturellement de leur mémoire en bloc- de « *combinaisons qui sont constitués de mots qui s'attirent l'un l'autre* ».

Divers paramètres entrent en jeu dans la caractérisation des collocations et leur distinction. Des chercheurs, à l'instar de D.J. Allerton (1984), utilisent des critères multiples.

Allerton, que cite L. Langlois, utilise le mot '' *cooccurrences*'' et classe ce fait de langue « *par niveau de restrictions : syntaxiques, sémantiques et locutionnelles* » selon que ces collocations dépendaient « *exclusivement* [de] *combinaisons tributaires de la syntaxe* », que « *l'acceptabilité de certaines combinaisons* [soit] *régie au niveau de la sémantique* » ou qu'elles soient « *arbitraires et imposées par la langue* » à l'instar des '' *locutions toutes faites* '' de Ferdinand de Saussure (1964).

Ecartant la catégorie des collocations fondée sur le critère de restriction syntaxique, Lucie Langlois (1996)[4] note que « *c'est surtout les deux dernières catégories, qui sont régies par des restrictions sémantiques et locutionnelles, qu'on nomme généralement collocation* ».

D'autres linguistes proposent d'autres typologies allant de celles très restreintes à celles dites ouvertes. Cette dernière catégorie, selon Cowie, (1994)[5] « *inclut des combinaisons de mots qui, sur le plan de la sémantique, sont tellement généraux qu'ils peuvent être combinés de façon quasi-illimitée* ».

Les *collocations restreintes*, par contre, donnent à voir (et partant à étudier) des combinaisons de mots « *beaucoup plus intéressantes sur le plan de la lexicographie* » puisque le sens du premier mot (ou mot noyau) détermine le choix de l'autre ou des autres mots qui entreront dans la composition de la collocation.

Pour sa part, Benson (1986), établit un classement pratique des collocations les répartissant en deux grandes catégories qu'il appelle *collocations grammaticales* et *collocations lexicales*.

Les collocations grammaticales, appelées aussi constructions(Haussmann (1990), se présentent le plus souvent sous forme d'un verbe/ noyau environné par d'autres éléments le soutenant ou, selon Benson (1986)[6], « *d'un mot dominant suivi d'une unité subordonnée (souvent une préposition ou une structure grammaticale, comme un infinitif ou une proposition)* ».

Nous retiendrons les exemples suivants dont nous soulignons le mot dominant :

- *s'abstenir / de*
- *sentiment / envers*
- *absent / de*

Les collocations lexicales, elles, sont généralement formées de deux composantes lexicales d'importance plus ou moins égale. « *Typiquement*, établira Lucie Langlois, *les collocations lexicales sont formées de noms (Nom C.), d'adjectifs (Adj. Q), de verbes (Verbe) et d'adverbes (Adv.)* », à l'image des exemples suivants où nous marquerons pareillement les deux entités d'égales valeurs :

- *l'orage / éclate*
- *un célibataire / endurci*
- *interjeter / appel*

1-2- Distinction expressions figées / collocations

Consécutivement au flou qui baigne encore et toujours la notion de collocation, relativement aux problèmes inhérents tant à sa définition qu'à sa désignation, son repérage dans les énoncés oraux et écrits reste assez difficile.

« C'est qu'elles se situent dans une zone floue, ce que Thierry Fontenelle (1994) appelle l'espace fusionnel entre la combinaison libre, le

composé et l'expression figée, dont les frontières sont loin d'être étanches. »)[7]

Pour distinguer *expression figée* (notre objet d'étude) de *collocation*, nous emprunterons les critères établis par Liang (1991)[8] même si ce dernier, en comparant ces deux désignations et ce qu'elles recouvrent, a pour objectif d'étudier la *collocation*.

« *Selon Liang, la collocation se démarque de l'expression figée sur trois plans :*

- *l'autonomie des composants,*
- *leur inaltérabilité sémantique*
- *et la substitution possible du collocatif.* »

Même s'ils ne font pas preuve d'autonomie au même degré, les composants d'une collocation sont autonomes et gardent leurs fonctions grammaticales, d'après Liang ; à l'inverse, ils sont solidaires dans une expression figée et fonctionnent comme un monème lexical. Ainsi, *expressions figées* et *collocations* réagissent-elles différemment aux manipulations syntaxiques et à la contamination par d'autres lexèmes qui viendraient s'y insérer. En effet, tandis que les *collocations* les tolèrent, les *expressions figées* s'y préservent sous peine d'altération, de dénaturation, rejetant ainsi le caractère d'autonomie des composants.

Par inaltérabilité sémantique, Liang confirme la compositionnalité du sens d'une collocation, et partant de ses composants : « *ils conservent leur sens, propre ou figuré, tandis qu'une expression figée adopte globalement un sens figuré ou métaphorique*. »

En plus donc de la contrainte lexicale, l'expression figée se trouve caractérisée par le non composionnalité de son sens. Si la collocation présente une certaine transparence caractéristique sinon définitoire de sa nature, à l'inverse l'expression figée met en avant l'opacité sémantique comme trait définitoire.

Quant au critère de substitution possible du collocatif sans changement de sens de la collocation, les expressions figées se démarquent des collocations par le fait qu'il est exclu de substituer un mot ou un groupe de mots par un autre sans attenter à l'intégrité / solidarité des composants formant un tout, et partant, sans en altérer le sens.

Il est cependant admis que dans les pratiques diversifiées d'une même langue (AA et FF pour ce qui nous concerne) dans de rares expressions figées, un mot soit substitué à un autre avec le même effet et la même opacité de sens.

Ex. - *ne demander / ne chercher / ne rêver que plaies et bosses* (Liang 1991).

S'il est avéré qu'il soit déjà assez difficile de faire la distinction entre une expression figée et une collocation, il est autrement plus onéreux de la distinguer des différentes autres désignations utilisées par les grammairiens, lexicologues et linguistes, tant leurs formes peuvent se ressembler, voire se confondre.

2. Les locutions

2. 1. Définitions

Pour le Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage (1994), l'entrée en question est suivie de cette définition : *« La locution est un groupe de mots (nominal, verbal, adjectival) dont la syntaxe particulière donne à ces groupes le caractère d'expression figée et qui correspondent à des mots uniques.* »

Ainsi, ''*faire grâce''* est une locution verbale (ou verbe composé) correspondant à gracier, […] ; ''*mise en jeu''* est une locution nominale (ou nom composé).

Selon Alain REY (1977)[9], « la locution est une unité fonctionnelle plus longue que le mot graphique et appartenant au code de la langue (devant être prise) en tant que forme stable et soumise aux règles syntaxiques […]. L'expression est cette même réalité considérée comme ''*une manière d'exprimer quelque chose''* ; elle implique une rhétorique et une stylistique. Etymologiquement, le mot ''*locution*'' signifie '' *manière de dire* '' ; la tradition grammaticale attribue l'appellation de ''*locution*'' à des séquences inférieures au niveau de la phrase. En effet, les phrases entièrement figées sont généralement appelées ''expressions idiomatiques'' ». (p.28)

2. 2. Expressions et/ou locutions

Le nom composé est le seul type de séquence figée à bénéficier d'un terme spécifique tandis que les différents autres types de séquences figées sont traditionnellement regroupés sous le terme générique de locution. Exemple : Elle a une peau (de bébé).

Ici, le modifieur, c'est-à-dire le syntagme prépositionnel, est figé.

La locution est définie sommairement comme tout groupe dont les éléments ne sont pas actualisés individuellement ; c'est une catégorie lexicale que les grammairiens du français subdivisent en onze (11) sous-catégories. Il s'agit de :

Locutions adjectivales ; locutions adverbiales ; locutions conjonctives ; locutions interjectives ; locutions latines ; locutions nominales ; locutions-phrases ; locutions prépositives ; locutions pronominales, locutions proverbiales.

Après maintes recherches et moult réflexions, des lexicographes ne peuvent s'empêcher de s'interroger si la distinction entre "*expression*" et "*locution*" est pertinente. En effet, les nombreuses recherches académiques qu'ils ont effectuées pour déterminer les critères de discrimination entre ces deux concepts sont restées vaines.

S. Mejri[10] en conclut que « *les seules définitions existantes sont vagues, subjectives et non opératoires.* »

Il s'interroge et répond provisoirement :

"Qu'appelle-t-on ici une locution, une expression ? La locution est une unité fonctionnelle plus longue que le mot graphique, appartenant au code de la langue en tant que forme stable et soumise aux règles syntaxiques de manière à assumer la fonction d'intégrant. On pourrait dire la même chose d'expression, mais une distinction réapparaît pour peu qu'on mette l'accent sur la genèse des deux termes. »

2. 3. Locutions verbales et proverbes

Même si notre propos concerne les expressions et les phrases figées, plus dans leur généralité que dans leur exhaustivité, il nous semble intéressant de relever dans notre corpus quelques exemples illustrant certaines différences de traitement qui risquent de s'avérer nécessaires à l'intelligence des locutions verbales principalement.

Certaines expressions verbales sont assimilées à tort à des proverbes par beaucoup de lexicographes. Ainsi le TLF (1975) confond à tort l'expression verbale figée ''*manger son blé en herbe*'' à un proverbe ou à une locution proverbiale.

C'est le cas aussi, par exemple, pour ''*mettre la charrue avant les bœufs* '', '' *manger son blé en herbe* '' [Yessélèf'aâlalakhdarouala l'yabès'] ou [Yakoul' aâychouhami].

En effet, c'est que *'' Manger son blé en herbe signifie '' d*épenser par avance un revenu attendu ; par extension : *jouir* par anticipation d'un plaisir attendu'', ou '' se précipiter, ne pas faire les choses dans l'ordre''.

3. Expressions figées, idiomatiques, phraséologiques

3. 1. Définitions

Par sa récurrence à travers les échanges verbaux dans les langues naturelles et surtout de par ses très différentes manifestations, le figement souffrirait d'un très important problème de catégorisation qui gagnerait à être repensé pour une plus grande clarté de la notion. Les recherches réalisées jusque-là sur le phénomène ont montré que les dénominations telles « *expression verbale* », «*expression figurée* », « *locution* », «*expression proverbiale* » ou «*proverbe* » étaient employées indifféremment pour dénommer des types différents de figement aux propriétés bien distinctes.

L'expression figée relève de la phraséologie entendue dans le sens où la phrase est définie comme *'' l'expression d'un sens complet'', vérifiant autonomie et complétudes sémantiques.* Il y va de même pour la notion d'*expression figée*.

Salah MEJRI (1999)[11] se demandait à juste titre pourquoi les expressions idiomatiques « *qui sont enracinées dans notre quotidien (et) font partie du langage familier, informel*, […] *sont-elles perçues comme un problème mineur dans l'enseignement/apprentissage d'une langue ?* ».

La question de Mejri mérite d'être adoptée. Nous ne pouvons que lui *''tirer chapeau''* et témoigner de notre reconnaissance à ce militant de l'enseignement intelligent du français au Maghreb qui n'a cessé d'alerter et de sensibiliser pour faire vite et bien dans cette entreprise. Ses préoccupations de didacticien et de lexicographe l'induisent à poser cette autre question :

« *Pourquoi beaucoup de ces expressions ne font-elles pas partie de nos dictionnaires ?* »

Jusqu'à la théorie générative-transformationnelle de Chomsky, la syntaxe régnait souveraine dans l'enseignement au détriment de la sémantique et de la pragmatique. Par conséquent, les idiotismes en ont automatiquement été exclus, puisqu'ils appartiennent, *a priori*, à la parole et ne peuvent pas se passer de ces deux dernières études.

Cependant, quelques linguistes pionniers s'en sont occupés, surtout quand les recherches purement syntaxiques ont commencé à perdre du terrain.

En précurseur, Harris (1954)[12] ne traite pas les expressions idiomatiques comme un problème marginal du point de vue de la structure de la phrase. Dans sa théorie distributionnelle et transformationnelle, il les caractérise comme des opérateurs et des réductions.

Plus récemment, M. Gross (1990)[13], dont il serait bon de ressortir les recherches en la matière, et en particulier celles de 1982 où il affirme, dans la lignée de Harris, que les expressions figées ne sont exceptionnelles ni par leur syntaxe, ni par rapport au lexique, a consacré au moins une décennie d'études aux expressions figées.

Les appellations de ces expressions idiomatiques sont sinon arbitraires du moins subjectives ; en effet, les créations nouvelles et individuelles d'idiotismes sont, d'après Lopez (1987)[14] :

« Un saut de l'imagination créatrice associant deux idées ou univers du discours jamais associés auparavant et les réunissant dans une nouvelle synthèse, qui exprime la révélation cognitive et émotionnelle. »

Rwet (1983)[15] et Gross (1988)[16] pensent qu'elles doivent être apprises une à une, par cœur, puisqu'elles sont acceptées par la communauté linguistique une fois que leur structure, leur sens et leur emploi sont conventionnellement déterminés.

On emploie, donc, une expression idiomatique, pour exprimer le contenu informationnel souhaité, d'une manière plus ou moins abrégée, en prenant en compte principalement deux facteurs :

- l'appropriation au niveau de langue, et
- la question de la compétence linguistique,

qui vient répondre à la créativité du locuteur.

De plus, les idiotismes peuvent inspirer des énoncés originaux par l'intermédiaire de la littéralisation, c'est-à-dire du passage de leur sens non compositionnel au sens littéral ou compositionnel qui surprend avec une nouvelle information, parce qu'il contredit la convention et provoque une certaine étrangeté.

Mais, outre cette étrangeté, le message exprimé par un idiotisme présuppose un rapide et correct décodage de la part du récepteur, en atteignant, ainsi, l'efficacité communicationnelle souhaitée. C'est là l'une des fonctions productives des idiotismes à laquelle les publicitaires ou les rédacteurs de magazines et journaux font souvent appel, surtout dans les manchettes.

De façon générale, le terme de figement permet de rendre compte, à la fois, de phénomènes de nature très diverse, mais qui ne sont pas indépendants les uns des autres. C'est une propriété des langues naturelles dont l'importance a été méconnue depuis longtemps. Ce fait linguistique a été obscurci par des dénominations et des épithètes floues et très hétérogènes qui, au lieu de clarifier les facettes du phénomène, entretiennent et alimentent des confusions et des malentendus.

En 1985, Maurice Gross a démontré que d'un point de vue statistique, '' *ces épithètes*'' - charriées par le sentiment d'irrégularité et d'exception de la présence des expressions figées dans le langage- n'avaient pas lieu d'être. Il arrive à nous amener à nous interroger sur le fait qu'on ait pu admettre et

constater que le figement est une exception dans la langue.

On comprendra aisément l'insistance de Weinrich (1969)[17] sur la nécessité d'accorder ''*une grande importance aux expressions figées''*. Il conclut à l'évidence que :

« Ce qui avait longtemps été considéré comme un phénomène marginal, comme une série d'exceptions, se révèle être en fait caractéristique des langues humaines naturelles».

Mieux que de s'avérer être caractéristique de toutes les langues en usage –voire de celles qui ont cessé de l'être-, le phénomène du figement, constatera André Martinet (Dictionnaire de Linguistique, G. Mounin), '' *joue un rôle considérable dans l'évolution de la linguistique*''.[18]

En effet, pour rester dans les statistiques, Maurice Gross recensera, relativement seulement aux constructions verbales, près de 1800 locutions ne mettant pas en jeu un emploi spécifique du verbe, installant ainsi une opacité sémantique définitoire de ce figement syntaxique.

3. 2. Commentaires

Il serait peut être utile, pour '' *faire le tour*'' *de* la notion (en succombant à des locutions verbales figées laconiques), de '' *passer en revue*'' un certain nombre de définitions de différents dictionnaires qui souligneront, chacun selon leurs spécialités et aussi selon leurs rédacteurs, des aspects complémentaires de la notion, constitutifs de sa définition la plus large.

D'abord, l'origine de ce fait linguistique dit '' figement '', sans être un sujet '' *lieu commun* '', a commencé à susciter de l'intérêt et à faire l'objet de recherches universitaires (P. Guiraud, 1980, R. Martin, 1996) ainsi que de nombreuses publications pour le grand public (Reyet Chanteau, 1979, Cl. Dumeton, 1990). On ne manquera pas de constater, à la suite de Gaston Gross, que cette prise en charge académique du phénomène est relativement récente.

Les lexicologues conviennent que le figement pouvait avoir une origine ''externe'' et faire référence à des événements historiques, mythologiques, religieux ou constituer des réminiscences littéraires. C'est ce à quoi aurait abouti D. Gaatone (1904)[19] qui '' *a mis l'accent sur le fait que le figement représente l'insertion d'une langue dans l'histoire*''.

Le figement peut, d'autre part, relever de l'histoire linguistique interne, ce par quoi il nous intéresse le plus ici.

Le Dictionnaire de Linguistique et des Sciences du Langage (1994) énonce que

« *… le figement est le processus par lequel un groupe de mots dont les éléments sont libres devient une expression dont les éléments sont indissociables. Le figement se caractérise par la perte du sens propre des éléments constituant le groupe de mots, qui apparaît alors comme une nouvelle unité lexicale, autonome et à sens complet, indépendamment de ses composants.* »

De son côté le Dictionnaire de Linguistique Larousse, 1973), définit le figement comme « *un processus linguistique qui, d'un syntagme dont les éléments sont libres, fait un syntagme dont les éléments ne peuvent être dissociés. Ainsi, les mots composés (compte rendu, pomme de terre, etc.) sont des syntagmes figés* ».[20]

On notera que ces exemples mettent en avant beaucoup plus sur les syntagmes nominaux, du moins selon les illustrations proposées, et que d'autres entités pouvant subir les effets du figement n'y sont pas mentionnées (à l'exemple d'une phrase entière).

Le LEXIS élargit un peu plus l'espace du figement en incluant et les entités simples, comme le mot, et les structures plus élaborées (constructions). On y lit à l'entrée Figé ce qui suit : « *se dit d'un mot, d'une construction qui cessent de subir dans la langue une évolution*».[21]

Pour Le Petit Robert DLF, qui ne s'attarde pas sur la différence entre expression et locution, c'est l'aspect syntaxique bloqué qui est souligné et sur lequel il est expressément insisté compte tenu de la mauvaise analyse qui en est généralement faite : « *Expression, locution figée ; dont on ne peut pas changer les termes et qu'on analyse généralement mal* ».[22]

C'est, en substance ce à quoi se réfère J.C. ANSCOMBRE (1990) lorsqu'il définit le figement comme étant un processus au terme duquel le locuteur n'est plus capable de déterminer le sens d'une séquence à partir de celui de ses constituants. Sa compréhension requiert sa saisie globale à l'instar d'un monème lexical.

Plus généralement, on lira dans *Dictionnaire* de la Linguistique de Georges Mounin, que lorsqu'un syntagme a la fréquence et la spécificité d'un monème unique, il tend à être traité comme un monème unique : ses composants étant considérés comme indissociables. Les syntagmes tels '' *un bon à rien* '', ''*un va nus pieds*'', ''*battre le pavé*'', ''*courir deux lièvres*'' sont dits figés. Ce phénomène est caractérisé par une perte de la conscience du sens propre du monème lorsque celui-ci se trouve fréquemment associé avec la même signification dans différents syntagmes.

Dans la même perspective, George Misri[23] définit comme suit la notion :

« Tout groupe de monèmes qui présente un blocage total ou quasi-total des axes paradigmatiques et syntagmatiques, c'est-à-dire une impossibilité ou une réduction importante des possibilités de commutation et /ou d'expression partielle ».

O. Ducrot, dans Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage (1994)[24], définit le phénomène comme suit :

« Figement : le figement est le processus par lequel est désigné un groupe de mots dont les éléments sont indissociables... Le figement se caractérise par la perte du sens propre des éléments constituants le groupe de mots, qui apparaît alors comme une nouvelle unité lexicale, autonome et à sens complet, indépendamment de ses composants »

C'est là, assurément, une définition qui nous parait, en complémentarité avec celle de M. Gross, assez exhaustive du phénomène, et que nous adopterons en nous y référant dans le développement de ce projet.

Cependant, décrivant le phénomène du figement lexical et/ou syntaxique, Maurice Gross (1985) parle de « *phrases figées* ». En effet, la phrase comme séquence minimale constitue dans ses travaux, qui s'inscrivent dans *la théorie du lexique grammaire*, l'unité sémantique de base (les mots ou les morphèmes ne sont donc pas pour lui les unités minimales), se démarquant ainsi de certains linguistes, voire de certains lexicographes comme de leurs dictionnaires.

Aussi sous sa plume, il n'est donc jamais question de « *locution* » pour désigner les séquences figées tout comme il n'est jamais question de « syntagme » pour se référer aux séquences libres, diront ses spécialistes, dont H-A. Ibrahim.

Pour désigner ''*ce phénomène que constituent les expressions figées*'', Maurice Gross a recensé dans la terminologie y afférente, des dénominations usuelles et communes dans certains cas (*locutions, expressions figées, noms composés*….), et des dénominations spécifiques dans d'autres cas (*synapsie, synthèse*….). Différents auteurs sont à l'origine de ces diverses dénominations.

Le fait linguistique du figement aurait été, aux dires de ceux qui se sont penchés sur le cas, obscurci justement, et dans une large proportion, par la profusion des différentes dénominations qu'eux-mêmes lui ont attribuées, et qui, en plus d'être hétérogènes de par leurs différents angles d'approches, restent à l'arrivée très floues.

Comme on le voit clairement, le phénomène appelé figement – dont ce n'est pas notre objectif d'en cristalliser la définition – ''*croule*'' sous une pléthore de dénominations qui le charge en obscurcissant sa substance. Salah Mejri[25], '' *Figement et dénomination*'' (*Université de Tunis I*), qui en réfère, pour une liste de dénomination plus détaillée, à Kocourek (1982) n'en dit pas moins :

« Le figement, qui commence à peine à faire partie des préoccupations majeures des linguistes, n'a pas pour autant bénéficié jusque-là d'une définition relativement reconnue par tout le monde. Il demeure une notion obscure rappelant d'autres termes qui couvrent plus ou moins le même contenu comme lexies complexes, phraséologies, syntagmes lexicalisés, expressions idiomatiques, locutions, etc. »

A travers les nombreuses manifestations sous lesquelles il se présente, la terminologie qui, indifféremment, évoque à son sujet, pour dénommer des types de figements aux propriétés bien distinctes : « *expression verbale* », «*expression figurée* », « *locution* », «*expression proverbiale*» ou « *proverbe* », induit un très important problème de catégorisation. Elle se contenterait de souligner l'existence du phénomène tout en supposant que celui-ci est irrégulier.

Ainsi, le terme de figement permet de rendre compte à la fois de phénomènes de natures très diverses, mais qui ne sont pas indépendants les uns aux autres.

Aussi, adoptons-nous la posture de Maria Helena SVENSSON[26] de Umea Universitet dans ''*Critères de figement et conditions nécessaires et suffisantes*'' où elle écrit en introduction :

« Dans le cadre des études qu'on appelle généralement phraséologiques, de nombreux chercheurs ont examiné les expressions figées et proposé des définitions des notions d'idiome, de locution, de proverbe et d'autres types d'expressions qui appartiennent à la catégorie dite figée.

Notre emploi du terme expression figée est générique et réunit tous ces types d'expressions. En ce qui concerne le terme « figée », cette notion décrit, dans notre terminologie, le fait qu'une expression soit mémorisée par les locuteurs d'une langue. Elle est figée « cognitivement » plutôt que syntaxiquement. Cela veut dire que les locuteurs savent que les mots apparaissent ensemble dans telle ou telle construction et que l'utilisation de l'expression en question est conventionnelle et partagée de la plupart des locuteurs. »

De cette posture commune à plusieurs linguistes qui se sont penchés sur ce phénomènes, S. MEJRI[27], qui ne prétend pas « *rendre compte de l'extrême complexité de ce phénomène* », considère qu'en étant attentif aux études qui lui sont consacrées par Makkaï (1972), Gréciano (1983), G. Gross (1996), M. Gross (1988), nous pouvons postuler à une définition qui s'en approcherait de très près. Il en avance une que nous reproduisons :

« Le figement est un processus linguistique inhérent aux langues naturelles par lequel des séquences linguistiques, initialement employées comme séquences discursives libres, se trouvent, pour des raisons diverses, partiellement ou entièrement solidifiées ; elles sont ainsi versées dans l'une des catégories linguistiques dans le cadre de laquelle les constituants perdent leur autonomie individuelle pour participer à la configuration de la nouvelle unité polylexicale ainsi constituée. »

Conclusion

Ce parcours didactique ayant mis à plat les difficultés liées aux champs notionnel et conceptuel de ce domaine d'étude, nous avons procédé aux lectures, d'abord linguistique (structure syntaxique et composants lexicaux), puis sémantique (sens y consignés) du corpus d'expressions figées dégagées à cet effet. L'étude linguistique révélant des spécificités inhérentes au code d'expression (le français, en l'occurrence), la mise en relation de ces expressions avec leurs équivalents dans l'autre code (ici, la langue arabe parlée) permettra de déceler les particularités syntaxiques et lexicales, voire sémantiques de ce fait langagier (en rapport avec l'espace et le temps de son avènement).

Références

1. LANGLOIS, L., Bitexte*, bi-concordance et collocation,* Thèse de Lucie Langlois pour l'obtention de la Maîtrise en Traduction (Université d'Ottawa), sous la direction de Roda P. Roberts, décembre 1996.
2. LIANG, S. Q., «À propos du dictionnaire français-chinois des collocations françaises», en *Cahiers de Lexicologie* 59, 1991-1992, pp. 151-167.
3. LANGLOIS, L., op. cit.
4. Idem., op. cit.
5. COWIE, 1994, cité par Mejri S. *Le figement lexical. Descriptions linguistiques et structuration sémantique.* Publications de la Faculté des lettres Manouba, Tunis, 1997.
6. BENSON, 1986, cité par Mejri S., *Le figement lexical. Descriptions linguistiques et structuration sémantique.* Publications de la Faculté des lettres Manouba, Tunis, 1997.
7. LANGLOIS, Lucie, op. cit.
8. LIANG, op. cit.
9. Dictionnaire de Alain Rey et Sophie Chantreau, 1977.
10. MEJRI, S., op. cit.
11. Mejri, S., *Polysémie et polylexicalité, Université de Tunis,* Actes du colloque de Tunis portant sur « le figement lexical » 1998.
12. Harris, "Distributional structures" dans *Word*, 1954.
13. GROSS, Maurice, « La caractérisation des adverbes dans un lexique-grammaire », In : *Sur les compléments circonstanciels*, Editions Dominique Leeman, Langue Française, n°86, Larousse, Paris, pp. 90-102, 1990.
14. LOPEZ,*Metáfora: da retórica à semiótica*, São Paulo, Atual, 1987. Cité par XATARA, Claudia Maria, "Intégrer les expressions idiomatiques à l'enseignement "Université de l'État de Sao Paulo, Brésil, Janvier-février 2002 - N°319.
15. RWET, N., « Du bon usage des expressions idiomatiques dans l'argumentation en syntaxe générative » dans *Revue québécoise de linguistique*, Montréal, v.13, 1983.
16. GROSS, Gaston, « Noms composés N de N », *Rapport de Recherches n° 5*, Laboratoire de Linguistique Informatique, Villetaneuse : Université Paris 13, 1988.
17. WEINRICH, cité par MEJRI S., *Le figement lexical. Descriptions linguistiques et structuration sémantique.* Publications de la Faculté des lettres Manouba, Tunis, 1997.
18. Cité par MOUNIN, G., Dictionnaire *de la linguistique*, Paris, Presses universitaires de France, 1974.
19. GAATONE, D., « Les 'locutions verbales' : pour quoi faire ? », *Revue romane*, 16/1-2, p. 49-73, 1981.
20. Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, DUBOIS, J., Paris, Larousse, 1994.
21. LEXIS, entrée Figé
22. Le Petit Robert, DLF, 1990, art. Figement.
23. MISRI George, *Le* figement *linguistique en français contemporain*, thèse de doctorat, soutenue par Misri, G., Université René Descartes, Paris V, 1987.
24. DUCROT, O., TODOROV, T. Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, 1974, art. Figement
25. MEJRI, S., Actes du colloque de Tunis portant sur « le figement lexical » 1998.
26. SVENSSON, Maria Helena, " *Critères de figement et conditions nécessaires et suffisantes*", UmeaUniversitet, Nr. 16 — 2002/2 Oslo 12.-17. august 2002
27. MEJRI, S., *Le figement lexical. Descriptions linguistiques et structuration sémantique.* Publications de la Faculté des lettres Manouba, Tunis, 1997

EFFET DU GENRE SUR LES PREMIÈRES PRODUCTIONS LEXICALES D'ENFANTS ARABOPHONES : UNE ÉTUDE LONGITUDINALE

Hacene Bellemmouche* Fouzia Malki-Reggad**

الملخّص

تتناول هذه الدراسة تأثير الجنس (المذكر والمؤنث) في بداية إنتاج المفردات لدى أطفال معرّبين من أصل تونسي ، وعددهم: ستة6 – (ثلاث بنات وثلاثة أطفال) تمت معاينتهم في مقر سكناهم ، أثناء تعاملات تلقائية مع أمهاتهم. وانطلقت التسجيلات مع صدور أول كلمة ، بعد انطلاق حدث التلفّظ ، بعدد الكلمات الصادرة ، تبعا لأربع مراحل من النمو: (بين 12 و27 شهرا) ، وتم استخراج ذلك من تسجيلات خطّية أجريت بواسطة: (Phon) ، حيث بيّنت النتائج فوارق أكيدة بين الذكور والإناث على مستوى حجم المنتج المفرداتي ، بتفوّق الإناث ، ونمو هذا التفوق مع الزمن. وتدعيما لذلك أدرجت شروحا بيولوجية وثقافية لبيان تلك الفروق.

الكلمات المفاتيح: الجنس ، المفردات ، تعامل تلقائي ، فوراق ، شروح بيولوجية وثقافية.

Résumé

Le présent travail vise à étudier l'effet du genre sur les premières productions lexicales d'enfants arabophones d'origine tunisienne. 6 enfants (3 filles et 3 garçons) ont été enregistrés à leur domicile lors d'interactions spontanées avec leurs mères. Les enregistrements ont démarré à l'émergence du premier mot et jusqu'à 3 mois après la période de l'explosion lexicale. Le nombre de mots différents produits à 4 étapes du développement (entre 12 et 27 mois) a été extrait des transcriptions effectuées sous Phon©.Les résultats indiquent qu'il existe bien une différence entre les filles et les garçons au niveau de la taille du lexique productif avec un avantage pour les enfants de sexe féminin, et que cet avantage augmente avec le temps. Des explications d'ordre biologique et culturel sont avancées pour rendre compte de ces différences.

Motes-clés : Genre, Mots, Interaction spontanée, Différences, Explications biologiques et culturelles.

Summary

The aim of this longitudinal study is to test the effect of gender on infants' first lexical productions. 6 Tunisan Arabic-speaking children (3 girls and 3 boys) were recorded at home for one hour every tow weeks while spontaneously interacting with their mothers. The recordings took place from the onset of word production until 3 months after lexical spurt. The number of different words produced at 4 developmental stages (between 12 and 27 months) was extracted from the transcripts (realized using Phon©). Then we measured the number of different words produced across time. Our preliminary results show a sex difference in vocabulary sizebetween girls and boys with a benefit for girls, which increases with time. Some biological and cultural explanations are given to explain these differences.

Keywords:: Gender, Words, Spontaneously interacting, Differences, Biological and cultural explanations.

* Doctorant, Université Batna 2, Université Montpellier 3

** Maître de conférences (A), Université Mohamed Lamine Debaghine Sétif 2

1. Introduction

Le lexique productif précoce de l'enfant est souvent décrit, dans la littérature, comme quantitativement et qualitativement très différent du lexique de l'adulte (Fenson et *al.* 1993). Entre 1 et 3 ans, celui-ci est relativement limité et les premières réalisations produites par les enfants sont souvent très éloignées du mot cible. Plusieurs facteurs peuvent influencer le développement des premières productions enfantines, parmi lesquels : l'évolution de la maturité phonatoire (Bornstein et *al.* 2004) et les caractéristiques de l'input (c'est à dire le Langage Adressé à l'Enfant : LAE) (Stoel-Gammon, 2011).

Bien que l'étude de l'effet du genre, sur le fonctionnement cognitif en général et sur les capacités verbales en particulier, ait donné lieu à de nombreux travaux dans les langues de grande diffusion telles que l'anglais (Maccoby et Jacklin, 1974 ; Hyde et Linn, 1988 ; Bornstein et *al*., 2004.), le français (Kern, 2007) ou encore l'espagnol (Gallego et Mariscal, 2008), les études acquisitionnelles portant sur l'arabe dialectal−langue maternelle des locuteurs arabophones −sont encore très peu fréquentes (Badri-Zalami, 2007) et, quand elles existent, elles concernent soit l'apprentissage tardif et formel de l'arabe dit « standard » ; soit l'acquisition de variétés d'arabe dialectal largement documentées dans la littérature comme l'arabe dialectal égyptien (Omar, 1973) ou jordanien (Ameyrah, 2000, 2003). Toutefois la question de l'effet du genre[1] sur les productions linguistiques de jeunes enfants n'a encore jamais été abordée pour cette langue.

1.1. État de l'art

Les études antérieures portant sur la question des différences inter-sexes au niveau linguistique ont abouti à des résultats contradictoires. Toutefois, la plupart d'entre elles ont révélé de meilleures performances pour les filles (Wallentin, 2009) au moins pendant les premières périodes du développement du langage (Suizzo et Bornstein, 2006). Anastasi (1958) a montré que les filles présentent des scores supérieurs que les garçons dans les compétences verbales et ce, de l'enfance jusqu'à l'âge adulte. Dans une méta-analyse regroupant 165 études et incluant 1.418.899 enfants, Hyde et Linn (1988) ont signalé une différence entre les sexes dans les compétences verbales mais la différence était si faible qu'elle a été considérée comme non significative. A partir d'un échantillon de 2 500 enfants âgés de 8 à 30 mois, Fenson et *al*. (1994, 2007) ont également rapporté de meilleures performances pour les filles. La différence observée n'explique cependant que 1 à 2% de la variance.

Dans une autre étude menée auprès de 3000 enfants âgés de 24 mois, Galsworthy et *al.* (2000) sont parvenus à des résultats similaires ; la supériorité des filles expliquant 3% de la variance. Cependant, Bornstein, Hahn, et Haynes (2004) suggèrent que ces différences sont remarquables uniquement sur une certaine tranche d'âge pour ensuite disparaitre. En effet, cette étude longitudinale conduite auprès de 329 enfants et réalisée sur différentes tâches linguistiques (compte-rendu parental, analyse de la parole spontanée, etc.) révèle une supériorité des filles sur les garçons entre 2 et 5 ans, cette différence disparaissant après l'âge de 6 ans, ce qui suggère qu'elle n'est sensible que durant les étapes d'acquisition précoce. En outre, la plupart des recherches utilisant les comptes rendus parentaux dans d'autres langues révèle des valeurs plus élevées pour les filles, en particulier pour le vocabulaire productif (Bleses et al, 2008 pour le danois ; Tulviste et *al.*, 2010 pour l'estonien ; Kern, 2007 pour le français ; Mariscal et al, 2007 pour l'espagnol). Les études conduites sur d'autres langues n'ont montré aucune différence inter-sexe (Jackson-Maldonado et *al*., 1993 pour l'espagnol mexicain ; Berglund et Eriksson, 2000 pour le suédois).

En résumé, on peut conclure qu'un avantage pour les enfants de sexe féminin est mis en évidence dans le développement précoce du langage, si ce n'est dans toutes les études, au moins dans la

majorité d'entre elles. Des facteurs d'ordre biologique et social sont proposés pour tenir compte de ces différences.

Dans une étude translinguistique récente portant sur plus de 10 langues européennes, les chercheurs ont rapporté des différences significatives entre filles et garçons en ce qui concerne les premiers gestes communicatifs, la production des mots (i.e. taille du lexique) et la perception de la parole (i.e. mesure de compréhension des mots à partir des CDI « *Communicative Development Inventories* »). En outre les auteurs ont montré que ces différences augmentent avec l'âge et ce, malgré la diversité culturelle et linguistique des populations étudiées (Erikson et *al.*, 2012).

Nous proposons, dans ce travail, de contribuer au développement des études acquisitionnelles en arabe dialectal en nous intéressant plus particulièrement au cas de l'arabe maghrébin et notamment, de l'arabe dialectal tunisien (i.e. parler de Tunis). Cette étude longitudinale[2] a pour objectif de tester l'effet du genre sur les premières productions lexicales d'enfants arabophones.

Nous proposons de vérifier les deux hypothèses opérationnelles suivantes : (1) le lexique productif des enfants de sexe féminin est supérieur à celui des enfants de sexe masculin ; (2) l'écart observé au niveau de la taille du lexique productif entre filles et garçons se creuse avec le temps.

1.2 Généralités sur l'Arabe Tunisien

L'arabe dialectal tunisois est, par nature, une langue « mixte » résultant du contact de diverses variétés linguistiques. Comme les autres dialectes maghrébins[3] (algérien et marocain), il est fortement influencé par l'arabe et les langues des peuples qui ont transité la ville de Tunis au cours de l'histoire dont le turc, l'italien, l'espagnol et le français. Ces vastes mouvements migratoires ont conduit les dialectologues spécialistes du domaine, à considérer le tunisois, comme une *koïnè*, c'est-à-dire comme une variante linguistique autonome, partagée par l'ensemble de la population de ce territoire et formée à partir de divers dialectes tunisiens mutuellement intelligibles et d'emprunts à d'autres langues (Singer, 1984 : 28).

La morphologie, la syntaxe, la phonétique, le système prosodique et le lexique de l'arabe tunisien sont assez différents de l'arabe classique et des autres variétés dialectales (Rouas et *al.*, 2006). L'intercompréhension est difficile avec les arabophones du Moyen-Orient mais plus facilement compris par les arabophones du Maghreb pour des raisons de proximité géographique évidentes (Barkat, 2001).

Le tunisois (parlé à Tunis) est généralement utilisé dans les médias (Gibson, 1998, 2002). Mais, tout comme dans les autres pays arabophones où coexistent de nombreux parlers vernaculaires et une variété « haute » dite « standard » (*cf.* diglossie), les rapports entre arabe littéraire et arabe dialectal tunisien, reposent sur l'idée largement répandue par les locuteurs que le dialecte maternel n'est pas une langue à part entière, mais plutôt une forme abâtardie de l'arabe littéral. Cette stigmatisation de la langue maternelle étant sous-tendue par un discours idéologique, socialement et historiquement construit (Laroussi, 1997).

Du point de vue descriptif, le tunisois est un dialecte urbain au même titre que celui de Kairouan, de Bizerte, de Nabeul ou de Sousse (Versteegh, 2001). On y retrouve certaines des réalisations typiques des parlers de sédentaires (i.e. maintien des fricatives interdentales et prononciation sourde de l'occlusive uvulaire).

1.3 Le mot en arabe tunisien

Dans la langue arabe - comme dans les langues sémitiques - le centre du mot est la racine. Une racine (i.e. « *abjad* ») est constituée d'une suite de phonèmes consonantiques, (le plus souvent trois, deux (racines bilittères) ou quatre (racines quadrilittères) consonnes[4] dont l'ordre est fixe et renvoie à tout un univers de sens, à « *une*

signification commune primordiale » pour reprendre les termes de Brockelman (1910 :213).

En Arabe tunisien (comme dans les autres parlers du Maghreb), le mot connait également des modifications d'ordre morpho-phonologique. Ceci est principalement dû au phénomène de réduction vocalique lié à la chute des voyelles brèves en syllabes ouvertes (e.g. arabe standard : [**mu**sāfir] « voyageur » actualisé en arabe tunisien : [**ms**āfər]). Ce phénomène a une incidence au niveau de la structure syllabique des mots, la chute des voyelles brèves en syllabes ouvertes entrainant l'émergence de groupements consonantiques complexes pouvant aller de deux à quatre consonnes en attaque(e.g. [**mʃ**a] « il est parti ») et jusqu'à trois consonnes en coda, (e.g. [ma dxa**ltʃ**] *« je ne suis pas entré »* quand l'arabe littéral n'autorise pas plus de deux consonnes consécutives.

2. Matériel et méthode

2.1 Corpus

Notre corpus est composé d'interactions spontanées entre mères et enfants (6 enfants arabophones natifs : 3 filles et 3 garçons, dont les parents sont issus de milieux sociaux homogènes). Les sujets observés sont âgés de 12 à 27 mois. Les données ont été acquises en situation de communication écologique (jeux, repas, toilette,...). Les enregistrements audio-vidéo ont été réalisés au domicile des familles tous les 15 jours pendant une heure par un informateur local[5]. Les enregistrements ont démarré à l'émergence du premier mot (entre 11 et 14 mois) et se sont poursuivis quelques mois après la période de l'explosion lexicale (entre 18 et 27mois). L'ensemble des données a été transcrit manuellement par une locutrice native d'arabe tunisien[6] (système de translittération romane adaptée au format ASCII) à l'aide du programme PHON©1.7.3[7] (Rose et *al.*, 2006), puis automatiquement en A.P.I. comme le permet le programme.

2.2 Mesure de la taille du lexique

Afin d'étudier l'évolution du développement lexical en fonction de l'âge, nous avons déterminé *a priori* 4 stades de développement : (i) 12-16 mois ; (ii) 16-20 mois ; (iii) 20-24 mois et (iv) 24-27 Mois. Ce découpage s'inspire des différentes périodes de développement langagier proposées par Boysson-Bardies (1996).

L'analyse portant sur les premières formes lexicales produites par des enfants d'âge préscolaire, nous considérons comme « mot » la forme linguistique orale *spontanément* produite par l'enfant (i.e. en dehors de toute imitation de la forme adulte) dans un contexte approprié et qui se rapproche de (ou est identique à) la cible adulte (Vihman et McCune, 1994).

En arabe tunisien, et pour permettre les comparaisons interlangues visées par le projet ANR Prems auquel s'intègre notre travail de thèse, nous ne considérons pas les morphèmes grammaticaux comme des unités autonomes. Ainsi, pour les formes conjuguées, la séquence [ta+ktab+hu+lu][8] « *tu le lui écrit* » – qui compte : une racine lexicale avec son schème vocalique et trois morphèmes grammaticaux affixés – correspond à un mot. Il en va de même, pour les formes plurielles, comme [musāfir+īn], où [musāfir] correspond à la base lexicale et [īn] à la marque du pluriel. Pour ce qui concerne la négation, le morphème disjoint [ma‿ʃ] compte comme une unité mot, ainsi [ma+jə**ktəb**+ʃ] « *il n'écrit pas* » est composé de deux mots. Enfin, les formes composées (e.g. [aʃnu+wa] « *qu'est-ce-que c'est* ») sont également considérées comme des entités lexicales uniques.

L'objectif de ce travail est d'évaluer la taille du lexique – c'est à dire le nombre moyen de « mots[9] » différents produits – en fonction du sexe de l'enfant et des différentes périodes d'acquisition précédemment mentionnées.

3. Résultats

3.1. Effet de l'âge sur la taille du lexique

D'une façon générale, notre approche longitudinale nous permet d'observer précisément l'évolution de la taille du lexique de l'ensemble des enfants au cours du temps. En d'autres termes nos résultats montrent que le nombre moyen de mots produits augmente progressivement avec l'âge de l'enfant (tableau 2 et figure 1).

	Nombre de mots différents produits					
	Filles			Garçons		
Périodes	Sir	Sar	Fyr	Far	Ray	Zai
12-16 Mois	16	13	12	36	17	13
16-20 Mois	38	32	25	47	41	28
20-24 Mois	154	145	110	83	117	71
24-27 Mois	272	237	256	153	130	141

Tableau 2 – Évolution du nombre de mots produits en fonction de l'âge et du sexe chez les six enfants du corpus

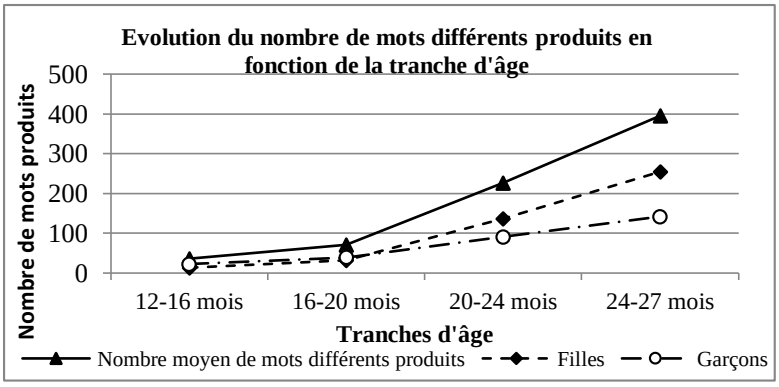

Figure 1- Évolution de la taille du vocabulaire en fonction de l'âge et du sexe

	Périodes	Filles	Garçons
Évolution lente	*12-16 mois*	13,66	22
	16-20 mois	31,66	38,66
	Moyenne	22,66	30,33
	E-T	09	8,33
Évolution rapide	*20-24 mois*	136,33	90,33
	24-27 mois	255	141,33
	Moyenne	195,66	115,83
	E-T	59,33	25,5

Tableau 3– Évolution du nombre moyen de mots produits en fonction de l'âge et du sexe chez les six enfants du corpus

Par ailleurs, les résultats moyens présentés dans le tableau 3 ci-dessus, nous autorisent à diviser cette évolution en deux étapes :

- **entre 12 et 20 mois** on observe une augmentation lente des mots produits avec, contre toute attente, un avantage en faveur des garçons (30 mots contre 22). Nous verrons lors de l'analyse individuelle que cela est dû au comportement particulier d'un des trois sujets de sexe masculin (voir *infra).*
- **entre 20 et 24 mois** on observe une forte augmentation des mots produits (i.e. période de l'explosion lexicale) avec un avantage remarquable des filles sur les garçons (195 mots contre 115).

Il est également intéressant de noter qu'au cours de cette deuxième étape, l'écart observé entre les deux populations se creuse au fil du temps.

Globalement, ces premiers résultats montrent que les facteurs « sexe » et « âge » ont un effet sur la quantité des premières productions enfantines, ce qui corrobore les observations de la littérature (Fenson et *al*., 1993 ; Kern, 2001 ; Duncan, 2002 ; Matyasse, 2005).

3.2 Effet du sexe sur la taille du lexique Un examen plus précis de chaque tranche d'âges révèle également que la fameuse étape d'explosion lexicale, qui correspond à une augmentation très rapide et très importante du nombre de mots acquis par l'enfant et qui est observée de façon universelle entre 20 et 24 mois

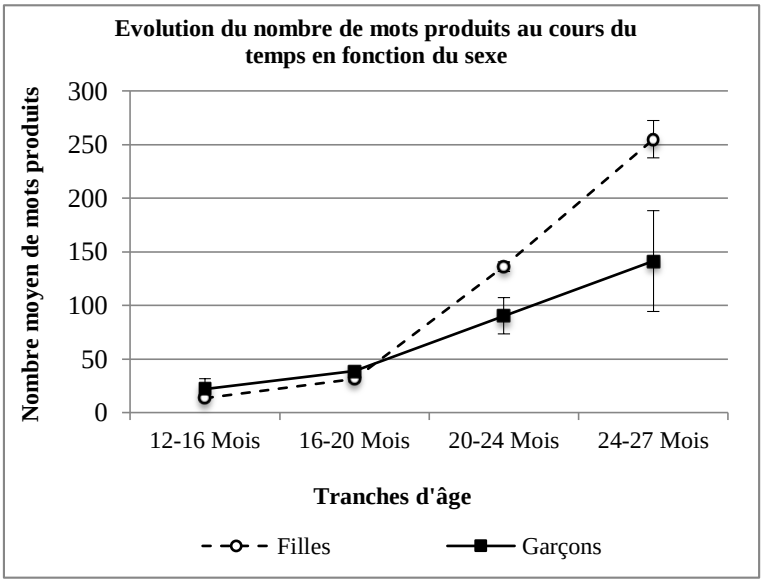

(Goldfield & Reznick, 1990), sépare de façon remarquable les deux groupes de sujets (figure 2).

Figure 2- Évolution de la taille du vocabulaire en fonction du sexe et du stade de développement.

En ce qui concerne la première tranche d'âges (12-16 mois) période durant laquelle les compétences lexicales des garçons sont supérieures à celles des filles, cette différence est essentiellement due au comportement de l'un de nos sujets (i.e. Far) et donc à la variabilité interindividuelle de notre échantillon. Une analyse individuelle de l'évolution de la taille du lexique pour chacun des six enfants nous permet de constater que bien que les grandes étapes d'évolution soient comparables chez les six enfants (i.e. évolution lente /évolution rapide / stabilisation), leur profil linguistique est assez différent (figure 3).

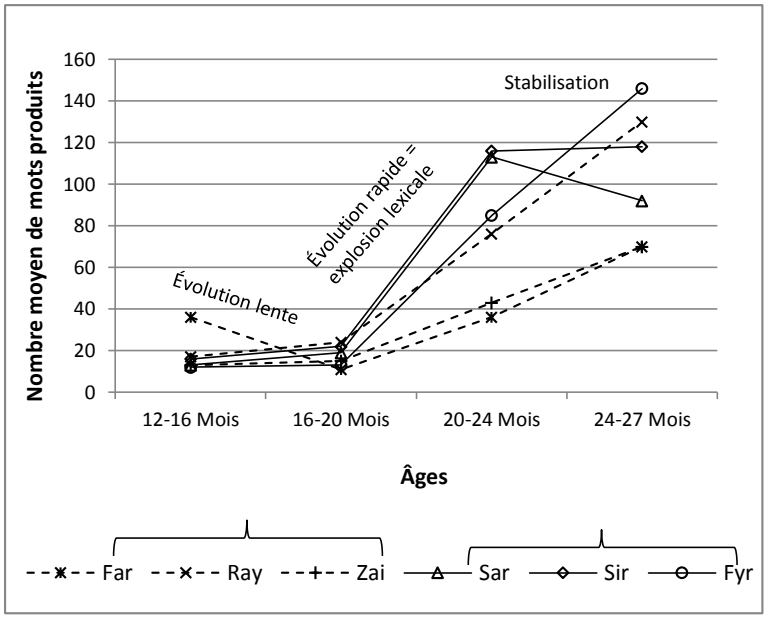

Figure 3- Analyse individuelle de l'évolution de la taille du lexique en fonction des périodes d'acquisition chez les 6 enfants

La première étape – qui correspond à l'émergence du premier mot – montre que la taille du vocabulaire évolue d'abord de façon assez lente, sauf pour un enfant (Far) qui atteste un nombre de mots significativement supérieur à celui des autres et qui explique qu'ici, les performances des garçons soient en moyenne supérieures à celles des filles. En effet, la variabilité interindividuelle, qui reflète la diversité des processus mis en œuvre par les sujets au cours de l'acquisition, se manifeste par des différences dans les rythmes et les styles des enfants qui apprennent une langue (Boysson-Bardies, 1996 ; Kail & Bassano, 2000).

Cette première période est suivie d'un second palier (entre 20 et 24 mois) où la taille du lexique évolue brusquement, c'est la fameuse étape de *l'explosion lexicale* (Goldfield & Reznick, 1990) observée de façon universelle en l'absence de troubles.

La dernière étape enfin, correspond à une période où les courbes évoluent à nouveau plus lentement et on peut parler d'une relative stabilisation quant au développement lexical. Néanmoins, au cours de cette troisième étape, la différence entre filles et garçons se creuse.

4. Discussions

Les tendances observées dans cette étude préliminaire menée auprès de 6 enfants arabophones sont conformes aux résultats observés dans la littérature pour d'autres communautés linguistiques. En effet, il existe bien une différence entre les garçons et les filles au niveau de la taille du lexique productif avec un avantage pour les enfants de sexe féminin et cet avantage est d'autant plus marqué au fil du temps. Ces différences entre les sexes peuvent être expliquées par l'influence de facteurs biologiques et sociaux.

Du point de vue biologique, on sait que les garçons sont plus vulnérables face aux pathologies qui impliquent une dimension communicative ou linguistique : bégaiement (Halpern, 1989 ; Sudhi, John & Geetha, 2010), dysphasie, SLI (Tallal et *al.*, 1991), dyslexie (Collette et *al.*, 2006 ; Miles, Haslam et Wheeler, 1998) et autisme (Baron-Cohen, 2002, 2004; Frith, 2001). Étant donné que ces troubles sont diagnostiqués tardivement, la population étudiée inclut probablement une proportion d'enfants souffrant déjà de troubles linguistiques. Puisque statistiquement, ces troubles affectent plus souvent les garçons, l'intégration de sujets non diagnostiqués dans la population de contrôle peut contribuer à faire baisser les scores des sujets de sexe masculins et expliquer les différences observées entre les deux populations.

Par ailleurs une multitude de facteurs sociaux peuvent également être avancés pour expliquer les différences filles/garçons. Par exemple, il a été montré que les jeux typiques pour les garçons et les filles induisent de la part des parents des comportements linguistiques différents lesquels ont fort probablement un effet sur les aptitudes langagières des enfants: tandis que les jeux d'action (par exemple jeux de construction, préférentiellement offerts aux garçons) donnent lieux à des discours dominés par des commentaires et des questions ; les jeux typiques des petites filles (comme jouer à la poupée ou à la marchande, par exemple) étant des activités plus symboliques, favorisent la communication et expliqueraient leur plus grande sensibilité au langage.

On peut donc en conclure à l'instar de Caldera, Huston & O'Brien (1989) que les deux sexes reçoivent un input différent au cours des activités ludiques et développent des aptitudes langagières distinctes (Bornstein et *al.*, 1999 ; Suizzo et Bornstein, 2006).

5. Conclusion et perspectives

L'étude des différences entre filles et garçons que nous avons conduite auprès de 6 enfants arabophones d'origine tunisienne a mis en évidence un avantage des filles dans le développement lexical précoce. Cet avantage augmente avec le temps et sépare de manière remarquable les deux populations notamment à partir de la fameuse période de l'explosion lexicale qui est traditionnellement observée entre 16 et 20 mois.

Les tendances relevées à l'issue de cette étude préliminaire[10] corroborent les résultats

observés dans la littérature pour d'autres communautés linguistiques. Des facteurs sociaux (i.e. environnement linguistique, rôle des parents) et biologiques (i.e. sensibilité accrue aux troubles du langage et de la parole pour les garçons) ont été proposés pour rendre compte de ces différences.

Pour mieux comprendre l'origine des différences inter-sexes pointées dans ce travail, nous envisageons à l'avenir, de vérifier ces premiers résultats sur une cohorte plus importante de sujets (n=10) ce qui nous permettra d'étayer nos observations par une analyse statistique, d'inclure d'autres paramètres de mesure (indice de complexité phonétique (Jakielski, 2000), combinaison de deux mots, évolution syllabique, structure prosodique), et de conduire des comparaisons translinguistiques sur les aspects tant quantitatif que qualitatif du développement langagier.

Références

1. Alors que le terme « sexe » renvoie au trait biologique de l'individu (i.e. mâle vs femelle), la notion de « genre » renvoie quant à elle à un contenu sociologique (i.e. femme vs homme). Selon Löwy et Rouch (2003), la séparation sexe/genre — en tant que phénomène biosocial qui lie le biologique au socioculturel — est le reflet d'un partage entre les traits biologiques (présumé immuables) et les attitudes, comportements et rôles (présumés) flexibles.

2. Ce travail s'inscrit dans le cadre du projet ANR Prems : « *Influence du développement phonologique et de l'input sur les premiers mots* » (AA-PPPP-000/2012-15, coordinatrice : Sophie KERN DDL-UMR5596 Université de Lyon).

3. « Le dialecte tunisien, comme l'algérien ou le marocain, appartient [...] au domaine maghrébin, qui couvre l'Afrique du Nord de la frontière égyptienne à l'Atlantique (par opposition au domaine oriental qui s'étend de la Péninsule arabique, à travers le <Croissant fertile> [Palestine-Jordanie, Irak, Syrie-Liban], jusqu'à la vallée du Nil.) ». (Maume, 1973 : 94).

4. Les combinaisons de trois consonnes sont régies par des règles phonotactiques : une sélection s'est opérée qui tend à éviter la contiguïté de consonnes d'articulation proche (i.e. consonnes homo-organiques), de sorte que, le plus souvent, les consonnes d'une racine sont différentes par leur point et leur mode d'articulation.

5. Les auteurs tiennent à remercier Rym Nefzi pour son active contribution à l'acquisition des données du projet Prems.

6. Les auteurs tiennent à remercier *Inès Ghazouani* pour sa contribution au traitement des données.

7. https://www.phon.ca/phontrac/wiki/Downloads

8. Actualisée [katab-tu] en arabe dialectal tunisien.

9. La notion de mot soulève d'importants problèmes d'identification. Elle dépend avant tout de l'intuition des locuteurs, chacun sachant citer des mots ou les identifier sans pour autant pouvoir expliquer quels sont ses critères de jugement. Dans le cadre qui nous intéresse ici (i.e. acquisition précoce du langage oral), les sujets procèdent vraisemblablement à un traitement holistique du mot, lequel va s'affiner au fil du temps avec l'utilisation de différents paramètres, notamment prosodiques, qui vont permettre la segmentation du flux sonore environnant, processus sous-jacent l'identification correcte des unités lexicales. Les réalisations comme *le *navion* ou ***le*néléphant***— fréquentes dans le langage enfantin — en sont des exemples parlants.

10. *In fine*, cette étude sera conduite auprès de 20 enfants arabophones et francophones dans une perspective translinguistique (Gayraud & Bellemmouche en préparation).

AMAYREH M. & DYSON A. (2000). Phonetic inventories of young Arabic-speaking children. *Clinical linguistics & phonetics*, *3*, 14, 193-215.

AMAYREH M. (2003). Completion of the Consonant Inventory of Arabic. *Journal of Speech, Language and Hearing Research*, 3, 46, 517-529.

ANASTASI A. (1958). *Differential psychology*. (3rd Ed.). New York : Madan.

BARKAT M. (2001).L'identification Automatique de Parlers Arabes. *Langues et Linguistiques*, 7, 47-75.

BARKAT-DEFRADAS M. (2009a). Vowel backing and vowel lowering in Arabic vernaculars. *Encyclopaedia of Arabic Language & Linguistics*, Vol 4, K. Versteegh Ed., Brill, Leiden, The Netherlands, 669-674

BARON-COHEN S. (2002). The extreme male brain theory of autism. *Trends in Cognitive Sciences*, 6, 248-254.

BARON-COHEN S. (2004). Autism : Research into causes and intervention. *Paediatric Rehabilitation*, 7, 73-78.

BARON-COHEN S. (2004). The cognitive neuroscience of autism. *Journal of Neurology*, *Neurosurgery and Psychiatry*, 75, 945-948.

BERGLUND E. & ERIKSSON M. (2000). Communicative development in Swedish children 16-28 months old. The Swedish early communicative development inventory — words and sentences. *Scandinavian Journal of Psychology*, 2, *41*, 133-144.

BLESES D. et *al.* (2008). The Danish Communicative Development Inventories: Validity and main developmental trends. *Journal of Child Language*, *35*, 619-650.

BORNSTEIN M. et *al.* (1999). Play in twosocieties: Pervasiveness of process, specificity of structure. *Child Development*, *70*, 317—331.

BORNSTEIN M. et *al.* (2004). Cross-linguistic Analysis of vocabulary in young children : Spanish, Dutch, French, Hebrew, Italian, Korean, and American English. *Child Development, 4*, 75, 1115-1139.

BORNSTEIN, M., HAHN C-S., & HAYNES O. (2004). Specific and general language performance across early childhood: Stability and gender considerations. *First Language*, 3, *24*, 267-304.

BROCKELMAN C. (1910).*Précis de linguistique sémitique*. Paris : Geuthner.

CALDERA Y.M., HUSTON A.C. & O'BRIEN M. (1989). Social interactions and play patterns and toddlers with feminine, masculine and neutral toys. *Child development*, 60, 70-76

COLLETTE F. et al. (2006). Exploration of the neural substrates of executive functioning by functional neuroimaging. *Neuroscience*, 139, 209-221.

DE BOYSSON-BARDIES B. (1996). *Comment la parole vient aux enfants*. Paris : Odile JACOB.

DUNCAN V.L. (2002). *Quantifying articulatory change in the first 100 words in a one-year-old child.* (Senior Thesis, Augustana College, Rock Island, IL, 1999).

ERIKSSON M et *al*. (2012). Differences between girls and boys in emerging language skills: Evidence from 10 language communities. *British Journal of Developmental Psychology*, 30, 326-343.

FENSON L. et *al*. (1993). *MacArthur Communicative Development Inventories: user's guide and technical manual*. San Diego: CA/ Singular Press.

FENSON L. et *al*. (1994). Variability in earlycommunicative development. *Monographs of the Society for Research in Child Development*, *59*, 1-189

FENSON L. et *al*. (2007). *MacArthur-Bates communicative development inventories* (2nd ed.). Baltimore : Brookes Publishing.

FRITH U. (2001). Mind blindness and the brain in Autism. *Neuron*, 32, 969-979.

GALLEGO C. & MARISCAL S. (2008). Psychosocial traits of children identified as atrisk for language delay by the Spanish McArthur-CDI. *The Second European Network Meeting on Communicative Development Inventories*. University of Zagreb, Dubrovnik, Croatia.

GALSWORTHY M. et *al*. (2000). Sex differences in early verbal and non-verbal cognitive development. *Developmental Science*, *3*, 206-215.

GIBSON M.L. (1998). *Dialect contact in Tunisian Arabic : sociolinguistic and structural aspects*. PhD. Diss, University of Reading.

GIBSON M.L. (2002), « DialectLevelling in TunsianArabic : towards a new spoken Standard. Language contact and languageconflict », Dans A. Roushdi (Ed.), *Arabic: variation on a sociolinguistictheme*, (p.24-40). London and New York : RoutledgeCurzon.

GOLDFIELD B.A & REZNICK J.S. (1990). Early lexical acquisition : rate, content, and the vocabulary spurt. *Journal of Child Language*, 1, 17, 171-83.

HALPERN D. (1989). The disappearance of cognitive gender differences: what you see depends on where you look. *American Psychologist, 44,* 1156-1158.

HYDE J. & LINN M. (1988). Gender differences in verbal ability: A meta-analysis. *Psychological Bulletin*, *104*, 53-69

JACKSON-MALDONADO D. et *al*. (1993). Early lexical development of Spanish-speaking infants and toddlers.*Journal of Child Language*, 3, *20*, 523-549.

JAKIELSKI J. (2000). Quantifying phonetic complexity in words: An experimental index. *Child phonology conference*, Cedar Fallas, IA.

KAIL M. & BASSANO D. (2000), « Méthodes d'investigation et perspectives heuristiques »DansM. Kail & M. Fayol (Ed.). *L'acquisition du langage* (Vol. 1, p. 29-59). Paris : PUF.

KERN S. (2001). Le langage en émergence. *Approche Neuropsychologique des Apprentissages chez l'Enfant*, 13, 8-12.

KERN S. (2007). Lexicon development in French-speaking infants. *First Language*, *27*, 227-250.

LAROUSSI F. (1997).*Plurilinguisme et identités au Maghreb*. Rouen : PUR.

LÖWY I. & ROUCH H. (2003). Genèse et développement du genre : les sciences et les origines de la distinction entre sexe et genre. *Cahiers du genre*, 1, 34, 5-16.

MACCOBY E.E & JACLIN C.N. (1974). *The psychology of sex differences*. Stanford :CA/ Stanford University Press.

MARÇAIS PH. (1977). *Esquisse grammaticale de l'arabe maghrébin*. Paris: Librairie Adrien-Maisonneuve.

MARISCAL S. et *al*. (2007). La evaluaci´on del desarrollo comunicativo y ling¨u´istico mediante la versi´on espa˜nola de los inventarios MacArthur-Bates. [The assessment of communicative and linguistic development applying the Spanish version of the MacArthur-Bates Inventories]. *Psicothema*, 2, 19, 190-197.

MATYASSE R. (2005). *Analyzing the acquisition of phonetic complexity in one-year-old children*. Senior Thesis, Augustana College, Rock Island, IL.

MILES T.R., HASLUM M.N& WHEELER T.J. (1998). Gender ratio in dyslexia. *Ananls of dyslexia*, 48, 27-55

MAUME J.L. (1973). L'apprentissage du français chez les Arabophones maghrébins (diglossie et plurilinguisme en Tunisie). *Langue Française*, 1, 19, 90-107.

OMAR M.K. (1973). *The acquisition of Egyptian Arabic as a native language*. Washington DC:GUP.

ROUAS J.L. et *al.* (2006). Identification automatique des parlers arabes par la prosodie. *Actes de XXVIème Journées d'études sur la Parole*, Dinard, 12-16 juin 2006, 193-196

ROSE, Y. *et al.* (2006). « Introducing Phon: A Software Solution For The Study Of Phonological acquisition ». Dans*Proceedings of the 30th Annual Boston University Conference,*Dans D. Bamman, T. Magnitskaia& C. Zaller (Ed.), *Language Development*(p. 489-500). Somerville, MA: Cascadilla Press.

STOEL-GAMMON, C. (2010). Relationships between lexical and phonological development in young children. *Journal of Child Language*, 1, 38, 1-34.

SUDHI N., JOHN M. & GEETHA Y.V. (2010). Age and gender differences in persons withstuttering. *Journal of the All India Institute of Speech & Hearing*, 2, 29, 131-138.

SUIZZO M. & BORNSTEIN M.H. (2006). French and European American child–mother play : Culture and gender considerations.*International Journal of Behavioral Development*, 30, 498-508.

TALLALP. et *al.* (1991).Phenotypic profiles of language-impairedchildren based on genetic/family history.*Brain and Language*, 4, 41, 81-95.

TULVISTE T. et *al.* (2010). Cultural, contextual, and gender differences in peer talk: A comparative study. *Scandinavian Journal of Psychology*, 4, 51, 319-325

VERSTEEGH C. (2001). *The arabic language*. Edinburgh University Press.

VIHMAN M.M & MCCUNEL. (1994). When is a Word a Word?. *Journal of Child Language,* 21, 517-542.

WALLENTINM. (2009). Putative sex differences in verbal abilities and language cortex: A critical review , *Brain and Language*, 108, 175-183.

ZALAMI F.B. (2007). First language acquisition. Dans *Encyclopedia of Arabic Language and Linguistics*, Vol 2. Boston: Brill,96-104.

A la lisière des mondes, entre répulsion et fusion dans L'amour, la fantasia d'Assia Djebar

Loubna Achheb*

الملخص

يهدف عملنا إلى عرض كيفية تقديم آسيا جبار للتفاعل الثقافي في روايتها "الحب والفانتازيا" ، فمصطلحي التنافر والانصهار موجودان بمركز اتصال الثقافتين الجزائرية والفرنسية ، وقد كشفت آسيا جبار من خلال كتابتها الستار حول الأسباب الاستعمارية التي قادت إلى ولادة مجتمع جزائري جديد هجين بعد الاستعمار والتي تعتبر نفسها كواحدة من المتحولين الذين أنتجهم الانصهار بين هذين العالمين.

الكلمات المفاتيح: التفاعل الثقافي ، التنافر ، الانصهار ، هجين ، الاتصال ، العالمين ، المتحول.

Résumé

Notre présent travail porte sur la façon dont Assia Djebar représente l'interculturalité dans son roman *L'amour, la fantasia.* Les deux termes de la répulsion et de la fusion se trouvent au centre du contact entre les deux cultures algérienne et française. Assia Djebar nous dévoile, à travers son écrit, les raisons coloniales qui ont conduit à la naissance d'une nouvelle société algérienne hybride postcoloniale tout en se représentant elle-même comme l'un des mutants produits par la fusion entre ces deux univers.

Mots clés : Interculturalité, Répulsion, Fusion, Hybride, Contact, Deux Mondes, Mutation.

Summary

Our research work deals with the way Assia DJEBAR depicts the intercultural in her novel entitled 'Love, the Fantasy'. The two terms of repulsion and fusion are found in the midst of the contact between two Algerian and French cultures. Assia DJEBAR reveals throughout her novel the colonial real reasons that led to the birth of a new postcolonial hybrid society who represents herself as a mutation proceeding from the fusion between these two worlds.

Key Words: Inter-Culture, Repulsion, Fusion, Hybrid, Contact, Two Worlds, Mutation.

* Maître de conférences B à l'université Mouhamed Lamine Debaghine-Sétif 2.

Assia Djebar s'est profondément investie, de par son écrit, à retracer les courbes du monde dans lequel elle vie. Elle nous met face à la réalité de son univers, c'est-à-dire celui des femmes. Cette société est jugée à travers le regard inquisiteur de la narratrice qui se trouve contaminé par le regard de l'autre, de l'étranger, du français.

L'auteur nous met face à sa propre vie, et à travers son autobiographie, elle tente de nous faire découvrir les différences séparant la communauté autochtone à laquelle elle appartient, de celle du colonisateur vers laquelle elle tend désespérément.

A travers ce roman, elle tente de dévoiler sa passion pour cette langue de l'interdit. Elle fait défiler son texte sur les sentiers périlleux de l'Histoire de l'invasion française au risque de se condamner et de condamner son amour pour les lettres latines venues d'un ailleurs auquel elle appartiendra ultérieurement.

« L'Histoire, dans le « courant ethnographique » du roman algérien de langue française, se trouve au point précis de rencontre de deux mondes. Elle somme l'ancien monde de se dire. Elle est la mise en représentation sur une scène qui ne lui appartient pas, (celle que dessinent la langue française et le genre romanesque), d'un univers qui n'acceptait de se représenter qu'à lui-même. » [1]

Assia Djebar tente de revenir aux sources de l'aliénation, et essaie de comprendre l'étincelle qui a enflammé son cœur et a fait d'elle une femme différente des autres femmes de sa tribu et une écrivaine à part entière. Cette femme écrivaine commence par faire le portrait troublant des deux mondes en altercation, puis nous dévoile après la période coloniale la naissance d'une fusion entre les deux, mais loin d'être acceptée, elle est réfutée par cette nouvelle ère postcoloniale.

«La scénographie postcoloniale inscrit donc souvent l'œuvre dans le retour et le cheminement rétrospectif, non par nostalgie ou regret, mais pour faire jouer un passé (perdu et mythifié) contre un présent d'aliénation. » [2]

Notre écrivaine est à son tour à l'épicentre du drame du viol de la terre des origines, elle en porte les vestiges et tente, de par la force de la langue de l'autre, de raconter la tragédie des algériens pendant l'invasion, puis à l'ère coloniale et enfin durant l'indépendance. Ainsi, elle use de l'axe temporel pour essayer de se frayer un chemin. Elle nous révèle certaines vérités cachées par le colonisateur pour dévoiler l'effet factice de l'Histoire des manuels, puis y insère des bribes de son imaginaire pour que son hybridité devienne atemporelle. Cette hybridité est « un… grand principe de la critique postcoloniale…élaboré…par Homi Bhabha. »[3]

Djebar représente le noyau vivant de son roman et mène sa fiction dans le but de mettre en lumière sa réalité d'être hybride. Pouvons-nous imaginer qu'elle puisse réussir, à travers son écriture, à effacer les frontières entre les deux civilisations : algérienne et française ? Peut-elle exorciser les fantômes du passé colonial et personnel pour aborder enfin sereinement sa fusion charnelle avec la langue française ? Comment représente-t-elle l'inter-influence culturelle dans son roman ? Et pouvons-nous la considérer comme l'élément médiateur et la représentation du brassage des deux cultures algéro-française ?

Le fantôme du passé

Le passé trône en maître dans *L'amour, la fantasia*. Djebar jongle entre deux formes du passé : Le passé personnel et l'Histoire d'Algérie. Elle nous peint, à travers un tableau obscur, les prémisses de la colonisation, et tente de comprendre les effets de cette dernière sur sa vie personnelle. Elle échafaude des ponts entre sa vie et l'histoire d'Algérie pour

comprendre la société moderne dans laquelle elle vie.

Elle nous dévoile, en usant de mots poignants, l'établissement du premier contact entre les deux cultures. Djebar exploite le sens de la vision, à travers de longs passages descriptifs sur le premier regard de l'étranger porté sur cette terre depuis longtemps convoitée : « L'homme qui regarde s'appelle Amable Matterer. Il regarde et il écrit le jour même : « J'ai été le premier à voir la ville d'Alger comme un petit triangle blanc couché sur le penchant d'une montagne. »[4]. Cet officier français décrit l'Algérie avec platitude et la minimise à travers la vision du conquérant en prédisant sa future soumission « triangle…couché »[5].

Cependant, le premier regard n'est rapporté que par la partie française, et Djebar se propose comme l'intermédiaire qui va porter ce premier contact vers sa dimension bilatérale : « Des milliers de spectateurs, là-bas, dénombrent sans doute les vaisseaux. Qui le dira, qui l'écrira ? Quel rescapé, et seulement après la conclusion de cette rencontre ? »[6]

L'auteur reprend le flambeau des ancêtres, et en porte-parole, tente de dire à demi-mots ce dont ont été privés ses aïeux : « A mon tour, j'écris dans sa langue, mais plus de cent cinquante ans après. »[7]

Cependant, son regard n'est plus celui de l'Algérien d'autrefois car il est contaminé par celui de la civilisation française. Elle se met dans la peau du Dey Hussein ou plutôt le représente tel que l'Histoire de France le fait : « colère théâtrale ? »[8]. Elle le dessine comme un homme coléreux menant l'Algérie vers sa perte. Et à travers les rêves d'amour nourris par les femmes d'Alger avec un étranger, elle concrétise ses espoirs de voir un jour naître cette fusion entre les deux civilisations qu'elle porte en elle.

Le temps de l'invasion est figé par la narratrice qui cherche à immobiliser l'image de la première rencontre entre la flotte française et les algérois en *1830*.

« La marche des vaisseaux qui suit la direction du soleil se fait si lente, si douce que les yeux de la Ville Imprenable paraissent les avoir fichés là, au-dessus du miroir d'eau verte, dans l'aveuglement d'un coup de foudre mutuel. »[9].

Elle cherche par-là à créer une passion naissante qui ne sera que la concrétisation de son propre regard face à ces deux univers tant chéris. Ceci dit, elle brise le passé en y intégrant des prédictions sur un avenir bien connu par elle, par l'expression de « la ville imprenable » marquant par là en plus de sa présence dans une temporalité sensée inaccessible, l'impossibilité de cet amour qui ne fut qu'un terrible rapport de force entre deux sociétés.

Djebar, nous parle en parallèle de son premier jour d'école, considéré également comme le premier contact avec la société française et la naissance de la passion de la narratrice pour la langue et la culture de l'autre. Cette même langue a aidé l'auteur à atteindre, à travers la lecture des romans, ce nouveau monde qui s'offre à elle. Ce monde l'a façonnée et a intégré en elle les deux faces des deux sociétés. Ce mélange a fait de l'écrivaine un être hybride qui cherche à contaminer son récit de ce métissage.

L'auteur lève le voile sur l'horreur des enfumades des Ouled Riah et des Sbéah. Une vérité cachée par l'Histoire française et révélée par l'écrivaine. La langue française est utilisée comme un outil pour détruire l'image dorée dans laquelle s'emmitouflait le colonisateur français. Cette langue devient le bourreau de la civilisation à laquelle elle appartient.

Les algériens enfumés dont Pélissier a raconté l'histoire à travers la prose littéraire sont pour elle des êtres ressuscités. L'éternité des mots nous semble une réalité imbibée au sein de la civilisation occidentale car le Maghreb est plus ancré dans l'oralité. Cette vérité nous prouve que Djebar porte en elle les traces éternisées d'une société délogée depuis longtemps des terres algériennes. Et dans ce récit, nous sommes confrontés à l'établissement d'un contact encore plus poignant que celui entre le passé et le présent, c'est celui de l'effleurement et de l'entremêlement entre la période coloniale et postcoloniale grâce à l'écrivaine qui est le point de jonction entre les deux.

L'auteur nous raconte sa répulsion de la condition féminine dans l'Algérie de la période coloniale. Elle nous révèle la différence entre sa mentalité et celle des jeunes filles cloîtrées de son époque. Elle nous explique la cause principale de cette révolte qui n'est autre que son instruction et principalement sur les bancs de l'école française. Notre narratrice doit, à la langue de l'autre, son émancipation d'un code social opprimant la femme algérienne. Et nous nous retrouvons de nouveau face à une des poutres de la civilisation française : La liberté de la femme et son égalité avec l'homme. Cependant ce qui semble intéressant c'est que Djebar s'impose des limites avec l'autre sexe, et en amour elle le cherche chez ses semblables algériens. Elle ne peut admettre la constitution d'un couple mixte algéro-français. Elle revient vers le passé des femmes algéroises qui ne sont point troublées par le regard de l'étranger car elles lui sont imperméables. C'est à ce niveau précisément que nous pouvons déceler ce mélange culturel inscrit profondément dans l'esprit de l'écrivaine.

Djebar essaie par la suite de se convaincre que son état subversif n'est point le résultat de sa mutation, vu qu'elle nous raconte l'histoire de plusieurs femmes algériennes en quête de liberté. La première est née en *1830*, portant le nom de Badra. Cette dernière doit se marier par convention à un homme qu'elle n'aime pas. Elle finit par se dévêtir devant les hommes de Bou Maza, le révolutionnaire dont elle tombe amoureuse. Cette réaction n'est point l'effet du contact avec les français, mais le résultat de l'aliénation sociale due à l'insurrection autochtone face à l'ennemi et dont le reflet n'est autre que ce soulèvement féminin face aux lois préétablies. Une autre femme, petite fille à l'époque des faits est montée au maquis pour combattre l'ennemi. Cette réaction est aussi une preuve de cet esprit rebelle des algériennes qui n'a germé que comme résultat à l'injustice coloniale.

Djebar tente de concilier ces deux sociétés ennemies et cherche à réduire l'intensité de la répugnance entre elles. Elle nous décrit la scène du viol d'une jeune fille par un soldat français comme une véritable scène d'amour où les deux parties ressentent un plaisir mutuel. La narratrice nous met face à son interprétation personnelle du rapport entre l'Algérie et la France car elle veut effacer les scènes violentes du passé et les remplacer par une véritable fusion menant vers l'extase sociale. A l'image de Djebar, qui n'est autre que le fruit de cet amour défendu.

« Pour ma part, tandis que j'inscris la plus banale des phrases, aussitôt la guerre ancienne entre deux peuples entrecroise ses signes au creux de mon écriture. Celle-ci, tel un oscillographe, va des images de guerre – conquête ou libération, mais toujours d'hier – à la formulation d'un amour contradictoire, équivoque. »[10]

Le passé étend ses ailes pour permettre à Djebar d'utiliser la langue de l'autre pour se dire et raconter l'histoire de son pays. Elle nous rapporte cette longue histoire d'amour entre fusion et répulsion qu'Abdelkebir Khatibi nomme : « danse

de désir mortel »[11]. L'écrit devient un vaste champ de bataille parsemé d'étreintes amoureuses. C'est ce va-et-vient entre la séparation et la fusion de ces deux mondes qui crée le mouvement dans le texte.

1- Effusions culturelles

Les deux cultures, en confrontation dans le texte djébarien, débordent des frontières qui leurs sont assignées. Djebar les met en parallèle, les séparant l'une de l'autre mais finit par y créer des fissures lui permettant d'intégrer tour à tour l'une et l'autre. Elle est, en un sens, le réceptacle de ces deux cultures, l'être hybride que nous allons essayer de définir.

D'abord, elle nous parle de l'art comme étant le cœur même de la société française. Lors de la première invasion coloniale sur le port de Staouali à Alger, les conquérants ont ramené avec eux, sur leurs navires de guerre, un nombre important de dramaturges et de peintres.

Chacun des deux artistes tente de rapporter les faits de l'invasion et le poids de leur regard sur ces étrangers autochtones des terres algériennes. Djebar nous donne l'exemple du dramaturge qui relate l'histoire du père arabe refusant les soins apportés par les français à son fils, ce qui l'a conduit à la mort. L'acte du père traduit la répulsion que porte l'algérien au français. Ce rejet est compris par le français comme un acte barbare, mais le père ne pouvait considérer la médecine française comme efficace. Ces deux univers s'entrechoquent par l'intermédiaire de deux médecines différentes. Le dramaturge oublie que le véritable acte barbare n'est autre que celui de la colonisation conduisant ce jeune homme à sa perte.

Djebar cite les propos du baron Barchou, et se permet certains écarts dans sa description de scènes terrifiantes :

« Ces deux Algériennes – l'une agonisante, à moitié raidie, tenant le cœur d'un cadavre français au creux de sa main ensanglantée, la seconde, dans un sursaut de bravoure désespérée, faisant éclater le crâne de son enfant comme une grenade printanière, avant de mourir allégée – ces deux héroïnes entrent ainsi dans l'histoire nouvelle. »[12]

Ce passage transcrit l'état second dans lequel se trouvent les victimes algériennes de l'invasion. Dans la première scène de la femme tenant le cœur d'un français dans sa main, nous pouvons établir une image parallèle avec la civilisation arabo-musulmane. Celle de Hind la mécréante ordonnant à son esclave Ouahchi de lui ramener le foie de Hamza qu'elle mange. C'est une sorte de revanche de la part de cette femme algérienne musulmane, car elle se saisit du cœur de son tortionnaire impie. Cette violence forcément condamnable par l'occident n'est autre que le reflet de la violence initiale apportée par l'esprit conquérant du colonisateur.

Ces deux femmes sont des héroïnes pour notre écrivaine. Elles sont le reflet de la férocité et de la bestialité de cet envahisseur venu d'ailleurs dans le but d'exporter sa civilisation. Ces femmes nous ont prouvé que la barbarie du colon les a poussées à réagir atrocement. Nous ne sommes plus dans le choc des civilisations mais plutôt dans un concours sanguinaire.

Djebar nous fait l'esquisse de sa représentation personnelle de la culture de l'autre, de ses traditions et de sa mentalité. La narratrice nous raconte son enfance et son amitié avec une petite française. La première chose qui l'a marquée c'est la liberté de cette dernière : « Mais il y avait ceci d'extraordinaire : elle entrait et sortait à son gré…comme un garçon ! »[13]

Cette même liberté semble être au centre de son roman. Elle veut se libérer des chaînes de la

tradition et se frayer enfin un chemin dans ce monde cloîtré et sans issue.

Djebar nous décrit le moment où elle voit le décor intérieur de la maison de ses voisins français : « Le gendarme et sa famille me paraissent soudain ombres de passage dans ces lieux, et par contre ces images, ces objets, cette viande devenaient les vrais occupants ! »[14]. Elle nous projette dans un futur proche, dans lequel l'indépendance serait une évidence. Ce qui restera de ces êtres éphémères c'est leur civilisation, ou une partie de cette dernière. Notre écrivaine est la preuve vivante de ce phénomène car, à travers ce passage, elle est la dépositaire de cet amalgame entre les deux cultures. Des années plus tard elle ressuscite ces lieux morts et évaporés depuis bien longtemps.

Notre écrivaine se retrouve entre deux mondes. Elle n'est pas qu'un être hybride, mais au-delà de cela, son libre arbitre la pousse à se chercher à travers les plis de sa langue mère absente de son roman. Djebar nous expose un esprit mutant et conflictuel car prisonnier du débordement de ces deux sociétés. La culture algérienne et la culture française ont façonné la plus sublime des créatures car à son tour elle réussit à retranscrire les étincelles lumineuses de l'entrechoc des cultures.

« Le français m'est langue marâtre. Quelle est ma langue mère disparue, qui m'a abandonnée sur le trottoir et s'est enfuie ?...Langue mère idéalisée ou mal-aimée, livrée aux hérauts de foire ou aux seuls geôliers !...Sous le poids des tabous que je porte en moi comme héritage, je me retrouve désertée des chants de l'amour arabe. Est-ce d'avoir été expulsée de ce discours amoureux qui me fait trouver aride le français que j'emploie ? »[15]

3-Le cri s'écrit

La réalité hybride de l'écrivaine donne à son écrit une forme mutante. Djebar se trouve prisonnière au seuil de plusieurs mondes. L'enfermement crée en elle un trouble identitaire qui retentit sur son récit.

« La crise identitaire, on y reviendra, définit diverses situations individuelles et de groupe qui en dehors de tout déterminisme pathogène provoque une confusion dans les limites subjectives du moi en altérant le sentiment d'unité et de continuité qu'une personne en situation normale éprouve habituellement vis-à-vis d'elle-même et du monde qui l'entoure. »[16]

Cette crise identitaire se traduit par les sentiments contradictoires canalisés par l'auteur à travers son roman. Elle ressent de l'amour mélangé à une certaine forme de haine vis-à-vis de l'autre. Cet autre est, en même temps, l'Homme par opposition à la femme vu qu'ils appartiennent à deux univers différents, il représente également la société française en tant qu'ancien colonisateur, et la société turque représentant une conquête séculaire. Le texte se fragmente sous l'effet de cette opposition et crée une aquarelle aux couleurs et aux positions multiples de Djebar par rapport à ces cultures qui l'ont façonnée.

Elle nous raconte ses souvenirs d'enfance à l'école coranique, à travers laquelle elle nous projette certaines des traces de la civilisation turque associée à la civilisation arabo-musulmane et son mode d'apprentissage. Ainsi, elle nous décrit sa « Madersa », son imam et ses camarades de la façon suivante :

« Je n'ai vu cet homme qu'assis à la turque, auréolé de blancheur, la longue baguette du magister entre ses doigts fins.

En contraste, la masse des garçonnets accroupis sur des nattes-pour la plupart enfants de fellahs – me paraissait informe, livrée à un désordre dont je m'excluais. »[17]

Djebar dans cet extrait compare deux sociétés, d'abord l'imam qui représente l'héritage turc et arabo-musulman, ce dernier est placé en haut de l'échelle sociale tout comme les anciens conquérants turcs qui ont profité largement des richesses de l'Algérie, puis les enfants sont représentés comme faisant partie de la basse société celle des agriculteurs, donc des algériens d'origine, de laquelle Djebar s'exclut et avec laquelle elle ne veut avoir aucun lien.

Nous commençons à ressentir les traces de la mutation de Djebar lorsqu'elle évoque le « you you » poussé par sa mère pour manifester sa joie :

«Ma mère » et la « nounou »…osaient pousser alors le « you you » presque barbare. Cri long, saccadé, par spasmes roucoulants et qui, dans cet immeuble pour familles…européennes…devait paraître incongru, un vrai cri de sauvage. »[18]

Djebar qualifie ce you you de cri « presque barbare », le terme barbare renvoie au regard critique porté par les européens pieds noirs sur la société et les traditions algériennes. Djebar utilise le terme « presque » et par-là elle se place à la lisière de ces deux mondes. Un léger sentiment de honte émane de l'écrivaine qu'elle tente d'effacer en renforçant son écrit par son amour pour sa mère qui symbolise ses origines et ses traditions :

« Aux distributions de prix de l'école française, tout laurier obtenu renforçait ma solidarité avec les miens ; or cette clameur ostentatoire m'ennoblissait plutôt. L'école coranique, antre où, au-dessus des enfants pauvres trônait la figure hautaine du cheikh, devenait, grâce à la joie maternelle ainsi manifestée, l'îlot d'un éden retrouvé »[19]

Le cri considéré par les français comme barbare se transforme chez l'écrivaine en un véritable outil d'émancipation. Il l'aide à transcender son enfermement pour pouvoir enfin se libérer et libérer les autres femmes de sa tribu du poids de certaines coutumes qu'elle juge injustes. Ce même enfermement de la femme n'est autre qu'un héritage de la civilisation turque.

Djebar, se met d'abord à la place de ses ancêtres de sexe féminin qui furent condamnées au silence jusqu'à la fin de leurs jours. Elle tente d'utiliser le cri comme moyen de transmettre ses peines, car elle crie le jour de la mort de sa grand-mère : « Je crie et personne ne m'entend, étrange condamnation. Je crie, non pas comme si j'étouffais, plutôt comme si je respirais très fort, très vite. »[20]

Elle crie, également, le jour où son couple bat de l'aile. Cette fois-ci, elle exporte son cri de détresse en France où le son de sa voix réussit, enfin, à attirer l'attention de l'étranger. Le français, ému par le cri de Djebar, tente de venir à son secours. C'est à ce moment que se dessinent les courbes de cet amour défendu entre les deux sociétés tant chéries par l'écrivaine. Djebar, cet être hybride, arrive à façonner une fusion entre ces deux cultures aux interstices des lignes scripturaires de son roman : « Deux corps à peine tendus, proches une seconde l'un de l'autre, dans le bouleversement fugace d'une tristesse entrecroisée. Rêve d'enlacement. »[21]

Cependant cet amour ne peut aboutir au bonheur, mais conduit l'écrivaine vers un chagrin éternel. Elle nous fait donc basculer d'un bonheur rêvé vers une réalité décevante. C'est cette même réalité qu'elle tente de dépasser à travers son écrit. Le cri en tant que signe de désespoir et de révolte ne porte pas loin. Lorsque le cri s'étiole et s'évanouit, il ne reste plus que l'amertume de celle qui n'a pu transmettre ses angoisses à l'autre. Djebar a réussi à transformer le cri en écrit, ses mots traduisent sa rébellion et celle de ses aïeules qui sortent enfin de leur silence ancestral.

« Moi seule, je sais qu'elle ressuscite. Je ne la pleure pas ; de nouveau, je crie en courant dehors,…Ce rêve me permet-il de rejoindre la mère silencieuse ? Je tente plutôt de venger son silence d'autrefois… »[22]

Djebar traduit sa désillusion par rapport au monde qui l'entoure. Elle représente, à travers son être, une fusion entre plusieurs cultures ce qui la met à l'écart de ces mêmes sociétés créant en elle une fracture. Cette même fracture contribue à la naissance, durant les années quatre-vingt, d'une « littérature de l'amertume »[23]. Ces années représentent les premières années de parution du roman *L'amour, la fantasia* de Djebar, mais en même temps ce sont les années où plusieurs auteurs ont représenté leur désenchantement par rapport à la nouvelle société hybride de la période postcoloniale.

L'écriture de Djebar emprunte à l'auteur son hybridité, cette dernière tente de se placer à la lisière des genres. Djebar insère dans son histoire son autobiographie qu'elle associe à l'Histoire de l'invasion française en Algérie. Elle essaie à travers l'Histoire d'apporter un semblant d'explication à sa vie, et sa réalité de se trouver aux abords de divers univers.

En choisissant l'autobiographie, elle se donne en tant qu'auteur et narratrice le pouvoir de l'omniscience. Elle règne en maitresse absolue sur son récit qui est censé être attaché par les lourdes chaines de l'Histoire et de l'autobiographie. Elle utilise une narration « rétrospective » car elle se place au présent pour nous raconter les faits du passé : le sien et celui de la société algérienne.

« Si la narration est conduite au passé, narration ultérieure et rétrospective, le narrateur est automatiquement en situation de transcendance par rapport à la matière romanesque dont il a entière maîtrise, il travaille sur une intrigue finie dont il organise les pièces depuis l'achevé, d'où les anticipations et les procédés visibles de gestion du récit ; sa vision se rapproche de l'omniscience, et l'impression de déterminisme en est accentuée. »[24]

La narratrice réorganise les évènements du passé de l'Algérie et tente d'y insérer une partie de ses sentiments personnels. Elle met en exergue sa mutation pour nous révéler certaines réalités cachées par les français, nous donnons comme exemple l'enfumade des Ouled Riah, une tribu algérienne qui a été décimée par l'armée française. La langue française, symbole de l'hybridité djébarienne, se transforme en dague et fait couler l'encre de la vérité historique sur les pages de ce roman.

Djebar se trouve aux interstices de plusieurs espaces. Jacqueline Risset définit l'espace djébarien comme suit : « … « Une dichotomie de l'espace où se joue « l'option définitive : le dehors et le risque, au lieu de la prison de mes semblables »[25].

Les espaces créés par l'écrivaine se trouvent loin de cette dichotomie, et Djebar ne se déplace point de l'espace prison vers l'espace du dehors, vu que les deux espaces forment une boucle éternelle reflet de la mutation de l'auteur. Djebar pense se libérer de l'injustice de la société algérienne en se déplaçant loin de l'enfermement des femmes de sa tribu. Le dehors, symbole de la société française, est un espace libérateur pour Djebar, à l'encontre de l'espace des maisons qui n'est autre qu'un tombeau réservé aux femmes. Mais Djebar n'arrive pas à se libérer complètement et se trouve dans un état semi prisonnier. Elle est, donc, à l'entrebâillement de ces espaces, de ces aires, de ces mondes qui s'entrelacent.

Conclusion

Pour clore cette analyse, nous pouvons dire que Djebar a réussi à retranscrire les deux contrastes de l'attirance-répulsion entre les deux sociétés algéro-française. Elle reflète parfaitement la fusion

entre ces deux mondes en constante opposition. Non seulement elle arrive, à travers la représentation de l'histoire d'Algérie, à nous expliquer les causes de cette haine réciproque, mais au-delà de tout ceci, elle cherche à contaminer chacun des univers par l'autre. Ainsi, ses descriptions et son récit créent une véritable ambiance mutante dans laquelle l'écrivaine s'insère en profondeur pour enlacer son écrit dans la langue de l'autre et ne plus faire qu'un seul corps avec sa chair textuelle.

L'hybridité de l'écrivaine envahit le passé, et dans un rapport de force, elle viole les lois temporelles, celles des civilisations et se crée une aire nouvelle à la lisière des mondes

.

Références

1. Charles Bonn, *Le roman algérien de langue française*, Paris, l'Harmattan, 1985, p 28
2. Jean-Marc Moura, *Littératures francophones et théorie postcoloniale*, Paris, Presses universitaires de France, 1999, p 135
3. Florence D'Souza, « Littératures postcoloniales de l'Inde », in *Actualité et inactualité de la notion de postcolonial*, Genève, 2013, p 63
4. Assia Djebar , *L'amour, la fantasia*, Paris, Albin Michel, 1995 , p 15
5. Ibid, p 15
6. Ibid, p16
7. Assia, Djebar , *L'amour, la fantasia*, op.cit, p 16
8. Ibid, p 16
9. Ibid, p 17
10. Assia Djebar , *L'amour, la fantasia*, op.cit, p 301
11. Abdelkebir Khatibi , *La mémoire tatouée*, 1971, p 188
12. Assia Djebar , *L'amour, la fantasia*, op.cit, p 31
13. Ibid, p 35
14. Ibid, p 38
15. Assia Djebar , *L'amour, la fantasia*, op.cit, p 298
16. Noureddine Toualbi, *L'identité au Maghreb : L'errance*, Alger, CASBAH, 2000, p 20
17. Assia Djebar , *L'amour, la fantasia*, op.cit, p 257
18. Assia Djebar , *L'amour, la fantasia*, op.cit, pp 257-258
19. Ibid, p 258
20. Ibid, p 273
21. Assia Djebar , *L'amour, la fantasia*, op.cit, p 165
22. Ibid, p 273
23. Jean Dejeux, *Maghreb littératures de langue française*, Paris, Arcantère Editions, 1993, p 45
24. Françoise Rullier-Theuret, *Approche du roman*, Paris, Hachette, 2001, p 43
25. Jacqueline Risset, « L'amour de la langue », in Mireille Calle-Gruber, *Assia Djebar, Nomade entre les murs*,Paris, Maisonneuve et Larose, 2005, p 50

Bibliographie

BONN, Charles, Le roman algérien de langue française, Paris, l'Harmattan, 1985

BRUNN, Alain, L'auteur, Paris, Flammarion, 2001

CALLE-GRUBER, Mireille, Assia Djebar, Nomade entre les murs, Paris, Maisonneuve et Larose, 2005

DEJEUX, Jean, Maghreb littératures de langue française, Paris, Arcantère Editions, 1993

DJEBAR, Assia, L'amour, la fantasia, Paris, Albin Michel, 1995

D'SOUZA, Florence, « Littératures postcoloniales de l'Inde », in SYMINGTON, Micéala, MOULIN, Joanny, BESSIERE, Jean, Actualité et inactualité de la notion de postcolonial, Genève, Honoré Champion, 2013

ECO, Umberto, De la littérature, Paris, Grasset, 2002

GENETTE, Gérard : -Palimpsestes, Paris, Seuil, 1982

-Esthétique et poétique, Paris, Seuil, 1992

HEINICH, Nathalie, Etre écrivain (Création et identité), Paris, La découverte, 2000

KHATIBI, Abdelkebir, La mémoire tatouée, 1971

MOURA, Jean-Marc, Littératures francophones et théorie postcoloniale, Paris, Presses universitaires de France, 1999

RULLIER-THEURET, Françoise, Approche du roman, Paris, Hachette, 2001

TOUALBI, Noureddine, L'identité au Maghreb : L'errance, Alger, CASBAH, 2000

Action Research for Curriculum Development: An Alternative Approach in the Algerian Centralised Framework.

Ikhlas GHERZOULI*

الملخّص

يتطرق الأدب في مجال المناهج إلى ما ينبغي على المدرسين أو ما يمكنهم القيام به قصد المشاركة في عملية تطوير المناهج التي يعتمدونها ، لذا أصبحت المشاركة الفعّالة للمدرسين في سنّ المناهج جد ضرورية ، فهم من يساهم في عملية تطوير المناهج الدراسية المعتمدة من خلال الممارسة التطبيقية لها ، كما يوظفون نظريات المناهج في البحث العلمي ، ويستهلكون معارف المناهج ، وعلاوة على ذلك فهم من يقوم بإنتاجها وتطويرها من خلال الممارسة.

تسلط الدراسة الضوء على مقاربة تتمحور حول مشاركة الأساتذة في إعداد البرامج والمتمثلة في "البحث العملي" ، "البحث الإجرائي" ، "البحث التدخلي" أو "البحث العملي الميداني".

تهدف الدراسة إلى تحقيق هدف أساسي ينقسم إلى شقين ؛ الأول: استعراض الأدب بخصوص "المناهج" ، "تطوير المناهج" و"البحث الإجرائي" من ناحية ؛ فيما يستعرض الشق الثاني التشديد على ضرورة مشاركة الأساتذة في إعداد البرامج ، مع التركيز على إصلاح التعليم الثانوي بالجزائر الذي يخضع لمركزية تامة ورقابة شديدة.

الكلمات المفاتيح: المناهج الدراسية ، تطوير المناهج ، البحث العملي الميداني ، إصلاح التعليم الثانوي بالجزائر ، المركزية.

Résumé

La Littérature dans le domaine du curriculum s'interroge sur la mesure dans laquelle les enseignants devraient ou pourraient participer au processus de développement du curriculum qu'ils adoptent. Etant les praticiens, les enseignants sont ceux qui transmettent la théorie en pratique. Cependant, ils ne sont pas seulement des consommateurs de connaissances des curriculums, mais aussi des producteurs importants de ce dernier. Ainsi, la participation active des enseignants principaux intervenants dans le processus d'élaboration des programmes est une nécessité. L'article décrit une approche pour la participation des enseignants à l'élaboration des programmes, ce qui est la *recherche-action*. L'objectif principal de cet article comporte deux volets: en premier lieu, il explore la littérature sur *les curriculums, le développement du curriculum* et la recherche-action; et en second lieu, il met en valeur la prédominance de la participation et de la recherche des enseignants dans l'élaboration des programmes, en accordant une attention particulière à la réforme de l'enseignement secondaire en Algérie, qui est très contrôlé et centralisé

Mots clés : recherche-action, réforme de l'éducation algérienne, la centralisation, curriculum, développement des curriculums.

Summary

Literature in the field of curriculum is debating the extent to which teachers should or could participate in the developmental process of the curriculum they enact. Being the practitioners, teachers are the ones who transmit theory into practice. However, they are not only consumers of curriculum knowledge, but also significant producers of it. Thus, teachers' active participation as primary stakeholders in the curriculum development process is a necessity. The paper outlines one approach for teacher participation in curriculum development, which is action research. The main aim of this paper is twofold; first: it explores literature about 'curriculum', 'curriculum development' and 'action research'; and second, it emphasizes the prominence of teachers' involvement and research in curriculum development, paying specific attention to the Algerian secondary school educational reform, which is highly controlled and centralised.

Key words: action research, Algerian education reform, centralization, curriculum, curriculum development

* Maitre-Assistant 'A', Université Des Frères Mentouri Constantine 1

Introduction

Curriculum development, as one way of educational reform, continually undergoes review, revision, and constant change (Johnson, 2001)[1]. The process can be initiated and carried out by various stakeholders in the society, such as government, administrators, teachers union, media, and academics. This process can be challenging, therefore active participation of all stakeholders is one of its prerequisites. The stakeholders, with their assorted roles, may add varied feedback to the process. However, the success of the whole process depends on teachers as they act as the passage between what is planned, what is taught and what will be obtained as a result of the implementation process. In order for curriculum development to be effective and schools to be successful, teachers must be involved in the developmental process. Being the individuals, who are directly involved in learners' instruction, teachers views and work are to be taken into consideration for successful curriculum development. Moreover, curriculum development through teacher action research can reduce the distance between policy-makers in charge of planning the curriculum theory on the one hand, and teachers-practitioners in charge of implementing the curriculum on the other hand.

Teachers are the major pillars in any centralised curriculum improvement effort. Thus, in this paper, reasons behind the necessity of their involvement in curriculum development, through action research, will be highlighted. But, before discussing this point literature on 'curriculum', 'developing curriculum' and 'action research' will be first considered. Then, the article will discuss the links between action research and teacher involvement in curriculum development, with particular reference to the Algerian secondary school English language curriculum development.

1. Curricular Conceptualisations

Curriculum plays an important role in education. It considers guidance of teachers' instruction, what learners will learn and when will they learn. It offers teachers strategies to assess how well the learners' progress (outcomes). It is the 'heart' of any educational system. Moreover, every time changes or developments take place around the world, schools curricula are automatically affected in order to fit the society's needs. As an umbrella term, curriculum includes a lot of matters due to the different meanings and interpretations the term has received by different writers. Yet, providing an accurate meaning of what the term implies is hardly conclusive. While there is no universally accepted definition of curriculum, the multicity of meanings given to the term portrays its dynamism. In this vein, this section briefly clarifies different conceptualisations of the term.

In a narrow view, curriculum is regarded as a means for achieving specific educational goals and objectives. In this sense, the focus is on products or ends, as the curriculum takes the form of a checklist to desired outcomes. Based on this objectivist approach, Kerr (1968)[2] views curriculum as a learning which is government-oriented, also called top-down. Curriculum can also be understood as a process of selecting courses of study or content (Beauchamp, 1977[3]; Wood and Davis, 1978[4]). Compared to the first definition, the focus here is on course content rather than learning objectives. Moreover, a curriculum can be seen as a plan, or a blue print for systematically implementing educational activities. Similarly, Pratt (1994, p.5)[5] conceives curriculum as *'a plan for a sustained process of teaching and learning'* with specific focus on content and the process of teaching and learning. Other researchers view curriculum as a document or a written outline of a course program (Brady, 1995[6]; Barrow and Milburn, 1990[7]).According to Kelly (1999)[8], curriculum is negatively seen as a *'syllabus which may limit the planning of teachers to a consideration of the content or the body of knowledge they wish to transmit or a list of the subjects to be taught or both'* (p.83). In this sense, curriculum is synonymous with the term 'syllabus', which is not fair.

Instead of considering the narrow view of curriculum as classroom content or prescriptive learning objectives, a different conceptualisation

considers curricula as programs of experiences. In this regard, curricula refer to the totality of individuals' learning experiences, not only in school but society as well (Bilbao et al., 2008, cited in Alvior, 2014)[9]. It is either *'the range of experiences, both indirect and direct, concerned in unfolding the abilities of the individual'* or *'a series of consciously directed training experiences that the schools use for completing and perfecting the individual'* (Bobbitt, 1924, cited in Wiles and Bondi, 2007[10], pp.2-3). Similarly, Taba (1962) defines 'curriculum' as *'all of the learning of students which is planned by and directed by the school to attain its educational goals'*. To Tyler (1957), it is *'all of the experiences that individual learners have in a program of education whose purpose is to achieve broad goals and related specific objectives, which is planned in terms of a framework of theory and research or past or professional practices'* (Taba, 1962; Tyler, 1957 cited in Wiles & Bondi, 2007, pp.2-3). Definitions under this conceptualisation share the idea that curricula are 'planned' and they are the whole of 'experiences'.

The nature of curriculum can be identified in one of three forms: planned curriculum, received (delivered) curriculum and hidden (experienced) curriculum (Kelly, 1999, Quinn, 2000[11]). The planned curriculum refers to what is set down in the syllabus that is the document which contains the plan of school activities. The received curriculum refers to the students' real experiences. Whereas, the hidden curriculum refers to the implicit knowledge learners acquire in school. Morris and Adamson (2010)[12] raise the idea of null curriculum and outside curriculum above the three types stated by Kelly (1999). The null curriculum refers to what is not taught but actually should be taught in school according to the needs of society. Outside curriculum means the knowledge students learn outside classroom and school.

As far as the Algerian context is concerned, the term curriculum in the country is often associated with a course of study at school. It is commonly understood to be a document or a plan imposing a specific educational policy, which emanates from the top of the hierarchy, and is mailed to schools from the ministry of education. In the Algerian system, both curriculum and textbooks are centrally created and published. A single textbook completely controlled by the country is the only one used under the country's education policy. Additionally, there is neither a place for a decentralised curriculum development, nor curriculum adaptation to local needs. To the best knowledge of the present writer, Algerian curricula exclude practitioners' voices. This situation serves a great disincentive for the country's reform. This view differs from situations elsewhere, say, USA or UK, where teachers select from whatever set of curriculum materials that are available, and develop them further for use in their classrooms. For a successful curriculum change, curriculum in Algeria should not be understood as a 'product' but as a 'dynamic process4. It should also engage all participants in its active construction through their work, just as team sports players dynamically construct the game as they play it.

In this section, curriculum was broadly defined. Relevant literature on the term is thoroughgoing, and the endeavour to bring discussion of all the definitions goes beyond the scope of this paper. Moreover, probing into the relevant literature does not make the main thrust of the present paper. This, however, paves the way for a broader view of curriculum and curriculum development process. Also, no matter how curriculum is defined, be it learning, experiences, contents, objectives, or courses (Hyun, 2006)[13]; definitions matter mainly because clarification of meanings and operational terms is imperative for the curriculum to change. In other words, curriculum design and development will chiefly depend on how stakeholders employ and use the term. In the next section of this paper, theory on curriculum development is reviewed.

1.1. Curriculum Development

Curriculum development is the process of putting in place precise guidelines of instruction for the curriculum. It is something undertaken by

authorities. It is crucial to understand what curriculum reform means and within which contexts do reforms generally take place. According to Kennedy (2007)[14], *'curriculum reform is about changes to the content and organization of what is taught, within the constraints of social, economic and political contexts'* (p.173). This definition clearly shows that one country may differ in its formulation of curricular reforms from another. Nevertheless, all countries, in their processes of curricular development, comply with the same rule of thumb that is consistency with their own society values (Kennedy, 1995). Moreover, all curriculum development processes are subject to various challenges. These challenges are generally classified into three categories. The categories comprise:global or external challenges (globalization, accelerated pace of scientific and technological process), internal challenges of the country's education system and challenges specific to regions.

Similar to curriculum, definitions for 'curriculum development' also vary, chiefly depending on the period they have been provided. Johnson describes curriculum development as *'all the relevant decision-making processes of all the participants'* (Johnson, 1989, p.1, cited in Segovia & Hardison, 2009[15], p.154). Graves (2008, p.147)[16] describes it as *'the processes and products of planning, teaching and evaluating a course of study or related courses'*. Nunan (1988, p.10)[17] describes it as *'the systematic attempt by educationalists and teachers to specify and study planned intervention into the educational enterprise'*. This list of definitions is not exhaustive, yet it includes all aspects of curriculum development from design, dissemination, implementation, to evaluation. Additionally, in line with the emergence of new theories and innovative approaches in the field, what was understood by planning, designing, teaching, implementing and evaluation has continued to change and grow.

Throughout its history, and starting with Franklin Bobbitt's Curriculum, the curriculum development process has been improved. Tyler came up with four basic steps of the process; namely aims and objectives, content, organization and evaluation (Tyler, 1949, cited in Richards, 2001[18]). Taba came up with a system of curriculum development that encompasses diagnosis of needs, formulation of objectives, selection of content, organization of content, selection of learning experiences, organization of learning experiences, and determination of what to evaluate and means of doing evaluation (Taba, 1962, p. 12,cited in Ibid., p.8). Furthermore, in1988, Nunan, in his 'learner-centred curriculum', contributed to the field by adding original touches to the curriculum development process. He discussed the pre-course planning procedure (needs analysis, grouping learners); planning content; methodology; material design; and evaluation. This is similar to Carl's (1995)[19] definition, in which curriculum development has been viewed as a *'continuous process in which structure and systematic planning methods figure strongly from design to evaluation'* (p. 40).Richards (2001) added more steps to the process of curriculum development, which are situation analysis and ways of improving teaching.

Curriculum development may happen in a centralised (top-down) or decentralised (bottom-up) initiative. The literature presents many reviews of centralised and decentralised educational systems in terms of their benefits and drawbacks, different ways of adapting them, and outputs they produce (Bezzina, 1991[20], March, 1992[21], Roehrig et al., 2007[22]; Fullan, 1998, cited in Hargreaves et al, 1998[23]). The centralised curriculum, on one hand, refers to the design whereby decisions pertaining to content, planning and implementation are taken by a central national office, usually the ministry of education. In a centralised approach, policy makers engage education experts who might not have had experience of school system and are therefore detached from classrooms' realities (Wedell, 2009[24]). The secondary education national curriculum in Algeria is one example of a centralised curriculum development initiative .Decentralised initiatives, on the contrary, originate from individuals or groups within educational institutions, usually referred to as the 'grass-roots'.

These initiatives are self-directed by the people involved in the implementation (mainly teachers). Moreover, all stakeholders in the system being reformed will share decision-making power.

Both centralised and decentralised curriculum development initiatives have their benefits and shortcomings. Centralised curriculum is more structured, orderly, and ensure uniformity and a standard approach to teaching and learning. Besides, it has a uniform mode of certifying learners. Indeed, it is in the interest of governments that control of content of the curriculum and the manner of its delivery are in their hands so that they can monitor progress. However, a top-down initiative is usually less sensitive to local needs. It is described by Goodson (2003, p.xiii)[25] as *'brutal restructuring'* delivered in *'ignorance or defiance of teachers' beliefs and missions'*. Centrally initiated curriculum change is unlikely to be successful unless it actively engages the *'practitioners who are the foot-soldiers of every reform aimed at improving student outcomes'* (Cuban, 1998, p.459)[26].

Decentralised curriculum tends to be more appropriate to learners' local needs, owing to the fact that differences may exist from community to another. This kind of initiatives often ensures better ownership of the course by teachers. However, the extent to which decentralisation reduces the central power of ministries can lead to failure of efforts to carry out functions and a collapse of decisions. Though the line between centralised and decentralised approaches to curricula is blurred in reality, both initiatives can be highly successful under certain conditions. Also, successful initiatives that have brought sustainability to curriculum have always consisted of both bottom-up and top-down activities (Ryan & Cotton, 2013)[27].

Based on the discussion provided herein, one can notice that the curriculum development process is a key component of the changing education system. The process turned out to be more challenging at times. Nowadays, as an attempt to address societal demands and legislative dictates to prepare a workforce for the 21st century, policies around the world are reforming their curricula. According to David Hopkins, *'the amount of change expected of schools has increased exponentially over the past 15 years. Yet, even this situation is beginning to change. Change is now endemic, it is becoming all pervasive'* (2001, p.35)[28]. The phenomenon of change came in an era where top-down strategies of curriculum development have become popular both in the developed and developing countries (Punia, 1992)[29]. Curricula innovations in Africa and a few other parts of the world were initiated top-down (Ramparsad, 2001[30]), through 'power coercive' or 'unilateral administrative decisions' (Zhao et al., 2002[31]), in utter negligence of the much 'powerfully-embraced' 'grassroots' (Begg, 2004[32]; Rogers, 2003[33]). This phenomenon forms part of a wider trend, and is not limited to Algeria per se.

1.2. Curriculum Development in Algeria

After the independence in 1962 and with the creation of the Ministry of Education in 1963, Algeria embarked on a process of building an inclusive national education system. Since then, the country lived a series of reforms. The most significant reform was that of 1971. Issues such as inclusion of democratization, insurance of free education for all, arabisation, and employment of Algerian teaching staff characterized that reform. Moreover, the Algerian educational system of the 1971was structured on a 5+4+3 schooling years model: five years for primary school level, four years for middle school level, and three years for secondary school level (Benrabah, 1999)[34]. In 1976, a new schooling system called the fundamental school was applied. The period of compulsory education has been extended from six to ten years. Therefore, the construction of the school system was restructured on a 6+3+3 model (six years for primary school level, three years for middle school level and another three years for secondary school level). In the school year 1992-1993, English was introduced alongside French as a second foreign language. Moreover, English has been granted more prominence in that it was introduced in the first year of the middle school level (Order n°76-35 of April

16th, 1976, organizing the education and training in Algeria)[35].

In 2002, Algerian authorities felt the need to reform the educational system, which was described as being 'doomed' by president *Bouteflika* prior to his election as a president. Thus, an executive decree (Order n°03-08 of August 13th, 2003)[36] that amended the 1976 reform was passed by the government. There was a strong desire from the part of authorities to depart from the previous teaching methodologies which aimed at developing the learners' communicative competencies. So, after trying many approaches and methods; such as the Grammar-translation, the direct method and the communicative approach a new reform took place in 2003. Following the recommendations set by the National Commission for the Reform of Education, the Algerian educational system has adopted the Competency-based Approach (CBA).Through the use of the CBA in Algeria, Algerian authorities sought to achieve a new vision about teaching and learning English as a means to respond to global needs for communication and modernization. The 2003 reform represents the current educational system. In nutshell, this educational system is still highly centralized. It still heralds unmatched control over curriculum content and teaching methodology, because the national education policy is ultimately decided at the top.

The implementation of educational change involves change in practice. This change should occur at many levels. One of the most significant levels is the teacher, because he is the closest one to daily instruction. The importance of the teacher as an agent of change in the reform process is widely undeniable. Fullan (2007)[37] affirmed that without teachers, making critical changes in instructional practice will simply not prepare learners to meet the 21st century demands. Indeed, *'educational change depends on what teachers do and think; it is as simple and as complex as that'* (Fullan, 2007, p.129). Although, the emergent view of teachers' roles are often in conflict with the traditional view of teachers' performance, the leadership roles of teachers is becoming more prevalent and more challenging (Monson & Monson, 1993[38], Hargreaves, 1995[39], Scott, 1994[40]). However, threats to teacher involvement typically come from a top-down control of curricula. As educational systems generally mandate change from the top, this can leave teachers feeling powerless to implement the change.

The emergence of action research as a teacher-based form of curriculum development might be an alternative response to the growth of top-down education systems. It might also be an alternativet o hierarchical control over teachers' professional practices. Action research has been defined differently by different scholars in the field, but regarding curriculum development, it resulted as a reaction to the traditional view of curriculum as a product. The dimensions added to curriculum development by educational action research, particularly its critical-emancipatory version, can shape a decentralised orientation (McKernan, 1996)[41]. In other words, a decentralised atmosphere will provide teachers with operating conditions that allow them to actively participate in shaping the curriculum development process. By focusing on teachers' reflection through action research, and viewing teaching as a process that not only implements theory but also produces knowledge, action research actually established this alternative approach to curriculum. The next section of the present paper provides a review of what action research is and the process that can be used to implement this kind of research in curriculum development.

2. Action Research

The origins of action research are unclear within literature. However, despite the clouded roots of the term, a number of researchers (Adelamn, 1993[42], Gitlin et al., 1993[43], Hart and Bond, 1995[44]; Holter and Schwartz-Barcott, 1993[45]; Kemmis, 1993[46],Kemmis and McTaggert, 1990[47],Noffke, 1994[48],Somekh, 1995[49],Zuber-Skerrit, 1993[50]) seem to attribute the termto Kurt Lewin's pioneering work in the 1940's amongst factory workers and immigrants affected by post-war social problems in

the USA. Similarly, McKernan (1996) traces the roots of action research to the science of Education Movement and Dewey.

Kurt Lewin's methodology describes the theory of action research as '*proceeding in a spiral of steps, each of which is composed of planning, action and the evaluation of the result of action'* (Kemmis & McTaggert, 1990, p.8). McKernan (1991)[51] states that action research as a method of inquiry has evolved over the last century and careful study of the literature shows *'clearly and convincingly that action research is a root derivative of the scientific method'* (p.8). Kurt Lewin was also persuasive in developing theories of group dynamics and social change. He advocated the use of field experiments alongside surveys but he also emphasized the role of social science in initiating changes in social practices (Lewin, 1948)[52]. Lewin highlighted the necessity of action research on the grounds that it has to be done locally. He stated that no general laws can prescribe the strategy for change (Ibid., 1948). According to Lewin, cooperation of social researchers and practitioners with externally decided problems is advantageous. Group work within workplaces increases the likelihood of successful permanent changes in work practice (Ibid., 1948).

Though Lewin's work has, according to Somekh (1994), been criticized, it emphasized the importance of democratic participation. It also emphasized the fact that action research could be carried out in four different approaches. Similarly, Adelman (1993), drawing upon the work of Marrow (1969)[53], described four approaches of action research. These approaches are: experimental action research (which investigates the relative effectiveness of different techniques); empirical action research (which involves the accumulation of evidence in daily work from similar groups); participant action research (that investigates a local problem); and diagnostic action research (where external change agents would intervene to produce a needed plan of action). These four different approaches have, according to Kemmis (1993), *'presaged three important characteristics of modern action research: its participatory character, its democratic impulse, and its simultaneous contribution to social science and social change'* (p.179).

McKernan (1988)[54] states that there is evidence of the use of action research by a number of social reformists prior to Lewin, such as Collier in 1945, Lippitt and Radke in 1946 and Corey in 1953. Similarly, Altrichter and Gestettner (1993)[55] draw upon the work of two German writers who argued that *'not Lewin but J.L. Moreno should be seen as the founder of action research'* (p.323). Further, Reason and Bradbury (2006)[56] point to Marxism and the work of Freire as the basis for action research. The central point of Marxism's influence on Action Research is the idea that the important thing is not to understand something, but to try to change it. Freire is also recognised as influential in the development of Action Research. He developed an educational methodology designed to enable illiterate people to understand and articulate a critical view of the world and is a founder of what has become known as critical pedagogy.

Despite the contradicting views about the founder of the approach, there was a great interest in action research for curriculum development in many parts of the world. In USA during the post war period, the work of Corey and Taba was influential. However, the interest declined at the end of 1950s and after that the gap between educational research and teaching practice widened (Holly, 1991)[57].

In the UK around the late 60s and early 70s the 'teacher-researcher' movement advocated by Lawrence Stenhouse in the secondary education sector appeared (Holly, 1991). Somekh (1994) asserts that John Elliott had an influence upon Stenhouse's thinking in the Humanities Curriculum Project. He has established a tradition of curriculum action research which has been adopted elsewhere. This tradition sought to bring the practicing classroom teacher into the research process as the most effective person to identify problems and to find solutions. Stenhouse (1975)[58] maintained that effective curriculum development depended upon

the teachers' capacity to inquire into their practice in a critical and systematic way. He compared the classroom to a laboratory where the teacher's crucial role as a researcher aims improving his practice. Stenhouse did also explain how teachers and academic researchers may work together. He stated that research should be done with but not on teachers. ForStenhouse, research was educational only if it could be related to educational practice (Stenhouse, 1981)[59]. Last but not least, Stenhouse (1975) saw reflection through action research as the key to school development.

The fundamental aim of action research has always been the improvement of practice rather than the production of knowledge (Elliott, 1991)[60]. Elliott (1991) stressed the fact that teachers felt a need to initiate change in their practice as a necessary precondition of action research. Thus, in his view, action research combines teaching, research, evaluation, and improvements of teaching and professional development. Likewise, Elliott highlighted action research as qualitative research using methods such as diaries, documents, photographs, videos, interviews and observations.

There was a shift in action research development from an interpretive stand towards a formation of a concept of critical educational science by Carr and Kemmis (1986)[61]. This latter is based on the social theories of Habermas. Carr and Kemmis (1986) proposed that action research should be grounded on critical or emancipatory educational science. The aim is the transformation of education in a democratic, participatory and collaborative research process. In this process, theory and practice are dialectically related in critical analysis. Carr and Kemmis(Carr &Kemmis, 2009)[62]have recently discussed how action research is always at the same time personal, professional and political. It is political as it inevitably addresses questions about the kind of society that educational alteration should aim to foster and create.

Educational action research has been thriving throughout history. Nowadays, there are different views on action research. Some advocate it for professional development (Furlong & Salisbury, 2005)[63].In a number of countries, it is even recommended as part of educational policy developments for teacher professional development (Burns, 2010)[64]. Other people disagree on whether it is a special research paradigm (Pine, 2009)[65], a methodology of research (Noffke & Somekh, 2009)[66], an influential tool for school and classroom investigation (Burns, 2010) or an orientation towards research (Reason & McArdle, 2003 as cited in Ladkin, 2004[67]). But, at the heart of all these action research should result in improvement of teachers' teaching practices. Although some people may view action research as an informal research since teachers are not academic researchers, it is fair to say that action research is extremely suitable for education.

2.1. Current Practices of Action Research

The current state of the world is characterised by an action-oriented, participative, experimental approach to knowledge creation (Bradbury, 2015)[68]. The contemporary status of action research is toughly connected with a growing belief in teacher professional development; in-service education, possibilities for school-based curriculum development, and professional self-evaluation. Teacher research represents a very direct form of applied, problem-solving approach to curriculum problems. The adoption of action research in second or foreign language education falls in three major categories: action research in formal graduate and postgraduate education; collaborative teacher research projects; and classroom teachers individual projects (Burns, 2009)[69].

The first category of action research refers to small-scale projects undertaken by student teachers. This kind is required in term papers and classroom presentations. Teacher educators who include such action research projects in their courses aim to raise student teachers' awareness of the relevance of research for teachers (Burns, 2009). Moreover, undertaking a unit in action research methodology provides student teachers with a systematic, reflective approach to address areas of need within their respective domains (Hine, 2013[70], Johnson,

2012[71]).Likewise, action research workshops may be used to replace traditional in-service teacher training (Barone et al., 1996)[72] as a teacher development strategy (Johnson, 2012). Action research in teacher education programmes plays an important role in the preparation and professional development of both pre-service and in-service teachers (Hotler & Frabutt, 2012)[73].

The philosophy underlying the second category of action research is basically based on involving teachers in wide-scale institutional curriculum change and continuing professional renewal. In some countries, such programmes are likely to emanate from government grants or educational findings provided that researchers and teachers work together (Burns, 2009). The collaborative nature of action research is highlighted by other writers (Noffke, 1997[74], Reason & Bradbury, 2001[75]). Collaboration, which brings together theory with practice and action with reflection, provides '*practical solutions to issues of pressing concern to people, and more generally the flourishing of individual persons and their communities'* (Reason & Bradbury, pp.9-10). Put it another way, action research may be geared towards effecting change in either individuals' practices (Holter & Frabutt, 2012), or within broader communities through collaboration (Mills, 2011)[76].

The third category of action research is carried out by individual teachers. Usually much of this type of action research remains localized and unpublished (Burns, 2009). In this category, action research becomes hard since teachers may probably be not able to use a standard format to report their findings. Also, the cyclical nature of action research is time-consuming. Personal teachers' researchers' over-involvement, subjectivity, assumptions, prejudices, and social positions will bias the research findings (Gatenby & Humphries, 2000)[77]. Action research of this type has been criticized as being local and failing to examine broader systemic oppression (Cooke& Kothari, 2001)[78].

3. Prominence of Teachers' Involvement and Research in Curriculum Development

Curriculum development can be stimulating, therefore the involvement of all teachers, who are directly involved in learners' instruction, is a vital piece in successful curriculum development. So, this section will highlight the importance of teachers' involvement in curriculum development, and action research as one approach for this involvement.

3.1. Teachers' Involvement

One of the key elements in educational reforms is the teacher. Without a doubt he is the principal agent in communicating the curriculum. Societies have finally understood that the teacher is not just one of the variables that must be changed if their educational systems are to be improved. However, he is also one of the most significant agents of change in such reforms (Villegas-Reimers, 2003)[79]. Cohen and Hills (2001)[80], and Kubitskey and Fishman (2006)[81] equally maintain that the sustainability of reform initiatives relies on teachers maintaining alignment with the intent of the initiative. Curriculum implementation can only be successful if teachers are involved in its development and implementation. However, in countries where curriculum is still largely centrally-controlled, teachers' experiences and talents are unfortunately untapped. Carl (2002)[82] affirmed that the 'voice' of the teacher is to a large extent ignored or not heard. Thus, policy makers need to acknowledge the experiences and talents of the teachers in the curriculum development process.

Curriculum development, as stated earlier, is open to many interpretations. However, for the purposes of this article, it is regarded as an encompassing and continual process. The process comprises any form of planning, designing, dissemination, implementation and assessment of curricula (Carl, 2002, p. 44). It is within this process of curriculum development that the teacher can and should become involved. The nature and scope of teacher involvement is often determined by curricular conceptualization (Imber & Neidt, 1990[83], Elbaz, 1991[84],Fullan& Hargreaves, 1992[85],Fullan,

2001[86],Haberman, 1992[87], Carl, 2002). Hence, two main propensities regarding teachers' participation can be distinguished. Firstly, teachers may be regarded as merely 'recipients' of the curriculum that is developed by specialists elsewhere. Therefore, the teachers' role in curriculum remains limited to the right application of what has been developed by those specialists. This so-called 'top-down' approach, as stated earlier, is detrimental to teachers' ownership of the curriculum process. Secondly, teachers may be regarded as partners in the process of curriculum change. There should therefore be an opportunity for their 'voices' to be heard before the actual implementation.

Handler (2010)[88] argued that there is a need for teacher involvement in the development of curriculum. Similarly, Fullan (1991)[89] argued that the core of teacher involvement in curriculum development leads to effective achievement of educational reform. By being the most powerful stakeholder in the process of curriculum development, for the earlier stated reasons, teachers will enable realization of the curriculum. However, teachers must be trained and qualified. Teachers may carry a heavy burden for curriculum development and yet have little time for research. For Nunan, the teacher as a researcher, *'often lacks the appropriate training in the collection and interpretation of classroom data'* (1990, p.63)[90]. Thus, teachers' training is imperative. Being novice or experienced teachers, teachers should also be trained according to their performance (Richwine & Biggs, 2012)[91]. Cohen and Hills (2001) noted that expecting teachers to embrace new instructional approaches without sufficient training and information about the necessity of a change often result in inadequate adoption of it. Vally and Spreen (1998)[92] suggested even massive training for teachers' involvement in curriculum development.

3.2. Teacher's Action Research

Reflections on the above discussions show that the technical view of teachers as implementers of a centralised curriculum is somehow fading away. The view started to be replaced by teachers 'involvement and research in curriculum implementation and development. The view, where the practice of teachers is limited to implementing curricula, which have already been developed elsewhere, holds true for the Algerian context. For Taylor (2013)[93], the technical trend is believed to construct teachers as technicians following existing procedures and allowing only limited teacher agency in curriculum-making. The technical approach to curriculum change privileges the researcher, developer or policy maker and neglects the practitioner who is supposed to carry out the curriculum. This technical curriculum policy implies that the curriculum is developed by one set of people. It is implemented by another set of people and received by yet another set. Nevertheless, this way of perceiving curriculum is sometimes described as a naturally occurring thing (Grundy, 1987)[94].

The curriculum must change with the developing and changing nature of the classroom. Action research is one approach in which teachers' involvement and research can have a prized role in curriculum change and development. Teacher action research in curriculum development challenges certain traditional assumptions of the technical approach. It challenges, for instance, the separation of research from action. Also, action research challenges the separation of the researcher and the researched. Again, traditional approaches to curriculum development place teachers (like learners) on the receiving end of the process. So, the researcher (policy maker or curriculum developer) is separated from the subjects of the research. Thus, action research challenges this separation. Yet what action research challenges is also challenging to teachers.

One challenge to teacher research is the disempowerment of teachers through highly prescriptive curricula and strict regimes of inspection and control in many countries (Priestley & Biesta, 2013)[95]. This latter automatically leads to various implementation difficulties. Teachers in centralised curriculum policies, for instance, expect to receive knowledge produced by others. As a result

of that, they will lose confidence in their ability to produce meaning through action (i.e. teaching) and reflection. This problem was illustrated decades ago by Chittendon et al. (1978)[96]

Historically teachers have been told that the source of knowledge about learning resides somewhere outside their classrooms, perhaps in curriculum or research labs. Given such conditions, it is not surprising to find some teachers so lacking confidence in their own views that they doubt the legitimacy of their experience with children when confronted with 'expert' evidence that goes against it. Insofar as teachers are unable to look critically at their classrooms, their teaching suffers. It becomes uninteresting and takes on qualities of routine and mindless practice …. (p.58).

Likewise, it is often heard nowadays that teachers are too busy to review research studies, let alone conduct research. Research may appear to be a complex set of steps that is difficult and time-consuming for teachers to participate in or conduct. Those teachers may find research irrelevant because there is little research written by practicing teachers. Also, what is written does not often relate to daily classroom activities (Ferrance, 2000[97], McBee, 2004[98]). According to McBee (2004), *'classrooms that become laboratories are better classrooms'* (p.157). Moreover, the teacher research cannot be effective if it is perceived by teachers as a decree that is passed down from the top. It is much more effective when it is constructed with personal relevance (Johnson, 2005)[99]. In other words, action research becomes effective as teachers *'pick up threads suggested in academic circles, and weave them in their own classroom'* (Ferrance, 2000, p.13).Through teacher research, teachers will be allowed to take ownership over their teaching as they are the ones who can identify issues worth addressing in their curriculum (Richards, 2001). Then, they will design a study, execute the study, track data and results, and finally reflect.

Teachers 'action research will put teachers in a position to witness whether the curriculum is at odds or fits their learners' needs and interests. Additionally, teachers' first-hand experience makes them the most capable in bridging the gap between curriculum theory and practice. Teachers having the knowledge and class experience must contribute to the process by conveying their ideas and reflections. They must be primarily involved in the planning stage. Thus, the curriculum development team has to consider the teachers as part of the environment that affects curriculum (Carl, 2009)[100]. Teachers (not to exclude learners) have their own *'perceptions of problems and issues in their classrooms, schools and professional lives';* thus they *'have a right to have their voices heard in creating the curriculum'* (Beane & Apple, 2007, p.20)[101]. The teachers' active participation equally requires and promotes the development of professional skills, such as critical thinking, research approach, creativity, as well as cooperation and decision making skills.

In line with the view of action research as a tool to test curriculum proposals as intelligent hypotheses rather than correct solutions, the relationship between action research and curriculum change is no longer difficult to recognize. Teacher action research is not an end in itself, but a means of nurturing curriculum improvement. The practitioner teacher is not necessarily an authority or expert, but is an inquirer, treating his knowledge as improvable. Action research thus becomes the basis for not only curriculum development but also professional development. Professional development of teachers is an important factor contributing to the success of curriculum development and implementation (Handler, 2010). For that reason, to ensure the success of curriculum reform, it should be in parallel with teachers' professional development. This is why it is claimed that curriculum approach and teachers' professional development are interrelated (Elliott, 1991, p.53). Villegas-Reimers (2003) asserted that *'the relationship between educational reform and teachers' professional development is a two way, or reciprocal, relationship'* (p.24).

Somekh and Zeichner's analysis of forty-six action research publications from the last decade revealed that professional development through action research has also been used as a successful

strategy for educational reform. This latter combines action with research and thereby gives the participants *'a means to develop agency'* to improve practice (2009, p.19)[102]. Other scholars also indicate that action research often leads to curriculum changes in classroom practice (Bartlett & Burton, 2006[103], Kincheloe, 2003[104], Noffke & Somekh, 2009,Somekh&Noffke, 2009[105]). According to McKernan (1996), '*Action research offers exciting new beginnings for the development of the curriculum, the profession and the person… [it] instructs us that practitioners can be producers as well as consumers of curriculum inquiry'* (p.3). Action research offers a systematic approach to introducing innovations. It seeks to do this by putting the teacher in the dual role of producer of educational theory, and user of that theory (Riding, et al., 1995)[106]. These words highlight the key perceptions on action research, its benefits and its usefulness in curriculum change.

Although theories about action research have changed over time, action research is believed to be a helpful tool used for teachers to uncover strategies to improve their teaching practices (Sagor, 2004)[107]. Being a professional development opportunity, teachers doing action research can often test a new instructional strategy, assess a new curriculum program, or evaluate an existing pedagogical method. In many research studies, participation in action research has been found to be the impetus for positive change exemplified by teacher improvement, self-reflection, and overall learning that enhances classroom practices (Ferrance, 2000, Johnson & Button, 2000[108], Ross et al., 1999[109], Sax & Fisher, 2001[110]).In addition, action research proposes a bottom up process not only for curriculum development and production of curriculum theory through constant trial and review, but also for enhancing the process of teaching and learning, benefiting both teachers and learners. Besides, the reflective and cooperative framework shaped by action research allows teachers to become involved in reflection on the curriculum and thus reshape it according to their schools.

Conclusion

Today, the teachers' role is changing rapidly from a traditional to a modern perspective. Instead of being slaves to educational reforms, teachers are becoming a source of the theoretical basis for their own practices. Teachers are supposed to be action researchers within the ground of their own classrooms as well. Action research, already used in different contexts, proved to be a valuable tool to promote curriculum especially in centralised settings. Furthermore, action research promotes teachers professional development. It deals with daily problems that teachers experience and gives them practical mechanisms to improve their practices. By observing and investigating their practices systematically, and understanding and transforming their circumstances critically, teachers will gain ownership of their territories. They will break existing compliance to top-down decisions and open space for self-updating and contentment. In brief, action research is a legitimate means of empowering teachers in the twenty-first century.

References

1. Johnson, J. A. (2001). Principles of effective change: Curriculum revision that works. *Journal of Research for Educational Leaders, 1*(1), 5-18.
2. Kerr, J.F. (1968). *Changing the Curriculum.* London: University of London Press.1-55.
3. Beauchamp, G. (1977). Basic components of a curriculum theory. In A. Bellack & H. Kliebard (Eds.), *Curriculum and evaluation* (p.22). Berkeley: McCutchan.
4. Wood, L., & Davis, B. G. (1978). Designing and evaluating higher education curricula (AAHE-ERIC/Higher Education Research Report, 8). Washington, D. C.: The American Association for Higher Education.(Eric ED 165 966).
5. Pratt, D. (1994). *Curriculum planning: A handbook for professionals*. Fort Worth: Harcourt Brace College Publishers.5.
6. Brady, L. (1995). *Curriculum development*. Sydney: Prentice Hall.75.
7. Barrow, R., & Milburn, G. (1990). *A critical dictionary of educational concepts.* New York: Harvester Wheatsheaf.84.
8. Kelly, A.V. (1999). *The curriculum: Theory and practice* (4th ed.). London, UK: Paul Chapman Publishing Ltd.83.
9. Alvior, M. G. (December 13, 2014). The Meaning and Importance of Curriculum Development. In *SimplyEducate.Me*. Retrieved fromhttp://simplyeducate.me/2014/12/13/the-meaning-and-importance-of-curriculum-development/(07/13/2016).
10. Wiles, J. &Bondi, J. (2007). *Curriculum Development: A Guide to Practice*. N.J.: Pearson Merrill Prentice Hall.2-3.
11. Quinn, F. M. (2000). *Principles and practice of nurse education.* (4th ed.). Cheltenham: Stanley Thornes. http://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/j.1365-2834.2001.00243.x(07/13/2016)
12. Morris, P. & Adamson, P. (2010). *Curriculum, schooling and society in Hong Kong.* Hong Kong, HKSAR: Hong Kong University Press.152-154.
13. Hyun, E. (2006). *Teachable moments: Re-conceptualizing curricula understandings, studies in the postmodern theory of education*. New York: Peter Lang. Retrieved from www.peterlang.com/download/datasheet/.../datasheet_68141.pdf(07/13/2016)
14. Kennedy, K. (2007). Curriculum reforms and international improvement in Asia. In T. Townsend (Ed.), *International handbook on school effectiveness and improvement* (pp.807-824). Dordrecht: Springer.
15. Segovia, L.P., & Hardison, D.M. (2009). Implementing education reform: EFL teachers' perspectives, *ELT Journal, 63(2*), 154-162.
16. Graves, K. (2008). The language curriculum: A Social contextual perspective. *Language Teaching, 41(2*), 147-181.
17. Nunan, D. (1988). *The Learner-centred curriculum*. New York: Cambridge University Press.19-20.
18. Richards, J. C. (2001). *Curriculum development in language teaching*. Cambridge: Cambridge University Press.8.
19. Carl, A.E. (1995). *Teacher empowerment through curriculum development: Theory into practice.* Kenwyn: Jutam.40.
20. Bezzina, M. (1991). Teachers' perceptions of their participation in school based curriculum development: A case study. *Curriculum Perspectives, 11*(2), 39-47.
21. March, C. (1992). Key concepts for understanding curriculum. London: Falmer Press.5.
22. Roehrig, G. H., Kruse, R. A., & Kern, A. (2007). Teacher and school characteristics and their influences on curriculum implementation. *Journal of Research in Science Teaching, 44*(7),883-907.
23. Fullan, M. (1998). The new meaning of educational change: A quarter of a century of learning. In A. Hargreaves, A. Lieberman, M. Fullan, & D. Hopkins (Eds.), *International handbook of educational change* (pp. 214-228). London, UK: Kluwer Academic.
24. Wedell, M. (2009). *Planning for Educational Change: Putting people and their contexts first.* NewYork: Continuum International Publishing Group.1-174.
25. Goodson, I.F. (2003) *Professional knowledge, professional lives*. Maidenhead: Open University Press. xiii
26. Cuban, L. (1998). How schools change reforms: Redefining reform success and failure. *Teachers College record, 99*(3), 453-477.

27. Ryan, A., & Cotton, D. (2013). Times of change: Shifting pedagogy and curricula for future sustainability. In S. Sterling, L. Maxey, &H. Luna (Eds), *The Sustainable university: progress and prospects* (pp.151-167). Abingdon: Routledge.

28. Hopkins, D., &Reynolds, D. (2001). The past, present and future of school improvement: Towards the third age. *British Educational Research Journal, 27*(4)*, 459-475.*

29. Punia, R. S. (1992). *Research on teachers' planning and its use in guiding curriculum, staff and institute development.* (Unpublished M Phil. Dissertation). University of Bath, UK.

30. Ramparsad, R. (2001). A strategy for teacher involvement in curriculum development. *South African Journal of Education, 21*(4),287-291.

31. Zhao, Y., Pugh, K., Sheldon, S., & Byers, J. (2002). Condition for classroom technology innovations. *Teach. Coll. Record. 104*(3)*,* 482-515.

32. Begg, A. (2004). Statistics curriculum and development: New ways of working. In G. Burrill, and M. Camden (Eds.), Curriculum development in statistics education. International association for statistical education. Retrieved from http://www.stat.auckland.ac.nz/~iase/index.php. (07/13/2016)

33. Rogers, E.M. (2003). *Diffusion of innovations* (5th ed.). New York: The Free Press.5-436.

34. Benrabah, M. (1999). *Langue et Pouvoir en Algérie. Histoire d'un traumatisme linguistique*. Paris: Séguier.350.

35. Ordonnance n° 76-35 du 16 avril1976 portant organisation de l'éducation et de la formation. http://www.vitaminedz.org/articlesfiche/1181/1181626.pdf.(07/13/2016)

36. Ordonnance n° 03-09 du 13 août 2003. www.joradp.dz/Jo2000/2003/048/Fp3.pdf (07/13/2016)

37. Fullan, M. (2007). *The new meaning of educational change.* London: Cassell.129

38. Monson, M. P. & Monson, R. J. (l993). Who creates the curriculum? New roles for teachers. *Educational Leadership*,*2*, l9-2l.

39. Hargreaves, A. (l995). Renewal in the age of paradox. *Educational Leadership*,52(7),l-9.

40. Scott, F.B. (l994). Integrating curriculum implementation and staff development. *ERIC Clearinghouse on Educational Management, 67*(3), *l57-l6l.*

41. McKernan, J. (1996). *Curriculum action research: A handbook of methods and resources for the reflective practitioner.* London: Kogan.3-34

42. Adelman, C. (1993). Kurt Lewin and the Origins of Action Research. *Educational Action Research1*(1),7-24.

43. Gitlin, A., Siegel M. & Boru K. (1993). The politics of method: From leftist ethnography to educative research. In M. Hammersley (Ed.), *Educational research, current issues* (pp. 191-210).London: Chapman Publishing in association with The Open University,

44. Hart, E.,& Bond, M. (1995). *Action research for health and social care: A guide to practice*. Buckingham: Open University Press.15.

45. Holter, I.M., & Schwartz - Barcott, D. (1993). Action research: what is it? How has it been used and how can it be used in nursing?. *Journal of Advanced Nursing 1993*(128),298-304

46. Kemmis S. (1993). Action research. In M. Hammersley, *Educational research, current issues* (pp.177-190). London: Paul Chapman Publishing Ltd. in association with The Open University.

47. Kemmis, S., &McTaggert, R. (1990). *The action research planner.* Geelong: Deakin University Press.5-8

48. Noffke, S. (1994). Action research: Towards the next generation.*Educational Action Research 2*(1),9-21.

49. Somekh, B. (1995). The contribution of action research to development in social endeavours: A position paper on action research methodology. *British Educational Research Journal, 21*(3), 339-355.

50. Zuber-Skerritt, O. (1993). Improving learning and teaching through action learning and action research. *Higher Education and Development, 12*(1), 45-58.

51. McKernan, J. (1991). *Curriculum action research. A handbook of methods and resources for the reflective practitioner.* London: Kogan Page.4-27.

52. Lewin, K. (Ed.) (1948). *Resolving social conflicts; Selected papers on group dynamics*. New York: Harper & Row.201-216.

53. Marrow, A. J. (1969). *The practical theorist: The life and work of Kurt Lewin*. New York: Basic Books.168-234.

54. McKernan, J. (1988). Teacher as researcher: Paradigm on praxis. *Contemporary Education*, 59(3) 154-158.

55. Altrichter, H.,& Gstettner, P. (1993). Action research: A closed chapter in the history of German social science. *Educational Action Research1*(3),329-360.

56. Reason, P., & Bradbury, H. (2006). Introduction: Inquiry and participation in search of a world worthy of human aspiration. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research* (pp.1-14). London: SAGE.

57. Holly, P. (1991). Action research. The missing link in creation of schools as centers of inquiry. In A. Lieberman & L. Miller (Eds.), *Staff development for education in the '90s*(pp.133-157). New York: Teacher College, Columbia University.

58. Stenhouse, L. (1975). *An introduction to curriculum research and development.* London: Heineman.142-144.

59. Stenhouse, L. (1981). What counts as research?. *British Journal of Educational Studies, 29(2)*, 103-114.

60. Elliott, J. (1991). *Action research for educational change.* Milton Keynes: Open University Press.69.

61. Carr, W., & Kemmis, S. (1986). *Becoming critical: Education, knowledge, and action research*. London: Falmer.179-213

62. Carr, W., & Kemmis, S. (2009). Educational action research: A critical approach. In S. Noffke & B. Somekh (Eds.), *The SAGE handbook of educational action research*(74-83). Los Angeles: SAGE.

63. Furlong, J. & Salisbury, J. (2005). Best practice research scholarships: An evaluation. *Research Papers in Education, 20*(1), 45-83.

64. Burns, A. (2010). Teacher engagement in research. Published resources for teacher researchers. *Language Teaching*, *43*(4), 527-536.

65. Pine, G. J. (2009). *Teacher action research. Building a knowledge democracies.* Los Angeles: SAGE.1-74.

66. Noffke, S., & Somekh, B. (Eds.). (2009). *Handbook of educational action research.* London: SAGE.1-522.

67. Ladkin, D. (2004). Action research. In C. Seale, G. Gobo, J. Gubrium& D. Siverman (Eds.), *Qualitative research practice* (pp. 536-548). London: SAGE.

68. Bradbury, H. (2015). Introduction to the handbook of action research. In H. Bradbury (Ed.), *Handbook of action research*(3rd ed.) (pp.1-13). London: SAGE.

69. Burns, A. (2009). Action research in second language teacher education. In A. Burns, & J. C. Richards (Eds.), *Second language teacher education* (pp.163-171). Cambridge: CUP.

70. Hine, G.S.C. (2013). The importance of action research in teacher education programs. In special issue: teaching and learning in higher education: Western Australia's TL forum. *Issues in Educational Research*, 23(2), 151-163. Retrieved from http://www.iier.org.au/iier23/hine.html(07/13/2016)

71. Johnson, A. P. (2012). A short guide to action research (4thed.). New Jersey: Pearson Education.20-22.

72. Barone, T., Berliner, D. C., Blanchard, J., Casanova, U. & McGown, T. (1996). A future for teacher education: Developing a strong sense of professionalism. In J. Sikula (Ed.), *Handbook of research on teacher education* (4thed.) (pp. 1108-1149). New York: Macmillan.

73. Holter, A. C. & Frabutt, J. M. (2012). Mission driven and data informed leadership. *Catholic Education: A Journal of Inquiry and Practice, 15*(2), 253-269.

74. Noffke, S. (1997). Professional, personal, and political dimensions of action research. *Review of Research in Education, 22*(1), 305–43.

75. Reason, P., & Bradbury, H. (2001). Preface. In P. Reason & H. Bradbury (Eds.), *Handbook of action research: participative inquiry and practice*(pp. xxiii-xxxi). London: SAGE.

76. Mills, G. E. (2011). *Action research: A guide for the teacher researcher* (4thed.). Boston: Pearson.

77. Gatenby, B., & Humphries, M. (2000). Feminist participatory action research: Methodological and ethical issues. *Women's Studies International Forum, 23*(1), 89-105.

78. Cooke, B., & Kothari, U. (2001). The case for participation as tyranny. In B. Cooke & U. Kothari (Eds.), *Participation: The new tyranny?* (pp1-15). London: Zed Books.

79. Villegas-Reimers, E. (2003). *Teacher professional development: An international review of the literature*. Paris: IIEP UNESCO. Retrieved fromhttp://unesdoc.unesco.org/images/0013/001330/133010e.pdf(04/28/2016)

80. Cohen, D. K, & Hills, H.C. (2001). *Learning policy: When state education reform works.* New Haven, CT: Yale University Press.1-226.

81. Kubitskey, B., & Fishman, B.J. (2006, April). *Professional development design for systemic curriculum change.* Paper presented at the Annual Meeting of the American Educational Research Association. Michigan, University of Michigan.1-26.

82. Carl, A.E. (2002). *Teacher empowerment through curriculum development: Theory into practice*. (2nd ed.). Cape Town: Juta.44.

83. Imber, M., & Neidt, W.A (1990). Teacher participation in school decision making. In P. Reyes (Ed.). *Teachers and their workplace: commitment, performance and productivity*(pp.67-85). Newbury Park, CA: SAGE.

84. Elbaz, F. (1991). Teachers' participation in curriculum development. In A. Lewy (Ed.). *The international encyclopedia of curriculum*(pp. 365-367). Oxford: Pergamon Press.

85. Fullan, M.,& Hargreaves, A. (1992). *Teacher development and educational change.* London: The Falmer Press.1-9.

86. Fullan, M. (2001). *Leading in a culture of change.* San Francisco, CA: Jossey-Bass. Retrieved from http://files.eric.ed.gov/fulltext/ED467449.pdf(07/13/2016)

87. Haberman, M. (1992). The role of the classroom teacher as a curriculum leader. *NASSP Bulletin,76*, 11-19.

88. Handler, B. (2010). Teacher as curriculum leader: a consideration of the appropriateness of that role assignment to classroom-based practitioners. *International Journal of Teacher Leadership, 3* (3), 32-42.

89. Fullan, M. (1991). *The meaning of educational change*. New York: Teacher College Press.105-117.

90. Nunan, D. (1990). Action Research in the language classroom. In J. C. Richards & D. Nunan (Eds.), *Second language teacher education* (pp. 62-81). Cambridge University Press: Cambridge.

91. Richwine, J., & Biggs, A.G. (2012). Critical Issues in Assessing Teacher Compensation (Backgrounder, No.: 2638). Retrieved from http://eric.ed.gov/?id=ED528492(04/11/2016)

92. Vally, S., & Spreen, C.A. (1998). Education policy and implementation development. *Journal of Education Policy 5*(2), 3-22.

93. Taylor, M.W. (2013). Replacing the 'teacher-proof' curriculum with the 'curriculum-proof' teacher: Toward more effective interactions with mathematics textbooks. *Journal of Curriculum Studies*, *45*, 295-321.

94. Grundy, S. (1987). *Curriculum: Product or praxis?* London: The Falmer Press.13-122.

95. Priestley, M., & Biesta, G.J.J. (Eds) (2013). *Reinventing the curriculum: New trends in curriculum policy and practice*. London: Bloomsbury Academic.1-9.

96. Chittendon, E., Charney, G.,& Kanevsky, R. (1978). Collaborative research: implications for in-service development. In R. Edelfelt & E. Smith (Eds.), *Breakaway to multidimensional approaches* (pp.49-59). Washington, DC: Association of Teacher Educators.

97. Ferrance, E. (2000). *Themes in education: Action research*. Brown University: Educational Alliance.1-34.

98. McBee, M. (2004). The classroom as laboratory: an exploration of teacher research. *Roeper Review*, *27*, 52-58.

99. Johnson, A. P. (2005). *A short guide to action research*. Boston, MA: Pearson.1-304.

100. Carl, A. E. (2009). *Teacher empowerment through curriculum development theory into practice*(3rd ed.). Cape Town: Juta & Ltd Company.7.

101.Beane, J.A. & Apple, M.W. (2007). The case for democratic schools. In M.W. Apple & J.A. Beane (Eds.), *Democratic schools: lessons in powerful education*(pp.1-29). Portsmouth, NH: Heinemann.

102. Somekh, B. & Zeichner, K. (2009). Action research for educational reform: Remodeling action research theories and practices in local contexts. *Educational Action Research*, *17*(1), 5—21.

103. Bartlett, S., & Burton, D. (2006). Practitioner research or descriptions of classroom practice? A discussion of teachers investigating their classrooms. *Educational Action Research, 14*(3),395-405.

104. Kincheloe, J. L. (2003). *Teachers as researcher: Qualitative inquiry as a path to empowerment*. London: Routledge.22-47.

105. Somekh, B.,&Noffke, S. (2009) Conclusions. In S. Noffke & B. Somekh (eds), *Handbook of Educational Action Research*(pp. 521-525). London: SAGE.

106. Riding, P., Fowell, S., & Levy, P. (1995). An action research approach to curriculum development. *Information Research*, 1(1), 1-1.

107. Sagor, R. (2004). *The action research guidebook: A four-step process for educators and school teams.* Thousand Oaks, CA: Sage.1-180.

108. Johnson, M., & Button, K. (2000). Connecting graduate education in language arts with teaching contexts: The power of action research. *English Education, 32*, 107-126.

109. Ross, J., Rolheiser, C., & Hogoboam-Gray, A. (1999). Effects of collaborative action research on the knowledge of five Canadian teacher researchers. *The Elementary School Journal,99*(3),255-274.

110. Sax, C., & Fisher, D. (2001). Using qualitative action research to effect change: Implications for professional education. *Teacher Education Quarterly, 28*(2),71-80.

Teacher Impact on EFL Students' Motivation

Haron Bouras*

الملخص

تتناول هذه الدراسة تحليلا لتصورات الأساتذة والطلاب لبعض خصائص الأستاذ ومدى تأثيرها على دافعية الطلاب لتعلم اللغة الانجليزية. لإتمام هذه الدراسة ، استخدمنا استبيانا يتضمن 8 بنودا. وزعنا هذا الاستبيان على 200 طالب و21 أستاذا في اللغة الانجليزية للعام الدراسي 2015/2014. خلص هذا التحليل إلى وجود تباين بين روئ الاساتذة والطلاب فيما يخص الخصائص المحفزة ، بالتالي نستنتج انه لابد على الاستاذ تحقيق توازن جيد بين منهجية التدريس وما هو محفز أكثر للطلاب على تعلم اللغة الانجليزية.

الكلمات المفاتيح: قسم اللغة الأجنبية ، الدافعية ، تصورات الأساتذة والطلاب ، خصائص الأستاذ

Résumé

Cette étude porte sur la perception des étudiants et des enseignants de certaines caractéristiques de l'enseignant et leurs effets sur la motivation des étudiants. Un questionnaire comportant 8 éléments est distribué à 200 participants durant l'année académique 2014/2015. Le même questionnaire est distribué à 21 enseignants. Les résultats ont révélé que les enseignants et les étudiants ne perçoivent pas l'impact des caractéristiques de l'enseignant de la même manière. Ceci implique que la motivation des apprenants exige de l'enseignant d'adapter sa méthodologie d'enseignement avec ce qui motive le plus les étudiants.

Mots clés : Classe De Langue Etrangère, Motivation, Perception, Caractéristiques De L'enseignant

Summary

This study probes teachers and students' perceptions of some teacher characteristics impact on students' motivation. The investigation explores eight elements to elicit the views of students and teachers and find out which teacher characteristics both groups believe foster learners' motivation in the EFL classroom. A total number of 200 participants was surveyed in the academic year 2014-2015. The same questionnaire was administered to 21 teachers. The findings disclosed that teachers differed from students in the ranking of their characteristics. This therefore implies that motivating learners requires a teacher to strike a good balance between the teaching methodology and the preferences of the students in terms of his or her motivating characteristics.

Keywords: Foreign Language Classroom, Motivation, Perception, Teacher Characteristics

* Maître Assistant 'A', University Mohamed Cherif Messaadia, Souk-Ahras

Introduction

It is currently assumed that the success or failure in learning a foreign language depends on some fundamental factors such as the learner's social context, the learner's personal characteristics, the learning process and conditions under which learning takes place. However, teaching English as a foreign language and as a compulsory curriculum subject in a non-supportive environment seems to depend very much on the didactic treatment applied by the teacher and the strategies and techniques employed in the classroom. Moreover, not only the didactic treatment in itself is important, the personal characteristics and personality traits of the person who applies that treatment in the classroom, his/her teaching style, attitudes and personal qualities are also of crucial importance.

In this vein, William & Burden (1997: ix) stated that "Teachers have a powerful, long-lasting influence on their students. They directly affect how students learn, what they learn, how much they learn, and the ways they interact with one another and the world around them. Considering the degree of teacher's influence, we must understand what teachers should do to promote positive results in the lives of students with regard to school achievement, positive attitudes towards school, interest in learning, and other desirable outcomes."

Recently, research on the relationship between teachers' characteristics and teachers' effectiveness has gained ground among various educators and researchers. Yet, huge efforts have been made in linking teacher impact on learners' motivation with characteristics related to his or her behaviour towards learners. Finocchiaro (1988 ,cited in Madrid, D., Robinson, B., Hidalgo, E. Gomis, A. Verdejo, M. J., Ortega, J. L., 1993:493) has identified twenty-four hallmarks of superior teachers, some of which are related to personal and affective factors: "Making learners feel loved, respected and secure and that they can achieve success by concentrating on the teacher's comprehensible input and tasks. Keeping motivation of students at a high level. Offering a relaxing atmosphere for learning."

Put simply, Dörnyei & Csizér (1998) investigated teachers' interpretation of their own impact on learner motivation and carried out a nation-wide survey study among 200 Hungarian teachers of English from diverse contexts to learn about their attitudes toward various motivational techniques and the frequency with which they implemented them in their own teaching practice. The results revealed that the participants considered the teacher's own behaviour to be the most important motivational factor. At the same time, the study also showed that it is one of the most underused motivational resources in their classroom practice. Consequently, research has heavily concentrated on motivation and motivational research has shifted focus to include the crucial role of the teacher and the various practices and strategies that he or she uses to motivate learners to learn the language.

1. Defining Motivation Briefly

In fact, motivation received a myriad of definitions and has been identified, by researchers and practitioners, as a determinant factor in learning a second or a foreign language. Motivation is a desire to achieve a goal, combined with the energy to work towards that goal. Many researchers consider it as one of the main elements that determine success in developing a second or a foreign language; "it determines the extent of active, personal involvement in L2 learning." Oxford & Shearin (1994:12). It is also defined as follows "Motivation provides the primary impetus to initiate learning foreign language and later the driving force to sustain the long and often tedious learning process. Without sufficient motivation, even individuals with the most remarkable abilities cannot accomplish long-term goals, and neither are appropriate curricula and good teaching enough to ensure students achievement. On the other hand, high motivation can make up for considerable deficiencies both in one's language aptitude and learning conditions'' Dörnyei (1998:117). Very

recently, Dörnyei & Ushioda (2011:14) stated that "The word motivation derives from the Latin verb movere meaning 'to move'. What moves a person to make certain choices, to engage in action, to expend effort and persist in action – such basic questions lie at the heart of motivation theory and research". They further added "these deceptively simple questions have generated a wealth of theory and research over the decades, provoked considerable debate and disagreement among scholars, spawned numerous theoretical models encompassing different variables and different understandings of the construct of motivation, and produced few clear straightforward answers."

2. Some Teacher's Characteristics: Implications on Learners' Motivation

In reviewing literature and previous studies, many researchers have conducted studies to investigate the characteristics of effective teachers and their influence on learners' motivation. In line with this, William & Burden (1997: x) have pointed out "In recent years, as the field of education has moved toward a stronger focus on accountability and on a careful analysis of variables that affect educational outcomes, the teacher has proven time and again to be the most influential school-related force in student achievement. Consequently, to develop an understanding of what teachers do to cause significant student learning, researchers have begun to focus on the specific characteristics and processes used by the most effective teachers."

In the same respect, Dörnyei (2005:115) has stated that "The increased shift toward examining classroom-based motivation in the 1990s drew attention to a rather overlooked motivational area, the motivational characteristics of the language teacher." He added, "There is no doubt that teacher motivation is an important factor in understanding the affective basis of instructed SLA, since the teacher's motivation has significant bearings on the students' motivational disposition and, more generally, on their learning achievement." Dörnyei (2005:115).

The characteristics reported in the previous studies can be synthesized into three categories: instructional competence, personality and teacher-student relationship. "It was argued by several researchers (e.g., Julkunen 1989; Brown 1990; Crookes and Schmidt 1991; Dörnyei 1994a; Oxford and Shearin 1994) that the classroom environment had a much stronger motivational impact than had been proposed before, highlighting the significance of motives associated with the L2 course, teacher and learner group." Shoaib & Dörnyei. (2005:23).

In the same direction, Dörnyei (2001:36) made it clear "I don't think it requires much justification to claim that it is important for a motivating teacher to have a positive relationship with the students on a personal and not just on an academic level". He further added "Teachers who share warm, personal interactions with their students, who respond to their concerns in an empathic manner and who succeed in establishing relationships of mutual trust and respect with the learners, are more likely to inspire them in academic matters than those who have no personal ties with the learners." Dörnyei (2001:36). According to him the following three motivational conditions in particular are indispensable for motivational strategies or techniques to be employed successfully: appropriate teacher behaviors and a good relationship with the students; a pleasant and supportive classroom atmosphere, and a cohesive learner group with appropriate group norms.

Indeed, many researchers have emphasized teacher relationship with learners as a salient factor to establish solid foundations for the teaching and learning process and boost learners' motivation to take an active role in the classroom to demonstrate teacher caring and creating a positive learning environment to support student learning. As a matter of fact, many researchers have noted that establishing a good relationship with students is important for effective teaching atmosphere. In line with this, Lowman (2000, cited in Daniel Rogers, 2009:4) stated that "Rapport is established when teachers convey to students, through various means,

that are interested in and care about them, and that this concern translates into a desire to help them learn." Equally important, Fleming & Hiller (2009:92) stated "Relationships in the classroom involve complex, dynamic processes of rapport, learning and power which are never fixed or unidirectional."

Zhou & He (2005, cited in Yunbao, 2008:98) have investigated the learning of English in almost 100 secondary schools in China. They found that 'teacher-student rapport' was one of the most important factors which affected the learning of English in the eyes of students. In a similar respect, Tickle-Degnen & Rosenthal (1990, cited in Wenying & Guy, 2005:48) emphasized that "the presence of a high degree of rapport between individuals has been thought to create powerful interpersonal influence and responsiveness."

"Teachers, either inside the classroom or outside the classroom, exert a great deal of influence on establishing a good quality of teacher-student relationship." Barry (1999, cited in Suxian & Thao, 2004:5). This means that students are humans first before being treated as learners. Therefore, teachers need to attune to the feeling of any classroom as a social place where students are individuals and mix with teachers like their peers sharing a wide range of personal concerns and values and teachers should as well attempt to be ordinary members of the group and thus go beyond performing a mere instructional duty. In the same vein, Haslett (1987:196) stated that "Establishing close relationship with others is essential for well -being and happiness. Through our interpersonal relationships, we establish our personal identity, express our thoughts and feelings, engage in collaborative activities with others and satisfy our needs for affiliation with others". That is academic achievement and students' behaviours are greatly influenced by the quality of the teacher-student relationship and how good the teacher's relationship with students can largely be decided by the quantity and quality of contact made with each student as an individual. In the eyes of Hamre & Pianta (2006:49) "Student teacher relationships provide a unique entry point for educators and others working to improve the social and learning environments of schools and classrooms."

In a recent research, Schaeffer, Epting, Zinn, and Buskit (2003, cited in Yu-Jung & Shih-Chung, 2009:223) investigated students' perceptions of the most important qualities for effective teaching and reported that "being approachable, creative and interesting, encouraging and caring, enthusiastic, flexible and open-minded, knowledgeable, fair, respectful and holding realistic expectations are the eight of the top ten traits". Significantly enough, Bernaus (2010:185) has cited "personal qualities of the teacher, such as commitment, warmth, trustworthiness, and competence determine the relationship between the teacher and learners. Such qualities may help to create a pleasant and supportive classroom atmosphere, but others, such as being unapproachable, unreliable, unfriendly, etc, may just have the opposite effect."

Several recent studies have revealed the importance of caring in the eyes of teachers and students. They indicated that learners show interest in learning mainly when they feel acknowledged by teachers as it conveys a certain kind of care. Effective teachers care about their students and demonstrate that they care in such a way that their students are aware of it. This means that it is a priority for teachers to show students that they are caring and supportive. In this context, Stronge (2007:23) stated that "Caring teachers know students both formally and informally. They cease every and each opportunity in the classroom to keep the lines of communication open." He further added many educational stakeholders emphasize that effective teachers know their students individually, not only understanding each student's learning style and needs, but also understanding the student's personality, likes and dislikes, and personal situations that may affect behaviour and performance in school. In a similar context, GU (1996, cited in Wang, 2008:33) expressed "When students are acknowledged in the classroom and feel understood by their teacher, their level of motivation will increase."

Additionally, Jones (2004, cited Suxian & Thao, 2004:7) indicated that "Teachers' caring is much more than simply the creation of warm interpersonal relationships. It also involves encouraging dialogue with students regarding curricular and instructional decisions, listening to students' concerns, ensuring that all students have an opportunity to experience success, and ensuring that learning is fun and interesting".

In another vein, Broadhead (1987, cited in Yu-Jung & Shih-Chung, 2009:226) stated that "personality is the essential characteristic for an effective teacher". Equally important, Colker (2008, cited in Rosle M., Junainah J., Lim Thien S. & Zaiton O., 2009:24) reported that teachers claimed there were four characteristics of an effective teacher which include "having a sound knowledge of subject matter, take personal interest in each student, establish a caring or loving or warm atmosphere and finally to show enthusiasm with students". He also identified the twelve characteristics of teachers that learners believe are integral factors to effective teaching. There are passion, perseverance willingness to take risks, pragmatism, patience, flexibility, respect creativity, authenticity, love of learning, high energy and sense of humour.

In fact, the duty of educators and scholars is not only providing learning settings to enhance cognitive development and intellectual achievement, nonintellectual factors also deserve educators' attention. As Barry (1999, cited in Suxian and Thao, 2004:5) has pointed out "Teachers' work is to nurture each student and maximize not only his or her intellectual achievement but also social, emotional and spiritual growth". In the same respect, Stronge (2007:22) has stated "Studies suggest that instructional and management processes are key to effectiveness, but many interview and survey responses about effective teaching emphasize the teacher's affective characteristics, or social and emotional behaviors, more than pedagogical practice."

It follows from this that educational institutions are no longer seen as a place where knowledge and skills are taught and learned. They are rather regarded as a community in themselves where members such as: teachers and learners interact and influence the behaviour of each other. The nature of interactions and influences in these institutions is an important factor in determining the learner's perceptions of their teachers. This factor involves the interplay between the personality of the teacher and that of the learner.

What can be inferred and retained as well from all what has been cited so far is that teachers have a crucial role in effective teaching and learning process and can serve as motivators for learners so as to improve students' chances for academic success. Teachers can do so through displaying enthusiasm for their subject and a desire to share it with their students. Besides, they have the ability to modify their teaching strategies according to the learning environment and extending knowledge rather than merely transmitting it. Moreover, they provide encouragement at every occasion by being interested in learners' personal growth and sustain their high expectations. Above all, teachers and students will pay the price if they neglect to form emotionally warm, supportive relationships with and among themselves.

3. Objectives of the Study

The primary concern of this research is to investigate and elicit the opinions of both teachers and students about the influence of some teacher characteristics on students' motivation. In attempting to probe the latter, this study raises several interrelated research questions.

a. Which teaching characteristics are perceived as the most motivating ones by students?

b. Which teaching characteristics are perceived as the least motivating ones by students?

c. Which teachers' characteristics are perceived as the most motivating ones by teachers?

d. Which teachers' characteristics are perceived as the least motivating ones by teachers?

e. How do students and teachers' perceptions of the teachers' most important characteristics compare?

f. How do students and teachers' perceptions of the teachers' least important characteristics compare?

4. Methodology

4.1. Participants

The focus of the present study is to better understand the opinions of students and teachers about the role of some teachers' characteristics impact on learners' motivation. The participants were 200 university students and 21 English language teachers.

4.2. Questionnaire Presentation and Administration

Keeping in view the nature of research, a close end questionnaire consisting of 8 statements was developed to collect data and conduct the investigation. A 5-point Likert type was used in the scale: 5= very important, 4= important, 3=moderately important, 2= somewhat important, 1= not important) to measure the extent of importance. These characteristics were chosen from findings in educational research because of its direct relevance to students' learning and teacher's teaching situation.

The questionnaire also included a part about personal information and was distributed to all the respondents selected for the data by hand. Before distributing the questionnaire among the students the nature and purpose of the survey was explained to them, moreover they were assured strongly that their responses will be kept confidential in order to relieve them from any kind of fear and pressure. Respondents were asked to read the questionnaire carefully and if they find any statement ambiguous or difficult they can ask freely for help. Students were asked to put a cross next to each statement according to how important they perceived some teacher's characteristics. A similar procedure was followed in each class and for all the students to minimize the missing data.

Similarly, the teacher questionnaire consisted of the same eight statements and distributed to them by hand. Both male and female teachers participated in the study. The total number of teachers who were surveyed was 21.

5. Findings and Discussion

This section presents the results of the study. The first research question was: which teacher's characteristics are the most influencing ones on students' motivation?

Table 1: Students' Perceptions of Most Important Teacher's Characteristics.

Teachers' characteristics	*Students*		
	Score	*Rank*	*Mean*
-Your teacher is a respectful person.	904	1st	4.52
-Your teacher addresses students by their names.	863	2nd	4.31

Source: Made personally

The arithmetic mean in table one above indicates that being a respectful teacher towards students is a motivating characteristic for them since it received the highest mean (M=4.52). This means that students want to be regarded as important individuals to be respected by their teachers to attract them since respect is an abstract element that students feel and which influences on them without making them spend any efforts. In line with this, Lumsden (1994) has stated that classroom climate is important and if students experience the classroom as a caring, supportive place where there is a sense of belonging and everyone is valued and respected, they will tend to participate more fully in the process of learning. In the same vein, Ramsden (1992, cited in Omo, 2010:63) has identified six principles of effective teaching that can promote effective learning and stated that "good teaching means that

teachers show great concern and respect for students and students' learning".

Addressing students by their names is receiving high importance and ranking second (M=4, 31). That is students are searching to be valued and catered for by their teacher and this seems to go with what is said by Bernaus (2010:185) "Teachers, who address learners by name, talk about personal topics in the class, etc., will form closer relationships, and consequently help to create a cohesive learner group, and enhance learners' classroom motivation."

In the same direction, college research indicates that "addressing students by name" is a classroom teaching behavior that correlates positively and significantly with students' overall evaluation of the instructor (Murray, 1985). In contrast, research on "uncomfortable courses". That is to say, courses that most likely to cause "classroom communication apprehension" among students reveals that such courses are more likely to be taught by instructors who are perceived by their students as being unfriendly and who did not address students by their first name (Bowers, 1986).

The second research question was: Which teacher's characteristics are seen as the least motivating ones by students?

Table 2: Students' Perceptions of Least Important Teacher's Characteristics.

Teachers' characteristics	*Students*		
	Score	*Rank*	*Mean*
-Your teacher develops a good relationship with you.	800	7th	4.00
-Your teacher knows better your needs.	784	8th	3.92

Source: Made personally

As table two illustrates, students do not recognize the fact that their teachers know better their needs and yet make them more motivated to learn the English language. This teacher characteristic is receiving the lowest mean (M=3.92).We can also infer from this finding that teachers are not sufficiently close to their students and they do not really cater for their needs which portrays the idea that students did not experience such teacher practice. In this vein, Yogesh & Ruchka (2005:91) have stated "Motivation is best carried out if it is based on the existing needs and motives of the learner. You as a teacher better know that some of the needs your students may bring to the classroom are the needs to learn something in order to complete a particular task or activity, the need to seek new experiences, the need to perfect skills, the need to overcome challenges, the need to become competent, the need to succeed and do well, the need to feel involved and to interact with other people etc. Satisfying such needs is rewarding in itself and such rewards bring more motivation than do grades or prizes."

The table indicates as well that teachers do not actually develop good relationships and establish positive ties with their students and this seems to correlate with the previous teacher characteristic though it does not necessitate from them to spend much effort. Yet, learners feel demotivated. In this respect, Claridge & Lewis (2005:15) have stated "The relationship you have with your learner is fundamental to the success of teaching. A good relationship will increase the learning your client gets, as well as making it much more enjoyable for you as a teacher. Designing the alliance you have with your learner is part of making this successful."

Our third research question is the following: Which teachers' characteristics are perceived as the most motivating ones by teachers?

Table 3:Teachers'Perceptions of Most Important Teachers' Characteristics.

Teachers' characteristics	*Teachers*		
	Score	*Rank*	*Mean*
-Addressing students by their names.	98	1st	4.66
-Creating a relaxed study atmosphere in classroom.	97	2nd	4.62

Source: Made personally

From table three cited above, we can clearly remark that teachers emphasize on addressing the students by their names and use it as a motivating practice. It is widely used to raise their learners' motivation. As a matter of fact this practice is receiving the highest arithmetic mean (M=4.66) which indicates that teachers rely heavily on learning students' names to use them while delivering their English lessons to familiarize them with the classroom atmosphere , break the ice and make students feel more confident to participate in the lesson. Calling students' names urge them to take part in the lesson to make their names first known to the teacher and second to their classmates because this makes them feel that they occupy a high position and increase their self-esteem. They feel as well that teachers are taking care of them and giving value to every student's identity to establish good relationships with them. In this sense, Downs (2001, cited in Wang 2008:33) stated that "knowing a student's name can be a powerful motivator". Moreover, Carnegie (1981:83) in his book 'How to Win Friends and Influence People' pointed out "We should be aware of the *magic* contained in a name and realize that this single item is wholly and completely owned by the person with whom we are dealing and nobody else. Remember that a person's name is to that person the sweetest and most important sound in any language".

Significantly enough, Dörnyei (2001:34) indicates that "If students can sense that the teacher doesn't care...this perception is the fastest way to undermine their motivation. The spiritual (and sometimes physical) absence of the teachers ends such a powerful message of 'It doesn't matter!' to the students, that everybody, even the most dedicated ones, are likely to be affected and become demoralized". The table reveals also that teachers do their best to create a pleasant and comfortable working atmosphere so as to operate smoothly and progress with learners. In this context, Susan Thompson, John G.Greer, Bonnie B. Greer (2004) have expressed that displaying fairness, having a positive outlook, being prepared, using a personal touch, possessing a sense of humor, possessing creativity, admitting mistakes, being forgiving, respecting students, maintaining high expectations, showing compassion, and developing a sense of belonging for students, when demonstrated by classroom teachers, they increase students' achievement. To our surprise, students play down this teacher practice and rank it sixth (M=4.04) which may lead us to think that they probably did not experience such practice as more motivating for them.

The fourth research question is: Which teachers' characteristics are perceived as the least motivating ones?

Table 4: Teachers' Perceptions of Least Important Teachers' Characteristics.

Teachers' characteristics	*Teachers*		
	Score	*Rank*	*Mean*
-Encouraging interest among your students.	86	7th	4.10
-Knowing better your students' needs.	75	8th	3.57

Source: Made personally

The teacher's characteristics that are perceived as the least motivating ones by teachers are shown above in table four. The findings unveil that teachers do not know their students' needs sufficiently enough so as to allow them raise their motivation. This demonstrates as well that teachers do not have very close contacts with their students which enable them to know what their students necessitate. In fact, this teacher characteristic has received the lowest mean (M=3.57) and obviously ranked last. Encouraging interest among students is regarded as a least motivating practice in the eyes of teachers as it requires from them huge efforts to make students draw attention to their learning and get profit from one another. As mentioned previously, teachers ignore their students' needs so creating interest among them seems to be a tough mission, if not, an impossible one!

The fifth research question is how do teachers and students' perceptions of the teachers' most important characteristics compare?

Table 5: Teachers and Students' Perceptions of Teachers Most Important Characteristics.

Teachers' characteristics	*Students*			*Teachers*		
	Score	*Rank*	*Mean*	*Score*	*Rank*	*Mean*
-Being a respectful teacher.	904	1st	4.52	/	/	/
- Addressing students by their names.	863	2nd	4.31	/	/	/
-Addressing students by their names.	/	/	/	98	1st	4.66
-Creating a relaxed study atmosphere in classroom.	/	/	/	97	2nd	4.62

Source: Made personally

Our fifth table reveals that there is a slight difference in the way both teachers and students perceive the most motivating teacher practices. Teachers relied heavily on calling students' names as a motivating practice with a significant high arithmetic mean (M=4.66) while students placed emphasis on being respected by the teacher with an arithmetic mean (M=4.52). Indeed, teachers seem to be more practical by considering students' names as a motivating practice since it draws students' attention and keeps them alert. Students want to be valued and respected to engage in the learning process and when they feel respected, trusted, and treated fairly by their teachers they unleash their forces to achieve academic outcomes. Though we have to notice that students recognize the practice of calling their names by the teacher as a motivating characteristic and rank it second right after the teacher's respect with an arithmetic mean (M=4.31). In the same vein, Susan et al (2004) have stated that teachers who convey a personal touch with their students call their students by name, smile often, ask about students' feelings and opinions, and accept students for who they are make them interested. Teachers place more emphasis on the relaxed study atmosphere and ranked second since they desire to develop a stress-free climate where learners can voice their ideas without any form of anxiety and above all to make them self-confident.

The last research question is as follows: How do teachers and students perceptions of the teachers' least important characteristics compare?

Table 6: Teachers' and Students' Perceptions of Teachers Least Important Characteristics.

Teachers' characteristics	*Students*			*Teachers*		
	Score	*Rank*	*Mean*	*Score*	*Rank*	*Mean*
-Your teacher develops a good relationship with you.	800	7th	4.00	/	/	/
- Your teacher knows better your learning needs.	784	8 th	3.92	/	/	/
- Encouraging interest among your students.	/	/	/	86	7th	4.10
- Your teacher knows better your learning needs.	/	/	/	75	8th	3.57

Source: Made personally

From table six mentioned above, it is crystal clear that both students and teachers agree to disregard the teacher practice of 'knowing better your needs' as a motivational practice by giving it

the lowest means (M=3.92) and (M=3.57) respectively. This means one clear point, teachers are not actually close enough to their students and their needs are not known to them since they are not catered for. In fact, this finding runs in the opposite direction of what educators, researchers and the literature suggest as developed previously in this paper. Students' needs are part and parcel of the teaching learning context and contribute effectively in boosting learners' motivation. Yet, teachers had better pay attention to their students' needs by being much closer, developing strong and positive relationships and eliciting from them what they practically require not only in terms of needs but in terms of wants and lacks as well doing a needs analysis about learners' language goals and needs to succeed in creating interest in learning and among learners themselves.

Conclusion

To sum up, in our study we have addressed several research questions and attempted to bring them adequate answers from the gathered data. The findings of this study disclose that students and teachers seem to have slight differences in their perceptions of which teacher practices are more influential than others on their motivation to learn the English language in the classroom context. There was little difference between the rankings of the students and those of the teachers. This suggests that both students and teachers view the teaching practices that will increase their motivation to learn from a different angle. This indicates as well that it would be better and more effective for teachers to see the learning process form the learners' eye to have a full and precise picture of what they really need in terms of teaching practices which enhance their motivation and boost it. Teachers should bear in mind that the angle from which they see things in the classroom context is not necessarily the same as that of their learners. Hence, they need to see their teaching with a learning eye so as to cater for learners' needs and interests regardless of well-designed textbooks, suitable curriculums and teaching methods.

After all, I would like to point out that the present study could offer only a tentative ranking of some teachers'charateristics. The investigation did not include the testing of the learning benefits of teacher characteristics or their actual importance, but rather yielded perceived measures. Then, our understanding of motivation leaves room for intervention and further research following an experimental design is needed to examine the extent to which these characteristics actually function in the classroom, and specify the necessary conditions for and constraints of their use to help English language teachers to boost their students' motivation and hence improve their learning behaviour.

References

Amel Shoaib & Zoltán Dörnyei, 2005, Affect in life-long learning: Exploring L2 motivation as a dynamic process, In P. Benson & D. Nunan (Eds.), *Learners' stories: Difference and diversity in language Learning, Cambridge*: Cambridge University Press, p.23

Aregbeyen Omo, Students Perceptions of Effective Teaching and Effective Lecturer Characteristics at the University of Ibadan, Nigeria, *Pakistan Journal of Social Sciences,* Vol.7, No.2, 2010, p.63

Awang Mohidin Rosle, Jaidi Junainah, Lim Thien Sang & Osman Zaiton, Effective Teaching Methods and Lecturer Characteristics a Study on Accounting Students at Universiti Malaysia Sabah (UMS), *European Journal of Social Sciences*, Vol. 8, No 1, 2009, p. 24

Aysha Fleming & Clare Hiller, Rapport in the classroom: Problems and strategies, *Critical Literacy: Theories and Practices,* Vol. 3, No. 2, 2009, p92

Beth Haslett, 1987, *Communication: Strategic Action in Context*, Hillsdale, N.J.: Lawrence, Erlbaum Associates, Publishers, p.196

Bridget, K. Hamre & Robert C. Pianta, 2006, Student-Teacher Relationships. In G.Bear and Kathleen M. (Ed.), Minke.*Children's Needs III*: Development, prevention and Intervention, Bethesda, MD: National Association of School Psychologists, p.49

Chen Yu-Jung & Lin Shih-Chung, Exploring Characteristics for Effective EFL Teachers from the Perceptions of Junior High School Students in Tainan, *STUT Journal of Humanities and Social Sciences*, No.2,2009, pp.223-226

Dale Carnegie, 1981, *How to win friends and influence people*, Revised Edition, New York: Simon & Schuster, p. 83

Daniel Rogers, The Working Alliance in Teaching and Learning: Theoretical Clarity and Research Implications, *International Journal for the Scholarship of Teaching and Learning*, Vol. 3, No. 2, 2009, p.4

James H. Stronge,2007,*Qualities of Effective Teachers*, Association for Supervision & Curriculum Development,2nd edition, Alexandria, Virginia,pp.22-23

Jiang Wenying & Ramsay Guy, Rapport-Building through CALL in Teaching Chinese as a Foreign Language: An Exploratory Study, *Language Learning & Technology,* Vol. 9, No. 2, 2005, p. 48

John Waite Bowers, Classroom communication apprehension: A survey, *Communication Education*, Vol.35, No .4.1986, pp.372-378

Jun-Kai Wang, Stimulating students' motivation in foreign language teaching, *US-China Foreign Language*, Vol.6, No.1, 2008, p.33

Harry G Murray, 1985, Classroom teaching behaviors related to college teaching effectiveness, In J. G. Donald & A. M. Sullivan (Eds.), *Using research to improve teaching*, New directions for teaching and learning, No. 23. San Francisco: Jossey-Bass, pp.21-34

Kumar Singh Yogesh & Nath Ruchka, 2005, *Teaching of Psychology*, Kul Bhushan Nangia, APH Publishing Corporation, p.91

Linda S. Lumsden, Student Motivation to Learn. *ERIC Clearinghouse on Educational Management*, 1994, Retrieved from: http://www.ericdigests.org/1995-1/learn.htm on Tuesday, March12th, 2013.

Madrid, D., Robinson, B., Hidalgo, E. Gomis, A. Verdejo, M. J., Ortega, J. L. "The Teacher as a Source of Motivation in the EFL Classroom", *International Conference of Applied Linguistics*, Universidad de Granada, 11-15 de enero de 1993, p. 493

Maria-Teresa Claridge & Tony Lewis, 2005, Coaching for Effective Learning: *A practical guide for teachers in health and social care*, Oxford, Seattle, Radcliff Publishing, p.15

Marion William & Robert Burden, 1997, *Psychology for language teachers*, Cambridge: Cambridge University Press, pp.ix-x

Mercè Bernaus, 2010, Language Classroom Motivation, In R.C Gardner's *Motivation and second language acquisition*: The socio-educational model, New York: Peter Lang Publishing, Inc.p185

Rebecca Oxford & Jill Shearin, Language learning motivation: Expanding the theoretical framework, *The Modern Language Journal*, Vol. 78, No.1, 1994, p.14

Susan Thompson, John G. Greer, Bonnie B. Greer, Highly Qualified for Successful Teaching: Characteristics Every Teacher Should Possess, *Essays in Education Online Journal*, Vol.10, 2004.

Yang Yunbao, The Importance of the Teacher for Developing Interest in Learning English by Chinese Students, *International Education Studies*, Vol. 1, No. 1,2008, p.98

Zhan Suxian & Le Thao, Interpersonal Relationship between Teachers and Students: An Intercultural Study on Chinese and Australian Universities, *Paper Presented at the Australian Association for Research in Education (AARE) Conference: Doing the Public Good*, University of Melbourne, 28 November – 2 December 2004, pp.5-7

Zoltán Dörnyei & Kata Csizér, Ten commandments for motivating language learners: Results of an empirical study, *Language Teaching Research*, Vol.2, No.3, 1998, pp.203-229

Zoltán Dörnyei, 2001, *Motivational strategies in the language classroom*, Cambridge: Cambridge University Press, pp.34-36

Zoltán Dörnyei, 2005, The psychology of the language learner: Individual differences in second language acquisition, Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum, p.115

Zoltán Dörnyei, Motivation in second and foreign language learning, *Language Teaching*, Vol.31, No.3, 1998, p.117

Zoltán Dörnyei & Ema Ushioda, 2011, *Teaching and researching motivation*, 2nd edition, Harlow: Longman, p.14

Appendix

	Questionnaire about Students' and Teachers' Perceptions of some Teacher Characteristics. -Please put a cross next to each statement according to how important you perceive it for (your motivation) students' motivation to learn the English language.	Not important	Somewhat important	Moderately important	Important	Very important
		1	2	3	4	5
1	The teacher develops a good relationship with students.					
2	The teacher is a respectful person. He/she respects all students.					
3	The teacher knows better students' learning needs.					
4	The teacher encourages interest among students.					
5	The teacher addresses students by their names.					
6	The teacher creates a relaxed classroom study atmosphere.					
7	The teacher takes care of students.					
8	The teacher selects interesting topics for students.					

Source: Made personally

Family Name:.....

Age (in years):.....

Gender (circle what applies): M ☐ F ☐

Thank you so much for your time